شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ ق

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 015658055

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

JUN 15 2014

Ibn Abī al-Ḥadīd

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء التاسع عشر

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

2264
.1067
.741
1985
juz' 10

2274
.8758
.741
1985
juz' 10

2264
.1067
.741
1985
juz' 19-20

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م – ١٣٨٧ هـ)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤هـ ق

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 015658055

بيـــان

يشتمل هذا الجزء على شرح طائفة من مختار حكم أمير المؤمنين ، ومواعظه وأجوبة مسائله والكلام القصير الخارج فى سائر أغراضه ؛ وهو القسم الثانى مما اختاره له الشريف الرضىّ فى كتاب " نهج البلاغة " ؛ وينتهى هذا القسم فى أثناء الجزء التالى .

وقد روجع على الجزء الرابع من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها المحفوظ بمكتبة المتحف البريطانى برقم ١٢٦ ، وهى التى رمزت لها بالحرف ا .

وأصل هذا الجزء يقع فى ٩٠ ورقة مسطرتها ٢٥ سطرا ، فى كلّ سطر ١٣ كلمة تقريبا، مكتوب بخط نسخ معتاد قليل الشكل ، ولم يتّضح اسم ناسخه ولا تاريخ نسخه ، ويبدو أنه كتب فى القرن الحادى عشر .

كما روجع على مايقابله من المجلد الأخير من النسخة المحفوظة بدار الكتب برقم ١٨٦٨ ـ أدب ؛ وهى التى رمزت لها بالحرف د ، وسبق وصفها فى مقدمة الجزء السادس عشر من هذه الطبعة . وعلى النسخة المطبوعة فى طهران سنة ١٢٧١ عن أصلها المخطوط فى هذا التاريخ ، والتى رمزت لها بالحرف ب .

والله الموفق للصواب .

٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٣هـ
٢٨ يوليه سنة ١٩٦٣ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ ـ ٦٥٦)

تحقيق

محمد ابو الفضل ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

(١٨٦)

الأصْلُ :

إِنَّمَا الْمَرْءُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا ، وَنَهْبٌ تُبَادِرُهُ الْمَصَائِبُ ؛ وَمَعَ كُلِّ جُرْعَةٍ شَرَقٌ ، وَفِي كُلِّ أُكْلَةٍ غَصَصٌ ، وَلَا يَنَالُ الْعَبْدُ نِعْمَةً إِلَّا بِفِرَاقِ أُخْرَى ، وَلَا يَسْتَقْبِلُ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا بِفِرَاقِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ ؛ فَنَحْنُ أَعْوَانُ الْمَنُونِ ، وَأَنْفُسُنَا نَصْبُ الْحُتُوفِ ، فَمِنْ أَيْنَ نَرْجُو الْبَقَاءَ ؛ وَهَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ لَمْ يَرْفَعَا مِنْ شَيْءٍ شَرَفاً ، إِلَّا أَسْرَعَا الْكَرَّةَ فِي هَدْمِ مَا بَنَيَا ، وَتَفْرِيقِ مَا جَمَعَا !

* * *

الشَّرْحُ :

قد سبق ذرء[(١)] من هذا الكلام فى أثناء خطبته عليه السلام ، وقد ذكرنا نحن أشياء كثيرةً فى الدنيا وتقلّبها بأهلِها .

ومن كلام بعض الحكماء : طوبَى للهارب من زخارف الدنيا ، والصادّ عن زَهرة دِمْنَتِها ، والخائف عند أمانها ، والمتّهم لضمانها ، والباكى عند ضحكها إليه ، والمتواضع عند إعزازها له ، والناظر بعين عقله إلى فضائحها ، والمتأمّل لقبح مصارعها ، والتارك

(١) ذرء : أى طرف .

لكلابها على جِيَفها ، والمكذّب لمواعيدها ، والمتيقظ لخدَعها ، والمعرِض عن لُمعها ، والعامل فى إمهالها، والمتزوّد قبل إعجالها .

قوله : « تنتضل » النَّضْل شىء يرمى ، ويروى « تبادره » أى تتبادره ، والغرض : الهدف .

والنّهب : المال المنهوب غنيمة ، وجمعه نِهاب .

وقد سبق تفسير قوله : « لاينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى » ، وقلنا : إنّ الّذى حصلت له لذّة الجماع حالَ ماهى حاصلة له، لابدّ أن يكون مفارقاً لذّة الأكل والشرب، وكذلك من يأكل ويشرب يكون مفارقاً حال أكله وشربه لذّةَ الرّكْض على الخيل فى طلب الصّيد ، ونحوذلك .

قوله : « فنحن أعوان المنون »؛ لأنّا نأكل ، ونشرب، ونجامع ، ونركب الخيل، والإبل ، ونتصرّف فى الحاجات والمآرب؛ والموت إنما يكون بأحدهذه الأسباب ،إمامن أخلاط تحدثها المآكل والمشارب ، أو من سقطة يسقط الإنسان من دابّة هو راكبها ، أو من ضعف يلحقه من الجماع المفرِط ، أو لمصادمات واصطكاكات تصيبه عند تصرفه فى مآربه وحركته وسعيه ، ونحو ذلك ؛ فكأنّا نحن أعنّا الموت على أنفسنا .

قوله : « نصب الحتوف » يروى : بالرفع والنصب ، فمن رفع فهو خبر المبتدأ ،ومن نصبه جعله ظرفا .

(١٨٧)

الأصلُ :

لَا خَيْرَ فِي الصَّمْتِ عَنِ الْحُكْمِ ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ بِالْجَهْلِ .

***

الشرحُ :

قد تكرّر ذِكرُ هذا القول ، وتكرّر منا شرحُه [1] وشرحُ نظائره .
وكان يقال : ما الإنسان لولا اللسانُ إلّا بهيمةٌ مُهمَلة ، أو صورةٌ ممثَّلة .
وكان يقال : اللّسان عضوٌ إنْ مرّنْتَه مَرَن [2] ، وإن تركتَه خَزِن [3] .

---

(١) ا « شرح له » .
(٢) ا : « مَرِن » .
(٣) خزن : تغير وفسد .

(١٨٨)

الأصْلُ

يابْنَ آدَمَ ، ما كَسَبْتَ فَوْقَ قُوتِكَ ، فَأَنْتَ فِيهِ خَازِنٌ لِغَيْرِكَ .

* * *

الشَّرْحُ :

أَخَذ هذا المعنى بعضُهم ؛ فقال :

مالى أراكَ الدّهــــر تجمعُ دائباً ... أَلِبَعْلِ عِرْسِك لا أبالك تجمعُ !

وعاد الحسنُ البَصريُّ عبدَ الله بن الأهتم فى مرضه الّذى مات فيه ، فأقبل عبدُ الله يَصرِف بصرَه إلى صُندوق فى جانب البيت ، ثم قال للحسن : ياأبا سعيد ، فيه مائةُ ألفٍ لم يؤدَّ منها زكاة ، ولم توصَل بها رَحِم ؛ قال الحسَن : ثَـكِلَتْك أمُّك ! فلِمَ أعددْتَها ؟ قال : لرَوْعة الزّمان ، ومُـكاثرة الإخوان ، وجفوة السلطان .

ثم مات ، فحضر الحسن جنازتَه ، فلمّا دُفن صَفَق[1] بإحدى راحتَيْه الأُخرى،وقال: إنّ هـذا تاهَ شَيْطانه ، فحذّرَه رَوْعة زمانه ، وجفوَة سلطانه ، ومكاثَرة إخوانه ، فيما أُستودَعَه اللهُ إيّاه فادّخره ؛ ثمّ خرج منه كئيبا حزينا ، لم يؤدِّ زَكاةً ، ولم يَصِلْ رَحِماً. ثمّ التفت فقال : أيّها الوارث ، كلْ هنيئا ، فقد أتاكَ هذا المالُ حلالا ، فلا يكن عليك وَبالا ، أتاك ممّن كان له جَموعا مَنوعا ، يرَكب فيه لُجَجَ البحار ، ومَفاوِزَ القِفار، مِن باطلٍ جَمَعه ، ومن حَقٍّ مَنَعه ، لم ينتفِـع به فى حياته ، وضرّه بعد وفاته ، جمعه فأَوْعاه ، وشدّه فأَوْكاه[2] إلى يوم القيامة ؛ يومٍ ذِى حَسَرات ، وإنّ أعظَمَ الحسَرات أن ترَى مالَك فى ميزانِ غـيرِك ؛ بخلتَ بمـالٍ أُوتيتَه من رِزقِ الله أنْ تُنفِقه فى طاعة الله ، فخزنتَه لغـيرِك ، فأنفقَه فى مرضاة ربِّه ، يالها حَسْرةً لا تُقَال ، ورحمةً لا تُنال ! إنّا لله وإنّا إليه راجعون !

---

(١) صفق بإحدى راحتيه الأخرى أى ضرب عليها .

(٢) أوكاه : أحكم رباطه ، من الوكاء ؛ وهو رباط القربة .

(١٨٩)

الأَصْلُ :

إِنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًا ، وَإِدْبَاراً ؛ فَأْتُوهَا مِنْ قِبَلِ شَهْوَتِهَا وَإِقْبَالِهَا ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى هذا المعنى .

والعِلّة فى كون القلب يَعمَى إذا أُكرِه على ما لا يحبّه ، أنّ القلبَ عُضو من الأعضاء ، يَتعَب ويستريح كما تتعب الجُثّة عند استعمالها وأحمالِها ، وتستريح عند تَرْك العَمَل ، كما يتعب اللّسان عند الكلام الطويل ، ويستريحُ عند الإمساك ، وإذا تَواصَل[1] إكراه القلبِ على أمرٍ لا يحبّه ولا يؤثِرُه تَعِب ، لأنّ فِعلَ غير المحبوبِ مُتعِب ؛ ألا ترى أنّ جِماعَ غيرِ المَحْبوب يُحدِث من الضَّعف أضعافَ ما يُحدِثه جِماعُ المَحْبوب ؛ والرّكوب إلى مكان غيرِ محبوبٍ مُتعِب ولا يُشْتَهى يُتعِب البدَن أضعافَ ما يُتعِبه الركوب إلى تلك المسافة إذا كان المكان محبوبا ، وإذا أُتعِب القلب وأعْيا ، عجَز عن إدراك ما نكلفه إدراكه ، لأنّ فعلَه هو الإدراك ، وكلّ عضو يتعَب فإنه يَعجَز[2] عن فعلِه الخاصّ به ، فإذا عجز القلبُ عن فِعلِه الخاصّ به وهو العِلم والإدراك ؛ فذاك هو عماه .

---

(١) ا : « توصل » .

(٢) ا : « عاجز » .

(١٩٠)

الأصْلُ :

وكان عليه السلام يقول :

مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إذَا غَضِبْتُ ! أَحِينَ أَعْجَزُ عَنِ ٱلانْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي : لَوْ صَبَرْتَ ! أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَيُقَالُ لِي : لَوْ عَفَوْتَ !

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الغَضَب مرارا .

وهذا الفصل فصيحٌ لطيفُ المَعْنى ؛ قال : لا سبيل لى إلى شفاء غَيْظى عند غضبى ، لأنّى إمّا أن أكون قادرا على الانتقام فيصدّنى عن تعجيلِه قولُ القائل : لو غَفرتَ لكان أولى ! وإمّا ألّا أكون قادرا على الانتقام فيصدّنى عنه كونى غيرَ قادرٍ عليه ؛ فإذَنْ لا سبيلَ لى إلى الانتقام عند الغضب .

وكان يقال : العقل كالمِرآة المجلوّة يُصْدِئه الغَضَب ، كما تَصْدَأ المرآة بالخلّ ، فلا يَثبتُ فيها صورةُ القُبْح والحُسْن .

واجتمع سُفيان الثَّوْرىُّ وفُضَيل[١] بنُ عِياض فتذاكرا الزّهدَ ، فأجمعا على أنَّ أفضل الأعمالِ الحِلمُ عند الغضب ، والصبرُ عند الطّمَع .

---

(١) ا : « الفضل » .

(١٩١)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ وقَدْ مَرَّ بِقَذَرٍ على مَزْبلةٍ : هَذَا مابَخِلَ بِهِ الْباخلونَ .
وفِي خبَرٍ آخَرَ أنَّهُ قال : هَذَا ما كُنْتُمْ تَتَنافَسُون فيه بالأَمْس !

***

الشَّرح :

قد سبق القولُ فى مثل هذا ، وأن الحَسَن البَصرىَّ مرّ على مَزْبَلَة ، فقال : انظروا إلى بَطِّهم ودَجاجهم وحَلْوائهم وعَسَلهم وسَمْنهم ؛ والحَسَن إنما أخذه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال ابن وَكيع فى قول المتنبّى:

لو أفـكَر العاشقُ فى مُنتهى   حُسنِ الذى يَسبيه لم يَسبِهِ [(١)]

إنه أراد : لو أفـكَر فى حاله وهو فى القبر ، وقد تغـيّرتْ محاسنُه ، وسالت عَيْناه ، قال : وهذا مثلُ قولهم : لو أفـكَر الإنسان فيما يئول إليه الطعام لعافَتْه نفسُه .

وقد ضَرَب العلماء مَثَـلا للدنيا ومخالفة آخرِها أولها ، ومضادّة مَباديهـا عَواقبها ، فقالوا : إنّ شهوات الدنيـا فى القَلب لذيذةٌ كشَهوات الأَطْعِمة فى المعـدة ، وسَيجِد الإنسان عند الموت لِشهوات الدنيا فى قلبه من الـكَراهة والنَّتْن والقبح مايَجده للأطعمة اللّذيذة إذا طبختها المَعِـدة وبلغتْ غايةَ نُضْجها ، وكما أن الطعام كلّما كان ألذَّ طَعْما وأظهر حلاوة ، كان رجيعه أقذر وأشدّ نَتْنا ؛ فـكذلك كلُّ شهوة فى القلبْ أشهى وألذّ وأقوى ،

---

(١) ديوانه ١ : ٢١٢ .

فإنّ نتنها وكراهتها والتأذّى بها عند الموت أشدّ ، بل هذه الحال فى الدّنيا مُشاهدة ، فإن [من] (١) نُهبتْ دارُه ، وأُخذ أهلهُ وولدهُ ومالُه ، تكون مصيبتهُ وألمه وتفجّعه فى الذى فَقَدَ بمقدار لذّته به ، وحبّه له ، وحرصه عليه ، فكلُّ ما كان فى الوجود أشهى وألذّ ، فهو عند الفَقْد أدهى وأمرّ ، ولا معنى للموت إلّا فقد مافى الدنيا .

وقد رُوى أنّ النبىّ صلى الله عليه وآله قال للضحّاك بن سُفْيان الكلابىّ : ألست تُؤتَى بطعامك وقد قُزِّح وملح (٢) ، ثم تشرب عليه اللّبنَ والماء ! قال : بلى ، قال : فإلى ماذا يصير ؟ قال : إلى ماقد علمتَ يارسولَ الله ؛ قال : فإنّ الله عزّ وجلّ ضَرَب مَثل الدّنيا بما يصير إليه طعام ابن آدمَ .

وَرَوَى أبىّ بن كعب أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن أنتَ ضربتَ مثلا لابن آدم فانظر مايَخرُج من ابن آدم ، وإن كان قَزْحه وملحُه إلى ماذا صار .

وقال الحسَن رحمه الله : قد رأيتُهم يطيّبونه بالطّيب والأفاويه (٣) ثمّ يرمونه حيث رأيتم ، قال الله عز وجلّ : ﴿ فلْينظر الإنسانُ إلى طعامه ﴾ (٤) ، قال ابن عباس : إلى رَجيعِه .

وقال رجل لابن عمر : إنّى أريد أن أسألك وأستحيى ، فقال : لاتَستَحْيِ وسَلْ ؛ قال : إذا قَضَى أحدُنا حاجته فقام ، هل ينظر إلى ذلك منه ؟ فقال : نعم ، إن المَلَكَ يقول له : انظُر هذا مابَخلتَ به ، انظُر إلى ماذا صار !

---

(١) تكملة من د .
(٢) يقال : قزح القدر كمنع ؛ جعل فيها بزر البصل والتابل .
(٣) الأفاويه : جمع أفواه ؛ وهى التوابل .
(٤) سورة عبس ٢٤ .

(١٩٢)

الأصْلُ :

لَمْ يَذْهَبْ منْ مالكَ ما وَعَظَكَ .

***

الشَّرْحُ :

مثل هذا قولهم : إن المصائبَ أثمانُ التَّجارب .

وقيل لعالم فقير بعد أن كان غنيًا : أين مالك ؟ قال : تَجَرتُ[١] فيه فابتعتُ بهِ تجربةَ الناس والوقت ، فاستفدْتُ أشرَفَ العِوَضَين[٢] .

---

(١) ا : « تاجرت » .   (٢) ا : « الشيئين » .

(١٩٣)

الأصْلُ

إنَّ هَذِه القُلُوبَ تَمَلُّ كما تَمَلُّ الأبْدَانُ ، فابْتغُوا لها طَرَائِفَ الحِكْمَةِ .

***

الشرح :

هذا قد تكرّر ، وتكرّر منّا ذِكرُ ماقيل فى إجمام النّفس والتنفيس عنها من كَرْب الجِدّ والإحماض[1] وفسرنامعنى قولهِ عليه السلام : «فابتغُوا لها طرائف الحكمة» وقلنا : المراد ألّا يجْعَلَ الإنسانُ وقته كلّه مصروفاً إلى الأنظار العقليّة فى البراهين الكلاميّة والحِكَمية ، بل ينقلها من ذلك أحيانا إلى النظر فى الحِكمة الخُلقيّة فإنها حِكمة لا تحتاج إلى إتعاب النفس والخاطر .

فأمّا القول فى الدُّعابة فقد ذكرْناه أيضا فيما تقدّم ، وأوضحْنا أنّ كثيرا من أعيان الحكماء والعلماء كانوا ذوى دُعابة مقتصدة لا مسرِفة ، فإن الإسراف فيها يُخرِج صاحبه إلى الخلاعة ، ولقد أحسنَ من قال :

أفدْ طبعَكَ المكدودَ بالجِدّ راحةً ... تجمّ وعَلِّله بشىء من المَزْحِ[2]
ولكنْ إذا أعطيْته ذاكَ فليَكُنْ ... بمقدارِ ما يُعطى الطعامُ من المِلْحِ[3]

---

(١) الإحماض : التنقل من الجد إلى المزح .
(٢) المكدود : المجهد .
(٣) أى على قدر من الاعتدال .

(١٩٤)

الأصْلُ

وقال عليه السلامُ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ الخوارجِ : لا حُكْمَ إلَّا لِلهِ ، كلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ .

***

الشَّرْحُ :

معنى قوله سبحانه : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلهِ ﴾ (١) ، أى إذا أراد شيئاً من أفعالِ نفسه فلابدّ من وقوعه ، بخلاف غيره من القادرين بالقدرة فإنه لا يجب حصولُ مرادهم إذا أرادوه ، ألا ترى ماقبل هذه الكلمة : ﴿ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلوا من بابٍ واحدٍ وادْخُلوا من أبوابٍ متفرِّقةٍ وما أُغْنِى عَنْكُم مِّنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ إنِ الْحُكْمُ إلَّا لله ﴾ خاف عليهم من الإصابة بالعين إذا دخلوا من بابٍ واحد ، فأمرهم أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة،ثم قال لهم:« وما أُغنِى عنكم من الله من شىء »،أى إذا أراد الله بكم سوءاً لم يَدفع عنكم ذلك السُّوء ما أشرتُ به عليكم من التفرّق ؛ ثم قال : ﴿ إن الحكْم إلا لله ﴾ أى ليس حىٌّ من الأحياء يَنْفُذُ حكمه لا محالة ومرادُه لما هو من أفعاله إلّا الحىّ القديم وحدَه ، فهذا هو معنى هذه الكلمة،وضلّت الخوارج عندها فأنكروا على أمير المؤمنين عليه السلام موافَقَته على التحكيم؛وقالوا : كيف يحكم وقد قال الله سبحانه : ﴿ إن الحكْمُ إلا لله ﴾ ، فغلَطوا لموضع اللّفظ المشترك ، وليس هذا الحُكم هو ذلك الحكْم ، فإذَنْ هى كلمةُ حقّ يرادُ بها باطل ، لأنّها حقٌّ على المفهوم الأوّل ، ويريد بها الخوارجُ نفىَ كلّ مايسمّى حكما إذا صَدر عن غير الله تعالى ، وذلك باطل ، لأنّ الله تعالى قد أمضى حُكم المخلوقين فى كثيرٍ من الشرائع .

(١) سورة يوسف ٦٧ .

(١٩٥)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ في صِفة الْغَوْغاءِ :

هُمُ الَّذِينَ إذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا ، وإذَا تفرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا .

وقيل : بَلْ قال عليهِ السلام : هُمُ الَّذِينَ إذَا اجْتَمَعُوا ضرُّوا ، وإذا تفرَّقُوا نفعوا، فَقِيلَ : قَدْ عَلِمْنا مَضَرَّةَ اجْتِماعِهِمْ ، فما مَنْفَعةُ افْتِرَاقِهِم ؟ فقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَرْجِعُ أهلُ الْمِهَنِ إلَى مِهنِهِمْ ، فَيَنْتَفِعُ النَّاسُ بِهِمْ ، كَرُجُوعِ الْبَنَّاءِ إِلَى بِنائِهِ ، والنَّسَّاجِ إِلَى مَنْسَجِهِ ، والخَبَّازِ إلَى مَخْبَزِهِ .

***

الشَّرْحُ :

كان الحسن إذا ذكر الغَوْغاء وأهل السّوق قال : قتلة الأنبياء ؛ وكان يقال: العامّة كالبحر إذا هاج أهْلَكَ راكبه . وقال بعضهم : لا تسبُّوا الغَوْغاء فإنهم يُطْفِئون الحريق، ويُنقِذون الغريق ، ويسُدّون الْبُثوق [١] .

وقال شيخنا أبو عثمان : الفاغَة والباغة [٢] والحاكة كأنّهم أعذارُ عامٍ واحد ، ألا ترى أنك لا تجد أبداً في كلّ بلدةٍ وفي كل عصر هؤلاء بمقدارٍ واحد وجهةٍ واحدة من السُّخْف والنَّقْص والخمول والغباوة ؛ وكان المأمون يقول : كلّ شرّ وظُلْم [٣] في العالم

---

(١) البثوق : الشقوق في الأنهار . (٢) الباغة : الحمقى .

(٣) في د : « وضر » .

فهو صادرٌ عن العامّة والغوْغاء، لأنهم قتلة الأنبياء والمُغْرُون[١] بين العلماء، والنمّامُون بين الأوِدّاء[٢]، ومنهم اللصوص، وقُطّاع الطّريق، والطّرّارون[٣]، والمحتالُون والساعون إلى السلطان[٤]، فإذا كان يوم القيامة حُشِروا على عادتهم في السّعاية فقالوا: ﴿ رَبَّنا إنَّا أطَعْنا سادَتنا وكبَراءنا فأضَلُّونا السّبيلا * رَبَّنا آتِهِم ضِعْفَين مِنَ العذابِ والْعَنْهُمْ لعناً كبيرا ﴾[٥].

(١) في د «والمفرقون».
(٢) في د «الأولياء».
(٣) الطرارون: «المروجون للسلع».
(٤) ا: الحكام.
(٥) سورة الأحزاب ٦٧.

(١٩٦)

الأصْلُ :

وَقَالَ عَلَيه السلام وَقَدْ أُتِيَ بِجانٍ وَمَعَهُ غَوْغَاءُ فقَالَ :

لَامَرْحَباً بِوُجُوهٍ لَاتُرَى إلَّا عِنْدَ كُلِّ سَوْأَةٍ .

***

الشَّرْحُ :

أخذ هذا اللّفظ المستعينُ بالله وقد أُدْخِلَ عليه ابنُ أبي الشَّوارب القاضي ومعه الشّهود لِيَشهَدوا عليه أنّه قد خَلَع نفسه من الخلافة و بايَع المعتزّ بالله ، فقال: لا مرحبا بهذه الوجوه التي لا تُرَى إلّا يوم[1] سوء .

وقال من مدح الغَوْغاء والعامّة : إنّ في الحديث المرفوع : إنّ الله يَنصرُ هذا الدّين بقوم لا خَلاقَ لهم .

وكان الأحنفُ يقول : أكرِموا سُفهاءكم فإنّهم يكفُونَكم النارَ والعَار .

وقال الشاعر :

وإنّي لأستبقي امرأ السّوء عُدّةً ... لَعدْوةِ عرِّيض من الناسِ جائِبِ[2]

أخافُ كلابَ الأبْعدِين وهَرْشَها ... إذا لم تُجاوِبْها كِلابُ الأقارِبِ

---

(١) د « إلا عند السوء » .

(٢) الجائب : المتنقل من مكان إلى مكان .

(١٩٧)

الأصْلُ :

إنَّ مَعَ كُلِّ إنْسَانٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ ، فَإذَا جَاءَ الْقَدَرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإنَّ الْأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ .

الشَّرح :

قد تقدّم هذا ، وقلنا : إنّه ذهب كثيرٌ من الحكماء هذا المَذهَب ، وإنّ لله تعالى ملائكةً مُوَكَّلَةً تَحفَظُ البَشرَ من التردِّى فى بئرٍ ، ومِن إصابةِ سَهْم معترض فى طريق ، ومن رَفْس دابّة ، ومن نَهْش حَيّة ، أو لَسْع عَقْرب ، ونحو ذلك . والشرائع أيضاً قد وردتْ بمثله [وإنّ][1] الأجَل جُنّة ، أى دِرْع ، ولهذا فى علم الكلام مَخرَج صحيحٌ ، وذلك لأن أصحابنا يقولون : إنّ الله تعالى : إذا عَلِم أنّ فى بقاء زيدٍ إلى وقت كذا لُطْفاً له أو لغيرِه من المكلّفين صدَّ من يهمّ بقَتْله عن قتلِه بألطافٍ يفعَلها تصدُّه عنه أو تَصرِفه عنه بصارف ، أو يَمنَعه عنه بمانع ، كى لا يَقطَع ذلك الإنسانُ بقَتل زيدٍ الألطافَ التى يَعلَمُ اللهُ أنّها مقرِّبة من الطاعة ، ومُبعِدة من المَعصِية[2] لزيد أو لغيره ، فقد بان أنّ الأجل على هذا التقدير جُنّة حَصِينة لزيْد ، من حيثُ كان الله تعالى باعتبار ذلك الأجل مانعاً من قتله وإبطال حياتِه ، ولا جُنّة أحصَنُ من ذلك .

---

(١) من د ، وفى ب : « وأما » .

(٢) د « عن القبيح » .

(١٩٨)

الأصْـلُ :

وقال عليه السلام : وقَدْ قالَ لَهُ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ : نُبايِعُكَ عَلَى أَنَّا شُرَكاؤُكَ فِي هذَا الْأَمْرِ ؛ فقالَ :

[لا][1] : وَلكِنَّكُما شَرِيكَانِ فِي الْقُوَّةِ وَالاسْتِعانَةِ ، وَعَوْنانِ عَلَى الْعَجْزِ وَالْأَوَدِ .

***

الشَّـرْحُ :

قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم حيث شرحْنا بيعة المسلمين لعليّ عليه السلام كيف وقعتْ بعدَ مقتل عثمانَ ، ولقد أحسنَ فيما قال لهما لمّا سألاه أن يُشرِكاه فى الأمْر ، فقال : أمّا المُشارَكة فى الخلافة فكيف يكون ذلك ؟ وهل يصحُّ أن يدبّر أمرَ الرعيّة إمامان !

* وهل يُجْمَع السَّيفَان ويحك فى غمْدِ[2] *

وإنما تُشرِكانى فى القوّة والاستعانة أى إذا قوِىَ أمرى وأمرُ الإسلام بى قويتما أنتما أيضا ، وإذا عجزتُ عن أمرٍ ، أو تأوّد علىّ أمرٌ – أى أعوجّ – كنتما عوْنين لى ومساعِدَيْن على إصلاحِه .

فإن قلت : فما معنى قوله : « والاستعانة » ؟

قلتُ : الاستعانة ها هنا الفوزُ والظفَرُ ، كانوا يقولون للقامِر يفوز قِدْحه : قد جرَى ابنا عِنان . وهما خطّان يُخطّان فى الأرض يُزجر بهما الطير ، واستعانَ الإنسانُ ، إذا قال وقتَ الظفَر والغلَبة هذه الكلمة .

---

(١) تكملة من « د » .

(٢) عجز بيت لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

* تريدين كيْماَ تجْمعِينِي وَخالداً *

ديوان الهذليين ١ : ١٥٩ .

(١٩٩)

الأصْـلُ :

أيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقُوا اللهَ الَّذِى إنْ قُلْتُمْ سَمِعَ ، وَإنْ أضْمَرْتُمْ عَلِمَ ، وَبَادِرُوا المَوْتَ الَّذِى إنْ هَرَبْتُمْ مِنْـهُ أدْرَكَكُمْ ، وَإنْ أقَمْتُمْ أخَـذَكُمْ ، وَإنْ نَسِيتُمُوهُ ذَكَرَكُمْ .

***

الشَّـرْحُ :

قد تقدّم منّا كلامٌ كثير فى ذكر الموت ؛ ورأى الحسَنُ البَصرىُّ رجلاً يجود بنفْسه ، فقال : إنّ أمْراً هذا آخرُه ، لجدير أن يُزْهَد فى أوّله ، وإن أمراً هذا أوّله لجدِيرٌ أن يُخَاف مِن آخره .

ومن كلامِه : فَضَح المَوْتُ الدّنيا .

وقال خالدبنُ صَفْوان : لوقال قائل : الحَسَنُ أفصَحُ الناس لهذه الكلمة لما كان مخطئا.

وقال لرجل فى جنازةٍ : أترى هذا الميّت لو عادَ إلى الدّنيا لـكان يَعمَل عملا صالحا ؟ قال: نعم ، قال : فإن لم يكن ذلك فكن أنت ذاك .

(٢٠٠)

الأصْلُ :

لَا يُزَهِّدَنَّكَ فِي الْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَشْكُرُهُ لَكَ ، فَقَدْ يَشْكُرُكَ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، وَقَدْ يُدْرِكُ مِنْ شُكْرِ الشَّاكِرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَضَاعَ الْكَافِرُ ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .

الشَّرْحُ :

قد أخذتُ أنا هذا المعنَى فقلتُ من جملةِ قصيدةٍ لى حِكْميّة :

لاتُسدِيَنّ إلى ذى اللّؤم مَكرُمةً ... فإنّه سَبَخٌ لايُنبت الشجَرَا

فإنْ زرَعتَ فمحفوظٌ بمَضْيَعةٍ ... وأكْلُ زَرْعِك شكرُ الغَيْرِإن كَفرَا

وقد سبق منّا كلامٌ طويلٌ فى الشكر .

ورأى العبّاس بنُ المأمون يوماً بحضرة المعتصم خاتما فى يد إبراهيم بن المهدىّ ، فاستحسنَه ، فقال له : مافصُّ هذا الخاتم ، ومن أين حصّلته ؟ فقال إبراهيم : هذا خاتمٌ رهنتُه فى دولةِ أبيك ، وافتككْتُه فى دولةِ أمير المؤمنين ؛ فقال العبّاس : فإن لم تشكر أبى على حَقْنِه دَمَك ، فأنت لاتَشْكُر أميرَ المؤمنين على فكّه خاتمَك .

وقال الشاعر :

لَعَمْرُكَ ما المعروفُ فى غيرِ أهلِه ... وفى أهلِه إلّا كبعض الوَدائِع

فمستودَعٌ ضَاعَ الّذى كان عندَه ... ومستودِع ماعندَه غيرُ ضائعِ

وما النّاس فى شكرِ الصّنيعة عندهمْ ... وفى كفرها إلّا كبَعض المزارِع

فمزرَعةٌ طابتْ وأُضعِفَ نَبْتُها ... ومَزْرَعةٌ أكْدَت على كلِّ زارع

(٢٠١)

الأَصْلُ :

كُلُ وِعَاءٍ يَضِيقُ بِمَا جُعِلَ فِيهِ ، إِلَّا وِعَاءَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ يَتَّسِعُ بِهِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا الكلام تحته سرٌّ عظيم ، ورَمْزٌ إلى معنى شريف غامض ، ومنه أخذ مُثْبِتو النفس الناطِقَةِ الحجّة على قولهم ؛ ومحصولُ ذلك أن القُوَى الجسمانيّة يُكِلّها و يُتعبُها تكرارُ أفاعيلِها عليها ، كقوّة البصر يُتعِبها تكرار إدراك المَرْئِيّات ، حتّى ربّما أذهَبَها وأبطَلَها أصلا ، وكذلك قوّة السمع يُتعِبها تكرار الأصوات عليها ، وكذلك غيرها من القُوَى الجُسْمانيّة ، ولكنّا وجدْنا القوّة العاقلة بالعكس من ذلك [1] ، فإنّ الإنسان كلّما تكرّرتْ عليه المعقولات ازدادتْ قوّته العقليّة سَعةً وانبساطا واستعدادا لإدراكِ أمور أخرى غير ما أدركته من قبلُ ، حتّى كان تكرارُ المَعقولات عليها يَشْحذها [2] ويَصْقُلها ، فهى إذَنْ مخالفة فى هذا الحكم للقوى الجُسْمانية ، فلَيْست منها ؛ لأنّها لو كانت منها لكان حُكْمها حكمَ واحدٍ من أخواتها ، وإذا لم تكن جُسْمانيّة فهى مجرّدة ، وهى التى نسميها بالنفس الناطقة .

---

(١) ا : « هذا » .

(٢) يشحذها : يحدها .

(٢٠٢)

الأصْلُ :

أَوَّلُ عِوَضِ الحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ ،أنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَى الجَاهِلِ .

* * *

الشّرح

قد تقدّم من أقوالنا فى الحلْم مافى بعضه كفاية .

وفى الحِكَم القديمة : لاتَشِنْ حُسْنَ الظَّفَر بقُبْح الانتقام .

وكان يقال : اعفُ عمّن أبطأ عن الذّنب ، وأسرع إلى النّدم .

وكان يقال : شاور الأناة والتثبُّت ، وذاكِرِ الحفيظةَ (١) عند هَيجانها مافى عواقب العُقُوبة من النّدم ، وخاصِمْها بما يؤدّى إليه الحِلْم من الاغتباط .

وكان يقال : ينبغى للحازم أن يقدّم على عذابه وصفحِه تعريف المذُنِب بما جناه ، وإلاّ نُسِب حلمُه إلى الغَفْلة وكلال حدِّ الفِطْنة . وقالت الأنصار للنبّ صلى الله عليه وآله يومَ فتحِ مكّة : إنّهم فعلوا بك ثمّ فعلوا ؛ يُغْرُونه بقريش ؛ فقال : « إنما سُمِّيت محمّدا لأُحْمَد » .

---

(١) الحفيظة : الحمية والغضب .

(٢٠٣)

الأصل :

إنْ لَمْ تَكُنْ حَلِيماً فتَحَلَّمْ ، فَإنَّهُ قَلَّ مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ إلَّا أوْشَكَ أنْ يَكُونَ مِنْهُمْ .

* * *

الشرح :

التحلُّم : تكلُّف الحِلْم ، والذى قاله عليه السلام صحيح فى مَناهِج الحكمة ، وذلك لأنّ من تَشَبَّه بقومٍ وتكلف التخلّق بأخلاقِهم ، والتأدّبَ بآدابهم ، واستمرّ على ذلك ومَرَن عليه الزمان الطويل ، اكتَسَب رياضةً قويّة ، ومَلَكة تامّة ، وصار ذلك التكلّف كالطَّبْع له ، وانتقل عن الخُلُق الأوّل ، ألَا ترَى أنّ الأعرابىّ الجِلْف الجافى إذا دَخَل المُدُن والقُرَى وخَالطَ أهلَها وطال مُكْثُه فيهم انتقل عن خُلُق الأعراب الذى نشأ عليه ، وتلطَّف طَبْعُه، وصار شبيهاً بساكِنِي المُدُن ، وكالأجنبىّ عن ساكنى الوَبَر ، وهذا قد وجدناه فى حيواناتٍ أخرى غيرِ البشر كالبازِى والصّقر والفَهْد التى تُرَاضُ حتّى تَذِلّ وتأنَس وتَترُكَ طبعَها القديم ، بل قد شاهَدْناه فى الأسَد ، وهو أبعَدُ الحيوان من الإنْس .

وذَكَر ابن الصابى أنّ عَضُد الدّولة بن بُوَيه كانت له أُسُود يصطاد بها كالفُهود فتُمسِكه عليه حتّى يُدرِكه فيذكّيه ، وهذا من العجائب الطريفة .

(٢٠٤)

الأصلُ :

مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رَبِحَ ، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ ، وَمَنِ اُعْتَبَرَ أَبْصَرَ ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهِمَ ، وَمَنْ فَهِمَ عَلِمَ .

* * *

الشرحُ :

قد جاء فى الحديث المرفوع : « حاسبوا أنفسَكم قبلَ أن تحاسَبوا » .

قوله : « ومن خاف أمن » أى مَن اتقى الله أَمِنَ مِنْ عذابه يوم القيامة .

ثم قال « ومن اعتبر أبصر » أى من قاس الأمور بعضها ببعض ، واتّعظ بآيات الله وأيامه أضاءت بصيرته ، ومن أضاءت بصيرته فهم ، ومن فهم علم .

فإن قلتَ : الفهم هو العلم ، فأىّ حاجةٍ له إلى أن يقول : « ومن فهم علم » ؟

قلت : الفهم هاهنا هو معرفة المقدّمات ، ولابد أن يستعقب معرفة المقدمات معرفة النتيجة ، فمعرفة النتيجة هو العلم ، فكأنّه قال : من اعتبر تنوّر قلبه بنور الله تعالى ومَنْ تنوّر قلبه عَقَل المقدّمات البرهانية ،ومن عَقَل المقدمات البرهانية علم النتيجة الواجبة عنها ؛ وتلك هى الثمرة الشريفة التى فى مثلها يتنافس المتنافسون .

(٢٠٥)

الأصلُ :

وقال عليه السلام :

لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا . وَتَلَا عقيب ذَلِكَ : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ .

***

الشرح :

الشّماس : مصدر شَمس الفرسُ إذا منع من ظهره .

والضّروس : الناقة السّيّئة الخلُق تعضُّ حالبَها ، والإماميّة تزعم أن ذلك وعدٌ منه بالإمام الغائب الذى يملك الأرض فى آخر الزمان . وأصحابنا يقولون : إنه وعدٌ بإمام يملك الأرض ويستولى على الممالك ، ولا يلزم من ذلك أنه لا بُدّ أن يكون موجودا، وإن كان غائبا إلى أن يظهر ، بل يكفى فى صحّة هذا الكلام أن يُخلق فى آخر الوقت .

وبعض أصحابنا يقول : إنّه إشارة إلى مُلْك السفّاح والمنصور وابنى المنصور بعده . فإنهم الذين أزالوا ملكَ بنى أميّة ، وهم بنو هاشم ، وبطريقهم عطفت الدنيا على بنى عبد المطّلب عطف الضّروس .

وتقول الزيديّة: إنه لا بدّ من أن يملك الأرض فاطمىٌّ يتلوه جماعة من الفاطميّين على مذهب زيد ، وإن لم يكن أحد منهم الآن موجودا .

(٢٠٦)

الأصل :

اتَّقُوا اللهَ تُقَاةَ مَنْ شَمَّرَ تَجْرِيداً ، وَجَدَّ تَشْمِيراً ، وَأَكْمَشَ فِي مَهَلٍ ، وَبَادَرَ عَنْ وَجَلٍ ، وَنَظَرَ فِي كَرَّةِ المَوْئِلِ ، وَعَاقِبَةِ المَصْدَرِ ، وَمَغَبَّةِ المَرْجِعِ .

* * *

الشرح :

لو قال : « وجرّد تشميرا » ؛ لكان قد أتى بنوع مشهور من أنواع البديع ؛ لكنه لم يحفِل بذلك ، وجرى على مقتضى طبعه من البلاغة الخالية من التكلّف والتصنّع ، على أن ذلك قد روى ، والمشهور الرواية الأولى .

وأكمش : جدّ وأسرع ، ورجل كميش ، أى جادّ .

وفى مَهَل : أى فى مهلة العمل قبل أن يضيق عليه وقتُه بدنوّ الأجَل .

(٢٠٧)

الأصل :

اُلْجُودُ حَارِسُ اُلْأَعْرَاضِ ، وَاُلْحِلْمُ فِدَامُ السَّفِيهِ ، وَاُلْعَفْوُ زَكَاةُ الظَّفَرِ ، وَالسُّلُوُّ عِوَضُكَ مِمَّنْ غَدَرَ ، وَالاسْتِشَارَةُ عَيْنُ اُلْهِدَايَةِ .

وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ اُسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ ، وَالصَّبْرُ يُنَاضِلُ اُلْحِدْثَانَ ، واُلْجَزَعُ مِنْ أَعْوَانِ الزَّمَانِ ، وَأَشْرَفُ اُلْغِنَى ، تَرْكُ الْمُنَى .

وَكَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ عِنْدَ هَوًى أَمِيرٍ ! وَمِنَ التَّوْفِيقِ حِفْظُ التَّجْرِبَةِ ، وَالْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ ، وَلَا تَأْمَنَنَّ مَلُولًا .

***

الشرح :

مثل قوله : « الجود حارس الأعراض » قولهم : كلّ عيب فالكَرَم يغطِّيه .

والفِدَام : خِرْقة تجعل على فَمِ الإبريق ، فشبّه الحلم بها ، فإنّه يردّ السفيهَ عن السَّفه كما يردّ الفدامُ الخمرَ عن خروج القذَى منها إلى الكأس .

فأمّا « والعَفو زَكاة الظَّفَر » فقد تقدّم أنّ لكلّ شيء زكاة ، وزكاة الجاه رِفْدُ المُسْتَعِين ، وزكاة الظَّفَر العَفْو .

وأمّا « السُّلُوّ عوضك ممّن غدر » ، فمَعْناه أنّ من غدرَ بك من أحبّائك وأصدقائك فاُسلُ عنه وتناسَه ، واذكرْ ماعامَلَك به من الغدْر ، فإنّك تسلو عنه ويكون ما اُستفدتَه من السلوّ عوضاً عن وِصاله الأوّل ؛ قال الشاعر :

أعتقنى سوءُ ماصنعتَ من الرِّقّ فيابَرْدَهَا على كَبِدى
فصرتُ عبداً للسّوء فيك وما أحسنَ سوءٌ قَبلِى إلى أحدِ

وقد سبقَ القولُ فى الاُستشارة ، وأنّ المستغنىَ برأيه مخاطِر ، وكذلك القولُ فى الصّبر. والمناضَلة : المراماة .

وكذلك القولُ فى الجزع ، وأنّ الإنسان إذا جَزِع عند المصيبة فقد أعان الزمانَ على نفسِه ، وأضاف إلى نفسِه مصيبةً أخرى.

وسبق أيضا القولُ فى المُنى ، وأنّها من بضائِع النَّوْكَى[1] .

وكذلك القولُ فى الهوى ، وأنه يَغلِب الرأى ويأسِره .

وكذلك القولُ فى التّجربة ؛ وقولُهم : مَن حارب المجرِّب حلّت به النّدامة ، وإنّ من أضاع التجربة فقد أضاع عقلَه ورأيَه .

وقد سبق القولُ فى المودّة ، وذكرنا قولَهم : الصّديقُ نسيبُ الرُّوح ، والأخُ نسيبُ الجسم ؛ وسبق القولُ فى المَلال .

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

لو كنتِ عاتبةً لسكّنَ عَبْرَتى أمَلِى رضاكِ وزرتُ غيرَ مُراقَبِ
لكنْ مللتِ فلم يكن لى حيلةٌ صدُّ المَلولِ خلافُ صدِّ العاتبِ

---

(١) جمع أنوك ؛ وهو الأحمق .

(٢٠٨)

الأصْلُ

عُجْبُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَّادِ عقْلِهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القول فى العُجْب ، ومعنى هذه الكلمة أنّ الحاسد لا يزال مجتهدا فى إظهار معايب المحسود وإخفاءِ محاسنه ، فلمّا كان عُجْب الإنسان بنفسه كاشفاً عن نقص عقله كان كالحاسد الذى دأبُه إظهارُ عيب المحسود ونقصه .

وكان يقال : مَنْ رضىَ عن نفسه كثر الساخط عليه .

وقال مطرِّف بن الشِّخِّير : لأَنْ أبيت نائما، وأصبح نادما ، أحبُّ إلىّ من أن أبيت قائما وأصبح نادِما[1] .

---

(١) ا : « متعجباً » .

(٢٠٩)

الأصْل

أَغْضِ عَلَى ٱلقَذَى وَالأَلَمِ تَرْضَ أَبداً .

***

الشَّرْح :

نظير هذا قول الشاعر :

وَمَنْ لَمْ يُغمِّضْ عَيْنَهُ عن صديقِـهِ ... وعَنْ بَعْضِ مافيه يمتْ وهو عاتبُ

ومَن يتتبَّعْ جاهـــداً كلَّ عثرة ... يجـدها ولا يسلمْ له الدهرَ صاحب

وقال الشاعر :

إذا أنتَ لم تشْرَبْ مراراً على القَذَى ... ظَمِئْتَ ، وأيَّ النَّاس تصفُو مشاربُه[1] !

وكان يقال : أَغْضِ عن الدّهر وإلّا صرعك .

وكان يقال : لا تحارب الأيام وإن جنحتْ دون مطلوبك منها ، واصحبها بسلاسة القياد ، فإنّك إن تَصحبها بذلك تعطِك بعد المنع ، وتلِن لك بعد القساوة ؛ وإن أبَيت عليها قادتك إلى مكروهِ صُروفِها .

---

(١) لبشار ، ديوانه ١ : ٣٠٩ .

(٢١٠)

الأصْلُ :

مَنْ لَانَ عُودُهُ كَثُفَتْ أَغْصَانُهُ .

***

الشرح :

تكادُ هذه الكلمة أن تكون إيماءً إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾[1] ؛ ومعنى هذه الكلمة أنّ مَنْ حَسُن خُلقه ، ولانت كلمته ، كثر محبُّوه وأعوانه وأتباعه .

ونحوه قوله : « مَنْ لانتْ كلمته ، وجبتَ محبّته » .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2] ، وأصل هذه الكلمة مطابِقٌ للقواعد الحكميّة ، أعنى الشجرة ذات الأغصان حقيقة ، وذلك لأنّ النبات كالحيوان فى القوى النفسانيّة ، أعنى الغاذية والمنمّية ، وما يخدم الغاذية من القوَى الأربع ؛ وهى الجاذبة ، والماسكة ، والدافعة ، والهاضمة ؛ فإذا كان اليبَس غالبا على شجَرة كانت أغصانُها أخفّ ، وكان عودها أدقّ ، وإذا كانت الرُّطوبة غالبةً كانت أغصانها أكثر ، وعودها أغلَظ ؛ وذلك لاقتضاء اليَبَس الذبول ، واقتضاء الرطوبة الغِلظ والعبالة والضخامة ، ألا ترَى أنّ الإنسان الّذى غلب اليَبَسُ على مزاجه ، لايزال مَهْلُوساً[3] نحيفا ، والذى غلبت الرطوبة عليه لايزال ضخما عَبْلا .

---

(١) سورة الأعراف ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٥٩ .

(٣) رجل مهلوس : هلسه الداء وخامره .

(٢١١)

الأصْلُ :

اُلخِلَافُ يَهْدِمُ الرَّأْىَ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مثل قوله عليه السلام فى موضع آخر : « لا رأى لمن لايُطاع » .

ويُرْوَى : لا إمرة لمن لايطاع .

وفى أخبار قصير وجَذِيمة : « لو كان يطاع لقصيرٍ أمر ! » .

وكان يقال : اللّجاج يَشحَذ الزِّجاج ، ويثير العَجاج .

وقال دُريد بن الصِّمَّة :

أمرتهُمُ أمرِى بمنعرَجِ اللِّوَى ... فلَمْ يَسْتَبِينوا النُّصْحَ إلّا ضُحَى الْغدِ[1]

فَلَمّا عصوْنِى كنتُ منهمْ وقد أرَى ... غَوايتَهم وأنّنى غيرُ مهتدِى

وكان يقال : أهدى رأى الرّجل مانفذ حكمُه ، فإذا خولف فسد .

ومن كلام أفلاطون : اللّجاج عسر انطباع المعقولات فى النّفس ، وذلك إمّا لفرْطِ حِدّةٍ تكون فى الإنسان ، وإما لغلظ طبعٍ فلا ينقاد للرأى[2] .

---

(١) ديوان الحماسة ٢ : ٣٠٤ ــ بشرح التبريزى .

(٢) ا : « لرأى » .

(٢١٢)

الأصل :

مَنْ نَالَ اُسْتَطَالَ .

***

الشرح :

يجوز أن يريد به : مَنْ أثْرَى و نال من الدنيا حظًّا استطال على النّاس .

ويجوز أن يريد به : مَنْ جاد استطال بجوده .

يقال : نالنى فلان بكذا أى جادَ به علىّ ، ورجل نالٌ ، أى جوادٌ ذو نائل ، ومثله [1] رجل طانٌ أى ذو طين ، ورجل مالٌ أى ذو مال .

---

(١) ا : « أن يقال » .

(٢١٣)

الأَصْلُ :

فِي تَقَلُّبِ ٱلْأَحْوَالِ ، عِلْمُ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ .

***

الشَّرْحُ :

معناه : لا تُعلَم أخلاق الإنسان إلّا بالتجربة ، واختلاف الأحوال عليه .

وقديماً قيل : تَرَى الفتيانَ كالنَّخْلِ ، وما يدريك ما الدَّخْلُ[1] .

وقال الشاعر :

لا تَحْمَدَنَّ امرأً حتّى تُجرِّبَهُ ولا تذمَّنَّه إلّا بتجريبِ

وقالوا : التجربة محكٌّ ؛ وقالوا : مثل الإنسان مثلُ البطّيخة ، ظاهرها مونق ، وقد يكون فى باطنها العيب والدود ، وقد يكون طعمها حامضا وتفِهاً .

وقالوا للرجل المجرَّب يمدحونه : قد آل وائل عليه .

وقال الشاعر يمدح :

مازال يَحلُبُ هذا الدَّهْرَ أشطُرَهُ[2] يكون متّبِعا طوراً ومتَّبَعا

حتى استمرّت على شَزْرٍ مَرِيرته مستحكَمَ الرأىِ لاقَحْماً ولا ضَرَعا[3]

---

(١) مثل ، وانظر الميدانى ١ : ٩١ .

(٢) يحلب أشطره ؛ أى أنه قد جرب الأمور وعاناها ، والكلام على التمثيل .

(٣) فى اللسان عن الجوهرى : « شيخ قحم ، أى هِمّ » ؛ مثل قحل ، وفى حديث ابن عمر : « ابغنى خادما لا يكون قحما فانيا ، ولا صغيرا ضرعا » . القحم : الشيخ الهم الكبير» . الضرع : الضاوى الجسم الضعيف .

(٢١٤)

الأَصْلُ :

حَسَدُ الصَّدِيقِ مِنْ سُقْمِ الْمَوَدَّةِ .

***

الشَّرْح :

إذا حسدك صديقُك على نعمة أُعطيتَها لم تكن صداقته صحيحة ، فإنّ الصديق حقا من يَجرى مَجرَى نفسِك ، والإنسان لم يحسدْ نفسه .

وقيل لحكيم : ماالصديق ؟ فقال : إنسان هو أنت ، إلّا أنه غيرُك .

وأخذ هذا المعنى أبو الطيّب فقال :

مَا الخِـلُّ إلَّا مَنْ أَوَدُّ بقَلْبِهِ   وأرَى بطرفٍ لايرى بسوائِهِ[1]

ومن أدعية الحكماء : اللّهمّ اكفنى بوائق الثقات ، واحفظنى من كيد الأصدقاء .

وقال الشاعر :

احذر عَدُوَّكَ مرَّةً   واحْذَرْ صديقك ألفَ مرّهْ
فلربّما انقلب الصديـ   ـقُ فكَانَ أعرَفَ بالمضرّهْ

وقال آخر[2] :

احذر مودّة ماذقٍ   شابَ المرارة بالحلاوهْ[3]

---

(١) ديوانه ١ : ٤ .

(٢) ا : « غيره » .

(٣) الماذق : الذى يخلط الود بغيره .

يحصى الذّنوب عليك أيّـــامَ الصـــداقةِ للعداوهْ

وذكر خالد بن صفوان شبيبَ بن شيبة ، فقال : ذاك رجل ليس له صديق فى السرّ ولا عدوٌّ فى العلانية .

وقال الشاعر :

إذا كان دوّاماً أخوك مصارماً ... موجّهــةً فى كلّ أوبٍ ركائبُهْ
فخلِّ له ظهرَ الطريقِ ولا تكنْ ... مطيّةَ رحّالٍ كثير مذاهبُــهْ

(٢١٥)

الأَصْلُ :

أَكْثَرُ مَصارع العُقُول تَحْتَ بُرُوقِ المطامِعِ .

***

الشَّرْحُ

قد تقدّم منّا قولٌ فى هذا المعنى .

ومنه قولُ الشاعر[1] :

طَمِعتَ بلَيلَى أن تَرِيعَ وإنّما[2] تُقطِّعُ أعناقَ الرِّجالِ المطَامِعُ[3]

وقال آخَر .

إذا حدّثتْك النفسُ أنّك قادرٌ على ماحوَتْ أيدى الرجالِ فكذّبِ
وإيّاكَ والأطماعَ إنّ وُعودَها رقارِقُ آلٍ أو بوارِقُ خُلّبِ[4]

---

(١) هو المجنون ، ديوانه ١٨٦ ، وينسب لقيس بن ذريح ؛ وينسب أيضاً للبعيث ، وانظر تخريجه فى الديوان .

(٢) تريع : ترجع وتعود ؛ كذا فسره صاحب اللسان ، واستشهد بالبيت ونسبه إلى البعيث .

(٣) بعده فى الديوان :

ودانيتُ ليلَى فى خلاه ولم يكُنْ شهود على ليلَى عدولٌ مقانِعُ

(٤) الرقارق : السراب .

(٢١٦)

الأَصْلُ :

لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ الْقَضَاءُ عَلَى الثِّقَةِ بِالظَّنِّ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِ أصحاب أصُول الفقه : لا يجوز نَسْخ القرآن والسنّة المتواتِرة بخَبَر الواحد ، لأن المَظْنون لا يَرفَع المَعلوم .

ولفظ الثِّقة هاهنا مرادِفٌ للفظ العِلم ، فكأنه قال : لا يجوز أن يُزال ما عُلِم بطريق قطعيّةٍ لأمرٍ ظَنّي .

فإنْ قلت : أليس البراءة الأصليّة معلومة بالعقل ، ومع ذلك تُرفَع بالأمارات الظّنّية كأخبار الآحاد ؟

قلت : ليست البراءةُ الأصليّة معلومةً بالعقل مطلقا ، بل مشروطة بعدم ما يرفعها من طريق عِلميّ أو ظنّي ، ألا ترى أنّ أكلَ الفاكهة وشربَ الماء معلوم بالعقل حسنه ، ولكن لا مطلقا ، بل بشَرْط انتفاء ما يَقتضي قبحه ، فإنا لو أخبَرَنا إنسانٌ أنّ هذه الفاكهة أو هذا الماء مسموم لقَبُح منّا الإقدامُ على تَناولِها ، وإن كان قولُ ذلك المُخبِر الواحِد لا يفيد العِلم القَطْعيّ[1] .

---

(١) ا : « علما قطعيا » .

(٢١٧)

الأصل :

بِئْسَ ٱلزَّادُ إِلَى المَعادِ ، ٱلْعُدْوَانُ عَلَى ٱلْعِبادِ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم من قولنا[1] في الظّلم والعُدْوان ما فيه كفاية .

وكان يقال : عَجَبا لمن عُومِل فأُنْصِف ، إذا عامَلَ كيف يَظلِم ! وأعجب منه : من عُومل فظُلِم إذا عامَل كيف يَظلِم !

وكان يقال : العدّو عدوّان : عَدوٌّ ظلمتَه ، وعدوٌّ ظَلَمك ، فإن اضطرّك الدهرُ إلى أحدهما فاستعن بالذى ظلمك ، فإن الآخر مَوْتور .

---

(١) ا : « لنا أقوال » .

(٢١٨)

الأَصْلُ :

مِنْ أَشْرَفِ أَفْعَالِ الْكَرِيمِ غَفْلَتُهُ عَمَّا يَعْلَمُ .

* * *

الشَّرْحُ

كان يقال : التغافُل من السُّؤدُد .

وقال أبو تمّام :

ليس الغَبِيُّ بسَيِّدٍ فى قومِه … لكنّ سيِّد قومِه المُتغابِى[1]

وقال طاهرُ بنُ الحسين بن مصعَب :

ويكفيك من قومٍ شواهدُ أمرِهمْ … فخذ صفوَهمْ قبل امتحانِ الضَّمائِر
فإنّ امتحانَ القومِ يُوحش منهمُ … ومالكَ إلّا ماترَى فى الظَّوَاهِرِ
وإنّك إن كشّفتَ لم تر مُخلِصا … وأبدَى لك التجريبُ خبثَ السَّرائر

وكان يقال : بعضُ[2] التغافل فضيلة ، وتمام الجود الإمساك عن ذكر المواهب ، ومن الكرَم أن تَصفَح عن التوبيخ ، وأن تلتمس سترْ[3] هَتْك الكريم .

---

(١) ديوانه ١ : ٩٣ .
(٢) ساقطة من ا .
(٣) الستر : تغطية الشيء ؛ وفى الحديث : « إن الله حى ستير يحب الستر » .

(٢١٩)

الأصل :

مَنْ كَساهُ الْحَياءُ ثَوْبَهُ ، لَمْ يَرَ النَّاسُ عَيْبَهُ .

* * *

الشرح :

قد سبق منّا قولٌ كثيرٌ فى الحياء .

* * *

[فصل فى الحياء وما قيل فيه]

وكان يقال : الحياء تمام الكَرَم ، والحِلم تمام العقل .

وقال بعضُ الحكماء : الحياء انقباض النّفس عن القبائح ، وهو من خصائص الإنسان ، لأنّه لا يوجد فى الفرَس ولا فى الغنم والبقر ، ونحو ذلك من أنواع الحيوانات ، فهو كالضّحك الّذى يختصّ به نوع الإنسان ، وأوّل ما يَظهر من قوّة الفهم فى الصبيان الحياء ، وقد جَعَله الله تعالى فى الإنسان ليرتدِع به عمّا تَنزِع إليه نفسُه من القبيح ، فلا يكون كالبهيمة ، وهو خُلُقٌ مركّب من جُبْن وعفّة ، ولذلك لا يكون المستحى فاسقاً ، ولا الفاسقُ مستحياً (١) ، لتنافى اجتماع العفّة والفِسْق ، وقلّما يكون الشجاع مستحياً والمستحى شجاعا لتنافِى اجتماعِ الُجبْن والشجاعة ، ولعِزّة وجودِ ذلك ما يجمع الشعراء بين المدح بالشجّاعة والمدْح بالحياء نحو قول القائل :

يجرِى الحياءُ الغَضُّ من قَسماتِهِمْ ... فى حينِ يجرِى مِن أكفِّهم الدّمُ

---

(١) ب : « مستحيا » .

وقال آخر :

كريمٌ يَغُضُّ الطَّرفَ فَضلُ حيائِه ويَدْنو وأطرافُ الرِّماح دَوانِ

ومتى قصد به الانقباض فهو مدحٌ للصبيان دون المشايخ ، ومتى قُصِد به ترك القبيح فهو مَدْح لكل أحد ، وبالاعتبار الأوّل قيل : الحياء بالأفاضل قبيح ، وبالاعتبار الثانى وَرَد : إن الله ليستحيي من ذى شَيْبة فى الإسلام أن يعذّبه ، أى يُترك تعذيبه ويستقبح لكرمه ذلك .

فأمّا الخجل فحَيْرة تَلحَق النفس لفَرْط الحياء ، ويحمَد فى النّساء والصبيان ويُذمّ بالاتفاق فى الرّجال .

فأمّا القِحَة فمذْمومة بكلّ لسان ، إذ هى انْسلاخٌ من الإنسانيــة ، وحقيقتُها لجاجُ النفس فى تعاطى القبيح ، واشتقاقها من حافر وَقَاح أى صُلْب .

ولهذه المناسبة قال الشاعر :

ياليتَ لى من جِلْدِ وجهك رُقْعةً فأعدَّ منها حافِراً للأشْهَبِ

وما أصدَقَ قول الشاعر :

صلابةُ الوَجْه لم تغلبْ على أحدٍ إلاّ تكامَل فيــه الشرُّ واجتمعا

فأمّا كيف يُكتَسب الحياء ، فمن حقّ الإنسان إذا همّ بقبيح أن يتصوّر أجلّ من نفسِه أنه يراه ، فإنّ الإنسان يَستحيي ممن يَكبُر فى نفسِه أن يطّلع على عَيْبه ولذلك لا يستحيي من الحيوان غير الناطق ، ولامِن الأطفال الذين لايميزون ، ويستحيي من العالم أكثر مما يستحيي من الجاهل ومن الجماعة أكثر ممـا يستحيي من الواحد ، والذين يستحيي الإنسانُ منهم ثلاثة : البشر ، ونفسُه ، والله تعالى ؛ أما البَشر فهم أكثر

من يستحيي منه الإنسان فى غالب الناس ، ثمّ نفسه ، ثمّ خالقه ، وذلك لقلّة توفيقه وسوء اختياره .

***

واعلم أن من استحياً من الناس ولم يستحيي من نفسه فنفسه عنده أخسّ من غيره ، ومن استحيا منهما ولم يستحيِ من الله تعالى فليس عارفًا ، لأنه لو كان عارفا بالله لما استحيا من المخلوق دون الخالق ، ألا ترَى أن الإنسان لا بدّ أن يستحييَ من الذى يعظمه ويعلم أنه يراه أو يستمع بخبره فيبُكّته ، ومن لا يعرف الله تعالى كيف يستعظمه ! وكيف يعلَمَ أنه يطلع عليه ! وفى قول رسول الله صلى الله عليه وآله : « استحيوا من الله حقّ الحياء » ، أمرٌ فى ضِمْن كلامه هذا بمعرفته سبحانه وحَثّ عليها ، وقال سبحانه : ﴿ألم يعلَمْ بأنّ الله يرَى﴾ (١) ، تنبيها على أن العبد إذا علم أن ربّه يراه استحيا من ارتكاب الذنب .

وسُئل الجنيد رحمه الله عمّا يتولّد منه الحياء من الله تعالى ؛ فقال : أَنْ يرَى العبدُ آلاءَ الله سبحانه ونعمَه عليه ، ويرى تقصيره فى شكره .

فإن قال قائل : فما معنى قول النبيّ صلّى الله عليه وآله : « مَن لا حياء له فلا إيمان له » .

قيل له : لأنّ الحياء أوّل ما يظهر من أمارة العَقْل فى الإنسان ، وأما الإيمان فهو آخر المراتب ، ومُحالٌ حصول المَرْتبة الآخِرة لمن لم تَحصل له المرتبة الأولى ، فالواجب إذن أن مَن لا حياء له فلا إيمان له .

وقال عليه السلام : « الحياءُ شُعْبة من الإيمان » .

وقال : « الإيمان عُرْيان ، ولباسُه التقوى ، وزينته الحياء » .

---

(١) سورة العلق ١٤ .

(٢٢٠)

الأَصْلُ

بِكَثْرَةِ الصَّمْتِ تَكُونُ الهَيْبَةُ ؛ وبالنَّصَفَةِ يَكْثُرُ المُواصِلُونَ ، وبالإفْضالِ تَعْظُمُ الأَقْدارُ ، وبالتَّوَاضُعِ تَتِمُّ النِّعْمَةُ ، وباحْتِمالِ المُؤَنِ يَجِبُ السُّؤْدُدُ ، وبالسِّيرَةِ العادِلَةِ يُقْهَرُ المُناوِئُ ، وبالحِلْمِ عَنِ السَّفِيهِ تَكْثُرُ الأَنْصارُ عَلَيْهِ .

***

الشَّرْحُ :

قال يحيى بن خالد : ما رأيت أحداً قطّ صامتا إلا هِبْتُه حتى يتكلّم ، فإما أن تزداد تلك الهيْبة أو تنقص . ولا رَيْب أن الإنصاف سببُ انعطاف القلوب إلى المنصف ، وأن الإفضال والجود يقتضى عِظَمَ القَدْر ، لأنه إنعام ، والمُنعِم مشكور ، والتواضع طريقٌ إلى تمام النعمة ، ولا سؤْدُدَ إلا باحتمال المُؤَن ؛ كما قال أبو تمّام :

والحمدُ شَهْدٌ لا تَرَى مُشتارَه ... يجْنِيه إلّا من نقيع الحَنْظَلِ[1]

غُلٌّ لحامِـــلِهِ ويَحسَبه الذى ... لم يُوهِ عاتِقَهُ خفيفَ المَحْمَلِ

والسِّيرة العادلة سببٌ لقَهْر الملِك الذى يُسيِّر بها أعداءَه ، ومَن حَلُمَ عن سَفيهٍ وهو قادرٌ على الانتقام منه نَصَره الناس كلُّهم عليه ، واتّفقوا كلُّهم على ذمّ ذلك السفيه وتقبيح فِعْلِهِ[2] ؛ والاستِقراء واختبارُ العادات تَشهَد بجميع ذلك .

---

(١) ديوانه ٣ : ٤٢ .

(٢) ب : « قفله » « تصحيف » .

(٢٢١)

الأصْلُ :

العَجَبُ لِغَفْلَةِ الْحُسَّادِ ، عَنْ سَلَامَةِ الأَجْسَادِ !

***

الشَّرْحُ :

إنما لم يَحسد الحاسد على صحّة الجسد لأنه صحيحُ الجسد ، فقد شارك فى الصحّة ، وما يُشاركُ الإنسانُ غيره فيه لايَحسده عليه ، ولهذا أرباب الحسد إذا مَرِضوا حَسدوا الأصحّاء على الصحّة .

فإن قلت : فلماذا تَعجّب أميرُ المؤمنين عليه السلام ؟

قلت : لكلامه عليه السلام وَجْه ، وهو أن الحسد لمّا تمكن فى أربابه ، وصار غريزة فيهم ، تعجّب كيف لايتعدّى هذا الْخُلق الذّميم إلى أن يحسد الإنسان غيره على مايشاركه فيه ؛ فإن زيدا إذا أبغض عَمْرا بُغْضا شديدا وَدّ أن تزول عنه نِعْمته إليه ، وإن كان ذا نِعْمة كنِعمتِه[1] ، بل ربما كان أقوى وأحسن حالا .

ويجوز أن يريدمعنى آخر ، وهو تعجُّبه من غَفْلة الْحُسّاد؛ على أن الحسد مؤثّرفى سلامة أجسادهم ، ومقتضٍ سُقْمَهُم ، وهذا أيضاً واضح .

---

(١) ا : « مثل نعمته » .

(٢٢٢)

الأصل :

الطَّامِعُ فِى وِثَاقِ الذُّلِّ .

* * *

الشرح :

من أمثال البُحْترىّ قوله :

واليأسُ إحدَى الرّاحتَيْن ولن ترَى تَعِباً كظَنِّ الخائبِ المَكْدُودِ[١]

وكان يقال : ماطمِعتْ إلّا وذَلّت — يَعْنُون النّفس .

وفى البيت المشهور :

* تُقَطِّع أعناقَ الرِّجال المَطامِعُ[٢] *

وقالوا : عَزَّ من قَنِع ، وذَلَّ من طَمِع .

وقد تقدّم القولُ فى الطّمع مرارا .

---

(١) ديوانه ١ : ١٢٧ .

(٢) المجنون ؛ ديوانه ص ١٨٦ ، وصدره :

* طَمِعْتَ بِلَيْلَى أَنْ تريعَ وَإِنّما *

(٢٢٣)

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام وقد سئل عن الإيمان :

اْلإِيمانُ مَعْرِفَةٌ بالقَلْبِ ، وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم قولُنا فى هذه المسألة .

وهذا هو مذهبُ أصحابنا المعتزِلة بعَيْنه ، لأنّ العمل بالأركان عندنا داخلٌ فى مسمّى الإيمان ـ أعنِى فعل الواجبات ، فمن لم يَعمَل لم يُسمَّ مؤمنا وإن عرَف بقلبه وأقرّ بلسانه ؛ وهذا خلافُ قول المُرْجئة من الأشعريّة والإماميّة ، والحشويّة .

فإن قلت : فما قَوْلك فى النوافل : هل هى داخلةٌ فى مسمَّى الإيمان أم لا ؟

قلت : فى هذا خلافٌ بين أصحابنا ، وهو مستقصًى فى كتبى (١) الكلاميّة .

---

(١) فى د : « كتبنا » .

(٢٢٤)

الأصلُ :

مَنْ أَصْبَحَ عَلَى الدُّنْيَا حَزِيناً ، فَقَدْ أَصْبَحَ لِقَضَاءِ اللهِ سَاخِطاً .

وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ ، فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ .

وَمَنْ أَتَى غَنِيّاً فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ .

وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَمَاتَ فَدَخَلَ النَّارَ ؛ فَهُوَ كَانَ مِمَّنْ يَتَّخِذُ آيَاتِ اللهِ هُزُواً .

وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلَاثٍ : هَمٍّ لَا يُغِبُّهُ ، وَحِرْصٍ لَا يَتْرُكُهُ ، وَأَمَلٍ لَا يُدْرِكُهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

إذا كان الرِّزق بقضاء الله وقَدَره ، فمن حَزِن لفواتِ شيء منه فقد سَخِط قضاء الله وذلك معصية ، لأنّ الرّضا بقضاء الله واجب ، وكذلك من شَكا مصيبةً حلّت به؛فإنّما يشكو فاعلَها لا هي ، لأنّها لم تنزل به من تِلقاء نفسِها ، وفاعلها هو الله ، ومن اشتكى الله فقد عصَاه ؛ والتواضُع للأغنياء تعظيما لغِناهم أو رجاء شيء ممّا في أيديهم فسْق .

وكان يقال : لا يُحمد التِّيه إلّا من فقيرٍ على غَنِيّ .

فأمّا قولُه عليه السلام : « ومن قرأ القرآن فماتَ فدخل النار ، فهو ممن كان يتخذ آياتِ الله هُزُواً » .

فلِقائل أن يقول : قد يكون مؤمنا بالقرآن ليس بمتّخِذ له هُزُواً ، ويقرؤه ثمّ

يدخل النـار ، لأنه أتى بـكبيرة أخرى نحوَ القتـل والزّنا والفِرار من الزّحف وأمثال ذلك !

والجواب أن معنى كلامه عليــه السلام هو أنّ من قرَأ القرآن فمات فدَخل النـار لأجلِ قراءته القرآن فهو ممّن كان يتخذ آياتِ الله هزُواً ، أى يقرؤه هازِئاً به ، ساخراً منه ، مستهينا بمواعظه وزواجره ، غير معتقِد أنه من عندِ الله .

فإن قلت : إنما دخل مَن ذكرتَ النارَ ؛ لا لأجل قراءته القرآن، بل لهُزئه به ، وجحوده إيّاه ، وأنت قلت : معنى كلامه أنّه من دَخل النـار لأجل قراءته القرآن فهو ممّن كان يستهزئ بالقرآن !

قلت : بل إنّما دخل النار لأنّه قرأه على صِفة الاُستهزاء والسُّخْرية ، ألا ترى أنّ الساجد للصّنَم يُعاقَب لسجودِه له على جهة العبادة والتعظيم ، وإن كان لولا ما يحدثه مضافاً للسّجود من أفعال القلوب لما عُوقب .

ويمكن أن يُحمَل كلامُه عليه السلام على تفسيرٍ آخرَ ، فيقال : إنّه عَنَى بقوله : إنّه كما كان ممّن يتّخذ آيات الله هزُوا : أنّه يعتقد أنّها من عند الله ، ولـكنّه لا يعمَل بموجبها كما يَفعله الآنَ كثيرٌ من الناس .

قولُه عليه السلام : « التاط بقَلْبه » أى لَصِق . ولا يُغِبُّه ، أى لا يَأْخُذه غِبًّا ، بل يلازمه دائماً ، وصَدَق عليه السلام فإنّ حُبّ الدنيا رأسُ كلّ خطيئة ، وحبُّ الدنيا هو المَوجِب للهَمّ والغمّ والحِرْص والأَمَل والخوْف على ما اُكتَسبه أن يَنفَد ، وللشُّحّ بما حوَتْ يدُه ، وغير ذلك من الأخلاق الذميمة .

(٢٢٥)

الأصْلُ :

كَفَى بِالْقَنَاعَةِ مُلْكاً ، وَبِحُسْنِ الْخُلُقِ نَعِيماً .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى هذين ، وهما القناعة وحُسْن الخُلُق .

وكان يقال : يستحقّ الإنسانيّة مَن حَسُن خُلقه ، ويكاد السيّئ الخُلق يُعَدّ من السِّباع .

وقال بعضُ الحكماء : حدُّ القناعة هو الرّضا بما دون الكفاية ، والزّهد : الاقتصار على الزّهيد ، أى القليل ، وهما مُتقاربان ، وفى الأغلب إنما الزهد هو رَفْض الأمور الدنيويّة مع القُدْرة عليها ؛ وأما القَناعة فهى إلزام النّفس الصبرَ عن المشتهيَات الّتى لا يقدر عليها ، وكلّ زُهْد حَصَل عن قَناعةٍ فهو تزهّد ، وليس بزُهد ، وكذلك قال بعض الصُّوفيّة : القناعة أوّل الزُّهد ، تنبيها على أنّ الإنسان يحتاج أوّلا إلى قدْع نفسه وتخصّصه بالقناعة ليَسهُل عليه تَعاطِى الزّهد ، والقناعة الّتى هى الغنى بالحقيقة ، لأنّ النّاسَ كلّهم فقراء من وجهين : أحدُهما لافتقارِهم إلى الله تعالى كما قال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١) .

والثانى لكَثْرة حاجاتهم فأغناهم لا مَحالة أقلّهم حاجة ، ومن سدّ مَفاقِره بالمُقتَنيَات فما فى انسدادِها مطمَع ، وهو كمَن يرقَع الخَرْق بالخَرْق ، ومن يَسُدّها بالاستغناء عنها بقَدْر وُسْعه والاقتصار على تناوُل ضروريّاته فهو الغنىّ المقرّب من الله سبحانه ، كما أشار إليه فى قصّة طالوتَ : ﴿ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ (٢) ، قال أصحاب المعانى والباطن : هذا إشارةٌ إلى الدنيا .

---

(١) سورة فاطر ١٥ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٩ .

(٢٣٦)

الأصْلُ :

وسئل عليه السلام عن قول الله عز وجل : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾[١] ، فقَالَ : هِيَ ٱلْقَنَاعَةُ .

***

الشرح :

لاريبَ أنّ الحياةَ الطّيبة هى حياةُ الغِنَى ، وقد بيّنّا أن الغنيَّ هو القَنُوع ، لأنه إذا كان الغِنَى عدمُ الحاجة فأغنَى النّاس أقلُّهم حاجةً إلى الناس ، ولذلك كان الله تعالى أغْنَى الأغنياء ، لأنّه لاحاجةَ به إلى شيء ، وعلى هذا دلّ النبيُّ بقوله صلّى الله عليه وآله: «ليس الغِنَى بكَثْرة العَرَض ، إنّما الغِنَى غِنَى النّفس » .

وقال الشاعر :

فَمن أُشْرِب اليأسَ كان الغــــنيَّ ومن أشْرِبَ الحِرْصَ كان الفَقيرَا

وقال الشاعر :

غِنَى النَّفْسِ مايَكفيك من سَدِّ خَلّةٍ فإنْ زادَ شيئاً عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرا

وقال بعض الحكماء : المخيّر بين أن يستغنيَ عن الدنيا وبين أن يستغنيَ بالدّنيا كالمخيّر بين أن يكون مالِكاً أو مَملوكا .

ولهذا قال عليه السلام : « تَعِس عبدُ الدِّينار والدّرهم ، تَعِس فلا انتَعَش ، وشيكَ فلا انتقش »[٢] .

---

(١) سورة النحل ٩٧ .

(٢) ب : «شبك» تحريف ، قال ابن الأثير : أى إذا دخلت فيه شوكة لا أخرجها من موضعها ، وبه سمى المنقاش الذى ينقش به » .

وقيل لحكيم : لم لاتغتم ؟ قال : لأنى لم أتخذ ما يغمنى فقده .

وقال الشاعر :

فمن سره ألا يرى مايسوءه　　فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا

وقال أصحاب هذا الشأن : القناعة من وجه صبر ، ومن وجه جود ، لأن الجود ضربان : جود بما فى يدك متنزعا ، وجود عما فى يد غيرك متورعا ، وذلك أشرفهما ، ولا يحصل الزهد فى الحقيقة إلا لمن يعرف الدنيا ماهى ، ويعرف عيوبها وآفاتها ، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها ، ولا بد فى ذلك من العلم ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِىَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ ﴾[1] .

ولأن الزاهد فى الدنيا راغب فى الآخرة وهو يبيعها بها ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾[2] الآية .

والكيس لايبيع عينا بأثر ، إلا إذا عرفهما وعرف فضل مايبتاع على مايبيع .

---

(١) سورة القصص ٧٩ ، ٨٠ .　　(٢) سورة التوبة ١١١ .

(٢٢٧)

الأصْلُ:

شَارِكُوا الَّذِينَ قَدْ أَقْبَـلَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ ، فَإِنَّهُ أَخْلَقُ لِلْغِنَى ، وَأَجْدَرُ بِإِقْبالِ الحظِّ .

***

الشـرح :

قد تقدّم القول فى الحظّ والبخْتِ .

وكان يقال : الحظّ يُعدِى كما يُعدِى الجَرَب ، وهذا يُطَابق كلمة أمير المؤمنين عليه السلام لأنّ مخالطة المجْدود ليست كمخالطة غير المجْدود[1] ، فإن الأولى تقتضى الاشتراك فى الحظ والسعادة ، والثانية تقتضى الاشتراك فى الشقاء والحرمان .

والقول فى الحظ وسيعٌ جدا .

وقال بعضهم : البَخْت على صورةِ رجلٍ أعمى أصمّ أخرس ، وبين يديه جواهرُ وحِجارة ، وهو يرمى بكلتا يَدَيه .

وكان مالكُ بن أنس فقيهَ المدينـة ، وأخذ الفقه عن اللَّيْث بن سعد ؛ وكانوا يزدحمون عليـه واللَّيْثُ جالس لا يلتفتون إليه ، فقيل لليّث : إنّ مالِـكاً إنما أخـذ عنك فما لكَ خاملاً وهو أنبهُ النـاسِ ذِكْرا ! فقال : دانقُ بَخْتٍ خيرٌ من جملِ بُخْتِىٍ حُمِّل عِلما .

وقال الرّضىّ :

أُسِيغ الغيـظ من نُوَب اللَّيَالى ... وما يَحفلْن بالحنِق المَغيـظِ[2]

وأرجو الرِّزق من خَرْق دَقيقٍ ... يُسَـدُّ بسلك حرمانٍ غَليظِ[3]

وأرجِـع ليس فى كَفَّىَّ منه ... سِـوَى عَضِّ اليديْن على الحظوظ

(١) عبارة د : « ليست كمخالطة المحدود » ، وبها يستقيم المعنى أيضاً .

(٢) ديوانه ١ : ٤٥٣ . (٢) فى الديوان : « من خرت » ، والخرت : الثقب .

(٢٢٨)

الأصلُ

وقالَ عليهِ السلامُ في قوْلِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُرُ بالْعَدْلِ والإحْسانِ ﴾ [١] :
الْعَدْلُ الإنْصافُ ، والإحْسانُ التفضُّلُ .

***

الشرح :

هذا تفسيرٌ صحيح اتفق عليه المفسرون كافّة ، وإنما دخل النّدْب تحت الأمر لأنّ له صفةً زائدة على حُسْنه ، وليس كالمُباح الذى لا صِفةَ له زائدة على حُسْنه .

وقال الزّمخشرىّ : العَدْل هو الواجب ، لأنّ الله عزّ وجلّ عَدَل فيه على عباده ، فجعل ما فَرَضَه عليهم منه واقعا تحت طاقتهم ، والإحسان النّدْب ، وإنما علق أمره بهما جميعا ؛ لأنّ الفَرْض لا بدّ أن يقع فيه تفريط ، فيَجْبُره النّدب ، ولذلك قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله لإنسان علّمه الفرائض فقال : والله لا زدتُ فيها ولا نقصْتُ منها : « أفْلح إنْ صدَق » ، فعقدَ الفلاح بشَرْط الصِّدق والسلامة من التّفريط ؛ وقال صلّى الله عليه وآله : « استقيموا ، ولن تحصوا » ، فليس ينبغى أن يترك ما يَجبر كَسْر التّفريط من النوافل [٢] .

ولقائل أن يقول : إن كان إنما سمى الواجب عدْلا لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلّف فليسمّ النّدْب عدْلا لأنه داخلٌ تحت طاقة المكلف ، وأما قوله : إنما أمر بالنّدْب لأنه يجبر ما وَقَع فيه التفريط من الواجب ، فلا يصحّ على مذهبه ، وهو من أعيان المعتزلة لأنه لو جُبرت النافلة بالتفريط فى الواجب لكانت واجبةً مثله ، وكيف يقول الزمخشرىّ هذا ومن قول مشايخنا إن تارِك صلاة واحدةٍ من الفرائض لو صلى مائة ألف ركعةٍ من النوافل لم يكفرّ ثوابها عقاب تَرْك تلك الصلاة !

---

(١) سورة النحل ٥٠ .
(٢) تفسير الكشاف ٢ : ٤٩٠ .

(٢٢٩)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

مَنْ يُعْطِ بالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بالْيَدِ الطَّوِيلَةِ .

* * *

قالَ الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالى :

ومَعْنى ذَلِكَ أنّ ما يُنفِقُهُ المَرْءُ مِنْ مالِهِ في سَبيلِ الخير والبرِّ وإنْ كان يَسيراً فإنّ اللهَ تعالى يَجْعَلُ الجزاءَ عَلَيه عظيما كَثيراً ؛ والْيَدانِ ها هنا عِبارَةٌ[1] عَنِ النِّعْمَتَيْنِ فَفَرَقَ عليهِ السلامُ بَيْنَ نِعمَةِ الْعَبْدِ ونِعْمَةِ الرَّبِّ تَعالى ذِكْرُهُ ، بالْقَصيرةِ والطَّويلةِ ، فجَعلَ تِلْكَ قَصيرَةً وهَذِهِ طَوِيلَةً ، لأنّ نِعمَ اللهِ أبَداً تُضعَفُ على نِعمِ المَخْلُوقِينَ أضْعافاً كَثيرةً ؛ إذْ كانتْ نِعَمُ اللهِ أصْلَ النِّعَمِ كلها ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ إلَيْها تَرْجِعُ ، ومنها تُنْزَعُ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا الفَصْل قد شرحه الرضيّ رحمه الله ، فأغنى عن التعرّض بشَرْحِه .

---

(١) في ب : « عبارتان » تحريف .

(٢٣٠)

الأصْلُ :

وقال عليهِ السلامُ لابْنِهِ الحَسَنِ : لاتَدْعُوَنَّ إلى مُبارَزَةٍ ، فإنْ دُعِيتَ إليها فأجب ؛ فإنَّ الدَّاعىَ إليْها باغٍ ، والْباغِى مَصْرُوعٌ .

***

الشَّرْح :

[مُثُل من شجاعَة علىّ]

قد ذكر عليه السلام الحِكْمة ، ثم ذكر العِلّة ، وما سَمِعْنا أنه عليه السلام دعا إلى مُبارَزةٍ قَطّ ، وإنما كان يدعَى هو بعينه ، أويدعو من يبارز ، فيَخْرُج إليه فيقتله ، دعا بنو ربيعة بن عبد بن شمس بنى هاشم إلى البراز يوم بدْر ، فخرج عليه السلام فقتل الوليد واشترك هو وحمزة عليه السلام فى قَتْل عُتْبة ، ودعا طَلْحة بن أبى طَلحة إلى البراز يوم أحد ، فخرج إليه فقتله ، ودعا مَرْحبٌ إلى البراز يوم خَيْبَر فخرج إليه فقتله .

فأما الخَرْجة التى خرَجَها يوم الخَنْدق إلى عمرو بن عبدوُدّ فإنها أجلّ من أن يقال جليلة ، وأعظم من أن يقال عظيمة ، وماهى إلا كما قال شيخنا أبو الهذيل وقد سأله سائلٌ أيّما أعظم منزلة عند الله ، علىٌّ أم أبو بكر ؟ فقال : يابن أخى ، والله لمبارَزة علىٍّ عَمْرا يوم الخنْدق تَعدِل أعمال المهاجرين والأنصار وطاعاتهم كلها وتُرْبِى عليها فضلا عن أبى بكر وحده . وقد رُوِى عن حذيفة بن اليمان مايُناسِب هذا ، بل ماهو أبلغ منه، رَوَى قيسُ بنُ الرّبيع عن أبى هارون العبْدى ، عن ربيعة بن مالك السعدىّ ، قال : آتيتُ حذيفة بن اليمان فقلت : يا أبا عبدِ الله ، إن الناس يتحدثون(١) عن علىّ بن أبى طالب ومناقبه ، فيقول لهم أهل

---

(١) ب : « يستحدثون » تحريف .

البصيرة : إنكم لتفرِطون فى تقريظ هذا الرجل ، فهل أنت محدِّثى بحديثٍ عنه أذكرُهُ للناس ؟ فقال : ياربيعة ، وما الذى تسألنى عن علىّ ، وما الذى أحدّثك عنه ! والذى نفسُ حُذيفة بيدِهِ لو وضِع جميعُ أعمال أمة محمد صلى الله عليه وآله فى كِفّة الميزان مُنذ بَعث الله تعالى محمدا إلى يوم الناس هذا ، ووُضِع عملٌ واحدٌ من أعمال علىٍّ فى الكفة الأخرى لرَجَح على أعمالهم كلِّها ؛ فقال ربيعة : هذا المَدْح الذى لا يقام له ولا يُقعد ولا يُحمل ، إنى لأظنه إسرافا ياأبا عبد الله ! فقال حذيفة : يالُكَع ، وكيْف لا يُحمل ! وأين كان المسلمون يوم الخنْدق وقد عبر إليهم عمرو وأصحابه فملكهم الهلع والجزع، ودعا إلى المبارزة فأحجَموا عنه حتى برز إليه علىٌّ فقتله ! والذى نفسُ حذيفة بيده لَعمله ذلك اليوم أعظم أجْراً من أعمال أمة محمدٍ صلى الله عليه وآله إلى هذا اليوم وإلى أن تقوم القيامة .

وجاء فى الحديث المرفوع : « إنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله قال ذلك اليومَ حينَ برز إليه : « برَز الإيمانُ كلّه إلى الشِّرْك كلِّه » .

وقال أبو بكر بن عيّاش : لقد ضَرَب علىُّ بنُ أبى طالب عليه السلام ضربةً ما كان فى الإسلام أيْمَنَ منها ضَرْبَتُه عَمْرا يومَ الخندق ، ولقد ضُرِب علىٌّ ضربةً ما كان فى الإسلام أشأَمَ منها ـ يعنى ضربة ابن مُلجَم لعنه الله .

وفى الحديث المرفوع أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا بارَزَ علىٌّ عَمْرا مازال رافعا يدَيْه مُقْمِحا[1] رأسَه نحوَ السماء ، داعياً ربّه قائلاً : اللهم إنّك أخذْتَ منّى عُبيدَةَ يومَ بَدْرَ ، وحمزَةَ يوم أُحد ، فاحفظْ علىّ اليومَ علياً ، ﴿ ربِّ لا تَذَرْنى فردا وأنت خير الوارثين ﴾[2] .

وقال جابرُ بنُ عبد الله الأنصارىّ : والله ماشبّهتُ يومَ الأحزاب ؛ قتلَ علىّ عمْرا

---

(١) أقمح رأسه : كشفها .

(٢) سورة الأنبياء ٤٩ .

وتخاذُل المُشركين بعدَه ، إلا بما قصّه الله تعالى من قِصّة طالوتَ وجالُوت في قوله : ﴿ فهزَمُوهم بإذن الله وقتلَ داودُ جالوتَ ﴾[1] .

وَرَوَى عمرو بن أزهر ، عن عَمْرو بن عُبيد ، عن الحسن أنّ عليّا عليه السلام لمّا قتلَ عَمرا احْتزّ رأسَه وحَمَله فألقاه بين يَدىْ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، فقام أبو بكر وعُمر فقبّلا رأسَه ، ووَجْه رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه يتهلّل ، فقال : هذا النّصر ! أو قال : هذا أوّل النّصر .

وفى الحديث المرفوع : إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال يومَ قُتِل عمرو : «ذهبت ريحُهم ، ولا يغْزوننا بعد اليوم ، ونحن نَغْزُوهم إن شاء الله » .

***

[قصّة غزوة الخندق]

وينبغى أن نذكُر ملخّص هذه القصّة من مغازِى الواقدىّ وابن إسحاق ، قالا : خرج عَمرو بن عبدِ ودّ يومَ الخندق وقد كان شهد بَدْرا فارتُثّ[2] جريحا ، ولم يشهد أُحُدا ، فحضر الخندقَ شاهراً سيفه[3] معلِما ، مُدِلّا بشجاعته وبأسِه ، وخرج معه ضِرارُ بنُ الخطّاب الفِهْرىّ وعِكْرمةُ بنُ أبى جهل وهُبَيرة بن أبى وَهْب ونوفَل بن عبد الله ابن المغيرة المخزوميّون ، فطافوا بخُيولهم على الخندق إصعادا وانحدارا ، يَطلُبون مَوْضعا ضيّقا يَعبرُونه ، حتّى وقفوا على أضيق موضع فيه فى المكان المعروف بالمزار ، فأكرهوا خيولهم على العُبور فعبرتْ ، وصاروا مع المسلمين على أرضٍ واحدة ورسولُ الله صلى الله عليه وآله جالسٌ وأصحابُه قيام على رأسِه ، فتقدّم عمرو بن عَبْد ودّ فدعا

---

(١) سورة البقرة ٢٥١ .
(٢) ارتث : حمل من المعركة جريحاً وبه رمق .
(٣) ب : « نفسه » تحريف .

إلى البراز مرارا ، فلم يقم إليه أحد ، فلمّا أكْثَر ، قام علىّ عليه السلام فقال : أنا أبارزه يارسولَ الله ، فأمرَه بالجلوس ، وأعاد عمرو النّداء والناسُ سُكوت كأنّ على رءوسهم الطّير ، فقال عَمرو : أيّها الناس ، إنّكم تزعمون أنّ قتلاكم فى الجنّة وقتلانا فى النار ، أفما يحبّ أحدكم أن يَقدم على الجنّة أن يُقدِّم عدوًّا له إلى النار ! فلم يقمْ إليه أحد ، فقام علىّ عليه السلام دفعةً ثانية وقال : أنا له يارسولَ الله ، فأمَره بالجلوس ، فجال عَمرو بفرسه مُقبِلا ومدبِرا ، وجاءت عُظماء الأحزاب فوقفتْ مِن وراء الخندق ومدّت أعناقَها تَنظر ، فلمّا رأى عَمرو أنّ أحدا لايجيبه ، قال :

ولقد بُحِحْتُ من النّدا ... ءِ بجمعِهمْ : هل مِن مُبارِزْ!
ووقفتُ مذ جَبُنَ المشيَّـ ... ـعُ موقفَ القِرْنِ المُناجِزْ
إنّى كذلكَ لم أزلْ ... متسرّعا قبلَ الهزاهِزْ
إنّ الشجاعةَ فى الفتَى ... والجود من خير الغرائزْ

فقامَ علىّ عليه السلام فقال : يارسولَ الله ، ائْذَن لى فى مُبارَزته ؛ فقال : ادْن ، فدنا فقلّده سيفَه ، وعمَّمه بعِمامته ، وقال : امضِ لشأنِك ، فلمّا انصرَف قال : « اللّهمّ أعِنه عليه » ، فلمّا قرُب منه قال له مجيبا إيّاه عن شِعره :

لا تَعجلَنّ فقد أتا ... كَ مجيبُ صَوتك غير عاجزْ
ذو نيّةٍ وبَصيرةٍ ... يرجو بذاكَ نجاةَ فائزْ
إنّى لآمُل أن أقِيـ ... ـمَ عليكَ نائحةَ الجنائزْ
مِن ضَرْبةٍ فَوْهاءَ يَبْـ ... ـقَى ذِكرُها عند الهزاهِزْ

فقال عَمرو : مَنْ أنت ! وكان عَمرو شيخا كبيرا قد جاوزَ الثّمانين ، وكان نديمَ أبى طالب بنِ عبدِ المطّلب فى الجاهليّة ، فانتَسب علىّ عليه السلام له وقال : أنا علىُّ بنُ أبى طالب ، فقال : أجَلْ ، لقد كان أبوكَ نديمًا لى وصديقا ، فارجع فإنّى لا أُحبّ أن

أقتلَك ـ كان شيْخنا أبو الخير مصدِّق بن شَبيب النحوىّ يقول إذا مررْنا فى القراءة عليه بهذا الموضع : والله ماأمَره بالرّجوع إبقاءً عليه ، بل خوفا منه ، فقد عرَف قتْلاه ببدْر وأُحُد ، وعلِم أنه إنْ ناهضَه قتلَه ، فاستحْيا أن يُظهِر الفشَل ، فأظهر الإبْقاء والإرعاء ، وإنّه لـكاذب فيهما ـ قالوا : فقال له علىٌّ عليه السلام : لـكنّى أُحِبُّ أن أقتلَك ، فقال يابْن أخى ، إنّى لأكره أن أقتلَ الرجلَ الـكريم مِثلك ، فارجع وراءَك خيرٌ لك ، فقال علىٌّ عليه السلام : إن قريشا تتحدّث عنك أنك قلت : لا يدعونى أحدٌ إلى ثلاثٍ إلا أجبتُ ولو إلى واحدةٍ منها ، قال : أجَلْ ، فقال علىٌّ عليه السلام : فإنّى أدعوكَ إلى الإسلام ، قال : دعْ عنك هذه ، قال : فإنّى أدعوكَ إلى أن ترجع بمن تَبِعك من قريش إلى مكّة ، قال : إذَنْ تتحدّث نساء قريش عنّى أنّ غلاما خدَعَنى ، قال : فإنى أدْعوك إلى البراز ، فحمِىَ عمرو وقال: ما كنتُ أظنّ أنّ أحدا من العرب يرومُها منّى ، ثمّ نزل فعقَر فرسَه ـ وقيل : ضرب وجهه ففرّ ـ وتجاوَلا ، فثارت لهما غبرةٌ وارتْهما عن العيون ، إلى أن سمع الناسُ التـكبيرَ عالياً من تحت الغَبَرة ،فعَلِموا أنّ عليّاً قتَلَه ، وانجلت الغَبَرة عنهما ، وعلىٌّ راكب صدره يحزّ رأسه ، وفرّ أصحابُه ليعبرُوا الخنْدق ، فظفرتْ بهمْ خيلُهم إلاّ نوْفل بن عبد الله ، فإنه قصر فرسه ، فوقع فى الخندق ، فرماه المسلمون بالحجارة ، فقال : يامعاشر الناس ، قتلةٌ أكرمُ من هذه ، فنزل إليه علىٌّ عليه السلام فقَتله ، وأدرك الزُّبيرُ هبيرةَ بنَ أبى وهب فضرَبه فقطع ثفر (١) فرسه وسقطتْ دِرْعٌ كان حمَلَها مِن ورائه ، فأخذَها الزبير ، وألقى عِكْرمةُ رمحه ، وناوش عُمَر بن الخطّاب ضرار بن عمرو ، فحمَل عليه ضِرار حتى إذا وجد عمرُ مَسَّ الرّمْح رَفعه عنه وقال : إنها لَنِعمة مشكورة ، فاحفَظْها يابنَ الخطّاب ، إنّى كنتُ آليتُ ألّا تمكِننِى يداىَ من قتلِ قرشىّ فأقتله . وانصرَف ضرارٌ راجعا إلى أصحابه ، وقد كان جرى له معه مِثل هذه فى يوم أُحُد . وقد ذَكر هاتَيْن القصّتين معاً محمد بنُ عُمَر الواقدىّ فى كتاب المَغازى (٢) .

---

(١) الثفر : السير فى مؤخر السرج . (٢) وانظر سيرة ابن هشام ٣ : ٢٤١ .

(٢٣١)

الأصْلُ :

خِيَارُ خِصَالِ ٱلنِّسَاءِ شِرَارُ خِصَالِ ٱلرِّجَالِ : الزَّهْوُ وَٱلْجُبْنِ وَٱلْبُخْلُ ، فَإِذَا كَانَتِ الْمَرْأَةُ مَزْهُوَّةً لَمْ تُمَكِّنْ مِنْ نَفْسِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ بَخِيلَةً حَفِظَتْ مَالَهَا وَمَالَ بَعْلِهَا ، وَإِذَا كَانَتْ جَبَانَةً فَرِقَتْ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ يَعْرِضُ لَهَا .

***

الشَّرْحُ :

أَخذ هذا المعنَى الطُّغْرائىُّ شاعرُ العَجَم فقال :

الجودُ والإقْـدامُ فى فِتْيانِهِمْ والبُخلُ فى الفَتَيَات والإشفاقُ
والطّعنُ فى الأحداقِ دأبُ رُماتِهِمْ والراميـات سِهامُها الأحداقُ

وله :

قد زادَ طيبَ أحاديث الـكِرامِ بها ما بالـكرائم من جُـبْن ومن بَخَلِ

وفى حكمةِ أفلاطون : مِن أقوى الأسباب فى محبّة الرجل لامرأته واتّفاق ما بينهما أن يكون صوتُها دونَ صوتِهِ بالطّبع ، وتميّزها دون تميُّزِه ، وقلبُها أضعف من قلبِه ، فإذا زاد من هذا عندها شىء على ماعندَ الرجل تنافرَا على مقداره .

وتقول : زُهِىَ الرجلُ علينا فهو مَزْهُوٌّ ، إذا افتخَر ، وكذلك نُخِىَ فهو مَنْخُوٌّ ، من النَّخْوة ، ولا يجوز زَهَا[1] إلّا فى لغةٍ ضعيفة .

وفَرِقتْ : خافتْ . والفَرَق : الخوف .

---

(١) عن ابن السكيت .

(٢٣٢)

الأَصْلُ

وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ : صِفْ لَنَا الْعَاقِلَ ، فَقَالَ : هُوَ الَّذِي يَضَعُ الشَّيْءَ مَوَاضِعَهُ .

فَقِيل : فَصِف لَنَا الجَاهِلَ ، قَالَ : قَدْ قلت .

***

قَالَ الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالَى : يَعْنِي أَنَّ الْجَاهِلَ هُوَ الَّذِي لَا يَضَعُ الشيءَ مَوَاضِعَهُ ، فَكَأَنَّ تَرْكَ صِفَتِهِ صِفَةٌ لَهُ ، إذْ كَانَ بِخِلافِ وصف الْعَاقِلِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ الكلام الذى تَنسُبه العربُ إلى الضَّبّ . قالوا: اختَصمَت الضَّبُع والثعلبُ إلى الضَّبّ ، فقالت الضبع : ياأبا الحِسْل[1] إنّى التقَطْتُ تَمْرة ، قال : طيّبا جنيتِ ، قالت: وإن هذا أخذها منّى ؛ قال : حظَّ نفسه أحرز ، قالت : فإنّى لَطَمْتُه ؛ قال : كريمٌ حَمَى حقيقتَه ، قالت : فلطَمنى ، قال : حُرٌّ انتَصر ؛ قالت : اقضِ بيننا ، قال : قد فعلتُ .

---

(١) الحسل : ولد الضب .

(٢٣٣)

الأصل

وَاللهِ لَدُنيَاكُمْ هَذِهِ أَهْوَنُ فِي عَيْنِي مِنْ عُرَاقِ خِنْزِيرٍ فِي يَدِ مَجْذُومٍ .

***

الشرح :

العُراق : جمع عَرْق ، وهو العَظْم عليه شيءٌ من اللَّحْم ، وهذا من الجُموع النادرة، نحو رَخْل ورُخال وتَوْأم وتُؤام[1] ، ولا يكون شيء أحقر ولا أبغضُ إلى الإنسان من عُراق خنزير فى يدِ مَجْذوم ، فإنّه لم يرْضَ بأن يجعله فى يد مَجْذوم ـ وهو غاية مايكون مِن التّنْفير ـ حتّى جعله عُراق خنزير .

ولعَمْرى لقد صَدَق ـ وما زال صادقا ـ ومن تأمّل سِيرتَه فى حالتَىْ خلوّه من العمل ووِلايته الخلافة عرَف صحة هذا القول .

---

(١) ب : « تنام » تحريف .

(٢٣٤)

الأصْلُ :

إنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ التُّجَّارِ ، وَإنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبادَةُ الْعَبِيدِ ، وإنَّ قَوْمًا عَبَدُوا اللهَ شُكْرًا فَتِلْكَ عِبادَةُ الأحْرارِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مقامٌ جليلٌ تتقاصر عنه قُوى أكثر البَشَرِ ، وقد شرَحْناه فيما تقدّم ، وقلنا : إنّ العبادة لرجاء الثواب تجارةٌ ومُعاوضة ، وإن العبادة لخوفِ العِقاب لمنزِلَةُ مَن يَستجدِي لسلطانٍ قاهرٍ يخاف سطوته .

وهذا معنى قولِه : « عبادةُ العبيد » ، أى خَوف السّوط والعصا ، وتلك ليس عبادةٌ نافعة ، وهى كمن يَعتذِر إلى إنسان خوفَ أذاه ونقْمته ، لا لأنّ ما يَعتذِر منه قبيح لا ينبغى له فِعْلُه ، فأمّا العبادة لله تعالى شكراً لأنعُمه فهى عبادةٌ نافعة ، لأنّ العبادة شكرٌ مخصوص ، فإذا أوقعَها على هذا الوجه فقد أَوقعها الموقع الّذى وُضِعتْ عليه .

فأما أصحابُنا المتكلِّمون فيقولون : ينبغى أن يَفعَل الإنسان الواجبَ لوجْهِ وجوبه ، ويترُكَ القبيح لوجه قبحه ، وربّما قالوا : يُفعل الواجبُ لأنّه واجب ، ويُترك القبيحُ لأنّه قبيح ، والكلامُ فى هذا الباب مشروحٌ مبسوط[1] فى الكُتُب الكلاميّة .

---

(١) ساقطة من ا .

(٢٣٥)

الأصل :

المَرْأَةُ شَرٌّ كُلُّهَا ، وَشَرُّ مَا فِيهَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهَا .

***

الشرح :

حَلَف إنسانٌ عند بعض الحكماء أنه مادخل بابِي شَرٌّ قطّ ؛ فقال الحكيم : فمِنْ أينَ دخلَتِ امرأتُك !

وكان يقال : أسباب فِتنة النساء ثلاثة : عين ناظرة ، وصورةٌ مستحسَنةُ ، وشَهوةٌ قادرة ، فالحكيم من لا يردِّد النظرة حتّى يَعرفَ حقائقَ الصّورة ؛ ولو أنّ رجلا رأى امرأةً فأعجبتْه ثمّ طالَبها فامتنعتْ،هل كان إلّا تارِكَها ! فإن تأبّى عقلُه عليه فى مُطالبَتها كتأبِّيها عليه فى مُساعَفتها قَدَع [١] نفسَه عن لذّته قَدْع الغَيُور إياه عن حُرْمةِ مُسلم .

وكان يقال : من أتعب نفسَه فى الحلال من النِّساء لم يَتُقْ إلى الحرام منهنّ ، كالطَّلِيح [٢] مُناه أن يَستريح .

---

(١) قدع نفسه : منعها وحد من شهوتها .

(٢) الطليح : المتعب .

(٢٣٦)

الأصلُ :

مَنْ أَطَاعَ التَّوَانِيَ ضَيَّعَ الْحُقُوقَ ، وَمَنْ أَطَاعَ الْوَاشِيَ ضَيَّعَ الصَّدِيقَ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى التوانى والعَجْز ، وتقدّم أيضا الكلامُ فى الوِشاية والسِّعاية .

ورُفِع إلى كسرَى أبرَويز أنَّ النصارى الّذين يَحضُرون بابَ المَلِك يُعرَفون بالتجسّس إلى مَلِك الروم ، فقال : مَن لم يَظهَر له ذنب لم يظهر منّا عُقوبة له .

ورُفع إليه أنَّ بعض الناس يُنكِر إصغاءَ المَلِك إلى أصحاب الأخبار ، فوقّع : هؤلاء بمنزلةِ مَداخِل الضِّياء إلى البيت المُظلِم ، وليس لقَطْع موادِّ النور مع الحاجة إليه وجهٌ عند العقلاء .

قال أبو حيّان : أمّا الأصل فى التدبير فصحيح ، لأنَّ المَلِك محتاج إلى الأخبار ، لكن الأخبار تنقسم إلى ثلاثة أوجه :

خبرٌ يتّصل بالدِّين ، فالواجب عليه أن يُبالِغ ويَحتاط فى حِفظه وحِراسته وتحقيقِه ونفى القَذَى عن طريقه وساحته .

وخبرٌ يتّصل بالدّولة ورسومها ، فينبغى أن يتيقّظ فى ذلك خوفا من كيدٍ ينفّذ ، وبغيٍ يَسرِى .

وخبر يدور بين الناس فى منصرَفِهم وشأنِهم وحالهم ، متى زاحمتَهم فيه اُضطَغَنوا

عليك ، وتمنَّوْا زوالَ مُلكِكَ ، وأرصدوا العداوة لك ، وجهروا إلى عدوّك وفتحوا له بابَ الحيلة إليك .

وإنّما لحقَ الناسَ من هذا الخبر هذ االعارض ، لأنّ فى مَنع الملك إيّاهم عن تصرّفاتهم وتتبّعه لهم فى حركاتهم ، كرْبا على قلوبهم ، ولهيباً فى صُدورهم ، ولا بدّ لهم فى الدّهر الصالح والزّمان المعتدل ، والخِصب المتتابع ، والسبيل الآمن ، والخيْرِ المتّصل ؛ من فُكاهة وطِيب واسترِسال وأشَر وبطَر ، وكلّ ذلك من آثار النعمة الدارّة ، والقلوب القارّة ، فإنْ أغضى المَلِك بصرَه على هذا القِسم عاشَ محبوبا ، وإن تنكّر لهم فقد استأسَدهم أعداء . والسلام .

(٢٣٧)

الأَصْلُ :

اَلْحَجَرُ اَلْغَصْبُ فِي الدَّارِ رَهْنٌ عَلَى خَرَابِهَا .

***

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وَقَدْ رُوِيَ مَايناسِبُ هَذَا الْكَلَامَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا عَجَبَ أن يَشْتَبِهَ الكَلَامَانِ فَإِنَّ مُسْتَقَاهُمَا مِنْ قَلِيبٍ ، وَمَفْرَغَهُمَا مِنْ ذَنُوبٍ !

***

الشرح :

الذَّنُوب : الدلو المَلأَى ، ولا يقال لها وهيَ فارغةٌ : ذَنوب ، ومعنى الكلمة أن الدَّار المبنيّة بالحجارة المَغْصوبة ولو بحَجَر واحد ، لا بدّ أن يتعجّل خرابها ، وكأنّما ذلك الحجَر رَهن على حصول التخرّب ، أى كما أنّ الرّهن لا بدّ أن يُفتَكّ ، كذلك لا بدّ لما جُعل ذلك الحجرُ رَهناً عليه أن يحصُل .

وقال ابن بسّام لأبى علىّ بن مُقْلة لمّا بَنَى داره بالزّاهر ببغداد من الغصْب وظُلمِ الرعيّة :

بِجَنْبِك دارَان مَهْدومَتانِ وداركُ ثالثةٌ تُهدَمُ
فلَيتَ السلامَةَ للمُنْصِفِيـ ـن دامتْ فكيف لمن يَظلِمُ !

والدّاران : دارُ أبى الحسن بنِ الفُرات ، ودارُ محمّد بن داودَ بن الجرّاح .

وقال فيه أيضا :

قلْ لابنِ مُقلَةَ مهلاً لا تكن عَجِلاً ... فإنما أنتَ فى أضغاثِ أحلامِ
تَبْنى بأنقاضِ دُورِ الناس مجتهداً ... داراً ستُنقَضُ أيضا بعد أيّامِ [1]

وكان ما تفرّسه ابنُ بسّام فيه حقّا ، فإنّ داره نُقِضتْ حتى سوّيت بالأرض فى أيّام الراضى بالله .

(١) تنقض : تقوض وتهدم .

(٢٣٨)

الأصْلُ :

يَوْمُ الْمَظْلُومِ عَلَى الظَّالِمِ ، أَشَدُّ مِنْ يَوْمِ الظَّالِمِ عَلَى الْمَظْلُومِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلامُ فى الظلم مرارا .

وكان يقال : اذكُر عندَ الظّلم عدلَ الله تعالى فيكَ ، وعند القُدْرة قدرةَ الله تعالى عليك .

وإنما كان يومُ المظلوم على الظالم أشدَّ من يومه على المظلوم ، لأن ذلك اليومَ يومُ الجزاء الكُلّىّ ، والانتقام الأعظم ، وقُصارى[1] أمرِ الظالم فى الدنيا أن يَقتُل غيرَه فيُميته مِيتةً واحدة ، ثمّ لا سبيل له بعد إماتته إلى أن يُدخِل عليه ألمًا آخر ؛ وأمّا يومُ الجزاء فإنه يومٌ لا يموت الظالم فيه فيَستريح[2] ، بل عذابُه دائمٌ متجدِّد ، نعوذ بالله من سُخْطِه وعِقابه !

---

(١) ا : « وقصر » .

(٢) ا : « لا يستريح فيه الظالم » .

(٢٣٩)

الأصلُ :

اتَّقِ اللهَ بعضَ التُّقى وإنْ قَلَّ ؛ وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سِتْراً وإنْ رَقَّ .

***

الشَّرحُ :

يقال فى المَثَل : مالا يُدْرَكُ كلُّه لا يُتْرَكُ كلُّه .

فالواجب على من عَسُرَتْ عليه التقوى بأجمعها أن يتقى الله فى البعض ، وأن يجعل بينه وبينه سِتْرا وإن كان رَقيقا .

وفى أمثال العامّة : اجعل بينك وبين الله رَوْزَنة[1] ، والرَّوْزَنة لفظة صحيحة مُعَرَّبة، أى لا تجعل مابينَك وبينه مَسْدودا مظلما بالكلّيّة .

---

(١) فى اللسان : « الروزنة : الكوة ، وفى المحكم : الخرق فى أعلى السقف . وعن التهذيب : يقال للكوة النافذة الروزن ؛ قال : وأحسبه معرباً .

(٢٤٠)

الأَصْلُ :

إذَا ازْدَحَمَ الْجَوَابُ ، خَفِيَ الصَّوَابُ .

***

الشَّرْحُ :

هـذا نحو أن يورد الإنسانُ إشكالا فى بعض المسائل النَّظَرِيَّة بحضرةِ جماعةٍ من أهـل النظر ، فيتغالب القومُ ويتسابقون إلى الجواب عنـه ، كلٌّ منهم يوردِ ماخَطرَ له .

فلا رَيْب أنّ الصواب يَخفى حينئذ ، وهذه الـكلمة فى الحقيقة أمر للنّاظر البحّاث أن يتحرّى الإنصاف فى بحثه ونظره مع رفيقه ، وألا يقصد المِراء [١] والمغالَبة والقَهر .

---

(١) المراء : الجدال .

(٢٤١)

الأَصْلُ :

إنَّ لِلّهِ تعالى فى كُلِّ نِعْمَةٍ حَقًّا ، فَمَن أَدَّاهُ زَادَهُ مِنْها ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهِ خاطَرَ بِزَوالِ نِعْمَتِهِ .

***

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ فى هذا المعنى .

وجاء فى الخبر : مَن أوتى نعمةً فأدّى حقَّ الله منها برَدِّ اللّهفة ، وإجابةِ الدّعوة وكشْف المظلمة ، كان جديراً بدوامها [ومَنْ قَصَّر قُصِّرَ به][1] .

---

(١) تكملة من د .

(٢٤٢)

الأصْل :

إذَ كَثُرتِ المُقْدُرَةُ قَلّتِ الشّهْوَةُ (١) .

***

الشّرْحُ :

هذا مِثلُ قولهم : كلٌّ مقدورٍ عليه مملول ، ومثل قول الشاعر .

* وكلٌّ كثيرٍ عدوٌّ الطّبيعهْ *

ومثل قولِ الآخر :

وأخٍ كَثُرْتُ عليه حتّى مَلَّنى ... والشىء مملولٌ إذا هو يرخُصُ

ياليتَــه إذْ بَاعَ وُدِّىَ باعَــه ... ممّن يزيد عليــه لا من يَنقُصُ

ولهذا الحُكْم عِلّة فى العِلْمِ العقلىّ ، وذلك أنّ النفس عندهم غنيَّة بذاتها ، مكتفِيَة بنفسها ، غيرُ محتاجة إلى شىء خارج عنهـا ، وإنما عَرضتْ لها الحاجة والفَقْر إلى ماهو خارج عنهـا لمقارَنتها الهيُولَى ، وذلك أن أمْرَ الهيُولى بالضّدّ من أمرِ النّفس فى الفَقْر والحاجـة ، ولمّا كان الإنسانُ مركّبا من النفْس والهيُولَى عرض له الشوقُ إلى تحصيلِ العلوم والقنيات (٢) لانتفاعِه بهما ، والتذاذِه بحصولها ، فأما العلوم فإنه يحصّلها فى شبيهٍ بالخزانة له ، يَرجِع إليها متى شاء ، ويستخرج منها ماأراد ، أَعنِى القُوَى النفسانيّة التى هى محلّ الصّوَر والمعانى على ماهو مذكور فى موضعه . وأما القنيات والمحْسوسات

---

(١) د : « المشورة » .

(٢) القنيات : جمع قنية ؛ بالضم والكسر : ما اكتسبه الإنسان .

فإنه يروم منها مِثل مايَرومُ من تلك ، وأن يُودِعها خِزانةً محسوسةً خارجةً عن ذاته ، لكنّه يَغلَط فى ذلك من حيث يَستكْثِر منها ، إلى أن يتنبّه بالحِكْمة على ماينبغى أن يقتنىَ منها ، وإنّما حَرَص على مامُنِـع لأنّ الإنسان إنما يطلُب ماليسَ عندَه ، لأن تحصيلَ الحاصِلِ مُحال ،والطّلَب إنما يتوجّه إلى المعدوم ، لاإلى الموجود، فإذا حصّله سَكَن وعَلِم أنه قد ادّخره ، ومتى رَجَع إليه وَحْده إن كان ممّا يَبقَى بالذّات، خَزَنَه وتَشوّق إلى شيء آخَر منه ، ولايزال كذلك إلى أن يعلم أنّ الجُزْئيّات لانهايةَ لها ومالا نهاية له ،فلا مَطْمع فى تحصيله ، ولا فائدَة فى النزوع إليه ،ولا وجه لطَلَبه سواء كانَ معلوماً أو محسوسا، فوَجَب أن يقصد من المعلومات إلى الأهمّ ومن المُقْتَنَيات إلى ضَرُورات البدن ومُقيماتِه ، ويَعدِل عن الاستكثار منها ، فإنّ حصولها كلّها مع أنها لانهاية لها غيرُ ممكن ، وكلّما فضل عن الحاجة وقَدْر الكفاية فهو مادّة الأحْزان والهموم ، وضُروب المكاره . والغَلط فى هذا الباب كثير ، وسبب ذلك طمعُ الإنسان فى الغِنَى من مَعدِن الفقر ، لأن الفقر هو الحاجة ، والغنَى هو الاستقلال ، إلى أن يحتاج إليه ، ولذلك قيل : إن الله تعالى غنىّ مُطلَقا ، لأنه غيرُ محتاج البتّة ، فأما من كثُرت قِنياته فإنّه يستكثر حاجاتِه بحَسَب كثرة قِنياته ، وعلى قدْرها رغْبه إلى الاستكثارِ بكثرة وجوه فَقْره ، وقد بُيّن ذلك فى شرائع الأنبياء ، وأخلاقِ الحكماء ، فأما الشىء الرخيصُ الموجود كثيرا فإنّما يُرغَب عنـه ، لأنّه معلوم أنه إذا التمسَ وُجِد والغالى فإنّما يقدر عليه فى الأحيان ويصيبه الواحدُ بعدَ الواحد ، وكلّ إنسان يتمنى أن يكون ذلك الواحدَ ليصيبَه وليحصلَ له مالا يَحصُل لغيره .

(٢٤٣)

الأصلُ :

احْذَرُوا نِفارَ النِّعَمِ ، فَما كُلُّ شارِدٍ بِمَرْدُودٍ .

***

الشرحُ :

هذا أمرٌ بالشُّكْرِ عَلَى النعمة وتركِ المعاصى ، فإنّ المعاصىَ تُزِيل النِّعَم كما قيل :

إذا كنتَ فى نِعمةٍ فارْعَها فإنّ المَعاصى تُزِيل النِّعَمْ

وقال بعض السلف : كُفْران النِّعْمة بَوار ، وقلّما أقلعتْ نافرةٌ فرجعتْ فى نصابها ، فاستَدْعِ شارِدَها بالشّكر ، واستَدِمْ راهنها بكَرَم الجِوار ، ولا تحسب أنّ سُبوغَ ستر الله عليك غير متقلّص عمّا قليل عنك إذا أنتَ لم ترْجُ لله وَقارا .

وقال أبو عصمة : شَهِدتُ سُفيانَ وفُضَيْلًا[1] فما سمعتُهما يتذاكران إلّا النعم ، يقولان : أنعم الله سبحانه علينا بكذا ، وفَعل بنا كذا .

وقال الحسن[2] : إذا استوى يَوْماك فأنتَ ناقص ، قيل له : كيف ذاك ؟ قال : إنْ زادَكَ اللهُ اليومَ نِعماً فعليك أن تَزْداد غدًا له شُكرًا .

وكان يقال : الشكر جُنّة[3] من الزّوال ، وأَمَنة من الانتقال .

وكان يقال : إذا كانت النعمة وَسيمةً فاجعَل الشكرَ لها تَميمة[4] .

---

(١) هو فضيل بن عياض .
(٢) هو الحسن البصرى .
(٣) جنة : وقاية .
(٤) التميمة : العوذة .

(٢٤٤)

الأصلُ :

الكَرَمُ أعْطَفُ مِنَ الرَّحِمِ .

***

الشرحُ :

مِثلُ هذا المعنى قولُ أبى تمام لابن الجَهْمِ :

إلّا يَكُنْ نسبٌ يؤلِّفْ بيننا ... أدبٌ أقمناه مقامَ الوالدِ (١)

أو يَختلِفْ ماء الوصالِ فماؤنا ... عَذْبٌ تحدَّرَ من غمامٍ واحدِ

ومن قصيدةٍ لى فى بعض أغراضى :

ووشائج الآداب عاطِفَةُ ا ... لفُضَلاء فوقَ وَشائِج النَّسَبِ (٢)

---

(١) ديوانه ١ : ٤٠٧ ، وقبله :

إنْ يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاءِ فإنَّنَا ... نَغدُو وَنَسْرِى فى إخَاءٍ تَالدِ

(٢) فى الأصول : « الأنساب » ، ولا يستقيم الوزن .

(٢٤٥)

الأَصْلُ :

مَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا قد تقدّم فى وصيّته عليه السلام لولَدِه الحسن .

ومن كلام بعضهم : إنّى لأستحيي أن يأتينى الرجُلُ يحمَرُّ وجهُهُ تارةً من الخجَل ، أو يصفرّ أخرى من خوف الرّدّ قد ظَنّ بى الخيرَ وباتَ عليه وغَدَا علىّ أن أردّه[1] خائبا .

---

(١) ا : « يرد » .

(٢٤٦)

الأَصْلُ :

أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ مَا أَكْرَهْتَ نَفْسَكَ عَلَيْهِ .

***

الشَّرْحُ :

لا رَيْبَ أنّ الثّواب على قدر المَشقّة ، لأنه كالعِوَض عنها [١] ، كما أنّ العِوَض الحقيقيّ عِوَضٌ عن الألم ، ولهذا قال صلى الله عليه وآله : « أفضل العبادة أحمزُها » [٢] . أى أشقّها .

---

(١) ا : « منها » .
(٢) نقله ابن الأثير فى النهاية ١ : ٢٥٨ قال : يقال : رجل حامز الفؤاد وحميزه ؛ أى شديد .

(٢٤٧)

الأصْلُ :

عَرَفْتُ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ ٱلْعَزَائِمِ ، وَحَلِّ ٱلْعُقُودِ ، وَنَقْضِ ٱلْهِمَمِ .

***

الشَّرْحُ :

هذا أحدُ الطُّرُق إلى معرفة البارئ سبحانه ، وهو أن يَعزِم الإنسانُ على أمرٍ ، ويصمِّمَ رَأيه عليه ، ثمّ لا يَلبَثَ أن يُخطِرَ اللهُ تعالى بباله خاطراً صارِفاً له عن ذلك الفعل ، ولم يكنْ في حِسابه ، أي لولا أن في الوجود [1] ذاتاً مدبّرة لهذا العالم لما خطَرت الخواطرُ التي لم تكن محتَسبة ، وهذا فصلٌ يتضمّن كلاماً دقيقا يذكره المتكلّمون في الخاطر الّذي يَخطِر عن غيرِ مُوجب لخطُوره ؛ فإنه لا يجوز أن يكون الإنسان أخطَرَه بباله ؛ وإلّا لكان ترجيحا من غير مرجّح لجانب الوجود على جانب العدم ، فلابدّ أن يكون المخطِر له بالبال شيئاً خارجا عن ذات الإنسان ، وذاك هو الشيء المسمَّى بصانِع العالم .

وليس هذا الموضع ممّا يحتمِل استقصاء القولِ في هذا المبحَث .

ويقال : إنّ عَضُد الدّولة وقعتْ في يده قصّة وهو يتصفّح القِصص ، فأمر بصَلْب صاحبها، ثمّ أتبع الخادمَ خادماً آخر يقول له : قل للمطهّر – وكان وزيرَه – لَا يَصلُبه ، ولكن أخرِجه من الحبْس فاقطعْ يدَه اليمنى ؛ ثم أتبعَه خادما ثالثا ، فقال : بل تقول له: يقطع أعصابَ رجليْه ، ثم أتبعه خادماً آخرَ فقال له : ينقله إلى القَلْعة بسِيرافَ في قيودِه فيجعله هناك ، فاختلفتْ دَواعيه في ساعةٍ واحدة أربع مرّات .

---

(١) في ب : « الجود » تحريف .

(٢٤٨)

الأصل

مَرَارَةُ الدُّنْيَا حَلَاوَةُ الْآخِرَةِ ، وَحَلَاوَةُ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الْآخِرَةِ .

***

الشرح :

لمّا كانت الدنيا[1] ضدّ الآخرة ، وجَب أن يكون أحكام هذه ضدّ أحكام هذه ، كالسّواد يجمع البصَر والبياض يفرق البصر ، والحرارة توجب الخفّة ، والبرُودة توجب الثّقل ، فإذا كان فى الدّنيا أعمالٌ هى مرّة المَذاق على الإنسان قد ورد الشرعُ بإيجابها فتلك الأفعال تقتضى[2] وتوجِب لفاعلها ثواباً حُلْوَ المَذاق فى الآخرة .

وكذلك بالعكس ما كان من المشتهيات الدنياويّة التى قد نهى الشرعُ عنها توجب ، وإن كانت حلوة المذاق مرارة العقوبة فى الآخرة .

---

(١) ا : « الحياة الدنيا ضد الحياة الآخرة » .   (٢) ا : « تقضى » .

(٢٤٩)

الأَصْلُ :

فَرَضَ ٱللهُ ٱلْإِيمَانَ تَطْهِيراً مِنَ ٱلشِّرْكِ ، وَٱلصَّلَاةَ تَنْزِيهاً عَنِ ٱلْكِبْرِ ، وَٱلزَّكَاةَ تَسْبِيباً لِلرِّزْقِ ، وَالصِّيَامَ ابْتِلَاءً لِإِخْلَاصِ الْخَلْقِ ، وَالْحَجَّ تَقْوِيَةً لِلدِّينِ ، وَالْجِهَادَ عِزًّا لِلْإِسْلَامِ ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَصْلَحَةً لِلْعَوَامِّ ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ رَدْعاً لِلسُّفَهَاءِ ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنْمَاةً لِلْعَدَدِ ، وَٱلْقِصَاصَ حَقْناً لِلدِّمَاءِ ، وَإِقَامَةَ ٱلْحُدُودِ إِعْظَاماً لِلْمَحَارِمِ ، وَتَرْكَ شُرْبِ ٱلْخَمْرِ تَحْصِيناً لِلْعَقْلِ ، وَمُجَانَبَةَ السَّرِقَةِ إِيجَاباً لِلْعِفَّةِ ، وَتَرْكَ ٱلزِّنَا تَحْصِيناً لِلنَّسَبِ ، وَتَرْكَ ٱللِّوَاطِ تَكْثِيراً لِلنَّسْلِ ، وَالشَّهَادَاتِ اسْتِظْهَارًا عَلَى الْمُجَاحَدَاتِ ، وَتَرْكَ ٱلْكَذِبِ تَشْرِيفاً لِلصِّدْقِ ، وَالسَّلَامَ أَمَاناً مِنَ الْمَخَاوِفِ ، وَٱلْأَمَانَةَ نِظَاماً لِلْأُمَّةِ ، وَٱلطَّاعَةَ تَعْظِيماً لِلْإِمَامَةِ .

***

الشَّرحُ :

هذا الفصلُ يتضمّن بيانَ تعليل العبادات إيجابا وسَلْبا .

قال عليه السلام : فَرَضَ اللهُ الإيمانَ تَطْهِيرا مِن الشِّرْكِ ، وذلك لأنّ الشِّرْكَ نَجاسةٌ حُكْمية لا عينية ، وأىّ شيء يكون أنجسَ من الجَهل أو أقبح ! فالإيمان هو تطهيرُ القَلْب من نجاسةِ ذلك الجهل .

وفُرِضت الصّلاة تنزيها من الكِبْر ، لأنّ الإنسان يقوم فيها قائما ، والقيام مُنافٍ للتكبُّر وطاردٌ له ، ثم يَرفع يديه بالتّكبير وقتَ الإحرام بالصّلاة فيصير على هيئة من يمدّ عنقَه ليوسِّطه السَّيّاف ، ثم يستكتف كما يفعله العبيد الأذلاء بين يدَى

السادة العظماء ، ثمّ يركع على هيئة من يمدّ عنقه ليضربها السيّاف ، ثمّ يسجد فيضع أشرف أعضائه وهو جبهته على أدون المواضع ، وهو التراب . ثم تتضمّن الصلاةُ من الخضوع والخشوع والامتناع من الكلام والحركة الموهمة لمن رآها أنّ صاحبها خارجٌ عن الصّلاة ، وما فى غضون الصلاة من الأذكار المتضمّنة الذُّلَّ والتواضع لعظمة الله تعالى .

وفُرِضت الزّكاة تسبيبا للرزق ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَما أنفقتُمْ من شيء فهو يُخلِفه ﴾[1] ، وقال : ﴿ مَنْ ذَا الّذِى يُقرِضُ اللهَ قَرْضًا حسنًا فيُضَاعِفَه له ﴾[2] .

وفُرِض الصيامُ ابتلاء لإخلاص الخلْق ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله حاكيا عن الله تعالى : « الصّومُ لى وأنا أجْزِى به » ، وذلكَ لأنّ الصوم أمرٌ لا يطّلع عليه أحد ، فلا يقوم به على وجهه إلّا المخلصون .

وفُرِض الحجّ تقويةً للدِّين ، وذلك لما يحصُل للحاجّ فى ضِمنه من المتاجِر والمكاسِب ، قال الله تعالى : ﴿لِيَشْهَدُوا مَنافعَ لهم ويَذْكُروا اسمَ اللهِ على ما رَزَقَهم مِنْ بَهِيمةِ الأنعام﴾[3] . وأيضاً فإنّ المشركين كانوا يقولون : لولا أنّ أصحاب محمّد كثير وأُولُو قوّة لما حجّوا ، فإنّ الجيشَ الضعيفَ يعجز عن الحجّ من المكان البعيد .

وفُرِض الجهادُ عزًّا للإسلام ، وذلك ظاهر ، قال الله تعالى : ﴿ ولوْلَا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لَهُدِّمتْ صَوَامعُ وبِيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسمُ اللهِ كثيرا﴾[4] ، وقال سبحانه : ﴿ وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباطِ الخيل تُرْهِبون به عدوّ الله وعدوَّكُمْ ﴾[5] .

---

(١) سورة سبأ ٣٩   (٢) سورة الحديد ١١ .
(٣) سورة الحج ٢٨   (٤) سورة الحج ٤٠ .
(٥) سورة الأنفال ٦٠ .

وفُرِض الأمْر بالمعروف مصلحةً للعوامّ ، لأنّ الأمر بالعدل والإنصاف وردّ الودائع، وأداء الأمانات إلى أهلها ، وقضاء الديون ، والصِّدق فى القول ، وإنجاز الوعد ، وغير ذلك من محاسن الأخلاق ، مصلحة للبَشَر عظيمة لا محالة .

وفُرِض النهىُ عن المنكَر رَدْعاً للسّفهاء ، كالنّهى عن الظلم والكَذِب والسَّفَه ، وما يَجرى مَجرَى ذلك .

وفُرِضت صِلَة الرَّحِم مَنْماةً للعَدَد ، قال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « صلة الرَّحم تزيد فى العمر وتُنَمِّى العَدَد » .

وفُرِض القِصاصُ حَقْناً للدِّماء ، قال سبحانه : ﴿ وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولى الألبابِ ﴾[1] .

وفُرِضت إقامة الحدود إعظاما للمحارم ، وذلك لأنّه إذا أقيمت الحدودُ امتنع كثيرٌ من الناس عن المعاصى التى تجبُ الحدُودُ فيها ، وظهر عظم تلك المعاصِى عند العامّة فكانوا إلى تركها أقرب .

وحُرِّم شربُ الخمْر تحصينا للعقل ، قال قوم لحكيم : اشربْ اللّيلة معنا ، فقال : أنا لا أشرَب مايَشرَب عقْلى ؛ وفى الحديث المرفوع : « إنّ مَلِكا ظالمًا خيَّر إنسانا بين أن يُجامِع أمّه أو يَقتل نفسا مؤمنة ، أو يَشرَب الخمر حتى يَسكر ، فرأى أنّ الخمر أهوَنُها ، فشَرِب حتى سَكِر ، فلمّا غَلَبه قام إلى أمّه فوطِئها ، وقام إلى تلك النفس المؤمِنة فقتَلها » ؛ ثم قال عليه السلام : « الخمرُ جماعُ الإثم ، الخمر أمُّ المعاصى » .

وحُرِّمت السَّرِقة إيجابا للعفّة ، وذلك لأنّ العفّة خُلُقٌ شريف ، والطمعُ خُلُقٌ دنِىء ، فحرمت السَّرقة ليتمرّن الناسُ على ذلك الخُلقِ الشريف ، ويجانبوا ذلك الخُلقَ الذميمَ ، وأيضا حُرِّمت لما فى تحريمها من تحصين أموال الناس .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩ .

وَحرِّم الزنا تحصينا للنَّسَب ، فإنه يُفضِى إلى اختلاط المِياه واشتباهِ الأنساب ، وألّا يُنسَب أحدٌ بتقديرِ ألّا يشرَع النكاح إلى أب ، بل يكون نَسبُ الناس إلى أمّهاتهم ، وفى ذلك قلبُ الحقيقة ، وعكسُ الواجب ، لأنّ الولد مخلوقٌ من ماء الأب ، وإنّما الأمّ وعاء وظَرْف .

وحُرِّم اللِّواط تكثيراً للنَّسل ، وذلك اللِّواط بتقديرِ استفاضتِه بين الناس والاستغناء به عن النِّساء يُفضِى إلى انقطاعِ النّسل والذّرّية ، وذلك خلاف مايريد الله تعالى من بقاء هذا النوع الشّريف الّذى ليس فى الأنواع مِثله فى الشّرف ، لمكان النفس الناطقة الّتى هى نسخةٌ ومِثالٌ للحَضْرة الإلهية ، ولذلك سَمّت الحكماء الإنسانَ العالَمَ الصغير .

وحُرِّم الاستمناء باليد وإتيان البهائِم للمعنى الّذى لأجلِه حُرِّم اللِّواط ، وهو تقليل النَّسْل ؛ ومن مستحسَن الكلمات النبويّة قولُه عليه السلام فى الاستمناء باليد : « ذلك الوَأْد الخفىّ » ، لأنّ الجاهليّة كانت تَئِد البناتِ أى تَقتُلُهنّ خَنْقا ، وقد قدّمنا ذِكْرَ سبب ذلك ، فشبَّه عليه السلام إتلاف النطفة الّتى هى ولدٌ بالقوّة بإتلاف الولد بالفعل .

وأوجبتْ الشهاداتُ على الحقوق استظهارا على المجاحَدات ؛ قال النبىّ صلّى الله عليه وآلهِ : « لو أُعطِىَ الناسُ بدعاوِيهم لاستَحلّ قومٌ من قوم دماءهم وأموالهم » ، ووَجَب تركُ الكَذِب تشريفا للصِّدق ، وذلك لأنّ مصلحة العامة إنما تتمّ وتنتظم بالصِّدق ، فإنّ الناس يَبنُون أكثرَ أمورهم فى معاملاتهم على الأخبار ، فإنّها أعمّ من العِيان والمُشاهَدة ، فإذا لم تكن صادقةً وقع الخطأ فى التدبيرات ، وفَسَدتْ أحوالُ الخَلْق .

وشُرِع رَدُّ السلام أمانا من المخاوِف ، لأنّ تفسير قولِ القائل : « سلامٌ عليكم » ، أى لا حَرْبَ بينى وبينكم ، بل بينى وبينكم السلام ، وهو الصلح .

وفُرِضت الإمامة نظاما للأمّة ؛ وذلك لأنّ الخلْق لا يرتفع الهرْج والعَسْف والظّلم والغَضَب والسّرقة عنهم إلا بوازِعٍ قويّ ، وليس يكْفِى فى امتناعهم قُبح القبيح ، ولا وعيدُ الآخرة ، بل لابدّ لهم من سلطان قاهر ينظّم مصالحهم ، فيَردَع ظالمَهم ، ويأخذ على أيدى سُفَهائهم .

وفُرِضت الطّاعة تعظيما للإمامة ، وذلك لأن أمْرَ الإمامة لايتمّ إلّا بطاعة الرّعيّة ، وإلّا فلو عَصَت الرعيّة إمامَها لم ينتفعوا بإمامتِه ورئاستِه عليهم .

(٢٥٠)

الأصْلُ :

وكان عليه السلام يقول :

أَحْلِفُوا الظَّالِمَ إذَا أَرَدْتُمْ يَمِينَهُ بِأَنَّه بَرِىءٌ مِنْ حَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِه ، فَإِنَّهُ إذَا حَلَفَ بِهَا كَاذِباً عُوجِلَ ، وَإِذَا حَلَفَ بِاللهِ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَمْ يُعَاجَلْ ، لأنَّه قَدْ وَحَّدَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

***

الشَّرْحُ :

[ماجرى بين يحيى بن عبد الله وبين ابن المصعب عند الرشيد]

رَوَى أبو الفرج علىُّ بن الحسين الأصْبَهانّى فى كِتاب '' مَقاتِل الطالِبيّين '' أن يحيى بن عبد الله بن الحسَنَ بن علىٍّ بن أبى طالب عليه السلام لمّا أمّنه الرشيدُ بعد خروجه بالدَّيْلم وصار إليه بالغَ فى إكرامه وَبِرِّه ، فسَعَى به بعد مدّة عبدُ الله بنُ مصعب الزبيرىّ إلى الرشيد ـ وكانَ يُبغضه ـ وقال له : إنه قد عاد يدعو إلى نفسه سِرًّا ، وحَسَّنَ له نقضَ أمانه، فأحضَرَه وجَمَع بينهو بين عبد الله بن مصعب ليناظِرَه فيما قَذَفَه به ورفَعَه عليه فجَبهَهَ ابنُ مصعب بحضرة الرشيد ، وادّعى عليه الحركَةَ فى الخروج وشقّ العصا ، فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، أتصدّق هذا علىّ وتَستنصِحه ؛ وهو ابنُ عبدِ الله بن الزّبير ، الذى أدخَل أباكَ عبدَ الله وولده الشِّعب ، وأضرَم عليهم النار حتى خلَّصه[1] أبو عبدالله الجدلىّ ، صاحب علىٍّ بن أبى طالب عليه السلام منه عَنْوة ؛ وهو الذى تركَ الصلاة على

---

(١) مقاتل الطالبيين : « تخلصه » .

رسول الله صلى الله عليه وآله وأربعين جُمعة فى خُطبته ، فلمّا التاثَ عليه الناسُ قال : إن له أُهَيل سُوء إذا صَلّيت عليه أو ذكرته أتلعوا أعناقهم واشرأبُّوا لذكره ، فأكره أن أسرّهم أو أقرّ أعينهم (١) ؛ وهو الذى كان يَشتُم أباك ويُلصِق به العيوب حتى وَرِم كبدُه ، ولقد ذبحتْ بقرةٌ يوما لأبيك فوُجِدتْ كبدُها سوداء قد نقِبت ، فقال علىّ ابنه : أما ترى كبدَ هذه البقرة يا أبت ! فقال : يابنىّ هكذا ترك ابنُ الزّبير كبد أبيك ، ثمّ نفاه إلى الطائف ، فلمّا حضرته الوفاة قال لابنه علىّ : يا بنىّ إذا مِتّ فالحقْ بقومك من بنى عبد مناف بالشام ، ولا تقِم فى بلدٍ لابن الزبير فيه إمْرة ، فاختار له صحبةَ يزيد ابن معاوية على صحبة عبدِ الله بن الزبير . ووالله إنّ عداوةَ هذا يا أميرَ المؤمنين لنا جميعا بمنزلةٍ سواء ، ولكنه قوِى علىّ بك ، وضعُفَ عنك ، فتقرّبَ بى إليك ليظفَر منك بى بما يريد ، إذا لم يقدِر على مثله منك ، وما ينبغى لك أن تسوّغه ذلك فىّ ، فإن معاوية بن أبى سُفيان وهو أبعَد نسبا منك إلينا ذكَر الحسنَ بنَ علىّ يوما فسبّه ، فساعده عبدُ الله بن الزبير على ذلك ، فزجره وانتهره ، فقال : إنما ساعدتُك يا أمير المؤمنين ، فقال : إن الحسَن لحمى آكُلُه ولا أُوكِلُه . ومع هذا فهو الخارجُ مع أخى محمّد على أبيك المنصور أبى جعفر ، والقائلُ لأخى فى قصيدة طويلةٍ أولها :

إنّ الحمامة يومَ الشّعب مِن وثنٍ (٢) هاجت فؤاد مُحِبٍّ دائم الحَزَنِ

يُحرّض أخى فيها على الوثوب والنهوض إلى الخلافة ، ويمدَحُه ويقول له :

لا عزّ رُكنا نزارٍ عند سَطوتها إن أسلمَتك ولا رُكنا ذوى يمَنِ
ألستَ أكرمهم عُوداً إذا انتسبوا يوما وأطهرَهم ثوباً من الدّرَنِ !

---

(١) مقاتل الطالبيين : « فلا أحب أن أقر عينهم بذكره » .

وأعظمَ الناس عند النـــاس منزلةً ... وأبعدَ النـاسِ من عيْبٍ ومن وَهَن !
قومُوا بِبيْعَتِكم نَنْهض بطاعتها ... إنّ الخلافة فيكُمْ يابنى حَسَنِ
إنّا لنأمُل أن ترتدّ أُلفتنـــاَ ... بعد التّدابُر والبغضـاء والإِحَنِ
حتّى يثـابَ على الإحسان مُحسِنُنَا ... ويأْمَنَ الخائفُ المأخوذُ بالدِّمَنِ
وتنقضى دولةٌ أحكَامُ قادتِهـا ... فينا كأحكام قوم عابدِى وثَنِ
فطـالما قد بروْا بالجوْر أعظمنـا ... برْىَ الصّناع قِداحَ النَّبْع بالسفنِ

فتغيّر وجهُ الرّشيد عند سماعِ هـذا الشعر ، وتغيّظ على ابن مصعب ، فابتدأ ابنُ مصعب يحلِف بالله الّذى لا إله إلّا هو وبأيمان البيعة أنّ هذا الشِّعر ليس له ، وأنه لسَدِيف، فقال يحيى : والله ياأمير المؤمنين ماقاله غيرُه ، وما حلفتُ كاذبا ولا صادقا بالله قبل هذا ، وإنّ الله عز وجلّ إذا مجّده العبدُ فى يمينه فقال : واللهِ الطالب الغالب الرحمن الرّحيمُ ، استحْيَا أن يعاقبَه ؛ فدَعْنى أن أحلفَه بيمينٍ ما حَلف بها أحدٌ قطُّ كاذبا إلا عُوجِل ، قال فحلّفه ؛ قال قل : برِئتُ من حوْل الله وقوّته ، واعتصمتُ بحولى وقوّتى ، وتقلّدت الحولَ والقوّة من دون اللهِ ، استكباراً على الله واستعلاءً عليه ، واستغناء عنه إن كنتُ قلتُ هَذا الشِّعْر ! فامتنع عبدُ اللهِ من الحلِف بذلك، فغَضِب الرشيد ، وقال للفضل بن الربيع : ياعباسىُّ ماله لا يحلِف إن كان صادقا ! هـذا طَيْلَسانى علىّ ، وهذه ثيابى لو حَلّفنى بهذه اليمين أنّها لى لحلفتُ . فوَكزَ الفضلُ عبدَ الله برِجْله ـ وكان له فيه هوًى ـ وقال له : احلِف وَيحك ! فجعل يحلِف بهـذه اليمين ، ووجْهُه متغيّر، وهو يُرعَد ، فضرَب يحيى بين كتفيه ، وقال : يابن مُصعب ، قَطَعتَ عُمرَك ، لا تُفْلِح بعدَها أبدا !

قالوا : فما برِح من موضعه حتى عرَض له أعراضُ الُجذام ، استدارَتْ عينـاه ،

وتفقأ وجهُه ، وقام إلى بيته فتقطّع وتشقّق لحمه وانتثر شعرُه ، ومات بعد ثلاثة أيام ، وحضر الفضلُ بنُ الربيع جنازَته ، فلمّا جُعل فى القبر انخسَفَ اللّحد به حتى خرجتْ منه غبَرة شديدة ، وَجَعل الفضلُ يقول : الترابَ التّرابَ ! فطرح الترابُ وهو يهوى، فلم يستطيعوا سَدّه حتى سقف بخشب ، وطمّ عليه ؛ فكان الرشيد يقول بعد ذلك للفضل : أرأيت ياعباسيّ ماأسرَع ، ماأديل ليحيي[1] من ابن مصعب[2] !

---

(١) ب : « من يحيي » .

(٢) مقاتل الطالبيين ٤٧٤ ـ ٤٧٨ .

(٢٥١)

الأصْلُ :

يَابْنَ آدَمَ ، كُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ، وَاعْمَلْ فِي مَالِكَ مَاتُؤْثِرُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهِ مَنْ بَعْدَكَ .

* * *

الشَّرْح :

لا ريبَ أن الإنسان يُؤثِر أن يُخرَج مالُه بعد موته فى وجوه البِرّ والصدقات والقُرُبات ليَصِل ثوابُ ذلك إليه ، لكنّه يضِنّ بإخراجه وهو حيٌّ فى هذه الوجوه لحبّه العاجلة وخوفِه من الفقر والحاجة إلى الناس فى آخِر العُمر ، فيقيم وصيًا يَعْمَل ذلك فى ماله بعد موته .

وأوصَى أميرُ المؤمنين عليه السلام الإنسانَ أن يَعمَل فى ماله وهو حىّ ما يُؤثِر أن يُجعَل فيه وصيّة بعد موته ، وهذه حالة لا يَقدِر عليها (١) إلّا من أخَذَ التوفيقُ بيدِه .

---

(١) ا : « عليها أحد » .

(٢٥٢)

الأصل :

اَلْحِـدَّةُ ضَرْبٌ مِنَ اَلْجُنُونِ ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْـدَمُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَنْـدَمْ فَجُنُونُهُ مُسْتَحْـكِمٌ .

***

الشرح :

كان يقال : الحِدّة كُنْيَة الجهل .

وكان يقال : لا يصحّ لحديدٍ رأْيٌ ، لأنّ الحدّة تُصْدِئُ العَقْل كما يُصْدِئُ الخَلُّ المِرآة ، فلا يرَى صاحبُه فيه صورة حَسن فيفعَله ، ولا صُورة قبيح فيجتنِبه .

وكان يقال : أوّل الحِدّة جنون وآخِرها ندَم .

وكان يقال : لا تحمِلنّك الحِدّة على اقتراف الإثم ، فتَشفِيَ غيظَك ، وتُسقِم دِينَك .

(٢٥٣)

الأصْلُ :

صِحَّةُ الجَسَدِ مِنْ قِلَّةِ الحَسَدِ .

***

الشَّرْحُ :

معناه أنّ القليل الحسَدِ لايزال مُعَافًى فى بدنه ، والكثير الحسد يُمْرِضه مايجده فى نفسه من مَضاضَة المُنافسة ، وما يتجرّعه من الغيظ ، ومزاجُ البدَن يتْبع أحوالَ النّفس .

قال المأمون : ما حَسَدْتُ أحدا قطّ إلاّ أبا دُلفٍ على قول الشاعر فيه :

إنّمــا الدّنيا أبو دُلَفٍ　　بين باديهِ ومحتَضَرِهْ [1]

فإذا وَلَّى أبُو دُلَفٍ　　ولّت الدنيـا على أثَرِهْ

وَروَى أبو الفرج الأَصْبَهانىّ عن عَبْدوس بن أبى دُلفٍ قال : حدّثنى أبى ،قال:قال لى المأمون : ياقاسم ، أنت الذى يقول فيك علىُّ بنُ جَبَلة :

* إنما الدُّنيا أبو دُلَفٍ *

البيتين ، فقلت مُسرِعا : وما ينفعنى ذلك ياأمير المؤمنين معقوله فىّ :

أبا دلفٍ ياأ كذبَ الناس كلِّهمْ　　سِوایَ فإنّى فى مَديحك أ كذَبُ

---

(١) الأغانى ٨ : ٢٥٥ .

ومع قول بكر بن النطّاح فيّ :

أبا دُلَفٍ إنّ الفقير بعَيْنِه ... لَمَنْ يرتجي جَدْوَى يديكَ ويأْمُلُهْ
أرى لك بابا مُغلقا متمنِّعا ... إذا فتحوه عنك فالبؤسُ داخِلُهْ
كأنّكَ طبلٌ هائلُ الصوتِ معجِبٌ ... خَلِيٌّ من الخيرات تَعْسٌ مَداخِلُهْ
وأعجب شيء فيك تسليمُ إمْرَةٍ ... عليك على طَنْزٍ وأنّك قابِلُهْ

قال : فلما انصرَفْتُ قال المأمون لمن حوله : لله دَرّه ! حَفِظ هجاءَ نفسِه حتى انتفع به عندى ، وأطفأ لهيبَ المُنافَسة .

(٢٥٤)

الأصل

وقالَ عليهِ السلامُ لِكُمَيْلِ بنِ زيادٍ النَّخَعىّ :

يا كُمَيْلُ ، مُرْ أَهْلَكَ أَنْ يَرُوحُوا فِي كَسْبِ المَكَارِمِ ، وَيُدْلِجُوا فِي حَاجَةِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ ، فَوَالذى وَسِعَ سَمْعُهُ الأصْواتَ ؛ مامِنْ أَحَدٍ أَوْدَعَ قلباً سُرُوراً إلَّا وَخَلَقَ اللهُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفاً ، فَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَائِبَةٌ جَرَى إِلَيْهَا كَالْمَاءِ فِي انْحِدَارِهِ ؛ حَتَّى يَطْرُدَها عَنْه كما تُطْرَدُ غَرِيبةُ الْإِبِلِ .

***

الشرح

قال عمرو بنُ العاصِ لمعاوية : مابقىَ من لذّتك ؟ فقال : مامن شىء يُصيبُه الناس من اللّذّة إلّا وقد أصبتُه حتى مَلِلتُه ، فليس شىء عندى اليوم ألذّ من شربةِ ماء بارد فى يومٍ صائف ، ونظرى إلى بَنِىّ وبناتى يدرُجون حولى ؛ فما بقىَ من لذّتك أنت ؟ فقال : أرضٌ أغرسُها وآكُلُ ثمرتها ، لم يبق لى لذّة غير ذلك . فالتفت معاويةُ إلى وَرْدان غلام عَمْرو ، فقال : فما بقى من لذّتك ياوَرْدان ؟ فقال : سرورٌ أُدخِله قلوب الإخوان ، وصنائعُ أعتقِدُها فى أعناق الكرام ؛ فقال معاوية لعَمْرو : تبًّا لمجلسى ومجلسك ! لقد غلبنى وغلبك هـذا العبد ، ثم قال : ياوَرْدان ، أنا أحقُّ بهذا منك ؛ قال : قد أمكنتك [1] فافعلْ .

---

(١) فى « أمكنك » .

فإن قلت : السرور عَرَضٌ ، فكيف يَخلُق الله تعالى منه لُطفًا ؟

قلت : مِنْ هاهنا هى مِثلُ « مِن » فى قوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (١) ، أى عِوَضا منكم .

ومثلُه :

فليتَ لنا من ماءِ زمزمَ شَرْبَةً مبرَّدة باتتْ على طَهيانِ (٢)

أى ليت لنا شربةً مبرَّدة باتتْ على طَهيان ، وهو اسمٌ جبَل ؛ بدلًا وعِوضا من ماءِ زَمْزم .

(١) سورة الزخرف ٦٠

(٢) البيت للأحول الكندى ـ اللسان طها .

(٢٥٥)

الأصل

إذا أمْلَقتُمْ فتاجِرُوا اللهَ بالصَّدَقةِ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى الصّدقة .

وقالت الحكماء : أفضل العِبادات الصَّدَقة ، لأنّ نفعها يتعدّى ، ونفعُ الصلاة والصّوم لا يتعدّى .

وجاء فى الأثر أنّ علياً عليه السلام عَمِل ليهوديٍ فى سَقْيِ نَخْلٍ له فى حياة رسول الله صلى الله عليه وآله بمُدّ من شَعير ، فخبزه قُرْصا ، فلمّا همّ أن يُفطر عليه ، أتاه سائل يستطعم ، فدفعه إليه ، وبات طاوياً وتاجرَ الله تعالى بتلْك الصدقة ، فعَدّ الناس هذه الفعلة من أعظم السّخاء ، وعدُّوها أيضا من أعظم العبادة .

وقال بعضُ شعراء الشِّيعة يذكر إعادة الشمس عليه ، وأحسن فيما قال :

جادَ بالقُرْص والطَّوى مِلءُ جَنْبَيـ ـهِ وعَافَ الطَّعامَ وهو سَغُوبُ[1]
فأعاد القُرْصُ المنيرُ عليـه الـ ـقُرْص والمُقرِض الكرامِ كَسوبُ[2]

---

(١) السغوب : الجائع .

(٢) فى د « والقرض للكرام » ، وهو وجه أيضا .

(٢٥٦)

الأصلُ :

الْوَفاءُ لأهْلِ الْغَدْرِ غَدْرٌ عِنْدَ اللهِ ، والْغَدْرُ بأهْلِ الْغَدْرِ وَفاءٌ عِنْدَ اللهِ .

***

الشَّرحُ :

معناه أنه إذا اعتِيدَ من العدوّ أن يغدِر ولا يفى بأقواله وأيْمانه وعهوده ، لم يجزْ الوفاء له ، ووَجَب أن ينقض عهوده ولا يوقَف مع العهد المعقود بيننا وبينه ، فإنّ الوفاء لمن هذه حالُه ليس بوفاء عند الله تعالى ، بل هو كالغَدْر فى قُبْحه ، والغدر بمن هذه[(١)] حاله ليس بقبيح ، بل هو فى الحسن كالوفاء لمن يَستحِقّ الوفاء عند الله تعالى .

---

(١) ا : « ذلك » .

(٢٥٧)

الأصل :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَمَا ابْتَلَى اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإِمْلَاءِ لَهُ .

* * *

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

وَقَدْ مَضَى هَذَا الكَلَامُ فيما تقدَّمَ ، إِلَّا أَنَّ فيه ها هنا زِيادَةً جيِّدَةً .

* * *

الشرح :

قد تقدم الكلام فى الاستدراج والإملاء .

وقال بعضُ الحكماء : احذر النِّعم المتواصلة إليك أن تكون استدراجا ، كما يحذر المحارِب من اتباعِ عدوِّه فى الحربِ إذا فرَّ من بين يديه من الكمين ، وكم من عدوٍّ فرَّ مستدرَجا ، ثمَّ إذ هو عاطِفٌ ، وكم من ضارِعٍ فى يديك ثمَّ إذ هو خاطف .

(٢٥٨)

الأصْـلُ :

ومن كلامه عليه السلام المتضمِّن ألفـاظاً منَ الغريبِ تحتاجُ إلى تفسير : قوله عليه السلام فى حديثه :

فإذا كانَ ذَلِكَ ضَرَبَ يَعْسُوبُ الدِّينِ بِذَنَبِه ، فَيَجْتَمِعُونَ إلَيْهِ كَمَا يَجْتَمِعُ قَزَعُ الْخَرِيف .

قال الرَّضىُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالىَ :

يَعْسُوبُ الدِّينِ : السَّيِّدُ الْعَظِيمُ الْمَالِكُ لِأُمُورِ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ ؛ والْقُزَعُ : قِطَعُ الْغَيْمِ الَّتِي لا مَاءَ فيها .

***

الشَّـرْحُ :

أصاب فى اليَعْسوب ، فأمَّا القُزَع فلا يُشترط فيها أن تـكون خاليةً من المـاء ، بل القُزَع قِطَعٌ من السحاب رقيقة ، سواء كان فيها ماء أو لم يـكن ، الواحدة قَزَعة بالفتح ، وإنما غرّه قولُ الشاعر يصف جيشاً بالقلة والخفّة .

* كأنّ رعاله قُزَعُ الجهامِ[1] *

وليس يدلّ ذلك على ما ذكَرَه ، لأنّ الشاعر أراد المبالغـــة ، فإنّ الجهام الّذى لا ماء فيه إذا كان أقطاعاً متفرّقة خفيفة ، كان ذِكْرُه أبلغ فـيما يريدُه من التشبيه ؛ وهذا الخبر من أخبار المَلاحِمِ التى كان يُخبِر بها عليه السلام ، وهو يذكُر فيه المهدىَّ الّذى يُوجَد عند أصحابنا فى آخر الزمان . ومعنى قوله : « ضَرَب بذَنَبه » أقام وثبت بعد

(١) ب : « الهجام » تصحيف .

اضطرابه ، وذلك لأنّ اليعسوب فَحْــل النَّحْل وَسيِّدها ، وهو أكثرُ زمانه طائرٌ بجَناحَيه ، فإذا ضرَب بذَنَبه الأرضَ فقد أقام وَتَرَك الطَّيَران والحركة .

فإن قلت : فهذا يشبه مــذهبَ الإماميّة فى أنّ المهدىّ خائف مستترٍ ينتقل فى الأرض ، وأنّه يظهر آخر الزمان ويثبت ويقيم فى دار ملــكه .

قلت : لا يبعد على مذهبنا أن يكون الإمام المهدىّ الذى يظهر فى آخر الزمان مضطرب الأمر ، منتشرَ المُلك فى أوّل أمرِه لمصلحة يَعلَمها الله تعالى ، ثمّ بعد ذلك يثبُت مُلــكُه ، وتنتظم أمورُه .

وقد وردتْ لَفظةُ اليَعْسوب عن أمير المؤمنين عليه السلام فى غير هذا الموضع ، قال يومَ الجمل لعبد الرحمن بنِ عتّاب بن أسيد وقد مرّ به قتيلا : « هذا يَعْسوب قريش » ، أى سيِّدُها .

(٢٥٩)

الأصل :

وفى حديثِهِ ـ عليهِ السلامُ : هَذا الخطيبُ الشَّحْشَحُ .

قالَ : يُرِيدُ المَاهِرَ بالُخطبْةِ ، الماضِيَ فِيهاَ ، وكُلُّ ماضٍ فى كَلَامٍ أوْ سيْرٍ فَهُوَ شَحْشَحٌ . والشَّحْشَحُ فى غَيْرِ هذا المَوْضع : البَخِيلُ المُمسِكُ .

***

الشرح :

قد جاء الشَّحْشح بمعنى الغَيور ، والشحْشَح بمعنى الشُّجاع ، والشَّحْشَح بمعنى المواظِب على الشيء الملازِم له ، والشَّحْشَح : الحاوِى ، ومِثله الشَّحْشحان .

وهذه الكلمة قالها علىٌّ عليه السلام لصَعْصعة بن صُوحان العبدىِّ رحمه الله ، وكَفَى صعصعةَ بها فخرا أن يكون مِثل علىٍّ عليه السلام يُثنِي عليه بالمهارة وفَصاحة اللّسان ؛ وكان صَعصعةُ من أفصَح الناس ، ذكَرَ ذلك شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ (١) .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٩٧ .

(٢٦٠)

الأَصْلُ :

ومنهُ : إِنَّ لِلْخُصُومَةِ قُحَماً .

قال : يُرِيدُ بالْقُحَمِ المَهَالِكَ ، لأَنَّهَا تُقْحِمُ أَصْحَابَهَا فِي المَهَالِكِ وَالمَتَالِفِ فِي الأَكْثَرِ فَمِنْ ذَلِكَ قُحْمَةُ الْأَعْرابِ ، وَهُوَ أَنْ تُصِيبَهُمُ السّنة فَتَتَعَرَّقُ أَمْوَالُهُمْ ، فَذَلِكَ تَقَحُّمُهَا فِيهِمْ . وَقِيلَ فِيهِ وَجْهٌ آخَرُ ، وَهُوَ أَنَّهَا تُقْحِمُهُمْ بِلادَ الرِّيف ، أَيْ تُحْوِجُهُمْ إِلى دُخُول الحضر عِنْدَ مُحُولِ الْبَدْوِ .

***

الشَّرْحُ :

أصلُ هذا البناء للدُّخول فى الأمر على غير روِيَّة ولا تثبُّت ، قَحَمَ الرجلُ فى الأمر بالفتح قُحوماً ، وأقحَمَ فلانٌ فرسَه البحرَ فانقحَمَ ، واقتحمْتُ أيضاً البحرَ دخلته مكافحة ، وقَحَمَ الفرسُ فارِسَه تقحيما على وجهه ؛ إذا رماه ، وفحلٌ مِقْحام ، أى يَقتحِمُ الشَّوْلَ مِن غير إرسالٍ فيها .

وهذه الكلمة قالها أمير المؤمنين حين وَكَّل عبدَ الله بن جعفرٍ فى الخصومة عنه ، وهو شاهد .

وأبو حنيفةَ لا يُجيز الوَكالة على هذه الصّورة ، ويقول : لا تجوز إلا مِن غائبٍ أو مريض ، وأبو يوسف ومحمد يُجيزانها أخْذا بفعل أمير المؤمنين عليه السلام .

(٢٦١)

الأصْلُ :

ومنهُ : إذا بلغ النساء نَصَّ الحِقاقِ فالعَصَبة أولَى.

قال : ويروى « نصُّ الحقائقِ » ، والنصُّ منتهى الأشياء ومبلغُ أقصاها كالنصِّ فى السير لأنه أقصى ما تقدرُ عليـه الدابةَ ؛ ويقال : نصصتُ الرجلَ عن الأمرِ إذا استقصيتَ مسألته لتستخرجَ ما عنده فيه ، ونصُّ الحقائقِ يريدُ به الإدراكَ ؛ لأنه منتهى الصِّغر ، والوقتُ الذى يخرجُ منه الصغيرُ إلى حدِّ الـكبر ، وهو منْ أفصحِ الـكناياتِ عن هذا الأمرِ وأغربِها ؛ يقولُ : فإذا بلغَ النساء ذلك فالعصَبةُ أولَى بالمرأةِ من أُمِّها إذا كانوا محرماً مثلُ الإخوةِ والأعمامِ ، وبتزويجها إنْ أرادوا ذلك .

والحِقاقُ : مُحاقَّةُ الأمِّ للعصبَةِ فى المرأةِ ، وهو الجِدالُ ، والُخصُومَةُ ، وقولُ كلِّ واحدٍ منهما لِلآخرِ : أنا أحقُّ منك بِهذا ، يُقالُ منهُ : حاقَقْتهُ حِقاقاً ، مِثْلُ جادلْتُهُ جِدالًا . قال : وقد قيلَ إنَّ نصَّ الحِقاقِ بُلوغُ العقلِ وهو الإدراكُ ، لأنه عليه السلامُ إنما أرادَ مُنتَهى الأمرِ الذى تجبُ به الُحقوقُ والأحكامُ .

قالَ : ومَنْ رواهُ « نصُّ الحقائقِ » فإنما أرادَ جَمْعَ حقيقةٍ ، هذا معنى ما ذكرهُ أبو عُبَيْدٍ القاسمُ بنُ سلاَّمٍ .

قال : والذى عندى أنَّ المرادَ بنصِّ الحقاقِ ها هنا بُلُوغُ المرأةِ إلى الحدِّ الذى يجوزُ فيه تزويجُها وتصرُّفُها فى حقوقِها ، تشبيهاً بالحِقاقِ مِنَ الإبلِ ، وهى جَمْعُ حِقَّةٍ وحِقٍّ ، وهو الذى استـكملَ ثلاثَ سنينَ ودخلَ فى الرابعةِ ؛ وعندَ ذلك يبلغُ إلى الحدِّ الذى يُمـكِنُ فيه مِنْ رُكوبِ ظهره ونصِّهِ فى سيره . والحقائقُ أيضاً : جَمْعُ حِقَّةٍ ؛

فالرِّوايتانِ جميعاً ترجِعانِ إلى مسمًّى واحِـدٍ ؛ وهذا أشبهُ بطريقةِ العربِ مِنْ المعنى المذكور أوّلًا .

***

الشّـرح :

أمّا ماذكره أبو عُبيد فإنّه لا يَشفِي الغليلَ ، لأنه فسّر معنى النّصّ ، ولم يفسِّر معنى نَصّ الحقائق ، بل قال : هو عبارةٌ عن الإدراك ، لأنّه منتهى الصِّغر ، والوقت الذى يَخرُج منه الصغيرُ إلى حدّ الـكِبَر ، ولم يبيّن من أىّ وجهٍ يدلّ لفظ نَصّ الحقاق على ذلك ، ولا اشتقاق الحِقاق وأصله ، ليَظهَر من ذلك مُطابَقة اللّفظ للمعنى الّذى أشيرَ إليه .

فأمّا قولُه : « الحقاق هاهنا مَصدَر حاقّه يُحاقّه » ، فلِقائلٍ أن يقول : إن كان هذا هو مقصودَه عليه السلام فقَبْل الإدراك يكون الحِقاق أيضا ، لأنّ كلّ واحدة من القرابات تقول للأخرى : أنا أحقّ بها منك ، فلا معنى لتخصيصِ ذلك بحالِ البُلوغ ، إلا أن يَزعُم زاعمٌ أنّ الأمّ قبل البُلوغ لها الحضانة ، فلا يُنازِعها قبلَ البلوغ فى البِنْت أحد ولكنْ فى ذلك خلافٌ كثير بين الفقهاء .

وأمّا التفسير الثانى ، وهو أنّ المراد بنَصّ الحِقاق منتهى الأمر الذى تجب به الحُقوق فإنّ أهلَ اللغة لم يَنقلُوا عن العرَب أنّها استعمَلت الحِقاقَ فى الحُقوق ، ولا يُعرَف هذا فى كلامهم .

فأمّا قولُه : « ومن رواه نَصّ الحقائِق » ، فإنّما أراد جمع حقيقة ، فلِقائلٍ أن يقول : وما معنى الحقائق إذا كانت جمعَ حقيقة هاهنا ؟ وما معنى إضافة « نَصّ » إلى « الحقائق » جمع حقيقة ، فإنّ أبا عُبَيْدة لم يفسّر ذلك مع شدّة الحاجةِ إلى تفسيره !

وأمّا تفسيرُ الرضىّ – رحمه الله – فهو أشبَه من تفسير أبى عُبيدة ، إلّا أنه قال فى آخره :

والحقائق أيضا جمعُ حِقّة ، فالروايتان ترجِعان إلى معنًى واحد . وليس الأمرُ على ماذكِر من أنّ الحقائق جمعُ حِقّة ، ولكنّ الحقائق جمع حِقاق ، والحِقاق جمع حِقّ ، وهو ما كان من الإبل ابنَ ثلاث سنينَ ، وقد دخل فى الرابعة ، فاستحقّ أن يُحمَل عليه ويُنتفع به ، فالحقائق إذَن جمع الجَمْع لِحقّ لا لِحِقّة ، ومثل إفال وأفائل . قال : ويُمكِن أن يقال : الحقاق هاهنا الخصومة ، يقال : مالَه فيه حِقّ ولا حِقاق أى ولا خصومة ، ويقال لمن يُنازِع فى صِغار الأشياء إنّه لبرق الحِقاق ، أى خصومَتُه فى الدَّنىء من الأمر ؛ فيكون المعنى إذا بَلَغت المرأةُ الحدَّ الّذى يستطيع الإنسانُ فيه الخصومَة والجدَالَ فعَصَبتها أَولَى بها من أمّها ؛ والحدُّ الّذى تَكمُل فيه المرأة والغُلامُ للخُصومة والحكومة والجدال والمناظرة هو سِنُّ البُلوغ.

(٢٦٢)

الأَصْلُ

ومنهُ : إنَّ الإيمَانَ يَبْدُو لُمْظَةً فى الْقَلْبِ ، كُلَّمَا ازْدَادَ الْإيمَانُ ازْدَادَتِ اللُّمْظَةُ .

* * *

قال: اللُّمْظَةُ مِثْلُ النُّكْتَةِ أَوْ نَحْوِهَا مِنَ الْبَيَاضِ ،وَمِنْهُ قِيلَ :فَرَسٌ أَلْمَظُ إذا كَانَ بِجَحْفَلَتِهِ شَىْءٌ مِنَ الْبَيَاضِ .

* * *

الشَّرحُ :

قال أبُو عُبيدة : هى لُمْظَة بضم اللام ؛ والمحدِّثون يقولون : لَمْظة بالفَتح ؛ والمعروفُ من كلام العَرَب الضم ؛ مِثلُ الدُّهْمة والشُّهْبة والحُمْرة . قال: وقد رواه بعضُهم:«لُمْطة» بالطّاء المهملة ، وهذا لانَعرِفه .

قال : وفى هذا الحديث حُجَّةٌ على مَنْ أنكر أن يكون الإيمانُ يزيدُ وينقُص[1]، ألا تَرَاه يقول : كُلَّما ازدادَ الإيمانُ ازدادتْ اللُّمْظة .

---

(١) ا : « أو ينقص » .

(٢٦٣)

الأصلُ :

ومنهُ : إنَّ الرَّجلَ إذا كانَ لهُ الدَّيْنُ الظَّنونُ يجبُ عليهِ أنْ يُزكّيهُ لِما مضى إذا قبضَهُ .

***

قالَ : الظَّنونُ : الّذي لا يَعلمُ صاحبُهُ أيقضيهِ منَ الّذي هُوَ عليهِ أمْ لا ، فكأنَّهُ الّذي يُظَنُّ بِهِ ذلكَ ، فمرّةً يرجوهُ ، ومرّةً لا يرجوهُ ، وهو منْ أفصحِ الكلامِ ، وكذلكَ كُلُّ أمرٍ تطلبُهُ ولاتدري على أيِّ شيْءٍ أنتَ منْهُ فهُوَ ظَنونٌ ، وعلى ذلكَ قوْلُ الأعشى :

مَنْ يجعلِ الجُدَّ الظَّنونَ الّذي　　جُنِّبَ صوْبَ اللّجِبِ الماطِرِ (١)
مِثْلَ الفُراتيِّ إذا ما طما　　يقْـــذِفُ بالبُوصيِّ والماهِرِ

والجُدُّ : البئْرُ العاديَّةُ في الصَّحْراءِ . والظَّنونُ : الّتي لا يُعْلَمُ هلْ فيهـا ماءٌ أمْ لا .

***

الشَّرحُ :

قال أبو عُبَيْدة : فى هذا الحديث من الفقه أنّ من كان له دَيْن على النّاس فليس عليه أن يزكّيه حتى يقبضه ، فإذا قبضه زكّاه لما مضى ، وإن كان لايرجوه ، قال : وهذا يردّه قول من قال : إنّما زكاته على الّذى عليه المال ، لأنّه (٢) المنتفع به؛ قال:

(١) ديوانه ١٤١ .

(٢) ا : « لأنه الذى ينتفع به » .

وكما يُرْوَى عن إبراهيم ، والعَمَل عندنا على قول عليّ عليه السلام ؛ فأمّا ماذَكَره الرضيّ من أنّ الجدّ هى البئرُ العاديّة فى الصّحراء ، فالمعروف عند أهل اللّغة أن الجُدّ البئرُ التى تكون فى موضع كثير الكَلَأ ، ولا تُسمّى البئرُ العادِيّة فى الصّحْراء المَوَاتِ جُدّا ، وشِعْر الأعشى لا يدلّ على مافَسّره الرضىّ، لأنه إنّما شبّه عَلْقَمة بالبئرِ والكَلَأ ، يَظُنّ أن فيها ماء لمكان الكَلَأ ، ولا يكون موضع الظن هذا هو مرادَه ومقصودَه ، ولهذا قال : الظّنون ، ولو كانت عاديّة فى بَيْدَاء مقفِرة لم تكن ظَنُونا ، بل كان يُعلَم أنه لا ماء فيها، فسَقط عنها اسمُ الظّنون.

(٢٦٤)

الأصل

وَمنهُ : أنهُ شَيَّع جيشاً يُغْزِيهِ فقالَ : اعْزُبُوا عَنِ النِّسَاءِ مَا اسْتَطَعْتُمْ .

***

وَمَعْناهُ : اصْدِفُوا عَنْ ذِكْرِ النِّسَاءِ وَشَغْلِ الْقُلُوبِ بِهِنَّ ، وَامْتَنِعُوا مِنَ الْمقاربَةِ لَهُنَّ ، لِأَنَّ ذَلِكَ يَفُتُّ فِي عَضُدِ الْحَمِيَّةِ ، وَيقْدَحُ فِي معَاقِدِ الْعَزِيمَةِ ، وَيَكْسِرُ عَنِ الْعدُوِّ ، وَيَلْفِتُ عَنِ الْإِبْعَادِ فِي الْغزْوِ ، فَكُلُّ مَنِ امْتَنَعَ مِنْ شَيْءٍ فَقَدْ أَعْزَبَ عَنْهُ ، وَالْعَازِبُ وَالعَزُوبُ : الْمُمْتَنِعُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ .

***

الشَّرْحُ :

التفسير صحيح ، لكنّ قوله : « من امتنع من شيء فقد أعزَب عنه » ليس بجيّد ؛ والصحيح «فقد عزَب عَنه» ثلاثى ، والصواب : وكلُّ مَنْ مَنعته من شيء فقد أعزَبتَه عنه عنه تُعدّيه بالهمزة ؛ كما تقول : أقمْته وأقعدْته ، والفعل ثُلاثىّ قامَ وقعَد ، والدليل على أنّ الماضى ثلاثى هاهنا . قوله : « والعازِب والعزُوب: الممتنِع من الأكل والشّرب ، ولو كان رُباعياً لكان « المُعزِب » ؛ وهو واضح ؛ وعلى هذا تكون الهمزة فى أوّل الحرف همزة وصلٍ مكسورة ، كما فى « اضرِبوا » لأنّ المضارِع يعزِب بالكسر .

(٢٦٥)

الأصْلُ :

ومنهُ : كالياسِرِ الفالجِ ، يَنْتَظِرُ أَوّلَ فَوْزَةٍ مِنْ قِداحِهِ .

* * *

قَالَ : الياسِرُونَ هُمُ الذين يتضارَبُونَ بِالقِداحِ عَلَى الجَزُورِ ، والفَالِجُ : القَاهِرُ الغَالِبُ ، يُقَالُ : قَدْ فَلَجَ عَلَيْهِمْ وَفَلَجَهُمْ ، قَالَ الرَّاجِزُ :

* لَمّا رَأَيْتُ فَالِجاً قَدْ فَلَجا *

الشَّرح :

أوّل الكلام أنّ المرء المسلِم مالم يغشَ دَناءة يَخشع لها إذا ذكرتْ ، ويغرى به لئامَ النّاس ، كالياسِر الفالِج ينتظر أوّل فوزةٍ من قداحه ، أو داعيَ الله ، فما عند الله خيرٌ للأبرار ، يقول : هو بين خيرتين : إما أن يصيرَ إلى مايُحِبّ من الدنيا ، فهو بمنزلة صاحب القِدْح المُعلّى ، وهو أوفرُها نصيبا ، أو يموت فما عند الله خيرٌ له وأبقى [1] .

وليس يعني بقوله : الفالج : القامر الغالبَ كما فسّره الرّضيّ رحمه الله ، لأنّ الياسر الغالبَ القامرَ لا ينتظر أوّلَ فوزةٍ من قداحهِ ، وكيف ينتظِر وقد غلَب ! وأيّ حاجة له إلى الانتظار ! ولـكنّه يَعنى بالفالج الميمونَ النَّقيبة الّذى له عادةٌ مطّردةٌ أن يَغلب ، وقلّ أن يكون مَقْهورا .

---

(١) ا : « أبق له » .

(٢٦٦)

الأصل :

ومنهُ : كُنَّا إذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا برَسولِ اللهِ فلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إلَى الْعَدُوِّ مِنْه .

* * *

قَالَ : مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ إذَ عَظُمَ الخوْفُ مِنَ الْعَدُوِّ ، وَاشْتَدَّ عِضَاضُ الحرْبِ فزِعَ المسْلِمُونَ إلَى قِتَالِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآلِه بنَفسِهِ ، فيُنزِلُ اللهُ تعالى النَّصْرَ عَلَيْهِمْ بِهِ ، وَيأْمنُونَ ما كانوا يَخافُونَهُ بِمَكانِهِ .

وقَوْلُهُ : « إذَا احْمَرَّ الْبأْسُ » : كِنايَةٌ عَنِ اشْتِدَادِ الْأَمْرِ ؛ وقد قِيل فى ذَلِكَ أَقْوالٌ ؛ أَحْسَنُهَا أَنَّهُ شَبَّهَ حَمْىَ الْحَرْبِ بالنَّارِ الَّتى تَجْمَعُ الْحَرارَةَ وَالْحُمْرَةَ بِفِعْلِهَا ولَوْنِهَا ؛ وممَّا يُقَوِّى ذَلِكَ قَوْلُ الرَّسُول صلَّى الله عليه وآلِه وقَدْ رَأَى مُجْتَلَدَ النَّاسِ يَوْمَ حُنَيْنٍ وهىَ حرب هَوازِنَ : « الآن حَمِىَ الْوَطِيسُ » ، والوطيسُ : مُسْتَوْقَدُ النار ، فَشَبَّهَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله مَا استحرَّ من جِلادِ الْقَوْمِ باحْتِدامِ النَّارِ وَشِدَّةِ الْتِهابِها .

* * *

الشرح :

الجيِّد فى تفسير هذا اللفظ أن يقال : البأس الحرْب نفسُها ، قال الله تعالى: ﴿والصابرين فى البأساء والضرّاء وحينَ البأسِ﴾[1] ؛ وفى الكلام حذفُ مضافٍ تقديرُه

---

(١) سورة البقرة ١٧٧ .

إذا احمر مَوضعُ البأس ، وهو الأَرْضُ التى عليها معرَكة القوم ، واحمرارُها لِما يسيل عليها من الدّم .

* * *

[نبذ من غريب كلام الإمام على وشرحه لأبى عبيد]

ولما كان تفسير الرضىّ رحمه الله قد تعرّض للغريب من كلامه عليه السلام ، ورأينا أنّه لم يذكر من ذلك إلا اليسير ، آثرنا أن نذكُر جملَةً من غريب كلامِه عليه السلام ممّا نقلَه أربابُ الكُتُب المصنّفة فى غريب الحديث عنه عليه السلام .

فمن ذلك ما ذَكَره أبو عبيْد القاسمُ بنُ سلاّم رحمه الله فى كتابه : لأنْ أطَّلِيَ بجواء قِدْر أحبّ إلىّ من أنْ أطَّلِيَ بزعفرَان .

قال أبو عُبَيد : هكذا الرواية عنه « بجواءِ قدْر » ، قال : وسمعت الأصمعىّ يقول : إنما هى الجاوة ، وهى : الوِعاء الّذى يُجعَل القِدْر فيه وجَمْعُها جياء .

قال : وقال أبو عمرو : يقال : لذلك الوعاء جواء وجياء ؛ قال : ويقال للخرقة التى يُنزل بها الوعاء عن الأثافىّ جِعال .

* * *

ومنها قولهُ عليه السلام حين أقبَل يريد العراق فأشارَ إليه الحسنُ بنُ علىّ عليه السلام أن يرجع : واللهِ لا أكونُ مِثلَ الضَّبُعُ تسمعُ اللّدْم حتى تخرج فتُصاد .

قال أبو عبيد : قال الأصمعىّ : اللّدم صوتُ الحجر ، أو الشىء يقَع على الأرض ، وليس بالصّوت الشديد ، يقال منه : لدم ألدِم بالكسرِ ، وإنما قيل ذلك للضّبع ، لأنّهم إذا أرادوا أن يصيدوها رمَوْا فى جُحْرها بحَجَر خفيف ، أو ضرَبُوا بأيديهم فتحسَبه

شيئاً تصيدُه فتخرج لتأخذه فتصاد ، وهى زعموا أنها من أحمق الدّواب ، بلَغ من حُمْقها أن يدخل عليها فيقال : أمّ عامر نائمة ، أو ليست هذه ! والضبع ، هذه أمّ عامر فتسكُت حتى تؤخذ ، فأراد على عليه السلام : أنى لا أُخدَع كما تُخدَع الضّبع باللّدم .

***

ومنها قولهُ عليه السلام : منَ وَجد فى بطنه رِزًّا فليَنْصرف وليتوضأ .

قال أبو عبيد . قال أبو عمرو : إنما هو أرْزاً مثل أرز الحيّة ، وهو دَورانها وحرَكتها ، فشبه دَوَران الرِّيح فى بطنه بذلك .

قال : وقال الأصمعىّ : هو الرِّز ، يعنى الصَّوتَ فى البطن من القرْقرة ونحوها قال الراجز :

كأن فى رَبابِهِ الـكِبارِ رِزَّ عِشارٍ جُلْنَ فى عِشارِ(١)

وقال أبو عُبَيد : فقهُ هـذا الحديث أن يَنصرِف فيتوضأ ويبنى على صلاته ما لم يتكلَّم ، وهذا إنما هو قبل أن يُحَدث .

قلت : والّذى أعرفه مِنَ الأَرزِ أنه الانقباض لا الدّوَران والحركة ، يقال : أرز فلانٌ بالفَتح وبالكسر ؛ إذا تضامّ وتقبّض من بُخْله فهو أرُوز ، والمصدَر أرْزا وأروزا ، قال رؤبة :

* فذاك يَخَالُ أروز الأرزْ(٢) *

فأضاف الاسمَ إلى المصدر كما يقال : عُمر العدْل وعَمْرو الدهاء ، لما كان العدل والدّهاء أغلبَ أحوالهما ، وقال أبو الأسود الدُّؤلى يذمّ إنسانا : إذا سئل أَرِز ، وإذا دُعى اهتزّ — يعنى إلى الطّعام ، وفى الحديث : « إن الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرِز الحية إلى حُجْرها » . أى يجتمع إليها وينضمّ بعضه إلى بعض فيها .

***

(١) اللسان « أرز » ، ونسبه إلى رؤبة .

(٢) اللسان (أرز) .

ومنها قوله : لئن وليتُ بنى أميّة لأنفضَنّهم نفضَ القصّاب التِّرابَ[1] الوذِمة .

وقد تقدّم منّا شرحُ ذلك والكلامُ فيه .

***

ومنها قوله فى ذى الثُّدَيّة المقتول بالنَّهْروان: إنه مُودن اليد أو مُثْدن اليد أو مُخدَج اليد .

قال أبو عبيدة : قال الكسائىّ وغيره: المودن اليَدِ : القصيرُ اليَدِ؛ ويقال : أودنتُ الشىء أى قصّرته ، وفيه لُغةٌ أخرى ، ودَنْته فهو مَوْدون ؛ قال حسّان يذمّ رجلا :

وأمُّك سوداء مَوْدونةٌ كأنّ أناملَها الحُنظُبُ

وأمّا مُثْدن اليد ، بالثاء فإنّ بعضَ الناس قال : نراه أخذه من الثُّنْدُوَة ، وهى أصل الثَّدْى ، فشبّه يدَه فى قِصَرها واجتماعها بذلك ، فإنْ كان من هذا فالقياس أن يقال : مُثَنَّد ؛ لأنّ النون قبل الدال فى الثُّنْدُوَةِ، إلّا أن يكون من المقلوب ،فذاك كثيرٌ فى كلامهم.

وأمّا مُخدَج اليَد فإنّه القصيرُ اليد أيضاً ، أُخِذ من إخداجِ الناقةِ وَلَدها ، وهو أن تَضَعه لغير تَمامٍ فى خَلْقه ، قال: وقال الفرّاء : إنّما قيل ذو الثُّدَيّة ؛ فأُدخلت الهاء فيها ، وإنّما هى تصغير «ثَدْى» ، والثَّدْى مذكّر؛ لأنها كأنّها بقيّة ثَدْى قد ذهب أكثره فقلّلها كما تقول لُحَيمة وشُحَيمة ، فأنث على هذا التأويل ؛ قال : وبعضُهم يقول ذو اليُدَيّة ،قال أبو عُبيد : ولا أرى الأصْل كان إلّا هذا ، ولكنّ الأحاديث كلّها تتابعتْ بالثاء ذو الثُّدَيّة .

***

ومنها قوله عليه السلام لقومٍ وهو يعاتبهم : ما لكُم لا تُنظِّفون عَذِراتكم !

قال : العَذِرة فِناء الدار ، وإنما سُمّيت تلك الحاجة عَذِرة لأنّها بالأفْنية كانت تُلقى،

---

(١) قال الأصمعى : سألنى شعبة عن هذا الحرف ، فقلت: ليس هو هكذا ، إنما هو نفض القصاب الوذام: التربة . والتربة : التى سقطت فى التراب فتتربت ، والقصاب ينفضها .

فكَنَى عنها بالعَذِرة كما كَنَى عنها بالغائط ، وإنّما الغائطُ الأرضُ المطمئنّة ؛ وقال الحُطَيئة يهجو قوماً :

لَعَمْرِى لقد جرّبتُكُمْ فوجدْتُكُمْ   قِباحَ الوُجوه سَيِّئِ العَذِراتِ

***

ومنها قولُه عليه السلام : لاجُمُعةولا تَشْريق إلّا فى مصرٍ جامع .

قال أبو عبيد : التّشريق هاهنا صلاةُ العيد ؛ وسُمّيت تشريقاً لإضاءة وقْتِها ؛ فإنّ وقتَها إشراقُ الشّمس وصَفاؤُها وإضاءتُها ؛وفى الحديث المرفوع: « من ذبحَ قبل التّشريق فَلْيُعِدْ » ، أى قبلَ صلاة العيد .

قال : وكان أبو حنيفة يقول : التّشريق هاهنا هو التّكبير فى دُبُر الصلاة ، يقول : لاتكبيرَ إلا على أهل الأمْصار تِلك الأيّام ، لا على المسافرين أو مَن هو فى غير مِصر .

قال أبو عبيد : وهذا كلامٌ لم نجد أحداً يَعرِفه ، إنّ التكبير يقال له التّشريق ، وليس يأخذ به أحدٌ من أصحابه لاأبو يوسفَ ولا محمّد ، كلّهم يرَى التكبيرَ على المسلمين جميعاً حيث كانوا فى السّفر والحَضَروفى الأمصاروغيرِها .

***

ومنها قوله عليه السلام : « استكثِروا من الطّواف بهذا البيت قبل أن يُحَال بينكم وبَينه ، فكأنّى برجلٍ من الحَبَشة أصعَلَ أصمَعَ حَمش السّاقين قاعداً عليها وهى تُهْدَم » .

قال أبو عُبَيد : هكذا يُروَى « أصعَل » وكلامُ العَرَب المعروف « صَعْل » وهو الصغيرُ الرأس ، وكذا رُءوس الحبشة ، ولهذا قيل للظّليم : صَعْل ؛ وقال عَنترةُ يصف ظَلِيماً :

صَعْلٌ يلوذُ بذى العشيرةِ بَيْضه   كالعَبْد ذِى الفرْوِ الطّويلِ الأَصْلَمِ

قال : وقد أجازَ بعضُهم أصعَل فى الصَّعل ، وذَكر أنَّها لغة لا أدرى عمَّن هى !
والأصمعُ : الصغيرُ الأُذُن ، وامرأة صَمْعاء .

وفى حديث ابن عبَّاس: إنَّه كان لايرَى بأساً أن يُضَحَّىَ بالصَّمْعاء . وحَمْش الساقين بالتَّسكين : دقيقها .

***

ومنها : أنَّ قوماً أتَوْه برجلٍ فقالوا : إنَّ هذا يؤمُّنا ونحن له كارهون، فقال له : إنك لَخَرُوط ، أتؤمَّ قوماً هم لكَ كارهون !

قال أبو عبيد : الخَرُوط : المتهوِّر فى الأمور ، الراكبُ برأسِه جَهْلا ؛ ومنه قيل : انخَرَطَ علينا فلان ، أى اندرأ بالقَوْل السَّيِّئ والفِعْلِ . قال : وفقهُ هذا الحديث أنَّه ما أفتَى عليه السلام بفسادِ صلاتِه لأنه لم يأمُرْه بالإعادة ، ولكنَّه كَرِه له أن يؤمَّ قوماً هم له كارهون .

***

ومنها : أنَّ رجلا أتاه وعليه ثوبٌ من قِهز ، فقال : إنَّ بنى فلان ضَرَبوا بنى فلانة بالكناسة، فقال عليه السلام : صَدقنى سِنّ بكْرِه .

قال أبو عبيد : هذا مَثل تَضرِبه العرَب للرجل يأتى بالخبر على وَجْهه ويصدق فيه . ويقال : إنَّ أصله أنَّ الرجل ربَّما باع بَعيره فيسأل المشترى عن سِنّه فيكذبه ، فعَرض رجلٌ بَكْرا له فصَدَق فى سِنّه ، فقال الآخر : صدَقنى سنُّ بَكْره ، فصار مَثَلا .

والقِهز بكسر القاف : ثياب بيض يُخالطها حَرير ، ولا أراها عربيّة ، وقد استعملها العربُ ؛ قال ذو الرمّة يصف البُزاة البيض :

من الوُرْق أو صُقع كأنّ رءوسها من القِهْز والقُوهِىّ بيضُ المقانعِ

***

ومنها : ذَكر عليه السلام آخر الزمان والفِتن ، فقال : خير أهل ذلك الزمان كلّ نُوَمَة ، أولئك مصابيح الهدى ، ليسوا بالمسابيح ولا المَذاييع البُذُر .

وقد تقدّم شرح ذلك .

***

ومنها : أنّ رجلا سافر مع أصحاب له فلم يرجع حين رجعوا ، فاتّهم أهله أصحابه ورفعوهم إلى شُرَيح ، فسألهم البيّنة على قتله ، فارتفعوا إلى علىّ عليه السلام ، فأخبرُوه بقول شُرَيح ، فقال :

أوردَها سعدٌ وسعدٌ مُشتمِلْ ياسعد لا تروَى بهذاك الإبلْ

ثمّ قال : إنّ أهْوَن السَّقْى التّشريع ، ثمّ فرّق بينهم وسألهم ، فاختلفوا ، ثم أقرّوا بقتاهم ، فقتلهم به .

قال أبو عُبيد : هذا مثل ، أصلُه أنّ رجلا أورَد إبله ماء لا تصلُ إليه الإبل إلّا بالاستقاء ، ثم اشتمل ونامَ وتركها لم يستسق لها ؛ والكلمة الثانية مثل أيضا ، يقول : إنّ أيسَر ما كان ينبغى أن يُفعل بالإبل أن يُمكّنها من الشريعة ويَعرِض عليها الماء . يقول : أقلّ ما كان يَجب على شُريح أن يستقصى فى المسألة والبحث عن خبر الرّجل ولا يقتصر على طلب البيّنة .

***

ومنها قوله ، وقد خرج على الناس وهم ينتظرونه للصلاة قياما : « مالى أراكُمْ سامدين » .

قال أبو عبيد : أى قائمين ، وكلُّ رافِع رأسَه فهو سامد ، وكانوا يكرَهون أن ينتظروا الإمامَ قِياما ولكنْ قُعودا ، والسامد فى غير هذا الموضع : اللاّهى اللاّعب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأنتم سامِدون ﴾ [1] ، وقيل : السُّمود الغِناء بِلُغة حِمْيَر .

* * *

ومنها : أنه خرج فرأى قوماً يصلّون قد سَدَلوا ثيابهم ، فقال : كأنهم اليهود خرجوا من فُهْرِهم .

قال أبو عبيد : فُهْرُهم بضم الفاء : موضع مِدْراسهم الذى يجتمعون فيه كالعيد يصلّون فيه ويُسدِلون ثيابهم ، وهى كلمةٌ نَبطيّة أو عِبْرانية أصلها بُهْر بالباء فعُرِّبت بالفاء .

والسَّدل : إسبال الرَّجل ثوبه من غير أن يضمّ جانبيه بين يديه ، فإن ضمّه فليس بسَدْل ، وقد رويتْ فيه الكراهة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله .

* * *

ومنها : أن رجلا أتاه فى فريضة وعنده شُرَيح ، فقال : أتقول أنت فيها أيّها العبد الأَبْظَر !

قال أبو عبيد : هو الذى فى شَفته العُلْيا طُول ونتوء فى وسطها محاذِى الأَنْف .

قال : وإنما نراه قال لشُريح : « أيها العبد » ، لأنه كان قد وقع عليه سَبْىٌ فى الجاهلية .

---

(١) سورة النجم ٦١ .

ومنها : أنّ الأشعث قال له وهو على المِنبر : غلبتْنا عليك هذه الحمراء ؛ فقال عليه السلام : مَن يعذِرنى من هؤلاء الضّياطرة ، يتخلف أحدُهم يتقلّب على فراشِه وَحشاياه كالعَير ويهجر هؤلاء للذكر ! أأطْرُدهم ؟ إنى إنْ طرَدْتهم لمن الظالمين ؛ والله لقد سمعته يقول : والله ليضربنّكم على الدِّين عَوْدا كما ضرَبْتموهم عليه بَدْءا .

قال أبو عبيد : الحمراء : العجَم والمَوَالى ، سمّوا بذلك لأنّ الغالب على ألوان العرب السُّمْرة ، والغالب على ألوان العجم البياض والحُمْرة . والضّياطرة : الضِّخام الذين لا نَفْع عندهم ولا غَناء ، واحدُهم ضَيْطار .

***

ومنها : قوله عليه السلام : اقتلوا الجانّ ذا الطُّفْيَتَيْن ، والكلْب الأسود ذا الغُرّتين .

قال أبو عُبيد : الجانّ حية بيضاء ، والطّفْية فى الأصل : خُوصة المُقْل ، وجمعُها طفىً ، ثم شُبهت الخطّتان على ظهْر الحية بِطُفْيَتَيْن . والغُرّة : البياض فى الوجه .

***

[نبذ من غريب كلام الإمام على وشرحه لابن قتيبة]

وقد ذكر ابنُ قُتيبة فى غريب الحديث له عليه السلام كلمات أخرى :

فمنها قوله : من أراد البقاء – ولا بقاء – فليُباكِر الغداء ، وليُخفّف الرِّداء ، وليُقِلّ غِشْيان النساء . فقيل له : يا أمير المؤمنين ، وما خِفّة الرِّداء فى البقاء ؟ فقال : الدَّين .

قال ابن قتيبة : قوله « الرِّداء الدَّين » مَذهب فى اللغة حَسَنٌ جيّد ، ووجهٌ صحيح ، لأنّ الدَّيْن أمانةٌ ، وأنت تقول : هولك علىّ وفى عنق حتى أؤدّيه إليك ، فكأن الدين لازِم للعنق ، والرِّداء موضِعه صَفْحتا العنق ، فسمّى الدَّين رداء وكَنَى عنه به ، وقال الشاعر :

إن لى حاجةً إليك فقالت　　بين أُذْنى وعاتق ماتريد

يريد بقوله : « بين أُذنى وعاتق ماتريد » فى عنق ، والمعنى أنى قد ضمنته فهو علىّ ، وإنما قيل للسيف رداء لأنّ حمالته تقع موقع الرداء ، وهو فى غير هذا الموضع العطاء ، يقال : فلانٌ غمر الرداء أى واسعُ العطاء ؛ قال : وقد يجوز أن يكون كَنَى بالرِّداء عن الظَّهر ، لأنه يقع عليه ؛ يقول : فليخفِّف ظهره ولا يثقله بالدَّين ، كما قال الآخر : « خماص الأُزُر » ، يريد خماص البطون .

وقال: وبلغنى نحو هذا الكلام عن أبى عبيد ، قال : قال فقيه العرب : من سَرّه النساء ــ ولا نساء ــ فليُبكِّر العشاء ، وليُباكِر الغداء ، وليخفِّف الرِّداء ، وليُقِلّ غِشيان النساء قال : فالنسء التأخيرُ ، ومنه : ﴿ إنما النَّسىء زيادةٌ فى الكفر [1] ﴾ .

وقوله : فليُبَكِّر العَشاء ؛ أى فليؤخِّره ، قال الشاعر :

* فأكريتُ العشاء إلى سُهَيل *

ويجوز أن يريد فلينقص العَشاء ، قال الشاعر :

* والطلّ لم يفضل ولم يكر *

***

---

(١) سورة التوبة ٢٧ .

ومنها : أنه أُتِى عليه السلام بالمال فكوّم كَومةً من ذَهب وكَومة من فضة ، فقال: ياحمراء ويابيضاء احمرّى وابيضّى وغُرّى غَيْرى .

هذا جَناى وَخيارُه فيـــهْ   وكلُّ جانٍ يَدُهُ إلى فيـهْ

قال ابن قُتيبة : هذا مَثَل ضَرَبه ، وكان الأصمعىّ يقوله : «وهجانه فيه» ،أى خالصُه، وأصل المثــل لعَمرو بن عَــدِىّ ابن أُخْت جَذِيمة الأبرش ، كان يجنى الـكمأة مع أَتْراب له ، فـكان أترابه يأ كلون مايجـدون ، وكان عمرو يأتى به خالَه ويقول هـذا القول[1] .

***

ومنها حــديث أبى جأب قال : جاء عَمّى من البَصْرة يذهب بى وكنت عند أُمى ، فقالت : لا أتركك تذهب به ، ثمّ أتت عليًّا عليه السلام فذكرت ذلك له ، فجاء عَمّى من البصرة، فقال : نعم والله لأذْهبَنّ به وإن رغم أنفك ،فقال علىّ عليه السلام : كذبت والله ، ووَلَقْت ، ثم ضرب بين يدَيه بالدِّرة .

قال : ولَقْت مثل كَذبْتَ وكذلك وَلَعت بالعين ، وكانت عائشة تقرأ : ﴿ إذ تَلقَوْنَه بألسِنَتِـكُمْ ﴾[2] وقال الشاعر :

* وهنّ من الأخْلاف والولَعَان[3] *

يعنى النساء أى من أهل الأخْلاف .

***

ومنها قوله عليه السلام : إن من ورائــكم أموراً متماحلة رُدُحا وبلاء مكلّحا مبلّحا،

---

(١) ا : « الـكلام » .   (٢) سورة النور ١٥ .
(٣) اللسان (ولع) ، وصدره :

* خلابةِ العينيْن كذابة المنى *

قال ابن قتيبة : المَماحلة الطِّوال : يعنى فتنا يَطُول أمرُها ويعظم ؛ ويقال : رجل مُماحِل وسَبْسَب مُماحل ، والرُّدحُ جمع رِداح ، وهى العظيمة ؛ يقال للكتيبة إذا عَظُمَتْ : رَدَاح ، ويقال للمرأة العظيمة العَجيزة: رَداح .

قال : ومنه حديثُ أبى موسى ، وقيل له زمن علىّ ومعاوية : أهىَ أهىَ ؛ فقال : إنما هـــذه الفِتْنة حَيْضة مِن حيضات الفتن ، وبقيت الرُّداح المُظلمة التى من أشرَف أشرَفَتْ له .

ومكلِّحا أى يكلح الناسُ بشدتها ، يقال كلَح الرجل وأكلحَه ، الكلحة الهمّ . والمبلّح ، من قولهم : بلَح الرجُل إذا انقطع من الإعياء ، فلم يقدِر على أن يتحرك ، وأبلحَه السيرُ ؛ وقال الأعشى :

* واشتكى الأوصال منه وبَلَحْ(١) *

***

ومنها قولُه عليه السلام يوم خَيْبَر :

أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ كليثِ غاباتٍ كريهِ المَنظَرَهْ

* أُفيهم بالصّاع كَيْلَ السَّنْدَرَهْ *

قال ابن قتيبة : كانت أمّ علىٍّ عليه السلام سمّتْه وأبو طالبٍ غائبٌ حين ولدَته أسَداً باسم أبيها أسَدِ بنِ هاشم بنِ عبد مَناف ، فلمّا قدم أبو طالب غــيّر اسْمَه وسمّاه عليّا . وحَيْدرة : اسمٌ من أسماء الأسَد ، والسَّنْدرة : شجرةٌ يُعمَل منها القِسىّ والنَّبْل ؛ قال :

* حَنوْتُ لهم بالسَّنْدَرِىِّ المؤَتر *

فالسَّندرة فى الرَّجَز يُحتَمل أن تكون مِكْيالا يُتّخذ من هذه الشجرة ، سمّى باسمها كما سمِّى القَوْس نَبْعة . قال : وأحسب إن كان الأمرُ كذلك أنّ الكَيْل بها قد كان

---

(١) ديوانه ٢٣٩ ، وصدره :

* وإذا حُمِّلَ عِبْئاً بعضهم *

جُزافًا فيه إفراط ؛ قال : ويَحتمل أن تكون السَّنْدَرة هنا هنا امرأةً كانت تَكيل كَيلا وافيًا أو رَجُلا .

***

ومنها قولُه عليه السلام : من يَطُلْ أيرُ أبيه يتمنطقْ به .

قال ا بن قتيبة : هذا مَثَل ضرَبَه ، يريد من كثُرتْ إخوَتُه عزّ واشتدّ ظهرُه ، وضَرَب المِنطَقَة إذا كانت تشدّ الظَّهر مثلا لذلك ، قال الشاعر :

فلو شاءَ ربِّى كانَ أيرُ أبيكُمُ   طويلاً كأيْرِ الحارثِ بن سَدُوسِ (١)

قيل : كان للحارث بن سَدُوس أحدٌ وعِشرون ذَكرا ، وكان ضرارُ بنُ عَمْرو الضبيّ يقول : ألا إنّ شرّ حائلٍ أمّ ، فزوّجوا الأمّهات ، وذلك أنه صُرِع ، فأخذته الرِّماح ، فاشتَبَكَ عليه إخوتُه لأمّه حتى خلّصوه .

قال : فأمّا المَثَل الآخرُ وهو قولهم : من يَطُلْ ذَيْلُه يتَمنطَقْ به ، فليس من المثل الأوّل فى شىء ، وإنما معناه من وَجَد سعةً وضَعها فى غير مَوضِعها ، وأنفق فى غير ما يَلزمه الإنفاق فيه .

***

ومنها قولُه : خيرُ بئرٍ فى الأرض زَمْزم ، وشرُّ بئرٍ فى الأرض برهوت .

قال ابن قتيبة : هى بئرٌ بحضرَموْت يُروَى أن فيها أرواحَ الكُفار .

قال : وقد ذَكرَ أبو حاتم عن الأصمعىّ عن رجل من أهل حَضرَموْت قال : نجد فيها الرائحة المنتِنة الفظيعةَ جدا ، ثمّ نمكث حِينا فيأتينا الخبرُ بأنّ عظيما من عُظَماء الكفّار قد مات ، فنرَى أنّ تلك الرائحة منه ، قال : وربما سُمع منها مثل أصوت الحاجّ ، فلا يستطيع أحدٌ أن يَمشِىَ بها .

(١) اللسان (نطق) ، من غير نسبة .

ومنها قولُه عليه السلام : أيّما رجلٍ تزوّج امرأةً مجنونةً ، أو جَذْماء ، أو بَرْصاء ، أو بها قَرْن ؛ فهى امرأتُه ، إن شاء أمْسَك ، وإن شاء طَلّق .

قال ابن قُتَيبة: القَرْن بالتّسْكين: العَفلة الصغيرة؛ ومنه حديثُ شريح أنّه اختُصِم إليه فى قَرْن بجارِيةٍ ، فقال : أقعِدُوها فإن أصاب الأرضَ فهو عَيْب ، وإن لم يُصِب الأرض فليس بعيب .

* * *

ومنها قوله عليه السلام : لَوَدَّ معاويةُ أنّه مابقِيَ من بنى هاشم نافِخُ ضِرْمة إلّا طَعن فى نِيطه .

قال ابن قتيبة : الضِّرْمة النار ؛ وما بالدار نافخُ ضِرْمة ، أى مابها أحد .

قال : وقال أبوحاتم عن أبى زيد : طَعنَ فلانٌ فى نِيطه أى فى جِنازته ، ومن ابتدأ فى شىء أو دَخَل فيه فقد طَعَن فيه ، قال : ويقال : النِّيط: المَوْت، رماه الله بالنِّيط ؛ قال: وقد روى « إلّا طُعِن » بضم الطاء ، وهذا الرّاوى يذهَب إلى أن النِّيط نِياط القَلْب ، وهى عَلاقَتُه التى يتعلّق بها ، فإذا طُعِن إنسانٌ فى ذلك المكان مات .

* * *

ومنها قولُه عليه السلام : إنّ الله أوحَى إلى إبراهيمَ عليه السلام أنِ ابنِ لى بيتاً فى الأرض ، فضاقَ بذلك ذَرْعا ، فأرسَل اللهُ إليه السَّكِينة ، وهى رِيحٌ خَجُوج ، فتطوّقت[1] حولَ البَيْتِ كالحجَفة .

وقال ابن قتيبة : الخَجُوج من الرِّياح : السريعةُ المرور ؛ ويقال أيضا : خَجَوْجاء ، قال ابن أحمر :

---

(١) كذا فى ب ، وفى ا ، د : « فتطوت » .

هَوْجاء رَعْبَلة الرّواح خَجَوْ ... جاةُ الغُدُوّ رَواحُها شَهْرُ[(١)]

***

قال : وهذا مثلُ حديث عليّ عليه السلام الآخر ، وهو أنّه قال : السَّكينة لها وجهٌ كوَجْه الإنسان ، وهي بعدُ ريحٌ هفّافة ، أي خفيفةٌ سريعةٌ ، والحَجَفَة : التُّرْس .

***

ومنها أنَّ مُكاتبا لبعض بني أسَد ، قال : جئتُ بنَقَدٍ أجلِبُه إلى الكُوفة ، فانتهيْتُ به إلى الجِسْر ، فإنّي لأُسَرِّبُه عليه إذ أقبَل مولًى لبكْر بن وائل يتخلّل الغَنَم ليقطَعها ، فنفَرَتْ نقَدَة ، فقطّرت الرَّجُل في الفُرات ، فغرِق ، فأُخذت . فارتفعْنا إلى عليّ عليه السلام فقَصَصْنا عليه القِصّة ، فقال : انطلِقوا فإن عرَفتم النَّقَدَة بعَيْنها فادفَعوها إليهم . وإن اختَلَطت عليكم فادفَعوا شَرْواها من الغَنَم إليهم .

قال ابن قُتيبة : النَّقَد : غَنَم صِغار ، الواحدةُ نَقَدة ؛ ومنه قولُهم في المَثَل : « أذلّ من النَّقَد » .

وقوله : « أُسَرِّبه » أي أرْسِله قطعةً قطعةً . وشَرْواها : مثلها .

***

ومنها قولُه عليه السلام في ذِكر المَهْديّ من وَلَد الحُسَين عليه السلام ، قال : إنّه رجلٌ أجْلَى الجبين ، أقنَى الأنف ، ضَخْم البطْن ، أزْبَل الفَخِذين ، أفلَج الثّنايا ، بفَخِذه اليُمنَى شامة .

قال ابن قتيبة : الأجْلَى والأجْلَح شيءٌ واحد ، والقَنا في الأنف : طوله ودِقّة أرْنبَته

---

(١) اللسان ٣ : ٧١ ، قال : « يصف الريح » .

وحَدَبٌ فى وَسَطه . والأَرْبَل الفَخِذَين: المتباعدُ مابينهما ، وهو كالأفْحَج ؛ تَرَبّل الشىء ؛ أى انفرَج ، والفَلَج : صُفرةٌ فى الأسْنان .

***

ومنها قوله عليه السلام : إنّ بنى أُمَيّة لا يزالون يَطعُنون فى مَسجَل ضَلالة ، ولهم فى الأرض أَجَل حتى يُهَرِيقوا الدّم الحرامَ فى الشّهر الحَرام ، واللهِ لكأنّى أنظرُ إلى غِرْنَوْق من قُرَيْش يتخبّط فى دَمِه ، فإذا فعلوا ذلك لم يَبقَ لهم فى الأرض عاذِر ، ولم يبق لهم مُلْك ، على وجهِ الأرض .

قال ابنُ قتيبة : هو من قولك : ركبَ فلانٌ مَسجَله ، إذا جَدّ فى أمرٍ هو فيه كلاماً كانَ أو غيرَه ، وهو من السَّجْل وهو الصَّبّ . والغِرْنوق : الشابّ .

قلت : والغِرْنوق: القُرَشىّ الّذىقتَلوه ، ثمّ انقضَى أمرُهم عقيبَ قتلِهإبراهيم الإمام ، وقد اختَلَفت الرّواية فى كيفيّة قتله ، فقيل : قُتِل بالسّيف ؛ وقيل : خُنِق فى جِراب فيه نُورَة ، وحديث أميرِ المؤمنين عليه السلام يُسنِدُ الرّوايةَ الأولى .

***

ومنهـا مارُوى أنّه اشترى قميصا بثلاثة دَراهم ثم قال : الحمدُ لله الذى هـذا مِن رياشه.

قال ابنُ قتيبة : الرِّيش والرِّياش واحد،وهو الـكِسْوة ، قالعزّ وجل:﴿ قَدْ أنزلْنا عليـكم لباساً يُوارِى سَوْآتِـكم ورِيشاً ﴾ ، وقُرِئ ﴿ ورِياشا ﴾ .

***

ومنها قوله عليه السلام : لا قَوَد إلّا بالأسَل .

قال ابن قتيبة : هو ما أُرهِف وأُرِقّ من الحديد ، كالسِّنان والسيف والسكين ؛ ومنه قيل : أَسَلة الذِّراع لما استدَقّ منه ، قال : وأكثرُ الناس على هـذا المذهب

وقومٌ من الناس يقولون : قد يجوز أنَّ القوَد بغير الحديد كالحجر والعصا إن كان المقتول قُتل بغير ذلك .

***

ومنها أنه عليه السلام رأى رجلا فى الشمس ، فقال : قُمْ عنها فإنها مَبْخَرة مَجْفَرة ، تُثقِل الرِّيح ، وتُبلى الثَّوب ، وتُظهِر الدَّاءَ الدَّفين .

قال ابنُ قتيبة : مَبخَرة : تُورِث البَخَر فى الفَم . ومَجْفَرة : تَقطع عن النِّكاح وتُذهبُ شَهوة الجماع ، يقال جفر الفَحْل عن الإبل ؛ إذا أكثر الضِّراب حتى يملَّ وينقطع ، ومثله قَذَرَ ، وتقذَّر ، قذوراً ، ومِثلُه أَقْطَع فهو مقطع .

وجاء فى الحديث أن عثمان بن مظعون قال : يارسول الله ، إنى رجل تَشُقُّ علىَّ العُزْبة فى المغازِى ، أفتأذن لى فى الخِصاء ؟ قال : لا ، ولكن عليك بالصَّوم فإنّه مُجْفِر .

قال : وقد رَوى عبدُ الرحمن عن الأصمعىِّ عمّه ، قال : تكلّم أعرابىّ فقال : لا تنكحنّ واحدة فتحيض إذا حاضت ، وتمرض إذا مرضت ، ولا تنكحنّ اثنتين فتكون بين ضَرّتين ولا تنكحن ثلاثاً فتكون بين أثافٍ ، ولا تنكِحَنّ أربعاً فيفلِسْنك ويُهْرِمْنك ، ويُنْحِلْنَكَ ويُجفرنْك فقيل له : لقد حرّمْتَ ما أحلّ الله ، فقال: سبحان الله ! كُوزان ، وقُرْصان ، وطِمْران وعِبادة الرّحمن ، وقوله « تُثْقِل الريح » ، أى تُنْتِنها ، والاسم الثُّفْل ، ومنه الحديث « وليخرجنّ تفلات » . والداء الدّفين ؛ المستتر الذى قد قهرَتْه الطّبيعة ، فالشمسُ تُعينهُ على الطّبيعة وتُظْهِره .

***

ومنها قوله عليه السلام وهو يذكر مسجد الكوفة فى زاويته : فارَ التنور ، وفيه هَلاك يَغُوث ويَعُوق ، وهو الفاروق، ومنه يَستيِر جبلُ الأهْواز ، ووَسَطه على رَوْضةٍ من

رياضِ الجنّة ، وفيه ثلاثُ أعيُنٍ أنبتتْ بالضِّغْثِ ، تذهِب الرِّجس ، وتُطهِّر المؤمنين: عَيْن من لَبَن ، وعَيْن من دُهْن ، وعينٌ من ماء ، جانبهُ الأيْمن ذِكْر ، وفى جانبه الأيسر مَكْر ، ولو يَعلم الناسُ مافيه من الفَضْل لأتَوْه ولو حَبْواً .

قال ابن قتيبة : قوله « أنبتتْ بالضِّغث » أحسِبُه الضِّغث الذى ضرب أيّوب أهله . والعَين التى ظهرت لما رَكَض الماء برجله . قال : والباء فى « بالضِّغث» زائدة ، تقديرُه : أنبتَت الضِّغْث ، كقوله تعالى : ﴿ تَنْبُتُ بالدُّهن[1] ﴾ ، وكقوله : ﴿ يشرَبُ بها عباد الله[2] ﴾ .

وأما قوله : « فى جانبه الأيْمَن ذِكْر » ، فإنّه يَعنى الصلاة · « وفى جانِبه الأيسر مَكْر » أراد أراد به المَكْر به حتى قُتِل عليه السلام فى مسجد الكوفة .

***

ومنها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآلِه بعث أبا رافع مولاه يتلقى جعفرَ بنَ أبى طالب لمّا قَدِم من الحَبَشة، فأعْطاه علىٌّ عليه السلام حَتِيًّا وعُكّة سَمْن ، وقال له:أنا أعلم بجعفر أنّه إنْ علم ثرّاه مرّة واحدة ثم أطعمه ، فادفع هذا السَّمْن إلى أسماء بنت عُمَيس تَدْهنُ به بنى أخى مِنْ صمَر البَحْر ، وتُطعمُهم من الحَتِيّ .

قال ابن قتيبة : الحَتِيّ : سَوِيق يُتخَذ من المُقْل ، قال الهذَلىّ يذكر أضيافه :

لا دَرَّ دَرِّىَ إنْ أطْعَمْتُ نازِلَكُمْ   قِرْفَ الحَتِيِّ وعندى البُرُّ مَكْنوزُ

---

(١) سورة المؤمنين : ٢٠ .
(٢) سورة الدهر : ٦ .

وقوله: «ثرّاه مرّة» أى بلّه دفْعة واحدة وأطعمه الناسَ ، والثرى : الندا . وصَمرُ البحرِ : نَتْنه وغَمْقُهُ ، ومنه قيل للدُّبُر الصُّمارَى .

***

ومنها قوله عليه عليه السلام يوم الشُّورَى لما تكلّم : الحمد لله الذى اتّخذ محمدا منّا نبيا ، وابتعثه إلينا رسولا ، فنحن أهلُ بيت النبوّة ، ومَعدن الحِكْمة ؛ أمانٌ لأهل الأرض ، ونَجاةٌ لمن طَلَب ، إنّ لنا حقّا إن نُعْطَه نأخذه ، وإن نمنعْه نركب أعجازَ الإبل ، وإن طالَ السرَى ، لو عَهِد إلينا رسولُ الله صلى الله عليه وآله عهداً لجالَدْنا عليه حتى نموت ، أو قال لنا قولا لأنفذنا قوله على رَغْمِنا . لن يُسرِع أحدٌ قَبْلى إلى صِلَةِ رَحِمٍ ودعوة حَقّ ، والأمرُ إليك يابن عوف على صِدْق النّية ، وجُهْد النُّصْح ؛ وأستغفرُ الله لى ولكُم .

قال ابنُ قتيبة : أى أن مَعناه رَكِبنا مركب الضَّيْم والذّل ، لأنّ راكب عجزُ البعير يجد مَشَقّة ، لا سيما إذا تطاول به الرّكوب على تلك الحال ، ويجوز أن يكون أراد: نصبر على أن نكون أتْباعا لغَيْرِنا ، لأنّ راكب عجزُ البعير يكون رِدْفا لغيره .

***

ومنها قوله عليه السلام لما قَتل ابنُ آدم أخاه : غَمَصَ الله الخَلْق ونقص الأشياء .

قال ابن قتيبة : يقال غَمَصْتُ فلانا أغمِصه واغتمصتُه ، إذا استصْغَرْته واحتقَرْته ، قال: ومعنى الحديث أنّ الله تعالى نقص الخَلْق من عظم الأبدان وطُولها من القوّة والبَطْش وطول العُمْر ونحو ذلك .

***

ومنها أنّ سلامة الكِندىّ قال : كان علىٌّ عليه السلام يعلِّمنا الصلاة على

رسولِ الله صلى الله عليه وآله فيقول : اللهم داحيَ المدحُوّات ، وبارئَ المَسْمُوكات ، وجبّارَ القلوب على فِطرَاتها ، شقيّها وسعيدها ، اجعلْ شرائف صلواتِك ، ونواميَ بركاتِك ، ورأفة تحيّاتك ، على محمد عبدِك ورسولك ، الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، والمُعْلِن الحقَّ بالحقّ ، والدامغ جيشات الأباطيل ، كما حَمّلته فاضطَلَع بأمْرِك لطاعتِك،مستوفزاً فى مَرْضاتك ، لغير نُكُل فى قِدَم،ولا وَهَن فى عَزْم ، داعيا لوحْيك، حافظا لِعَهْدِك ، ماضيا على نفاذِ أمرِك ، حتى أورَى قبَسا لقابس ، آلاء الله تصل بأهله أسبابه به ، هديت القلوب بعد خَوْضات الفتن والإثم ، موضحات الأعلام ، ونائرات الأحكام ، ومنيرات الإسلام ، فهو أمينك المأمون ، وخازنُ عِلْمك المخزون ، وشهيدُك يوم الدّين ، وبعيثُك نعمة ، ورسولك بالحق رحمة . اللهم افسح له مفسحاً فى عَدْلك ، واجْزه مضاعَفاتِ الخير من فضلك ، مهنّآتٍ غير مكدَّرات ، من فوْزِ ثوابك المحْلول ، وجَزْل عطائك المَعلول ، اللهم أعلِ على بناء البانين بناءه ، وأكرِم مثواهُ لديك ونزُله، وأتمم له نورَه ، واجزِه من ابتعاثِك له مقبول الشهادة ، مَرْضيَّ المقالة ، ذا منطق عَدْل ، وخُطّة فصل ، وبرهان عظيم .

قال ابن قتيبة : داحى المدحوّات ، أى باسط الأرضِين ، وكان الله تعالى خلقها رَبْوة ثم بَسطها:، قال سبحانه ﴿ والأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها ﴾[1]؛ وكلّ شىء بسطتَه فقد دَحَوْتَه ومنه قيل لموضع بَيْض النَّعامة: أُدْحِيّ ، لأنها تَدْحُوه للبَيْض أى توسِّعه ، ووَزْنهُ أفعول.

وبارئ المسْمُوكات : خالق السموات.وكلّ شىء رفعته وأعليته فقد سَمَكْته،وسَمْك البيت والحائط ارتفاعُه ، قال الفرزْدَق :

إنّ الذى سَمَك السماء بَنَى لنـا   بيتاً دعائمُـه أعزُّ وأطوَلُ

---

(١) سورة النازعات ٣٠ .

وقوله : جبّار القـلوب على فِطْرَاتِهـا . من قولك جَبَرْت العَظْمَ فجُبِر إذا كان مَـكْسورا فلأَمْتَه وأقَمْتَه ، كأنَّه أقامَ القلوب وأثبتَها على مافطَرَها عليه من معرفته والإقرار به ، شقيّها وسعيدها ، قال : ولم أجعلْ إجبارا هاهنا ، من أجبرتُ فلانًا على الأمر إذا أدخلتَه فيه كُرْها ، وقَسَرْته ، لأنّه لا يقال من أفعل فعّال ، لا أعلم ذلك إلا أنّ بعض القرّاء قرأ ﴿ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَّاد ﴾ (١) بتشديد الشين ، وقال : الرشّاد الله ، فهذا فعّال من أفعل ، وهي قراءة شاذّة ، غيرُ مستعمَلة ، فأمّا قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّار ﴾ (٢) فإنه أراد وما أنتَ عليهم بمسلَّط تسليط الملوك . والجبابِرة : الملوك ، واُعتبار ذلك قولُه : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِر ﴾ (٣) أي بمُتَسَلّط تسلُّط الملوك ، فإن كان يجوز أن يقال من أجبرتُ فلانا على الأمر : أنا جَبّارٌ له ، وكان هذا محفوظا ، فقد يجوز أن يُجعَل قولُ عليٍّ عليـه السلام : جبّار القلوب من ذلك ، وهو أحسَنُ في المعنى .

وقوله : « الدامغ جَيْشات الأبَاطِيل » ، أي مُهلِك مانَجَم واُرتفع من الأباطيل ، وأصل الدَّمْغ من الدِّماغ ، كأنّه الذي يَضرِب وَسَط الرأسِ فيَدْمَغُه أي يصيب الدِّماغَ منه. ومنـه قولُ الله عزّ وجلّ : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُه ﴾ (٤) أي يُبطِله والدِّماغ مَقتَل ، فإذا أصيبَ هَلَكَ صاحبُه .

وجَيْشـات : مأخوذٌ من جاشَ الشيء أي ارتفَع ، وجاش الماء إذا طَمَى ، وجاشَت النفْسُ .

وقولُه : « كما حمل فاُضطَلَع » افتعَل مِن الضَّلاعة وهي القوّة .

---

(١) سورة المؤمنين : ٣٨ .
(٢) سورة ق : ٤٥ .
(٣) سورة الغاشية : ٢٢ .
(٤) سورة الأنبياء : ١٨ .

وقولُه : « لغيرِ نُكْلٍ فى قدَم » ، النَّكْل: مَصدَر وهو النُّكول ، يقال : نَكَل فلانٌ عن الأمر يَنكُل نُكولًا ، فهذا المشهورُ ونَكِل بالكسر ينكل نُكْلا قليلة .

والقِدَم : التقدّم، قال أبو زيد: رجلٌ مِقْدام إذا كان شجاعا، فالقدم يجوزُ أن يكون بمعنى التقدّم ، وبمعنى المتقدِّم .

قوله : « ولا وَهْن فى عَزْم » ، أى ولا ضَعْف فى رأى .

وقوله : «حتّى أورى قبساً لقابِس» ، أى أظهر نورا من الحقّ ، يقال : أوْرَيْتُ النارَ إذا قدَحْتَ ماظهر بها ، قال سبحانه : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾[1] .

وقوله : « آلاءُ الله تصلُ بأهلِه أسبابه » ، يريد نِعَم الله تَصِل بأهلِ ذلك القَبَس ، ـ وهو الإسلام والحقّ سبحانه ـ أسبابَه وأهله ، المؤمنون به .

قلتُ : تقديرُ الكلام حتّى أورى قبساً لِقابس ، تَصِل أسبابُ ذلك القَبَس آلاءُ الله ونِعَمُه بأهلِ المؤمنين به . واعلم أنّ اللام فى «لغير نُكْل» متعلِّقةٌ بقوله : «مستوفِزا»، أى هو مُستوفِزٌ لغير نُكول ، بل للخوف منك ، والخضوع لك .

قال ابنُ قُتَيبة : قولُه عليه السلام : « به هُدِيَت القلوب بَعدَ الكُفر ، والفِتَن مُوضحات الأعلام » ، أى هديته لمُوضِحات الأعلام ؛ يقال هَدَيتَ الطريقَ وللطّريق وإلى الطريق .

وقوله : « نائرات الأحكام ، ومُنِيرات الإسلام ، يريد الواضحات البيّنات ، يقال: نار الشىء وأنارَ ، إذا وَضَح .

وقولُه : « شَهيدك يومَ الدّين » ، أى الشّاهد على النّاس يومَ القيامة . وبَعيثُك رَحْمة ، أى مَبعُوثُك ، فَعِيل فى معنى مَفْعول .

---

(١) سورة الواقعة : ٧١ .

وقوله : « افسَح له مَفسَحا » ؛ أى أوسِع له سَعةً ؛ ورُوِى « مُفْتسحا » بالتاء .

قوله : « فى عَدْلك » أى فى دار عدلك، يَعنى يومَ القيامة ، ومن رواه :« عَدْنِك » بالنّون ، أراد جَنّةَ عَدْن .

وقوله : « من جَزْل عَطائك المَعْلول » ، من العَلَل ، وهو الشُّرْب بعد الشُّرْب ، فالشُّرْب الأوّل نَهَل ، والثانى عَلَل ، يريد أنّ عَطاءه عزّ وجلّ مُضاعَف ، كأنه يَعُلّ عِبادَه ، أى يُعطِيهم عَطاء بعد عَطاء .

وقوله : « أَعْلِ على بناء البانين بِناءه » ، أى ارْفَع فَوقَ أعمالِ العامِلين عَمَلَه . وأ كرِم مَثْواه ، أى مَنزِلَته ، من قولِك : ثوَيْت بالمكان أى نَزَلْته وأقمْت به ، ونُزُله : رزقه .

ونحن قد ذكَرْنا بعضَ هذه الكلمات فيما تقدّم على رواية الرّضىّ رحمه الله وهى مخالِفةٌ لهذه الرواية ، وشرحنا مارَواه الرّضىّ، وذَكَرْنا الآن ماروَاه ابنُ قُتَيْبة وشرَحه لأنّه لا يخلو من فائدة جديدة .

***

ومنها قوله عليه السلام : خُذِ الحِكمةَ أنّى أتتْك ، فإنّ الكلمةَ من الحِكمة تكونُ فى صدر المنافق فتَلَجْلَجُ فى صَدْرِه حتّى تَسكُن إلى صاحبِها .

قال ابن قتيبة: يريدُ الكلمةَ قد يَعلَمها المنافقُ فلا تزال تتحرّك فى صَدْرِه ولا تَسكُن حتّى يَسمَعَها منه المؤمنُ أو العالِم فيَعِيها ويَثْقَفُها ويَفْقهها منه ، فتَسكُن فى صَدْره إلى أخواتها من كَلِم الحِكْمة .

***

ومنها قوله عليه السلام : البيتُ المَعْمور نِتاقُ الكَعْبة من فوقِها .

قال ابنُ قُتَيبة : نِتاقُ الكَعْبة ، أى مُظلّ عليها من فوقِها ، من قولِ الله سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾(١) ، أى زُعزِع فأظلّ عليهم .

***

ومنها قولُه عليه السلام : « أنا قَسيم النار » ، قال ابن قُتيبة : أراد أنّ الناس فريقان : فريقٌ معى فهم على هُدًى ، وفريقٌ علىّ فهمْ على ضَلالة ، كالخوارِج ، ولم يَجْسُر ابن قُتيبة أن يقول : « وكأهل الشّام » يتورّع يزعم ، ثمّ إن الله أنْطَقَه بما تورّع عن ذِكْرِه ، فقال متمِّمًا للكلام بقوله : فأنا قَسِيم النّار ، نصفٌ فى الجنّة معى ، ونصفٌ فى النار ؛ قال : وقَسِيم فى معنى مُقاسِم ، مثل جَلِيس وأَكِيل وشَرِيب .

قلت : قد ذكر أبو عُبَيد الهَرَوِىّ هذه الكلمةَ فى الجمع بين الغَرِيبَيْن ؛ قال : وقال قوم : إنّه لم يُرِد ما ذَكَره ، وإنما أراد : هو قَسِيم النّار والجنّة يومَ القيامة حقيقة ، يقسم الأمّة فيقولُ هذا للجنّة ، وهذا للنار .

***

---

(١) سورة الأعراف : ١٧١ .

[خطبة منسوبة للإمام علىّ خالية من حرف الألف]

وأنا الآن أذكُرُ من كلامِهِ الغريب ما لم يُورِدْه أبو عُبيد وابنُ قُتَيبة فى كلامهما وأشرَحُه أيضا ، وهى خُطْبَةٌ رَواها كثيرٌ من الناس له عليه السلام خاليَةٌ من حَرْف الألف ؛ قالوا : تذاكر[1] قوم من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله : أىّ حروف الهجاء أدخَل فى الكلامِ ؟ فأجمعوا على الألف ، فقال علىٌّ عليه السلام :

حَمِدْتُ مَنْ عظُمت مِنَّته ، وسَبَغَت نعمتُه ، وسبقَت غضبَه رحمتُه ، وتمت كلمته ، ونفذتْ مشيئتُه ، وبلغت قضيَّتُه ؛ حَمِدْته حمد مُقِرٍّ بِرُبوبيته ، متخضِّعٍ لعبوديَّته ، متنصِّلٍ مِن خطيئتِهِ ، متفرِّدٍ بتوحيدِهِ ، مؤمِّلٍ منه مغفرةً تُنجيهِ ، يومَ يُشْغَلُ عن فصيلتِهِ وبنيه .

ونستعينُهُ ونسترشِدُهُ ونستهديه ، ونُؤْمِنُ بِهِ ونتوكَّلُ عليه ، وشهِدْتُ له شهودَ مُخْلِصٍ موقِنٍ ، وفَرَّدْتُهُ تفريد مُؤْمِنٍ مُتيقِّنٍ ، ووحَّدْتُهُ توحيدَ عبدٍ مذعِنٍ ، ليس له شريكٌ فى مُلْكِهِ ، ولم يكن له ولِىٌّ فى صنعِهِ ، جَلَّ عن مشيرٍ ووزيرٍ ، وعن عوْنٍ مُعِينٍ ونصيرٍ ونظيرٍ .

عَلِمَ فستر ، وبَطَن فخبرَ ، وملكَ فقهرَ ، وعُصِىَ فغفر ، وحكم فعدلَ ، لم يزلْ ولن يزولَ ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[2] ، وهو بعد كلِّ شىء ربٌّ متعزِّزٌ بعزَّتِهِ ، متمكِّنٌ بقُوَّتِهِ ، متقدِّسٌ بعلوِّه ، متكبِّرٌ بسموِّهِ ، ليس يدركُهُ بصرٌ ، ولم يُحِطْ به نظرٌ ، قوىٌّ منيعٌ ، بصيرٌ سميع ، رءوفٌ رحيمٌ .

عجزَ عن وصفِهِ من يصفُهُ ، وضلَّ عن نعته من يعرفه .

---

(١) فى الأصل : « بذاكر » ؛ تصحيف .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

قَرُبَ فبعُدَ ، وبعُد فقرُب ، يُجيبُ دعوةَ من يدعوه ، ويرزقُهُ ويحبوه ، ذو لطفٍ خَفِيٍّ ، وبطشٍ قويٍّ ، ورحمةٍ مُوسَعةٍ ، وعقوبةٍ موجِعةٍ ، رحْمَتُهُ جنة عريضة مونقة ، وعقوبته جحيمٌ ممدودةٌ موبقةٌ .

وشهِدْتُ ببعث محمدٍ رسولِهِ ، وعبدِهِ وصفيِّهِ ، ونبيِّهِ ونَجِيِّهِ ، وحبيبِهِ وخليلِهِ ، بعثه فى خيرِ عصرٍ ، وحين فترةٍ وكفرٍ ، رحمةً لعبيدهِ ، ومِنَّةً لمزيدهِ ، ختم به نبوَّتَهُ ، وشيَّدَ به حجَّته ، فوعظ ونصح ، وبلغ وكدح ، رءوفٌ بكلِّ مُؤْمنٍ ، رحيمٌ سخيٌّ ، رضيٌّ ولِيٌّ زكيٌّ ، عليه رحْمةٌ وتسليمٌ ، وبركةٌ وتكريمٌ ، مِنْ ربٍّ غفورٍ رحيمٍ ، قريبٍ مُجيبٍ .

وَصيَّتكُمْ معشرَ من حضرَنِى بوصيَّةِ ربِّكُم ، وذكَّرْتُكُمْ بسُنَّةِ نبيِّكُمْ ، فعليكم برَهْبةٍ تَسْكُنُ قلوبَكم ، وخشيةٍ تُذْرِى دُمُوعكم ، وتقيَّةٍ تنجيكُمْ قبل يومٍ تُبليكم وتذهلكم ، يومٍ يفوزُ فيه منْ ثقلَ وزنُ حسنتهِ ، وخفَّ وزنُ سيِّئتهِ ، ولتكُنْ مسألتكم وتملُّقكُمْ مسألهُ ذلٍّ وخضوعٍ ، وشكرٍ وخشوعٍ ، بتوْبةٍ وتورُّعٍ ، وندمٍ ورجُوعٍ ، وليغتنمْ كلُّ مُغتنِمٍ منكُمْ صحَّتَهُ قبل سقمه ، وشبيبتِهِ قبل هرَمِهِ ، وسعتَهُ قبلَ فَقْرِهِ ، وفرْغتَهُ قُبل شُغله ، وحضَرَه قبل سفره ، قبلَ تكبُّرٍ وتهرُّمٍ وتسقُّمٍ ، يمَلُّهُ طبيبُهُ ، ويعْرِضُ عَنْهُ حبيبُهُ وينقطعُ عُمْدُهُ ، ويتغيَّرُ عقلُهُ ، ثم قِيلَ : هُوَ موعُوكٌ ، وجسمُهُ منهُوكٌ ، ثمَّ جُدَّ فى نزعٍ شديدٍ ، وحضرَهُ كلُّ قريبٍ وبعيدٍ ، فَشَخَصَ بصرُهُ ، وطمِحَ نظرُهُ ، ورَشَحَ جبينُهُ ، وعطفَ عَرِينُهُ ، وسَكَنَ حَنينُهُ ، وحزَنتْهُ نفسهُ ، وبكتهُ عِرْسُهُ ، وحُفِرَ رَمْسهُ ، ويُتِّمَ منهُ ولَدُهُ ، وتفرَّق منهُ عدَدُهُ ، وقُسِمَ جَمْعُه ، وذَهَبَ بصرُهُ وسَمْعُهُ ، ومدِّدَ وجُرِّدَ ، وعُرِّىَ وغسِلَ ، ونُشِّفَ وسُجِّىَ ، وبُسِطَ لَهُ وهُيِّئَ ، ونُشِر عليهِ كَفَنُهُ ، وشُدَّ منهُ ذَقَنُهُ ، وقُمِّصَ وعُمِّمَ ، ووُدِّعَ وسلِّمَ ، وحُمِلَ فَوْقَ سَرِيرٍ ، وصُلِّى عليهِ بتكبيرٍ ، ونُقل مِنْ دُورٍ مُزخْرَفَةٍ ، وقُصُورٍ مُشيَّدَةٍ ، وحُجَرٍ مُنجَّدَةٍ ، وجُعِلَ فى ضريحٍ ملحُودٍ

وضِيق مرصُودٍ، بلَبِنٍ منضُودٍ،مُسقَّفٍ بجُلمُودٍ،وهيلَ عليهِ حفرُهُ، وحُثِيَ عَلَيْهِ مَدَرُهُ، وتحقق حِذرُهُ ،ونُسِيَ خبرُهُ ،وَرَجع عنهُ وليُّه وصفيّه، ونديمُهُ ونَسيبه ،وتبدَّل بهِ قرينه وحبيبُهُ ، فهو حشو قبرٍ ، ورهينُ قفرٍ ، يسعى بجسمه دُود قبرِهِ ، ويسيل صديدُهُ مِنْ مَنْخِرِهِ ، يسحقُ تُرْبُهُ لحمَهُ ، وينشَفُ دَمَهُ ، ويرِمّ عظمُهُ حَتّى يومْ حشرِهِ ، فنُشِرَ مِنْ قَبْرِهِ حِينَ يُنفَخُ في صُورٍ ، ويُدْعَى بحشرٍ ونُشُورٍ .

فثمّ بعثِرَتْ قُبُور ، وحُصِّلَتْ سريرَةُ صُدُورٍ ، وَجِيءَ بِكلِّ نبيٍّ وصدِّيقٍ وشهيدٍ ، وتوحَّد للفَصْلِ قديرٌ بعبدهِ خبيرٌ بصير ، فكَمْ مِنْ زَفْرة تُضْنيهِ ، وحسرةٍ تنضيهِ ، في مَوْقفٍ مَهُولٍ ، ومشْهدٍ جليلٍ ، بَيْنَ يَدَيْ ملكٍ عظيمٍ ، وبِكلِّ صغيرٍ وكَبيرٍ عليمٍ ، فحينئذٍ يُلْجِمُهُ عرَقُهُ ، ويَحصرُه قلقهُ ، عبْرتُهُ غير مرحومةٍ ، وصرْخته غيرُ مسموعة ،وحجّتهُ غيرمقولة ، زَالتْ جريدته ، ونشرَتْ صحيفتهُ ؛نظرَ في سوءِ عملهِ ، وشهدتْ عليْه عيْنه بنظره ، ويدهُ ببَطشهِ ، ورجلهُ بخطْوه ، وفرْجهُ بلمسهِ ، وجلدُه بمسِّهِ ، فسلسِلَ جيدُه ، وغُلّتْ يده ، وسيقَ فسحب وحْدَه ، فورَدَ جهنّمَ بكرْبٍ وشدّةٍ ، فظلّ يعذّبُ في جحيمٍ ، ويُسْقى شَرْبَةً مِنْ حَميمٍ ، تَشْوي وجْهَهُ ، وتسلخُ جِلْدَهُ ، وتضربهُ زِبنْيَةٌ بمقْمعٍ من حَديدٍ ، ويعودُ جلده بعْدَ نُضْجه كجلْدٍ جديدٍ ، يستغيثُ فتعرض عنْه خزنَةُ جهنّمَ ، ويستصرِخُ فيلبث حقْبةً ينْدَمُ .

نعوذُ بِرَبٍّ قَديرٍ ، منْ شرِّ كلِّ مصيرٍ ، ونسْأله عفو مَنْ رَضيَ عنه ، ومغفرة مَنْ قبله ، فهوَ وليُّ مسألتي ، ومُنجحُ طلبتي ، فمَنْ زُحْزِحَ عَنْ تعذيب رَبِّهِ جُعِلَ في جَنّتهِ بقُرْبه ، وخلد في قصورٍ مُشيّدة ، ومُلِّكَ بحورٍ عينٍ وحفدةٍ ، وطيفَ عليْهِ بكئوسٍ ، أُسْكِنَ في حظِيرَةِ قُدُّوس ، وتقلّبَ في نعيمٍ ، وسُقِيَ مِنْ تسنيمٍ ، وشرب مِنْ عيْنِ سَلْسَبيلٍ ،ومُزِجَ له بزنجبيلٍ ، مُختَّمٍ بمسكٍ وعبيرٍ، مُستدِيمٍ للملكِ، مُستشعرٍ للسُّرُرِ ، يشربُ مِنْ خُمُورٍ ، في روْضٍ مُغْدقٍ ، لَيْس يُصَدَّعُ مِنْ شربه ، ولَيْسَ يُنزَف .

هَـذِهِ منزِلَةُ مَنْ خشيَ ربَّهُ، وحذر نفسَهُ معصيتهُ، وتلكْ عقوبةُ مَنْ جحد مشيئتهُ، وسوّلتْ له نفسهُ معصيتهُ، فهو قَوْلٌ فصلٌ، وحُـكم عـدْلٌ وخبر قصص قصٌّ، ووَعْظ نَصٌّ، ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَـكيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1] نَزَلَ بهِ رُوحُ قُدُسٍ مُبين، عَلَى قَلْب نبيٍّ مُهْتدٍ رَشِيدٍ، صلَّتْ عليهِ رُسُلٌ سفَرَةٌ، مُكرَّمُونَ بررَةٌ، عُذْتُ بربٍّ عَلِيمٍ، رَحِيمٍ كَرِيمٍ، مِنْ شرِّ كلِّ عدوٍّ لَعِينٍ رَجِيمٍ، فلْيَتضرَّعْ مُتضرِّعكم، وليَبتهلْ مُبتهلُكُمْ، وليستغفرْ كلُّ مرْبوبٍ منكُمْ لى وَلـكم، وَحسبى رَبِّى وحدَهُ.

***

الشَّرْحُ :

فصيلةُ الرجل : رهطُه الأدْنَوْن . وكَدح : سعى سعيا فيه تعب ، وفرْغته : الواحدةُ من الفَرَاغ ، تقول : فَرَغْت فرْغةً ، كقولك : ضربتُ ضربةً . وسَجّى الميّتَ : بسط عليه رداء . ونَشَر الميّت من قبْره بفتح النون والشين ، وأَنشرَه اللهُ تعالى .

وبُعثِرت قبور : انتثرتْ ونُبشتْ .

قوله : « وسيق بسحب وحدَه » ، لأنه إذا كان معه غيره كان كالمتأسِّى بغيره، فكان أخفَّ لألمه وعذابه ، وإذا كان وحده كان أشدَّ ألماً وأهوَل ، وروى « فسيقَ يُسحَب وحدَه » وهذا أقرب إلى تناسُب الفِقْرتَين ، وذاك أفخم معنًى .

وزِبْنية على وَزْن « عِفرِية » واحد الزبانية ، وهم عند العرب الشّرط ، وسُمّى بذلك بعض الملائكة لدَفْعهم أهل النار إليها كما يَفعل الشّرط فى الدُّنيا ، ومن أهل اللّغة من يجعَل واحد الزّبانية زبانىّ . وقال بعضهم : زَابن ، ومنهم من قال : هو جمع لا واحدَ له ، نحو أبابيل وعبادِيد ، وأصـل الزبْن فى اللّغـة الدَّفْع ، ومنـه ناقةٌ زَبُون : تَضرِب حالبَها وتَدفعه .

---

(١) سورة فصلت : ٤٢ .

وتقول : مَلكَ زيدٌ بفلانةَ بغير ألف ، والباء هاهنا زائدة كما زيدت فى « كَفَى بالله حسيبا »، وإنما حكمنا بزيادتها لأنّ العَرَب تقول: ملكتُ أنا فلانةً أى تزوّجتُها، وأملكْت فلانةَ بزيْدٍ أى زوّجْتها به ، فلمّا جاءت الباء هاهنا ولم يكن بُدٌّ من إثبات الألف لأجلِ مجيئها جعلناها زائدة ، وصار تقديرُه : ومَلَكَ حُوراً عينا .

وقال المفسِّرون فى تَسْنيم : إنه اسمُ ماء فى الجنة سُمّى بذلك لأنّه يجرى من فوق الغُرَف والقُصور .

وقالوا فى سلسبيل : إنه اسمُ عَيْنٍ فى الجنة ليس يُنزِف ولا يُخَمِّرُ كما يُخَمِرِ شارب الخَمْر فى الدنيا .

***

انقضَى هذَا الفصلُ ، ثُمّ رَجعنا إلى سَنَن الغرَضِ الأوّلِ .

(٢٦٧)

الأصلُ :

وقالَ عليه السلامُ ، لمّا بلغهُ إغارةُ أصْحابِ معاوِيةَ على الأنْبار ، فخرج بنفْسِهِ ماشياً حتى أتى النُّخَيْلَةَ ، وأدرَكهُ النَّاس وقالُوا : يا أمير المُؤمِنين ، نحْن نَكْفِيكهمْ ، فقال عليه السَّلام :

وَاللهِ مَاتَكْفُونَنِي أنفُسَكُمْ ، فَكَيْفَ تَكْفُونَنِي غَيْرَكُمْ ! إنْ كَانَتْ الرَّعَايَا قَبْلِي لَتَشْكُو حَيْفَ رُعَاتِهَا ، فَإِنَّي الْيَوْمَ لأشْكُو حَيْفَ رَعِيَّتِي ، كأنَّنِي الْمَقُودُ وَهُمُ الْقَادَةُ ، أوِ الْمَوْزُوعُ وَهُمُ الْوَزَعَةُ .

قال : فلمّا قال هذا القول في كلامٍ طويلٍ قد ذكرْنا مُختارَهُ في جملةِ الْخُطَب ، تقدَّم إلَيْهِ رَجُلان من أصحابه ؛ فقال أحدهما : ﴿ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ﴾[1] ، فمُرْنا بِأمْرِكَ يا أميرَ الْمُؤمِنينَ نُنفذْ[2] ، فقال : وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ !

***

الشَّرح :

السّنن : الطريقة ، يقال : تنحَّ عن السَّنن ، أى عن وَجْه الطّريق . والنُّخَيْلة : بظاهر الكوفة ، ورُوِى « ماتكفُونى » بحذف النون .

والحَيْف : الظلم .

والوَزَعة : جمع وازِع ، وهو الدافع الكافّ .

ومعنى قوله : « ماتكفُونني أنفسكم » ، أى أفعالكم رديئةٌ قبيحةٌ تحتاجُ إلى جندغيركم

(١) سورة المائدة : ٢٥ .

(٢) فى الأصل : « ننقذ » ، تصحيف .

أستعين بهمْ على تثقيفِكم وتهذيبكم ، فمَنْ هـذه حاله كيف أثقِّف به غَيره ، وأهذِّب به سواه !

وإن كانت الرعايا : إنْ هاهنا مخفَّفة من الثقيلة ، ولذلك دَخَلت اللام فى جوابها .

وقد تقدّم ذكرُنا هذين الرّجلين ، وإن أحدَهما قال : ياأمير المؤمنين ؛ أقول لكَ ماقاله العبْد الصالح : ﴿ ربِّ إنِّى لا أملِكُ إلّا نفسى وأخِى ﴾(١) . فشكرلها وقال: وأين تقعان مما أريد !

(١) سورة المائدة ٢٥ .

(٢٦٨)

الأَصْلُ :

وَقِيلَ : إِنَّ الْحَارِثَ بنَ حَوْطٍ أَتَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ لَهُ : أَتُرَانِي أَظُنُّ أَنَّ أَصْحَابَ الْجَمَلِ كَانُوا عَلَى ضَلَالَةٍ ؟

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

يَاحَارِ ، إِنَّكَ نَظَرْتَ تَحْتَكَ ، وَلَمْ تَنْظُرْ فَوْقَكَ فَحِرْتَ ؛ إِنَّكَ لَمْ تَعْرِفِ الْحَقَّ فَتَعْرِفَ أَهْلَهُ ؛ وَلَمْ تَعرِفِ الْبَاطِلَ فتعْرِفَ مَنْ أَتَاهُ .

فَقَالَ الْحَارِثُ :

فَإِنِّي أَعْتَزِلُ مَعَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَر .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

إِنَّ سَعْداً وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ لَمْ يَنْصُرَا الْحَقَّ ، وَلَمْ يَخْذُلَا الْبَاطِلَ .

***

الشَّرْحُ :

اللفظة التى وردتْ قبلُ أحسنَ من هذه اللفظة، وهى: أولئك قومٌ خَذَلوا الحقَّ ولم ينصرُوا الباطل ؛ وتلك كانت حالُهم ، فإنّهم خذلوا عليًا ولم يَنصرُوا مُعاويةَ ولاأصحابَ الجَمل .

فأمّا هذه اللّفظة ففيها إشكالٌ ؛ لأنّ سعدا وعبد الله لعَمْرِى إنّهُما لم يَنصُرا الحقّ ، وهو جانبُ علىّ عليه السلام ، لكنّهما خَذَلَا الباطلَ ، وهو جانبُ معاويةَ وأصحاب الجَمَل ، فإنّهم لم يَنصُروهم فى حَرْب قط ، لا بأنفسهم ولا بأموالهم ولا بأولادهم، فينبغى

أن نتأوّل كلامَه فنقول : إنّه ليس يَعنِى بالخذْلان عدمَ المُساعَدة فى الحرب ، بل يَعنِى بالخِذْلان هاهنا كلَّ ماأثَّر فى مَحْق الباطل وإزالتِه ، قال الشاعر يصف فرَسا :

وهو كالدَّلْوِ بكفِّ المستقِى   خذلتْ عنه العَراقِى فانْجَذَمْ

أى بايَنَتْه العَراقِى ، فلمّا كان كلُّ مؤثِّر فى إزالةِ شىء مُبايناً له نقل اللّفظ بالاشتراك فى الأمر العامّ إليه ، ولمّا كان سعدٌ وعبدُ الله لم يَقوما خَطيبَين فى النّاس يُعلِمانِهم باطلَ معاويةَ وأصحاب الجمل ، ولم يَكشِفا اللَّبس والشُّبْهة الداخلَة على الناس فى حَرْب هذين الفَريقين ، ولم يُوضّحا وجوبَ طاعة علىٍّ عليه السلام فيرد الناسَ عن أتْباع صاحب الجَمَل وأهل الشام صدق عليهما أنّهما لم يَخذُلا الباطلَ . ويُمكن أن يتأوّل على وجهٍ آخَر ، وذلك أنّه قد جاء خذلتِ الوحشيّة إذا قامتْ على ولدِها ، فيكون معنَى قوله : « ولم يَخذُلا الباطل » ، أى لم يقِيما عليه ويَنصُراه ، فترجِع هذه اللّفظة إلى اللّفظة الأولى ، وهى قوله : « أولئك قوم خذلُوا الحقّ ولم يَنصروا الباطلَ » .

والحارث بن حَوط بالحاء المهملة . ويقال : إن الموجود فى خَطّ الرضىّ « ابن خوط » بالخاء المعجمة المضمومة .

(٢٦٩)

الأصْلُ :

صَاحِبُ السُّلْطَانِ كَرَاكِبِ الْأَسَدِ يُغْبَطُ بِمَوْقِعِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَوْضِعِهِ .

* * *

الشَّرح :

[نبذ مما قيل فى السلطان]

قد جاء فى صُحْبة السّلطان أمثال حِكَمية مستحسَنةٌ تُناسِب هذا المعنى ، أو تجرى مَجْراه فى شَرْح حالِ السلطان ، نحو قولِهم : صاحب السُّلْطان كراكبِ الأسَد يهابُه الناس ، وهو لمرْكُوبه أهْيَب .

وكان يقال : إذا صَحِبْتَ السلطانَ فلتكنْ مُدَارَاتُك له مُداراةَ المرأةِ القبيحةِ لبَعْلِها المُبغِض لها ، فإنّها لا تدع التصنُّع له على حالٍ .

قيل للعتَّابىِّ : لم لا تَقصِد الأميرَ ؟ قال : لأنى أراه يُعطِى واحداً لغـيرِ حَسَنة ولا يَدٍ ، ويَقتُل آخرَ بلا سيئةٍ ولا ذَنْب ، ولستُ أدرِى أىَّ الرّجُلين أكون ! ولا أرجو منه مقدارَ ما أُخاطِر به .

وكان يقال : العاقل مَن طَلَب السلامةَ مِن عَمَل السلطان ، لأنّه إن عفَّ جَنَى عليه العَفاف عداوةَ الخاصّة ، وإن بَسَط يدَه جنَى عليه البَسْط ألسِنة الرّعِيّة .

وكان سعيدُ بنُ حُمَيد يقول : عمل السّطان كالحمّام ، الخارجُ يُؤثِر الدُّخول ، والدّاخل يؤْثر الخرُوج .

ابن المقفَّع : إقبالُ السلّطان على أصحابِه تَعَب ، وإعراضُه عنهم مَذَلّة .

وقال آخر : السلطان إنْ أرضَيْتَه أتعبَك ، وإنْ أغضبته أعطبَك .

وكان يقال : إذا كنتَ مع السلطان فكُنْ حَذِرا منه عند تقريبه ، كاتمًا لِسرّه إذا استَسَرّك ، وأمينا على ما أُئتَمَنك ، تشكُر له ولا تكلّفه الشُّكْر لك ، وتُعلّمه وكأنك تتعلّم منه وتؤدِّبه وكأنه يؤدِّبُك ، بصيراً بهواه ، مؤثرا لمَنفَعته ، ذليلاً إنْ ضامَك ، راضياً إن أعطاك ، قانعا إنْ حرَمك ، وإلّا فأبعدْ منه كلّ البُعْد .

وقيل لبعضِ مَن يَخدُم السلطانَ : لا تَصحَبْهم ، فإنّ مَثَلهم مَثَل قِدْر التَّنُور ، كلّما مسّه الإنسانُ اسودّ منه ، فقال : إن كان خارج تلك القِدْر أسوَد فداخِلها أبيَض .

وكان يقال : أفضَل ما عُوشِر به المُلوك قِلّة الخِلاف ، وتَخفيف المئونة .

وكان يقال : لا يَقدِر على صُحْبة السلطان إلا من يستقلّ بما حمّلوه ، ولا يُلحِف إذا سألَهم ، ولا يغترّ بهم إذا رَضُوا عنه ، ولا يتغيّر لهم إذا سَخِطوا عليه ، ولا يَطغَى إذا سَلّطوه ، ولا يَبطر إذا أكرَموه .

وكان يقال : إذا جعلك السلطانُ أخاً فاجعله رَبّا ، وإن زادك فزِدْه .

وقال أبو حازم : للسُّلطان كُحْل يَكحُل به مَنْ يُولّيه ، فلا يُبصِر حتى يُعزَل .

وكان يقال : لا يَنبغِي لصاحب السلطان أن يبتدئَه بالمسألة عن حاله ، فإن ذلك من كلام النَّوْكَى[1] وإذا أردت أن تقول : كيف أصبح الأمير ؟ فقل : صَبّح اللهُ الأميرَ بالكرامة ، وإن أردتَ أن تقول : كيف يَجِد الأميرُ نفسَه ؟ فقل : وهَب اللهُ الأمير العافية ؛ ونحو هذا ، فإن المسألة تُوجِب الجَواب ، فإن لم يُجِبْك اشتدّ عليك ، وإن أجابَك اشتدّ عليه .

وكان يقال: صُحبةُ المُلوك بغير أدبٍ كرُكُوب الفلاةِ بغيرِ ماء .

---

(١) النوكى : الحمق .

وكان يقال : ينبغي لمن صَحِب السلطانَ أن يستعدّ للعُذْرِ عن ذَنْبٍ لم يَجْنِه ، وأن يكون آنَسَ ما يكونُ به ، أوحشَ ما يكونُ منه .

وكان يقال : شِدّة الأنقباضِ من السّلطان تُورِث التّهمة ، وسُهولة الأنبساط إليه تُورِث المَلالة .

وكان يقال : اصحَب السلطانَ بإعْمالِ الحذَر ، ورَفْض الدّالّة ، والاجتهاد في النّصيحة، ولْيَكُن رأس مالِكَ عندَه ثلاث : الرّضا ، والصبر ، والصّدْق .

واُعلمْ أنّ لكل شيء حدّا ، فما جاوَزَه كان سَرَفا ، وما قَصّر عنه كان عَجْزا ، فلا تَبلُغ بك نصيحةُ السّلطان أن تُعادِيَ حاشيتَه وخاصّتَه وأهلَه ، فإنّ ذلك ليس من حَقّه عليك ، ولْيَكُن أقضَى لحقِّه عنك ، وأدعَى لاُستمرارِ السّلامة لك ؛ أن تَستصلح أولئك جُهْدَكَ ، فإنّك إذا فعلتَ ذلك شكرتَ نعمتَه ، وأمِنْتَ سطوتَه ، وقلّت عدوّك عندَه ، وإذا جاريْتَ عند السلطان كُفْؤا من أكفائِك فلتكنْ مُجاراتُك ومُباراتُك إيّاه بالحجّة ، وإن عَضَهك [(١)] ، وبالرّفق وإن خَرِف بك . واحذر أن يستلحك فتحمَى ، فإنّ الغضَب يُعمِي عن الفرصة ، ويَقطَع عن الحجّة ، ويُظهِر عليكَ الخصْم ، ولا تتورّدَنّ على السّلطان بالدّالّة وإن كان أخاك ، ولا بالحجّة وإن وثِقتَ أنّها لك ، ولا بالنصيحة وإن كانت له دونَك ، فإنّ السلطان يَعرِض له ثلاثٌ دونَ ثلاث : القدرة دونَ الكَرَم ، والحَمِيّة دون النَّصَفة ؛ واللّجاج دونَ الحظّ.

---

(١) عضهك : كذبك .

(٢٧٠)

الأصْلُ :

أَحْسِنُوا فى عَقِبِ غَيْرِكُمْ تُحْفَظُوا فى عَقِبِكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

أكثر ما فى هذه الدنيا يقع على سبيل القَرْض والمكافأة ، فقد رأينا عِيانًا مَن ظَلَم الناس فظُلِم عقِبُه ووَلَدُه ، ورأينا من قَتَلَ الناس فقُتِل عقِبه وولدُه ، ورأينا من أَخْرَب دُورًا فأُخرِبتْ دارُه ، ورأينا من أحسن إلى أعقاب أهل النعم فأحسنَ الله إلى عقِبه وولدِه .

وقرأتُ فى تاريخ أحمد بن طاهر [(١)] أنّ الرشيد أرسَل إلى يحيى بن خالد وهو فى محبسه يقرّعه بذنوبه ، ويقول له : كيف رأيت ! ألَمْ أُخرّبْ دارك؟! ألم أقتل ولدك جعفرا؟! ألم أنهبْ مالك ؟ فقال يحيى للرسول : قُلْ له : أما إخرابُك دارِى فستُخرَّب دارُك ، وأما قتلُك ولدِى جعفرا فسيُقْتل ولدُك محمد ، وأما نهبُك مالى فسيُنْهَب مالُك وخِزانتُك . فلما عاد الرسولُ إليه بالجواب وَجمَ طويلاً وحزن ، وقال : والله ليكوننّ ما قال ، فإنه لم يَقُل لى شيئًا قطّ إلا وكان كما قال؛ فأُخرِبتْ [(٢)] دارُه – وهى الخلد – فى حِصارِ بَغْداد، وقُتِل ولدُه محمد ، ونُهِب مالُه ، وخِزانتُه، نهبها طاهر بنُ الحسين .

---

(١) هو أحمد بن طاهر صاحب تاريخ بغداد .
(٢) ا : « خربت » .

(٢٧١)

الأصلُ :

إنَّ كَلام الحُكماء إذا كانَ صَوَاباً كانَ دَوَاء ، وإذا كان خَطَأً كانَ دَاء .

***

الشرحُ :

كلُّ كلام يقلّد المتكلّم به لحسن عقيدةِ الناس فيه نحو كلام الحُكماء وكلام الفُضلاء والعُلماء من الناس إذا كان صواباً كان دواء وإذا كان خطأً كان داء ، لأنّ الناس يَحذُون حَذْوَ المتكلّم به ، ويقلّدونه فيما يتضمّنه ذلك الكلامُ من الآداب والأوامر والنّواهي ، فإذا كان حقّاً أفلحوا ، وحَصَل لهم الثّواب واتّباع الحقّ ، وكانوا كالدّواء المُبرِئ للسّقَم ، وإذا كان ذلك الكلامُ خطأً واتّبعوه خسِروا (١) ولم يُفلِحوا ، فكان بمنزلة الداء والمَرَض .

---

(١) ا : « خسروا ذلك » .

(٢٧٢)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ حينَ سألهُ رجلٌ أنْ يُعرِّفَهُ ما الإيمانُ ، فقال :

إذَا كَانَ غدٌ فَأْتِنِي حَتَّى أُخْبِرَكَ على أسماعِ النَّاس ، فإنْ نَسِيت مقَالتِي حَفِظها عَلَيْكَ غَيْرُكَ ، فإنَّ الْكَلامَ كَالشَّارِدَةِ يَنْقَفُها هَذَا ويُخْطِئُهَا هَذَا .

قال : وقد ذكرنا ما أجابَهُ به عليهِ السلامُ فيما تقدَّم من هذا الباب ، وهو قوله : « الإيمانُ على أربع شعب » .

***

الشَّرْحُ :

يقول : إذا كان غدٌ فأتِنِي فتكون « كان » هاهنا تامّة ، أى إذا حَدَثَ ووُجِد ، وتقول : إذا كان غداً فأتنى فيكون النصب باعتبارٍ آخر ، أى إذا كان الزمان غداً ، أى موصوفاً بأنه من الغَدِ ؛ ومن النحويين من يقدِّره : إذا كان الكونُ غداً ؛ لأنّ الفِعل يدلّ على المَصدَر ، والكَوْن هو التجدّد والحدُوث .

وقائل هذا القول يُرجِّحه على القول الآخَر ، لأنّ الفاعل عندهم لا يُحذَف إلّا إذا كان فى الكلام دليلٌ عليه .

ويثقفها ، يَجدها ؛ ثَقِفتُ كذا بالكسر ، أى وجدته وصادفته .

والشاردة : الضّالة .

(٢٧٣)

يابنَ آدمَ ، لا تحْمِلْ همَّ يومِكَ الَّذِى لَمْ يأْتِكَ عَلَى يومِكَ الَّذِى أتاكَ ، فإنهُ إنْ يكُنْ مِنْ عُمُرِكَ يأْتِ اللهُ فيه برِزْقِكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم هذا الفصلُ بتمامه . واعلَمْ أنَّ كلَّ ما ادَّخرْتَه ممَّا هو فاضل عن قُوتك فإنما أنت فيه خازنٌ لغَيْرِك .

وخلاصةُ هذا الفصل النهْىُ عن الحِرْص على الدُّنيا والاهتمام لها ، وإعلامُ الناس أن الله تعالى قد قَسم الرِّزقَ لكل حَيٍّ مِن خلقِه ، فلو لم يتكلَّف الإنسانُ فيه لأتاه رِزْقه من حيث لا يحتسِب .

وفى المَثل : يارزَّاقَ البُغاث[١] فى عُشِّه .

وإذا نظر الإنسانُ إلى الدُّودة المكنونة داخلَ الصخرة كيف تُرزَق ، علم أنَّ صانع العالم قد تكفَّل لكلِّ ذى حياةٍ بمادَّةٍ تقيم حياته إلى انقضاء عُمُرِه .

---

(١) البغاث : صغار الطير .

(٢٧٤)

الأصلُ :
أحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا ما ، عَسَى أنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا ما ، وَأبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا ما ، عَسَى أنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا ما .

***

الشرح :

الهوْن بالفتح : التأنى ، والبَغِيض : المبغض .

وخلاصةُ هذه الكلمة . النّهْىعن الإسراف فى المودّة والبِغْضة ؛ فربّما انقلب من تودّ فصار عدوّا ، وربّما انقلب مَنْ تُعادِيه فصار صَدِيقا .

وقد تقدّم القولُ فى ذلك على أتمّ مايكون .

وقال بعضُ الحكماء : توَقَّ الإفراطَ فى المحبّة ، فإن الإفراط فيها داعٍ إلى التقصير منها ، ولأنْ تكونَ الحالُ بينكَ وبينَ حبيبك نامية أوْلَى من أنْ تكون مُتناهِية .

ومن كلام عمرَ : لا يكن حبُّك كلفًا ، ولا بغضُك تلفًا .

وقال الشاعر :

وأحبِبْ إذا أحببْتَ حبًّا مقارِبًا ... فإنّك لا تدْرِى متى أنت نازِعُ !
وأبغضْ إذا أبغضْتَ غيرَ مُبايِنٍ (١) ... فإنّك لا تدْرِى متى أنتَ راجعُ !

وقال عَدِىُّ بنُ زيْد :

ولا تأمَنَن من مُبْغِضٍ قربَ داره ... ولا مِنْ محبٍّ أن يملَّ فيبعدا

---

(١) مباين : مفارق .

(٢٧٥)

الأصْلُ :

النَّاسُ فِي الدُّنْيَا عَامِلَانِ :

عَامِلٌ فِي الدُّنْيَا لِلدُّنْيَا ، قَدْ شَغَلَتْهُ دُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ ، يَخْشَى عَلَى مَنْ يُخَلِّفُ الْفَقْرَ ، وَيأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَيُفْنِي عُمُرَهُ فِي مَنْفَعَةِ غَيْرِهِ .

وَعَامِلٌ عَمِلَ فِي الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، فَجَاءَهُ الَّذِي لَهُ مِنَ الدنيا بِغَيْرِ عَمَلٍ ، فَأَحْرَزَ الحظَّيْنِ مَعاً ، وَمَلَكَ الدَّارَيْنِ جَمِيعاً ، فَأَصْبَحَ وَجِيهاً عِنْدَ اللهِ ؛ لَايَسْأَلُ اللهَ حَاجَةً فَيَمْنَعهُ .

***

الشرح :

معنى قوله : « ويأمنُه على نَفْسِهِ » ، أى ولا يبالى أن يكون هو فقيرا ، لأنه يعيش عَيشَ الفقراء وإن كان ذا مالٍ ، لكنّه يدخر المال لولده فيفْنِي عمرَه فى منفعة غيره .

ويجوز أن يكون معناه إنه لكثرةِ مالِه قد أمِن الفقر على نفسه ما دام حيّا ، ولكنه لا يأمَن الفقرَ على ولده لأنه لا يثِق من وَلده بحُسْن الاكتساب كما وَثِق من نفسِه ، فلا يزال فى الاكتساب والازدياد منه لمنفعة ولدِه الّذى يخاف عليه الفقرَ بعد موْته .

فأما العاملُ فى الدنيا لما بعدَها فهمْ أصحابُ العبادة ، يأتيهم رزقُهم بغير اكتساب ولا كَدٍّ ، وقد حصلتْ لهم الآخرةُ ، فقد حصَل لهم الحظّان جميعاً .

(٢٧٦)

الأصل :

وَرُوِىَ أنهُ ذُكِرَ عِنْدَ عمر بن الخطابِ فى أيامهِ حَلْىُ الكَعبةِ وكثرَتُهُ ، فقالَ قَوْمٌ : لوْ أخذْتَهُ فَجَهَّزْتَ بهِ جيوشَ المسلمينَ ، كانَ أعظمَ للأجرِ ، وما تَصْنعُ الكعبةُ بالحلْى ! فهمَّ عُمرُ بذلك ، وسألَ عنهُ أميرَ المؤمنين عليه السلامُ ، فقال : إنَّ هذا القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه وسلّم ، وَالْأَمْوالُ أرْبَعةٌ : أمْوالُ المُسْلِمينَ ، فَقسَمها بَيْنَ الوَرَثَةِ فى الفَرَائضِ ، وَالفَىْءُ فَقَسَمهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ ، وَالخُمْسُ فوَضَعهُ اللهُ حَيْثَ وَضَعهُ ، والصَّدَقاتُ فَجَعَلَها اللهُ حَيْثُ جَعلَها ، وكَانَ حَلْىُ الكَعْبَةِ فِيها يوْمَئذٍ ، فتركَهُ اللهُ عَلَى حالِهِ ، وَلَم يَتْرُكْهُ نِسيانًا ، وَلَمْ يَخفَ عنه مَكانًا ، فَأقِرَّهُ حَيْثُ أقَرَّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، فَقالَ لهُ عُمر : لَوْلاكَ لافْتَضَحْنا ! وَتركَ الحلْىَ بِحالِهِ .

***

الشَّرحُ :

هذا استدلال صحيح ، ويمكن أن يورد على وجهين :

أحدهما أن يقال : أصلُ الأشياء الحظْر والتحريم ، كما هو مَذهب كثيرٍ من أصحابنا البغداديين ؛ فلا يجوز التصرف فى شىء من الأموال والمنافع إلا بإذن شرعىّ ؛ ولم يوجد إذن شرْعى فى حَلْى الكَعْبة ، فبقينا فيه على حُكْم الأصل .

والوجه الثانى أن يقال : حلى الكعبة مال مختصّ بالكعبة ، هو جارٍ مجرى سُتور الكعبة ، ومَجرَى باب الكَعْبة ، فكما لا يجوز التصرف فى ستُور الكعبة وبابها

إلّا بنصّ فكذلك حَلْى الكعبة ، والجامع بينهما الاختصاص الجاعلُ كلّ واحد من ذلك كالجزء من الكعبة ، فَعَلَى هذا الوجه يَنبغِي أن يكون الاستدلالُ .

ويجب أن يُحمل كلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام عليه ، وألّا يُحمَل على ظاهره؛ لأنّ لمعترِضٍ أن يعترِض استدلاله إذا حمل على ظاهرِه ، بأن يقول : الأموالُ الأربعة الّتى عدّدها إنما قَسَمها اللهُ تعالى حيث قسمها لأنها أموالٌ متكرِّرة بتكرُّر الأوقات على مرّ الزمان يَذهَب الموجودُ منها ويَخلُفه غيرُه ، فكان الاعتناء بها أكثر ، والاهتمامُ بوجوهِ متصرّفها أشدّ ، لأنّ حاجات الفقراء والمساكين وأمثالهم من ذَوِى الاستحقاق كثيرة ومتجدّدة بتجدّد الأوقات ، وليس كذلك حَلْى الكَعْبة ، لأنّه مال واحدٌ باقٍ غير متكرّر ، وأيضا فهو شىء قليلٌ يسير ، ليسَ مِثله ممّا يقال : ينبغى أن يكون الشارعُ قد تعرّض لوجوهِ مصرفه حيث تعرّض لوجوهِ مصرف الأموال ، فافترق الموضعان .

(٢٧٧)

الأصْل :

رُوِىَ أنَّهُ رُفِعَ إلَيْهِ رَجُلَانِ سَرَقَا مِنْ مَالِ اللهِ ، أَحَدُهُمَا عَبْدٌ مِنْ مَالِ اللهِ ، والآخَرُ مِنْ عُرُوضِ النَّاسِ ، فقَالَ : أمَّا هَذَا فَهُوَ مِنْ مَالِ اللهِ فَلَا حَدَّ عَلَيْهِ ، مَالُ اللهِ أَكَلَ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَأَمَّا الآخَرُ فَعَلَيْهِ الحَدُّ الشَّدِيدُ . فَقَطَعَ يَدَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مَذهَب الشِّيعة أنَّ عبد المَغنَم إذا سَرَق من المَغنَم لم يُقطَع ، فأمّا العبدُ الغريبُ إذا سَرَق من المَغنَم فإنّه يُقطَع إذا كان ماسَرَقه زائدا عمّا يَستحِقّه من الغنيمة بمقدار النِّصاب الّذى يجب فيه القَطْع ، وهو رُبْع دينار ، وكذلك الحُرّ إذا سَرَق من المَغنَم حُكمُه هذا الحُكم بعَيْنه ، فوجَب أن يحمَل كلامُ أميرِ المؤمنين على أنّ العبدَ المقطوعَ قد كان سَرَق من المَغنَم ما هو أزيدُ من حَقّه من الغنيمة بمقدارِ النِّصاب المذكور أو أكثر .

فأمّا الفقهاء فإنّهم لا يُوجِبون القَطْع على مَنْ سَرَق من مال الغنيمة قبل قِسْمَتها ، سواء كان ماسَرَقه أكثر من حَقِّه أو لم يكن ، لأنّ مُخالَطَة حقّه ومُمازَجته للمسروق شُبْهة فى الجملة تَمنَع من وجوب القَطْع ، هذا إن كان له حَقٌّ فى الغنيمة بأن يكونَ شَهِد القتالَ بإذنِ سَيِّده ، فإن لم يكن ذلك وكان لسيّده فيها حقّ لم يُقطَع أيضاً ؛ لأنّ حِصّةَ سيّده المُشاعةَ شُبهة تَمنعُ من قَطعه ، فإن لم يَشهَد القتالَ [1] ولا شَهِدَه سيِّدُه وسَرَق من الغنيمة قبل القِسْمة مايجب فى مِثلِه القَطْع وَجَب عليه القَطْع .

---

(١) ا : « ولم يشهده سيده » .

(٢٧٨)

الأصْلُ

لَوْ قَدِ اُسْتَوَتْ قَدَمايَ مِنْ هَذِهِ المَدَاحِضِ لَغَيَّرْتُ أشْياء

***

الشرح :

لسنا نَشُكّ أنّه كان يَذهب فى الأحكام الشرعيّة والقضايا إلى أشياء يُخالِف فيها أقوالَ الصّحابة ، نحو قطعه يدالسارق من رُءوس الأصابع ، وبيعِه أمّهات الأولاد ، وغير ذلك ، وإنّما كان يمنَعه من تغيُّر أحكام مَن تقدّمه اشتغالُه بحَرب البُغاة والخوارج ، وإلى ذلك يشيرُ بالمَداحض التى كان يؤمِّل استواء قدمَيْه منها ، ولهذا قال لقُضاتِه : « اقضُوا كما كنتم تقضون حتّى يكونَ للنّاس جماعةٌ » ، فَلَفظة « حتّى » هاهنامؤذِنةٌ بأنّه فَسَح لهم فى اتّباع عادتِهم فى القضايا والأحكام التى يَعهدونها إلى أن يصيرَ للنّاس جماعة ، وما بعد « إلى » و « حتّى » ينبغى أن يكون مخالِفاً لما قبلهما .

فأمّا أصحابُنا فيقولون : إنّه كان فيما يُحاوِل أن يحكُم بين النّاس مجتهِدا ، ويجوز لغيرِه من المجتهدين مخالفَتُه .

والإماميّة تقول : ما كان يَحكُم إلّا عن نَصّ وتوقيف ، ولا يجوز لأحد من النّاسِ مخالَفته .

والقول فى صحّة ذلك وفسادِه فَرْعٌ من فروع مسألة الإمامة (١) .

---

(١) د : « الإمامية » .

(٢٧٩)

الأصْلُ :

اعْلَمُوا عِلْماً يَقِيناً أَنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ لِلْعَبْدِ وَإِنْ عَظُمَتْ حِيلَتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ طَلِبَتُهُ ، وَقَوِيَتْ مَكِيدَتُهُ ، أَكْثَرَ مِمَّا سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَلَمْ يَحُلْ بَيْنَ الْعَبْدِ فِي ضَعْفِهِ وَقِلَّةِ حِيلَتِهِ ، وَبَيْنَ أَنْ يَبْلُغَ ما سُمِّيَ لَهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ . وَالْعَارِفُ لِهذَا ، الْعَامِلُ بِهِ ؛ أَعْظَمُ النَّاسِ رَاحَةً فِي مَنْفَعَةٍ ؛ وَالتَّارِكُ لَهُ ، الشَّاكُّ فِيهِ ، أَعْظَمُ النَّاسِ شُغُلاً فِي مَضَرَّةٍ .

وَرُبَّ مُنْعَمٍ عَلَيْهِ مُسْتَدْرَجٌ بِالنُّعْمَى ، وَرُبَّ مُبْتَلًى مَصْنُوعٌ لَهُ بِالْبَلْوَى . فَزِدْ أَيُّهَا الْمُسْتَمِعُ فِي شُكْرِكَ ، وَقَصِّرْ مِنْ عَجَلَتِكَ ، وَقِفْ عِنْدَ مُنْتَهَى رِزْقِكَ .

***

الشّرْحُ :

قد تقدّم القول فى الحِرْص والجشع وذمّهما وذمّ الكادح فى طلَب الرّزق ، ومدْح القَناعة والاقتصار ، ونذكر هُنا طَرَفا آخر من ذلك . قال بعضُ الحكماء : وجدتُ أطولَ الناس غمّا الحسودَ ، وأهنأهم عيْشا القنوعَ ، وأصبرَهم على الأذى الحريصَ ، وأخفضَهم عَيْشا أرفَضُهم للدنيا ، وأعظمَهم ندامةً العالمَ المفرّط .

وقال عمر : الطّمع فقْر ، واليأس غِنًى ، ومن يئس ممّا عند الناس استغنى عنهم .

وقيل لبعض الحكماء : ما الغِنَى ؟ قال : قلّةُ تمنّيك ، ورِضاكَ بما يَكفيك ؛ ولذلك قيل : العيشُ ساعات تمرّ ، وخُطوب تكُرّ .

وقال الشاعر :

اقنعْ بعَيشك ترْضَهُ   واتركْ هواكَ وأنت حُرُّ
فلرُبّ حتْفٍ فوقَهُ   ذَهَبٌ وياقوتٌ ودرُّ

وقال آخَر :

إلى مَتَى أنا فى حِلٍّ وترْحالِ   من طول سَعْيٍ وإدبارٍ وإقبالِ !
ونازِحُ الدارِ لاأنفَكُّ مغترباً   عن الأحبّةِ لايَدْرون ما حالِي
بمَشرِق الأرضِ طَوْراً ثم مَغربها   لايخطرُ الموتُ مِن حِرصٍ على بالِي
ولو قَنِعْتُ أتانى الرزقُ فى دَعَةٍ   إنّ القُنوعَ الغِنَى لا كثرةُ المالِ

وجاء فى الخبر المرفوع : « أجملوا فى الطلب ، فإنه ليس لعبدٍ إلا ما كُتِب له ، ولن يَخرُجَ عبدٌ من الدّنيا حتى يأتيهما كُتِب له فى الدنيا وهى راغمة » .

(٢٨٠)

الأصْلُ :

لا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً ، و يَقِينَكُمْ شَكاً ؛ إِذَا عَلِمْتُمْ فاعْمَلُوا ، وإِذَا تَيَقَّنْتُمْ فأَقْدِمُوا .

***

الشَّرح :

هذا[١] نهىٌ للعلماء عن ترْك العمل ؛ يقول : لا تجعلوا عِلمكم كالجهل ، فإنّ الجاهل قد يقول : جَهِلتُ فلم أعمَل ، وأنتم فلا عُذْر لكم ، لأنّكم قد علِمتم وانكشفَ لكم سِرُّ الأمر ، فوَجَب عليكم أن تعملوا ، ولا تجعَلوا عِلمكم جَهْلا ، فإنّ مَنْ[٢] علِم المنفعة فى أمرٍ ولا حائل بينه و بينه ثم لم يأتِه كان سفيهاً .

---

(١) ا : « فى » .

(٢) ا : « الذى » .

(٢٨١)

الأَصْلُ :

إنّ الطَّمَعَ مُورِدٌ غيرُ مُصْدِرٍ ، وضامِنٌ غيرُ وَفِيّ ، ورُبَّما شَرِقَ شارِبُ الماءِ قَبلَ رِيِّهِ ، وكُلَّما عظُمَ قَدْرُ الشيء المُتَنافَسِ فيهِ عَظُمَت الرَّزِيَّةُ لِفَقْدِهِ ، والأمانى تُعْمِى أعْيُنَ البَصائِرِ ، والحظّ يأْتى مَنْ لا يأْتيهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدم القول فى هذه المعانى كلِّها .

وقد ضرب الحكماء مِثالاً لفرط الطّمع ، فقالوا : إن رجلا صادَ قُبَّرةً فقالت : ما تريد أن تصنع بى ؟ قال : أذبحك وآكلك ؛ قالت : والله ما أَشفِى مِنْ قَرَم ، ولا أُشبِع من جُوع ، ولكنى أعلّمك ثلاث خِصالٍ هُنّ خيرٌ لك من أكْلى ؛ أمّا واحدة فأعلمك إيّاها وأنا فى يدِك ، وأمّا الثانية فإذا صِرْتُ على الشّجرة ، أمّا الثالثة فإذا صرتُ على الجبل . فقال : هاتى الأولى ؛ قالت : لا تَلَهَّفَنّ على ما فات ، فخلّاها ، فلما صارت على الشّجرة قال : هاتى الثانية ، قالت : لا تُصَدِّقَنّ بما لا يكون أنه يكون ، ثمّ طارت ، فصارت على الجبل ؛ فقالت : يا شقىّ لو ذَبَحْتَنى لأخرَجْتَ من حَوْصَلَتِى دُرّتَين وزنُ كلّ واحدةٍ ثلاثون مِثقالاً ، فعضّ على يَدَيه وتلهّف تلهفًا شديدا ؛ وقال : هاتى الثالثة ؛ فقالت : أنت قد أُنسيتَ الاثنتين ، فما تصنع بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلَهَّفَنّ على

ما فات ! وقد تَلَهَّفْتَ ، وألم أقل لك لا تصدِّقن بما لا يكون أنه يكون . وأنا وَلَحمى ودَمِى ورِيشى لا يكون عشرين مثقالا ، فكيف صدّقت أنّ فى حَوْصَلتى درّتين كلّ واحدة منهما ثلاثون مثقالا ! ثم طارت وذهبتْ .

وقوله : « وربما شَرِق شاربُ الماء قبلَ رِيِّه » ، كلامٌ فصيح ،وهو مَثَلٌ لمن يُخْتَرم[1] بَغتةً ، أو تَطرُقه الحوادثُ والخُطوب وهو فى تلْهِيَةٍ مِنْ عَيْشه .

ومثل الكلمة الأخرى قولهم : على قدْر العَطِيّة تكون الرّزِيّة .

والقولُ فى الأمانى قد أوسَعْنا القول فيه مِن قبل ، وكذلك فى الحظوظ .

---

(١) يخترم بغته ، أى يأتيه الموت بغتة .

(٢٨٢)

الأصْلُ

اللَّهُمَّ إِنِّى أعُوذُ بِكَ مِنْ أنْ تَحْسُنَ فى لامِعَةِ الْعُيُونِ عَلانِيَتِى ، وَتَقْبُحَ فيما أُبْطِن لكَ سَرِيرَتِى ، مُحافِظاً على رِياءِ النَّاسِ مِنْ نَفْسى بِجَميعِ ماأنْتَ مُطَّلعٌ عَلَيْهِ مِنى ، فأُبْدِىَ لِلنَّاسِ حُسْنَ ظاهِرِى ، وأُفْضِىَ إِلَيْكَ بِسُوءِ عَمَلِى ، تَقَرُّباً إلى عِبادِكَ ، وتباعُداً مِنْ مَرْضاتِكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الرِّياء ، وأن يُظهِر الإنسانُ من العبادة والفعل الجميل مايُبطن غيره، ويقصد بذلك السُّمعة والصِّيت لا وجه الله تعالى .

وقد جاء فى الخبر المرفوع : « أخوَفُ ما أخافُ على أمّتى الرِّياء و لشَّهوة الخفيّة» .

قال المفسِّرون : والرِّياء من الشّهوة الخفيّة ، لأنه شَهوة الصِّيت والجاه بين الناس بأنه مَتين الدِّين ، مُواظِب على نوافِل العِبادات ، وهذه هى الشّهوة الخفيّة ، أى ليست كشهوة الطعام والنّكاح وغيرِهما من المَلاذّ الحسيّة .

وفى الخبر المرفوع أيضا : أنّ اليَسير من الرِّياء شِرْكٌ[١] ، وأن الله يُحِبّ الأتقياء الأخفياءالذين هم فى بُيوتِهم إذا غابوا لم يُفتقدوا ، وإذا حَضَروا لم يعرَفوا ، قلوبهم مَصابيحُ الهدى ، ينجون من كلّ غَبراء مُظلِمة .

---

(١) كلمة غامضة فى الأصول .

(٢٨٣)

الأصلُ

وقالَ عليه السلام :

لَا وَالَّذِى أَمْسَيْنَا مِنْهُ فِى غُبَّرِ لَيْلَةٍ دَهْمَاءَ ، تَـكْشِرُ عَنْ يَوْمٍ أَغَرَّ ، مَا كَانَ كَذَا وَكَذَا .

***

الشرحُ :

قد رُوِى : « تفترّ عن يومٍ أغرّ » .

والغُبّر : البقايا[1] ، وكذلك الإغبار ، وكَشَر أى بَسم ، وأصلُه الـكَشْف .

وهذا الـكلام إما أن يكون قالَه على جهة التفاؤل ، أو أن يكون إخباراً بغَيْب ؛ والأوّل أوجَه[2] .

---

(١) ومنه قول أبى كبير الهذلى :

ومبرأٍ من كل غبّر حَيْضةٍ   وفسادِ مرضعةٍ وداء مُغْيِلِ

قال فى اللسان : « وغبر الحيض : بقاياه » .

(٢) ا : « والوجه الأول » .

(٢٨٤)

الأصلُ :

قَلِيلٌ تدُومُ عَلَيْهِ ، أَرْجَى مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ .

* * *

الشَّرحُ :

لا ريبَ أنّ من أراد حِفْظَ كتاب من الكُتُب العلميّة فحَفِظ منه قليلا قليلا ، ودام على ذلك ، فإنّ ذلك أنفعُ له وأرجَى لِفَلاحه من أن يَحفَظ كثيرا ، ولا يَدُوم عليه لَملالِه إيّاه وضَجَره منه ، والتجربة تَشهد بذلك .

والقول فى غير الِحفظ كالقول فى الِحفظ ، نحو الزّيارة القليلة للصّديق ، ونحو العطاء اليسير الدائم (١) الّذى هو خيرٌ من الكَثِير المنقطِع ، ونحو ذلك .

---

(١) بعدها فى ا : « غير المنقطع » .

(٢٨٥)

الأصْلُ :

إذَا أَضَرَّتِ النَّوَافِلُ بِالْفَرَائِضِ فَارْفُضُوهَا .

***

الشّرح

قد تقدّم القولُ فى النافلة : هل تصحّ ممّن عليه فريضة لم يؤدِّها ، وذكرْنا مذاهبَ الفُقَهاء فى ذلك .

ولا ريبَ أنّ مَن استغرَق الوقتَ بالنّوافل حتّى آنَ أوقاتِ الفرائض لم يفعل الفرائضَ فيها ، وشَغَلها بالعبادة النَّفْليّة ، فقد أخطأ ؛ والواجب أنْ يَرفُض النافلةَ حيث يتضيّق وقتُ الفريضة ، لا خلافَ بين المسلمين فى ذلك ، ويَصلُح أن يكون هذا مَثَلا ظاهرُه ماذكرْنا ، وباطنُه أمرٌ آخَر .

(٢٨٦)

الأصلُ :

مَنْ تذَكَّرَ بُعْدَ السَّفَرِ استَعَدَّ .

***

الشَّرحُ :

هذا مِثل قولهم في المَثَل : « الليلُ طويل ، وأنتَ مُقمِر »[١] ؛ وقال أيضا : عَشِّ ولا تَغترّ[٢] .

وقال أصحابُ المعانى : مَثَل الدنيا كرَكْبٍ فى فَلاة وَرَدوا ماء طيّبا، فمنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْبا يسيرا ، ثمّ أفكر فى بُعد المسافة التى يَقصِدونها ، وأنّهُ ليس بعدذلك الماء ماء آخَر ، فتزوّد منه ماء أوصَلَه إلى مَقصِده ، ومنهم من شَرِب من ذلك الماء شُرْبا عظيما، ولَها عن التزوّد والاستعداد، وظَنّ أنّ ماشَرِب كافٍ له ومُغنٍ عن ادّخار شيء آخَر ، فقطع به ، وأخْلَفَه ظَنُّه ، فعَطِش فى تلك الفَلاة ومات .

وقد رُوِىعن النبىّ صلّى الله عليهوآله أنه قال لأصحابه: « إنّما مَثَلى ومَثَلُكم ومَثَلُ الدّنيا كقوم سَلَكوا مَفازةً غَبْراء حتّى إذا لم يَدْرُوا ماسَلَكوا منها أكثَرُ أمْ ما بَقِى! أنفَدوا الزّاد وحَسَروا الظّهر ، وبقُوا بين ظَهْرَانَى المَفازة لازاد ولا حَمولة ، فأيقَنوا بالهَلَكة ، فبينما هم كذلك خرج عليهم رجل فى حُلّة يَقطُر رأسه ماء ، فقالوا : هذا قريب عهدٍ بريف ، وما جاءكم هذا إلّا من قريب ؛ فلمّا انتهى إليهم وشاهد حالَهم قال: أرأيتم إن هدَيتُكم إلى ماء رَواء ، ورِياض خُضْرٍ ماتعملون ؟ قالوا : لانَعْصِيك شيئاً ؛

(١) الميدانى . . .
(٢) الميدانى ٢ : ١٦ .

قال : عُهودَكم ومواثيقَكم بالله ، فأعطَوْه ذلك ، فأوردَهم ماء رَواء ورِياضا خُضْرا ، ومكث بينهم ماشاءالله ، ثم قال: إنّى مُفارِقكم ، قالوا : إلى أين ؟ قال: إلى ماء ليس كمائِكم، ورِياضٍ ليست كرِياضِكم ؛ فقال الأكثَرون منهم : والله ماوَجَدْنا مانحن فيه حتّى ظننّا أنا لانجده ، وما نَصنَع بمنزلٍ خير من هذا ! وقال الأقلّون منهم : ألم تُعطُوا هذا الرجلَ مَواثيقَكم وعهودَكم بالله لاتَعصُونه شيئاً ، وقد صدقكم فى أوّل حديثِه ، والله ليصدُقَنّكم فى آخِره ؛ فراحَ فيمَن تَبِعهمنهم ، وتخلّف الباقون، فدهَمهم عدوٌّ شديدالبأس عظيم الجيْش ، فأصبَحوا مابين أسيرٍ وقتيل .

(٢٨٧)

الأصْلُ :

لَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ مَعَ الْإِبْصَارِ ، فَقَدْ تَـكْذِبُ الْعُيُونُ أَهْلَهَا ، وَلَا يَغُشُّ الْعَقْلُ مَنِ اسْتَنْصَحَهُ .

***

الشرح :

هذا مِثلُ قولِه تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَـكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .

أى ليس العَمى عَمى العين ، بل عَمى القَلْب .

كذلك قولُ أمير المؤمنين عليه السلام ، ليست الرؤية مع العُيون ، وإنما الرؤية الحقيقيّة مع العُقول .

وقد ذهبَ أكابرُ الحكماء إلى أن اليقينيّات هى المَعْقولات لا المَحْسوسات ؛ قالوا : لأنّ حُكمَ الحِسّ فى مَظِنّة الغَلَط ، وطالَ ما كَذَبَ الحِسّ ، واعتقدْنا بطريقِه اعتقاداتٍ باطلة ، كما نرى الكبيرَ صغيرا ، والصغيرَ كبيرا ، والمتحرِّكَ ساكنا، والساكنَ متحرِّكا ، فأمّا العقل فإذا كان للمعقول به بَدِيهيّا أو مُستنِدا إلى مقدِّمات بَدِيهيّة فإنه لا يَقَع فيه غَلَط أصْلا .

---

(١) سورة الحج ٤٦ .

(٢٨٨)

الأصلُ

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمَوْعِظَةِ حِجَابٌ مِنَ الْغِرَّةِ .

* * *

الشرح :

قد تقدّم ذِكرُ الدّنيا وغُرورها ، وأنّها بشَهَواتها ولذّاتِها حِجابٌ بين العبد وبين المَوْعظة ، لأنّ الإنسانَ يَغترّ بِالعاجِلة ، ويتوهّم دَوامَ ماهو فيه ، وإذا خَطَر بباله الموتُ والفَناء وَعَد نفسَه رحمةَ الله تعالى وعفوَه ، هذا إن كان ممّن يَعترِف بالمعادِ ، فإنّ كثيرا ممّن يُظهِر القول بالمَعاد هو فى الحقيقة غيرُ مستيقِنٍ له ، والإخلاد إلى عفوِ الله تعالى والاتّكال على المغفرة مع الإقامة على المعصية ، غرورٌ لا محالةَ ، والحازمُ من عَمِل لما بعدَ الموت ، ولم يُمَنّ نفسَه الأمانىّ التى لا حَقيقةَ لها .

(٢٨٩)

الأصْلُ :

جَاهِلُكُمْ مُزْدَادٌ ، وعَالِمُكُمْ مُسَوِّفٌ .

***

الشَّرْحُ :

هذا قريب ممّا سلف : يقول : إنّ الجاهَل من الناس مُزْداد من جَهْلِه ، مُصِرٌّ على خطيئته ، مسوِّف من توهُّماته وعقيدته الباطلة بالعَفْو عن ذَنْبه ، وليس الأمر كما توهمه . ﴿ ليسَ بأَمانيِّكُمْ ولا أمانيِّ أهلِ الكتاب من يعمَل سوءا يُجْزَ به ولا يَجِدْ لهمِنْ دُون الله وليّا ولا نصيرا ﴾[1] .

---

(١) سورة النساء ١٢٣ .

(٢٩٠)

الأصْل :

قَطَعَ الْعِلْمُ عذرَ المُتعَلِّلِينَ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا أيضاً قريبٌ مما تقدم ، يقول : قَطَع العِلْمُ عُذرَ الَّذِين يُعلِّلون أنفسهم بالباطل ، ويقولون : إنّ الربّ كريم رحيم ، فلا حاجة لنا إلى إتعاب أنفسنا بالعبادة ، كما قال الشاعِر :

قَدِمتُ على الكريم بغير زادٍ ... من الأعمال ذَاذنْبٍ عظيمِ
وسُوء الظنّ أن تعتَدّ زاداً ... إذا كانَ القدومُ على الكريم

وهذا هو التعليل بالباطل ، فإن الله تعالى وإن كان كريما رحيما عفوًّا غفورا ، إلا أنه صادقُ القول ، وقد توعّد العُصاةَ وقال : ﴿ وإنّ الفُجّار لفى جحيم * يصلَوْنها يومَ الدِّينِ * وما همْ عنها بغائبين ﴾ (١) ، وقال : ﴿ لا تختَصِموا لدىّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعِيدِ * ما يُبَدَّلُ القولُ لدىّ وما أنا بظلّام للعبيدِ ﴾ (٢) ، ويكفى فى رحمته وعفوه وكرمه أن يغفر للتائب أو لمن ثوابُه أكثر مما يستحقّه من العِقاب ، فالقَول بالوعيد معلوم بأدِلّة السّمع المتظاهِرة المتناصرة الّتى قد أطنَب أصحابُنا فى تعدادها وإيضاحِها ، وإذا كان الشيء معلوما ، فقد قَطَع العلمُ به عذرَ أصحاب التعلّل والتّمنِّى ، وَوجَب العملُ بالمعلوم ورفض ما يُخالِفه .

---

(١) سورة الانفطار ١٤ ـ ١٦ .

(٢) سورة ق ٢٨ ، ٢٩ .

(٢٩١)

الأصْلُ

كُلُّ مُعَاجَلٍ يَسْأَلُ الإِنْظَارَ ، وَكُلُّ مُؤَجَّلٍ يَتَعَلَّلُ بِالتَّسْوِيفِ .

***

الشَّرْحُ :

قال الله سبحانه : ﴿ حتّى إذا جاء أحدَهم الموتُ قال ربِّ ارجعون لعلّى أعملُ صالحاً فيما تركتُ كلّا إنّها كلمةٌ هو قائلُها ومن ورائهم بَرزخ إلى يوم يُبعثون ﴾ (١) .

فهذا هو سؤال الإنظار لمن عُوجِل ، فأمّا من أُجِّل فإنّه يعلِّل نفسَه بالتسويف ، ويقول: سوفَ أتوبُ ، سوْف أُقلِع عمّا أنا عليه ، فأكثرُهم يُختَرم (٢) من غير أن يبلُغ هذا الأمل ، وتأتيه المنيَة وهو على أقبَح حال وأسوئها ، ومنهم من تشمَله السّعادة فيتوب قبل الموت ، وأولئك الذين خُتِمت أعمالُهم بخاتِمة الخير ، وهم فى العالَم كالشّعرة البيضاء فى الثّور الأسوَد .

---

(١) سورة المؤمنون ٩٩ ، ١٠٠ .

(٢) يقال : اخترمته المنية ؛ أى أخذته من بينهم .

(٢٩٢)

الأصْلُ

ماقالَ النَّاسُ لِشَىْء : طُوبَى لهُ ! إلَّا وَقَدْ خَبَأَ لَهُ الدَّهْرُ يَوْمَ سَوْء .

* * *

الشّرح

قد تقدَّم هذا المعنى ، وذكرْنا فيه نُكَتًا جيّدة حميدة .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكمية فى تقلبات الدهر وتصرّفاته]

كان محمّد بنُ عبد الله بن طاهر أميرَ بغداد فى قَصْره على دِجْلة يومًا ، وإذا بحشيشٍ على وَجْه الماء ، فى وَسَطه قَصَبة عليها رُقْعة ، فأمر بأخْذِها ، فإذا فيها :

تاهَ الأُعَيْرِج واستولَى به البَطَرُ ... فقل له : خيرُ ما استعملْتَه الحَذَرُ

أحسنتَ ظنَّك بالأيّام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سوءَ مايأتى به القدَرُ

وسالمَتْك اللّيالى فاغْتَرَرْتَ بها ... وعندصفوِ اللّيالى يَحدُثُ الكَدَرُ

فما انتفَع بنفسه مدّة .

وفى المَثَل : الدّهر إذا أتى بسَحْوَاء سَحْسَح[١] ، يُعقبها بنَكْباء زَعْزَع . وكذاك شربُ العَيْش فيه تلوُّن ، بَيْناه عذْبًا إذْ تحوَّل آجِنًا .

---

(١) أى سحابة تصب مطراً شديداً .

يحيى بنُ خالد : أعطانا الدهر فأسرَف ، ثمّ مال علينا فأجْحَف .

وقال الشاعر :

فيا لَنعيمٍ ساعدَتنَا رِقابُه ... وخاسَتْ بنا أكفالُه والرَّوادِفُ

إسحٰق بنُ إبراهيمَ المَوْصِليّ :

هيَ المقادِيرُ تجرِي فى أعِنّتِها ... فاصبرْ فليس لها صبرٌ على حالِ

يوماً تَرِيشُ خَسيسَ الحالِ ترفعه ... إلى السّماء ويوماً تخفِض العالِي

إذا أدبرَ الأمر أتى الشرُّ من حيث كان يأتى الخير .

هانئُ بنُ مسعود :

إنّ كِسرَى أبَى على المَلِك النُّعْـ ... ـمانِ حتّى سقاهُ أمّ الرَّقوبِ

كلُّ مُلْكٍ وإن تصعّدَ يوما ... بأُناسٍ يَعودُ للتّصويبِ

أُحَيْحَة بنُ الجُلاح :

وما يَدرِي الفقيرُ متَى غِناهُ ... وما يَدرِي الغنيُّ متى يَعيلُ

وما تَدْرِى إذا أضرَبْتَ شَوْلًا ... أتُلقِح بعد ذلك أم تحِيلُ (١)

وما تدرِى إذا أزمَعْت سَيْراً ... بأيّ الأرض يُدْرِكُك المَقِيلُ !

آخَر :

فما درّ الدنيا بباقٍ لأهلِه ... ولا شِرّة الدنيا بضَربةِ لازِمِ

آخَر :

رُبّ قومٍ غبَروا من عيشِهمْ ... فى سرورٍ ونعيمٍ وغَدَقْ

---

(١) الشول : الناقة التى نقصت ألبانها .

سَكَتَ الدهرُ زماناً عنهمُ ثم أبكاهمْ دماً حين نَطَقْ

ومن الشعر المنسوب إلى محمّد الأمين بن زُبَيْدَة :

يانَفْسُ قد حَقَّ الحذَرْ أين الفِرارُ من القَدَرْ

كلّ امرئٍ مما يخا ف ويرتجيه على خَطَرْ

من يرتشِفْ صفوَ الزّما ن يَغَصّ يوماً بالكَدَرْ

(٢٩٣)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ وقد سُئِلَ عنِ القدَرِ : طَرِيقٌ مُظْلِمٌ فَلاَ تَسْلُكوه . ثم سئلَ ثانياً فقال : بَحْرٌ عَمِيقٌ فَلاَ تَلِجُوهُ ؛ ثم سئل ثالثاً ، فقالَ : سِرُّ اللهِ فلا تَتَكَلَّفُوهُ .

***

الشَّرْحُ :

قد جاء فى الخبر المرفوع : القَدَرُ سِرّ الله فى الأرض ، ورُوِى : سر الله فى عباده ، والمرادُ نهىُ المستضعفين عن الخوْض فى إرادة الكائنات ، وفى خلق أعمال العباد ، فإنّه ربما أفضى بهم القول بالجبْر ، لما فى ذلك من الغُموض ، وذلك أنّ العامّىّ إذا سمِع قول القائل : كيف يجوز أن يقَع فى عالَمِه ما يكرَهه ، وكيف يجوز أن تَغلِب إرادةُ المخْلوق إرادةَ الخالق !

ويقول أيضاً : إذا علم فى القدَم أنّ زيداً يكْفُر ، فكيف لزيدٍ أن لا يكْفُر ! وهل يُمكن أن يقع خلافُ ما علِمه الله تعالى فى القِدَم ، اشتبه عليه الأمر ، وصار شُبهةً فى نفسِه ، وقوِىَ فى ظنّه مذهبُ المجْبِرة ، فَنَهى عليه السلام هؤلاء عن الخوْض فى هذا النحو من البَحْث ، ولم ينْهَ غيرَهم من ذوى العقول الكاملة ، والرياضة القويّة ، والملكة التامّة ، ومن له قدرةٌ على حَلِّ الشُّبَه ، والتقصّى عن المشكلاتِ .

فإن قلت : فإنّكم : تقولون : إنّ العامىّ والمستضعَف يجب عليهما النظرُ !

قلت : نعمْ إلا أنه لابدّ لهما من موقف بعد إعمالها ما يَنتهى إليه جُهْدُهما من النظر ، بحيث يُرشِدهما إلى الصّواب ، والنّهى إنما هو لمن يَستبدّ من ضعفاء العامّة بنفسه فى النظر ولا يَبْحث مع غيرِه ليُرشِدَه .

(٢٩٤)

الأصْلُ :

إذَا أرْذَلَ اللهُ عَبْداً حَظَرَ عَلَيْهِ الْعِلْمَ .

***

الشَّرْحُ :

أرذَله : جعله رَذْلا ، وكان يقال : مِنْ علامةِ بُغض اللهِ تعالى للعبد أن يُبغِّض إليه العِلْمَ .

وقال الشاعر :

شكوتُ إلى وَكِيعٍ سُوءَ حِفْظِى   فأرشدنى إلى تَرْك المعاصى
وقال لأنّ حفظ العلم فَضْلٌ   وفضلُ اللهِ لا يُؤتيه عاصى

وقال رجل لحكيم : ما خيرُ الأشياء لى ؟ قال : أن تكون عالما ، قال : فإن لم أكن ؟ قال : أن تكون مُثريا ؛ قال : فإن لم أكن ؟ قال : أن تكون شارِيا ؛ قال : فإن لم أكن ؟ قال : فأن تكونَ ميتا .

أخذ هذا المعنى بعضُ المحدثين فقال :

إذا فاتكَ العلمُ جُدْ بالقِرَى   وإن فاتكَ المال سُدْ بالقراعِ
فإن فاتَ هذا وهذا وذاك   فمتْ فحياتُك شرُّ المتاعِ

وقال أيضا فى المعنى بعينه :

ولولا الحجا والقِرى والقراع   لما فضَلَ الآخِرَ الأوّلا
ثلاثٌ متى يَخْلُ منها الفتى   يكن كالبهيمة أو أرْذلا

(٢٩٥)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

كَانَ لِي فِيمَا مَضَى أَخٌ فِي ٱللهِ ، وَكَانَ يُعَظِّمُهُ فِي عَيْنِي صِغَرُ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ ، وَكَانَ خَارِجاً مِنْ سُلْطَانِ بَطْنِهِ ، فَلَا يَتَشَهَّى مَالَا يَجِدُ ، وَلَا يُكْثِرُ إِذَا وَجَدَ ، وَكَانَ أَكْثَرَ دَهْرِهِ صَامِتاً ، فَإِنْ قَالَ بَذَّ ٱلْقَائِلِينَ ، وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ ، وَكَانَ ضَعِيفاً مُسْتَضْعَفاً ، فَإِنْ جَاءَ الْجِدُّ فَهُوَ لَيْثٌ عَادٍ ، وَصِلٌّ وَادٍ ، لَا يُدْلِي بِحُجَّةٍ حَتَّى يَأْتِيَ قَاضِياً ، كَانَ لَا يَلُومُ أَحَداً عَلَى مَالَا يَجِدُ ٱلْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ ٱعْتِذَارَهُ ، وَكَانَ لَا يَشْكُو وَجَعاً إِلَّا عِنْدَ بُرْئِهِ ، وَكَانَ يَفْعَلُ مَا يَقُولُ ، وَلَا يَقُولُ مَالَا يَفْعَلُ ، وَكَانَ إِنْ غُلِبَ عَلَى الْكَلَامِ لَمْ يُغْلَبْ عَلَى السُّكُوتِ ، وَكَانَ عَلَى أَنْ يَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَكَانَ إِذَا بَدَهَهُ أَمْرَانِ نَظَرَ أَيُّهُمَا أَقْرَبُ إِلَى ٱلْهَوَى فَخَالَفَهُ ؛ فَعَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْخَلَائِقِ فَالْزَمُوهَا ، وَتَنَافَسُوا فِيهَا ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِيعُوهَا فَاعْلَمُوا أَنَّ أَخْذَ ٱلْقَلِيلِ خَيْرٌ مِنْ تَرْكِ ٱلْكَثِيرِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد اختلف الناسُ فى المعنىّ بهذا الكلام ، ومَن هو هذا الأخُ المشار إليه ؟ فقال قوم : هوَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، واستَبْعده قومٌ لقوله : « وكان ضعيفا مستضعفا » ، فإن النبىّ صلّى الله عليه وآله لايقال فى صفاته مِثل هذه الكلمة ،

وإن أمكن تأويلُها على لين كلامه وسماحةِ أخلاقه ، إلّا أنّها غيرُ لائقة به عليه السلام .

وقال قومٌ : هو أبو ذَرّ الغِفارِيّ واستبعَدَه قومٌ « لقوله : فإن جاء الجدّ فهو لَيث عادٍ ، وصِلٌ واد » ، فإن أبا ذَرٍّ لم يكن من الموصوفين بالشّجاعة ، والمعروفين بالبَسالة .

وقال قومٌ : هو المقدادُ بن عَمْرو المعروفُ بالمقداد بن الأسوَد ، وكان من شِيعة علىّ عليه السلام المخلصِين ، وكان شُجاعاً مُجاهِداً حسنَ الطريقة ، وقد ورد فى فضلِه حديث صحيح مرفوع .

وقال قومٌ : إنه ليس بإشارةٍ إلى أخ مُعيّن ، ولكنه كلامٌ خارجٌ مخرج المثل ، وعادةُ العرب جارية بمثل ذلك ، مِثل قولهم فى الشّعر : فقلت لصاحبى ، وياصاحبى ، وهذا عندى أقوَى الوجوه .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكميّة فى حمد القناعة وقلّة الأكل]

وقد مضى القولُ فى صِغر الدنيا فى عَيْن أهل التّحقيق ، فأمّا سلطان البَطْن وَمَدْح الإنسان بأنه لا يكثِر من الأكل إذا وَجَد أكلا ، ولا يَشتهى من الأكل مالا يجده ، فقد قال الناسُ فيه فأكثروا .

قال أعشى باهلة يرثى المنتشرَ بنَ وَهْب :

طاوِى المَصيرِ على العَزّاء مُنصلِتٌ ... بالقوم ليلَة لاماء ولا شَجَرُ (١)
تَكفيه فلذةُ لَحْمٍ إنْ ألَمّ بها ... من الشِّواء ويُروِى شربَه الغمرُ
ولا يُبارِى لِما فى القِدْر يَرْقُبُهُ ... ولا تَراه أمامَ القوم يفتقرُ

(١) الكامل للمبرد ٤ : ٦٥ ، المصير : واحد المصران . والعزاء : الأمر الشديد .

لا يغمز الساقَ مِن أينٍ ولا وَصَبٍ ... ولا يعَضّ على شُرسُوفهِ الصَّفَرُ

وقال الشَّنْفَرَى :

وأطْوِى على الخُمص الحوَايا كما انطوَتْ ... خيوطة مارِىٍّ تُغار وتُفتَلُ (١)

وإن مدّت الأيدِى إلى الزاد لم أكن ... بأعجلِهم إذ أجشعُ القوم أعجلُ

وما ذاكَ إلّا بَسْطة عن تفضّلٍ ... عليهمْ وكان الأفضلَ المتفضِّلُ

وقال بعضهم لابنه : يا بُنَىّ عوِّد نفسك الأثرَة ، ومجاهَدةَ الهوى والشهوة ، ولا تَنهش نَهْشَ السِّباع ، ولا تَقضِم قَضْمَ البَراذين ، ولا تُدْمِن الأكلَ إدمانَ النِّعاج ، ولا تلقمْ لَقْمَ الجِمال ، إنّ الله جعلك إنسانا ، فلا تجعَل نفسَك بهيمة ولا سَبُعا ، واحذَرْ سُرعة الكِظَّة ، وداءَ البطْنة ، فقد قال الحكيم : إذا كنت بَطِناً فعُدّ نفسك من الزَّمْنَى (٢) وقال الأعشى :

* والبِطْنَةُ يوما تُسفِّه الأحلاما (٣) *

واعلم أن الشِّبَع داعيةُ البَشَم ، والبَشَم داعيةُ السَّقَم ، والسَّقَم داعيةُ الموت ، ومن ماتَ هذه الميتةَ فقد مات موتةً لئيمة ، وهو مع هذا قاتِلُ نفسه ، وقاتلُ نفسِه ألوَم من قاتِلِ غيره . يا بُنَىّ ، والله ما أدّى حقّ السجود والرّكوع ذو كِظّة ، ولا خَشَع لله ذو بِطْنة ، والصومُ مصحّة ، ولربّما طالت أعمارُ الهِنْد ، وصحّت أبدانُ العرَب ، ولله درّ الحارثِ بن كَلَدة حيث زَعَم أن الدَّوَاء هو الأزْم ، وأنّ الدّاء إدخالُ الطعام فى أثَر الطعام ، يا بُنَىّ لم صَفَتْ أذهانُ الأعرابِ ، وصَحّت أذهان الرُّهْبان مع طُول الإقامة فى الصوامع ، حتّى لم تَعرف وجعَ المفاصل ، ولا الأورام ، إلّا لقلّة الرّزْء ، ووقاحة الأكل ، وكيف لا ترَغب فى تدبير يجمع لك بين صحّة البدن وذكاء الذِّهن وصلاحِ المَعاد

---

(١) لامية العرب ٢٧ . (٢) الزمنى : المرضى عن كبر وهرم .

(٣) ديوانه ٢٤٧ ، والبيت بتمامه :

يا بنِى المُنذرِ بنَ عَبْدَالله والبِطْنَةُ يومًا قَدْ تأفِنُ الأحْلامَا

والقرب وعَيْش الملائكة . يا بُنَيَّ لِمَ صار الضبّ أطول شيء ذَماء ! إلّا لأنه يتبلّغ بالنّسيم . ولِمَ زعَم رسولُ الله صلى الله عليه وآله أنّ الصومَ وِجاء ! إلّا ليَجعله حجابا دونَ الشّهوات ! فافهمْ تأديبَ الله ورسولِه ، فإنهما لا يَقصدان إلّا مِثلَك . يا بُنَيّ ، إنى قد بلغت تسعين عاما ما نقَص لى سِنّ ، ولا انتَشر لى عَصَب ، ولا عرفتُ دِنينَ أنف ، ولا سَيلان عَين ، ولا تقطير بَوْل ، ماالذلك علة إلّا التّخفيف من الزاد ، فإن كنتَ تحبّ الحياةَ فهذه سبيلُ الحياة ، وإن كنتَ تريدُ الموت فلا يُبعِد الله إلا من ظَلَم .

وكان يقال : البِطْنة تذهِب الفِطْنة .

وقال عَمرو بنُ العاص لأصحابه يومَ حكمِ الحَكَمَان : أكثِروا لأبى مُوسى من الطّعام الطّيب فوالله ما بَطِنَ قومٌ قطّ إلّا فَقَدوا عُقولَهم أو بعضَها ، وما مضى عزمُ رجلٍ باتَ بَطِينا .

وكان يقال : أقْلِل طَعاماً تَحمَد مَناماً .

ودعا عبدُ الملك بنُ مروانَ رجلا إلى الغَدَاء فقال : مافىَّ فضلْ ؛ فقال : إنى أحبّ الرجلَ يأكل حتّى لا يكون فيه فضل ؛ فقال : ياأميرَ المؤمنين ، عندى مُستَزاد ، ولكنّى أكرَه أن أصِير إلى الحال التى استقْبَحها أميرُ المؤمنين .

وكان يقال : مسكينٌ ابن آدم ، أسيرُ الجوع ، صَريع الشِّبَع .

وسأل عبد الملك أبا الزُّعَيْرعة ؛ فقال : هل أتخمتَ قطّ ؟ قال : لا ، قال : وكيف ؟ قال : لأنّا إذا طَبَخْنا أنضجْنا ، وإذا مضَغْنا دقّقنا ، ولا نُكظّ المَعدة ولا نُخْليها .

وكان يقال : من المرُوءة أن يَترُك الإنسانُ الطعامَ وهو بعدُ يَشتهيه .

وقال الشاعر :

فإنّ قرابَ البَطْن يكفيك مَلؤهُ ويكفيكَ سَوآتِ الأمورِ اجتنابُها

وقال عبد الرحمن ابن أخى الأصمعى : كان عمى يقول لى : لا تخرج يابنىّ من منزلك

حتّى تأخذَ حِلمَك ـ يعنى تتغذّى ـ فإذا أخذتَ حِلمَك فلا تزددْ إليه حِلما، فإنّ الكثرة تَئول إلى قِلّة . وفى الحديث المرفوع : ما ملأ ابنُ آدم وعاء شرًّا من بَطْن ، بحَسْب الرّجُل من طعامِهِ ما أقامَ صُلْبه ، وأمّا إذا أبَيْتَ فثُلثُ طعام ، وثلثُ شَراب ، وثلث نَفَس .

ورَوَى حُذَيفة عن النبي صلّى الله عليه وآله : « من قلّ طعمُه ، صَحّ بطنُه ، وصفا قلبُه ، ومَن كَثُر طعمُهُ ، سَقُم بَطنُه وقسا قلبُه » ؛ وعنه صلّى الله عليه وآله : « لا تُميتوا القلوبَ بكثرة الطّعام والشّراب ، فإنّ القلبَ يموت بهما ، كالزّرع يموت إذا أكثر عليه الماء » . ورَوَى عَوْن بنُ أبى جُحَيفة عن أبيه قال : أكلتُ يوما ثَريداً ولحماً سَمينا ، ثم أتيتُ رسولَ الله وأنا أتجشّأ ، فقال : احبِسْ جَشاءَك أبا جُحَيفة ، إن أكثرَكم شِبَعاً فى الدّنيا أكثرُكم جُوعاً فى الآخرة ، قال : فما أكل أبو جُحَيْفة بعدها مِلءَ بطنِه إلى أن قبَضه الله . وأكلَ علىٌّ عليه السلام قليلا من تمْر دَقَل (١) وشَرِب عليه ماء ، وأمَرّ يدَه على بطنه وقال : من أدخلَه بطنُه النارَ فأبعده اللهُ ، ثم تمثّل :

فإنّك مَهْما تُعطِ بطنَكَ سُؤْلَهُ وفَرْجَك نالا مُنْتَهَى الذمِّ أجمَعا

وكان عليه السلام يُفطِر فى رمضان الّذى قُتِل فيه عند الحَسَن ليلةً ، وعند الحُسَين ليلةً ، وعند عبدالله بن جعفر ليلة ، لا يزيد على اللُّقْمَتين أو الثلاث ، فيقال له ؛ فيقول : إنّما هى ليالٍ قلائل ، حتّى يأتىَ أمرُ الله وأنا خَميصُ البطْن ، فضَرَبه ابنُ مُلجَم لعنه الله تلك الليلة .

وقال الحسن : لقد أدركتُ أقواماً ما يأكل أحدُهم إلّا فى ناحيةِ بطنِه ، ما شَبِع رجلٌ منهم من طعامٍ حتّى فارقَ الدنيا ، كان يأكل ، فإذا قارَب الشِّبَع أمسك وأنشد المبرّد :

---

(١) التمر الدقل : أردأ التمر .

فإنّ امتلاءَ البَطْنِ فى حَسَبِ الفتَى ... قليلُ الغَناء وهو فى الجسم صالحُ

وقال عيسى عليه السلامُ : يابنى إسرائيل ، لاتُكثِروا الأكل ، فإنّه مَنْ أكثرَ من الأكل أكثرَ من النّوم ، ومن أكثرَ النّومَ أقلّ الصّلاة ، ومن أقلّ الصلاة كُتِب من الغافلين : وقيل ليوسفَ عليه السلام : مالك لا تَشبَع وفى يديك خزائنُ مِصرَ ؟ قال : إنّى إذا شبِعتُ نسيت الجائعين .

وقال الشاعر :

وأكلةٍ أوقعتْ فى الهُلْك صاحِبَها ... كحَبّة القَمح دَقّتْ عُنُقَ عُصْفورِ
لَكِسْرةٌ بجَرِيش المِلح آكُلُها ... ألذُّ مِن تَمرةٍ تَحْشى بزُنْبور

ووُصِف لسابورَ ذى الأكتافِ رجلٌ من إصْطَخْرَ للقضاء ، فاستقدَمَه ، فدعاه إلى الطّعام ، فأخَذ المَلِك دَجاجةً من بين يديه فنصَّفَها ، وجعل نِصفَها بين يدىْ ذلك الرجل ، فأتَى عليه قبل أن يَفرُغ المَلك من أكل النّصف الآخَر ، فصرَفه إلى بلده ، وقال: إنّ سَلَفنا كانوا يقولون : مَنْ شَرِه إلى طعام المَلِك كان إلى أموال الرّعيّة أشْرَه .

قيل لسُمَيْرة بن حبيب : إنّ ابنَك أكل طعاما فأتخَمْ ، وكاد يموت ، فقـال : واللهِ لو مات منه ما صلّيت عليه . أنَس يرفَعه : إنّ من السَّرَف أن تأكل كلّ ما اشتهَيْت .

دخل عمرُ على عاصم ابنِه وهو يأكل لحْما ، فقال : ما هذا ؟ قال : قَرِمْنا إليـه ، قال: أوَ كُلّما قَرِمْت إلى اللّحْم أكلْته ! كَفَى بالمرءِ شَرَهًا أن يأكُلَ كُلّ ما يشتهِى .

أبو سعيد يرفَعه : استعينُوا بالله من الرُّعْب ؛ قالوا : هو الشَّرَه ، ويقال : الرُّعْب شُؤم . أنَس يرفَعه : أصلُ كلّ داء البردة ، قالوا : هى التُّخَمَة ؛ وقال أبو دُرَيد : العرَب تعيِّر بكَثْرة الأكل ، وأنشد :

لستُ بأكّال كأكْل العَبْـدِ ... ولا بِنَوّامٍ كنَوْم الفَهْـدِ

وقال الشاعر :

إذا لم أزُرْ إلاّ لآ كُلَ أكْلَةً فلا رَفعتْ كَفِّي إليَّ طعامِي
فما أكلةٌ إن نِلتُها بغنيمةٍ ولا جَوْعة إن جُعْتُها بغرامِ

ابن عباس ، كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يبيت طاوياً ليالى ماله ولأهله عَشاء ، وكان عامّةَ طعامِه الشّعيرُ ؛ وقالت عائشة : والذى بَعثَ محمدا بالحق ما كان لنا مُنخُل ، ولا أكل رسولُ الله صلى الله عليه وآله خُبْزا مَنْخُولا منذ بَعثه الله إلى أن قُبِض ؛ قالوا : فكيف كنتم تأكلون دقيق الشعير ؟ قالت : كنّا نقول : أُفٍّ أُفٍّ .

أنس ، ما أكل رسولُ الله صلى الله عليه وآله رغيفاً مُحَوَّرا إلى أن لَقِى ربَّه عزّ وجلّ .

أبو هريرة : ماشَبِع رسولُ الله صلى الله عليه وآله وأهله ثلاثةَ أيام مُتوالية من خُبْز حِنْطة حتى فارَق الدنيا .

وروَى مَسْروق قال : دخلتُ على عائشة وهى تبكى ؛ فقلتُ : مايبكيك ؟ قالت : ماأشاء أن أبكى إلّا بكَيتُ ، مات رسولُ الله صلى الله عليه وآله ولم يَشبَع من خُبز البُرّ فى يومٍ مرّتين ، ثم انهارَتْ علينا الدنيا .

حاتم الطائىّ :

وإنّى لأستحيي صحابىَ أن يرَوْا مكانَ يَدِى من جانب الزاد أقرَعا[1]
أقصِّر كَفِّى أن تَنال أكفَّهمْ إذا نحنُ أهوَيْنا وحاجاتُنا مَعاَ
أبيتُ خَميصَ البطنِ مضطمِرَ الحشاَ حياءً أخافُ الضَّيمَ أن أتَضلّعا

(١) ديوانه ١١٥ .

فإنّك إن أعطَيتَ بَطنَك سُؤلَهـا وفَرْجَك نالا مُنتَهى الذمِّ أجمعـا

فأما قولُه عليه السلام : « كان لا يَتَشهَّى ، مالا يجد » فإنَّه قد نهى أن يتشهى الإنسانُ مالا يَجِد ؛ وقالوا : إنّه دليلٌ على سُقوط المرُوءة .

وقال الأحنف : جنِّبوا مَجالسنا ذِكرَ تشهِّى الأطْعِمة وحديث النكاح .

وقال الجاحظ : جلَسْنا فى دارٍ فجعَلْنا نتشهّى الأطعمة ؛ فقال واحد : وأنا أشْتهى سِكْبَاجاً(١) كثيرة الزعفران .

وقال آخَر : أنا أشتهى طَبَاهِجة ناشِفــة ، وقال آخر : أنا أشتهى هَرِيسـة كثيرة الدّارصينى ، وإلى جانبنا امرأةٌ بيننا وبينها بئر الدار ، فضربتِ الحائط وقالت: أناحامل، فأعطُونى مِلءَ هذه الغَضارة من طبيخِـكم ، فقال ثمامة : جارتُنا تَشمُّ رائحة الأمانىّ .

(٢٩٦)

الأصْلُ :

لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ سُبْحَانَهُ على مَعْصِيَتِهِ ،لَكَانَ يَجِبُ أَلَّا يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ.

* * *

الشّرْحُ :

قالت المعتزِلة : إنّا لو قدّرْنا أنّ الوَعِيد السّمْعىّ لم يرد لما أخلّ ذلك بكون الواجب واجباً فى العقل ، نحو العدل والصّدق ، والعلم ، وردّ الوديعة ، هـذا فى جانب الإثبات، وأما فى جانب السّلْب فيَجب فى العَقْل ألّا يَظلِم ، وألّا يَكذِب ، وألّا يجهل ، وألّا يَخُون الأمانة ، ثمّ اختَلَفُوا فيما بينهم ، فقالت معتزِلة بغدادَ : ليس الثوابُ واجباً على الله تعالى بالعَقْل ، لأنّ الواجباتِ إنّما تَجِب على المكلَّف ، لأنّ أداءها كالشُّكر لله تعالى ، وشكر المُنعِم واجب، لأنّه شكْر منعِم ، فلم يَبقَ وجهٌ يَقتضِى وجوبَ الثّواب على الله سبحانه ؛ وهذا قريبٌ من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام .

وقال البَصْرِيّون : بل الثواب واجبٌ على الله تعالى عَقْلا ، كما يجب عليه العِوَض عن إيلامِ الحىّ ؛ لأنّ التكليف إلزامٌ بما فيه مَضَرّة ، كما أنّ الإيلامَ إنزالُ مَضرّة ، والإلزام كالإنزال .

(٢٩٧)

الأصْلُ :

وقالَ عليه السلام للأشعث بن قيس وقد عزاه عن ابن له :

يا أشْعَثُ ، إنْ تحْزَنْ على ابنِكَ فقَدِ استحَقَّتْ ذلِكَ مِنْكَ الرَّحِمُ ، وإنْ تَصْبِرْ فَفِي اللهِ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ خَلَفٌ .

يا أشْعَثُ ، إنْ صبرْتَ جرَى عَلَيْكَ الْقدَرُ وأنْتَ مَأجُورٌ ، وإنْ جزِعْتَ جرَى عَلَيْكَ الْقدَرُ وأنْتَ مَأزُورٌ .

يا أشْعَثُ ، ابنُكَ سرَّكَ ، وَهوَ بَلَاءٌ وفِتْنَةٌ ، وحَزَنَكَ ، وهُوَ ثوَابٌ ورَحْمَةٌ .

***

الشَّرْحُ :

قد رُوِى هذا الكلام عنه عليه السلام على وجوهٍ مختلِفة وروايات متنوِّعة ، هذا الوجهُ أحدُها ، وأخَذَ أبو العتاهية ألفاظَه عليه السلام فقال لمن يعزِّيه عن وَلَد :

ولا بدَّ مِن جرَيانِ القَضاءِ إمَّا مُثـــاباً وإما أثِيمَا

ومن كلامهم فى التعازى : إذا اُستأثَرَ اللهُ بشىء فالْهَعنه ، وتُنْسَب هذه الكلمة إلى عُمر بن عبد العزيز .

وذكر أبو العبّاس فى الكامل أنَّ عُقْبة بنَ عِياض بن تميم أحد بنى عامر بن لؤىّ اُستُشهِد ، فعزّى أباه معزٍّ ، فقال : اِحتَسِبْه ولا تجزَع عليه ، فقدمات شهيداً ؛ فقال عِياض : أترانى كنتُ أُسَرُّ به وهو مِن زينةِ الحياة الدنيا ، وأُساء به وهو من الباقياتِ الصالحات !

وهذا الكلام مأخوذ من كلام أميرِ المؤمنين عليه السلام .

ومن التّعازى الجيِّدةِ قولُ القائل :

ومن لم يَزَلْ غرَضا للمنو ... نِ يترُكه كلّ يوم عَميدَا (١)
فإنْ هُنّ أخطأنَه مرّةً ... فيوشِك مُخطِئها أن يَعودا
فَبَيْنَا يَحيد وأخطأنَهُ ... قصدنَ فأعجَلْنه أن يَحيدا

وقال آخر :

هو الدّهر قد جرّبتُه وعرفتُه ... فصبرا على مكروهه وتجلُّدَا
وما النّاسُ إلّا سابقٌ ثمّ لاحقٌ ... وفائتُ موتٍ سوفَ يَلحقُه غدا

وقال آخر :

أيُّنا قدّمتْ صُرُوفُ اللّيالى ... فالّذى أخّرت سريعُ اللّحاق
غَدَراتُ الأيّام منتزِعاتٌ ... عُنقَيْنا من أنسِ هذا العِناقِ (٢)

ابنُ نُباتَةَ السّعدىّ :

نُعلِّل بالدّواء إذا مَرِضْنا ... وهل يَشفى من الموتِ الدّواء !
ونختارُ الطبيبَ وهل طبيبٌ ... يؤخِّر ما يقدِّمه القضاء !
وما أنفاسُنا إلا حسابٌ ... وما حركاتُنا إلا فناء

البُحتُرِىّ :

إنّ الرزيّة فى الفقيد فإن هفَا ... جزعٌ بلبِّك فالرّزيّة فِيكَا (٣)
وَمَتَى وجدْتَ النّاس إلا تاركاً ... لحميمِه فى التُّرْب أو متروكا
لو ينجلى لك ذخرها من نكبةٍ ... جللٍ لأضحكَك الذى يُبكيكا

---

(١) رجل عميد : هده العشق .
(٢) حاشية ب : قوله : « عنقينا » التثنية باعتبار التقدم والتأخر .
(٣) ديوانه ٢ : ١٥٣ ، من رثائه لمحمد بن وهب .

وكتب بعضهم إلى صديق له مات ابنُه : كيف شُكرُك لله تعالى على ما أَخَذ من وديعته ، وعَوّض من مَثُوبته !

وعَزَّى عمر بنُ الخطاب أبا بكرٍ عن طفلٍ ، فقال : عَوّضك اللهُ منه ما عَوّضه منك ؛ فإنّ الطفل يعوّض من أبوَيْه الجنّة .

وفى الحديث المرفوع : « مَنْ عزَّى مصابا كان له مِثل أجْرِه » .

وقال عليه السلام : « من كُنوز السِّرّ كتمانُ المصائب ، وكِتْمانُ الأمراض وكتمانُ الصَّدقة » .

وقال شاعرٌ فى رِثاء ولدِه :

وسمّيْتُه يَحْيَى لِيَحْيَا ولم يكنْ إلى رَدّ أمرِ الله فيه سَبيلُ
تخيّرتُ فيه الفألَ حين رُزِقتُهُ ولم أدرِ أنّ الفألَ فيه يَفيلُ

وقال آخر :

وهوّنَ وَجْدى بعد فقدِك أننى إذا شئتُ لاقيتُ امرأً مات صاحِبُهْ

آخر :

وقد كنتُ أرجو لو تمليت عِيشةً عليكَ الليالى مرّها وانتقالَها
فأمّا وقد أصبحتَ فى قَبْضة الرّدَى فقُلْ لليالى فلتَصِبْ مَن بدَا لها

أَخَذه المتنبي فقال :

قد كنتُ أُشفِق من دَمْعى على بَصَرِى فاليوم كل عزيز بعدكم هانَا [1]

ومِثلُه لغيره :

فراقَك كنتُ أخشى فافترقْنا فمن فارقتُ بعدكَ لا أبالِى

---

(١) ديوانه ٤ : ٢٢٢ .

(٢٩٨)

الأصْل :

وقالَ عليهِ السلام عندَ وقوفِهِ على قبرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليهِ وآلهِ ساعةَ دُفِنَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليهِ وآله :

إنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إلَّا عنْكَ ، وإنَّ الجزعَ لَقَبيحٌ إلَّا علَيْكَ ، وإنَّ المُصابَ بك لَجَليلٌ ، وإنَّهُ بَعْدَكَ لقليلٌ .

***

الشَّرْحُ :

قد أخذَتْ هذا المعنى الشُّعراءُ ؛ فقال بعضهم:

أمسَتْ بجَفْنِي للدُّموعِ كُلُومُ حَزَناً عليك وفى الخدود رُسومُ[(١)]
والصبرُ يُحمَد فى المَواطِنِ كلِّها إلا عليكَ فإنّه مذمومُ

وقال أبو تمّام :

وقد كان يُدْعَى لابسُ الصّبرِ حازماً فقد صارَ يُدْعَى حازِما حين يجزَعُ[(٢)]

وقال أبو الطيّب :

أجِدُ الجفاءَ على سِواكَ مُروءةً والصّبرَ إلّا فى نَواكَ جميلا[(٣)]

وقال أبو تمّام أيضًا :

الصبرُ أجملُ غيرَ أنّ تلذّذاً فى الحبِّ أولَى أن يكونَ جميلا[(٤)]

(١) الكامل : ٢ : ٤١ ، ونسبهما إلى محمد بن عبدالله العتبي .
(٢) ديوانه ٣٣٣ (بشرح الخياط) ، التبيان ١ : ٢٤٦ .
(٣) ديوانه ٣ : ٢٣٣ . (٤) ديوانه ٢٤٢ (بشرح الخياط) .

وقالت خَنْساء أخت عَمْرو بن الشَّرِيد :

ألا ياصَخْرُ إنْ أبكَيتَ عَيْنِي ... لقد أضحكْتَنِي دهراً طـــويلا
بكيتُكَ في نساء مُعْوِلاتٍ ... وكنتُ أحقَّ من أبْدَى العَويلا
دفعتُ بك الجليلَ وأنتَ حيٌّ ... فمن ذا يَدْفَع الخطبَ الجليلا !
إذا قُبحِ البكاء على قتيـلٍ ... رأيتُ بكاءَك الحسَنَ الجميلا[1]

ومثلُ قوله عليه السلام : « وإنه بعدكَ لقليل »، يَعني المصاب ، أي لا مُبالاة بالمصائب بعد المصيبة بك ، قولُ بعضهم :

قد قلتُ للموتِ حين نازَلَهُ ... والموتُ مِقـــدامةٌ على البُهَمِ
اذهَبْ بمن شئتَ إذْ ظفرتَ به ... مابعد يحيَي للموتِ من ألمِ

وقال الشَّمَرْدَل اليَرْبُوعيّ يرثي أخاه :

إذا ماأَتى يومٌ من الدّهر بيننا ... فحيّاكَ عنّا شرْقُهُ وأصائلُه[2]
أبَى الصّبرَ أنّ العين بعدك لم تزَلْ ... يُحالِف جَفْنَيْها قذًى ما تُزايلُهْ
وكنتُ أعيرُ الدّمعَ قبلكَ مَن بَكى ... فأنت على من مات بعدكَ شاغلُهْ
أعَيْنَيَّ إذ أبكاكما الدهرُ فابْكِيا ... لمن نَصْرُه قد بانَ عنّا ونائلُهْ
وكنتُ به أغشَى القِتالَ فعزَّنِي ... عليه من المِقـدارِ مَنْ لا أقاتِلُهْ
لعَمْرُكَ إنّ الموتَ مِنّا لَمُولَعٌ ... بمن كان يُرجى نفعُه وفواضِلُهْ

قوله :

* فأنتَ على من ماتَ بعـــدكَ شاغلُهْ *

هو المعنى الذي نحن فيه ، وذكرنا سائرَ الأبيات لأنّها فائقة بعيدةُ النَّظير .

---

(١) ديوانها ٢٢٥ . (٢) أمالي اليزيدي ٣٢ ، ٣٣ .

وقال آخر يَرْثِي رجلا اسمه جارية :

أجارِيَ ما أزدادُ إلاّ صَبابةً عليكَ وما تزدادُ إلاّ تنائيا
أجارِيَ لو نفْسٌ فدَتْ نفسَ ميّتٍ فديتُك مَسْرورا بنفسى وماليا
وقد كنتُ أرجو أن أراكَ حقيقةً فحَالَ قضاءُ الله دون قضائيا
ألا فليَمُتْ من شاء بعدكَ إنما عليكَ من الأقْدار كان حِذاريا

ومن الشِّعر المنسوب إلى عليٍّ عليه السلام ـ ويقال : إنه قاله يومَ ماتَ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله :

كنتَ السّوادَ لناظِرى فبَكى عليك النّاظرُ
من شاء بعدكَ فليَمُتْ فعليكَ كنتُ أحاذِرُ

ومن شِعر الحماسة :

سأبكيكَ مافاضَتْ دموعى فإن تَغضْ فحسْبُكَ منى ما تُجِنُّ الجوانحُ
كأنْ لم يَمُتْ حىٌّ سِواك ولم تَقُمْ على أحدٍ إلاّ عليكَ النّوائحُ
لئن حَسُنَتْ فيكَ المراثى بوَصفِها لقد حَسُنَتْ مِن قبلُ فيك المدائحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإن جَلّ جازِعٌ ولا بسرُورٍ بعد موْتِك فارِحُ

(٢٩٩)

الأصلُ :

لَا تَصْحَبِ المَائِقَ فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ فِعْلَهُ ، وَيَوَدُّ أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ .

***

الشرحُ :

المائق : الشديدُ الحُمْق ، والمُوق : شدّة الحُمْق ، وإنما يزين لك فعله لأنّه يعتقد فعلَه صوابا بحُمْقه فيزيِّنه لك كما يزيِّنُ العاقلُ لصاحبه فِعلَه لاعْتقاد كونه صوابا ، ولكن هذا صوابٌ فى نَفْس الأمر ، وذلك صوابٌ فى اعتقاد المائق ، لا فى نفس الأمر؛ وأمّا كونه يودّ أن تكون مِثله فليس معناه أنه يوَدّ أن تكون أحمَق مثله ، وكيف وهو لا يَعلَم من نفسِه أنّه أحمق ، ولو عَلِم أنه أحمق لما كان أحمق ، وإنما معناه أنّه لحبِّه لك ، وصُحْبته إيّاك ، يودّ أن تكون مِثله، لأنّ كل أحدٍ يودّ أن يكون صديقُه مِثل نفسِه فى أخلاقه وأفعالِه ، إذ كل أحد يَعتقِد صوابَ أفعاله ، وطهارةَ أخلاقه ، ولا يَشعر بعيبِ نفسِه لأنه يهوَى نفسَه ، فَعيْبُ نفسه مطوىٌّ مَسْتور عن نفسِه ، كما تَخْفَى عن العاشق عُيوبُ المَعشوق.

(٣٠٠)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ وقَدْ سُئِلَ عَنْ مَسافَةِ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمغْرِبِ ، فَقالَ : مَسِيرَةُ يَوْمٍ للشَّمْس .

***

الشَّرْحُ :

هكذا تقول العَرَب « بينهما مسيرة يوم » بالهاء ولا يقولون « مسيرُ يوم » لأنّ المسير المصْدَر ، والمسِيرة الاسم .

وهــذا الجوابُ تسمِّية الحـكماء جوابًا إقناعيًا ، لأن السائل أراد أن يذكر له كمّيّة المسافة مُفصّلة ، نحو أن يقول : بينهما ألفُ فرسخ أو أكثر أو أقلّ ، فعَدَل عليه السلام عن ذلك وأجابه بغيره ، وهو جواب صحيح لا ريَب فيه ، لـكنّه غير شاف لغليلِ السائل ، وتحته غرَضٌ صحيح ، وذلك لأنه سأله بحضور العامّة تحتَ المِنبر ، فلو قال له : بينهما ألفُ فرسخ مَثلا ، لـكان للسائِل أن يُطالبه بالدّلالة على ذلك ، والدّلالة على ذلكَ يَشقّ حصولها على البَديهة ، ولو حصلتْ لَشقّ عليه أن يُوصلها إلى فهمْ السائل ، ولو فهمها السائلُ لما فهمتْها العامّة الحاضرون ، ولصارَ فيهـا قولٌ وخلاف ، وكانت تـكون فِتنة أو شبيها بالفتْنة ، فعَدَل إلى جواب صحيح إجماليّ أسكت السائل به ، وقَنع به السامعون أيضا وَاستحسنوه ، وهذا من نتائج حِـكمتِه عليه السلام .

(٣٠١)

الأصْلُ :

أَصْدِقاؤُكَ ثَلاَثَةٌ ، وَأَعْداؤكَ ثَلاثَةٌ ؛ فَأَصْدِقاؤُكَ : صَدِيقُكَ ، وَصَدِيقُ صَدِيقِكَ، وَعَدُوُّ عَدُوِّكَ . وَأَعْداؤكَ : عَدُوُّكَ ، وَعَدُوُّ صَدِيقِكَ، وَصَدِيقُ عُدُوِّكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى هذا المعنى .

والأصل فى هذا أنّ صديقَك جارٍ مجرَى نفسك ، فاحكم عليه بما تحكُم به على نفسك ، وعدوّك ضدّك ، فاحكُمْ عليه بما تحكُم به على الضدّ ، فكما أنّ من عاداك عدوّ لك ، وكذلك مَن عادى صديقَك عدُوّ لك ،وكذلك من صادَق صديقَك فكأنّما صادَق نفسَك ، فكان صديقا لك أيضا ، وأما عدوُّ عدوِّك فضدّ ضدّك ؛ وضِدُّ ضِدّك ملائمٌ لك ، لأنّكَ أنتَ ضِدٌّ لذلك الضدّ ، فقد اشتركتُما فى ضدّية ذلك الشخص، فكنتما متناسِبَين ، وأمّا مَنْ صادقَ عدوّك فقد ماثلَ ضِدّك ، فكان ضِدًّا لك أيضا ، ومثلُ ذلك بياضٌ مخصوص يُعادِى سَواداً مخصوصاً ويضادّه .

وهناك بياض ثانٍ هُوَ مِثلُ البياض الأوّل وصديقُه ، وهناك بياضٌ ثالثٌ مِثلُ البياض الثانى ، فيكون أيضا مِثل البياض الأوّل وصديقه ، وهناك بَياضٌ

رابعٌ تأخذه باعتبار ضدّاً للسواد المخصوص المفروض ، فإنه يكون مماثِلا وصَديقا للبياض الأوّل ، لأنه عدو عدوّه ؛ ثم نَفْرِض (١) سوادا ثانيا مضادًّا للبياض الثانى ، فهو عدوٌّ للبياض الأوّل ، لأنه عدوُّ صديقه ، ثمّ نفرِض سوادا ثالثا هو مُماثِلُ السوادِ المخصوص المفروض ، فإنه يكون ضدًّا للبياض المفروض المخصوص ، لأنه مِثل ضدّه ؛ وإن مثلت ذلك بالحروف كان أظهرَ وأكشف .

(١) ب : « نقض » تحريف .

(٣٠٢)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِرَجُلٍ رَآهُ يَسْعَى على عَدُوٍّ لَهُ بِما فيه إِضْرارٌ بِنَفْسِهِ : إِنَّما أَنْتَ كالطَّاعن نَفْسَهُ لِيَقْتُلَ رِدْفَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا يختلف باختلاف حالِ السّاعى ، فإنه إن كان يضرّ نفسه أوّلا ثم يضرّ عدوّه تبَعا لإضرارِه بنفسِه ، كان – كما قال أمير المؤمنين عليه السلام – كالطاعنِ نفسَه لِيقتلَ رِدْفه ؛ والرِّدفْ : الرجلُ الذى تَرْتدِفه خَلْفَك على فرَس أو ناقةٍ أو غيرِهما ، وفاعل ذلك يكون أسْفه الخلق وأقلّهم عقلا ، لأنه يبدأ بقتل نفسه وإن كان يضرّ عدوّه أولا ، يحصل فى ضمن إضراره بعدوّه إضراره بنفسه ، فليس يكون مثالُ أمير المؤمنين عليه السلام منطبقا على ذلك ، ولكن يكون كقولى فى غزلٍ من قصيدةٍ لى :

إن تَرْمِ قلبى تُصْمِ نفسَك إنّه   لكَ موطنٌ تأوِى إليه ومَنزِلُ[1]

---

(١) تصمى أى تصيب .

(٣٠٣)

الأصل

ما أكْثَرَ العِبرَ وَأقَلَّ الاعْتِبارَ !

***

الشَّرْحُ :

ما أوجز هذه الكلمة وما أعظم فائدتها ! ولا ريب أنّ العبَر كثيرة جدًّا ، بل كلّ شيء فى الوجود ففيه عِبْرةٌ ، ولا ريب أن المعتبِرين بها قليلون ، وأنّ الناس قد غلب عليهم الجهل والهوى ، وأرداهم حبُّ الدنيا ، وأسكرهم خمرُها ؛ وإنّ اليقين فى الأصل ضعيف عندهم ، ولولا ضعفه لكانتْ أحوالهم غيرَ هذه الأحوال .

(٣٠٤)

الأَصْلُ :

مَنْ بَالَغَ فِي الْخُصُومَةِ أَثِمَ ، وَمَنْ قَصَّرَ فِيهَا ظُلِمَ ، ولا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ مَن خاصَمَ .

الشَّرح :

هذا مثل قوله عليه السلام فى موضع آخر : الغالبُ بالشرّ مغلوب .

وكان يقال : ماتسابَّ اثنان إلا غلبَ ألأمُهما .

وقد نهى العلماء عن الجدل والخصومة فى الكلام والفقه ؛ وقالوا : إنهما مظنّة المباهاة وطلب الرئاسة والغلبة ، والمجادل يكره أن يقهره خصمُه ؛ فلا يستطيع أن يتّقى الله .

وهذا هو كلام أمير المؤمنين عليه السلام بعينه .

وأما الخصومة فى غير العلم كمنازعة النّاس بعضِهم بعضاً فى أمورهم الدنياويّة ، فقد جاء فى ذمّها والنّهى عنها شىء كثير ، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم قولا كافيا ؛ على أنّ منهم مَنْ مدح الجهْل والشرّ فى موضعهما .

وقال الأحنف : ماقلّ سفهاء قوم إلّا ذلّوا .

وقال بعض الحكماء : لايخرجنّ أحد من بيته إلا وقد أخذ فى حُجْزتهِ قيراطين من جَهْل ؛ فإن الجاهل لايدفعه إلا الجهل . وقالوا : الجاهل من لا جاهل له .

وقال الشاعر :

إذا كنت بين الجهل والحلم قاعداً ... وخُيِّرْتَ أَنَّى شئت فالعلم أفضلُ
ولكن إذا أنصفتَ مَنْ ليس منصفاً ... ولم يرضَ منك الحلمَ فالجهلُ أمثلُ
إذا جاءنى مَنْ يطلب الجهلَ عامداً ... فإنى سأعطيه الّذى هو سائلُ

(٣٠٥)

الأصْلُ

مَا أَهَمَّنِي أَمْرٌ أُمْهِلْتُ بَعْدَهُ؛ حَتَّى أُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَأَسْأَلَ اللهَ الْعَافِيَةَ .

***

الشرح :

هذا فتحٌ لباب التوبة وتطريق إلى طريقها . وتعليم للنهضة إليها والاهتمام بهام بها ، ومعنى الكلام أنّ الذّنب الذى لا يعاجَل الإنسانُ عقيبَه بالموت ينبغى للإنسان ألّا يهتم به ، أى لا ينقطع رجاؤه عن العفو وتأميله الغفران ، وذلك بأن يقوم إلى الصلاة عاجلا ، ويستغفر الله ، ويندم ويعزم على ترك المعاودة ، ويسأل الله العافية من الذنوب والعصمة من المعاصى ، والعون على الطاعة ، فإنه إذا فعل ذلك بنيّة صحيحة واستوفى شرائط التوبة سقط عنه عقابُ ذلك الذنب .

وفى هذا الكلام تحذيرٌ عظيم من مواقعة الذنوب ، لأنه إذا كان هذا هو محصول الكلام ، فكأنّه قد قال الحذَرَ الحذَرَ من الموت المفاجئ قبل التوبة ، ولا ريب أنّ الإنسان ليس على ثقةٍ من الموت المفاجئ قبل التوبة ، إنه لا يفاجئه ولا يأخذه بغتةً ، فالإنسان إذا كان عاقلاً بصيرا يتوقّى الذنوب والمعاصيَ التوقّى .

(٢٠٦)

الأصْلُ

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ يُحَاسِبُ ٱللهُ ٱلْخلقَ عَلَى كَثْرَتِهِمْ ؟ فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَتِهِمْ .

فَقِيلَ : كَيْفَ يُحَاسِبُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ ! فَقَالَ : كَمَا يَرْزُقُهُمْ وَلَا يَرَوْنَهُ .

***

الشَّرْحُ

هذا جواب صحيح ، لأنه تعالى لا يرقهم على الترتيب ، أعنى واحداً بعد واحد ، وإنما يرزقهم جميعَهم دفعةً واحدة ، وكذلك تكون محاسبتهم يوم القيامة .

والجواب الثانى صحيح أيضا ؛ لأنه إذا صحّ أن يرزقنا ولا نرى الرّازق ، صحّ أن يحاسبَنا ولا نرى المحاسب .

فإن قلت : فقد ورد أنهم يمكثون فى الحساب ألف سنة ؛ وقيل أكثر من ذلك ، فكيف يجمع بين ما ورد فى الخبر وبين قولكم : « إن حسابهم يكون ضربة واحدة » ! ولا ريب أنّ الأخبار تدلّ على أن الحساب يكون لواحدٍ بعد واحد .

قلت : إن أخبار الآحاد لا يُعمل عليها ؛ لا سيّما الأخبار الوارة فى حديث الحساب والنار والجنّة ، فإن المحدّثين طعنوا فى أكثرها ، وقالوا : إنها موضوعة ، وجملة الأمر أنه ليس هناك تكليف ، فيقال إن ترتيب المحاسبة فى زمانٍ طويل جدًّا يتضمّن لطفا فى التكليف فيفعله البارى تعالى لذلك ، وإنما الغرض من المحاسبة صدْق الوعد وما سبق من القول ؛ والكتاب العزيز لم ينطق إلا بالمحاسبة مجملةً ، فوجب القول بالمتيقّن المعلوم فيها ورفض ما لم يثبت .

(٣٠٧)

الأصلُ

رَسُولُكَ تَرْجُمَانُ عَقْلِكَ ، وَكِتَابُكَ أَبْلَغُ مَا يَنْطِقُ عَنْكَ .

***

الشَّرْحُ :

قالوا فى المَثَل : الرّسول على قدر المرسِل .

وقيل أيضا : رسولك أنتَ ، إلا أنه إنسانٌ آخَر .

وقال الشاعر :

تَخَيَّرْ إذا ما كنتَ فى الأمر مرسِلاً فمبلغُ آراء الرّجال رسولُها
وروِّ وفكِّرْ فى الكتاب فإنّما بأطراف أقلامِ الرّجال عقولُها

(٣٠٨)

الأصل :

مَا الْمُبْتَلَى الَّذِى قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الْبَلَاءُ ، بِأَحْوَجَ إِلَى الدُّعَاءِ مِنَ الْمُعَافَى الَّذِى لَا يَأْمَنُ الْبَلَاءَ .

***

الشرح :

هذا ترغيب فى الدعاء ، والذى قاله عليه السلام حقّ ، لأنّ المعافَى فى الصورة مبتلًى فى المعنى ، ومادام الإنسان فى قَيْد هذه الحياة الدنيا فهو من أهل البلاء على الحقيقة ، ثم لا يأمن البلاء الحسِّىّ، فوجب أن يتضرّع إلى الله تعالى أنّه ينقذه من بلاء الدنيا المعنوى، ومن بلائها الحسىّ فى كلّ حال .

ولا ريبَ أنّ الأدعيَة مؤثِّرة ، وأنّ لها أوقات إجابة ، ولم يختلف المليُّون [1] والحكماء فى ذلك .

---

(١) فى ا : « أصحاب الملل » .

(٣٠٩)

الأصْلُ :

النَّاسُ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا ، وَلَا يُلَامُ الرَّجُلُ عَلَى حُبِّ أُمِّهِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد قال عليه السلام فى موضع آخر : « الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » .

وقال الشاعر :

وَنحنُ بَنِي الدُّنيا غُذِينَا بدَرِّها وما كنتَ منه فهو شيء محبَّبُ[1]

(١) الدر : اللبن ، والكلام على الاستعارة .

(٣١٠)

الأَصْلُ :

إِنَّ المِسْكِينَ رَسُولُ اللهِ ، فَمَنْ مَنَعَهُ فَقَدْ مَنَعَ اللهَ ، وَمَنْ أَعْطَاهُ فَقَدْ أَعْطَى اللهَ .

***

الشَّرْحُ :

هذا حضٌّ على الصدقة ، وقد تقدّم لنا قولٌ مقنع فيها .

وفى الحديث المرفوع : « اتّقوا النّار ولو بشِقِّ تَمْرة ، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » .

وقال صلى الله عليه وآله : « لو صَدَق السّائل لما أفلح مَنْ ردّه » .

وقال أيضا : « مَنْ ردّ سائلا خائبا لم تَغْشَ الملائكة ذلك البيت سبعة أيام » .

وكان صلى الله عليه وآله لا يَكِلُ خَصْلتيْن إلى غيره : كان يصنع طَهُوره [١] بالّليل ويخمِّره ، وكان يناول المسكين بيده .

وقال بعض الصالحين : مَنْ لم تكن نفسه إلى ثواب الصدقة أحوجَ من الفقير إلى صدقته ، فقد أبطل صدقته ، وضرب بها وجهه .

وقال بعضهم : الصلاة تبلّغُك نصفَ الطريق ، والصَّوْم يبلّغك باب المَلِك، والصدقة تُدخِلك عليه .

---

(١) الطهور : الماء الذى يتطهر به . ويخمره : يستره .

(٣١١)

الأصل

مَازَنَى غَيُورٌ قَطُّ .

* * *

الشرح :

قد جاء فى الأثر : مَنْ زَنَى زُنِىَ به ولو فى عقِب عقِبه .

وهذا قد جُرّب فوجد حقّا ، وقلّ مَنْ ترى مِقداما على الزّنا إلا والقول فى حَرَمه وأهلِه وذوى محارمه كثير فاشٍ .

والكلمة التى قالها عليه السلام حقّ لأنّ مَنْ اعتاد الزنا حتى صار دُرْبته وعادته وألفَتْهُ نفسه ، لا بدّ أن يهون عليه حتى يظنّه مباحا ، أو كالمباح ، لأنّ مَنْ تدرّب بشىء ومرَن عليه زال قبحه من نفسِه ، وإذا زال قبحُ الزنا من نفسه لم يعظم عليه مايقال فى أهله، وإذا لم يعظم عليه مايقال فى أهله ، فقد سقطت غَيْرته .

(٣١٢)

الأصْلُ :

كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِساً !

***

الشرح :

قد تقدّم القول فى هذا المعنى .

وكان عليه السلام يقول : إن عَلَىَّ من الله جُنّةً[1] حصينة ، فإذا جاء يَوْمى أسلمَتْنى ؛ فحينئذ لا يَطِيش السَّهْم ، ولا يبرأ الـكَلْمْ .

والقول فى الأجل وكونه حارسا شُعْبة من شُعَب القول فى القضاء والقدَر ، وله موضع هو أملَكُ به[2] .

---

(١) الجنة بالضم : كل ما وقى .

(٢) ا : « أولى به » .

(٢١٣)

الأَصْلُ :

يَنَامُ الرَّجُلُ عَلَى الثُّكْلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الْحَرَبِ .

***

قَالَ السَّيِّدُ : وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَصْبِرُ عَلَى قَتْلِ الْأَوْلَادِ ، وَلَا يَصْبِرُ عَلَى سَلْبِ الْأَمْوَالِ .

***

الشَّرْحُ :

كان يقال : المال عِدْل النّفس .

وفى الأثر : أنّ مَنْ قُتِل من دون ماله فهو شهيد .

وقال الشاعر :

لنَا إبلٌ غُرٌّ يضيق فَضاؤها ... ويغبرّ عنها أرضُها وسماؤها
فمِن دونِها أن تُستباحَ دِماؤُنا ... ومِن دونِنا أن تُستباح دماؤها
حِمًى وقِرًى فالموت دون مرامِها ... وأيسر أمرٍ يومَ حُقّ فَناؤها

(٣١٤)

الأصْـلُ :

مَوَدَّةُ ٱلْآبَاءِ قَرَابَةٌ بَيْنَ ٱلْأَبْنَاءِ ، وَٱلْقَرَابَةُ أَحْوَجُ إِلَى الْمَوَدَّةِ مِنَ الْمَوَدَّةِ إِلَى ٱلْقَرَابَةِ .

***

الشرح :

كان يقال : الحبّ يتوارث ، والبُغض يُتوارث .

وقال الشاعر :

أبقَى الضَّغَائِنَ آباءٌ لنا سلفُوا   فلن تبِيدَ وللآباء أبناء

ولا خير فى القرابة من دون مودّة .

وقد قال القائل لمّا قيل له : أيّما أحبُّ إليك ؟ أخوك أم صديقك ؟ فقال : إنما أحبّ أخِي إذا كان صديقا .

فالقربى محتاجة إلى المودّة ، والمودة مستغنِيةٌ عن القُربَى (١) .

---

(١) ا : « القرابة » .

(٣١٥)

الأَصْلُ

اتَّقُوا ظُنُونَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ الْحَقَّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ .

***

الشرح :

كان يقال : ظَنُّ المؤمن كَهانة .

وهو أثَرٌ جاء عن بعض السلف .

قال أَوْس بن حجر [1] :

الألمعىُّ الذى يَظُنُّ [2] بك الظَّـــنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعا [3] .

وقال أبو الطّيب [4] :

ذَكِىٌّ تَظَنِّيه طليعةُ عينِـــه يَرَى قلبُه فى يومه مايَرَى غدَا [5]

---

(١) ديوانه ٥٣ .

(٢) الديوان : « لك » . (٣) الألمعى : الحديد اللسان والقلب؛ قال فى الكامل: « وقد أبانه بقوله : « الذى يظن بك الظن » . (٤) ديوانه ١ : ٢٨٢ .

(٥) التظنى : هو التظنن ، قلبت النون الثانيــة ياء : والطليعة : الذى يطلع القوم على العدو فإذا جاءهم العدو أنذرهم .

(٣١٦)

الأصلُ

لَا يَصْدُقُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَوْثَقَ مِنْهُ بِمَا فِي يدِهِ .

***

الشرح :

هذا كلام فى التوكّل ، وقد سبق القول فيه .

وقال بعض العلماء : لا يشغلُك المضمونُ لك من الرّزق عن المفروض عليك من العَمل ، فتضيّع أمرَ آخرتك ، ولا تنال من الدنيا إلا ما كَتَب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى جود[1] العبد : الرزق عن غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال بعضهم : متى رضيتَ بالله وكيلا ، وجدت إلى كلّ خير سبيلا[2] .

---

(١) فى ب : « وجود » تحريف .

(٢) زاد بعدها فى ا : « واضحاً » .

(٣١٧)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ لأنسِ بْنِ مالكٍ ، وقد كان بَعَثَهُ إلى طلحةَ والزُّبير لمَّا جاء إلى البصرةِ يُذَكِّرُهما شيئاً قد سمِعَهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلّى الله عليهِ وآلِه في معناهما ، فلَوَى عن ذلك فرجَعَ إليه ، فقالَ : إنِّي أُنْسيتُ ذَلِكَ الْأَمْرَ ، فقال عليه السلامُ :

إنْ كنتَ كاذباً فضرَبك اللهُ بها بيضاء لامِعَةً لا تُوارِيها العِمامةُ .

***

قالَ : يعنى البرصَ ، فأصاب أنساً هذا الدّاءُ فيما بَعْدُ في وجهِهِ ، فكانَ لا يُرَى إلا مُتَبرْقِعاً .

***

الشَّرْحُ :

المشهور أنّ عليا عليه السلام ناشد الناس الله في الرّحبة بالكوفة ، فقال : أنشدكم الله رجلًا سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لى وهو منصرف من حَجّة الوداع : « من كنتُ مولاه فعلىّ مولاه ، اللهمّ وَالِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه » فقام رجال فشهدوا بذلك ، فقال عليه السلام لأنس بن مالك : لقد حضرتَها ، فما بالُكَ ! فقالَ : يا أمير المؤمنين كبرتْ سنى ، وصار ما أنساه أكثر مما أذكره ؛ فقال له : إن كنت كاذباً فضربك الله بها بيضاء لا تواريها العِمامة ، فما مات حتى أصابه البرص .

فأما ما ذكره الرضىّ من أنه بعث أنسا إلى طلحة والزبير فغيرُ معروف ، ولو كان قد بعثه ليذكّرهما بكلام يختصّ بهما من رسول الله صلى الله عليه وآله لما أمكنه أن

يرجع ، فيقول : إنى أنسيتهُ ، لأنه ما فارقه متوجّها نحوهما إلا وقد أقرّ بمعرفته وذكره ، فكيف يرجع بعد ساعة أو يوم فيقول : إنى أنسيته ، فينكر بعد الإقرار ! هذا مما لا يقع .

وقد ذكر ابنُ قتيبة حديث البرص ، والدعوة التى دعا بها أمير المؤمنين عليه السلام على أنس بن مالك فى كتاب " المعارف " فى باب البُرْص [1] من أعيان الرجال ، وابن قتيبة غير متهم فى حقّ علىّ عليه السلام ، على المشهور من انحرافِه عنه .

---

(١) المعارف ٥٨٠ .

(٣١٨)

الأصْلُ :

إنْ لِلْقُلُوبِ إقْبَالاً وَإدْبَاراً ، فَإذَا أَقْبَلَتْ فَاحْمِلُوهَا عَلَى النَّوَافِلِ ، وَإذَا أَدْبَرَتْ فَاقْتَصِرُوا بِهَا عَلَى الْفَرَائِضِ .

***

الشَّرْحُ :

لا ريب أنّ القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ؛ وتُقبِل تارةً على العِلم وعلى العَمَل، وتُدبِر تارةً عنهما .

قال عليّ عليه السلام : فإذا رأيتموها مقبلة أى قد نشِطتْ وارتاحت للعمل فاحملوها على النّوافل ؛ ليس يعنى اقتصروا بها على النافلة ، بل أدّوا الفريضة وتنفّلوا بعد ذلك . وإذا رأيتموها قد ملّت العمل وسئمتْ فاقتصروا بها على الفرائض ، فإنه لا انتفاع بعمل لا يَحضُر القلبُ فيه [1] .

---

(١) ا : « لا يحضره القلب » .

(٣١٩)

الأصلُ :

فِي الْقُرْآنِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ .

***

الشَّرْحُ :

هذا حقّ ؛ لأن فيه أخبار القرون الماضية ، وفيه أخبار كثيرة عن أمور مستقبلة، وفيه أخبار كثيرة شرعيّة ؛ فالأقسام الثلاثة كلُّها موجودة فيه .

(٣٢٠)

الأصل:

رُدُّوا الحجَرَ مِنْ حَيْثُ جاءَ، فإنَّ الشَّرَّ لا يَدْفَعُهُ إلّا الشر.

***

الشرح:

هذا مثل قولهم فى المثل: إن الحديد بالحديد يُفلَح وقال عمرو بن كُلثوم.

أَلَا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا ... فنَجهل فوق جهلِ الجاهلينا[1]

وقال الفندُ الزِّمّانيّ:

فلما صرّح الشرّ ... فأمسى وهوَ عُريانُ[2]

ولم يبقَ سِوى العدْوَا ... نِ دِنّاهمْ كما دانوا

وبعض الحلم عند الجهـ ... ـل للذِّلّة إذْعانُ

وفى الشرّ نجاة حيـ ... ـنَ لا ينجيك إحسانُ

وقال الأحنف:

وذِى ضِغْن أمتّ القولَ عنه ... بحلمى فاستمرّ على المَقالِ

ومن يَحلُمْ وليس له سفيهٌ ... يُلاقِ المعضلاتِ من الرِّجالِ

---

(١) من المعلقة ص ٣٢٣ — بشرح التبريزى. (٢) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ — ٢٦ — بشرح التبريزى قالها فى حرب البسوس.

وقال الراجز :

لابد للسؤدُد من أرْماحِ ومِنْ عَـديدٍ يتّقى بالرّاحِ

* ومن سفيهٍ دائم النُّباحِ *

وقال آخر :

ولا يلبثُ الُجهّال أن يتهضّمُوا أخا الحلم مالم يستعِنْ بجَهُولِ

وقال آخر :

ولا أتمنّى الشرّ والشرُّ تاركى ولـكن متى أُحمَلْ على الشرّ أركبُ

(٣٢١)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لِكاتبِهِ عُبَيْدِ اللهِ بنِ أبي رَافِعٍ :
أَلِقْ دَوَاتَكَ ، وأَطِلْ جِلفَةَ قَلَمِكَ ، وفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ ، وقَرْمِطْ بَيْنَ الحُرُوف فإِنَّ ذَلِكَ أَجْدَرُ بِصَبَاحَةِ الخطِّ .

***

الشَّرْحُ :

لاقَ الحِبرُ بالكاغَد يليق ، أى اُلتصق ، ولِقْتُه أنا يتعدّى ولا يتعدّى ، وهذه دواة مليقة : أى قد أُصلح مدادُها ، وجاء أَلِقِ الدّواة إلاقةً فهى مُليقة ، وهى لغة قليلة وعليها وردتْ كلمة أمير المؤمنين عليهِ السلام .

ويقال للمرأة إذا لم تحظ عند زوجها : ما عاقَتْ عند زوجها ولا لاقَتْ ، أى ما اُلتصقت بقلبه .

وتقول : هى جِلْفة القلم بالكسر ، وأصل الجَلف القَشْر ، جلفتُ الطّين من رأس الدنّ ، والجِلْفة هيئة فتحَة القلم التى يستمدّ بها المداد ، كما تقول : هو حَسن الرِّكْبة والجِلسة ونحو ذلك من الهيئات .

وتقول : قد قرمط فلانٌ خطوَه إذا مشى مشياً فيه ضِيق وتقارُب ؛ وكذلك القول فى تضييق الحروف .

فأما التفريج بين السطور فيُكسِب الخطَّ بهاءً ووضوحا .

(٣٢٢)

الأصْلُ :

أنا يَعْسُوبُ المُؤْمنينَ ، والمَالُ يَعْسُوب الْفُجّارِ .

***

قالَ : مَعْنَى ذَلِكَ أنَّ المؤْمِنينَ يَتْبَعُونَنى ، والْفُجّار يَتْبَعُون المَالَ ؛ كما تَتْبَعُ النَّحْلُ يَعْسُوبَها ، وهُوَ رَئِيسُها .

***

الشرح :

هذه كلمةٌ قالها رسول الله صلّى الله عليه وآله بلفظين مختلفين ، تارةً : « أنت يعسوب الدِّين » وتارة : « أنت يعسوب المؤمنين » ، والكلّ راجع إلى معنًى واحد ، كأنه جعله رئيس المؤمنين وسيّدَهم ، أو جعل الدِّين يتبعه ، ويقفُو أثرَه ؛ حيث سلك كما يتبع النحلُ اليعسوبَ.

وهذا نحو قوله : « وأدِرِ الحقَّ معه كيف دارَ » .

(٣٢٣)

الأصْلُ :

وقالَ لبعضِ اليهودِ حينَ قالَ لهُ : مادَفَنْتمْ نَبيَّكُمْ حَتّى اخْتَلَفْتمْ فيه فقالَ لهُ :

إنّما اخْتَلَفْنا عَنْهُ لافيهِ ؛ وَلـكِنّكُمْ ماجَفّتْ أرْجُلُكُمْ مِنَ الْبَحْرِ حَتّى قُلْتُمْ لِنَبيِّكُمْ : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلهةٌ قالَ إنّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[1].

***

الشرح :

ما أحسن قوله : « اختلفنا عنه لافيه » ، وذلك لأنّ الاختلاف لم يكن فى التوحيد والنبوّة ؛ بل فى فرُوع خارجة عن ذلك ، نحو الإمامة والميراث ، والخلاف فى الزكاة هل هى واجبة أم لا ؛ واليهود لم يختلفوا كذلك ، بل فى التوحيد الذى هو الأصل .

قال المفسرون : مرُّوا على قوم يعبدون أصناما لهم على هيئة البقَر ؛ فسألوا موسى أن يجعلَ لهم إلهاً كواحد منها ، بعد مشاهدتهم الآيات والأعلام ، وخلاصِهم من رقّ العبوديّة ، وعبورهم البحر ، ومشاهدةِ غَرَق فرعون ؛ وهذه غاية الجهل .

وقد روى حديث اليهودىّ على وجه آخر ؛ قيل : قال يهودىٌّ لعلىّ عليه السلام : اختلفتم بعد نبيِّكم ولم يجفّ ماؤه — يعنى غسله — صلى الله عليه وآله ، فقال عليه السلام : وأنتم قلتم : اجعلْ لنا إلها كما لهم آلهة ولما يجفّ ماؤكم .

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٨ .

(٣٢٤)

الأَصْلُ :

وقِيلَ لَهُ عليهِ السَّلامُ : بأىِّ شَىْءٍ غَلَبْتَ الأَقْرَانَ ؟ قالَ : مالَقِيتُ أَحداً إلا أعانَنى على نَفْسِهِ .

***

قالَ الرَّضىُّ رحمهُ اللهُ تعالى : يُومِئُ بِذَلِكَ إلَى تَمَكُّنِ هَيْبَتِهِ فى القُلُوبِ .

***

الشَّرْحُ :

قالت الحكماء : الوهم مؤثِّر ، وهذا حقّ ، لأن المريض إذا تقرّر فى وهمه أن مرضه قاتل له ربّما هلك بالوَهم ، وكذلك مَنْ تلسبُه الحيّة[1] ؛ ويقع فى خياله أنها قاتلته ؛ فإنه لايكاد يسلم منها ، وقد ضربو لذلك مثالًا ، الماشى على جِذْع معترض على مهواة ؛ فإن وهمه وتخيُّله السقوط يقتضى سقوطه ؛ وإلا فمشيه عليه وهو منصوب على المَهْواة كمشيه عليه وهو ملقًى على الأرض ؛ لافرق بينهما إلّا الوَهْم والخوف والإشفاق والحذَر ، فكذلك الذين بارزوا عليًّا عليه السلام من الأقران ؛ لما كان قد طار صيتُه ، واجتمعت الكلمة أنه ما بارزه أحد إلا كان المقتول ، غلب الوهم عليهم ، فقصرت أنفسهم عن مقاومته ، وانخذلت أيديهم وجوارحهم عن مناهضته ؛ وكان هو فى الغاية القصوَى من الشّجاعة والإقدام ، فيقتحم عليهم ويقتلهم .

---

(١) لسبته الحية : لدغته .

(٣٢٥)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لابْنِهِ :

يا بُنَيَّ إنِّى أخافُ عَلَيْكَ الْفَقْرَ ؛ فاسْتَعِذْ باللهِ مِنْهُ ، فإنَّ الْفَقْرَ مَنْقَصَةٌ للدِّين ، مَدْهَشَةٌ لِلعَقْلِ ، دَاعِيَةٌ لِلْمَقْتِ .

* **

الشرح :

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الفقر والغنى]

هذا موضع قد اُختلف الناس فيه كثيرا ، ففضّل قومٌ الغنى ، وفضّل قومٌ الفقر .

فقال أصحاب الغنى : قد وصف الله تعالى المال ، فسمّاه خيراً ، فقال : ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عن ذِكْرِ رَبِّى ﴾[١] .

وقال ممتنًا على عباده ، واعدا لهم بالإنعام والإحسان : ﴿ ويُمْدِدْكُمْ بأموالٍ وَبنين ﴾[٢] .

وقال : ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مالًا ممدودًا ﴾[٣] .

وقال النبى صلى الله عليه وآله : « المال الحسَب ، إن أحساب أهل الدنيا هذا المال » .

وقال عليه السلام : « نعم العون على تقوى الله المال » .

---

(١) سورة ص ٣٢ .

(٢) سورة نوح ١٢ .

(٣) سورة المدثر ١٢ .

قالوا : ولا ريب أن الأعمال الجليلة العظيمة الثواب لا يتهيّأ حصولها إلا بالمال؛ كالحجّ والوقوف والصدقات والزكوات والجهاد .

وقد جاء فى الخبر : « خير المال سِكّة مَأبورة[1] أو مُهرة مأمورة » .

وقالت الحكماء : المال يرفعُ صاحبَه وإن كان وضيعَ النسب ، قليل الأدب وينصره وإن كان جباناً ، ويبسط لسانه وإن كان عيّاً ، به تُوصَل الأرحام ، وتصانُ الأعراض ، وتظهر المروءة ، وتتمّ الرياسة ، ويعمر العالم ، وتُبلَغ الأغراض ، وتدرَك المطالب ، وتُنال المآرب ؛ يصلك إذا قطعك النّاس ، وينصرك إذا خذلوك ، ويستعبد لك الأحرار ، ولولا المال لما بان كرمُ الكريم ، ولا ظهر لؤم اللّئيم ، ولا شُكِر جواد ، ولا ذُمّ بخيل ، ولا صِين حريم ، ولا أدرك نعيم .

وقال الشاعر :

المـال أنفعُ للفتى من عِلْمه والفقرُ أقتلُ للفتى من جَهْلِه
ماضرّ مَنْ رفـع الدّرَاهمُ قدرَه جهلٌ يناط إلى دناءةِ أصلِه

وقال آخر :

دعوتُ أخى فولّى مشمئزّا ولَبّى دِرهمى لمّا دعوتُ

وقال آخر :

ولم أر أوفَى ذِمّةً من دراهمى وأصدقَ عَهْدا فى الأمور العظائمِ
فكم خانَنى خلٌّ وثقتُ بعهدِه وكان صديقاً لى زمانَ الدّرَاهم

وقال آخر :

أبو الأصفر المنقوش أنفعُ للفتى من الأصل والعِلم الخطير المقدّم

---

(١) السكة : الطريقة . والمأبورة : الملقحة ، وانظر نهاية ابن الأثير ١ : ١٠ .

وما مدح العلمَ امرؤٌ ظفرتْ به   يَداه ولـكنْ كلُّ مُقْوٍ ومعدِمِ

وقال الشاعر :

ولم أر بعد الدّين خيراً من الغِنى   ولم أرَ بعد الـكفر شرًّا من الفقرِ

وقال العتّابيّ : الناس لصاحب المال ألزمُ من الشّعاع للشمس ؛ وهو عندهم أرفع من السماء ، وأعذب من الماء ، وأحلى من الشّهد ، وأزكى من الوَرْد ؛ خطؤه صواب ، وسيئته حسنة . وقوله مقبول ، يُغشَى مجلسه ، ولا يُمَلّ حديثُه ، والمفلس عندهم أكذب من لمعَان السّراب ، ومن رؤيا الـكِظّة ، ومن مرآة اللّقوة ، ومن سحاب تَمّوز ، لا يسأل عنه إن غاب ، ولا يسلَّم عليه إذا قدم ؛ إن غابَ شتموه ، وإن حضر طردوه ؛ مصافحته تنقض الوضوء ، وقراءته تقطع الصلاة ؛ أثقل من الأمانة ، وأبغض من السائل المبرِم .

وقال بعض الشعراء الظرفاء ، وأحسن كل الإحسان مع خلاعته :

أصونُ دراهمِي وأذُبّ عنها   لِعلمِي أنهـا سَيْفِى وتُرْسِى
وأذخرُها وأجمعُهـا بجهدِي   ويأخذ وارثِي منهـا وعُرْسِى
فيأكلهـا ويشربُها هنيئاً   على النّغمات من نَقْرٍ وَجَسٍّ
ويقعد فوق قبرِي بعـد موتِي   ولا يتصـدقنْ عنّى بفَلْسِ
أحبّ إلىّ من قصدى عظيما   كبيراً أصـله من عبد شمسِ
أمدّ إليـه كفِّى مستميحاً   وأُصْبِحُ عَبْدَ خدمته وأُمسِى
ويتركنى أجرّ الرّجـلَ مِنّى   وقدصارت كنفس الكلْب نفسِي

***

وقال أصحاب الفقر : الغنَى سبب الطُّغيان ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ (٢).

وكان يقال : الغنى يورث البَطَر ، وغنى النفس خيرٌ من غنى المال .

وقال محمود البقّال :

الفقر خيرٌ فاتّسِعْ واقتصدْ ... إنّ من العِصْمَةِ ألّا تَجِدْ
كَمْ واجدٍ أطلق وجدانُه ... عنانَه فى بعض مالم يُرِدْ
ومُدْمِنٍ للخمر غادٍ على ... سماع عُودٍ وغناء غَرِدْ
لو لم يجِدْ خمراً ولا مُسمِعا ... يردّ بالماء غليلَ الكَبِدْ
كَمْ من يدٍ للفقر عند امرئٍ ... طأطأ منه الفقر حتّى اقتصدْ

وكان يقال : الفقر شعار الصالحين ، والفقر لباس الأنبياء .

ولذلك قال البحترى :

فقرٌ كفقر الأنبياء وغربةٌ ... وصبابةٌ ليس البلاء بواحد (٣)

وكان يقال : الفقر مُخِفٌّ ، والغنى مُثقل .

وفى الخبر : نجا المخفّون .

وما أحسن قول أبى العتاهية :

ألَمْ تر أنّ الفقر يُرجَى له الغنى ... وأن الغنى يُخْشَى عليه من الفقرِ

وقد ذم الله تعالى المال ، فقال : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (٤).

---

(١) سورة العلق ٦ ، ٧

(٢) سورة الإسراء ٨٣ .

(٣) ديوانه ١ : ١٦٨ .

(٤) سورة الأنفال ٢٨ .

وكان يقال : المال ملول ، المـال ميّال ، المال غاد ورائح ، طبع المال كطبع الصبيّ ، لا يوقف على وقت رضاه ولا وقت سخطه . المال لا ينفعك حتى يفارقك .

وإلى هذا المعنى نظر القائل :

وصاحبِ صدقٍ ليس ينفع قربهُ ولا ودّه حتّى تفارقَه عَمْـــداً

ـ يعني الدينار .

وَمَا أَحْسَنَ ماقاله الأوّل :

وقد يُهْلِكُ الإنسانَ حسنُ رِياشِهِ كما يُذْبَح الطَّاوُس من أجل ريشِهِ

وقال آخر :

رُوَيْدَكَ إنّ المـال يُهلِك ربَّهُ إذا جمّ واستعلى وسُدَّ طريقُهُ

ومن جاوزَ المـاء الغزير فَمجّهُ وسدّ طريقَ المـاء فهو غريقُهُ

(٣٢٦)

الأصْلُ :

وقال لسائل سأله عن مسألة :

سَلْ تَفَقُّهاً ، وَلَا تَسْأَلْ تَعَنُّتاً ؛ فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُتَعَلِّمَ شَبِيهٌ بِالْعَالِمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ الْمُتَعَسِّفَ شَبِيهٌ بِالْجَاهِلِ .

***

الشرح :

قد ورد نهيٌ كثير عن السؤال على طريق الإعنات .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام فى كلام له : منْ حقّ العالم ألّا تكثر عليه بالسؤال، ولا تُعنِته فى الجواب ، ولا تضع له غامضات المسائل ، ولا تلحّ عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تُفْشِ له سرًّا ، ولا تغتابنّ عنده أحداً ، ولا تنقلنّ إليه حديثا ، ولا تطلبنّ عثرته ، وإن زلّ قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتُعظِّمه لله مادام حافظاً أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، وإذا كانت له حاجة فاسبق أصحابك إلى خدمته .

وقال ابن سيرين لسائل سأله : سلْ أخاك إبليس ، إنّك لنْ تسأل وأنت طالب رشد .

وقالوا : اللهمّ إنا نعوذ بك أن تُعْنِت كما نعوذ بك أن نُعْنَت ، ونستكفيك أن تَفضَح ، كما نستكفيك أن نفضَح .

وقالوا : إذا آنس المعلّم من التلميذ سؤال التعنُّت حرُم عليه تعليمه .

(٣٢٧)

الأصلُ :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي شَيْءٍ لَمْ يُوَافِقْ رَأْيَهُ :

لَكَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيَّ وَأَرَى فَإِذَا عَصَيْتُكَ فَأَطِعْنِي .

***

الشرح :

الإمام أفضل من الرعيّة رأياً وتدبيرا ، فالواجب على مَنْ يشير عليه بأمرٍ فلا يقبل أن يطيعَ ويسلّم ويعلم أن الإمام قد عرَف من المصلحة ما لم يعرف .

ولقد أحسن الصابى فى قوله فى بعض رسائله : ولولا فضلُ الرّعاة على الرّعايا فى بُعْدِ مَطْرَح النظرة ، واستشفاف عيب العاقبة ، لتساوت الأقدام ، وتقاربت الأفهام ، واستغنى المأموم عن الإمام .

(٣٢٨)

الأصل :

وَرُوِىَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا وَرَدَ الْكُوفَةَ قَادِماً مِنْ صِفِّينَ مَرَّ بِالشِّبَامِيِّينَ ، فَسَمِعَ بُكَاءَ النِّسَاءِ عَلَى قَتْلَى صِفِّينَ ، وَخَرَجَ إِلَيْهِ حَرْبُ بْنُ شُرَحْبِيلَ الشِّبَامِيُّ ؛ وَكَانَ مِنْ وُجُوهِ قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُ : أَيَغْلِبُكُمْ نِسَاؤُكُمْ عَلَى مَا أَسْمَعُ أَلَا تَنْهَوْنَهُنَّ عَنْ هٰذَا الرَّنِينِ !

وَأَقْبَلَ حَرْبٌ يَمْشِي مَعَهُ وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاكِبٌ ، فَقَالَ لَهُ : ارْجِعْ فَإِنَّ مَشْيَ مِثْلِكَ مَعَ مِثْلِي فِتْنَةٌ لِلْوَالِي وَمَذَلَّةٌ لِلْمُؤْمِنِ .

* * *

الشرح :

قد ذكرنا نسب الشباميِّين فيما اقتصصناه من أخبار صفّين فى أول الكتاب .

والرّنين : الصوت ، وإنما جعله فتنة للوالى لما يتداخله من العُجْب بنفسه والزّهو ، ولا ريب أيضا فى أنه مذلّة للمؤمن ، فإنّ الرّجل الماشى إلى ركاب الفارس أذلّ الناس .

(٣٢٩)

الأصل :

وَقَالَ عليه السلامُ وَقدْ مرَّ بقَتْلَى الخوارِجِ يومَ النَّهْرَوَانِ :
بُؤْساً لَكُم ! لَقَدْ ضَرَّكُمْ مَنْ غَرَّكُمْ .
فقيلَ لهُ : منْ غرَّهم يا أميرَ المؤمنينَ ؟
فقالَ :
الشَّيْطانُ المُضِلُّ ، والنَّفسُ الأمَّارَةُ بِالسُّوءِ ؛ غَرَّتْهُمْ بِالأمانِيِّ ، وفَسَحَتْ لَهُمْ في المَعاصِي ، ووَعَدَتْهُمُ الإظْهارَ ؛ فاقْتَحَمَتْ بِهِمُ النَّارَ .

***

الشرح :

يقالُ : بؤسَى لزيد وبؤساً «بالتنوين» لزيد ، فبؤسى نظيره نُعمَى ، وبؤساً نظيره نعمة، ينتصب على المصدر .

وهذا الكلام ردّ على المجبِّرة ، وتصريح بأن النفس الأمّارة بالسوء هي الفاعلة .

والإظهار : مصدر ، أظهرته على زيد ، أي جعلته ظاهرا عليه غالبا له ، أي وعدتهم الانتصار والظفر .

(٣٣٠)

الأصل :

اتَّقُوا معَاصِيَ اللهِ فِي الخلَوَاتِ ، فإنَّ الشَّاهِدَ هُوَ الحاكِمُ .

* * *

الشرح :

إذا كان الشاهد هو الحاكم استغنَى عمّن يشهد عنده ؛ فالإنسان إذن جديرٌ أن يتّقي الله حقّ تُقَاته ، لأنه تعالى الحاكم فيه وهو الشاهد عليه[١] .

---

(١) ا : « فيه » .

(٣٣١)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لما بلَغه قتلُ محمّدِ بن أبى بَكرٍ رَضىَ اللهُ عنهُ .

إنَّ حزْنَنا عَلَيْهِ على قَدْرِ سُرُورِهِمْ بِهِ ، إلَّا أنَّهُمْ نُقِصُوا بغيضاً ؛ ونُقِصْنَا حَبِيباً .

***

الشرح :

قد تقدّم ذكر مقتل محمد بن أبى بكر رضى الله عنه .

وقال عليه السلام : إن حزننا به فى العِظَم على قدر فرَحِهم به ؛ ولكنْ وَقع التفاوت بيننا وبينهم من وجه آخر ؛ وهو أنّا نقصنا حبيبا إلينا ، وأما هم فنقصوا بغيضا إليهم .

فإن قلت : كيف نقصوا ، ومعلوم أن أهل الشام مانقصوا بقتل محمّد شيئاً لأنه ليس فى عددهم !

قلت : لمّا كان أهل الشام يعدُّون فى كل وقت أعداءهم وبغضاءهم مس أهل العراق، وصار ذلك العدد معلوما عندهم محصور الكمّيّة ، نقصوا بقتل محمد من ذلك العدد واحدا، فإنّ النقص ليس من عدد أصحابهم ، بل من عدد أعدائهم الذين كانوا يتربّصون بهم الدوائر ، ويتمنّوْن لهم الخُطوب والأحداث ، كأنّه يقول : استراحوا من واحدٍ من جملة جماعةٍ كانوا ينتظرون موتهم .

(٣٣٢)

الأصل :

وقال عليه السلام : العُمُر الَّذِى أعْذَرَ اللهُ فيهِ إلى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَةً .

***

الشرح :

أعذَرَ الله فيه ؛ أى سوَّغ لابن آدم أن يَعتذر ، يعنى أنّ ماقبل السّتّين هى أيام الصِّبا والشبيبة والكُهولة ، وقد يُمكن أن يُعذر الإنسانُ فيه على اتّباع هوَى النفس لغلَبة الشّهوة وشرَه الحداثة ، فإذا تجاوز السّتّين دخَل فى سِنّ الشَّيْخُوخة ، وذهبتْ عنه غُلَواء شِرَّته ، فلا عُذرَ له فى الجهل .

وقد قالت الشعراء نحو هذا المعنى فى دُون هذه السّنّ التى عيّنها عليه السلام .

وقال بعضهم :

إذا ما المرء قَصَّر ثمّ مرّتْ ... عليه الأربعونَ عن الرّجالِ
ولم يَلحَق بصالحهم فَدَعْــهُ ... فليسَ بلاحِقٍ أُخْرى اللّيالى

(٣٣٣)

الأصْلُ :

ما ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ الإثمُ بهِ ، والغالبُ بالشرِّ مغلوبٌ .

***

الشَّرحُ :

قد قال عليه السلام نحوَ هذا ، وذكَرْناه فى هذا الكتابِ : مَنْ قصّر فى الخصومة ظُلِم ومَنْ بالَغ فيها أَثِم .

(٣٣٤)

الأَصْلُ :

إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ فَرَضَ فى أَمْوَالِ الأَغْنِياءِ أَقْوَاتَ الْفُقَرَاءِ ، فما جاعَ فَقِيرٌ إلَّا بِما مُتِّعَ بِهِ غَنِيٌّ ، واللهُ تعالى جَدُّهُ سائِلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى الصَّدَقة وفضلِها وما جاء فيها .

وقد ورد فى الأخبار الصّحيحة أنّ أبا ذَرّ قال : انتهيتُ إلى رسول اللهِ صلّى الله عليه وآله وهو جالس فى ظِلّ الكعبة ، فلمّا رآنى قال : هم الأخْسَرون وربِّ الكعبة ! فقلت : مَنْ هم ؟ قال : هم الأكْثرون أموالا ، إلا مَن قال هكذا وهكذا من بين يديه ومِن خلفِه وعن يمينه وعن شماله ، وقليلٌ ما هُم ، ما مِن صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدّى زكاتَه إلا جاءت يوم القيامة أعظمَ ما كانت وأسمَنَه ، تَنطَحُه بقرُونها ، وتطأه بأظلافها ، كلّما نَفِدَتْ أخراها عادَتْ عليه أولاها حتى يقضىَ الله بين الناس . . .

(٣٣٥)

الأَصْلُ :

الاسْتِغْنَاءُ عَنِ الْعُذْرِ ، أَعَزُّ مِنَ الصِّدْقِ بِهِ .

***

الشَّرْحُ :

رُوِىَ « خيرٌ مِن الصِّدق » ، والمعنى : لا تَفْعل شيئاً تعتذِر عنه وإن كنت صادقا فى العُذْر ، فألّا تفعل خيرٌ لك وأعزُّ لك من أن تفعَل ثمّ تعتذر وإن كنتَ صادقا .

ومِن حِكَم ابن المعتزّ : لا يقوم عِزُّ الغضب بذلّ الاعتذار .

وكان يقال : إيّاك أن تقومَ فى مقامِ مَعْذِرة ، فربَّ عذرٍ أسجَل بذنْب صاحبه .

اعتذَر رجلٌ إلى يحيى بن خالد ، فقال له : ذَنْبك يستغيثُ مِن عُذْرك .

ومن كلامِهم : مارأيت عُذْراً أشبه بذَنب مِن هذا .

ومن كلامهم : أضرِبهُ عَلَى ذَنبه مائةً ، وأضربهُ على عُذْره مائتين .

قال شاعرهم :

إذا كان وجهُ العُـذْر ليس بواضحٍ فإنّ اطّراحَ العُذْر خـيرٌ من العُذْرِ

كان النَّخَعِىّ يكره أن يُعتـذَر إليه ويقول : اسكُت مَعْذورا ، فإنّ المعاذيرَ يحضُرها الكَذِب .

(٣٣٦)

الأصْلُ :

أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لِلهِ سُبْحَانَهُ أَلَّا تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ .

***

الشّرْحُ :

لا شُبْهَةَ أنّ من القبيح الفاحشِ أن يُنعِم المَلِكُ على بعضِ رَعِيّته بمالٍ وعبيدٍ وسلاحٍ، فيَجعلَ ذلك المالَ مادّةً لِعصيانه والخروج عليه ، ثمّ يُحارِبه بأولئك العبيد ، وبذلك السلاح بعينه .

وما أحسَنَ ماقال الصابى فى رسالتِه إلى سُبُكْتُكِين من عِزّ الدّولة بختيار :

ولَيْت شِعرى بأىّ قدَمٍ تواقَفْنا ورِاياتُنا خافقة على رأسِك ، ومماليكُنا عن يَمينِك وشمالِك ، وخيلُنا موسومةٌ بأسمائنا تحتَك ، وثيابُنا مَحُوكَة فى طِرازِنا على جسَدك ، وسلاحُنا المَشْحوذُ لأعدائِنا فى يدِك !

(٣٣٧)

الأصـل :

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الطَّاعَةَ غَنِيمَةَ ٱلْأَكْيَاسِ عِنْدَ تَفْرِيطِ ٱلْعَجَزَةِ .

* * *

الشرح :

الأكياس : العُقَلاء أُولُو الألباب .

قال عليه السلام : جعلَ اللهُ طاعتَه غنيمةَ هؤلاء ، إذا فرّط فيها العَجَزة المَخْذلون من النّاس ، كصَيْدٍ استذفّ [1] لرَجُلين : أحدُهما جَلْد والآخر عاجز ، فقعد عنه العاجز لعَجزه وحِرْمانه ، واقتَنَصه الجَلْد لشَهامتِه وقوّة جدّه [2] .

(١) استذفّ : تهيأ .

(٢) ا : « وقوته » .

(٣٣٨)

الأصْلُ :

السُلْطَانُ وَزَعَةُ اللهِ فِي أَرْضِهِ .

***

الشَّرْحُ :

الوازعُ عن الشيء : الكافُّ عنه ، والمانعُ منه ، والجمع وَزَعة ، مِثل قاتِل وقَتَلة .

وقد قيل هذا المَعنَى كثيراً ، قالوا : لا بدّ للنّاس مِن وَزَعة .

وقيل : مايَزَع الله عن الدّين بالسّلطان أكثرُ ممّا يَزَع عنه بالقرآن . وتُنسَب هذه اللفظة إلى عُثمانَ بنِ عَفّان .

قال الشاعر :

لَا يَصلُح الناسُ فَوضَى لا سَرَاةَ لهمْ ... ولا سَرَاةَ إذا جُهّالُهمْ سادُوا [1]

وكان يقال : السّلطان القاهر وإن كان ظالماً خيرٌ للرّعيّة وللملك من السّلطان الضعيف وإن كان عادِلا .

وقال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾[2] .

قالوا فى تفسيره : أراد السلطان .

---

(١) للأفوه الأودى ، ديوانه ١٠ (ضمن مجموعة الطرائف الأدبية) .

(٢) سورة البقرة ٢٥١ .

(٣٣٩)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام فى صفة المؤمن :

بِشْرُهُ فِى وَجْهِهِ ، وَحُزْنُهُ فِى قَلْبِهِ . أَوْسَعُ شَىْءٍ صَدْراً ، وَأَذَلُّ شَىْءٍ نَفْساً . يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ . طَوِيلٌ غَمُّهُ ، بَعِيدٌ هَمُّهُ ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ ، مَشْغُولٌ وَقْتُهُ ، شَكُورٌ صَبُورٌ . مَغْمُورٌ بِفِكْرَتِهِ ، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ . سَهْلُ الْخَلِيقَةِ ، لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ ؛ نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ ؛ وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ .

***

الشّرْحُ :

هذه صفاتُ العارفين ؛ وقد تقدّم كثيرٌ من القول فى ذلك .

وكان يقال : البِشْر عُنوان النّجاح ، والأمْر الذى يختصّ به العارفُ أن يكونَ بِشْرُه فى وَجْهه وهو حزين وحُزْنه فى قلبه ، وإلّا فالبِشْر قد يوجَد فى كثيرٍ من الناس .

ثمّ ذكر أنه أوسَع الناس صَدْرا ، وأذَلّهم نَفْسا ، وأنه يَكرَه الرّفعة والصّيت .

وجاء فى الخبر فى وصفهم : « كلّ خامِلٍ نُوَمة » .

وطُولُ الغمّ وبُعد الهمّ من صِفاتهم ، وكذلك كَثْرةُ الصّمت وشَغل الوَقت بالذّكر والعِبادة ، وكذلك الشّكر والصّبر والاُستغراق فى الفِكْر وتدبُّر آياتِ الله تعالى فى خَلْقه ، والضنّ بالخلّة وقلّة المخالطة والتوفّر على العُزْلة وحُسْن الخُلق ولِين الجانب ، وأن يكون قوِىّ النفس جدًا ، مع ذُلّ لِلناس وتَواضُع بينهم ؛ وهذه الأمور كلّها قد أتى عليها الشّرح فيما تقدّم .

(٣٤٠)

الأصْلُ

ٱلْغِنَى ٱلْأَكْبَرُ ٱلْيَأْسُ عَمَّا فِى أَيْدِى ٱلنَّاسِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه الكلمة قد رُوِيتْ مرفوعةً ، وقد تقدّم القولُ فى الطّمع وذَمّه ، واليأسِ ومَدْحِه .

وفى الحديث المرفوع : « ازْهَدْ فى النّاس يُحبّكَ الله ، وازْهَدْ فيما فى أيدِى الناسِ يُحبّكَ الناس » .

ومن كلامِ بعضِهم : ماأكلتُ طعامَ واحدٍ إلّا هُنتُ عليه .

وكان يقال : نَعُوذُ بالله من طَمَعٍ يُدْنِى إلى طَبَع[1] .

وقال الشاعر :

أَرَحْتُ رُوحى من عَذابِ المِلاحْ   لليأسِ روح مِثل روح النَّجاحْ

وقال بعضُ الأدباء : هذا المعنى الّذى قد أَطنَبَ فيه الناسُ ليس كما يزعمونه ، لَعَمْرى إنّ لليأس راحة ، ولكن لا كَراحةِ النّجاح ، وما هوَ إلّا كقولِ مَن قال : لاأدرِى نِصفُ العِلمِ ، فقيل له : ولكنّه النّصف الّذى لاينفَع !

وقال ابن الفضل :

لاأمدَحُ اليأسَ ولكنّه   أرْوَحُ للقَلْب مِن المَطمَعِ

---

(١) الطبع : الدنس .

أفلحَ من أبصر رَوْضَ المُنَى   يُرْعَى فلَمْ يَرْعَ ولم يرْتَــعِ

وممّا يُروَى لعبد الله بنِ المُبارَك الزاهد :

قدأَرحْنا واستَرَحْنــا   مِن غُــدُوٍّ وَرواحِ

واتّصالٍ بأمــيرٍ   ووزيرٍ ذى سمـاحِ

بعفــافٍ وكَفافٍ   وقُنوعٍ وصَــلاحِ

وجَعلْنـا اليأسَ مِفْتـا   حاً لأبوابِ النّجاحِ

(٣٤١)

الأصْل :

المَسْئُول حُرٌّ حَتّى يَعِد .

* * *

الشَّرْح :

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى الوعد والمطل]

قد سَبَق القولُ فى الوَعد والمَطْل . ونحن نذكر هاهنا نُكَتاً أخرى :

فى الحديث المرفوع : « مَن وَعَد وَعْدا فكأنما عَهد عَهْداً » .

وكان يقال : الوعدُ دَيْن الكِرام ، والمَطْل دَيْن اللّئام .

وكان يقال : الوعد شبكة من شِباك الأحرار يتصيّدون بها المَحامِد .

وقال بعضُهم : الوعد مرض المعروف ، والإنْجاز بُرْؤه .

وقال يحيى بنُ خالد : الوعد سَحاب ، والإنجاز مَطَرُه .

وفى الحديث المرفوع « عِدَةُ المؤمن عطيّة » .

وعنه عليه السلام : « لا تُواعِد أخاك موعداً لتُخلِفَه » .

وقال يحيى بن خالد لبنيه : يا بَنِيّ ، كونوا أُسْداً فى الأقوال ، نُجّازاً فى الأفعال ، ولا تَعِدُوا إلّا وتُنجزوا ، فإنّ الحُرّ يثق بوعْد الكَريم ، وربما ادّان عليه .

وكان جعفرُ بنُ يحيى يَكْره الوَعْد ويقول : الوعد من العاجز ، فأمّا القادر فالنَّقْد .

وفى الحديث المرفوع : « مَطْل الغَنِيِّ ظُلْم » .

وقال ابن الفضل :

أَثْرَوْا ولم يَقْضوا دُيونَ غَريمِهمْ ... واللُّؤمُ كلُّ اللُّؤم مَطلُ المُوسِرِ

وقال الآخر :

إذا أتَت العطيةُ بعـدَ مَطْلٍ ... فلا كانت وإن كانتْ سَنيةْ

وكان يقال : المَطْل يَسُدّ على صاحِبه بابَ العُذْر ، ويوجِب عليه الأحْسَن والأكْثر ، والتّعجيل يُحسِّن سيئَه ، ويبسُط عُذْرَه فى التّقليل .

وقال يحيي بن خالد لبَنيه : يا بَنى لا تمطُلوا مَعروفكم ، فإن كثير العَطاء بعدَ المَطْل قليل ، وعجّلوا فإنّ عُذْرَكم مقبول مع التعجيل .

ومن كلام الحَسَن بن سَهْل : المَطْل يُذهِب رَوْنَق البِرّ ، ويكدِّر صَفْوَ المعروف ، ويُحبِط أجر الصَّدَقة ، ويَعقِل اللِّسان عن الشكر . وللتعجيل حلاوة وإن قلّت العارفة ، ولذّةٌ وإن صَغُرت الصَّنيعة ، وربما عَرَض ما يَمنَع الإنجازَ مِن تعذُّرِ الإمكان ، وتغيُّر الزمان ، فبادر المُكْنَة ، وعاجِل القُدْرة ، وانتهز الفُرْصة .

وقال الشاعر :

تُحيلُ على الفَراغ قَضـاء شُغْلِي ... وأنتَ إذا فَرَغْتَ تـكونُ مِثلى

فلا أُدْعى بخادِمِك المُرَجَّى ... ولا تُدْعَى بسَيّدِنا الأجَـلِّ

وقال آخر :

لو عَلم المـاطلُ أنّ المِطالْ ... فَقْدٌ به يذهب طَعْمُ النَّوالْ

وأنَّ أعْـــلى البِرِّ ما نالَه ... طالبُه نَقْدا عَقيبَ السؤالْ

عَجَّلَ للســائِلِ معروفَه ... مهنّأً من طُولِ قيـلٍ وقالْ

(٣٤٢)

الأصل :

لَو رَأى العَبْدُ الأَجَلَ ومَصِيرَهُ ، لأَبْغَضَ الأَمَلَ وغُرُورَهُ .

***

الشرح :

قد تقدّم من الكلام فى الأمل مافيه كفاية .

وكان يقال : واعجبا لصاحِبِ الأَمَل الطّويل ! وربما يكون كَفَنُهُ فى يد النّسّاج وهو لا يعلم .

(٣٤٣)

الأصْـلُ :

لِـكُلِّ امْرِئٍ فى مالِهِ شَرِيكَانِ : الْوَارِثُ والحوَادِثُ .

***

الشَّـرح :

أَخَذَه الرَّضيُّ فقال :

خُذْ من تُراثِك ما استطعتَ فإنما　　شُرَكاؤك الأيامُ والورّاثُ [1]

لم يقضِ حَقَّ المالِ إلا مَعشَرٌ　　نظروا الزمانَ يعيثُ فيه فعاثُوا

وقد قال عليه السلام فى موضعٍ آخَر : بَشِّرْ مالَ البخيل بحادِثٍ أو وارث .

ورأيتُ بخطّ ابن الخشّاب رحمه الله على ظهر كِتاب « لعَبدِ الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد ثمّ لحادِثٍ أو وارث » ، كأنّه يَعنى ضَنّه به ، أى لا أُخرِجه عن يَدِى اختيارا .

---

(١) ديوانه ١ : ١٧٨ .

(٣٤٤)

الأصْلُ

الدَّاعِي بلا عَمل ، كالرَّامِي بلا وَتَرٍ .

***

الشَّرْحُ :

مَنْ خَلا من العَمَل فقد أخَلَّ بالواجبـات ، ومن أخَلَّ بالواجبات فقـد فَسَق ، والله تعالى لا يَقبل دُعَاءَ الفاسق .

وشَبَّهه عليه السلام بالرَّامى بلا وَتَر ، فإن سهمَه لا يَنفذ [1] .

---

(١) ا : « فإن سهامه » .

(٣٤٥)

الأصْلُ :

اَلْعِلْمُ عِلْمَانِ : مَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ ، وَلَا يَنفَعُ المَسْمُوعُ ، إِذَا لَمْ يَكُنِ المَطْبُوعُ .

***

الشَّرْحُ :

هذه قاعدةٌ كلِّيّةٌ مذكورةٌ فى الكتب الحكمية ، إن العلومَ منها ما هو غَرِيزِىّ ، ومنها ماهو تَكْلِيفى ؛ ثمّ كلٌّ واحدٍ من القِسْمين يَختلِف بالأشدّ والأضعف ، أما الأوّل فقد يكون فى الناس من لا يحتاج فى النّظر إلى ترتيب المقدِّمات ، بل تَنْساق النتيجةُ النظريّة إليه سَوْقا من غير احتياج منه إلى التأمّل والتدبر ، وقد يكون فيهم مَنْ هُو دونَ ذلك ، وقد يكونُ مَن هُو دُون الدُّون ، وأما الثانى فقد يكون فى الناس من لا يُجدى فيه التعليم ، بل يكونُ كالصَّخرة الجامدةِ بلادةً وغباوةً ، ومنهم من يكون أقلّ تبلُّدا وجُنوحَ ذهْن من ذلك ، ومنهم مَنْ يكون الوَقْفة عندَه أقلّ ، فيكون ذا حالٍ متوسِّطة ، وبالجملة فاستِقراء أحوالِ النّاس يَشْهد بصحّة ذلك .

وقال عليه السلام : ليس يَنفَع المسموعُ ، إذا لم يكن المطبوع ، يقول : إذا لم يكن هناك أحوالُ استعدادٍ لم ينفَع الدَّرْس والتَّكرار ، وقد شاهدْنا مِثلَ هذا فى حَقّ أشخاصٍ كثيرة اشتَغَلوا بالعلم الدّهْر الأطولَ ؛ فلم ينجَعْ معهم العِلاج ، وفارَقوا الدّنيا وهم على الغَرِيزة الأولى فى الساذجيّة وعدَم الفَهْم .

(٣٤٦)

الأصل

صَوابُ الرَّأيِ بالدُّوَلِ يُقْبِلُ بإقبالِهَا ، وَيُدْبِرُ بإدْبارِهَا .

***

الشرح :

قال الصُّولىُّ :

اجتَمع بنو برْمَك عند يحيى بن خالد فى آخر دَوْلتهم وهم يومئذ عشرة ، فأداروا بينهم الرأىَ فى أمرٍ فلم يصلُحْ لهم ، فقال يحيى : إنا لله ! ذهبتْ واللهِ دولتُنا ! كنّا فى إقبالنا يُبرِم الواحدُ منّا عَشْرة آراء مُشكلة فى وقت واحد ، واليومَ نحنُ عَشرة فى أمرٍ غيرِ مُشكل ، ولا يَصِحّ لنا فيه رأى ! اللهَ نسألُ حُسنَ الخاتمة .

أرسَل المنصورُ لمّا [(١)] هاضَه أمرُ إبراهيمَ إلى عمّه عبدِ الله بن علىّ وهو فِى السّجن يَستشيرُه مايصنَع ! وكان إبراهيمُ قد ظهر بالبَصْرة ، فقال عبدالله : أنا مَحْبوس ، والمحبوس مَحْبوس الرأى ، قال له : فعَلَى ذاك ؟ قال يُفرّق الأموال كلَّها على الرجال وَيلقاه ، فإن ظَفِر فذاك ، وإلا يتوجّه إلى أبيه محمد بجُرْجَان ، ويَتركه يَقدَم على بُيوتِ أموال فارغة ، فهو خيرٌ له من أن تكون الدَّبْرَة عليه ، ويقدم عدوّه على بيوت أموال مملوءة .

قال سليمانُ بنُ عبد الملك ليزيد بن أبى مُسْلم صاحِب شُرْطة الحجّاج يوماً : لعن اللهُ رجُلا أجرّك رَسنَه ، وخرّب لك آخرته . قال : يا أميرَ المؤمنين ، رأيتَنى والأمرُ عنّى مُدبر ولو رأيتَنى والأمر علىّ مُقبل لا ستكبرْتَ منى ما استصْغرْتَ ، ولا ستعْظمت منى ما استحْقرْتَ .

---

(١) ا : « حين » .

(٣٤٧)

الأصلُ

اَلْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، والشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى .

* * *

الشرح :

قد سَبَق القولُ فى أنّ الأَجْمَل بالفقير أن يكون عفيفا ، وألّا يكون جَشِعا حَرِيصا ، ولا جادًّا فى الطّلب متهالِكا ، وأنّه ينبغى أنه إذا افتقر أن يتيه على الوَقْت وأبناء الوقْت ، فإنّ التّيه فى مِثل ذلك المَقامِ لا بأسَ به ، ليَبعُد جدًّا عن مَظِنَّة الحِرْص وَالطَّمع .

وقد سبق أيضا القولُ فى الشّكر عند النعمة ووجوبه ، وأنّه سبب لاسْتدامَتِها ، وأن الإخلالَ به داعيةٌ إلى زَوالها وانتقالِها ، وذكَرْنا فى هذا الباب أموراً مستحسنَة ، فلتراجَع ، وقال عبدُالصّمد بنُ المعذَّل فى العفَاف :

سأَقنى العَفَافَ وأرضَى الكَفافَ — وليس غِنى النفس حوْزُ الجزيلِ
ولا أتصدَّى لشُكْر الجوادِ — ولا أستَعدّ لذمّ البَخيلِ
وأعْلَمُ أن بناتِ الرّجاء — تُحلّ العزيزَ مَحَلّ الذّليلِ
وأنْ ليس مستغنِياً بالكثير — مَن ليس مستغنياً بالقليلِ

(٣٤٨)

الأصل :

يَوْمُ العَدْلِ عَلَى الظَّالِمِ ، أشدُّ مِنْ يَوْمِ الْجَوْرِ على المَظْلُومِ .

***

الشرح

شيئان مُؤلمان : أحدُهما يَنقضي سريعاً ، والآخر يَدُوم أبداً ؛ فلاَ جَرم ، كان اليومُ المذكور على الظّالم ؛ أشدّ من يَوْم الجور على المظلوم .

(٣٤٩)

الأَصْلُ :

الأَقاوِيلُ مَحْفُوظَةٌ ، والسَّرائِرُ مَبْلُوَّةٌ و ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾. والنَّاسُ مَنْقُوصُونَ مَدْخُولُونَ إِلّا مَنْ عَصَمَ اللهُ ، سائِلُهُمْ مُتَعَنِّتٌ ، وَمُجِيبُهُمْ مُتَكَلِّفٌ ، يَكادُ أَفْضَلُهُمْ رَأْياً يَرُدُّهُ عَنْ فَضْلِ رَأْيِهِ الرِّضَا والسُّخْطُ ، وَيَكادُ أَصْلَبُهُمْ عُوداً تَنْكَؤُهُ اللَّحْظَةُ ، وَتَسْتَحِيلُهُ الكَلِمَةُ الوَاحِدَةُ .

* * *

الشرح :

السرائر هاهنا : ما أُسِرَّ فى القلوب من النيّات والعقائد وغيرها ، وما يخفَى من أعمال الجوارح أيضاً . وبلاؤُها : تعرُّفُها وتصفُّحُها ، والتمييز بين ما طابَ منها وما خَبُثَ .

وقال عمر بنُ عبد العزيز للأحوص لمّا قال :

سَتَبْلَى لها فى مُضمَرِ القلبِ والحشا ... سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبلَى السّرائرُ

إنّك يومئذٍ عنها لمشغول .

ذكَرَ عليه السلام الناسَ فقال : قد عَمّهم النّقص إلّا المعْصومين . ثم قال : سائلُهم يَسألُ تَعنُّتا ، والسّؤال على هذا الوجه مَذْموم ، ومجيبُهم متكلِّف للجَواب ، وأفضلُهم رأيا يكاد رِضاهُ تارةً وسُخْطه أخرى يرُدُّهُ عن فضل رأيه ، أى يتبعون الهوى

ويكاد أصلبُهم عودا ، أى أشدّهم احتمالا .

تنكؤه اللحظة ، نكأتُ القرْحَة إذا صَدَمْتَها بشىء فتقشرها .

قال : « وتَستحيله الكلمةُ الواحدة » ، أى تحيله وتغيّره عن مُقتضى طبعِه ؛ يَصِفهم بسرعة التقلّب والتلون ، وأنّهم مُطِيعون دواعِيَ الشّهوةِ والغَضَب . واستَفعَل بمعنى « فَعَل » قد جاء كثيرا استَغْلَظ العسل ، أى غَلُظ .

(٣٥٠)

الأصلُ :

قالَ : مَعَاشِرَ النَّاسِ ، اتَّقُوا اللهَ ؛ فَكَمْ مِنْ مُؤَمِّلٍ مالا يَبْلُغُهُ ، وَبَانٍ مالا يَسْكُنُهُ ، وجامِعٍ ماسَوْفَ يَتْرُكُهُ ، وَلَعَلَّهُ مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ ؛ أصابَهُ حَرَاماً ، وَاحْتَمَلَ بِهِ آثاماً ، فَبَاءَ بِوِزْرِهِ ، وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ ، آسِفاً لاهِفاً ، قَدْ ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ .

***

الشرحُ

قد تقدّم شرحُ هذه المعانى والكلامُ عليها ، أمّا الآمال التى لا تُبلَغ ، فأكثر من أن تُحصَى ، بل لا نهايةَ لها .

وما أحسنَ قولَ القائل :

واحسرتا ماتَ حَظّى من وصالِكُمُ　　وللحظُوظِ كما للنّاس آجالُ
إنْ متّ شوْقا ولم أبلغْ مَـدَى أملِي　　كم تحتَ هذى القبورِ الخرْسِ آمالُ !

وأمّا بناء مالا يُسْكَن ، فنحو ذلك .

وقال الشاعر :

ألم ترحَوْشَباً بالأمس يَبْنِى　　بناءً نفعُه لبنى نُفَيْـلَهْ
يؤمّل أن يُعمَّر عمر نوحٍ　　وأمرُ الله يطرُق كلّ ليـلَهْ

وأمّا جامعُ ماسوفَ يتركه ، فأكثرُ الناس ، قال الشاعر :

وذِى إبلٍ يَسعَى ويَحسبهـا له　　أخو تعَبٍ فى رَعْيِها ودُءوبِ
غَدَتْ وغدا رَبٌّ سِواه يسُوقُها　　وبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قليبِ

(٣٥١)

الأَصْلُ :

مِنَ العِصْمة تَعَذُّرُ المعَاصِى .

* * *

الشرح :

قد وردتْ هذه الكلمة على صِيغ مختلفة . من العِصْمة ألّا تقدر . وأيضا ، من العِصْمة ألّا تجد .

وقد رُوِيتْ مرفوعةً أيضاً .

وليس المرادُ بالعِصْمة هاهنا العِصْمةَ الّتى ذكرها المتكلّمون ، لأنّ العصمة عند المتكلمين من شرطها القُدْرة ، وحقيقتها راجعة إلى لُطْفٍ يمنَع القادِرَ على المَعْصية من المعصية ، وإنّما المراد أنّ غيرَ القادِرِ فى اندفاع العقوبة عنه كالقادِرِ الذى لا يفعَل .

(٣٥٢)

الأَصْلُ :

ماءُ وجْهِكَ جامِدٌ يُقْطِرُهُ السُّؤالُ ، فانْظُرْ عِنْدَ مَنْ تُقْطِرُهُ .

***

الشرح

هذا حسَن ، وقد أخَذَه شاعرٌ فقال :

إذا أظمأَتكَ أكُفُّ اللِّئامِ كَفَتْكَ القَناعةُ شِبْعا ورِيّا
فكنْ رَجُلا رِجْلُه فى الثَّرى وهامَةُ هِمَّته فى الثُّرَيّا
فإنَّ إراقةَ ماءِ الحيا ةِ دونَ إراقةِ ماءِ المحيّا

وقال آخَرُ :

رددتَ لى ماءَ وجهى فى صفيحَتِه ردَّ الصِّقال بهاءَ الصارم الجذِم
وما أبالِى وخيرُ القول أصدَقُه حقَنت لى ماءَ وَجْهى أو حَقَنْتَ دَمى

وقال مصعب بنُ الزّبير : إنى لأستحيي من رجل وجّه إلىَّ رغبته ، فباتَ ليلته يتَمَلْمَل ويتقَلْقَل على فِراشه ، يَنتظِر الصّبح ، قد جَعلنى أهْلًا لأن يقطر ماءَ وجهه لدىّ أن أردّه خائبا .

وقال آخَر :

ما ماءُ كفّيْك إن أرسلت مُزْنته من ماءِ وَجْهى إذا استقْطرْته عِوضُ

(٣٥٣)

الأصل

الثَّناء بأَكْثَرَ مِنَ الاسْتِحْقاقِ مَلَقٌ ، والتَّقْصِيرُ عَنِ الإسْتِحْقاقِ عِيٌّ أَوْ حَسَدٌ .

***

الشرح

كانوا يَكرَهون أن يُثنىَ الشاعرُ فى شِعره على الممدوح الثَّناء المُفرط ؛ ويقولون : خيرُ المَدْح ماقارَبَ فيه الشاعر واقتَصَد ، وهذا هو المذهَب الصّحيح ، وإن كان قوم يقولون : إن خيرَ الشِّعر المنظومِ فى المدْح ما كان أشدّ مُغالاة وأكثر تبجِيلاً وتعظيما وَوصْفا ونَعْتا .

وينبغى أن يكون قوله عليه السلام محمولًا على الثّناء فى وجهِ الإنسان ؛لأنّههوالموصوف بالمَلَق إذا أفْرطَ ، فأمّا من يُثنى بظَهْر الغيْب فلا يُوصَف ثناؤه بالمَلَق ؛ سواءٌ كان مقتصِدا أو مسرِفا .

وقوله عليه السلام : « والتقصير عن الاستحقاق عيٌّ أو حسَد » لا مزيد عليه فى الحُسنِ ؛ لأنه إذا قصّر به عن استِحقاقه كان المانع إمّا من جانب المُثنى فقط من غير تعلّق له بالمثنى عليه ، أو مع تعلُّق به ، فالأوّل هو العِيّ والحصر ، والثانى هو الحسد والمنافسة .

(٣٥٤)

الأصْلُ :

أَشَدُّ الذُّنُوب ما اسْتَهانَ بِهِ صاحِبُها .

***

الشَّرْحُ :

قد ذكرْنا هذا فيما تقدّم وذكرنا العِلّة فيه ، وهى أنّ فاعلَ ذلك الذَّنْب قد جَمَع بين فعْل الذنب وفِعْل ذَنْب آخَرَ ، وهو الاستهانة بما لا يُستهان به ، لأنّ المَعاصِي لاهين فيها ، والصغير منها كبير ، والحقيرُ منها عظيم ، وذلك لجلالةِ شأن المَعْصىِّ سبحانَه .

فأمّا من يذنب ويَستعظم ما أتاه ، فحاله أخفّ من حالِ الأوّل ، لأنه يكاد يكون نادما[١] .

---

(١) بعدها فى ا : « على ما فعل » .

(٣٥٥)

الأصْلُ :

مَنْ نظَرَ فِي عَيْبِ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِرِزْقِ اللهِ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَافَاتَهُ ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ ، وَمَنْ كَابَدَ الْأُمُورَ عَطِبَ ، وَمَنْ اقْتَحَمَ اللُّجَجَ غَرِقَ ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ .

وَمَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطَؤُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ خَطَؤُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَرَعُهُ ، وَمَنْ قَلَّ وَرَعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ ، ومن ماتَ قلبه دَخَلَ النَّارَ .

وَمَنْ نَظَرَ فِي عُيُوبِ غَيْرِهِ فَأَنْكَرَهَا ثُمَّ رَضِيَهَا لِنَفْسِهِ فَذَلِكَ الْأَحْمَقُ بِعَيْنِهِ .

وَالْقَنَاعَةُ مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ رَضِيَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ .

وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ .

***

الشَّرْحُ :

كلُّ هذه الفصول قد تقدم الكلامُ فيها وهى عشرة :

أولها : من نَظَر فى عَيْب نفسِه اشتَغل عن عيبِ غيرِه ؛ كان يقال : أصلِح نفسَك أوّلا ، ثمّ أصلِح غيرَك .

وثانيها : من رضيَ برزق الله لم يحزَن على ما فاته ؛ كان يقال : الحُزْن على المنافع الدنيويّة سُمٌّ تِرْياقُه الرِّضا بالقضاء .

وثالثها : من سَلَّ سيفَ البَغْيِ قُتِل به ؛ كان يقال : الباغى مَصْروع وإن كَثُرَ جنودُه .

ورابعُها : مَن كابَدَ الأمورَ عطِب ، ومن اقتحَمَ اللُّجَجَ غَرِق ؛ مِثل هـذا قولُ القائل :

مَن حاربَ الأيّامَ أصبحَ رُمْحُه ... قِصَـداً وأصبحَ سيفُه مَفْلولَا

وخامسُها : من دخل مَداخِلَ السّوء اتُّهِم ؛ هذا مِثل قولِهم : من عرّض نفسَه للشُّبُهات فلا يلومَنّ مَن أساءَ به الظَّنّ .

وسادسُها : مَن كَثُرَ كلامُه . . . إلى قوله : دخَل النار ؛ قد تقدّم القولُ فى المَنطِق الزائد ومافيه من المحذور ؛ وكان يقال : قلّما سَلِم مِكْثار ، أو أَمِن مِنْ عِثار .

وسابعُها : مَن نظَر فى عُيوب غيرِه فأنكَرَها ثمّ رضيَها لنفسِه فذاك هو الأحمقُ بعَيْنه ؛ وكان يقال : أجهلُ الناسِ من يَرضَى لنفسِه بما يَسخَطُه مِن غيرِه .

وثامنُها : القَناعة مالٌ لا يَنفَد ؛ قد سَبَق القولُ فى هذا ، وسيأتى أيضا .

وتاسعُهـا : من ذَكَر الموتَ رضىَ من الدّنيا باليسير ؛ كان يقال : إذا أحببتَ ألّا تحسُد أحَـدا فأكْثِر ذكرَ الموت ، واعلَمْ أنّك ومَن تحسُده عن قليل مِن عَدِيد الهَلْكَى .

وعاشِرُها : من عَلِم أنّ كلامَه مِن عمَلِه قلّ كلامُه إلّا فيما يَعنيـه ؛ لا رَيْبَ أنّ الـكلامَ عَملٌ من الأعمال ، وفِعلٌ من الأفعال ، فكما يُستهجَن من الإنسان ألّا يزال يُحرِّك يدَه وإن كان عابثا ، كذلك يُستهجَن ألّا يزال يُحرِّك لسانَه فيما هو عَبَث ، أو يَجرِى مَجرَى العبَث .

وقال الشاعر:

يَخوضُ أُناسٌ فى الـكلام ليُوجِزوا ... ولَلصّمتُ فى بعض الأحايينِ أوْجَزُ

إذا كنتَ عنأن تُحسِنَ الصّمتَ عاجزا ... فأنت عن الإبلاغِ فى القولِ أعجَزُ

(٣٥٦)

الأصل :

لِلظَّالِمِ مِنَ الرِّجَالِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ :
يَظْلِمُ مَنْ فَوْقَهُ بِالْمَعْصِيَةِ ، وَمَنْ دُونَهُ بِالْغَلَبَةِ ، وَيُظَاهِرُ الْقَوْمَ الظَّلَمَةَ .

***

الشرح

يُمكِن أن يفسَّر هذا الكلامُ على وجهين :

أحدُهما أنّ كلّ من وُجِدَت فيه إحدى هذه الثلاث فهوَ ظالم ، إما أن يكون قد وجبتْ عليه طاعةُ مَن فوقَه فعصاه ، فهو بعصيانه ظالم له ، لأنّه قد وضعه فى غير موضعه ، والظُّلم فى أصل اللغة ؛ هو هذا المعنى ، ولذلك سمّوا اللَّبَن يُشرَب قبل أن يبلُغ الرَّوْب مظلوماً ، لأنّ الشّرب منه كان فى غيرِ موضعِه إذا لم يرُب ولم يَخْرج زُبْدُه ، فكذلك من عَصَى مَن فوقَه فقد زَحزَحه عن مَقامه إذ لم يُطِعه . وإمّا أن يكون قد قهر مَن دُونَه وغلبَه . وإما أن يكون قد ظاهَر الظَّلَمة .

والوجه الثانى أنّ كلّ ظالم فلابدّ من اجتماع هذه العلامات الثلاثِ فيه ؛ وهذا هو الأظهر .

(٣٥٧)

الأصل :

عِنْدَ تنَاهِي الشِّدَّةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ ، وَعِنْدَ تضَايُقِ حَلَقِ الْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ .

***

الشرح :

كان يقال : إذا اشتدّ المَضِيق ، اتّسعَتْ الطريق ، وكان يقال : توقَّعوا الفرَج عند أرتتاج المَخرَج ، وقال الشاعر :

إذا بَلَغ الحوادثُ مُنتهاها ... فَرَجٌ بُعَيْدَها الفرجَ المُطِلّا

فكَمْ كربٍ تولّى إذ توالَى ... وكم خَطْب تجلّى حين جلّى

وفى الأثر : تَضايَقِى تَنْفرجِى ، سيَجعل الله بعدَ العُسر يُسْرا .

والفَرْجة بفتح الفاء : التفصِّى من الهمّ ، قال الشاعر :

ربمــا تجزَع النفوسُ من الأمْـ ... ـرِ له فَرْجَــةٌ كحل العِقال(١)

فأمّاالفُرْجة بالضم ،ففُرْجة الحائط وماأشبهَه .

---

(١) لأمية ابن أبى الصلت ، وقبله :

لا تضيقَنّ فى الأمورِ فقد يُكــشَفُ غماؤها بغيرِ احتيالِ

(٣٥٨)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لِبَعْضِ أصْحابه : لاتَجْعَلَنَّ أكْثَرَ شُغْلِكَ بأهْلِكَ ووَلَدِكَ ، فإنْ يَكُنْ أهْلُكَ ووَلَدُكَ أوْلياءَ اللهِ فإنَّ اللهَ لايُضَيِّعُ أوْلياءَهُ ، وإنْ يَكُونوا أعْداءَ اللهِ فما هَمُّكَ وشُغْلُكَ بأعْداءِ اللهِ !

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ نحوَ هذا المعنى ، وهو أمر بالتّفويض والتوكُّل على الله تعالى فيمن يَخلُفه الإنسانُ مِن وَلده وأهله ، فإن الله تعالى أعلم بالمصلحة ، وأرأف بالإنسان من أبيه وأمه ؛ ثم إن كان الوَلَد فى عِلم الله تعالى وليًّا من أولياء الله سبحانه ، فإنّ الله تعالى لايضيِّعه ، قال سبحانه : ﴿ ومن يتوكّل على الله فهو حَسْبُه ﴾[1] .

وكلُّ ولىّ لله فهو متوكِّل عليه لامحالَة ، وإن كان عدوًّا لله لم يَجُز الاهتمامُ له والاعتناء بأمره ، لأنّ أعداءَ الله تجب مُقاطعتهم ، ويَحرُم تولّيهم ، فعلى كلّ حال لاينبغى للإنسان أن يَحفِل بأهله وولدِه بعد موتِه .

واعلم أن هذا كلامُ العارفين الصّدّيقين ، لا كلامُ أهل هذه الطبقات التى نَعرِفها ، فإن هذه الطبقات تقصُر أقدامُهم عن الوصول إلى هذا المقام .

ويعجبنى قولُ الشاعر :

أيا جامعَ المالِ وَفَرْتَهُ ... لغيرك إذْ لم تكن خالدا
فإن قلتَ : أجمعُه للبَنين ... فقد يَسبِق الوَلدُ الوالدا
وإن قلت أخشى صروف الزمان ... فكن مِن تصاريفه واحدا

(١) سورة الطلاق ٣ .

(٣٥٩)

الأصلُ :

أكبرُ العَيْبِ أنْ تَعيبَ ما فِيكَ مِثْلُهُ .

***

الشَّرحُ :

قد تقدَّم هذا المعنى مِراراً .

وقال الشاعر :

إذا أنت عِبْتَ الأمرَ ثم أتيتَه فأنت ومَن تُزرِي عليه سَواءُ

(٣٦٠)

الأصلُ :

وهَنّأ بحَضْرَتِهِ رَجُلٌ رَجلاً آخر بِغُلامٍ وُلِدَ لَهُ فقَالَ لَهُ : لِيَهْنِئْكَ الْفارِسُ !

فقالَ عليه السلامُ :

لا تَقُلْ ذَلِكَ ، ولَكِنْ قل : شَكَرْتَ الْوَاهِبَ ، وبُورِكَ لَكَ فى الْمَوْهُوبِ ، وبَلَغَ أشُدَّهُ ، ورُزِقْتَ بِرَّهُ .

***

الشرح :

هذه كلمة كانت من شِعار الجاهلية ، فنُهِىَ عنها كما نُهِىَ عن تحيّة الجاهلية : « أبَيْتَ اللّعن » ، وجُعِل عِوَضَها « سلامٌ عليكم » .

وقال رجلٌ للحَسَن البَصْرى وقد بَشّره بغلام : ليَهْنِئك الفارسُ ! فقال : بل الراجل ، ثم قال : لا مرحبا بمن إنْ عاش كَدَّنى ، وإن مات هَدَّنى ، وإن كنتُ مُقِلّا أنصبَنى ، وإن كنتُ غَنيًا أذهَلنى ، ثم لا أرضَى بسَعْيِي له سَعْيا ، ولا بكَدِّى عليه فى الحياةِ كَدّا ، حتّى أشفق عليه بعد موتى من الفاقة ، وأنا فى حالٍ لا يصل إلىّ من فرحِه سرورٌ ، ولا من همّه حزن .

(٣٦١)

الأصْلُ

وَبنى رَجُلٌ مِن عُمَّالِهِ بناء فَخْماً فقالَ عليهِ السلامُ :

أطْلَعَتِ الْوَرِقُ رُءوسها ؛ إنَّ الْبِناءَ يَصِفُ لكَ الْغِنى .

***

الشَّرْحُ :

قد رُوِيَتْ هذه الكلمةُ عن عمر - رضى الله عنه - ذَكر ذلك ابن قُتَيْبة فى "عيون الأخبار".

ورُوِىَ عنه أيضا : لى على كلّ خائنٍ أمينان : الماء والطين .

قال يحيى بنُ خالد لابنه جعفرٍ حين اختَطَّ داره ببغداد ليبنيها : هى قميصُك ، فإن شئت فوسّعه ، وإن شئت فضيِّقه .

ورآه وهو يجصِّص حيطان دارِه المبنيَّة بالآجرّ ، فقال له : إنك تغطِّى الذهبَ بالفضة ، فقال جعفر : ليس فى كلّ مكان يكون الذهبُ خيراً من الفضّة ، ولكن هل ترَى عيبا؟ قال : نعم ، مخالَطَتُها دُور السُّوقة .

وقيل ليزيد بن المهلَّب .

ألا يَبْنى الأمير داراً ، فقال : منزلى دارُ الإمارة أو الحَبْس .

وكان يقال ، فى الدار : لتكُن أوّل ما يُبْتاع وآخِرَ ماتُباع .

ومرَّ رجلٌ من الخوارج بآخر من أصحابهم وهو يبنى داراً فقال : من ذا الذى يقيم كَفِيلا .

وقالوا : كلُّ مايخرُج بخروجِك، ويَرجع برُجوعك، كالدّار والنّخل ونحوِهما فهو كَفِيل.

(٣٦٢)

الأصْلُ :

وقِيلَ لهُ عليهِ السلامُ : لَوْ سُدَّ على رَجُلٍ بابُ بَيْتٍ وتُرِكَ فِيهِ ، مِنْ أيْنَ كانَ يأتِيه رِزْقُهُ ؟ فقال عليهِ السلامُ :

منْ حَيْثُ يأتِيهِ أجلُهُ .

***

الشَّرْحُ :

ليس يعنى عليه السلام أنّ كلّ من يُسَدُّ عليه بابُ بيت ؛ فإنه لا بدّ أن يرزقه الله تعالى ، لأنّ العيان والمُشاهَدة تقتضى خلاف ذلك ؛ وما رأينا من سُدّ عليه بابُ بيت مدّةً طويلة فعاش ، ولا ريب أنّ مَنْ شَقّ أسْطوانة وجُعِل فيها حيًّا ثم بنيت الأسْطُوانة عليه فإنه يموت مختنقا ، ولا يأتيه رزقُه ولا حياته ؛ ولأنّ للحكماء أن يقولوا فى الفرْق بين الموضِعين : إنّ أجَله إنما يأتيه لأنّ الأجل عدم الحياة ، والحياةُ تَعدَم لعَدَم مايوجبها ، والذى يُوجب استمرارها الغِذاء ، فلما انقطع الغِذاء حضر الأجل ، فهذا هو الوجه الذى يأتيه منه أجَلُه ، ولا سبيل إلى ذكر مثله فى حُضور الرِّزق لمن يُسَدّ عليه الباب .

فإذًا معنى كلامه عليه السلام أنّ الله تعالى إذا علم فيمن يجعل فى دارٍ ويُسَدُّ عليه بابُها أنّ فى بقاء حياتِه لُطفًا لبَعْض المكلّفين فإنه يجب على الله تعالى أن يُديم حياته ، كما يشاء سبحانه ؛ إما بغذاء يقيم به مادة حياته ، أو

أو يديم حياتَه بغير سبب ، وهذا هو الوجْه الذى منه يأتيه أجَـلُه أيضا ، لأنّ إماتةَ الله المكلَّف أمرٌ تابعٌ للمصلحة ، لأنه لابدّ من انقطاع التـكليف على كلّ حال للوجه الذى يذكُره أصحابنا فى كُتُبهم ، فإذا كان الموتُ تابعاً للمصلحة ، وكان الإحياء تابعاً للمصلحة ، فقد أتى الإنسانَ رِزقه ـ يعنى حياته ـ من حيثُ يأتيه أجَـله .
وانتظَمَ الـكلام .

(٣٦٣)

الأصل :

وَعَزّى قَوْماً عَنْ مَيّتٍ ماتَ لَهُمْ فَقالَ عَلَيْهِ السلامُ :

إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَيْسَ بِكُمْ بَدَأَ ، وَلَا إِلَيْكُمُ انتهى ، وَقَدْ كَانَ صَاحِبُكُمْ هَذَا يُسَافِرُ ؟ فَقَالُوا : نَعَم ؛ قَالَ : فَعُدُّوهُ فِي بَعْضِ سَفَرَاتِهِ ، فَإِنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ وَإِلَّا قَدِمْتُمْ عَلَيْهِ .

***

الشرح

قد ألمّ إبراهيمُ بنُ المهدىّ ببعض هذا فى شعره الذى رثى به ولده فقال :

يَئُوب إلى أوطانِهِ كلُّ غائبٍ ... وأحمدُ فى الغُيّاب ليسَ يَئُوبُ [1]
تَبدَّل داراً غيرَ دارِى وجيرةً ... سوايَ وأحداثُ الزمانِ تنوبُ
أقامَ بها مستوطِناً غيرَ أنّه ... على طُولِ أيّام الْمُقامِ غريبُ [2]
وإنّى وإن قُدِّمْتَ قَبْلِي لعالِمٌ ... بأنّى وإنْ أبطأتُ عنكَ قريبُ
وإنّ صَباحاً نَلتقِى فى مَسائه ... صباحٌ إلى قلبى الغَداةَ حَبيبُ

---

(١) من كلمة له فى : الكامل ٤ : ٢٣ — ٢٥ .

(٢) بعده :

كأنْ لم يكُنْ كالغصنِ فى مَيْعةِ الضُّحَى ... سقاهُ النَّدَى فاهْتزَّ وهوَ رَطيبُ

(٣٦٤)

الأصْلُ :

أَيُّهَا النَّاسُ ، لِيَرَاكُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ ، وَجِلِينَ ، كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ . إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً ، فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً ، وَمَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ ، فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اخْتِبَاراً ، فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم القول فى استدراج المترَف الغنىّ ، واختبار الفقير الشّقىّ ، وأنه يجب على الإنسان وإن كان مشمولا بالنّعمة أن يكون وَجِلا[1] ، كما يجب عليه إذا كان فقيرا أن يكون شكورا صبورا .

(١) وجلا : خائفاً .

(٣٦٥)

الأَصْلُ

يا أَسْرَى الرَّغْبَةِ ، اقْصُرُوا ، فإن المُعَرِّجَ على الدُّنْيا لا يَرُوعُهُ مِنْها إلّا صَرِيفُ أَنْيابِ الحِدْثانِ .

أَيُّهَا النَّاسُ ؛ تَوَلَّوْا عَنْ أنفسكُمْ تأْدِيبَها ، واعْدِلوا بِها عَنْ ضَرَايَةِ عَادَاتِها .

***

الشَّرح :

ضرَى يضرِى ضِرايةً مِثل رمى يرمِى رِماية ، أى جرَى وسالَ ، ذكره ابن الأعرابىّ ، وعليه ينبغى أن يُحمَل كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ أى اعدِلُوا بها عن عاداتها الجارية ، مِن باب إضافة الصّفة إلى الموصوف ، وهذا خيرٌ مِن تفسير الرّاوَنْدىّ ؛ وقولِه : إنّه من ضَرِىَ الكلبُ بالصّيد ؛ لأنّ المصدر من ذلك الضَّرَاوة بالواو وفَتْح الضاد ، ولم يأت فيه ضَرَاية .

وقوله : « ياأسرَى الرغبة » كلمةٌ فصيحةٌ .

وكذلك قوله : « لا يرُوعه منها إلّا صَرِيفُ أنْياب الحِدْثان » ، وذلك لأنّ الفَهْد إذا وَثَب والذئبَ إذا حَمَل يَصرِف نابه ، ويقولون لكلّ خَطْب وداهية : جاءت تصرِفُ نابُها . والصَّرِيف : صوتُ الأسنان إمّا عند رِعْدةٍ أو عند شِدَّة الغَضب والحَنَق ، والحِرص على الانْتقام ، أو نحو ذلك .

وقد تقدم الكلام فى الدنيا والرغبةِ فيها ، وغَدْرِها وحوادِثِها ، ووجوب العُدُول عنها ، وكسرعادية عاداتِ السّوء المكتسبة فيها .

(٣٦٦)

الأصل :

لا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أحَدٍ سُوءاً وأنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مُحْتَمَلاً[1] .

***

الشرح :

هذه الكلمةُ يَرْوِيها كثيرٌ مِن الناس لِعُمَر بن الخطَّاب ، ويَروِيها بعضُهم لأمير المؤمنين عليه السلام . وكان ثُمامةُ يحدِّث بسؤدُدِ يحيى بن خالد وابنِه جعفر . ويقول : إنّ الرشيدَ نكَب علىَّ بنَ عيسى بن ماهان[2] وألزمه مائة ألف دينار أدَّى منها خمسين ألفا ، ويلحّ بالباقى ، فأقسم الرشيدُ إنْ لم يؤدِّ المالَ فى بقيَّة هذا اليوم وإلّا قتله . وكان علىّ بنُ عيسى عدُوًّا للبرامكة مكاشفاً ، فلمّا علِم أنه مقتول سأل أن يمكّن من السعى إلى الناس يَستنجِدهم ، ففُسِح له فى ذلك ، فمَضى ومعه وكيلُ الرّشيد وأعوانُه إلى باب يحيى وجعفر ، فأشْبلا عليه[3] وصحّحا من صُلْب أموالهما خمسين ألف دينار فى باقى نهارِ ذلك اليوم بديوان الرّشيد باسم علىّ بن عيسى ، واستخلصاه ؛ فنقل بعض المتنصّحين لهما إليهما أنّ علىّ بن عيسى قال فى آخِرِ نهار ذلك اليوم متمثّلا :

فما بُقيَا علىَّ تركْتُمانِى ولكنْ خِفْتُمَا صَرَدَ النِّبالِ[4]

---

(١) فى د « محلا » ؛ وهو يستقيم أيضاً .

(٢) ب : « هامان » تصحيف .

(٣) أشبلا : عطفا .

(٤) اللسان (صرد) ، ونسبه إلى المنقرى يخاطب جريراً والفرزدق . وصرد السهم : نفذ حده

فقال يحيى للناقل إليه ذلك : ياهذا إنّ المرعوب ليسبق لسانهُ إلى مالم يَخطر بقَلْبه .

وقال جعفر : ومن أين لنا أنه تمثّل بذلك وعَنَانا ، ولعلّه أراد أمراً آخر فكان ثمامة يقول : ماقى الأرض أسوَدُ من رَجلٍ يتأوّل كلاَم عـدوِّه فيه ويَحمِله على أحْسنِ مَحَامِله .

وقال الشاعر :

إذا ما أتتْ من صاحِبٍ لك زَلّةٌ　　فكنْ أنت مُحْتالا لزَلّته عُذْرَا[1]

(١) لسالم بن وابصة ، من كلمة له فى أمالى القالى ٢ : ٢٢٤ .

(٣٦٧)

الأصل

إذا كانت لك إلى الله سبحانه حاجة فابدأ بمسألة الصلاة على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم سل حاجتك ؛ فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين ، فيقضي إحداهما ويمنع الأخرى .

***

الشرح

هذا الكلام على حسب الظاهر الذى يتعارفه الناس بينهم ، وهو عليه السلام يسلك هذا المسلك كثيرا ، ويخاطب الناس على قدر عقولهم ، وأما باطن الأمر فإن الله تعالى لا يصلي على النبي صلى الله عليه وآله لأجل دعائنا إياه أن يصلي عليه ، لأن معنى قولنا : اللهم صل على محمد ، أى أكرمه ، وارفع درجته ، والله سبحانه قد قضى له بالإكرام التام ورفعة الدرجة من دون دعائنا ، وإنما تعبدنا نحن بأن نصلي عليه لأن لنا ثوابا فى ذلك ، لا لأن إكرام الله تعالى له أمر يستعقبه ويستتبعه دعاؤنا .

وأيضا فأى غضاضة على الكريم إذا سئل حاجتين فقضى إحداهما دون الأخرى ، إن كان عليه فى ذلك غضاضة فعليه فى رد الحاجة الواحدة غضاضة أيضا .

(٣٦٨)

الأصْلُ

مَنْ ضَنَّ بِعِرْضِهِ فَلْيَدَعِ الْمِرَاءَ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم من القولِ فى المِراء ما فيه كفاية ، وحد المِراءِ الجِدالُ المتّصِل لا يُقصَد به الحقّ .

وقيل لمَيْمون بن مِهْران : مالكَ لا تُفارِقُ أخاً لكَ عن قِلًى ؟ قال : لأنى لا أُشاريه ولا أُمارِيه .

وكان يقال : ما ضَلَّ قومٌ بعدَ إذْ هداهم اللهُ [تعالى] (١) إلّا بالمراء والإصرارِ فى الجدال على نُصْرة الباطل .

وقال سُفْيان الثَّوْرى : إذا رأيتم الرّجل لَجوجا مُمارِياً معجبا بنَفْسه فقد تمّت خسارَتُه .

---

(١) من د .

(٣٦٩)

الأصل :

مِنَ الْخُرْقِ الْمُعَاجَلَةُ قَبْلَ الْإِمْكَانِ ، وَالْأَنَاةُ بَعْدَ الْفُرْصَةِ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى هذين المَعْنَيَيْن .

ومن كلامِ ابنِ المعتزّ : إهمالُ الفُرْصة حتّى تفوتَ عجز ، والعَجَلَة قبل التمكُّن خرْق .

وقد جَعَلَ أميرُ المؤمنين عليه السلام كِلْتا الحالتين خُرْقا ؛ وهو صَحِيح،لأنّ الخُرْق الُحمقُ ، وقلّة العقل ، وكلتا الحالتين دليلٌ على الحُمق والنَّقْص .

(٣٧٠)

الأصل :

لَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ ، فَفِي ٱلَّذِي قَدْ كَانَ لَكَ شُغْلٌ .

***

الشرح :

من هذا الباب قولُ أبى الطَّيِّب فى سَيْف الدولة [1] :

لَيسَ المدائحُ تَستوفِى مَناقِبَهُ ... فَمَنْ كُلَيبٌ وأهلُ الأعْصُرِ الأُوَلِ! [2]

خُذْ ماتَراه ودَعْ شيئاً سمعتَ به ... فى طلعةِ البدرِ مايُغنيكَ عن زُحَلِ [3]

(١) ديوانه ٣ : ٨١ .

(٢) كليب هو ابن ربيعة رئيس بنى تغلب وسيدهم فى الجاهلية .

(٣) بعده :

وقدْ وَجدْتَ مكانَ القولِ ذا سعةٍ ... فإنْ وجدْتَ لساناً قائلاً فقُلِ

(٣٧١)

الأصْلُ

اُلفِكْرُ مِرْآةٌ صافِيَةٌ ، وَالاعْتِبارُ مُنْذِرٌ ناصِحٌ ، وَكَفَى أدَباً لِنَفْسِكَ تَجَنُّبُكَ ما كَرِهْتَهُ لِغَيْرِكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى نحو هـذا . وفى المَثَل : كَفَى بالاعتبار منذراً ، وكفى بالشَّيب زاجرا ، وكفى بالموتِ واعِظا ، وقد سَبَق القولُ فى وُجوب تجنُّب الإنسانِ مايكرَهه من غيره .

وقال بعضُ الحكماء : إذا أحببتَ أخلاقَ امرئٍ فكُنْه ، وإن أبغَضْتَها فلا تَكُنْه . أخَذَه شاعرُهم فقال :

إذا أعجبتْكَ خِصالُ امرئٍ فكُنْه يكنْ منكَ مايُعْجِبُكْ
فليسَ على المجدِ والمَكْرُماتِ إذا جئتَها حاجبٌ يَحْجُبُكْ

(٣٧٢)

الأصلُ :

ٱلْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ ، فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ ، وَٱلْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ ، فَإِنْ أَجَابَ وَإِلَّا ٱرْتَحَلَ عَنْهُ .

***

الشرح :

لاخيرَ فى عِلمٍ بلا عَمَل ، والعِلْم بغير العَمَل حُجَّةٌ على صاحبه ، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يُشعِر بأنّه لاعالِم إلّا وهو عامِل ، ومُرادُه بالعلم هاهنا العِرْفان ؛ ولا رَيْبَ أن العارف لابدّ أن يكون عاملا .

ثمّ استأنف فقال : العِلمُ يهتف بالعَمَل أى يُنادِيه ، وهذه اللّفظة استعارة .

قال : فإن أجابَه وإلّا ارتحل ، أى إن كان الإنسانُ عالما بالأمور الدّينيّة ثم لم يعمَل بها سَلَبه الله تعالى عِلْمَه ، ولم يَمُتْ إلا وهو معدود فى زُمْرة الجاهلين ، ويُمكِن أن يفسَّر على أنه أراد بقوله : ارتحَل ارتحلَتْ ثَمرتُه ونتيجتُه ، وهى الثّواب ، فإنّ الله تعالى لايُثِيب المكلَّف على عِلمِه بالشّرائع إذا لم يعمَل بها ، لأنّ إخلالَه بالعَمَل يُحبِط مايستحِقّه مِن ثواب العِلم لو قدّرنا أنه استَحَقّ على العِلم ثوابا ، وأتى به على الشّرائط الّتى معها يستحقّ الثواب .

(٣٧٣)

الأصلُ :

أيُّها النَّاسُ متاعُ الدُّنيا حُطامٌ مُوبِئٌ ، فتَجَنَّبُوا مَرْعاةً قُلْعَتُها أحْظَى مِن طُمَأْنينَتِها ، وبُلْغَتُها أزْكَى مِن ثَرْوَتِها ، حُكِمَ على مُكْثِرِيها بالفاقةِ ، وأُعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْها بالرَّاحةِ ، من راقَهُ زِبْرِجُها أعقبَتْ ناظِرَيْهِ كَمَهًا ، ومَن اسْتَشْعرَ الشَّغَفَ بها مَلأَتْ ضَميرَهُ أشْجانًا ، لهُنَّ رَقَصٌ على سُوَيْداءِ قَلْبِهِ ، هَمٌّ يَشْغَلُهُ ، وغَمٌّ يَحْزُنُهُ ، حتَّى يُؤْخَذَ بِكَظَمِهِ فيُلقَى بالفَضاءِ ، مُنْقَطِعًا أبْهَراهُ ، هَيِّنًا علَى اللهِ فَناؤُهُ ، وعلَى الإخْوانِ إلْقاؤُهُ .

وإنما يَنظُرُ المُؤْمِنُ إلَى الدُّنْيا بِعَيْنِ الاعتبارِ ، ويَقْتاتُ مِنْها بِبَطْنِ الاضْطِرارِ ، ويَسْمَعُ فِيها بأُذُنِ المَقْتِ والإبْغاضِ ، إنْ قِيلَ أثْرَى قِيلَ أكْدَى ، وإنْ فُرِحَ له بالبَقاءِ حُزِنَ لهُ بالفَناءِ ، هذَا ولَمْ يَأْتِهِمْ يَوْمٌ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .

***

الشَّرحُ :

مَتاعُ الدنيا : أموالها وقُنْيانُها .

والحُطام : ماتكسَّر من الحشيش واليَبَس ، وشبَّه متاع الدنيا بذلك لحقارته .

ومُوبِئٌ : مُحدث للوباء ، وهو المَرَض العامّ .

ومَرْعاة : بقعة تُرعى ، كقولك مَأسَدة فيها الأسد ، ومُحياة ، فيها الحيّات .

وقُلْعتها بسكون اللام . خيرٌ من طمأنينتها : أى كون الإنسان فيها منزعجًا متهيئًا

للرّحيل عنها خيرٌ له من أن يكون ساكنا إليها ، مطمئنًا بالمُقام فيها .

والبُلْغة : ما يُتبلَّغ به . والثّروة : اليسار والغِنَى ، وإنما حُكِم على مُكثِريها بالفاقة والفقر لأنّهم لا ينتهون إلى حَدٍّ من الثروة والمال إلّا وجدّوا واجتهدوا ، وحَرَصوا فى طلب الزّيادة عليه ، فهمْ فى كلّ أحوالهم فقراء إلى تحصيل المال ، كما أنّ من لا مال له أصلا يَجدّ ويجتهد فى تحصيل المال ، بل ربما كان جدُّهم وحِرْصُهم على ذلك أعظَم من كَدْح الفقير وحرصه ، ورُوِى : « وأعين من غَنِيَ عنها » ومن رواه « أغنى » أى أغْنى اللهُ ، من غنيَ عنها وزَهِد فيها بالراحة وخلوّ البال وعدم الهمّ والغمّ .

والزِّبْرِج : الزّينة ، وراقه : أعجبَه .

والكَمَه : العمى الشديد ، وقيل : هو أن يولد أعمى .

والأشْجان : الأحْزان .

والرّقَصُ بفتح القاف : الاضطراب[1] والغلَيَان والحركة .

والكظَم بفتح الظاء : مجرى النفَس .

والأبْهران : عِرقان متصلان بالقلب ؛ ويقال للميّت : قد انقطَع أبهَراه .

قوله : « وإنما ينظرُ المؤمن » : اخبارٌ فى الصورة ، وأمرٌ فى المعنى ، أى لينظر المؤمن إلى الدنيا بعين الاعتبار ، وليأ كُل منها ببطن الاضطرار ، أى قَدْر الضرورة ، لا احتكار أو استكثار ، وليَسْمع حديثَها بأُذُن المَقْت والبغْض ، أى ليتّخذها عدُوًّا قد صاحَبَه فى طريق ، فليأخذ حِذْرَه منه جهْده وطاقته ، وليَسْمع كلامه وحديثه لا اُستماع مُصْغ ومحبّ وامِق ، بل استماعَ مُبغِض محترزٍ من غائلتهِ .

***

---

(١) ب : « الاضطرار » تحريف .

ثم عاد إلى وصفِ الدنيـا وطالبها فقال : إنْ قيل أثْرَى قيل : أ كْدَى ، وفاعِلُ « أثْرَى » هو الضّمير العائد إلى من استشعر الشّغَف بها . يقول : بينا يقال : أثرَى ، قيل : افتقر ، لأن هذه صِفة الدنيا فى تقلبها بأهلها ، وإن فرح له بالحياة ودوامِها ، قيل : مات وعَدِم ، هذا ولم يأتهم يومَ القيامة يومٌ هم فيه مُبْلِسون ، أبلس الرجلُ يُبلِسُ إبْلاسا أى قَنِط ويئس ، واللفظ من لَفَظات الكتاب العزيز (١) .

* * *

[نبذ من الأقوال الحكيمة فى وصف حال الدنيا وصروفها]

وقد ذكرْنا من حالِ الدنيـا وصُروفها وغَدْرِها بأهلهـا فيما تقـدّم أبوابا كثيرة نافعة .

ونحن نذكر هاهنا زيادةً على ذلك .

فمن كلام بعض الحكماء : ويلٌ لصاحِب الدنيا ، كيف يموت ويتركها ، وتغرّه ويأمَنها وتَخْذُله ويثق بها ! ويلٌ للمغترّين ، كيف أرتْهم مايكرهون ، وفاتَهم مايُحِبّون، وجاءهم مايوعَدون ! ويل لمن الدنيا همّه ، والخطايا عمله ، كيف يفتضح غداً بذَنْبه .

ورَوَى أنس قال : كانت ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله العَضْباء لا تُسبَق ، فجاء أعرابىٌّ بناقةٍ له فسبَقها ، فشَقّ ذلك على المسلمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « حقّ على الله ألّا يرفع فى الدنيا شيئاً إلّا وضعه » .

وقال بعضُ الحكماء : من ذا الذى يبنى على مَوْج البحر داراً ! تلكُم الدنيا ، فلا تتّخِذوها قرارا .

---

(١) وهو قوله تعالى فى سورة الروم ١٢ : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

وقيل لحكيم : علِّمنا عملا واحدا إذا عمِلناه أحبَّنا الله عليه ، فقال : ابغضوا الدنيا يُحِببْكم الله .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لو تعلمون ماأعلم لضحِكتم قليلا ، ولبكَيتم كثيرا ، ولهانت عليكم الدنيا ، ولآثرْتم الآخرة » .

ثم قال أبو الدَّرداء مِنْ قِبَل نفسه : أيها الناس ، لو تعلمون ما أعلم لخرجْتم إلى الصُّعُدات تبكون على أنفسكم ، ولتركْتم أموالكم لا حارسَ لها ، ولا راجعَ إليها إلّا مالا بدّ لكم منه ، ولكنْ غاب عن قلوبكم ذِكْرُ الآخرة ، وحضرَها الأمل ، فصارت الدنيا أملَكَ بأعمالِكم ، وصِرْتم كالذين لا يَعلمون ، فبعضُكم شرٌّ من البهائم التى لا تدَع هواها ، مالكم لا تحابُّون ولا تناصَحون فى أموركم ،وأنتمْ إخوانٌ على دينٍ واحد ، مافرَّق بين أهوائِكم إلّا خُبْثُ سرائِركم ، ولو اجتمعتمْ على البِرّ لتحاببْتم ، مالكم لا تناصَحون فى أمورِكم ، ماهذا إلّا مِن قِلّة الإيمان فى قلوبكم ، ولو كنتم توقنون بأمر الآخرة كما تُوقنون بالدنيا لآثرْتم طلب الآخرة ، فإنْ قلتمْ حبّ العاجلة غالبٌ ، فإنّا نراكم تدَعون العاجل من الدنيا للآجل منها ، مالكم تفرَحون باليسير من الدنيا ، وتحزنون على اليَسير منها يفوتكم ، حتى يتبيّن ذلك فى وجوهكم ، ويظهر على ألسِنتكم ، وتسمونها المصائب ، وتُقيمون فيها المآتم ، وعامّتكم قد تركوا كثيرا من دينهم ثمّ لا يتبين ذلك فى وجوهِهم ، ولا تتغيّر حالٌ بهم ، يَلْقى بعضهم بعضاً بالمسرّة ، ويكره كلّ منكم أن يستقبل صاحبه بما يَكْرَه مخافةَ أن يستقبله صاحبُه بمثله ، فاصطحبْتم على الغِلّ ، وَنبتت مراعِيكم على الدِّمَن ، وتصافَيتم على رَفض الأجلّ ، أراحَنى الله منكم ، وألحقنى بمن أحِبُّ رؤيته .

وقال حكيم لأصحابه : ارضَوا بدنىء الدنيا مع سلامة الدِّين ، كما رَضىَ أهلُ الدنيا بدنىء الدِّين مع سلامةِ الدُّنيا .

وقيل فى معناه :

أرَى رجالًا بأدنى الدِّين قد قَنِعوا ... ولا أراهمْ رَضُوا فى العَيْش بالدُّونِ

فاستغنِ بالدِّين عن دُنْيا الملوكِ كما اسْ ... تَغْنَى الملوكُ بدُنياهمْ عن الدِّينِ

وفى الحديث المرفوع : « لتأتينكم بَعْدِى دُنْيا تأكُل إيمانَكم كما تأكل النارُ الحطَبَ » .

وقال الحَسَن رحمه الله : أدركتُ أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعةً فأدَّوْها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم رَكضوا خِفافا .

وقال أيضا : من نافَسك فى دِينك فنافِسْه ، ومن نافَسك فى دُنْياك فألقِها فى نَحْره .

وقال الفُضيل : طالت فكْرتى فى هذه الآية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴾[1] .

ومن كلام بعض الحكماء : لن تصبح فى شىء من الدُّنيا إلا وقد كان له أهلٌ قَبْلك ويكُون له أهلٌ من بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عَشاء ليلة ، وغَداء يومٍ ، فلا تُهلِك نفسَك فى أكْلة ، وصُمْ عن الدُّنْيا وأفطِرْ على الآخرة ، فإنّ رأس مالِ الدنيا الهوى ، ورِبْحها النار .

وقيل لبعض الرُّهْبان : كيف ترَى الدهر ؟ قال : يُخلِق الأبدان ، ويجدِّد الآمال ، ويقرِّب المنيّة ، ويباعد الأمْنيّة . قيل : فما حالُ أهلِه ؟ قال مَنْ ظفِر به تَعِب ، ومن فاتَه اكتأب .

ومن هذا المعنى قولُ الشاعر :

ومَن يَحْمَد الدنيا لعيشٍ يَسُرّهُ ... فسوفَ لَعَمرِى عن قليلٍ يلُومُها

---

(١) سورة الكهف ٧ ، ٨ .

إذا أدبرتْ كانتْ على المرء حَسرةً　　　وإن أقبلتْ كانت كثيراً همومُها

وقال بعضُ الحكماء : كانت الدّنيا ولم أكُنْ فيها ، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها ، ولستُ أسكُن إليها ، فإنّ عَيْشَها نَكَد ، وصَفْوها كَدَر ، وأهلها منها على وجَل ، إمّا بنعمةٍ زائلة ، أو ببليّة نازلة ، أو مِيتة قاضِيَة . وقال بعضهم : من عَيْب الدّنيا أنّها لا تُعطى أحداً ما يستحقّ ، إما أن تزيد له ، وإما أن تنقص .

وقال سُفْيان الثَّوْرِيّ : أما ترَوْن النِّعم كأنّها مغضوبٌ عليها ، قد وُضِعَتْ فى غير أهلها .

وقال يحيى بن مُعاذ : الدنيا حانوتُ الشّيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئا ، فإنه يجيء فى طَلَبك حتّى يأخُذَك .

وقال الفُضَيل : لو كانت الدّنيا من ذَهَب يَفنى والآخرةُ من خَزَفٍ يبْقى لكانَ يَنبغِي لنا أن نختار خزَفا يبقَى على ذَهب يفْنى ، فكيف وقد اخترْنا خَزَفا يَفْنى على ذَهَبٍ يبقى !

وقال بعضُهم : ما أصبح أحدٌ فى الدّنيا إلّا وهو ضَيْف ، ولا شُبْهَةَ فى أنّ الضيف مُرتحِل ، وما أَصبح ذو مال فيها إلا ومالُه عاريّة عنده ، ولا ريْب أنّ العاريّة مردودة .

ومثل هذا قول الشاعر :

وما المالُ والأهْلُون إلّا وديعةٌ　　　ولا بدّ يوما أن تُردَّ الودائعُ (1)

وقيل لإبراهيم بن أدهم : كيف أنت ؟ فأنشدَ :

نُرَقِّع دُنْيانا بتمزيق دِينِنا　　　فلا دِينُنا يَبقَى ولا ما نُرَقِّعُ

---

(1) للبيد ، ديوانه ١٧٠ .

وزارَ رابعةَ العَدَوية أصحابُها ، فذَكَروا الدّنيا فأقبلوا على ذَمِّها ، فقالت : اسكُتُوا عن ذِكْرِها وكُفُّوا ، فلولا مَوقِعُها فى قلوبكم ما أكثرتم من ذِكرِها ، إنّ من أحبَّ شيئاً أكثرَ من ذكره .

وقال مُطَرِّف بنُ الشِّخِّير : لا تنظروا إلى خَفْض عَيْش الملوك ، ولين رِياشِهم ، ولكن انظُروا إلى سُرعة ظَعْنهم ، وسوء منقلَبِهم . قال الشاعر :

أرَى طالبَ الدّنيا وإن طالَ عمرُهُ ... ونال من الدّنيا سروراً وأنْعُما
كَبانٍ بنى بُنيانَه فأقامَه ... فلمّا استوَى ماقد بناه تهدَّما

وقال أبو العتاهية :

تعالَى اللهُ ياسَلْمَ بن عَمْرٍو ... أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ [1]
هَبِ الدّنيا تُساقُ إليكَ عَفْواً ... أليسَ مصيرُ ذاكَ إلى الزوالِ !
وما دُنْياكَ إلاّ مثلُ فَيْءٍ ... أظلّكَ ثمّ آذن بانتقالِ

وقال بعضُهم : الدّنيا جِيفةٌ ، فمن أراد منها شيئاً فليَصبِرْ على مُعاشرة الكلاب .

وقال أبو أُمامةَ الباهليّ : لمّا بعَثَ اللهُ محمّدا صلى الله عليه وسلّم أتتْ إبليسَ جنودُه وقالوا : قد بُعِثَ نبيّ وجدَت مِلّة وأمّة ، فقال : كيف حالُهم ؟ أيحبّون الدنيا ؟ قالوا : نعَمْ . قال : إن كانوا يحبّونها فلا أُبالى ألاّ يعبدُوا الأصنام ، فإنّما أغدُو عليهم وأرُوح بثلاث : أخذِ المال من غيرِ حقّه ، وإنفاقِه فى غيرِ حقّه ، وإمساكه عن حقه ، والشرُّ كلّه لهذه الثلاث تبَع .

وكان مالكُ بنُ دينار يقول : اتقّوا السّحّارة فإنّها تسحَر قلوبَ العلماء ، يعنى الدنيا .

---

(١) ديوانه ٢٠٦ .

وقال أبو سليمانَ الرازىّ : إذا كانت الآخرة فى القَلْبِ جاءت الدّنيا فزَاحَمَتْها ، وإذا كانت الدّنيا فى القَلْبِ لم تُزاحِمْها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لئيمة .

وقال مالكُ بن دينار : بقَدْرِ ماتَحْزَن للدّنيا يخْرُج همُّ الآخرة من قلبك ، وبقدْرِ ماتحزن للآخرة يخرُج هم الدنيا من قلبك . وهذا مُقتبَس من قولِ أميرِ المؤمنين عليه السلام : الدنيا والآخرة ضرّتان : فبقدْر ماتُرْضِى إحداهما تُسخِط [1] الأخرى .

وقال الشاعر :

يا خاطِبَ الدُّنيا إلى نفسها ... تَنَحَّ عن خِطْبتِها تَسْلَمِ
إنّ التى تخطُب غدّارَةٌ ... قريبةُ العرْسِ من المأتَمِ

وقالوا : لو وصَفَت الدُّنيا نفسَها لما قالت أحسَنَ من قول أبى نُواس فيها :

إذا امتحَنَ الدّنيا لبيبٌ تكشّفتْ ... له عن عدوٍّ فى ثيابِ صديقِ [2]

ومِن كلام الشافعىّ يعظُ أخًا له : ياأخِى ، إنّ الدّنيا دَحْض مَزَلّة [3] ، ودارُ مَذَلّة ؛ عُمرانُها إلى الخراب سائر ، وساكنُها إلى القبور زائر ؛ شَملها على الفُرقة موقوف ، وغِناها إلى الفقْر مَصْروف ، الإكثارُ فيها إعسار ، والإعسار فيها يَسار ؛ فافزَعْ إلى الله ، وأرضَ بِرِزق الله ، ولا تَستسلِف من دار بقائِك فى دارِ فَنائك ، فإنّ عيشك فىء زائل ، وجِدارٌ مائل . أكثِرْ من عَملك ، وأقصِرْ من أملِك .

وقال إبراهيمُ بنُ أدهم لرجل : أدِرْهَمٌ فى المنام أحبُّ إليك أم دينارٌ فى اليَقَظة ؟ فقال : دينارٌ فى اليَقَظة . فقال : كَذَبْتَ إن الّذى تُحِبّه فى الدّنيا فكأنّك تُحِبّه فى المنام ، والّذى تحبُّه فى الآخرة فكأنّك تحبّه فى اليَقَظة .

وقال بعضُ الحُكَماء : من فَرِح قلبُه بشىء من الدنيا فقد أخطأَ الحِكْمة ، ومن

---

(١) ب « تسقط » .
(٢) ديوانه ١٩٢ .
(٣) الدحض : المكان الزلق .

جَعَل شهوتَه تحتَ قدمَيه فَرِق الشيطانُ من ظِلِّه ، ومَن غَلَب عِلْمُه هَواهُ فهو الغالب .

وقال بعضُهم : الدنيا تبغَّضُ إلينا نفسَها ونحن نحبُّها ، فكيف لو تحبَّبتْ إلينا !

وقال بعضهم : الدنيا دارُ خراب ، وأخرَبُ منها قلبُ من يَعمرُها ، والجنّة دارُ عُمْران ، وأعمَرُ منها قَلْب من يَطْلبُها .

وقال يحيى بنُ مُعاذ : العُقَلاء ثلاثة : مَن ترَكَ الدنيا قبل أن تَتْرُكَه ، وبَنَى قبرَه قبل أن يَدخُلَه ، وأرْضَى خالقَه قبل أن يَلْقاه .

وقال بعضهم : مَنْ أرادَ أن يستغنِيَ عن الدّنيا بالدّنيا كان كمُطفِئ النارِ بالتِّبْنِ.

ومن كلام بعض فُصَحاء الزّهّاد : أيها الناس اعملوا فى مَهَل ، وكونوا من الله على وجَل ، ولا تغترّوا بالأمَل، ونِسيانِ الأجلِ ، ولا تركَنوا إلى الدنيا ؛ فإنّها غدّارة غرّارة خدّاعة، قد تزخرفتْ لكم بغرُورها ، وفَتَنَتْكم بأمانيها ، وتزيّنتْ لخطّابها، فأضحت كالعَروس المتجلّية ، العيونُ إليها ناظرة ، والقلوبُ عليها عاكفة ، والنفوسُ لها عاشقة . فكم من عاشقٍ لها قَتلتْ ، ومطمئنّ إليها خذَلَتْ ! فانظروا إليها بعينِ الحقيقة ، فإنّها دارٌ كثرت بوائقُها ، وذمَّها خالقُها ، جديدُها يَبلَى ، ومُلْكُها يفنَى ، وعزيزُها يَذِلّ وكثيرُها يَقِلّ ، وحيُّها يموتُ ، وخيرُها يفوت ؛ فاستيقِظوا من غفلتِكم ، وانتبهوا من رَقْدتِكم ، قبل أن يقال : فلان عليل ، ومدنَفٌ ثقيل ، فهل على الدّواء من دليل ، وهل إلى الطبيب من سبيل ؟ فتُدعَى لك الأطبّاء ، ولا يُرجَى لك الشفاء ، ثمّ يقال : فلانٌ أوصَى ، ومالَه أحصَى ، ثمّ يقال : قد ثَقُل لسانه فما يكلّمُ إخوانَه ، ولا يَعرِف جيرانَه، وعَرِق عند ذلك جبينُك، وتتابع أنينُك ، وثبت يقينُك، وطَمَحتْ جفونُك، وصدقَتْ ظُنونُك ، وتلجلجَ لسانُك، وبكى إخوانُك ، وقيل لك : هذا ابنُك فلان ، وهذا أخوك

فلان ؛ مُنعت من الكلام فلا تنطِق ، وخُتِم على لسانك فلا ينطَبِق ، ثم حلّ بك القضاء ، وأُنتزِعت روحُك من الأعضاء ، ثم عُرِج بها إلى السّماء ، فاُجتمع عند ذلك إخوانك ، وأُحضِرتْ أكفانُك ، فغسّلوك وكفّنوك ، ثم حملوك فدفنوك ، فانقطع عُوّادُك ، وأُستراح حُسّادك ، وانصرف أهلُك إلى مالِك ، وبقيتَ مرتهنًا بأعمالك .

وقال بعضُ الزّهاد لبعض الملوك : إنّ أحقّ الناس بذمّ الدنيا وقِلاها مَن بُسِط له فيها ، وأُعطِي حاجتَه منها ، لأنه يتوقّع آفةً تَغدُو على ماله فتجتاحه ، وعلى جمعِه فتفرّقه أو تأتى على سلطانه فتهدِمه من القواعد ، أو تدبّ إلى جسمه فتُسقِمه ، أو تفجعه بشىء هو ضَنِينٌ به من أحبابه ، فالدنيا الأحقّ بالذّم ، وهىَ الآخذة ما تُعطِى ، الراجعة فيما تهب ؛ فبينا هى تُضحِك صاحبَها إذ أضحكتْ منه غيرَه ، وبينا هى تبكِي له إذ أبكَتْ عليه ، وبينا هى تَبْسُط كفّه بالإعطاء إذ بسَطتْ كفّها إليه بالأُسترجاع والأُسترداد ، تَعقِد التاج على رأس صاحبِها اليوم وتُعفّره فى التّراب غداً ، سواء عليها ذَهاب مَن ذهب وبقاء من بقى ، تجد فى الباقى من الذاهب خلفا ، وترضَى بكلٍّ من كلٍّ بدَلا .

وكتب الحسنُ البصرىّ إلى عمر بن عبد العزيز : أمّا بعد ، فإنّ الدنيا دارُ ظَعْنٍ ليست بدار إقامة ، وإنما أُنزل إليها عقوبة فاحذرْها فإن الزّاد منها ربحُها ، والغنى منها فقرُها ، لها فى كلّ حينٍ قتيل ، تُذِلّ مَنْ أعزّها ، وتُفقِر من جمَعها ، هى كالسّمّ يأكله مَنْ لا يعرفه وهو حَتْفُه ، فكن فيها كالمُداوِى جراحه ، يَحمِى قليلا مخافة ما يكرهه طويلا ، ويصبر على شدّة الدواء ، مخافة طُول البلاء ، فاحذر هذه الدنيا الغدّارة المكّارة ، الختّالة الخدّاعة ، التى قد تزيّنت بخُدَعها ، وفتنَتْ بغرورها ، وتحلّت بآمالها ، وتشرّفتْ لخُطّابها ، فأصبحت بينهم كالعروس تُجلَى على بعلها ، العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهِة ، والنفوسُ لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلِّهم قاتلة ، فلا الباقى بالماضى معتبِر ، ولا الآخِر بالأوّل مزدجِر ، ولا العارف بالله حين أخبره عنها مدّكِر ، فمن عاشقٍ لها قد

ظفر منها بحاجته ، فاغترّ وطغى ونسى المعاد ، وشُغل بها لُبّه حتى زلّت عنها قدمُه ، فعظُمتْ ندامتُه ، وكثرتْ حسرتُه ، واجتمعت عليه سكراتُ الموت بألمه ، وحسَراتُ الفَوت بغصّته ، ومِنْ راغب فيها لم يدرك منها ماطلب ، ولم يُرِح نفسَه من التّعب ، خرج منها بغير زاد ، وقدِم على غير مِهاد ؛ فاحذرْها ثمّ احذرْها ، وكن أسرّ ماتكون فيها أحذر ماتكون لها ، فإن صاحبها كلما اطمأنّ منها إلى سرور أشخَصْته إلى مكروه ، والسارّ منها لأهلها غارّ ، والنافع منها فى غدٍ ضارّ ، قد وُصل الرّخاء منها بالبلاء ، وجعل البقاء فيها للفَناء ؛ فسرورها مَشُوببالأحزان ، ونعيمُها مكدَّر بالأشجان ، لايرجع ماولّى منها وأدبر ، ولا يُدرى ماهو آت فينتظر ، أمانيّها كاذبة ، وآمالهـا باطلة ، وصفوُها كَدَر ، وعيشها نَكَد ، والإنسان فيها على خَطَر إنْ عَقل ونَظَر ، وهو من النّعماء على غَرَر ، ومن البلاء على حَذَر ، فلو كان الخالقُ لها لم يخبر عنها خبرا ، ولم يَضرِب لهامَثَلا ، لكانت هى نفسها قد أيقظتْ النائم ، ونبّهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عنها زاجر ، وبتصاريفها واعظ ، فما لها عند الله قدْر ، ولا نظر إليها منذ خَلَقها ، ولقد عُرضتْ على نبيّك محمّد صلى الله عليه وسلّم بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه ذلك عند الله جناحَ بعوضة ، فأبى أن يقبلها ، كره أن يخالف على الله أمره ، أو يحبّ ما أبغضَه خالقُه ، أو يرفع ما وضعه مليكه ، زواها الربّ سبحانه عن الصالحين اختبارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظنّ المغرور بها ، المقتدر عليها ، أنه أُكرِم بهـا ، وينسى ماصنع الله تعالى بمحمّد صلى الله عليه وسلّم من شدّة الحجَر على بطنِه ، وقد جاءت الرواية عنه عن ربه سبحانه أنه قال لموسى : إذا رأيت الغنَى مقبلا فقل ذنبٌ عجلتْ عقوبته ، وإذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين ؛ وإن شئت اقتديت بصاحب الرُّوح والكلمة عيسى ؛ كان يقول : إدامى الجوع ، وشعارى الخوف ، ولباسى الصُوف ، وصِلائى فى الشتاء مشارق الشمس ، وسراجى القمر ، ووسادى الحجَر ، ودابتى رِجْلاى ،

وفاكهتى وطعامى ما أنبتت الأرضُ ، أبيتُ وليس لى شىء ، وليس على الأرض أحدٌ أغنى منّى .

وفى بعض الكتب القديمة : إن الله تعالى لمّا بعث موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون قال : لا يروعنّكما لباسُه الذى لبِس من الدنيا ، فإنّ ناصيته بيَدى ليس ينطق ولا يَطرِف ولا يتنفّس إلّا بإذنى ، ولا يُعجِبكما مامُتّع به منها ، فإن ذلك زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترَفين ، ولو شئت أن أزيّنكما بزينةٍ من الدنيا يعرف فرعون حين يراها أنّ مقدرته تعجز عمّا وُهبتما لفعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، وأزوِى ذلك عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى ، إنى لأذودُهم عن نعيمها كما يذود الرّاعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلَكة ، وإنّى لأجنّبهم حُبّ المُقام فيها كما يجنب الراعى الشفيق إبلَه عن مَبارِك العُرّ ، وما ذاك لهوانهم علىّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفورا ، إنما يتزين لى أوليائى بالذلّ والخضوع والخوف ، وإن التقوى لتثبت فى قلوبهم ، فتظهر على وجوههم ، فهى ثيابُهم التى يلبسونها ، ودِثارُهم الذى يظهرون ، وضميرُهم الذى يستشعرون ، ونجاتُهم التى بها يفوزون ، ورجاؤهم الذى إيّاه يأملون ، ومجدُهم الذى به يفتخرون ، وسيماهم التى بها يُعرَفون ، فإذا لقيهم أحدكما فليخفض لهم جناحَه ، وليذلّل لهم قلبه ولسانه ، وليعلم أنه مَنْ أخاف لى وليّا فقد بارزَنى بالمحاربة ، ثم أنا الثائر به يوم القيامة .

ومن كلام بعض الحكماء : الأيّام سِهام ، والناس أغراض ، والدهر يرميك كلّ يوم بسهامه ، ويتخرّمك بلياليه وأيّامِه ؛ حتّى يستغرق جميع أجزائك ، ويُصمِى جميع أبعاضِك ، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك ، وسرعة الّليالى فى بدنك ! ولو كُشف لك عمّا أحدثَت الأيّام فيك من النقص لاستوحشتَ من كلّ يوم يأتى عليك واستثقلت ممرّ الساعاتِ بك ، ولكنّ تدبير الله تعالى فوق النظر والاعتبار .

وقال بعض الحكماء ـ وقد استوصف الدنيا وقَدْر بقائها ـ : الدنيا وقتك الذى يرجع إليه طرفُك ، لأنّ مامضى عنك فقد فاتك إدراكه ، ومالم يأتِ فلا عِلم لك به ؛ والدهر يومٌ مقبل تنعاه ليلتهُ ، وتَطويه ساعاتُه ، وأحداثه تتوالى على الإنسان ،بالتغيير والنقصان ، والدهر موكَّل بتشتيت الجماعات ، وانخرام الشَّمل ، وتنقُّل الدُّوَل ، والأمل طويل ،والعمر قصير ، وإلى الله تصير الأمور .

وقال بعض الفضلاء : الدنيا سريعة الفَناء ، قريبة الانقضاء ، تَعِد بالبقاء ، وتُخلف فى الوفاء ، تنظرُ إليها فتراها ساكنةً مستقرّة ، وهى سائرة سَيْرا عنيفا ، ومرتحلة ارتحالا سريعا ، ولكنّ الناظر إليها قد لا يُحسّ بحركتها فيطمئنّ إليها ، وإنما يحسّ بذلك بعد انقضائها ؛ ومِثالها الظِّلّ ، فإنه متحرّك ساكنٌ : متحرّك فى الحقيقة ،وساكنٌ فى الظاهر ، لا تدرَك حركتهُ بالبصر الظاهر ، بل بالبصيرة الباطنة .

(٣٧٤)

الأَصْلُ :

إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وضعَ الثَّوابَ على طاعتِهِ ، والعِقابَ على مَعْصيَتِهِ ، ذِيادَةً لِعبادِهِ عنْ نِقْمَتِهِ ، وحِياشَةً لَهُمْ إلى جنَّتِهِ .

***

الشَّرْحُ :

ذِيادة ، أى دَفْعا . ذُدْته عن كذا ، أى دَفعته ورددته. وحياشةً : مصدر حُشْتُ الصَّيد بضم الحاء ، أَحوشُه ، إذا جئته من حواليه لتَصرِفه إلى الحِبالة ، وكذلك أحشْتُ الصيد وأحْوَشْته ، وقد احتوش القومُ الصيد إذا نفّره بعضهم إلى بعض .

وهذا هو مذهب أصحابنا ، إن الله تعالى لما كلّف العباد التكاليف الشاقّة ، وقد كان يمكنه أن يجعلها غير شاقة عليهم بأن يزيد فى قَدَرهم ، وجب أن يكون فى مقابلة تلك التكاليف ثواب ، لأنّ إلزام المشاق كإنزال المشاقّ ، فكما يتضمن ذلك عوضا ، وجب أن يتضمّن هذا ثوابا ، ولا بد أن يكون فى مقابلة فعل القبيح عقاب ، وإلا كان سبحانه ممكّنا الإنسان من القبيح ، مغريًا له[1] بفعله ، إذ الطبع البشرى يهوى العاجل ، ولا يحفل بالذمّ ، ولا يكون القبيح قبيحا حينئذ فى العقل ، فلا بدّ من العقاب ليقع الانزجار .

---

(١) ب ا : « به » .

(٣٧٥)

الأصْل :

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمانٌ لا يَبْقَى فِيهِمْ مِنَ الْقُرْآنِ إلاَّ رَسْمُهُ ، ومِنَ الإسْلامِ إلا اُسْمُهُ ، مَساجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عامِرَةٌ مِنَ الْبِناءِ ، خَرابٌ مِنَ الهُدَى ، سُكّانُها وعُمّارُها شَرُّ أَهْلِ الأرْضِ ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ ، وَإلَيْهِمْ تَأْوِى الخَطِيئَةُ ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا ، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إلَيْهَا ، يَقُولُ اللهُ سُبْحانَهُ فَبِي حَلَفْتُ ، لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولئِكَ فِتْنَةً أَتْرُكُ الحَلِيمَ فيها حَيْرانَ ، وَقَدْ فَعَلَ ، وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه صفةُ حالِ أهلِ الضّلال والفِسق والرِّياء من هـذه الأمّة ، ألا تراه يقول : سُكانها وعُمّارها ، يعنى سكانَ المساجد ، وعمّار المساجد شرّ أهل الأرض ؛ لأنهم أهل ضلالة كمن يَسكن المساجد الآن ممّن يعتقد التجسم والتشبيه والصورة والنّزول والصعود والأعضاء والجوارح ، ومن يقول بالقَدَر يُضِيف فعل الكُفْر والجهل والقبيح إلى الله تعالى ، فكل هؤلاء أهل فتنة ، يردُّون من خرج منها إليها ، ويسوقون من لم يدخل فيها إليها أيضاً .

ثم قال حاكيا عن الله تعالى : إنه حلف بنفسه ليبعثنّ على أولئك فتنةً ، يعنى استئصالا وسيفا حاصدا يترك الحليمَ أى العاقل اللّبيب فيها حيران لا يعلم كيف وجهُ خلاصه .

ثم قال عليه السلام : وقد فعل

وينبغى أن يكون قد قال هذا الكلام فى أيام خلافته ، لأنّها كانت أيام السيف المسلط على أهل الضلال من المسلمين ، وكذلك ما بعثه الله تعالى على بنى أميّة وأتباعهم من سيوف بنى هاشم بعد انتقاله عليه السلام .

(٣٧٦)

الأصْلُ :

ورُوِى أنَّهُ عليهِ السلامُ قَلَّمَا اعْتَدَلَ بِهِ المِنْبَرُ إلَّا قَالَ أمامَ خُطْبَتِهِ :

أيُّهَا النَّاسُ ، اتَّقوا اللهَ فما خُلِقَ امْرُؤٌ عَبثاً فيلهُو ، ولَا تُرِكَ سُدًى فيلغُوْ ، وَمَا دُنْيَاهُ الَّتِى تَحَسَّنَتْ لَهُ بِخَلَفٍ مِنَ الآخِرَةِ الَّتى قَبَّحَهَا سُوءُ النَّظَرِ عِنْدَهُ ، وَمَا المَغْرُور الَّذِى ظَفِرَ مِنَ الدُّنْيَا بِأَعْلَى هِمَّتِهِ كالآخَرِ الَّذِى ظَفِرَ مِن الآخِرَةِ بِأَدْنَى سُهْمَتِهِ .

* * *

الشرح :

قال تعالى : ﴿ أفَحَسِبْتُمْ أنما خَلَقْنَاكُم عَبثاً وأنكم إلينا لا تُرجَعون ﴾[1] .

ومن الكلمات النبويّة : إنّ المرء لم يُترَك سُدًى ، ولم يُخلَق عبثا .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّ من ظَفِرَ من الدنيا بأعلى وأعظم أمنية ليس كآخَرَ ظفِرَ من الآخرة بأدْوَن درجات أهلِ الثواب ، لا مناسبة ولا قياسَ بين نعيم الدنيا والآخرة .

وفى قوله عليه السلام : « الّتى قبحها سوء المنظَر عندَه » تصريحٌ بمذهب أصحابنا أهلِ العدل رحمهم الله ، وهو أن الإنسان هو الذى أضلّ نفسه لسوء نظرِه ، ولو كان الله تعالى هو الذى أضلّه لما قال : قبّحها سوء النظر عندهَ .

(١) سورة المؤمنون ١١٥ .

(٣٧٧)

الأصْلُ :

لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَلَا عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوى ، وَلَا مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ ، وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَلَا كَنْزَ أَغْنَى مِنَ القَنَاعَةِ ، وَلَا مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ .

وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ ، وَتَبَوَّأَ خَفْضَ الدَّعَةِ . وَالدَّعَةُ مِفْتَاحُ النَّصَبِ ، وَمَطِيَّةُ التَّعَبِ ، وَالْحِرْصُ وَالْكِبْرُ وَالْحَسَدُ دَوَاعٍ إِلَى التَّقَحُّمِ فِي الذُّنُوبِ ، وَالشَّرُّ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ .

* * *

الشَّرح :

كلّ هذه المعانى قد سبق القولُ فيها مرارا شتّى ؛ نأتى كلّ مرّة بما لم نأت به فيما تقدّم ، وإنّما يكرّرها أميرُ المؤمنين عليه السلام لإقامة الحجّة على المكلّفين ، كما يكرّر اللهُ سبحانه فى القرآن المواعظَ والزواجر ، لذلك كان أبو ذرّ ـ رضى الله عنه ـ جالسا بين الناس فأتته امرأتُه فقالت : أنت جالس بين هؤلاء ، ولا والله ماعندنا فى البيت هِفّة ولا سُفّة[1] ؛ فقال : ياهذه ، إنّ بين أيدينا عقبةً كؤودا ، لا ينجو منها إلّا كلّ مخِفّ. فرجعت وهى راضية .

---

(١) نهاية ابن الأثير ٢ : ١٦٧ ، ٤ : ٢٥٠ . الهفة : السحاب لا ماء فيه ؛ والسفة : ما ينسج من الخوص كالزبيل ؛ أى لا مشروب فى بيتك ولا مأكول .

وقيل لبعض الحكماء : ما مالُك ؟ قال : التجمّل فى الظاهر ، والقَصْد فى الباطن ، والغِنَى عمّا فى أيدى الناس :

وقال أبو سليمان الدّارانىّ : تنفُّس فقيرٍ دُون شهوةٍ لا يَقدِر عليها أفضلُ من عِبادة غَنِيٍّ ألف عام .

وقال رجلٌ لبشر بن الحارث : ادعُ لى فقد أضرّ الفقرُ بى وبعيالى ؛ فقال : إذا قال لك عيالُك : ليس عندنا دقيق ولا خبز فادعُ لبشر بن الحارث فى ذلك الوقت ، فإنّ دعاءك أفضلُ من دعائه .

ومن دعاء بعض الصالحين : اللهمّ إنى أسألك ذُلّ نفسى ، والزّهدَ فيما جاوَزَ الكَفاف .

(٣٧٨)

الأصلُ :

وَقالَ عليه السلام : لجابر بن عبد الله الأنصاريّ :

ياجابرُ ، قِوامُ الدِّينِ والدُّنيا بأرْبعَةٍ : عالِمٍ يَسْتَعْمِلُ عِلْمَهُ ، وَجاهلٍ لا يَسْتَنْكِفُ أنْ يتعَلَّمَ ، وَجوَادٍ لَا يَبْخَلُ بمَعْرُوفِهِ ، وَفَقيرٍ لَا يَبِيعُ آخرَتَهُ بِدُنْياهُ ، فَإذا ضَيَّعَ العالِمُ عِلْمَهُ اسْتَنْكَفَ الْجاهلُ أنْ يَتَعَلَّمَ ، وَإذا بَخِلَ الغنيُّ بِمعْروفِهِ باعَ الفقيرُ آخِرَتَهُ بِدُنْياهُ .

ياجابرُ ، منْ كَثُرَتْ نِعمَةُ اللهِ عَلَيْهِ ، كَثُرَتْ حَوائِجُ النَّاسِ إِلَيْهِ ، فَمَنْ قامَ بِمَا يَجِبُ لِلهِ فِيهـا عَرَّضَ نِعْمَةَ اللهِ لِدَوامِهَا ، وَمَنْ ضَيَّعَ مايَجِبُ لله فيها عرَّضَ نعمتَهُ لِزَوالها .

***

الشَّرحُ

قد تقدّم القولُ فى هذه المعانى . والحاصل أنّه رَبط اثنتين من أربعة إحداهمابالأخرى، وكذلك جعل فى الاثنتين الأخريين، فقال : إنّ قوام الدِّين والدنيا بأربعة :عالمٍ يستعمل علمَه ، يعنى يعمَل ولا يقتصر على أن يعلم فقط ولا يَعمل ، وجاهل لا يستنكِف أن يتعلّم ، وأضرُّ ماعلى الجهلاء الاستنكاف من التعلّم ؛ فإنهم يستمرّون على الجهالة إلى الموت ، والثالث جَواد لا يبخل بالمعروف ، والرابع فقير لا يبيع آخرته بدنياه ، أى لا يَسرق ، ولا يَقطع الطّريق ، أو يكتسب الرزق من حيث لا يحبّه الله ، كالقِمار ، والمواخير ، والمزاجر ، والمـآصر ، ونحوها .

ثم قال : فالثانية مرتبطة بالأولى إذا لم يستعمل العالم علمه استنكف الجاهلُ من التّعلم ، وذلك لأنّ الجاهل إذا رأى العالم يعصى ويجاهِر الله بالفسق زهِد فى التعلّم ؛ وقال : لماذا تعلُّمُ العلم إذا كانتْ ثمرته الفسقَ والمعصية .

ثم قال : والرابعة مرتبطة بالثالثة ، إذا بخل الغَنىّ بمعروفه ، باع الفقيرُ آخرته بدنياه ، وذلك لأنّه إذا عدم الفقير المواساة مع حاجته إلى القُوت دعتْه الضّرورة إلى الدخول فى الحرام ، والاكتساب من حيث لا يحسُن ، ويَنبغى أن يكون عوض لفظة جواد لفظة غنىّ ليطابق أوّل الكلام آخره ، إلّا أنّ الرواية هكذا وردتْ ، وجواد لا يبخل بمعروفه ، وفى ضمير اللفظ كون ذلك الجواد غنيًا ؛ لأنه قد جعل له معروفا والمعروف لا يكون إلا عن ظهر غِنًى ؛ وباقى الفصل قد سبق شرحُ أمثاله .

(٣٧٩)

الأصْلُ

وَرَوَى ٱبْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِىُّ فِى تَارِيخِهِ ، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبى لَيْلَى ٱلْفَقِيهِ ، وَكَانَ مِمَّنْ خَرَجَ لِقِتَالِ ٱلْحَجَّاجِ مع ٱبْنِ ٱلْأَشْعَثِ ، أَنَّهُ قال فِيمَا كَانَ يَحُضُّ به النَّاسَ عَلَى ٱلْجِهَادِ : إِنِّى سَمِعْتُ علياً رَفَعَ ٱللهُ دَرَجَتَهُ فى الصَّالِحِين ، وَأَثَابَهُ ثَوَابَ الشُّهداء وَالصِّدِّيقِينَ ، يَقُولُ يَوْمَ لَقِينَا أَهْلَ الشَّامِ :

أَيُّهَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ، إِنَّهُ مَنْ رَأَى عُدْوَاناً يُعْمَلُ بِهِ ، وَمُنْكَراً يُدْعَى إِلَيْهِ ، فَأَنْكَرَهُ بِقَلْبِهِ فَقَدْ سَلِمَ وَبَرِئَ ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِلِسَانِهِ فَقَدْ أُجِرَ ، وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَمَنْ أَنْكَرَهُ بِالسَّيْفِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ ٱللهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَكَلِمَةُ الظَّالِمِينَ السُّفْلَى ، فَذَلِكَ ٱلَّذِى أَصَابَ سَبِيلَ ٱلْهُدَى ، وَقَامَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَنُوِّرَ فِى قَلْبِهِ ٱلْيَقِينُ .

***

الشرح :

قد تقدّم الكلام فى النّهيِ عن المنكر ، وكيفيّة ترتيبه ، وكلام أمير المؤمنين فى هذا الفصل مطابِق[1] لما يقوله المتكلّمون – رحمهم الله .

وقد ذكرْنا فيما تقدّم ، وسنذكر فيما بعدُ من هذا المعنى ما يجب . وكان النهىُ عن المنكَر معروفا فى العرب فى جاهليّتها ؛ كان فى قريش حِلْف الفُضول ، تحالفتْ قبائلُ منها على أن يردَعوا الظالم ، وينصُروا المظلوم ، ويردّوا عليه حقّه مابلَّ بحرٌ صوفة ، وقد ذكرنا فيما تقدم .

(١) د : « يطابق » .

(٣٨٠)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ في كلامٍ له غيرِ هذا يجرِي هذا المجرَى :

فَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ لِلْمُنْكَرِ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ ، فَذَلِكَ الْمُسْتَكْمِلُ لِخِصَالِ الْخَيْرِ ؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ ، فَذَلِكَ مُتَمَسِّكٌ بِخَصْلَتَيْنِ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ ، وَمُضَيِّعٌ خَصْلَةً ؛ وَمِنْهُمُ الْمُنْكِرُ بِقَلْبِهِ ، وَالتَّارِكُ بِيَدِهِ وَلِسَانِهِ ، فَذَاكَ الَّذِي ضَيَّعَ أَشْرَفَ الْخَصْلَتَيْنِ مِنَ الثَّلَاثِ ، وَتَمَسَّكَ بِوَاحِدَةٍ ؛ وَمِنْهُمْ تَارِكٌ لِإِنْكَارِ الْمُنْكَرِ بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ وَيَدِهِ ، فَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ ؛ وَمَا أَعْمَالُ الْبِرِّ كُلُّهَا وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا كَنَفْثَةٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَا يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ ، وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ ، وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ إِمَامٍ جَائِرٍ .

* * *

الشرح :

قد سبق قولُنا في الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر ، وهو أحد الأصول الخمسة عند أصحابنا . ولُجّة الماء : أعظمُه ، وبحرٌ لُجِّيٌّ : ذو ماء عظيم . والنَّفْثَة : الفعلة الواحدة من نَفَثْت الماء من فمي ، أي قذفته بقوّة .

قال عليه السلام : لا يعتقدن أحدٌ أنه إن أمر ظالما بمعروف ، أو نهى ظالما عن منكَر ، أن ذلك يكون سبباً لقتل ذلك الظالم المأمور أو المنهى إياه ، أو يكون سبباً لقطع رزقه من جهته ، فإن الله تعالى قدّر الأجل ، وقضى الرِّزق ، ولا سبيلَ لأحد أن يقطعَ على أحد عمرَه أو رزقَه .

وهذا الكلام ينبغى أن يُحمَل على أنّه حثّ وحضّ وتحريض على النّهى عن المنكر والأمر بالمعروف ، ولا يُحمَل على ظاهرِه ، لأنّ الإنسان لايجوز أن يُلْقِيَ بنفسِه إلى التّهلُكة ، معتمِداً على أنّ الأجل مقدَّر ، وأن الرِّزق مقسوم ، وأنّ الإنسان متَى غلب على ظنّه أنّ الظالم يقتله ويقيم على ذلك المنكر ، ويضيف إليه منكراً آخر لم يَجُزْ له الإنكار .

فأمّا كلمة العدل عند الإمام الجائر فنحو ما رُوِىَ أنّ زيدَ بن أرقم رأى عبيد الله بن زياد ـ ويقال : بل يزيد بن معاوية ـ يَضرِب بقضيبٍ فى يده ثَنايَا الحُسين عليه السلام حين حمِل إليه رأسُه ، فقال له : إيهاً ! ارْفَع يدَك ؛ فطالَما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقبّلها !

***

[فصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر]

ونحن نذكر خلاصةَ ما يقوله أصحابُنا فى النهى عن المنكَر ، ونَترُك الاسْتِقصاء فيه للكُتُب الكلاميّة التى هى أوْلى ببَسط القول فيها من هذا الكتاب .

قال أصحابنا : الكلام فى ذلك يقع من وجوه : منها وجوبُه ، ومنها طريق وجوبِه ، ومنها كيفيّة وجوبِه ، ومنها شروط حُسْنه ، ومنها شروط وجوبِه ، ومنها كيفيّة إيقاعه ، ومنها الكلامُ فى النّاهى عن المنكر ، ومنها الكلام فى النّهى عن المنكر .

أمّا وجوبه ؛ فلا ريبَ فيه ؛ لأنّ المنكَر قبيح كلّه ، والقبيح يجب تركه ، فيجب النّهى عنه .

وأمّا طريق وجوبه فقد قال الشيخ أبو هاشم رحمه الله : إنّه لاطريقَ إلى وجوبِه إلّا السمع ، وقد أجمع المسلمون على ذلك ، ووَرَد بِه نصّ القرآن فى غير موضع .

قال الشيخ أبو عليّ ـ رحمه الله : العقل يدلّ على وجوبه ، وإلى هذا القول مالَ شيخُنا أبو الحسين رحمه الله .

وأمّا كيفيّة وجوبه فإنّه واجب على الكفاية دون الأعيان ، لأنّ الغرض ألّا يقع المنكر ، فإذا وقع لأجل إنكار طائفة لم يَبق وجهٌ لوجوب الإنكار على مَن سواها .

وأما شروط حُسنه فوجوه :

منها أن يكون ماينكره قبيحا ، لأنّ إنكار الحسَن وتحريمه قبيح ، والقبيح على ضروب : فمنه مايَقبُح من كلّ مكلّف ، وعلى كلّ حال ، كالظلم . ومنه مايقبح من كلّ مكلّف على وجهٍ دون وجه ، كالرّمى بالسهام ، وتصريف الحمام ، والعلاج بالسّلاح ، لأنّ تعاطىَ ذلك لمعرفة الحرب والتقوّى على العدوّ ، ولتعرُّف أحوالِ البلاد بالحمام حَسنٌ لايجوز إنكاره ، وإن قصد بالاجتماع على ذلك الاجتماع على السّخف واللّهو ومعاشرة ذوى الرِّيَب والمعاصى فهو قبيحٌ يجب إنكارُه .

ومنه مايَقبحُ من مكلّف ويَحسنُ من آخَر على بعض الوجوه ، كشُرب النَّبيذ ، والتشاغل بالشِّطْرنْج ، فأما مَنْ يرى حَظْرَهما ، أو يختار تقليد من يُفتى بحظْرهما فحرامٌ عليه تعاطيهما على كلّ حال ، ومتى فعلهما حَسُن الإنكار عليه ، وأما من يرى إباحتهما أو مَنْ يختار تقليد مَنْ يُفتى بإباحتهما ، فإنّه يجوز له تعاطيهما على وجهٍ دون وجه ؛ وذلك أنه يَحسُن شرب النبيذ من غير سُكر ولا مُعاقَرة والاشتغال بالشِّطْرنج للفرجة وتخريج الرأى والعقل ، ويَقبُح ذلك إذا قُصِد به السخف ، وقُصِد بالشرب المعاقَرة والسُّكْر ، فالثانى يحسن إنكاره ويجب ، والأوّل لايَحسُن إنكاره لأنه حَسنٌ مِن فاعِله .

ومنها أن يعلم المنكِر أنّ مايُنكِره قبيح ، لأنه إذا جوّز حسنَه كان بإنكاره له وتحريمه إيّاه محرِّما لما لايأمن أن يكون حَسنا ، فلا يأْمن أن يكون ما فَعله من النّهى

نَهْيا عن حَسَن ، وكلُّ فعل لا يأمن فاعلُه أن يكون مختصا بوجه قبيح فهو قبيح، ألا ترى أنه يقبحُ من الإنسان أن يخبر على القطعِ بأن زيدا فى الدار إذا لم يأمن ألّا يكون فيها ؛ لأنه لا يأمن أن يكون خبره كَذِبا !

ومنها أن يكون ماينهى عنه واقعا ، لأنّ غير الواقع لايحسنُ النهى عنه ، وإنما يحسنُ الذمّ عليه ، والنهىُ عن أمثاله .

ومنها ألّا يغلب على ظنّ المنكِر أنه إن أنكر المنكَر ، فعله المنكَر عليه ، وضمّ إليه منكَرا آخر ، ولو لم ينكِرْ عليه لم يفعل المنكر الآخر ، فمتى غَلَب على ظنّه ذلك قَبُح إنكاره ، لأنه يصير مَفسدة ، نحو أن يغلب على ظننا أنّا إن أنكرْنا على شارب الخمر شُرْبَها شربها وقرن إلى شربها القتل ، وإن لم ننكِر عليه شربها ولم يقتل أحدا .

ومنها ألّا يغلب على ظنّ الناهى عن المنكَر أنّ نهيه لايؤثر ، فإن غلب على ظنه ذلك قَبُح نهيه عند من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر لايحسن، إلا أن يكون فيه لطف لغير ذلك المكلّف . وأما من يقول من أصحابنا إنّ التكليف من المعلوم منه أنه يكفر حسن وإن لم يكن فيه لطف لغير المكلّف ، فإنه لا يصحّ منه القول بقبح هذا الإنكار

فأما شرائط وجوب النهى عن المنكر فأمور :

منها أن يغلب على الظنّ وقوع المعصية نحو أن يَضِيق وقتُ صلاة الظهر ، ويرى الإنسان لايتهيّأ للصلاة ، أو يراه تهيّأ لشرب الخمر بإعدادِ آلتهِ ، ومتى لم يكن كذلك حَسُنَ منّا أن ندعوَه إلى الصلاة ، وإن لم يجب علينا دعاؤه .

ومنها ألّا يغلب على ظنّ الناهى عن المنكَر أنه إن أنكر المنكَر لحقتْه فى نفسه وأعضائه مضرّة عظيمة ، فإن غلب ذلك على ظنّه وأنه لا يمتنع من ينكر عليه من فعل

مايُنْـكِره عليه أيضا ، فإنه لا يجب عليه الإنـكار ، بل ولا يحسن منـه لأنه مفسدة .
وإن غلب على ظنّه أنه لايفعل ماأنـكره عليه ولـكنّه يضَرّ به ؛ نُظر فإن كان إضراره به أعظم قُبحا مما يتركه إذا أنـكر عليه ، فإنه لايحسن الإنـكار عليه ، لأن الإنكار عليه قد صار والحالة هذه مفسدة ؛ نحو أن ينْـكر الإنسانُ على غيره شُربَ الخمر ، فيتركُ شربَها ويقتله . وإن كان مايتركه إذا أنـكر عليه أعظم قبحا مما ينزل به من المضرّة ، نحو أن يَهُمّ بالـكفر ، فإذا أنـكر عليه تركه وجَرح المنكَر عليه أو قتله فإنه لايجب عليه الإنكار، ويحسن منه الإنـكار ؛ أما قولنا : لايجب عليه الإنـكار ؛ فلأنّ الله تعالى قد أباحنـا التكلم بكلمة الـكفر عند الإكراه ، فبأنْ يبيحنا ترك غـيرنا أن يتلفّظ بذلك عند الخوف على النفس أوْلى ؛ وأمّا قولُنا : إنه يحسن الإنـكار ، فلأنّ فى الإنـكار مع الظنّ لما ينزل بالنفس من المَضرة إعزازا للدِّين ، كما أنّ فى الامتناع من إظهار كلمة الـكفر مع الصبر على قتل النفس إعزازا للدِّين ، لافصل بينهما .

فأما كيفية إنكار المنـكر فهو أن يبتدئ بالسهل ، فإن نفع وإلّا ترقى إلى الصّعب ؛ لأن الغرض ألاّ يقع المنكَر ، فإذا أمكن ألاّ يقع بالسهل فلا معنى لتـكلّف الصّعب ، ولأنه تعالى أمرَ بالإصلاح قبل القتال فى قوله : ﴿ فأصلحوا بينهما فإن بغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى ﴾ (١) .

فأما الناهى عن المنـكر مَنْ هو ؟ فهو كلّ مسلم تمـكّن منه واختصّ بشرائطه ، لأنّ الله تعالى قال : ﴿ وَلْتَـكُنْ مِنْـكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْـكَرِ ﴾ (٢) ، ولإجماع المسلمين على أنّ كلّ مَن شاهد غيره تاركا للصّلاة غير محافظ عليها فله أن يأمره بها ، بل يجب عليه ، إلاّ أنّ الإمام وخلفاءه أوْلَى بالإنـكار بالقتال ، لأنه أعرَف بسياسة الحرب وأشدّ استعدادا لآلاتها .

---

(١) سورة الحجرات ٩ .
(٢) سورة آل عمران ١٠٤ .

فأمّا المنهىّ مَن هو ؟ فهو كلّ مكلّف اُختصّ بما ذكرناه من الشّروط ، وغير المكلّف إذا همّ بالإضرار لغيره يمنَع منه ، ويمنَع الصّبيان وينهون عن شُرْب الخمر حتّى لا يتعوّدوه ، كما يؤاخذون بالصّلاة حتى يمرنوا عليها ، وهذا ماذكره أصحابُنا .

فأمّا قولُه عليه السلام : « ومنهم المنكِر بلسانِه وقلبه ، والتاركُ بيدِه ، فذلك متمسِّك بخَصْلتين من خصال الخير ، ومضيِّع خَصْلة » ، فإنّه يَعنى به من يَعجِز عن الإنكار باليد لمانع ، لأنّه لم يُخرِج هذا الكلامَ مخرج الذمّ ، ولو كان لم يَعْنِ العاجز لَوَجبَ أن يخرج الكلام مَخرَج الذم ، لأنه ليس بمعذور فى أن يُنكِر بقلبه ولسانه إذا أخلّ بالإنكار باليد مع القدرة على ذلك ، وارتفاع الموانع .

وأمّا قوله : « ضيّع أشرف الخصلتين » فاللّام زائدة ، وأصلُه « ضيّع أشرفَ خَصْلتين من الثّلاث » ، لأنّه لا وجهَ لتعريف المعهود هاهنا فى الخصْلتين ، بل تعريف الثّلاث باللّام أولَى ؛ ويجوز حذفُها من الثّلاث ، ولكنّ إثباتَها أحسَن ، كما تقول : قتلتُ أشرفَ رجلين من الرّجال الثلاثة .

وأمّا قوله : « فذلك ميّت الأحياء » ، فهو نهاية مايكون من الذمّ .

واُعلمْ أنّ النهىَ عن المنكَر ، والأمرَ بالمعروف عند أصحابنا أصل عظيم من أصول الدّين : وإليه تذهَب الخوارجُ الّذين خرجوا على السُّلطان ، متمسّكين بالدِّين وشِعار الإسلام ، مجتهدين فى العبادة ، لأنّهم إنّما خرجوا لِما غلب على ظنونهم ، أو عَلِموا جَوْر الوُلاة وظلمهم ، وأنّ أحكام الشريعة قد غُيِّرت ، وحُكِم بما لم يَحكُم به الله ، وعلى هذا الأصل تَبنى الإسماعيليّةُ من الشِّيعة قَتْلَ ولاةِ الجوْر غِيلَةً ، وعليه بناء أصحاب الزُّهد فى الدّنيا الإنكار على الأمراء والخلَفاء ، ومواجهتهم بالكلام الغليظ لمّا عجزوا عن الإنكار باليَدِ ، وبالجملة فهو أصلٌ شريف أشرَفُ من جميع أبوابِ البرّ والعبادة ، كما قال أميرُ المؤمنين عليه السلام .

(٣٨١)

الأصْلُ :

وروى أبو جُحَيْفَةَ قال : سَمِعْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلامُ يَقُولُ :

إنَّ أَوَّلَ مَا تُغْلَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْجِهَادِ ، الْجِهَادُ بِأَيْدِيكُمْ ، ثُمَّ بِأَلْسِنَتِكُمْ ، ثُمَّ بِقُلُوبِكُمْ ، فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ بِقَلْبِهِ مَعْرُوفاً وَلَمْ يُنْكِرْ مُنْكَراً ، قُلِبَ فَجُعِلَ أَعْلَاهُ أَسْفَلَهُ ، وَأَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ .

* * *

الشرح :

إنّما قال ذلك لأنّ الإنكار بالقَلْب آخِرُ المراتب ، وهو الّذى لا بدّ منه على كلّ حال ، فأمّا الإنكار باللّسان وباليد فقد يكون منهما بُدٌّ ، وعنهما عُذْر ، فمن ترك النهىَ عن المنكر بقلبه ، والأمرَ بالمعروف بقلبه ، فقد سَخِط اللّهُ عليه لعصيانه ، فصار كالممسوخ الّذى يَجعَل الله تعالى أعلاه أسفَله ، وأسفَله أعلاه تشويهاً لخلقته ، ومن يقول بالأنفس الجسمانيّة ، وإنّها بعد المفارقة يَصعَد بعضُها إلى العالم العُلْوىّ : وهى نفوس الأبرار وبعضها يَنزِل إلى المركز ، وهى نفوس الأشرار ، يتأوّل هذا الكلام على مذهبه ، فيقول : إنّ مَنْ لا يعرف بقلبه معروفا ، أى لا يَعْرِف من نفسه باعثاً عليه ولا متقاضياً بفعله ، ولا يُنكِر بقلبه منكرا ، أى لا يأْنف منه ولا يستقبحه ، ويتمعض من فعله يقلب نفسه التى قد كان سبيلُها أن تَصعَد إلى عالَمِها فتُجعَل هاويةً فى حَضيض الأرض ، وذلك عندهم هو العذاب والعقاب .

(٣٨٢)

الأَصْلُ :

إِنَّ ٱلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِىءٌ ، وَإِنَّ ٱلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِىءٌ .

***

الشرح :

تقول : مرُؤَ الطّعام بالضّم ، يَمْرُؤُ مَراءة فهو مَرِىءٌ على « فَعِيل » مثل خفيف وثقيل ، وقد جاء مَرِئَ الطّعام بالكسر ، كما قالوا فقِه الرجُل وفقُه . وَبِئَ البلد بالكسر يَوْبَأ وبَاءة فهو وَبِىءٌ على « فعيل » أيضا ، ويجوز فهو وَبِئٌ على « فَعِل » مثل حَذِر وأَشِر .

يقول عليه السلام : الحقّ وإن كان ثقيلا إلّا أن عاقبته محمودة ، ومَغَبّته صالحة ، والباطلُ وإن كان خفيفا إلّا أنّ عاقبته مذمومة ، ومَغَبّته غيرصالحة ، فلا يحملنّ أحدَكم حلاوةُ عاجلِ الباطل على فعله ، فلا خَير فى لذّة قليلة عاجلة ، يتعقّبها مضارُّ عظيمةٌ آجلة ، ولا يَصرِفنّ أحدَكم عن الحق ثِقلُه فإنّه سيَحمَد عُقبَى ذلك ، كما يَحمَد شاربُ الدّواء المُرّ شُرْبه فيما بعدُ إذا وَجَد لذّة العافية .

(٣٨٣)

الأصلُ

لا تأمَنَنَّ على خيرِ هذهِ الأمّةِ عذابَ اللهِ ، لقولِهِ سُبحانَهُ وتعالى : ﴿ فلا يأمَنُ مكرَ اللهِ إلّا القومُ الخاسِرُونَ ﴾(١) ولا تيأسَنَّ لشرِّ هذهِ الأمّةِ مِنْ رَوْحِ اللهِ تعالى ، ﴿ إنّهُ لا ييأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلّا القومُ الكافِرُونَ ﴾(٢) .

* * *

الشّرحُ :

هذا كلامٌ ينبغى أن يُحمَل على أنه أراد عليه السلام النّهىَ عن القطع على مغيب أحدٍ من النّاس ، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول : فلان قد نجا ، ووجبتْ له الجنّة ، ولا فلان قد هلَك ووجبتْ له النار ، وهذا القول حقّ ، لأنّ الأعمال الصالحة لا يُحكَم لصاحبها بالجنّة إلّا بسلامة العاقبة ، وكذلك الأعمال السّيئة لا يُحكَم لصاحبها بالنّار إلّا إنْ مات عليها ؛ فأمّا الاحتجاج بالآية الأولى فلقائل أن يقول : إنها لا تدلّ على ما أفتى عليه السلام به ، وذلك لأنّ معناها أنه لا يجوز للعاصى أن يأمن مكرَ الله على نفسه ، وهو مقيمٌ على عِصيانه ، ألا ترى أنّ أوّلها : ﴿ أفأمِنَ أهْلُ القُرَى أنْ يأتِيَهُمْ بأسُنا بياتًا وهُمْ نائمُونَ * أوَأمِنَ أهْلُ القُرَى أنْ يأتِيَهُمْ بأسُنا ضُحًى وهُمْ يلعبُونَ * أفأمِنُوا مكْرَ اللهِ فلا يأمَنُ مكْرَ اللهِ إلّا القوْمُ الخاسِرُونَ ﴾(٣) ، وليست دالّة على ما نحن

---

(١) سورة الأعراف ٩٩ .
(٢) سورة يوسف ٨٧ .
(٣) سورة الأعراف ٩٧ ـ ٩٩ .

فيه ، لأن الذى نحن فيه : هل يجوز لأحدٍ أن يأمَن على الصّالحين من هذه الأمّة عذابَ الله .

فأمّا الآية الثانية فالاحتجاج بها جيّد لا شُبهةَ فيه ، لأنّه يجوز أن يتوب العاصى والتوبة من رَوْح الله .

فإن قلتَ : وكذلك يجوز أن يَكفرُ المسلِم المطيع .

قلت : صدقتَ ، ولكنّ كفرَه ليس من مكرِ الله ، فدَلّ على أنّ المراد بالآية أنه لا ينبغى للعاصى أن يأمَن من عقوبة الله ما دام عاصياً ، وهذا غيرُ مسألتِنا .

(٣٨٤)

الأصل :

الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِئِ الْعُيُوبِ ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى كُلِّ سُوءٍ .

***

الشرح :

قد تقدّم القول فى البخل والشّحّ . ونحن نذكرها هنا زيادات أخرى .

***

[أقوال مأثورة فى الجود والبخل]

قال بعض الحكماء : السّخاء هيئة للإنسان ، داعيةٌ إلى بَذْل المقتنيات ، حصل معه البَذْل لها أو لم يَحصُل ، وذلك خُلقٌ ، ويقابله الشّحّ ؛ وأمّا الجود ، فهو بذلُ المُقتنَى ؛ ويقابله البُخْل ؛ هذا هو الأصل ، وإن كان كلّ واحد منها قد يُستعمَل فى موضع الآخر ، والّذى يدلّ على صحّة هذا الفرْق أنهم جعلوا اسم الفاعل من السّخاء والشحّ على بناء الافعال الغريزية ، فقالوا : شحيح وسخيّ ، فبنَوْه على « فَعيل » كما قالوا : حليم وسفيه وعَفِيف ، وقالوا : جائد وباخل ، فبنَوْهما على « فاعل » كضارِب وقاتِل ؛ فأما قولُهم : بخيل ، فمصروف عن لفظ «فاعل» للمبالغة ، كقولهم فى راحم رَحيم ، ويدلّ أيضا على أنّ السّخاء غريزة وخُلُق أنّهم لم يَصِفوا البارئ سبحانه ، به فيقولوا سَخِيّ ، فأمّا الشّح فقد عظّم أمره وخوّف منه ، ولهذا قال عليه السلام : « ثلاثٌ مُهلِكات : شحّ مُطاع ، وهوًى متّبَعٌ ، وإعجابُ المرء بنفسه » ، فخصّ المطاع تنبيها على أنّ وجودَ الشّحّ

فى النفس فقط ليس مما يستحق به ذم لأنه ليس من فعله ، وإنما يذم بالانقياد له ؛ قال سبحانه : ﴿ ومَن يُوقَ شُحَّ نفسِه ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وأُحْضِرتِ الأنفسُ الشُّحَّ ﴾ (٢) .

وقال عليه السلام : لا يجتمع شحٌ وإيمانٌ فى قلب أبدا .

فأمّا الجود فإنّه محمود على جميع ألسنة العالم ، ولهذا قيل : كفى بالجود مدحا أنّ اسمَهُ مطلَقا لا يقع إلّا فى حَمْد ، وكَفَى بالبخل ذمًّا أن اسمه مطلقاً لا يقع إلا فى ذم .

وقيل لحكيم : أىّ أفعال البَشَر أشبه بأفعال البارى سبحانه ؟ فقال : الجود .

وقال النّبى صلى الله عليه وآله : « الجودشجرةٌ من أشجار الجنّة،مَن أخَذَ بغُصْنٍ مِن أغصانِها أدّاه إلى الجنة ، والبخلُ شجرةٌ من أشجار النّار من أخذ بغُصْنٍ من أغصانِها أدّاه إلى النّار » .

ومن شَرَف الجود أن الله سبحانه قَرَن ذكره بالإيمان ، ووَصَف أهله بالفلاح ، والفَلاح اسمٌ جامع لسعادة الدّارَين ؛ قال سبحانه : ﴿ الذينَ يُؤْمِنون بالْغَيبِ وَيُقِيمُونَ الصّلاة ومِمّا رَزَقْنَاهُم ينفقون ﴾ إلى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلِحون ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٤) .

وحقّ للجود بأن يُقرَن بالإيمان ، فلا شىء أخصّ به وأشدّ مجانَسَة له منه ، فإن من صفة المؤمن انشراح الصّدر ، كما قال تعالى : ﴿ فمن يُرِدِ اللهُ أن يهدِيَهُ يشرحْ صدرَهُ للإسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أن يُضِلّه يجْعلْ صدرَه ضيِّقا حَرَجا كأنّما يَصّعّدُ فى السّماء ﴾ (٥) ؛ وهذا من صفات الجواد والبخيل ، لأنّ الجواد واسعُ الصدر ، منشرح مستبشر للإنفاق والبَذْل ، والبخيل قَنُوط ضيّق الصدر ، حَرِج القَلْب مُمسِك .

وقال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « وأىّ داء أدْوَأ من البُخْل » .

والبُخْل على ثلاثة أضرُب : بخلُ الإنسان بمالِه على نفسه ، وبخلُه بماله على غيره ، وبخلُه

---

(١) سورة التغابن ١٦
(٢) سورة النساء ١٢٨ .
(٣) سورة البقرة ٣ ـ ٥
(٤) سورة الحشر ٩ .
(٥) سورة الأنعام ١٢٥ .

بمال غيره على نفسه أو على غيره وأفحشها بُخله بمالِ غيره على نفسه ، وأهوَنُها – وإن كان لا هيِّنَ فيها – بُخله بماله على غيره .

وقال عليه السلام : « اللّهم اجعلْ لمنفق خَلَفا ؛ ولممسِك تَلَفا » .

وقال : « إنّ الله عزّ وجلّ يُنزِل المعونة على قدْر المؤُونة » .

وقال أيضا : « مَن وسّع وُسِّع عليه » .

وقالت الفلاسفةُ : الجود على أقسام : فمنها الجودُ الأعظم ، وهو الجود الإلٰهيّ ، وهو الفَيْض العامّ المطلَق ، وإنما يختلف لاختلاف الموادّ واستعداداتِها ، وإلّا فالفيض فى نفسه عامٌّ غيرُ خاصّ ، وبعدَه جُودُ الملوك ، وهو الجود بجُزء من المال على من تدعُوهم الدّواعى والأغراض إلى الجود عليه ، ويَتلوه جودُ السّوقة ، وهو بَذْل المال للعُفاة أو النّدامى والشَّرب والمعاشرين والإحسان إلى الأقارب .

قالوا : واسم الجودِ مجاز، إلّا الجود[1] الإلٰهى العامّ ؛ فإنه عارٍ عن الغرَض والدّاعى. وأما من يُعطِى لغرضٍ وداعٍ نحو أن يحبّ الثناء والمحمَدة ، فإنه مستعيض وتاجر يُعطِى شيئاً ليأخذَ شيئاً ، قالوا قولَ أبى نُواس :

فتًى يشترِى حُسنَ الثنــاء بمالِهِ ... ويَعلمُ أنّ الدائراتِ تدورُ

ليس بغاية فى الوَصْف بالجود التامّ ، بل هو وصف بتجارة محمودة ، وأحسَن منه قولُ ابن الرّومى:

وتاجر البـــرّ لا يزالُ له ... رِبْحان فى كل مَتْجر تجرَهْ

أجرٌ وحمدٌ وإنما طلب الأجـ ... ـر ولكنْ كلاهُما اعتورَهْ

وأحسن منهما قولُ بشّار :

ليس يُعطيك للرجاء ولا الخو ... فِ ولكن يَلَذُّ طعَم العَطاءِ[2]

ونحن قد ذكرْنا مافى هذا الموضع من البَحْث العقلى فى كُتُبنا العقليّة .

(١) ب : « على الجود » .

(٣٨٥)

الأصل

يابن آدم ، الرزق رزقان . رزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك ، كفاك كل يوم مافيه ، فإن تكن السنة من عمرك فإن الله تعالى سيؤتيك فى كل غد جديد ماقسم لك ، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهم فيما ليس لك ، ولم يسبقك إلى رزقك طالب ، ولن يغلبك عليه غالب ، ولن يبطىء عنك ماقد قدر لك .

***

قال : وقد مضى هذا الكلام فيما تقدم من هذا الباب ، إلا أنه هاهنا أوضح وأشرح ، فلذلك كررناه على القاعدة المقررة فى أول هذا الكتاب .

***

الشرح :

قد تقدم القول فى معانى هذا الفصل ، وروى أن جماعة دخلوا على الجنيد ، فاستأذنوه فى طلب الرزق ، فقال : إن علمتم فى أى موضع هو فاطلبوه : قالوا : فنسأل الله تعالى ذلك ، قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، قالوا : فندخل البيت ونتوكل وننتظر مايكون ، فقال : التوكل على التجربة شك ، قالوا : فما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وروى أن رجلا لازم باب عمر فضجر منه ، فقال له : ياهذا ، هاجرت إلى الله تعالى أم إلى باب عمر ! اذهب فتعلم القرآن ، فإنه سيغنيك عن باب عمر ، فذهب الرجل

وغاب مدّة حتى افتقده عمرُ ، فإذا هو معتزل مشتغل بالعبادة ، فأتاه عمرُ فقال له إني اشتقْتُ إليك ، فما الذي شَغلك عنّا ! قال : إني قرأتُ القرآن فأغناني عن عمر وآل عمر ، فقــال : رحمك الله ! فما وجدتَ فيه ؟ قال : وجـدتُ فيه : ﴿ وَفِي السَّماء رِزْقُكُم وماتوعدون ﴾[1] ، فقلت : رِزْقي في السماء ، وأنا أطلبه في الأرض ، إني لبئس الرّجل ، فبكى عمرُ وقال : صدقت ، وكان بعد ذلك ينتابه ويَجلسُ إليه .

---

(١) سورة الذاريات ٢٢ .

(٣٨٦)

الأَصْلُ :

رُبَّ مُسْتَقْبِلٍ يَوْماً لَيْسَ بِمُسْتَدْبِرِهِ ، ومَغْبُوطٍ فى أَوَّلِ لَيْلَةٍ قامَتْ بوَاكِيهِ فى آخِرِهِ [١] .

***

الشَّرْحُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

يا راقدَ الليل مسروراً بأوّله ... إنّ الحوادث قد يَطرُقن أسحارا

ومِثلُه :

لا يَغُرّنك عِشاءٌ ساكنٌ ... قد يُوافى بالمَنِيّات السَّحَرْ

---

(١) فى د « ومغبوط فى أول ليل قامت بواكيه فى آخره » .

(٣٨٧)

الأصلُ :

الـكلامُ فى وَثاقِكَ مالَمْ تتـكلَّمْ بِهِ ، فإذا تـكلَّمت به صِرْتَ فى وَثاقِهِ ؛ فاخْزُنْ لِسانَكَ كما تَخْزُنُ ذَهَبَكَ ووَرِقَكَ ؛ فَرُبَّ كلِمةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً .

***

الشرحُ :

قد تقدم القولُ فى مدح الصمت وذمِّ الكلام الـكثير .

وكان يقال : لاخير فى الحياة إلا لصَمُوت واعٍ ، أو ناطق مُحسِن .

وقيل لحذيفة : قد أطلتَ سجن لسانِك ! فقال : لأنه غيرُ مأمون [إذا أُطلِق] [1] .

ومن أمثال العرب : رُبَّ كلمةٍ تقول : دَعْنى .

وقالوا : أصلها أنّ بعض ملوك الحيرة كان قد استراب ببعض خَوَله ، فنزل يوماوهو يتصيّد على تَلْعة ، ونزل أصحابُه حوله فأفاضوا فى حديث كثير ، فقال ذلك الإنسان : أترى لو أنّ رجلا ذُبحَ على رأس هذه التّلعة هل كان يسيلُ دمُه إلى أوّل الغائط ؟ فقال المَلِك : هَلُمّوا فاذْبحوه لننظر ، فذَبحوه ، فقال المَلِك : ربَّ كلمةٍ تقولُ : دَعْنى .

وقال أكثمُ بن صَيْفىّ : من إكرام الرّجل نفسَه ألّا يتـكلّم بكلّ مايعلم .

وتذاكر قومٌ من العرب وفيهم رجلٌ باهلِىٌّ ساكت ، فقيل له : بحَقّ ما سُمّيتم خُرْسَ العَرَب [2] ، فقال : أما علمتم أنّ لسان المرء لغيره ، وسمعَه لنفسِه !

---

(١) من ا ، د .

(٢) كذا فى ا ، وبعدها فى ب : فقالوا له : لم لا تتـكلم ؟ فقال : أما علمتم . . . » .

(٣٨٨)

الأَصْلُ :

لَا تَقُلْ مَالَا تَعْلَمُ ؛ بَلْ لَا تَقُلْ كُلَّ مَاتَعْلَمُ ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدْ فَرَضَ عَلَى جَوَارِحِكَ كُلِّهَا فَرَائِضَ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

***

الشَّرح :

هذا نَهىٌ عن الكذب ، وأن تقول مالا تَأمَن من كونه كَذِبا ، فإنّ الأمرين كِليْهما قبيحان عَقْلا عند أصحابنا .

فإن قلتَ كيف يقول أصحابكم : إنّ الخبر الّذى لايأمن كونه كَذِبا قبيح ، والناس يَسْتَحسِنون الأخبارَ عن المظنون(١) .

قلت : إذا قال الإنسان : زيدٌ فى الدار وهو يظنّه فى الدار ولا يَقطع عليه ، فإنّ الحسَن منه أن يُخبر عن ظنّه كأن يقول : أُخبِرُ عن أنّى أظنّ أنّ زيداً فى الدار ، وإذا كان هذا هو تقديره فالخبر إذنْ خبرٌ عن معلوم لا عن مَظْنونٍ ، لأنّه قاطع على أنه ظانّ أنّ زيداً فى الدار .

فأما إذا فرِض الخبر لا على هذا الوجه بل على القَطْع بأن زيداً فى الدار وهو لايقطع على أنّ زيدا فى الدّار ، فقد أخبر بخبرٍ ليسَ على ما أخبر به عنه ، لأنّه أخبر عن أنه قاطع ، وليس بقاطعٍ ، فكان قبيحاً .

---

(١) كذا فى ا ، ب وفى د : « المظنونات » .

(٣٨٩)

الأصْلُ :

احْذَرْ أَنْ يَراكَ اللهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَيَفْقِدَكَ عِنْدَ طَاعَتِهِ ، فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ؛ وَإِذَا قَوِيتَ فَاقْوَ عَلَى طَاعَةِ اللهِ ، وَإِذَا ضَعُفْتَ فَاضْعُفْ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ .

***

الشرح :

مَن علم يقيناأنّ الله تعالى يراه عند معصيته، كان أجْدَرَ الناس أن يجتنبها ؛ كما إذا علمْنا يقينا أنّ الملك يرى الواحد منّاوهو يراود جاريتَه عن نفسها ، أو يحادث ولده ليفجُر به ، ولكنّ اليقين فى البَشَرِ ضعيفٌ جدّا ، أو أنهم أحمقُ الحيوان وأجهلُه ، وبحقّ أقول: إنّهم إن اعتقدوا ذلك اعتقاداً لايخالطه الشكّ ، ثم واقعوا المعصية ، وعندهم عقيدة أخرى ثابتة أنّ العقاب لاحِقٌ بمن عصى ، فإن الإبلَ والبقرَ أقربُ إلى الرّشاد منهم .

وأقول : إنّ الذى جرّأ الناسَ على المعصية الطمعُ فى المغفرة ، والعفو العامّ .وقولهم: الحلم والكرم والصّفح من أخلاق ذوى النّباهة والفَضْل من الناسِ ، فكيف لايكون من البارى سبحانه عفوٌ عن الذّنوب !

وما أحسَن قولَ شيخِنا أبى علىّ رحمه الله : لولا القولُ بالإرْجاء ، لما عُصىَ اللهُ فى الأرض .

(٣٩٠)

الأصْلُ :

الرُّكُونُ إلَى الدُّنيَا مَعَ ما تُعَايِنُ مِنْهَا جَهْلٌ ، وَالتَّقْصِيرُ فِي حُسْنِ العَمَلِ إذَا وَثِقْتَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ غَبْنٌ ، وَالطُّمَأْنِينَةُ إلَى كُلِّ أَحَدٍ قَبْلَ الاخْتِبار لَهُ عَجْزٌ .

***

الشَّرح :

قد تقدّم الكلام فى الدّنيا وحُمْق من يرْكن إليها مع معاينة غدرِها ، وقلّة وفائها ونقضِها عهودَها ، وقتلِها عُشاقها .

ولا ريبَ أن الغَبْن وأعظمُ الغَبْن هو التقصير فى الطاعة مع يقين الثواب عليها ، وأمّا الطمأنينة إلى مَنْ لم يعرف ولم يختبرْ فإنها عجز ـ كما قال عليه السلام ـ يَعنى عجزاً فى العقل والرأى ، فإن الوثوق مع التجربة فيه ما فيه ، فكيف قبل التجربة !

وقال الشاعر :

وكنتُ أرى أن التجاربَ عُدَّةٌ ... فخانت ثقاتُ النّاس حين التّجارِبِ

(٣٩١)

الأصْلُ :

مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللهِ أَنَّهُ لَا يُعْصَى إِلَّا فِيهَا ، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْـــدَهُ إِلَّا بِتَرْكِهَا .

***

الشَّرْحُ :

هذا الـكلام نسبَه الغَزالىّ فى كتاب " إحياء علوم الدين " إلى أبى الدَّرداء ، والصحيح أنه من كلام علىٍّ عليه السلام ، ذكَرَه شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ فى غير موضع من كُتُبه ، وهو أعرَف بكلامِ الرجال .

***

[نبذ مما قيل فى حال الدنيا وهوانها واغترار الناس بها]

وقد تقدّم من كلامنا فى حال الدنيا وهَوانِها على الله واغترارِ الناس بها وغدْرِها بهم[(١)] ، وذَمِّ العقلاء لها ، وتحذيرهم منها ما فيه كفاية .

ونحن نذكر ها هنا زيادةً على ذلك .

يقال : إنّ فى بعض كتب الله القديمة : الدّنيا غنيمة الأكياس ، وغفلة الُجهّال ، لم يَعرِفوها حتى خرجوا منها فسألوا الرّجعة فلم يرجِعوا .

وقال بعض العارفين : مَن سأل الله [تعالى][(٢)] الدّنيا فإنما سأله طولَ الوقوف بين يديه .

(١) ا : « وغدرهم بها » .

(٢) من د .

وقال الحسن : لا تخرُج نفسُ ابنِ آدمَ من الدّنيا إلّا بحسَرات ثلاث : أنه لم يَشبَع مما جَمع ، ولم يُدرِكْ ما أمّل ، ولم يُحسِنِ الزّاد لِما يُقدِم[1] عليه .

ومن كلامه : أهِينوا الدّنيا ، فوالله ماهِيَ لأحدٍ بأهنأَ منها لمن أهانها .

وقال محمد بن المنكدر[2] : أرأيتَ لو أنّ رجلا صام الدهرَ لا يُفطِر ، وقام الليلَ لا يَفتُر ، وتصدّق بماله ، وجاهد فى سبيل الله ، واجتَنب محارمَ الله تعالى ، غير أنّه يؤتَى به يومَ القيامة فيقال : إنّ هذا مع ماقد عمل كان يَعظم فى عينه ماصغّر الله ، ويصغُر فى عينه ماعظّم الله ، كيف ترى يكون حالُه ! فمَن منّا ليس هكذا ؛ الدّنيا عظيمة عندَه مع مااقترَفْنا من الذنوب والخطايا .

وقد ضرَبَت الحكماء مَثَلا للدّنيا نحن نذكره هاهنا ، قالوا : مَثَل الدّنيا وأهلِها كقوم رَكِبوا سفينةً فانتهتْ بهم إلى جزيرة ، فأمَرَهم الملّاح بالخروج لقضاء الحاجة وحَذّرهم المُقام ، وخوّفهم مرورَ السّفينة؛ واستعجالها ، فتفرّقوا فى نواحى الجزيرة، فقضى بعضُهم حاجتَه وبادر إلى السفينة ؛ فصادف المكانَ خاليا ، فأخذ أوسعَ المواضعِ وألينَها وأوفقَها لمراده . وبعضهم توقّف فى الجزيرة يَنظرُ إلى أزهارها وأنوارِها العجيبة، وغياضِها الملتفّة ، ونَغَمات طيورِها الطيّبة ، وألحانِها الموزونة الغريبة ، ولحظ فى تربتها أحجارَها وجواهرَها ومعادنَها المختلفة الألوان ذواتِ الأشكال الحسَنة المنظرَ ، العجيبة النّقش ، السالبة أعينَ الناظرين بحُسن زِبْرِجها ، وعجائبِ صُوَرِها ، ثمّ تنبّه لخطر فَوات السفينة، فرجع إليها فلم يصادِف إلا مكانا ضيّقا حرَجا ، فاستقرّ فيه . وبعضهم أكبّ فيها على تلك الأصداف والأحجار ، وقد أعجبَه حُسنُها ، ولم تَسمَح نفسُه بإهمالها وترْكِها ، فاستصحَب منها جملةً ، فجاء إلى السفينة فلم يجد إلّا مكانًا ضيّقا ، وزاده ماحمله ضِيقاً ، وصار ثِقْلا عليه ووَبالًا ، فندم على أخذِه ، ولم تُطِعه نفسُه على رميه ، ولم يجد موضعا له ، فحمَلَه على عنقه

---

(١) ا : « قدم عليه » .

(٢) كذا فى ا ، وهو الصواب ، وفى ب ، د : « المنذر » .

ورأسِه ، وجلس فى المكان الضيّق فى السفينة ؛ وهو متأسّف على أخذِه ونادِم ، وليس ينفعه ذلك . وبعضُهم تولّج بتلك الأنوار والغِياض ، ونسىَ السّفينة وأبعَدفى متفرّجِه ومتنزّهه ، حتّى إنّ نداء الملّاح لم يَبلُغه لاشتغاله بأكل تلك الثِّمار ، واشتمامِه تلك الأنوار ، والتفرّج بين تلك الأشجار ، وهو مع ذلك خائفٌ على نفسه من السِّباع ، والسَّقطات والنَّكبات ، ونَهْشِ الحيّات ، وليس ينفكّ عن شوْكٍ يتشبّث بثيابه ، وغصن يَجْرح جسمَه ، ومَرْوةٍ تُدمِى رِجلَه ، وصوتٍ هائل يَفزَع منه ، وعَوْسَج يملأُ طريقَه ، ويَمنعه عن الأنصراف لو أراده ، وكان فى جماعة ممّن كان معه فى السّفينة حالهم حالُه ، فلمّا بلغهم نداء السّفينة راحَ بعضُهم مثقلا بما معه فلم يجدْ فى السفينة موضعا واسعا ولا ضيّقا ، فبقِى على الشّط حتّى مات جوعا . وبعضهم بَلغه النّداء ، فلم يُعرِّج عليه ، واستغرقتْه اللّذّة ، وسارت السفينة ؛ فمنهم من افترسَتْه السِّباع ، ومنهم من تاهَ وهامَ على وجهه حتّى هلك ، ومنهم من ارتَطَم فى الأوحال ، ومنهم من نهشَتْه الحيّات ، فتفرّقوا هَلْكَى كالجيَف المنتِنة . فأمّا من وصل إلى السفينة مُثقلا بما أخذَه من الأزهار والفاكهة اللّذيذة ، والأحجار المعجِبة ، فإنها استرقّته وشغَلَه الحزن بحفظِها والخوفِ من ذَهابها عن جميع أموره ؛ وضاق عليه بطريقها مكانُه ، فلم تَلبَث أن ذبلتْ تلك الأزهار ، وفسَدت تلك الفاكهة الغضّة ، وكَمدتْ ألوانُ الأحجار وحالت ، فظهر له نَتْنُ رائحتها ، فصارت مع كونها مضيقة عليه مؤذِيَةً له بنَتْنِها ووَحْشتِها ، فلم يجد حيلةً إلّا أن ألقاها فى البحر هرَبا منها وقد أثر فى مِزاجه ما أكله منها ، فلم ينتهِ إلى بلده إلّا بعد أن ظهرتْ عليه الأسقام بما أكل وما شمّ من تلك الروائح ، فبلغ سقيما وَقيذاً مدبّرا ، وأمّا من كان رجع عن قريب وما فاته إلّا سَعَة المَحلّ ؛ فإنه تأذى بضِيق المكان مدّة ، ولكن لما وصل إلى الوطن استراح ، وأما من رجع أوّلا فإنه وَجد المكان الأوْسَع ، ووصل إلى الوطن سالما طيّبَ القلب مسرورا .

فهذا مِثال أهلِ الدنيا فى اشتغالهم بحظوظِهم العاجلة ، ونسيانِهم موردَهم ومصدرَهم ، وغفلتَهم عن عاقبة أمرهم ، وما أقبَح حال من يَزعُم أنه بصير عاقل وتغره حجارة الأرض ، وهى الذهب والفضة ، وهَشيم النَّبت وهو زينة الدنيا ، وهو يَعلَم يقينا أن شيئاً من ذلك لايَصحَبه عند الموت ، بل يصير كُلّه وبالًا عليه ، وهو فى الحال الحاضرة شاغلٌ له بالخوف عليه ، والحزن والهمّ لحفظه ، وهذه حالُ الخَلْق كلّهم إلّا من عصَمَه الله .

وقد ضُرِب أيضا لها مِثالٌ آخَر فى عبور الإنسان عليها ؛ قالوا : الأحوال ثلاثة : حالٌ لم يكن الإنسان فيها شيئاً ، وهى ماقبل وجودِه إلى الأزَل ، وحالٌ لايكون فيها موجودا مُشاهداً للدّنيا ، وهى بعد موته إلى الأبد ، وحالة متوسّطةٌ بين الأزَل والأبَد ، وهى أيّام حياته فى الدنيا ، فلْينظر العاقلُ إلى الطَّرَفين الطويلين ، ولينظرْ إلى الحالة المتوسّطة ، هل يجد لها نسبةً إليها[1] ، وإذا رأى العاقل الدّنيا بهذه العين لم يرَكَن إليها ، ولم يُبالِ كيف تقضّت أيّامُه فيها ؛ فى ضُرّ وضِيق ، أو فى سَعةٍ ورَفاهة ، بل لايَبني لَبِنةً على لَبِنة ؛ توفّى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وما وَضَع لَبِنة على لَبِنة ، ولاقَصَبة على قَصَبة . ورأى بعضَ الصّحابة بَنَى بيتا من جِصّ فقال : أرى الأمرَ أعجَل من هــذا ، وأنكَر ذلك ، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله : مالى وللِدنيا ؛ إنما مثلى ومَثَلُها كراكبٍ سار فى يوم صائف ، فرُفِعتْ له شجرةٌ فقام تحت ظِلّها ساعةً ثمّ راح وتركها ؛ وإلى هذا أشار عيسى بنُ مريمَ حيث قال : الدنيا قنطرة ، فاعبرُوها ولا تَعمرُوها ، وهو مَثَلٌ صحيح ، فإنّ الحياة الدنيا قَنطرةٌ إلى الآخرة ، والمَهْد هو أحد جانبَى القَنْطرة ، واللّحد الجانب الآخر ، وبينهما مسافة محدودة ، فمن النّاس من قطع نصفَ القنطَرة ، ومنهم من قطع ثُلثَيها ، ومنهم من لم يبق له إلّا خُطوةٌ واحدة وهو غافل عنها ؛ وكَيفَما كان فلابدّ من العبور والانتهاء ، ولا ريبَ أنّ عمارة هذه القنطرة ، وتزيينها بأصناف الزّينة لمن

---

(١) كذا فى ا ، وفى ب ، د : « إليهما » .

هو محمول قَسْرا وقَهْرا على عُبورها ، يسوقه سائقٌ عنيف ، غاية الجهل والخِذلان .

وفى الحديث المرفوعُ : «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ على شاةٍ ميّتةٍ ، فقال : أترَوْن أن هذه الشاة هيّنةٌ على أهلها : قالوا : نعم ، ومِنْ هوانها ألقَوْها ، فقال : والذى نفسى بيده لَلدّنيا أهوَن على الله من هذه الشّاة على أهلِها ، ولو كانت الدّنيا تعدل عند الله جَناحَ بعوضة لما سَقَى كافراً منها شربةَ ماء » .

وقال صلى الله عليه وآله : « الدّنيا سِجنُ المؤمن ، وجنّة الكافر » .

وقال أيضا : « الدّنْيا ملعونة ، ملعونٌ مافيها ، إلّا ما كان لله منها » .

وقال أيضا : « مَنْ أحبّ دنياه أضرّ بآخرته ، ومن أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثِروا مايَبقَى على مايفنى » .

وقال أيضا : « حُبُّ الدنيا رأسُ كلِّ خطيئة » .

وروى زيدُ بنُ أرقَم قال : كنّا مع أبى بكر ، فدعا بشراب ، فأُتِى بماء وعَسَل ، فلما أدناه مِنْ فيه بكى حتى أبكى أصحابه ، فسكتوا وما سكَت ، ثم عاد ليَشرَب ، فبَكَى حتّى ظنُّوا أنّهم لايقدِرون على مسألته ، ثمّ مسح عينيه ، فقالوا : ياخليفةَ رسول الله ، ماأبكاك ؟ قال : كنتُ مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فرأيتُه يدفَع بيَدِه عن نفسه شيئاً ، ولم أرَ معه أحدا ، فقلت : يارسول الله ، ما الذى تدفع عن نفسك ؟ قال : هذه الدّنيا مُثّلت لى ، فقلتُ لها : إليك عنى ، فرجعتْ وقالت : إنّك إن أفلتّ منّى لم يفلتْ منّى مَن بعدَك . وقال صلّى الله عليهِ وآله : « ياعَجَبا كلّ العَجَب للمصدِّق بدار الخلود وهو يَسْعى لدار الغرور ! » .

ومن الكلام المأثور عن عيسى عليه السلام : لاتتّخذوا الدّنيا ربًّا فتتخذكم الدّنيا عَبيدا ؛ فا كنزوا كَنْزَكم عندَ من لايضيِّعه ؛ فإن صاحب كَنْز الدنيا يخَافُ عليه الآفة ، وصاحب كنز الآخرة لايخاف عليه .

(٣٩٢)

الأَصْلُ

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ .

وفى رِوَايةٍ أُخْرَى : مَنْ فاتَهُ حَسَبُ نَفْسِهِ ، لَمْ يَنْفَعْهُ حَسَبُ آبائِهِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم مِثلُ هذا ، وقد ذكرنا ماعندَنا فيه ، وقال الشاعر :

لئن فخرتَ بآباءٍ ذوِى حَسَبٍ　　لقد صدقتَ ولكنْ بئس ما وَلَدُوا

وكان يقال : أجهَل الناس من افتخر بالعظام البالية ، وتبجّح بالقرون الماضية ، واتّكل على الأيام الخالية .

وكان يقال : من طريف الأمور حَىٌّ يتّكل على ميّت . وكان يقال : ضَعَة الدنىء فى نفسه والرفيع فى أصله ، أقبح من ضعة الوضيع فى نفسِه وأصْله ؛ لأن هذا تشبَّه بآبائه وسَلفِه ، وذاك قصَّر عن أصله وسَلَفه ، فهو إلى الملامة أقرَب ، وعن العذر أبعد .

افتخر شريفٌ بأبيه ، فقال خَصمه : لو وُفقتَ ، لما ذكرت أباك ، لأنه حجّةٌ عليك تُنادى بنقْصك ، وتقرّ بتخلّفك .

كان جعفر بنُ يحيى يقول : ليس من الكِرام من افتخَر بالعظام .

وقال الفضل بن الرّبيع : كفى بالمرء عاراً أن يفتخِر بغيره .

وقال الرشيد : من افتخر بآبائه فقد نادى على نَفْســه بالعَجْز ، وأقرّ على همّته بالدّناءة .

وقال ابنُ الرّومىّ :

وما الحسبُ الموروثُ لا درّ درُّه ... بمحتسب إلا بآخَرَ مُكْتَسَبْ

إذا العُود لم يُثْمر وإن كان شُعبةً ... من الثمرات اعتدّه الناسُ فى الحطَبْ

وقال عبدُ الله بن جعفر :

لسنا ـ وإن أحسابُنا كرُمتْ ـ ... يوما على الآباء نتّكِلُ

نَبني كما كانت أوائلُنـــا ... تَبنِي ، ونفعلُ مِثلَ ما فعلوا

وقال آخَر :

وما فخرِى بمَجدٍ قام غـيرى ... إليه إذا رقدتُ الليــل عنهُ

إلى حَسَب الفتى فى نفسِه أنظرْ ... ولا تنظرْ هُديتَ إلى ابن مَن هُو

وقال آخر :

إذا فخرتُ بآبائى وأجــدادى ... فقد حكمتُ على نفسى لأضدادى

هل نافعى إن سَعَى جَدّى لمكرمةٍ ... ونمت عن أختها فى جانب الوادى !

وقال آخر :

أيُقْنِعـُنِي كونى بِمَنْ كونِيَ ابنه ... أبًا لىَ أن أرضى لفخرى بمجدِهِ

إذا المرء لم يحو العَلاء بنفسه ... فليس بحاوٍ للعَلاء بجَدِّه

وهل يقطع السّيف الحسام بأصلِهِ ... إذا هو لم يقطع بصارم حدِّهِ !

وقيل لرجل يُدِلّ بشرفِ آبائه : لعَمرى لك أوّل ، ولـكن ليس لأوّلك آخر .

ومثلُه أنَّ شريفا بآبائه فاخر شريفا بنَفْسه ، فقال الشريف بنفسه : انتهى إليك شرَف أهلك ، ومنِّي ابتدأ شرَفُ أهلي ، وشتّان بين الابتداء والانتهاء !

وقيل لشريف ناقِص الأدب : إنَّ شرفك بأبيك لغيرِك ، وشرفك بنفسك لك ، فافرُقْ بين مالَكَ وما لغيرِك ، ولا تَفرَح بشرف النسب ، فإنه دون شَرف الأدب .

(٣٩٣)

الأصْلُ :

مَنْ طَلَبَ شَيْئًا نالهُ أوْ بَعْضَهُ .

***

الشرح :

هذا مِثلُ قولهم : مَنْ طلبَ وَجَدّ وجَد .

وقال بعضُ الحكماء : مالازَمَ أحدٌ بابَ المَلِك فاحتَمَل الذلّ وكَظَمَ الغيظ ورَفَق بالبَوّاب وخالط الحاشية إلّا وصَل إلى حاجته من المَلِك .

(٣٩٤)

الأصل :

ماخَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ ، وَمَا شَرٌّ بشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ ؛ وَكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الْجَنَّةِ مَحْقُورٌ ، وكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عافِيَةٌ .

***

الشرح :

موضع « بعده النار » رَفْعٌ لأنّه صفة « خير » الذى بعد « ما » ، وخير يرفع لأنه اسمُ ما ، وموضع الجار والمجرور نَصْب لأنه خبر ما ، والباء زائدةٌ ، مِثلها فى قولك : ما أنت بزيد ، كما تزاد فى خبر ليس ، والتقدير ماخيرٌ تتعقبه النار بخير ، كما تقول : مالذّة تتلوها نغصة بلَذّة ، ولا ينقدح فى ما : الوجهان اللّذان ذكرهما أربابُ الصّناعة النحوية فى « لا » فى قولهم : لا خير بخير بعدَه النار ، أحدهما ماذكرناه فى ما ، والآخر أن يكون موضع « بعده النار » جرًّا لأنه صفة خير المجرور ، ويكون معنى الباء معنى فى كقولك : زيدٌ بالدار وفى الدار ، ويصير تقديرُ الكلام : لا خير فى خيرٍ تعقُبه النار ، وذلك أن ما تَستدعى خبَرا موجودا فى الكلام ، بخلاف لا ، فإن خبرها محذوف فى مِثل قولك : لا إله إلّا الله ، ونحوه ، أى فى الوجود أو لنا أو ما أشبه ذلك ، وإذا جعلت بعده صفة خير المجرور لم يبق معك ما تجعله خبر ما .

وأيضا فإنّ معنى الكلام يَفسد فى ما بخلاف لا ، لأنّ لا لنفى الجنس ، فكأنه

نَفَى جنسَ الخير عن خير تتعقّبه النار ؛ وهذا معنى صحيح ، وكلامٌ منتظم ، وما هاهنا إن كانت نافيةً احتاجَتْ إلى خبر ينتظم به الكلام ، وإن كانت استفهاما فسَد المعنى ، لأنّ « ما » لفظ يُطلب به معنى الاسم ، كقوله : ما العَنقاء ؛ أو يُطْلَب به حقيقةُ الذات، كقولك : ما المَلِك ؟ ولست تطيق أن تدّعى أنّ ما للاستفهام هاهنا عن أحد القِسْمين مَدْخلا لأنّك تكون كأنّك قد قلت : أىّ شىء هو خيرٌ فى خير تتعقبه النار ؟ وهذا كلامٌ لامعنى له .

(٣٩٥)

الأَصْلُ :

أَلَا وَإِنَّ مِنَ ٱلْبَلَاءِ ٱلْفَاقَةَ ، وَأَشَدُّ مِنَ ٱلْفَاقَةِ مَرَضُ ٱلْبَدَنِ ، وَأَشَدُّ مِنْ مَرَضِ ٱلْبَدَنِ مَرَضُ القَلْبِ ؛ أَلَا وَإِنَّ مِنَ النِّعَمِ سَعَةَ المَالِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ سَعَةِ المَالِ صِحَّةُ البَدَنِ ، وَأَفْضَلُ مِنْ صِحَّةِ البَدَنِ تَقْوَى القَلْبِ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدّم الكلام فى الفاقة والغِنى ، فأما المرض والعافية ففى الحديث المرفوع : « إليك انتهت الأمانىّ ياصاحبَ العافية » . فأمّا مَرَض القَلْب وصحّته فالمراد به التّقوى وضدّها ، وقد سبق القول فى ذلك .

وقال أحمدُ بن يوسفَ الكاتب :

المالُ للمرءِ فى معيشتِـــه ... خيرٌ من الوالدَين والولد
وإن تدُمْ نعمةٌ عليك تجدْ ... خيراً من المال صحّةَ الجسدِ
وما بمن نَال فضلَ عافيةٍ ... وقوتَ يومٍ فقرٌ إلى أحدِ

(٣٩٦)

الأصْلُ

لِلْمُؤْمِنِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ : فَسَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ ، وَسَاعَةٌ يَرُمُّ فِيهَا مَعَاشَهُ ، وَسَاعَةٌ يُخَلِّي فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّتِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ ؛ وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ شَاخِصاً إِلَّا فِي ثَلَاثٍ : مَرَمَّةٍ لِمَعَاشٍ ، أَوْ خُطْوَةٍ فِي مَعَادٍ ، أَوْ لَذَّةٍ فِي غَيْرِ مُحَرَّمٍ .

***

الشَّرْحُ :

تقدير الكلام : ينبغى أن يكون زمانُ العاقل مقسوما ثلاثةَ أقسام :

ويرُمّ معاشَه : يُصلحه . وشاخصا : راحلا . وخطوة فى معاد ، يعنى فى عمل المعاد، وهو العبادة والطّاعة .

وكان شيخنا أبو علىّ رحمه الله يَقسِم زمانَه على ما أصف لك : كان يُصلّى الصبحَ والكواكبُ طالعة ، ويَجلس فى مِحرابِه للذِّكر والتّسبيح إلى بعد طُلوع الشمس بقليل، ثمّ يتكلّمَ مع التلامذة وطلبةِ العلم إلى ارتفاع النّهار ، ثمّ يقوم فيصلّى الضُّحى ، ثمّ يجلس فيتمّ البحثَ مع التلامذة إلى أن يؤذّن للظُّهر ، فيصلّيها بنوافلها ، ثمّ يدخل إلى أهله فيُصلِح شأنَه ، ويقضى حوائجه، ثمّ يخرج للعصر فيصلّيها بنوافلها ، ويَجلس مع التلامذة إلى المغرب فيصلّيها ، ويصلّى العِشاء ، ثم يشتغِل بالقرآن إلى ثلثِ الليل ، ثم ينامُ الثلث الأوسَط ، ثمّ يَقعُد فيصلّى الثُّلثَ الأخير كلّه إلى الصّبح .

(٣٩٧)

الأصلُ :

ازْهَدْ فى الدُّنْيا يُبَصِّرْكَ اللهُ عَوْرَاتِهَا ، ولَا تَغفُلْ فَلَسْتَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ .

***

الشرح :

أمَرَه بالزُّهد فى الدنيا ، وجعل جزاء الشَّرط تبصيرَ الله تعالى له عَوْراتِ الدُّنيا ، وهذا حقّ ، لأنّ الرّاغب فى الدنيا عاشقٌ لها ، والعاشق لا يَرَى عيبَ معشوقِه ، كما قال القائل :

وعينُ الرِّضا عن كلّ عيبٍ كَليلةٌ ولكنّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِى المَساوِيَا[1]

فإذا زَهِد فيها فقد سَخِطها وإذا سَخِطها أَبْصَر عيوبَها مُشاهدةً لا رواية .

ثمّ نهاه عن الغفلة ، وقال له : إنّك غيرُ مغفول عنك ، فلاَ تغفَل أنتَ عن نفسك ، فإنّ أحقّ الناس وأولاهم ألَّا يَغفل عن نفسه من ليس بمغفولٍ عنه ؛ ومن عليه رقيب شَهيدٌ يناقِشه على الفَتيل والنَّقِير[2] .

---

(١) هو عبدالله بن معاوية ، الأغانى ١٢ : ٢١٤ (طبعة دار الكتب) .

(٢) الفتيل : ما يكون فى شق النواة ، والنقير : النقرة التى فى ظاهر النواة .

(٣٩٨)

الأَصْلُ :

تَـكَلَّمُوا تُعْرَفُوا ، فَإِنَّ المَرْءَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ .

***

الشَّرْحُ :

هذه إحدى كلماته عليه السلام التى لا قيمةَ لها ، ولا يقدر قَدْرُها ؛ والمعنى قد تداوله الناسُ قال :

وكائنْ تَرى مِن صامتٍ لك معجِبٍ زيادتُه أو نقصُه فى التَّـكلّمِ[1]
لسانُ الفَتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يَبقَ إلّا صورةُ اللَّحمِ والدَّمِ

وكان يحيى بن خالد يقول : ماجلسَ إلىّ أحـدٌ قطّ إلاّ هِبتُه حتى يتكلّمَ ، فإذا تـكلَّمَ إمّا أن تزداد الهيبة أو تَنقُص .

---

(١) ينسبان لزهير ، من معلقتـه بشرح الزوزنى ٩٤ ، وينسبان أيضا للأحنف بن قيس ، وانظر سرح العيون ١١٢ .

(٣٩٩)

الأَصْـلُ :

نِعْمَ الطِّيبُ الْمِسْكُ ، خَفِيفٌ مَحْمِلُهُ ، عَطِرٌ رِيحُهُ .

[فصل فيما ورد فى الطِّيب من الآثار]

***

الشَّـرْحُ :

كان النبى صلى الله عليه وآله كثيرَ التطيّب بالمِسك وبغيره من أصناف الطِّيب . وجاء الخبر الصّحيح عنه : « حُبّب إلىّ من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنّساء ، وقُرّة عينى فى الصّلاة » .

وقد رُويت لفظةُ أمير المؤمنين عليه السلام عنه مرفوعة . ونحوها : « لا تردُّوا الطّيب فإنّه طيب الريح ، خفيفُ المَحمل » .

سَرقَ أعرابىٌّ نافجةَ مسْك ، فقيل له : ﴿ ومَنْ يَغْلُلْ يأْتِ بما غَلَّ يومَ القيامة ﴾[(١)] ، قال : إذَنْ أحمِلها طيّبةَ الرّيح ، خفيفةَ المَحمل .

وفى الحديث المرفوع أنه عليه السلام بايع قوماً كان بيدِ رجلٍ منهم رَدْعٌ[(٢)] خَلوق ، فبايعه بأطراف أصابعه ، وقال : « خيرُ طيبِ الرجال ما ظَهرَ رِيحُهُ وخَفِىَ لونُه ، وخيرُ طِيبِ النّساء ما ظَهرَ لونُهُ وخفِىَ رِيحُهُ » .

وعنه عليه السلام فى صفة أهل الجنّة : « ومَجامِرُهم الأَلُوّة[(٣)] » ، وهى العُودُ المندىّ .

---

(١) سورة آل عمران ١٦١ . (٢) ردع الزعفران : لطخه . (٣) نهاية ابن الأثير ٤ : ٧٠ .

ورَوَى سهلُ بنَ سعد عنه عليه السلام : « إنّ فى الجنة لمَراغاً من مِسْكٍ مِثل مَراغِ دوابّكم هذه » .

ورُوِى عنه عليه السلام أيضا فى صفة الكَوْثر : جالُه المِسك – أى جانبُه – ورَضْراضه التُّوم ، وحَصباؤُه اللؤلؤ[١] .

وقالت عائشة : كأنّى أنظرُ إلى وَبِيص المِسْك فى مَفارِق رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مُحرِم[٢] .

وكان ابنُ عمر يَستجمِر بعُود غير مُطَرًّى ويَجعَل معه الكافور ، ويقول : هكذا رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يَصنَع .

ورَوَى أنسُ بنُ مالك قال : دخل علينا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله فقال عندَنا والوقتُ صَيف ، فعرِق ، فجاءت أُمّى بقارُورةٍ فجعلتْ تَسلُت عرَقه ، فاستيقَظ وقال : يا أمّ سُلَيم ، ما تصنعين ؟ قالت : هذا عَرَقك نَجْعله فى طيبنا ، فإنّه من أطيَب الطِّيب ، ونَرجُو به برَكةَ صِبْياننا ؛ فقال : أَصَبْت .

ومن كلامِ عمرَ : لو كنتُ تاجراً ما اخترتُ غيرَ العِطْر ، إن فاتنى رِبْحُه لم يَفُتنى رِيحُه .

ناوَل المتوكّل أحمدَ بن أبى فَنَن فأْرة مِسك ، فأنشده :

لئن كان هذا طِيبنا وهو طيِّبٌ ... لقد طيَّبَتْه من يدَيك الأناملُ

قالوا : سُمّيَت الغالية غاليةً ، لأنّ عبدَ الله بنَ جعفر أهدَى لمعاويةَ قارورةً منها ، فسأله ، كم أنفقَ عليها ، فذكَر مالاً ، فقال : هذه غاليةٌ فسُمّيتْ غالية .

شمّ مالكُ بنُ أسماء بن خارجة الفَزارىّ من أخته هند بنت أسماء رِيحَ غالية ، وكانت تحتَ الحجّاج ، فقال : علِّمينى طِيبك ؛ قالت : لا أفعل ، أتريد أن تعلّمه

---

(١) التوم : الدر . وهى من « د » .

(٢) الوبيص : البريق :

جَوارِيكِ ! هُوَ لكِ عنـدى ماأردتَه ، ثمّ ضحكتْ وقالت : واللهِ ماتعلّمتُه إلّا من شِعركَ حيث قلتَ :

أطيَبُ الطِّيبِ طيبُ أمِّ أبَانٍ   فأر مسكٍ بعَنبرٍ مَسْحوقِ
خَلَطَتْه بعُودِها وبِبانٍ   فهو أحوَى على اليَدَيْن شريقُ

وَرَوَى أبو قِلابة قال : كان ابن مسعود إذا خرج من بيته إلى المسجد عَرَف مَن فى الطريق أنه قد مرّ من طِيب ريحِهِ .

وروَى الحسنُ بنُ زَيد عن أبيه ، قال : رأيتُ ابن عبّاس حين أحرَم والغاليةُ على صَلْعته كأنها الرُّبّ .

أوْلَمَ المتوكّل فى طُهْر بَنيه ، فلمّا كَثُر اللّعب قال ليحيى بن أكثم : انصرِف أيها القاضى ، قال : ولم ؟ قال : لأنهم يريدون أن يَخلِطوا ؛ قال : أحوَج مايكونون إلى قاض إذا خَلَطوا ، فاستَظرَفه وأمَرَ أن تُغلف لحيتُه ؛ ففُعل ؛ فقال يحيى : إنا لله ! ضاعتِ الغالية ، كانت هذه تكفينى دَهْرا لو دُفِعتْ إلىّ ، فأمر له بزَوْرَق لطيفٍ من ذَهب مملوء من غالية ودُرْج بَخُور ، فأخَذَهما وانصرف .

وروَى عِكرمةُ أنّ ابنَ عبّاس كان يَطلِى جسدَه بالمسك ، فإذا مرّ بالطريق قال الناس : أمرَّ ابنُ عبّاس أمِ المِسك ؟

وقال أبو الضُّحى: رأيتُ على رأس ابن الزّبير من المِسك مالو كان لى لكان رأس مالى.

لمّا بَنى عمرُ بنُ عبد العزيز على فاطمةَ بنتِ عبد الملك أسرَج فى مَسارِجه تلك الليلة الغالية إلى أن طَلَعت الشمس .

كانت لابن عمَر بُندُقة من مسك يبُوكُها بين راحتيه فتفوح رائحتُها[1] .

كان عمرُ بنُ عبد العزيز فى إمارته المدينة يجعَل المِسكَ بين قَدميه ونعلِه ، فقال فيه الشاعر يمدحه :

له نَعلٌ لاتَطَّبِى الكَلبَ ريحُها[2]   وإن وُضِعت فى مجلسِ القومِ شُمّت

---

(١) يبوكها بين راحتيه؛ أى يقلبها. (٢) يطبى: يستميل . والبيت لكثير، انظر خزانة الأدب ٤: ١٤٧

سَمِع عمرُ قولَ سُحَيم عبدِ بنى الحَسْحاس :

وهبّتْ شَمالٌ آخر اللّيـلِ قرّةٌ ... ولا ثوبَ إلّا دِرعها ورِدائيا[1]

فمـا زال بُردى طيّبا من ثيابها ... مَدى الحوْلِ حتّى أنهج البُرد باليا

فقال له : وَيْحك ! إنك مقتول ، فلم تمضِ عليه أيّام حتّى قُتِل .

قال الشّعبى : الرائحة الطيّبة تزيد فى العقل .

كان عبدُ الله بنُ زيد يتخلّق بالخلوق ، ثمّ يجلس فى المجلس .

وكانوا يستحِبّون إذا قاموا من اللّيل أن يَمسحوا مَقاديمَ لِحاهم بالطّيب .

واشترى تميم الدّارىّ حُـلّة بثمانمائة دِرهم ، وهيّأ طِيبا ، فـكان إذا قام من اللّيل تطيّب ولبِس حُلّته ، وقام فى المحراب .

وقال أنَس : ياجميلة ، هيّئى لنا طِيبا أمسح به يدى ، فإنّ ابنَ أمّ ثابت إذا جاء قبّل يدِى - يعنِى ثابتا البُنانىّ .

وقال سَلم بنُ قُتيبة : لقد شممتُ من فلانٍ رائحةً أطيَب من مَشْطة العَروس الحسْناء فى أنف العاشق الشَّبِق .

ومن كلامِ بعضِ الصّالحين : الفاسق رِجْس ولو تَضمّخ بالغالية .

عرَضتْ مدنيّة لـكُثيّر فقالت له : أنت القائل :

فمـا روْضةٌ بالحزْن طيّبة الثّرى ... يَمُجّ النّدى جَثْجاثُهـا وعَرارُها

بأطيَبَ مِن أردانِ عَـزّةَ موْهِناً ... وقد أُوقدتْ بالمَندَل الرّطب نارُها

لو كانت هـذه الصّفة لزِنجيّة تجتلى الحلّة لطابت ، هلاّ قلت كما قال سيّدك[2] أمرؤ القيس :

---

(١) ديوانه ٢٠ .

(٢) فى د « سيد الشعراء » .

أَلَمْ تَرَيَانِى كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً وَجَدتُ بِهَا طِيباً وَإِن لَمْ تَطَيَّبِ (١)

وقال الزَّمخشرىّ : إنّ النوى المُنقَع بالمدينة ينتاب أشرافُها المواضعَ التى يكون فيها ألتماسا لطيب ريحه ، وإذا وَجدوا ريحَه بالعِراق هَرَبوا منها لخبثها ؛ قال : ومن اُختلف فى طُرُقات المدينة وَجَد رائحةً طيّبة وبَنّةً (٢) عجيبة ؛ ولذلك سُمّيت طَيْبة ، والزَّنجيّة بها تجعَل فى رأسها شيئاً من بلحٍ وما لا قيمة له ، فتجد له خُمرةً لا يعدلها بيتُ عَروس من ذَوات الأقدار .

قال : ولو دخلت كلّ غاليةٍ وعطر قصبةَ الأهواز وقصبةَ أنطاكية لوجدتها قد تغيّرتْ وفسدتْ فى مدّة يسيرة .

أراد الرشيد المُقام فى أنطاكية ، فقال له شيخ منها : إنّها ليست من بلادِك ، فإنّ الطِّيب الفاخرَ يتغيّر فيها حتّى لا يُنتَفع منه بشىء ، والسّلاح يَصدأ فيها .

سِيراف : من بلادِ فارسَ ، لها فغْمة طيّبة .

فأرة المِسْك دُوَيْبّة شبيهة بالخِشْف (٣) تكون فى ناحية تُبَّت تُصاد لأجل سُرّتها ، فإذا صادها الصائد عَصَب سُرّتها بعِصاب شديد وهى مدلّاة ، فيجتمع فيها دَمُها ، ثمّ يذبحها ، وما أكثرَ من يأكلها ، ثمّ يأخذ السرّة فيدفِنها فى الشَّعْر حتى يستحيلَ الدمُ المحتقِن فيها مسكا ذكيًا بعد أن كان لا يرام نَتْنا ، وقد يوجد فى البيوت جرْذان سُودٌ يقال لها : فأر المِسك ليس عندها إلّا رائحة لازمة لها .

وذكر شيخُنا أبو عثمانَ الجاحظ قال : سألتُ بعضَ أصحابنا المعتزِلة عن شأن المِسْك فقال : لولا أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله تطيّب بالمسك لما تطيّبتُ به ، لأنّه دم ؛ فأمّا

---

(١) ديوانه ٤١ .

(٢) البنة : الرائحة مطلقا .

(٣) الخشف : ولد الظبى .

الزّباد فليس ممّا يَقرُب ثيابى ، فقلتُ له : قد يرتضع الجدْى من لبن خِنزيرة فلا يَحرُم لَحمُه ، لأنّ ذلك اللّبن أُستحال لَحما ، وخرج من تلك الطّبيعة ، وعن تلك الصورة ، وعن ذلك الاسم ، وكذا لحم الجلّالة ، فالمِسك غيرُ الدّم ، والخلّ غيرُ الخمر ، والجوهر لا يَحرم لذاته وعينِه ، وإنّما يَحرُم للأعراض والعِلل فلا تقزز[1] منه عند ذِكرك الدّم ، فليس به بأس .

قال الزّمخشرىّ : والزّبادة هِرّة . ويقال للزّيْلَع ، وهم الّذين يجتلبون الزّباد يا زَيْلع الزّبادة ماتت ، فيَغضَب .

وقال اُبن جَزْلة الطّبيب فى المنهاج[2] : الزّباد طيبٌ يؤخذ من حيوان كالسِّنّور يقال : إنّه وَسَخ فى رَحِمها .

وقال الزّمخشرى : العنبر يأتى طُفاوةً على الماء لا يدرى أحدٌ معدنه ، يقذفه البحر إلى البرّ فلا يأكل منه شىء إلّا مات ، ولا ينقرُه طائرٌ إلّا بقى منقارُه فيه ، ولا يقع عليه إلّا نصلَتْ أظفارُه ، والبحريّون والعطّارون ربّما وجدوا فيه المنقار والظّفر .

قال : والبال ، وهو سَمَكة طولها خمسون ذراعا ، يؤكل منه اليسير فيموت .

قال : وسمِعتُ ناسا من أهل مكّة يقولون : هو ضفع[3] ثور فى بحر الهند ، وقيل : هو من زبد بحر سَرَنْديب ، وأجوَدهُ الأشهب ، ثمّ الأزرق ، وأدوَنهُ الأسوَد .

وفى حديث ابن عبّاس : ليس فى العنبر زكاة ، إنما هو شىء يَدْسُرُه البحر ، أى يدفَعه .

---

(١) تقزز منه : تباعد .

(٢) كتاب المنهاج لابن جزلة الطبيب ؛ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب رقم ١٠٧ ــ طب .

(٣) ضفع الثور : نجوه .

فأما صاحب المنهاج فى الطبّ فقال : العنبر من عين فى البحر ، ويكون جماجم أكبرها وزنه ألف مثقال ، والأسود أردأ أصنافه ، وكثيرا مايوجد فى أجوافِ السمك التى تأكله وتموت . وتوجد فيه سُهُوكة .

وقال فى المِسك : إنه سُرّة دابّة كالظّبى ، له نابان أبيضان معقّفان إلى الجانب الإنسى كقَرْنين . جاء فى الحديث المرفوع : «لاتمنعوا إماء الله مساجدَ الله،وليخرجْن إذاخرجن تَفِلاتٍ » ، أى غير متطيّبات [1] .

وفى الحديث أيضا : « إذا شهِدَتْ إحداكُن العشاء فلا تمسّ طِيبا » ؛ والمرادمن ذلك ألّا تهيج عليهنّ شهوةُ الرّجال .

قال الشاعر :

والمِسك بينا تراه ممتهَناً ... بفِهْرِ عطّارِه وساحقهِ
حتى تراه فى عارِضَىْ مَلِكٍ ... أو موضَع التّاج من مفارِقهِ

الصَّنَوْبَرِىّ فى استهداء المِسْك :

المِسك أشبَه شىء بالشباب فهَبْ ... بعضَ الشباب لبعضِ العُصْبة الشِّيبِ

يقال : إنّ رجلا وَجَد قِرطاسا فيه اسم الله تعالى ، فرَفَعه ، وكان عنده دينار ، فاشترى به مِسْكا ، فطيّبه ، فرأى فى المنام قائلا يقول له كما طيّبت اسمى لأطيبنّ ذِكرك .

قال خالدُ بنُ صَفْوان ليزيد بن المهلّب : مارأيت صداً المِغفر ، ولا عبَق العَنْبر بأحد أليقَ منه بك ، فقال : حاجَتك ؛ قال : ابنُ أخ لى فى حَبْسك ، فقال : يسبقك إلى المنزل .

---

(١) المنهاج . الورقة : ١٧٤ .

شاعر :

كأنّ دُخانَ النّدّ مابين جَمْرِه بقايا ضبابٍ فى رياضِ شقيقِ

قالوا : خيرُ العُود المَندلِيّ ، وهو منسوبٌ إلى مَندل : قريةٌ من قُرَى الهند ، وأجوَدُه أصلَبه ، وامتحان رَطْبه أن ينطَبِع فيه نَقْش الخاتَم ، واليابس تفْضِح عنه النار ، ومن خاصية المَندلِيّ أنّ رائحته تثبت فى الثوب أسبوعا ، وأنه لا يقمل مادامت فيه .

قال صاحبُ المِنهاج(١) : العُود عروقُ أشجارٍ تقُلع وتُدْفن فى الأرض حتى تتعفّن ، منها الخشبيّة والقشريّة ، ويبقى العود الخالص ، وأجوَدُه المندلِيّ ، ويُجلب من وَسَطَ بلاد الهند ، ثم العود الهندىّ ، وهو يفضل على المَندَلِيّ بأنه لا يولّد القَمْل ، وهو أعبق بالثّياب.

قال : وأفضل العُود أرسَبُه فى الماء ، والطافى ردىء .

قال أبو العبّاس الأعمى :

ليت شعرِى من أينَ رائحةُ المِسْـ ـكِ وما إن أخالُ بالخيف أُنْسى

حين غابتْ بنو أميةَ عنه والبَهاليلُ من بنى عبدِ شَمْس

خُطباء على المنابر فُرْسا نٌ على الخيْل قالةٌ غيرُ خُرْس

بحُلومٍ مِثلِ الجبال رِزانٍ ووجوهٍ مِثلِ الدّنانير مُلْسِ

المسيّب بن عَلَس(٣) .

تبيت الملوكُ على عَتْبها وشَيْبان إن غضبتْ تُعْتَبُ(٤)

وكالشّهد بالراح ألفاظُهم وأخلاقُهمْ منهما أعذَب

---

(١) المنهاج الورقة ١٧٤ . (٢) ديوان الأعشين ٣٥٠ .

وكالمِسك تُرْبُ مَقَـــاماتِهِم ... وتُرْبُ قُبُــــورِهِمُ أطيبُ

أخذه العبّاس بن الأحنف فقال :

وأنتَ إذا ما وطئت التُّرا ... بَ كانَ ترابكَ للنــاسِ طِيبا

وهجا بعضُ الشعراء العمّال فى أيّام عمر ، ووقع عليهم ، فقال فى بعض شعره :

نئوبُ إذا آبوا ونغزُو إذا غزَوْا ... فأنَّى لهمْ وَفْرٌ ولسنا ذَوِى وفْرِ

إذا التـــاجرُ الدارىُّ جاء بفأرةٍ ... من المِسكِ راحتْ فى مَفارقِهمْ تجرِى

فقبض عمرُ على العمال وصادرَهم .

قالوا فى الـكافور : إنه ماء فى شجر مكفور فيه يَغرزونه بالحديد ، فإذا خرج إلى ظاهر ذلك الشجر ضرَبه الهواء فانعقد كالصّمْغ الجامدة على الأشجار .

وقال صاحب المنهاج(١) : هو أصناف : منها الفَنصورى(٢) ، والرّباحى(٣) ، والأزاد ، والإسْفَرك(٤) الأزرق ، وهو المختط بخشبه ، وقيل إن شجرته عظيمة تُظِلّ أكثر من مائة فارس ، وهى بحرية ، وخشب الكافور أبيض إلى الحمرة خفيف ، والرّباحى يوجد فى بدن شجرته قِطَع كالثّلج ، فإذا شققت الشجرةَ تناثر منها الـكافورُ .

النَّدّ : هو الغالية ، وهو العود المطرَّى بالمسك والعَنْبر ودُهن البان ، ومن الناس من لا يضيفُ إليه دهنَ البان ، ويجعل عوضه الـكافور ، ومنهم من لا يضيف إليه الـكافورَ أيضا ، ومن الناس من يركّب الغالية من المسك والعنبر والـكافور ودُهْن النّيلوفر .

قال الأصمعى : قلتُ لأبى المهدّية الأعرابىّ : كيف تقول ؛ ليس الطِّيب إلا المِسك ؟ فلم يحفل الأعرابىّ ، وذهب إلى مذهب آخر ، فقال : فأين أنت عن العنبر ؟ فقلت : كيف تقول : ليس الطِّيب إلا المسك والعنبر ؟ قال : فأين أنت عن البان ، قلت : فكيف

(١) المنهاج : ورقة ١٧٧ .

(٢) فنصور : جزيرة سرنديب . انظر المفردات لابن البيطارج ٤ : ٥٢ طبع بولاق .

(٣) نسبة إلى ملك اسمه رباح انظر نهاية الأرب ج ١١ : ٢٩٤ .

(٤) كذا فى قانون ابن سينا وشرح الأدوية المفردة للـكازرونى ونهاية الأرب ج ١١ : ٢٩٤ .

تقول : ليس الطِّيب إلا المِسك والعنبر والبان ؟ قال : فأين أنت عن ادّهان بحجرٍ ـ يعنى اليمامة ، قلت : فكيف تقول ليس الطِّيب إلا المسك والعنبر والبان وادّهان بحَجَر ؟ قال : فأين أنت عن فارة الإبل صادرةً ؟ فرأيت أنى قد أكثرتُ عليه ، فتركتُه قال : وفارة الإبل رِيحها حين تصدرُ عن الماء . وقد أكلت العُشْب الطيب .

وفى فارة الإبل يقول الشاعر :

كأنّ فارةَ مسكٍ فى مباءتهــــا ... إذا بدا من ضِياء الصبح تنتشرُ

كان لأبى أيوب المَرْزُبانىّ وزير المنصور دُهن طيّبٌ يدهن به إذا ركب إلى المنصور فلمّا رأى الناسُ غلبتَه على المنصور وطاعتَه له فيما يريده ، حتى إنه ربما كان يستحضره ليوقع به ، فإذا رآه تبسم إليه وطابت نفسه قالوا : دهن أبى أيّوب من عمل السحرة ، وضربوا به المَثَل ، فقالوا لمن يَغلب على الإنسان : معه دُهْنُ أبى أيوب .

أعرابىّ : فيها مَدَرُّ كَفّ ومَشَمّ أنف .

وقال عيينة بن أسماء بن خارجة الفزارى :

لو كنتُ أحمل خمراً حين زُرْتكُمُ ... لم ينكر الكلبُ أنّى صاحبُ الدّار

لكن أتيتُ وريح المسك يقدُمنِى ... والعَنبر الورد مَشْبوبا على النّـــارَ

فأنكر الكلبُ ريحى حين خالطنى ... وكان يألف ريح الزّقّ والقــارِ

قال الأصمعى : ذكر لأبى أيوب هؤلاء الذين يتقشّفون ، فقال : ما علمتُ أن القَذَر والذَّفر من الدِّين .

رِيحُ الكَلْب مَثَلٌ فى النّتن ، قال الشاعر :

رِيحهَـــا ريحُ كلابٍ ... هارشتْ فى يومِ طَلّ

وقال آخر :

يزدادُ لؤما على المديح كما ... يزدادُ نَتْن الكلاب فى المطرِ

وقالت امرأةُ امرئ القيس له وكان مُفَرَّكاً عند النساء : إذا عرقْتَ عرقتَ بريح كلْب . قال : صدقتِ : إنّ أهلى أرضعونى مرّةً بلبن كلبة .

قال سَلَمة بنُ عيّاش ، يقول لجعفر بن سليمان :

فما شمّ أنفى ريحَ كفٍّ رأيتها من النّاس إلّا ريح كفّك أطيبُ

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال من المسك ومائة مثقال من العنبر .

وجّه عمرُ إلى مَلِك الرُّوم بريدا فاشترتْ أمُّ كلثوم امرأة عمر طيباً بدنانير وجعلته فى قارورتَين وأهدَتْهما إلى امرأة ملك الرّوم ، فرجع البريد إليها ومعه ملء القارُورتين جواهر ، فدخل عليها عمر ، وقد صبّت الجواهر فى حِجْرها ، فقال : مِن أين لك هذا ؟ فأخبرته ، فقبض عليه ، وقال : هذا للمسلمين ؛ قالت : كيف وهو عِوَض هديّتى ! قال: بينى وبينك أبوك ، فقال علىٌّ عليه السلام : لك منه بقيمة دينارك ، والباقى للمسلمين جملة لأن بريد المسلمين حمَلَه .

قيل لخديجة بنت الرشيد : رُسُل العبّاس بن محمد على الباب ، معهم زِنْبيل يحمله رجلان . فقالت : تراه بعث إلىّ باقلاّء ؟ فكشف الزنبيل عن جرّة مملوءة غالية فيها مسحاة من ذَهب ، وإذا برُقعة : هذه جرّة أصيبتْ هى وأختها فى خزائن بنى أميّة ، فأمّا أختُها فغَلب عليها الخلفاء ، وأمّا هذه فلم أرَ أحدا أحقّ بها منك .

(٤٠٠)

الأصْلُ :

ضَعْ فَخْرَكَ ، وَاحطُطْ كِبْرَكَ ، وَاذْكُرْ قَبْرَكَ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى العجبْ والكبر والفخر .

***

[نبذ ممّا قيل فى التّيه والفخر]

فى الحديث المرفوع : « إنّ الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليّة وفخرها بالآباء ، الناسُ لآدم ، وآدمُ من تراب ، مؤمن تقىّ ، وفاجرٌ شقىّ ، لينتهين أقوام يتفاخرون برجال إنّما هم فحم من فحم جهنّم أو ليكونن أهوَنَ على الله من جُعَلات [1] تدفع النّتن بأنفها » .

ومن وصيّته صلى الله عليه وآله إلى علىّ عليه السلام : « لا فقر أشدّ من الجهل ، ولا وحشة أخش من العُجْب » .

أتى وائلُ بن حُجْر النبىّ صلى الله عليه وآله فأقطعه أرضا ، وأمر معاوية أن يمضى معه فيريَه الأرض ويعرضها عليه ، ويكتبها له ، فخرج مع وائل فى هاجِرة

(١) الجعلات : جمع جعل ؛ بضم ففتح : دويبة معروفة تغشى الأمكنة القذرة .

شاوية ، ومشى خلفْ ناقتِه فأحرقتْه الرَّمضاء ، فقال : أردفْنى : قال : لستَ من أرْداف الملوكِ ، قال : فادفع إلىّ نعليك ، قال : ماُيخْل يَمنَعنى يابن أبى سُفْيان ، ولكن أكرَه أن يَبلغ أقيال[١] اليمن أنك لبستَ نعلى ، ولكن امش فى ظلّ ناقتى فحسْبُك بذاك شرفا ، ويقال : إنّه عاش حتى أدرك زَمن معاوية فأجلسه معه على سريره .

قيل لحكيم : ما الشىء الذى لا يَحسُن أن يقال وإن كان حقا ؟ فقال : الفخر .

حبس هشامُ بنُ عبد الملك الفرزدقَ فى سجن خالد بن عبد الله القَسْرىّ ، فوفد جرير إلى خالد ليشفَع فيه ، فقال له خالد : ألا يسرّك أنّ الله قد أخزى الفرزدقَ ؟ فقال : أيها الأمير ، والله ما أحبّ أن يخزيَه الله إلّا بشعرى ، وإنّما قدمتُ لأشفعَ فيه . قال : فاشفع فيه فى ملأ ليكون أخزَى له[٢] ، فشفع فيه ، فدعا به فقال : إنى مُطلقك بشفاعةِ جرير ، فقال : أسيرُ قَسْرىّ ، وطليقُ كلبىّ ، فبأىّ وجه أفاخر العربَ بعدَها ! ردّنى إلى السّجن .

ذكَر أعرابىّ قوما فقال : مانالوا بأناملهم شيئاً إلّا وقد وطئناه بأخامص أقدامِنا ، وإن أقصى مُناهم لأدنى فعالنا .

نظر رجل إلى بعض ولد أبى موسى يَختال فى مشْيته ، فقال : ألا ترَوْن مشيته؟ كأنّ أباه خدَع عمرو بن العاص !

وسمع الفرزدق أبا بُردة يقول : كيف لا أتبختر وأنا ابن أحد الحَكَمين ، فقال : أحدهما مائق ، والآخر فاسق ، فكن ابن أيّهما شئت .

نظر رسولُ الله صلى الله عليه وآله إلى أبى دُجَانة وهو يتبختر بين الصَّفّين ، فقال : « إنّ هذه مشية يبغضها الله إلاّ فى هذا الموطن » .

(١) الأقيال : جمع قيل ؛ وهو الملك .

(٢) فى د : « أذل له » ؛ وهو مستقيم أيضاً .

لما بلغ الحسنَ بن عليّ عليه السلام قول معاوية : إذا لم يكن الهاشميّ جوادا والأمويّ حليما والعوّاميّ شجاعا والمخزوميّ تيّاها لم يشبهوا آباءهم ؛ فقال : إنه والله ما أراد بها النّصيحة ، ولكن أراد أن يُفنيَ بنو هاشم ما في أيديهم فيحتاجوا إليه ، وأن يَشْجُعَ بنو العوّام فيقتلوا ، وأن يتيه بنو مخزوم فيمقتوا ، وأن يحلم بنو أمية فيُحبّهم الناس .

كان قاضي القضاة محمّد بن أبي الشّوارب الأمويّ تائها ، فهجاه عبدُ الأعلى البصريّ فقال :

إنّي رأيتُ محمّدا متشاوساً ... مستصغرا لجميع هذي الناسِ[1]
ويقول لمّا أن تنفّس خاليا ... نفَساً له يَعْلو على الأنفاسِ
وَيح الخلافَة في جوانب لحيتي ... تستن دون لِحَى بني العبّاسِ !

بعض الأمويّة :

إذا تائهٌ من عبدِ شمسٍ رأيتَهُ ... يتيهُ فرشّحه لكلّ عظيمِ
وإن تاهَ تيّاهٌ سواه فإنه ... يتيهُ لحمقٍ أو يتيه لِلُومِ

لبعض الأمويّة أيضاً :

ألسنا بني مَرْوان كيف تبدّلتْ ... بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ !
إذا وُلد المولود منّا تهلّلتْ ... له الأرض واهتزّت إليه المنابرُ

بعض التيّاهين :

أتيهُ على إنسِ البلاد وجنّها ... ولو لم أجد خَلْقا أتيهُ على نَفسي
أتيه فلا أدري من التّيه من أنا ... سوى ما يقول الناسُ فيّ وفي جنْسي
فإنْ زعموا أني من الإنس مثلهم ... فمالي عيبٌ غير أني من الإنس

---

(١) المتشاوس : المختال عجباً وكبراً .

بعض العَلوية :

لقد نازعتْنا من قريش عصابةٌ ... بمَطِّ خــدودٍ وامتدادِ أصابعِ
فلمّا تنازعْنـــا الفَخَار قَضَى لنا ... عليهمْ بما نَهوى نداء الصّوامع
ترانا سُـكوتاً والشهيدُ بفضْلنا ... عليهمْ أذانُ الناس فى كلّ جامع
بأن رسول الله لاشكَّ جـدُّنا ... وأنَّ بَنِيـــه كالنجوم الطوالع

كان عُمارةُ بن حمزة بن ميمون مولى بنى العباس مَثَلا فى التيه ؛ حتّى قيل : أتيَهُ من عُمارة . وكان يتولّى دواوينَ السّفّاح والمنصور ، وكان إذا أخطأ مضى على خطئـه تـكبّرا عن الرجوع ، ويقول : نَقْض وإبرام فى حالة واحـدة ، الإصرار على الخطأ أهون من ذلك .

وافتخرت أمّ سلمة المخزوميّة امرأةُ السفّاح ذاتَ ليلة بقَوْمها على السّفّاح ، وبنو مخزومٍ يُضرَب بهم المَثَل فى الـكِبْر والتّيه ، فقال : أنا أُحضرُكِ الساعةَ على غير أُهْبة مولًى من مواليَّ ليس فى أهلك مِثله ، فأرسل إلى عُمارة ، وأمر الرسول أن يُعجِله عن تغييرِ زِيّه ، فجاء على الحال الّتى وجده عليها الرّسول فى ثياب ممسَّكة مزرّرة بالذّهب ، وقد غَلّف لحيتَه بالغالية حتّى قامت ، فرمى إليـه السّفّاح بمُدْهن ذهب مملوء غالية ، فلم يلتفت إليه ، وقال : هل ترى لها فى لحيته موضعا ؟ فأخرجتْ أمّ سَلَمة عِقْداً لها ثمينا ، وأمرَت خادما أن يضعه بين يديه ، فقام وتركه ، فأمرت الخادمَ أن يتْبَعه به ، ويقول : إنّها تسألك قبولَه ، فقال للخادم : هوَ لك ، فانصرف بالعِقْد إليهـا ، فأعطت الخادمَ فـكافأه عشرةَ آلافِ دينار ، واسترجعتْه ، وعجبتْ من نفس عُمارة ، وكان عمارة لايذلّ للخُلَفاء وهم مواليه ويَتِيه عليهم .

نظر رجل إلى المَهدىّ ويدُه فى يد عُمـارة ، وهما يَمشِيان ، فقال : ياأميرَ المؤمنين

مَن هذا ؟ قال : هذا أخى ، وابنُ عمّى عُمارة بن حَمْزة ، فلمّا ولّى الرجل ذكر المهدىّ الكلمةَ كالممازح لعُمارة ، فقال عُمارة : واللهِ لقد انتظرت أن تقول : مولاى فأنفض يدى من يدِك ، فتبسّم المهدىّ .

وكان أبو الرّبيع الغنوىّ أعرابيًّا جافياً تياها شديدَ الكِبْر ، قال أبو العباس المبرّد فى الكامل : فذكر الجاحظ أنه أتاه ومعه رجل هاشمىّ ، قال : فناديتُ : أبو الرّبيع هنا؟ فخرج إلىّ وهو يقول : خرج إليك رجلٌ أكرمَ الناسِ ، فلمّا رأى الهاشمىّ استحيا وقال: أكرمُ الناسِ رديفا ، وأشرفهم حليفا[1] ـ أراد بذلك أبا مرْثد الغنوىّ ، لأنه كان رديفَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وحليفَ أبى بكر ـ قال : حدّثنا ساعة ثمّ نهض الهاشمىّ فقلت له : مَنْ خير الخلق ؟ قال : الناس والله ، قلت : مَن خيرُ الناس ؟ قال : العَرَب والله ؛ قلت : فمَن خيرُ العرب ؟ قال : مُضَر والله ؛ قلتُ : فمن خيرُ مُضَر ؟ قال : قيس والله ؛ قلت : فمن خير قَيْس ؟ قال : يَعْصُر والله ، قلت : فمن خير يَعْصُر ، قال: غَنىّ والله ، قلتُ: فمن خيرُ غَنىّ ؟ قال : المخاطِبُ لك والله ؛ قلتُ : أفأنتَ خيرُ الناس ؟ قال : إى والله ؛ قلت : أيسرّك أن تكون تحتَك ابنة يزيدَ بنِ المهلّب ؟ قال : لا والله قلتُ : ولك ألف دينار ؛ قال : لا والله ؛ قلت: فألفا دينار ؛ قال : لا والله ؛ قلت : ولك الجنّة ، قال : فأطرق ثم قال : على ألّا تلدَ منّى ، ثمّ أنشدَ :

تأبَى ليعصُرَ أعراقٌ[2] مهذَّبةٌ ... من أن تُناسب قوماً غيرَ أكفاء
فإن يكن ذاك حتْماً لامردَّ له ... فاذكر حذيفَ فإنّى غيرُ أباء[3]

---

(١) قال أبو العباس : قوله : « وأشرفهم حليفاً » ؛ كان أبو مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب .

(٢) فى د : « أخلاق » والمعنى عليه يستقيم أيضاً .

(٣) قال أبو العباس : قوله : « فاذكر حذيف » ؛ أراد حذيفة بن بدر الفزارى ؛ وإنما ذكره من بين الأشراف لأنه أقربهم إليه نسباً ؛ وذاك يعصر بن سعد بن قيس ، وهؤلاء بنو ريث بن غطفان بن سعد بن قيس .

أراد حذيفةَ بنَ بَدْر الفَزَارِىّ ، وكان سيّدَ قيس فى زمانه [١] .

رأى عمرُ رجلا يمشى مُرْخِيا يديْه ، طارحا رِجْليه ، يتبختر ، فقال له : دع هذه المِشية ، فقال : ما أطيق ، فَجلده ثمّ خلّاه ، فترك التّبختر ، فقال عمر : إذا لم أجلد فى هذا ففيمَ أجلد ؛ فجاءه الرجل بعد ذلك فقال : جزاكَ الله ياأميرَ المؤمنين خيرا ، إن كان إلّا شيطانا سُلّط علىّ فأذهبَه الله بك .

(١) الكامل ٢ : ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٤٠١)

الأصل :

خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَاأَتَاكَ ، وَتَوَلَّ عَمَّا تَوَلَّى عَنْكَ ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ .

* * *

الشرح :

كان يقال : اجعل الدّنيا كغَرِيم السّوء حَصِّل منه مايَرضَخ لك به ، ولا تأس على مادَفَعك عنه ؛ ثمّ قال عليه السلام : فإن لم تفعل فأَجمِلْ فى الطّلب ، وهى من الألفاظ النبويّة : « لن تموتَ نفسٌ حتّى تَستكمِل رِزقَها ، فأجمِلوا فى الطّلب » .

قيل لبعض الحكماء : ما الغنى ؟ فقال : قلّة تمنّيك ، ورضاك بما يكفيك .

(٤٠٢)

الأصلُ

رُبَّ قَوْلٍ ، أنفَذُ مِنْ صَوْلٍ .

* * *

الشرح

قد قيل هذا المعنى كثيرا ، فمنه قولُهم :

* والقولُ يَنفذُ ما لَا تنفذُ الإبَرُ *

ومن ذلك : القولُ لا تَملِكه إذا نَمَا ، كالسهم لاتملِكه إذا رمى ، وقال الشاعر :

وقافيةٍ مثلِ حَدِّ السنا ... نِ تَبقى وَيَذْهَبُ مَن قالَها
تخيّرتُها ثم أرسلتُها ... ولم يُطِق الناسُ إرسالَها

وقال محمود الورّاق :

أتانى منك ما ليسَ ... على مكروهه صبرُ
فأغضيتُ على عَمْدٍ ... وكم يُغضِى الفَتَى الحُرُّ
وأدّبتُك بالهَجْرِ ... فما أدّبك الهجْرُ
ولا ردّكَ عمّا كا ... نَ منك الصّفحُ والبِرُّ
فلمّا اضطرّنى المكرو ... هُ واشتدّ بِىَ الأمرُ
تناولتُك مِن شِعرى ... بما ليس له قَدْرُ
فحرَّكْتَ جَناحَ الضُّرِّ ... لمّا مَسّكَ الضّرّ
إذا لم يُصلح الخيرُ امْـ ... رأً أصلحه الشرّ

وقال الرّضىّ رحمه الله :

سأمضغُ بالأقوال أعراض قومِكم ... وللقَول أنيابٌ لدىّ حِدادُ (١)
يُرَى للقوافى والسماء جليّة ... عليكم برُوقٌ جَمّةٌ ورِعادُ

وقال أيضا :

كَمَمْتُ لِسانى أن يقول وإن يَقُل ... فقل فى أُلجراز العَضْب إن فارق الغِمْدا (٢)
وإنّ برُوداً للمخازى مُعَدّة ... فمن شاء من ذا الحىّ أسحبتُه بُردا
قلائد فى الأعناق بالعار لا تَهِى ... على مرّ أيّام الزمان ولا تَصْدَا
إذا صلصلتْ بين القنا قضّت القنا ... وإن زَفرتْ فى السَّرد قطّعت السَّرْدا (٣)

---

(١) ديوانه : ٣١٢ .
(٢) ديوانه ١ : ٣٠٩ كممت : شددت . والجراز العضب : السيف القاطم .
(٣) صلصلت : صوّتت . والسرد : الدروع .

(٤٠٣)

الأصْل:

كلُّ مُقْتَصَرٍ عَلَيْهِ كافٍ .

***

الشَّرْح :

هذا من باب القناعة ، وإنّ من اُقتصر على شيء وقنعتْ به نفسُه فقد كفاه ، وقام مقام الفضول التى يرغَب فيها المُترَفون ؛ وقد تقدّم القولُ فى ذلك .

(٤٠٤)

الأَصْلُ :

أَلْمَنِيَّةُ ولا الدَّنِيَّةُ ، والتَقَلُّلُ ولَا التَوَسُّلُ .

***

الشَرح :

قد تقدّم من كلامنا فى هذا الباب شئٌ كثير ، وقال الشاعر :

أُقسِم بالله لَمصُّ النَوَى ... وشربُ ماء القُلُبِ المالحهْ(١)
أحسنُ بالإنسان من ذُلّه ... ومن سؤال الأوجهِ الكالحهْ
فاستغن بالله تكن ذا غنًى ... مغتبطا بالصّفقة الرابحهْ
فالزّهد عزٌّ والتُقَى سُؤددٌ ... وذلّة النفس لها فاضِحهْ
كم سالمٍ صِيح به بَغْتَةً ... وقائلٍ عَهْدِى به البارِحهْ
أمسى وأمسَتْ عنده قَيْنَةٌ ... وأصبحتْ تَنْدُبه نائحهْ
طوبَى لمن كانت موازينهُ ... يومَ يلاقى ربَّه راجحهْ

وقال أيضا :

لَمصُّ الثِّماد وخَرْطُ القَتادِ ... وشربُ الأُجاج أوان الظَّمَا
على المرء أهوَن من أن يُرَى ... ذليلاً لخلقٍ إذا أعدَما
وخيرٌ لعينيك من منظَرٍ ... إلى ما بأيدى اللّئام العَمَى

قلتُ : لحاه الله ، هلاّ قال : بأيدى الرّجال !

---

(١) القلب بضمتين : جمع قليب ؛ وهى البئر .

(٤٠٥)

الأصْلُ :

مَنْ لَمْ يُعْطَ قاعِداً ، لَمْ يُعْطَ قائِماً .

***

الشرح :

مرادُه أن الرزق قد قَسَمه الله تعالى ، فمن لم يرزقه قاعدا لم يجب عليه القيام والحركة .

وقد جاء فى الحديث : أنه صلّى الله عليه وآله ناول أعرابيًّا تَمْرة ، وقال له : «خُذْها فلو لم تأتِها لأتتك» .

وقال الشاعر :

جرى قلم القَضاء بما يكونُ   فسيّان التحرّكُ والسكونُ
جُنونٌ منك أن تَسعَى لرزقٍ   ويُرزَق فى غِشاوتِه الجَنِينُ

(٤٠٦)

الأصْلُ

الدَّهْرُ يوْمَانِ : يَوْمٌ لكَ ، وَيوْم عَليْكَ ، فَإذَا كَانَ لكَ فَلَا تبْطَرْ ، وَإذَا كَانَ عَليْكَ فَاصْبِرْ .

***

الشرح :

قديما قيل هذا المعنى : الدّهر يومان : يوم بَلاء ، ويوم رَخاء . والدهر : ضَرْبان : حَبْرة وعَبْرة . والدهر وقْتَان : وقت سرور ، ووقت ثبُور[(١)] .

وقال أبو سُفْيان يوم أُحُد : يومٌ بيومِ بَدْر ، والدّنيا دُوَل .

قال عليه السلام : فإذا كان لك فلا تَبطر ، وإذا كان عليك فاصبر .

قد تقدّم القولُ فى ذمّ البَطر ومدحِ الصّبر ، ويُحمَل ذمّ البطَر هاهنا على محملين . أحدهما البطَر بمعنى الأَشَر ، وشدّة المرح ، بطِر الرجُل بالكسر يَبطَر ، وقد أبطَره المال ، وقالوا : بطر فلانٌ معيشتَه ، كما قالوا : رَشِدفلانٌ أمرَه . والثانى البطَر بمعنى الحيرة والدّهش ، أى إذا كان الوقت لك فلا تقطعن زمانك بالحيرة والدهش عن شكرِ الله ومكافأةِ النّعمة بالطاعة والعبادة والمحمَل الأوّل أوضح .

---

(١) الثبور : الهلاك .

(٤٠٧)

الأصلُ :

إنَّ لِلْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ حقًّا ، وَإِنَّ لِلْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ حقًّا ، فَحَقُّ الْوَالِدِ عَلَى الْوَلَدِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ سُبْحانَهُ ، وَحَقُّ الولد عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُحسنَ اسْمَهُ ، وَيُحسنَ أَدَبَهُ ، وَيُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ .

* * *

الشَّرْحُ :

أمّا صدرُ الكلام فمن قول الله سبحانه: ﴿ أن اشكرْ لى ولوالديك إلىَّ المصير * وإن جاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ (١) .

* * *

[طرائف حول الأسماء والكنى]

وأما تعليم الوالد الولدَ القرآن والأدبَ فمأمور به ، وكذلك القول فى تسميته باسم حسن ؛ وقد جاء فى الحديث : « تسمّوا بأسماء الأنبياء ، وأحبّ الأسماء إلى الله عبد الله وعبدُ الرّحمن . وأصدقها حارث وهمّام . وأقبحها حَرْب ومُرّة » .

وروى أبو الدّرداء عن النّبى صلّى الله عليه وآله: « إنّكم تُدْعَوْنَ يومَ القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم ، فأحسنوا أسماءكم » .

---

(١) سورة لقمان ١٤ ، ١٥ .

وقال عليه السلام : « إذا سَمّيتم فعَبِّدوا » أى سَمُّوا بنيكم عبدَ الله ونحوه من أسماء الإضافة إليه عزَّ اسمُه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يغيِّر ـ بعض الأسماء ، سمّى أبا بكر عبدَ الله ، وكان اسمُه فى الجاهلية عبدَ الكعبة، وسمّى ابن عوف عبدالرحمن ، وكان اسمُه عبدالحارث، وسمّى شِعْب الضّلالة شِعْبَ الهدى ، وسمّى يَثْرِب طَيْبة ، وسمّى بنى الرِّيبة بنى الرِّشْدة ، وبنى معاوية بنى مُرشِدة .

كان سعيدُ بنُ المسيِّب بن حَزْن المخزومىّ أحد الفقهاء المشهورين ، أتى جدُّه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له : ما اسمك ؟ قال : حزْن ؛ قال : لا ، بل أنت سَهْل ، فقال : لا ، بل أنا حَزْن ، عاوده فيها ثلاثا ، ثمّ قال : لا أُحِبّ هذا الاسمَ، السَّهْل يوطأ ويُمْتَهَن ، فقال : فأنت حَزْن ، فكان سعيد يقول : فما زلتُ أعرِف تلك الحزونةَ فينا .

وروى جابر عنه عليه السلام:« مامن بيت فيه أحدٌ اسمُه محمد إلا وسّع الله عليه الرزق فإذا سمّيتموهم به فلا تَضرِبوهم ولا تشتموهم ، ومن وُلد له ثلاثة ذُكور ولم يسمِّ أحدَهم أحمدَ أو محمّدا فقد جفانى » .

أبو هريرة عنه عليه السلام، أنه نَهَى أن يجمع بين اسمه وكنيته لأحد .

وروى أنه أذن لعلىّ بن أبى طالب عليه السلام فى ذلك ، فسمّى ابنه محمد بن الحنفيّة محمدا ، وكناه أبا القاسم .

وقد رُوِى أنّ جماعةً من أبناء الصّحابة جُمِع لهم بين الاسم والكُنْية .

وقال الزّمخشرىّ : قد قدّم الخلفاء وغيرُهم من الملوك رجالا بحُسْن أسمائهم، وأقصَوْا قوما لشناعة أسمائهم ، وتعلّق المدح والذّمّ بذلك فى كثير من الأمور .

وفى رسالة الجاحظ إلى أبي الفرَج نجاح بن سلمة : قد أظهر الله فى أسمائكم وأسماء آبائكم وكُناكم وكُنَى أجدادكم من بُرْهان الفأل الحَسَن ، ونفى طيرة السوء ، ما جمع لكم صنوف الأمل ، وصرف إليكم وجوه الطلب ، فأسماؤكم وكناكم بين فرَج ونجاح ، وسلامة وفضل ، ووجوهكم وأخلاقكم وَفْق أعراقِكم وأفعالكم ، فلم يضرِب التفاوتُ فيكم بنصيب .

أراد عمرُ الاستعانة برجل ! فسأله عن اسمه واسم أبيه ، فقال : سَرّاق بنُ ظالم ، فقال : تَسْرق أنت ويظلم أبوكَ ! فلم يَستعنْ به .

سأل رجلٌ رجلاً : ما اسمك ؟ فقال : بحر ؟ قال : أبو مَنْ ؟ قال : أبو الفَيْض ؛ قال : ابنُ من ؟ قال : ابن الفُرات ، قال : ما ينبغى لصديقك أن يلقاك إلاّ فى زَوْرق .

وكان بعضُ الأعراب اسمُهُ وَثّاب ، وله كلْب اسمُهُ عمرو ، فهجاه أعرابيٌّ آخر فقال :

ولو هَيّا له الله من التوفيق أسبابا
لَسَمّى نفسه عَمْراً وسَمّى الكلبَ وَثّابا

قالوا : وكلّما كان الاسم غريبا كان أشهرَ لصاحبه وأمنَع من تعلّق النَّبز[1] به قال رؤبة :

قد رَفَع العَجّاج ذكرى فادعُنِي باسمى إذا الأسماء طالت تكفِنى

ومن ها هنا أخذ المَعرِّى قوله يمدَح الرضيّ والمرتضى رحمهما الله :

أنتم ذَوو النّسب القصير فطولُكم بادٍ على الكُبراء والأشرافِ[2]
والرّاح إن قيل ابنةُ العِنَب اكتفتْ بأبٍ عن الأسماء والأوْصافِ

---

(١) النبز : أن يلقب الإنسان بما يكره .

(٢) سقط الزند ١٣٠٢ .

وسأل النّسابة البَكْرىّ رؤبة عن نسبه ولم يكن يَعرِفه ، قال : أنا ابن العجّاج ؛ قال : قصرت وعرّفت .

صاح أعرابىّ بعبد الله بن جعفر : يا أبا الفَضْل ! قيل : ليست كنيتهُ ، قال : وإن لم تكن كنيتَه فإنّها صِفَته . نظر عمرُ إلى جارية له سوداء تبكى فقال : ما شأنُك ؟ قالت : ضرَبَنى ابنك أبو عيسى ، قال : أوقد تَكَنّى بأبى عيسى ! علىّ به ، فأحضروه ، فقال : وَيْحك ! أكان لعيسى أب فتكنَى به ! أتدرى ما كُنَى العرَب ! أبو سلمة ، أبو عرُفُطة ، أبو طلحة ، أبو حنظلة ، ثمّ أدّبه .

لما أقبل قحطبة بنُ شَبيب نحو ابن هُبيرة أراد ابنُ هبيرة أن يكتب إلى مروان بخبره ، وكره أن يسمّيَه ، فقال : اقلِبوا اسمَه ، فوجدوه هبط حقّ ، فقال : دعُوه على هيئته .

قال برْصُوما الزامر لأمّه : وَيْحَك ! أما وجدتِ لى اسماً تسمّينى به غير هذا ! قالت : لو علمتُ أنك تجالس الخلفاء والملوك سمّيتك يزيد بن مَزْيَد .

قيل لبعض صِبيان الأعراب : ما اسمُك ؟ قال : قراد ، قيل : لقد ضَيّق أبوك عليك الاسم ، قال : إن ضَيّق الاسمَ لقد أوسَع الكُنْيَة ، قال : ما كُنْيَتك ؟ قال : أبو الصحارى .

نظر المأمونُ إلى غلام حَسَن الوجْه فى الموكب ، فقال له : ياغلام ، ما اسمُك ؟ قال : لا أدرى ، قال : أو يكون أحد لا يَعْرف اسْمَه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، اسمى الذى أعرف به « لا أدرى » ؛ فقال المأمون :

وسُمِّيتَ لا أدْرِى لأنّك لا تدرِى   بمَا فعَل الحبُّ المبرِّح فى صدرى

ولد لعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ولدٌ ذَكر ، فبُشِّر به وهو عند معاوية

ابن أبى سُفْيان ، فقال له معاوية ؛ سمِّه باسمى ولك خمسمائة ألف درهم ؛ فسمّاه معاوية، فدفعها إليه ، وقال اشترِ بها لِسَمِيِّي ضَيْعة .

ومن حديث علىٍّ عليه السلام عن النبىّ صلّى الله عليه وآله: « إذا سمّيتم الولدَ محمّدا فأكرِموه ، وأوسعوا له فى المجلس ، ولا تقبّحوا له وجها » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « ما من قوم كانت لهم مَشُورة فحضَر معهم عليها مَن اسمه محمّدٌ أو أحمَد فأدخلوه فى مَشُورتهم إلّا خِيرَ لهم ؛ وما من مائدةٍ وُضعتْ فحضر عليها من اسمُهُ محمّدٌ أو أحمد إلّا قُدِّس ذلك المنزلُ فى كلّ يوم مرّتين » .

من أبيات المعانى :

وحَلَلْتَ من مضرٍ بأمنعِ ذِرْوَةٍ منعتْ بحَدِّ الشَّوْكِ والأحجارِ

قالوا : يريد بالشّوك أخواله ، وهم : قَتادة وطَلحة وعَوْسَجة ، وبالأحجار أعمامَه ، وهم صَفْوان وفِهْرٌ وجَنْدَل وصَخْر وجَرْوَل .

سمّى عبدُ الملك ابناً له الحجّاج لحبّه الحجاج بنَ يوسفَ وقال فيه :

سمّيتُهُ الحجّاجَ بالحجّاجِ الناصِحِ المكاشِفِ المُداجِى

استأذن الجاحظُ والشّكّاك ـ وهو من المتكلمين ـ على رئيس ، فقال الخادم لمولاه: الجاحد والشّكّاك ، فقال : هٰذان من الزّنادقة لا محالة ! فصاح الجاحظ : ويحك! ارجع قل : الحدقىّ[1] بالباب ـ وبه كان يُعرَف ـ فقال الخادم : الحلْقىّ بالباب ، فصاح الجاحظ ويلَك! ارْجع إلى الجاحد .

جمع ابنُ دُرَيد ثمانية أسماء فى بيتٍ واحد فقال :

فنِعْم أخو الجُلَّى ومستنبَط النّدَى وملجأ مكروب ومفزع لاهِث
عياذُ بنُ عمرو بن الجليس بن جابرِ بن زيد بن منظور بن زيد بن وارِث .

(١) الحدقى ، من ألقاب الجاحظ .

قال محمّد بنُ صدقة المقرئ لميموتَ بن المزرّع : صدّق الله فيك اسمك ! فقال له : أحوجَك الله إلى اسم أبيك .

سأل رجُلٌ أبا عبيدة عن اسم رجلٍ من العرب ، فلم يَعْرِفه ، فقال : كَيْسانُ غلامُه : أنا أعرَفُ الناس به ، هو خِراش أو خِداش أو رِياش (١) أو شيءٌ آخر ، فقال أبو عبيدة ما أحسنَ ماعرفته يا كَيْسان ! قال : إي والله ، وهو قرشيٌّ أيضا ، قال : وما يدُرِيك به؟ قال : أما ترى كيف احتوشَتْه الشّينات من كلّ جانب ! قال الفرزدق :

وقد تَلْتقِي الأسماءُ في النّاس والكُنَى ‍ ‍ ‍ كثيرا ولكنْ مُيِّزوا في الخلائق (٢)

رأى الإسكندرُ في عسكره رجلا لا يزال يَنهزِم في الحرب ، فسأله عن اسمه ؟ فقال : اسمِي الإسكَندر ، فقال : ياهذا ، إمّا أن تغيِّر اسمك ، وإما أن تغيِّر فِعلك .

قال شيخُنا أبو عثمان : لولا أن القدماء من الشّعراء سمّت الملوكَ وكنَتْها في أشعارِها، وأجازتْ واصطلحت عليه ما كان جزاءُ مَن فعل ذلك إلا العقوبة ؛ على أنّ ملوكَ بني سَامَان لم يُكنِّها أحد من رعاياها قطّ ، ولا سماها في شعر ولا خُطْبة ، وإنما حَدَث هذا في مُلوك الحيرة ؛ وكانت الجُفاةُ من العَرب لسوء أدَبها وغِلَظ تركيبها إذا أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم خاطَبوه باسمه وكنيته ، فأما أصحابه فكانت مخاطبتُهم له : يارسولَ الله ، وهكذا يجب أن يقال للملك في المخاطبة : ياخليفة الله ، ويأمير المؤمنين .

وينبغي للدّاخل على المِلك أن يتلطّف في مراعاة الأدب ، كما حكَى سعيدُ بن مُرّة الكِنْديّ ، دخل على معاوية فقال: أنتسعيد؟ فقال: أمير المؤمنينَ السعيد،وأنا ابن مُرّة.

وقال المأمون للسيّد بن أنس الأزْديّ : أنت السيّد ؟ فقال : أنت السيّد يا أمير المؤمنين ، وأنا ابن أنسٍ .

---

(١) ب : « دياس » . ‍ ‍ (٢) ديوانه ٥٧٨ ، وروايته : « ولكن لا تلاق الخلائق » .

شاعر :

لعَمْرُكَ ما الأسماء إلّا علامةٌ منارٌ ومِن خيرِ المنار ارتفاعُها

كان قومٌ من الصّحابة يخاطبون رسول الله صلى الله عليه وآله : «يانبيء الله» بالهمزة، فأنكر ذلك وقال : « لست بنَبِيء الله ، ولكنّى نبيُّ الله » .

وكان البحترىّ إذا ذكر الخثعمىّ الشاعر يقول : ذاكَ الغَثّ العمِى .

وكان صاحب ربيع يتشيّع ، فارتفع إليه خَصْمان : اسم أحدهما علىّ ، والآخر معاوية ، فانحَى على معاوية فضَرَبه مائة سوط من غير أن اتّجهتْ عليه حجّة ، ففطِن من أين أُتِىَ ! فقال : أصلحك الله ! سَلْ خَصْمى عن كنيته ، فإذا هو أبو عبد الرحمن ـ وكانت كنيةُ معاوية بن أبى سُفيان ـ فبطَحَه وضرَبَه مائة سوط ،فقال لصاحبه : ماأخذْتَه منّى بالاسم استرجعتُه منكَ بالكُنْية .

(٤٠٨)

الأصلُ :

العَيْنُ حَقٌّ ، وَالرُّقَى حَقٌّ ، والسِّحْرُ حَقٌّ ، وَالفَألُ حَقٌّ وَالطِّيَرةُ لَيْسَتْ بِحَقّ ، والعَدْوَى لَيْسَتْ بِحَقٍّ . والطِّيبُ نُشْرَةٌ ، وَالعَسَل نُشْرَةٌ ، وَالرُّكُوبُ نُشْرَةٌ[1] ، وَالنَّظَرُ إلَى الْخُضْرَةِ نُشْرَةٌ .

***

الشرحُ :

ويروى : « والغسل نُشرة » بالغين المعجمة ، أى التطهير بالماء .

***

[أقوال فى العين والسّحر والفأل والعدوى والطيَرة]

وقد جاء فى الحديث المرفوع : « العَينُ حقّ ، ولو كان شىء يَسبِق القَدَر لسبقته العين ، وإذا استُغسِلْتم فاغسِلوا » ؛ قالوا فى تفسيره : إنّهم كانوا يَطلُبون من العائن أن يتوضّأ بماء ثم يسقى منه المعِين[2] و يَغتسِل بسائره .

وفى حديث عائشة : « العين حق كما أنّ محمدا حقّ » .

وللحكماء فى تعليل ذلك قولٌ لابأس به ، قالوا : هذا عائدٌ إلى نفس العائن ، وذلك لأنّ الهيُولى مُطِيعة للأنفس ، متأثّرة بها ؛ ألا ترى أنّ نفوسَ الأفلاك تؤثّر فيها بتعاقُب الصوَر عليها ! والنفوس البَشَرية من جَوْهر نفوس الأفْلاك ، وشديدة الشَّبَه بها ؛ إلا أنّ نسبتهَا إليها نسبة السراج إلى الشّمس ، فليست عامّة التأثير ، بل تأثيرُها فى أغلَب الأمر فى بدَنِها خاصّة ، ولهذا يَحمَى مزاجُ الإنسان عند الغضب ،

(١) النشرة : كالعوذة والرقية .

(٢) المعين : المعيون ، أى المصاب بالعين .

يستعدّ للجماع عند تصوُّر النفس صورةَ المَعشوق ، فإذَنْ قد صار تصوُّر النفس مؤثِّرًا فيما هو خارجٌ عنها ؛ لأنّها ليست حالّةً في البدن ، فلا يُستَبعد وجُود نفْس لها جوهر مخصوص مخالِفٌ لغيره من جواهر النّفوس تؤثّر في غير بدنها ، ولهذا يقال : إنّ قوما من الهند يُقتَلون بالوَهْم ؛ والإصابة بالعَيْن من هذا الباب ، وهو أن تستحسِن النفسُ صورةً مخصوصة وتتعجّب منها ، وتكون تلك النفس خبيثة جدا ؛ فينفعل جسمُ تلك الصّورة مطيعاً لتلك النفس كما ينفَعِل البدَن للسّم .

وفى حديث أمّ سَلَمة أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى فى وجه جارية لها سَعْفَة[1] ، فقال : « إنّ بها نَظْرَةً فاسترقُوا لها » .

وقال عوفُ بنُ مالك الأشجعيّ : كنّا نَرقى فى الجاهليّة ، فقلت : يارسولَ الله ، ماترَى فى ذلك ؟ فقال : « اعرضوا علىّ رُقاكم فلا بأس بالرُّقَى مالم يكن فيها شِرْكٌ » .

كان ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله فى سفرٍ ، فمرّوا بحيٍّ من أحياء العرَب ؛ فاستضافوهم فلم يُضيفوهم وقالوا لهم : هل فيكم من راقٍ ، فإنّ سيّد الحيّ لَديغ؟ فقال رجل منهم : نعم ، فأتاه فرَقاه بفاتحة الكتاب فبرئ ، فأُعْطِىَ قَطيعاً من الغنم،فأبَى أن يَقبَلها حتى يأتىَ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ، فذكر ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، وقال : وعَيْشك مارقيته إلّا بفاتحة الكتاب،فقال : « ما أدراكم إنّها رُقْية! خذُوا منهم ، واضربوا لى معكم بسَهْم » .

وروَى برُيْدة ، قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وقد ذُكرتْ عنده الطِّيَرة : « مَنْ عَرض له من هذه الطِّيَرة شىء فليَقل:اللّهم لا طَيْر إلا طَيْرُك،ولا خيرَ إلّا خيرُك، ولا إله غيرُك ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله » .

وعنه عليه السلام : « ليس منّا من تَطيّر أو تُطُيِّر له ، أو تَكهّن أو تُكُهِّن له» .

---

(١) السعفة : قروح تخرج على رأس الصبى . واسترقوا ، أى اطلبوا من يرقيها .

أَنَس بن مالك يرفعه : « لا عدْوَى ولا طِيَرة ، ويُعجبنى الفأل الصّالح » ؛ قالوا : فما الفأل الصالح ؟ قال : الكلمة الطيّبة .

وعنه عليه السلام : « تفاءلوا ولا تَطَيَّرُوا » .

ورَوَى عبدُالله بنُ بُرَيدة ، عن أبيه،أنّ رسولَ اللهُ صلّى الله عليه وآله كان لايتطيّر من شيء ، وكان إذا بعَث عاملا سأل عن اسْمِه ، فإذا أعجَبه سُرَّ به ، ورُئى بِشْرُ ذلك فى وَجْهه ، وإن كَرِه اسْمَه رُئيتِ الكراهةُ على وَجْهه ، وإذا دخل قريةً سأَل عن اسْمِها فإنْ أعجبه ظهرَ علَى وجْهه .

بَنَى عُبيدُ الله بن زياد بالبصرة داراً عظيمةً ، فمرّ بها بعضُ الأعراب ، فرأى فى دِهْلِيزِها صورةَ أسَدٍ وكلْبٍ وكَبْش ، فقال : أسدٌ كالح ، وكبشٌ ناطح ، وكَلْبٌ نابح ، والله لا يُمتَّع بها ؛ فلم يَلبَثْ عبيد الله فيها إلا أيّاماً يسيرة .

أبو هريرة يرفَعه : « إذا ظننتم فلا تُحقِّقوا ، وإذا تطيّرتم فامْضوا ، وعلى الله فتوكّلوا » .

وقال عليه السلام : « أحسَنُها الفألُ ، ولا يرُدّ قدَرا ، ولكن إذا رأى أحدُكم مايَكرَه فليَقُل : اللّهم لا يأتى بالحسنات إلّا أنت ، ولا يَدفع السّيّئات إلّا أنت ، ولا حولَ ولا قوّة إلّا بك » .

وقال بعضُ الشّعراء :

لا يَعلَمُ المرءُ لَيلاً ما يُصبِّحه　　إلّا كواذب مايَجرِى به الفالُ
والفألُ والزّجر والكُهّان كلُّهمُ　　مضلّلون ودونَ الغيب أقفالُ

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله : « القِيافَة والطَّرْق والطِّيَرة من الجِبْت » .

ابن عباس يرفَعُه : « من اقتبس عِلْماً من النجوم اقتبَس شُعْبة من السِّحْر » .

أبو هريرة يرفَعه : « من أتَى كاهناً فصدّقَه فيما يقول فقد برِئ مما أنزل اللهُ على أبى القاسم » .

شاعر :

لَعمرُكَ ماتَدرِى الطَّوارقُ بِالحصى ولا زاجِراتُ الطَّير ما اللهُ صانعُ (١)

وقال آخر :

لا يُقْعِــدنّكَ عن بِغـا ءِ الخير تعقاد العزائمْ(٢)

فلقــد غَدَوْتُ وكنتُ لا أغدو على راقٍ وحائمْ

فإذا الأشــائمُ كالأيا مِنِ والأيامِنُ كالأشائمْ

وكذاك لا خــيرٌ ولا شرٌّ على أحــدٍ بدائِمْ

تفاءَل هشامُ بنُ عبد الملك بنصر بن سيّار فقلّده خُراسان ، فبقى فيها عشرَ سنين .

وتفاءَل عامرُ بنُ إسمعيل قاتل مَرْوان بنِ محمّد باسم رجل لقيَه ، فسأله عن اسمه ، فقال : منصور بن سعد ، قال : من أىّ العرب ؟ قال : مِن سَعْد العشيرة ، فاستصحَبه وطَلب مروان فَظفِر به وقتَله .

وتفاءل المأمونُ بمَنصور بنِ بسّام فكان سببَ مكانتِه عندَه .

قالوا : إنما أصل اليد اليُسرَى العُسْرَى ؛ إلا أنهم أبدلوا اليُسْرىمن اليسر تفاؤلا .

مزرِّد بن ضِرار :

وإنّى امرؤ لا تقشعــرّ ذُؤابَتِى من الذّئبِ يعوِى والغرابِ المحجَّلِ

الكُمَيْت :

ولا أنا ممّن يزْجر الطــير هَمّــه أصاحَ غُرابٌ أم تعرّض ثَعلبُ(٣)

وقال بعض العرب : خرجتُ فى طلب ناقةٍ ضلّت لى ، فسمعتُ قائلاً يقول :

ولئن بعثت لهــا بُغا ةً فما البغاةُ بواجِدِينَا(٤)

---

(١) للبيد ، ديوانه ١٧٢ . (٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٥ ، ونسبها إلى المرقش .
(٣) الهاشميات ٣٦ . (٤) للبيد ، ديوانه ٣٢٣ .

فلم أتطيّر ومضيتُ لوجهى ، فلقيَنى رجلٌ قبيح الوجه به ماشئت من عاهة ؛ فلم أتطيّر وتقدّمت فلاحَت لى أَكَمة[١] فسمِعْت منها صائحا :

* والشرّ يلقى مَطالِعَ الأَكَمِ *

فلم أكترث ولا انثنيْت وعلوتُها ، فوجدتُ ناقتى قد تفاجّت[٢] للولادة فنتجتُها[٣] ، وعدتُ إلى منزلى بها ومعها ولدُها .

وقيل لعلىّ عليه السلام : لا تحاربهم اليوم فإن القمر فى العقْرب ، فقال : قمرُنا أم قمرُهُم !

ورُوِى عنه عليه السّلام أنه كان يَكرَه أن يُسافر أو يتزوّج فى مُحاق[٤] الشهر ، وإذا كان القمر فى العقْرب .

ورُوِى أنّ ابن عبّاس قال على مِنبَر البَصرة : إنّ الكلاب من الجنّ وإن الجنّ من ضُعفاء الجنّ ؛ فإذ غشيَكم منهم شىء فألقوا إليه شيئاً أو اطردوه ، فإنّ لها أنفُس سَوء .

وقال أبو عثمان الجاحظ : كان علماء الفُرْس والهند وأطبّاء اليونانيّين ودُهاة العرب وأهل التّجربة من نازلة الأمصار وحُذّاق المتكلّمين يكرَهون الأكل بين يَدى السّباع يخافون عيونها للّذى فيها من النّهَم والشّرَه ، ولما ينحلّ عند ذلك من أجوافها من البُخار الرّدىء ، وينفصل من عيونها ممّا إذا خالط الإنسان نقض بنية قلبه وأفسَدَه . وكانوا يكرهون قيامَ الخدَم بالمُذاب والأشرِبة على رءوسهم خوْفا من أعينُهم وشدّة ملاحظتهم إيّاهم ؛ وكانوا يأمرون بإشْباعهم قبل أن يأكلوا ، وكانوا يقولون فى الكلْب والسّنّور إمّا أن يُطرَد أو يُشغَل بما يُطرَح له .

---

(١) الأكمة : الموضع يكون أشد ارتفاعا مما حوله ، وانظر عيون الأخبار ١ : ١٤٥ .

(٢) تفاجت : وسعت ما بين رجليها .

(٣) نتجتها أى أولدتها .

(٤) المحاق مثلثة : آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره ، أو أن يستتر القمر فلا يرى غدوة ولا عشية ، سمى محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته .

وقالت الحكماء: نفوسُ السِّباع أردأ النفوس وأخبثها لفرْطِ شرَهها وشرّها. قالوا: وقد وجدْنا الرجل يضرِب الحيّة بعصا فيموت الضارب والحيّة، لأن سمّ الحيّة فصِل منها حتى خالط أحشاءَ الضارب وقلْبَه، ونفذ فى مَسامِّ جسدِه.

وقد يُديم الإنسانُ النظر إلى العين المحمرّة فتعترى عينه حُمرة، والتثاؤب يُعدِي إعداءً ظاهراً، ويكره دنوُّ الطامِث من اللبن لتسوطَهُ، لأن لها رائحةً وبُخارا يُفسِد اللبن المسُوط[1].

وقال الأصمعىّ: رأيت رجلا عَيونا[2] كان يذكُر عن نفسه أنه إذا أعجبه الشىء وَجدَ حرارةَ تخرُجُ من عينه.

وقال أيضاً: كان عندنا عَيونان فمرّ أحدُهما بحَوض من حجارة؛ فقال: تاللهِ ما رأيتُ كاليوم حوْضا! فانصَدع فِلقتَيْن، فمرّ عليه الثانى، فقال: وأبيك لقلّما ضررت أهلك فيك! فتطاير أربعَ فِلَق.

وسمع آخر صوت بوْل من وراء جِدار حائط، فقال: إنك كثيرُ الشَّخْب، فقالوا: هُوَ ابْنُك؛ فقال: أوه انقطع ظَهْرُه! فقيل: لا بأس عليه إنْ شاء الله، فقال: والله لا يَبُول بَعْدها أبدا، فما بال حتى مات.

وسمع آخَرُ صوت شُخْب ناقةٍ بقُوّة فأعجبه، فقال: أيتهنّ هـذه؟ فورّوا بأخرى عنها، فهلكتا جميعا؛ المورَّى بها والمورَّى عنها.

قال رجل من خاصّة المنصور له قبـل أن يقتُل أبا مسلم بيوْم واحد: إنّى رأيتُ اليوم لأبى مسلم ثلاثاً تطيّرت له منها. قال: ما هى؟ قال: ركب فوقعتْ قلَنْسُوَته

---

(١) الطامث: الحائض. والمسوط: المخلوط.
(٢) العيون: الشديد الإصابة بالعين.

عن رأسه ، فقال المنصور : الله أكبرُ ! تبعها والله رأسُه ، فقال : وكَبا به فرَسه ، فقال : الله أكبر ! كبا والله جَدُّه ، وأصلَد زَنْدهُ ، فما الثالثة ؟ قال : إنه قال لأصحابه : أنا مقتول ، وإنما أخادِع نفسى ، وإذا رجلٌ يُنادِي آخر من الصحراء : اليوم آخِر الأجل يافلان . فقال : الله أكبر ! انقضى أجلُه إن شاء الله ؛ وانقطع من الدنيا أثرُه . فقتِل فى غدِذلك اليوم .

تجهّز النابغةُ الذبيانىّ للغزو ــ واسمُه زياد بن عمرو ــ مع زبّان بن سيّار الفزارىّ ــ فلما أراد الرحيل سقطت عليه جَرادةٌ فتطيّر ، وقال : ذات لَوْنين تجرد ، غُرّى من خرج ، فأقام ولم يلتفتْ زبّان إلى طِيَرته ، فذهب ورجَع غانماً ، فقال :

تطيّر طِيرةً يوماً زِيادٌ ... لتخبِره وما فيها خَبيرُ (١)

أقامَ كأنّ لقمانَ بن عادٍ ... أشارَ له بحكمته مُشيرُ

تعلّمْ أنه لا طيرَ إلّا ... على متطيّرٍ وهو الثّبورُ

بلى شىءٌ يوافِق بعض شىءٍ ... أحايِيناً وباطِلُه كثيرُ

حضر عمرَ بنَ الخطاب الموسمُ ، فصاح به صائح : ياخليفة رسول الله ، فقال رجل من بنى لِهْب ؛ وهم أهلُ عِيافة وزَجْر : دعاه باسم ميّت : مات والله أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فلما وقف الناس للجِمار إذا حصاةٌ صكّت صَلْعةَ عُمَر ، فأُدمِى منها ، فقال ذلك القائل : أشعر والله أمير المؤمنين ، لا والله مايقف هذا الموقف أبداً ، فقُتِل عمر قبل أن يَحُول الحَوْل ، وقال كُثيِّرُ بن عبد الرحمن :

تيممت لِهْبا أبتغى العِلْمَ عندَها ... وقدصار عِلْمُ العائفين إلى لِهْبِ (٢)

---

(١) الحيوان ٣ : ٤٤٧ .

(٢) عيون الأخبار ١ : ١٤٩ .

كان للعرب كاهنان اسمُ أحدهما شِقّ ، وكان نصف إنسان ، واسم الآخر سَطيح ، وكان يُطوَى طَيَّ الحصير ، ويتكلّمان بكل أعجوبة فى الكهانة ، فقال ابنُ الرُّومىّ :

لك رأىٌ كأنهُ رأى شِقّ وسَطِيحٍ قَرِيعَيِ الكُهّانِ
يستشف الغُيوب عما توارى بعيون جليّــة الإنسان

وقال أبو عثمان الجاحظ : كان مُسيلمة قبل أن يتنبّأ يدور فى الأسواق التى كانت بين دُور العرب والعجَم كسُوق الأُبلّة وسوق بقّة وسوق الأنبار وسوق الحِيرة يلتمس تعلُّم الحيل والنّيرنْجيّات واحتيالات أصحاب الرُّقَى والعزائم والنجوم ، وقد كان أحكم علم الحُزاة وأصحاب الزجر والخطّ ، فعمَدَ إلى بَيْضة فصبّ إليها خَلاًّ حاذقا قاطعا ، فلانَتْ ، حتى إذا مَدّها الإنسان استطالتْ ودَقّت كالعلَك ؛ ثمّ أدخلها قارورةً ضيّقة الرأس وتركها حتى انضمت واستدارتْ وجمدتْ ، فعادت كهيئتها الأولى ، فأخرجها إلى قوم وهم أعرابٌ واستغواهم بها ، وفيه قيل :

ببيضةِ قارورٍ ورايةِ شــادِنٍ وتوصيل مَقْطوع من الطير حاذِقِ

قالوا : أراد براية الشّادن التى يعملها الصبىّ من القِرطاس الرّقيق ، ويجعَل لها ذَنبا وجناحين ويُرسلها يوم الرِّيح بخَيط طويل .

كان مُسَيْلمة يَعمل راياتٍ من هذا الجنس ، ويعلّق فيها الجلاجِل ، ويُرسلها لَيْلا فى شدّة الريح ، ويقول : هذه الملائكة تنزل علىّ ، وهذه خَشخَشة الملائكة وزجَلُها ، وكان يصل جَناح الطير المَقصوص برِيشٍ معه فيطير ويَستغوِى به الأعراب .

شاعرٌ فى الطِّيَرة :

وأمنع الياسمين الغضَّ مِن حَذرِى عليكِ إذْ قيل لى نصفُ اسمِهِ ياس

وقال آخر :

أهدَتْ إليه سَفَرْجلاً فَتطيَّرا منه وظَلَّ مفكِّرا مستعبرا[1]

خوف الفِراق لأن شَطر هِجائه سَفَرٌ وحُقَّ له بأنْ يتطيَّرا

وقال آخر :

يا ذا الذى أهدَى لنا سَوْسَنًا ما كنت فى إهدائِهِ محسنا

نِصفُ اسمه سَوٌّ فقد ساءنى ياليت أنِّى لم أرَ السَّوْسَنا

ومِثلُه :

لا ترانى طَوال دهْ رِىَ أهْوى الشَّقائِقَا

إنْ يكن يُشبه الخدو دَ فنصف اسمه شَقَا

وكانوا يتفاءلون بالآسِ لدوامه ، ويتطيَّرون من النرجس لسرعة انقضائه ، ويسمّونه الغَدّار .

وقال العباس بنُ الأحنف :

إنّ الذى سَمّاكِ يا منيَتِى بالنَّرجِس الغَدّار ما أنصفا[2]

لو أنه سَمّاك بالآسَةِ وفيتِ إنّ الآسَ أهلُ الوَفا

خرج كثيِّرٌ يريد عَزّةَ ومعه صاحِبٌ له من نَهْد ، فرأى غرابا ساقطاً فوق بانةٍ يَنتِف ريشَه ، فقال له النَّهْدىّ : إن صدَق الطَّير فقد ماتت عَزّة ، فوافَى أهلَها وقد أخرَجوا جنازَتها ، فقال :

وما أعْيَفَ النهدىَّ لا درَّ درّهُ وأزجَرَه للطّير لا عزّ ناصِرُهْ[3]

رأيتُ غرابًا ساقطاً فوقَ بانةٍ ينتّفُ أعلى ريشِهِ ويُطايِرُهْ

(١) مستعبراً ؛ أى سالت عبرته ، أى دموعه .

(٢) ديوانه ١٩٠ .

(٣) عيون الأخبار ١ : ١٤٨ .

فقال غرابٌ لاغترابٍ ، وبانةٌ لِبَيْن ، وفقدٌ من حبيبٍ تُعَاشِرُهْ

وقال الشاعر :

وسَمّيته يحيى ليحيا ولم يكن إلى رَدِّ حُكمِ الله فيهِ سَبيلُ
تيمَّمْتُ فيه الفألَ حين رُزِقتُه ولم أدرِ أن الفأل فيه يفيلُ

***

فأمّا القول فى السِّحر فإنّ الفقهاء يُثبتونه ويقولون : فيه القَوَد ، وقد جاء فى الخبر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله سَحَره لَبيد بن أعصَم اليهوديّ حتى كان يُخيَّل إليه أنه عَمِل الشىء ولم يَعْمَله .

ورُوى أنّ امرأةً من يهود سحرته بشَعْر وقُصاص ظُفْر وجَعَلت السّحرَ فى بئر ، وأنّ الله تعالى دَلّه على ذلك ، فبعث عليّاً عليه السلام فاستخرَجه وقَتَل المرأة .

وقومٌ من المتكلّمين يَنفون هذا عنه عليه السلام ، ويقولون : إنه معصوم مِن مِثله .

والفلاسفة تزْعم أنّ السِّحرَ من آثار النفسِ الناطقة ، وأنه لا يَبعُد أن يكون فى النفوس نفس تؤثّر في غيرِ بَدَنها المرض والحُبّ والبُغض ونحو ذلك ، وأصحاب الكواكب يجعلون للكواكب فى ذلك تأثيراً ، وأصحابُ خَواصّ الأحجار والنّبات وغيرها يُسنِدون ذلك إلى الخواصّ ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام دالٌّ على تصحيح ما يُدعى من السِّحْر .

وأمّا العَدْوَى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا عدوَى فى الإسلام » . وقال لمن قال : أعدَى بعضُها بعضاً ــ يعنى الإبل : فمن أعدَى الأول ؟« وقال:« لاعدوَى ولا هامَة ولا صَفَر » ، فالعَدْوَى معروفة ، والهامَة : ما كانت العرب تزعُمه فى المَقْتول

لا يؤخذ بثأره ، والصَّفَر : ما كانت العرب تزعُمه مِن الحيةِ فِي البطْن تَعَض عند الجوع .

***

[نكت فى مذاهب العرب وتخيلاتها]

وسنذكرها هنا نُكتاً مُمتعةً من مَذاهب العرَب وتَخيُّلاتِها ، لأنّ الموضع قد ساقنا إليه ، أنشد هشامُ بنُ الكلبىّ لأمية بن أبى الصَّلْت :

سَنَةٌ أزْمَةٌ تُبرِّح بالنا — سِ ترَى للعِضاهِ فيها صَرِيرا[1]

لا عَلَى كوكبٍ تنُوء ولا رِيـ — ـح جنوبٍ ولا ترى طُخْرورا[2]

ويُسَوِّقُون باقرَ السّهْل للطَّو — دِ مهازيلَ خشيةً أن تبورا

عاقدين النِّيرانَ فى ثُكَن الأذ — ناب منها لكى تهيجَ البحُورا

سلَعٌ ما ومِثله عُشَرٌ ما — عائِلٌ ما وعالتِ البَيْقُورا

يُرْوَى أنّ عيسى بن عمر قال : ما أدرى معنَى هذا البيت ! ويقال : إنّ الأصمعىّ صحّف فيه ، فقال : « وغالَتِ البَيْقُورا » بالغَين المعجمة ، وفسّره غيرُه فقال : عالَت بمعنى أثقلت البَقَرَ بما حملتها من السّلع والعُشرِ ، والبَيْقور : البقر . وعائل : غالب ، أو مُثقل .

وكانت العرب إذا أجدَبَتْ وأمسكَتْ السماء عنهم وأرادوا أن يَستمطرُوا عَمَدوا إلى السَّلع والعُشَر فحزَموها وعقدوها فى أذنابِ البقر ، وأضرموا فيها النِّيران ، وأصعدوها فى جبل وَعِر ، واتبعوها يدْعون الله ويَسْتَسْقُونه ؛ وإنّما يَضرِمون النِّيران فى أذناب البقر تفاؤلا للبَرْق بالنار ، وكانوا يَسُوقونها نحو المغرب من دون الجهات . وقال أعرابىّ :

شفَعنَا بِبَيقور إلى هاطل الحيا — فلم يُغنِ عنّا ذاك بل زادَنا جَدْبا

فعُدْنا إلى ربِّ الحيا فأجارَنا — وصيّرَ جدْبَ الأرض من عندِه خِصْبا

---

(١) شعراء النصرانية ٢٣٥ ، فى وصف سنة مجاعة . (٢) الطخرور : القطع من السحاب .

وقال آخر :

قُلْ لبنى نَهْشَلَ أصحاب الحوَرْ : أتطْلُبون الغيثَ جَهْلا بالبَقَرْ !
وسَلَعٍ من بعـــد ذاكَ وعُشَرْ ليس بذا يُجلِّل الأرضَ المَطَـرْ

ويمكن أن يُحمَل تفسيرُ الأصمعىّ على محمل صحيح ، فيقال : غالت بمعنى أهلكتْ ، يقال : غالَه كذا واغتاله أى أهْلَكه ، وغالَتهم غولٌ ؛ يعنى المنيـة ، ومنـه الغَضَب غُول الحِلْم .

وقال آخر :

لَـما كسَوْنا الأرضَ أذنابَ البَقَرْ بالسَّلَع المعقود فيهـــا والعُشَرْ

وقال آخَر :

يا كُحْل قد أثقلتَ أذنابَ البَقَرْ بسَلَـعٍ يعقد فيهـــا وعُشَرْ
* فهل تَجُودِين ببَرْقٍ ومَطرْ *

وقال آخر يعيب العربَ بِفعلهم هذا :

لادَرَّ دَرّ رجالٍ خابَ سعيهُمُ يَستمطِرونَ لدى الإعسار بالعُشَرِ
أجاعلٌ أنت بيقوراً مسلّعــــة ذريعــــةً لك بين الله والمَطَر

وقال بعضُ الأذكياء : كلّ أمّــة قد تَحْذو فى مذاهبها مذاهبَ مِـلّة أخرى ، وقد كانت الهِنْد تزعُم أنّ البقر ملائـــكة ، سَخط اللهُ عليها فجعلَها فى الأرض ، وأنّ لها عنده حرمة ، وكانوا يُلطِّخون الأبدانَ بأخثائها[1] ، ويَغسِلون الوجوهَ ببوْلِها ويجعلونَها مُهورَ نِسائهم ، ويتبرّكون بها فى جميع أحوالهم ، فلعلّ أوائلَ العرب حَذَوْا هذا الحذوَ ، وانتهَجوا هذا المَسْلك .

---

(١) الأخثاء : جمع خثة ؛ وهى البعرة اللينة .

وللعَرَب فى البقر خيالٌ آخر ، وذلك أنّهم إذا أوْرَدوها فلم تَرِد، ضَرَبوا الثّور ليقتحمَ الماء ، فتقتحم البقر بعدَه ، ويقولون : إنّ الجنّ تَصُدّ البقر عن الماء ، وإن الشّيطان يركَبُ قَرْنَىْ الثّور ، وقال قائلهم :

إنّى وقتلِى سُلَيْكاً حين أعْقِلُه ... كالثّوْر يُضرَب لمّا عافتْ البَقَرْ[1]

وقال نَهشَل بن حرىّ :

كذاكَ الثورُ يُضرَب بالهَرَاوَى ... إذا ما عافتِ البَقَرُ الظِّماء

وقال آخر :

كالثّوْر يُضرَب للورُو ... دِ إذا تَمنَّعتِ البَقَرْ

فإنْ كان ليس إلّا هذا فليس ذاك بعَجِيب من البقر ولا بمَذهَب من مذاهِب العرب: لأنّه قد يجوز أن تَمتنِع البقر من الورُود حتّى يَرِدَ الثّور كما تمتنِع الغنمُ من سلوك الطُّرُق أو دخول الدُّور والأخْبِية حتّى يتقدّمها الكبش أو التَّيس ، وكالنحل تتبع اليَعْسوب ، والكَراكىّ تتبع أميرَها ، ولكن الّذى تدلّ عليه أشعارها أنّ الثّورَ يَرِدُ ويَشرَب ولا يمتنع ، ولكنّ البقر تَمتنع وتَعافُ الماء وقد رأت الثورَ يَشرَب ، فحينئذ يُضربَ الثور مع إجابته إلى الورود فتَشرَب البقر عند شُرْبه ، وهذا هو العَجَب، قال الشاعر :

فإنّى إذَنْ كالثّوْر يُضرَب جَنْبُهُ ... إذا لم يَعفْ شربا وعافَتْ صَواحِبُهْ

وقال آخر :

فلا تجعلونى كالبقير وفحلها ... يكسَّر ضَرْبا وهو للورْد طائِعُ

وما ذَنْبه إن لم يرد بقراته ... وقد فاجأتْها عند ذاك الشّرائعُ

---

(١) للسليك بن السلكة ، والبيت من شواهد ابن عقيل ٢ : ٢٨٢ .

وقال الأعشى :

لَكَالثَّور والجِنِّيّ يُضرَب وجهُه   وما ذنبُه إن عافت الماء مَشرَبا ! [١]

وما ذنبه إن عافت الماء باقِرٌ   وما إن يَعافُ الماء إلّا ليُضرَبا

قالوا فى تفسيره : لمّا كان امتناعُها يتعقبه الضرب ، حَسُن أن يقال : عافت الماء لتُضرَب ، وهذه اللّام هى لام العاقبة ، كقوله : « لِدُوا للموت » ، وعلَى هذا فسّر أصحابُنا قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ [٢] .

***

ومن مذاهب العرب أيضا تعليق الحَلْى والجَلاجِل على اللّدِيغ يرَوْن أنه يُفيق بذلك ، ويقال : إنه إنما يعلّق عليه لأنهم يرَوْن [أنه] إنْ نام يَسرِى السمّ فيه فيهلِك ، فشَغَلوه بالحَلْى والجَلاجِل وأصواتها عن النوم ، وهذا قولُ النَّضْر بن شُمَيل ، وبعضُهم يقول : إنه إذا عُلّقَ عليه حلى الذهب برَأ ، وإن علّق الرّصاص أوْ حَلْى الرصاص مات .

وقيل لبعض الأعراب : أتريدون شُهْرَةً ؟ فقال : إنّ الحَلْى لا تُشهر ، ولكنها سُنّةٌ ورِثْناها .

وقال النابغة :

فبتّ كأنى ساورتْنى ضَئيلةٌ   من الرُّقْش فى أنيابِها السّمُّ ناقعُ [٣]

يُسهّدُ من ليلِ التّمام سَلِيمُها   لِحَلْىِ النساء فى يديْه قَعاقِعُ

وقال بعض بنى عُذْرَة :

كأنّى سَلِيمٌ نالَه كَلْمُ حَيّةٍ   ترى حولَه حَلْى النساء مرصَّعَا

---

(١) ديوانه ٩٠ .   (٢) سورة الأعراف ١٧٩ .

(٣) ديوانه ٥١ .

وقال آخر :

وقد عَلّلوا بالبُطْل فى كلّ موضعٍ   وغرُّوا كما غرّ السليمَ الجلاجلُ

وقال جَميل وظَرُف فى قوله ، ولو قاله العبّاس بن الأحنف لـكان ظريفا :

إذا ما لَدِيغٌ أبرأ الحلىُ داءه   فحَليكِ أمسى يا بُثَينة دائيا(١)

وقال عُوَيْمر النَّبهانىّ وهو يؤكّد قولَ النّضر بن شُميل :

فبتّ مُعَنًّى بالهموم كأنّنى   سليمٌ نَفَى عنه الرُّقادَ الجلاجلُ

ومِثلُه قولُ الآخر :

كأنى سليمٌ سهّدَ الحلىُ عينَه   فراقب من ليل التِّمام الكواكبا

ويشبه مذهبَهم فى ضَرْب الثور مذهبهم فى العرّ يصيبُ الإبلَ فيُكوَى الصَّحيح ليَبْرأَ السقيم . وقال النابغة :

وكلّفتنى ذنبَ امرئٍ وتركته   كذى العرِّ يُكوَى غيرُه وهو راتِعُ(٢)

وقال بعضُ الأعراب :

كمن يُكوِى الصّحاح يرومُ بُرْءًا   به من كلّ جَرْباء الإهابِ

وهذا البيت يُبطِل رواية مَن رَوَى بيت النابغة « كذِى العُرِّ » بضم العين ، لأنّ العُرّ بالضم : قَرْح فى مَشافِر الإبل غيرُ الجَرَب ، والعَرُّ بالفتح : الجَرَب نفسه ، فإذا دلّ الشعر على أنه يُكوَى الصّحيح ليبرأ الأجْرَب ، فالواجبُ أن يكون بيتُ النابغة « كذِى العَرّ » بالفتح .

ومِثلُ هذا البيت قولُ الآخر :

فألزمتِنى ذَنْبا وغيرِىَ جَرّه   حَنانَيكِ لا يُكوى الصحيحُ بأجْربا

إلّا أن يكون إطلاق لفظِ الجَرَب على هذا المرض المخصوص من باب المجاز لمشابهته له .

---

(١) ديوانه ٢١٨ .   (٢) ديوانه ٥٤ .

ومن تخيّلاتِ العَرَب ومذاهِبها أنّهم كانوا يَفقئون عينَ الفَحْلِ من الإبل إذا بلغت ألفاً ، كأنّهم يدْفعون العينَ عنها ،قال الشاعر :

فَقأْنا عيوناً من فُحول بَهازِرٍ ... وأنتمْ برَعْيِ البُهْمِ أولَى وأجْدرُ

وقال آخَر :

وهَبْتَها وكنتَ ذا امتِنانِ ... تفقأُ فيها أعيُنَ البُعرانِ

وقال الآخر :

أعطيتَها ألفاً ولم تبخَلْ بها ... ففقأتَ عيْنَ فُحَيْلِها مُعْتافا

وقد ظَنّ قومٌ أنّ بيتَ الفرَزْدق وهو :

غَلَبْتُك بالمفقِّىء والمُعنّى ... وبيت المحتبى والخافقاتِ[(١)]

من هذا الباب ، وليس الأمر على ذلك ، وإنّما أراد بالفقء قوله لجرير :

ولستَ ولو فقأْتُ عينيكَ واجدا ... أخاً كلقَيطٍ أو أباً مِثلَ دارِمِ[(٢)]

وأرادَ بالمعنّى قوله لجرير أيضا :

وإنّك إذ تَسعَى لتُدرِك دارِماً ... لأَنتَ المعنَّى ياجرير المكلَّفُ[(٣)]

وأراد بقوله : « بيت المحتبى » قوله :

بيتٌ زرارةُ محتبٍ بفِنائهِ ... ومُجاشعٌ وأبو الفوارِس نَهْشَلُ[(٤)]

وبيت الخافقات ، قوله :

ومعصَّبٍ بالتّاج يَخفِق فوقَه ... خِرَقُ الملوك له خَميسٌ جَحْفَلُ[(٥)]

---

(١) ديوانه ١٣١ . والخافقات : الرايات . (٢) في شرح ديوانه : « أو أبا مثل نهشل .

(٣) ديوانه ٤٣٦ . (٤) ٧١٤ .

(٥) ديوانه ٧١٥ ؛ وفي شرح الديوان . والخافقات يريد قوله :

وأينَ تَقَضَّى المالكانِ أمورَها ... بحقّ وأينَ الخافقاتُ اللوامعُ

قال أبو الهيثم : « فخر الفرزدق في هذا البيت على جرير ؛ لأن العرب كانت إذا بلغ لأحدهم ألف بعير فقأ عين بعير منها ؛ فإذا تمت ألفان أعماه ؛ فافتخر عليه بكثرة ماله » .

فأما مذهبهم فى البليّة ، وهى ناقةٌ تُعقَلُ عند القبر حتى تموت ، فمذهَبٌ مشهور ، والبَلِية أنّهم إذا ماتَ منهم كريمٌ بلَوا ناقته أو بعيره ، فعكسوا عنقها ، وأداروا رأسها إلى مؤخَّرها ، وتركُوها فى حَفيرة لا تَطعَم ولا تُسقَى حتى تموت ، وربّما أُحرِقتْ بعد موتها ، وربّما سُلِخَت وملىء جلدُها ثُماما . وكانوا يزعُمون أنّ من مات ولم يُبْلَ عليه حُشِر ماشيا ، ومَن كانت له بليّة حُشِر راكبا على بليّته ، قال جُرَيبة[1] بن الأشيم الفَقْعَسىّ لابنه :

يا سَعْدُ إما أهلِكَنّ فإنّنى ... أوصيكَ إنّ أخا الوَصاةِ الأقربُ

لأعْرِفَنّ أباكَ يحشر خلفَكُمْ ... تعبا يُجَرُّ على اليدَين ويُنكَبُ

واحملْ أباكَ على بعيرٍ صالحٍ ... وتَقِ الخطيئةَ إنّه هوأصوَبُ

ولعلّ لى مما جمعتُ مطيّةً ... فى الحَشْر أركبُها إذا قيل ارْكبوا

وقال جُريبة أيضا :

إذا مِتُّ فادفنّى بجدّاء مابها ... سِوَى الأصرخين أويفوزَ راكبُ

فإن أنتَ لم تعقِر علىّ مطيّتى ... فلا قامَ فى مالٍ لك الدهر جالبُ

ولاتدفنَنّى فى صُوًى[1] وادْفِننّنِى ... بدَيْمومةٍ تنْزو عليها الجنادِبُ

وقد ذكرتُ فى مجموعِى المسمّى « بالعَبْقرىّ الحسان » أنّ أبا عبد الله الحُسين بن محمّد ابن جعفر الخالع رحمه الله ذكر فى كتابه فى آراء العرب وأديانها هذه الأبيات ، واستَشْهد بها على ما كانوا يعتقِدون فى البَلِيّة ، وقلتُ : إنه وَهِمَ فى ذلك ، وإنه ليس فى هذه الأبيات دَلالةٌ على هذا المعنى ، ولا لها به تعلّق ، وإنما هى وصيّة لولده أن يَعقِر مطيته بعد موتِهِ ؛ إمّا لِكَيْلا يركَبها غيرُه بعده ، أو على هيئة القُرْبان كالهَدْى المعقور

---

(١) ديوانه ٣٤٦ .

بمكّة،أو كما كانوا يعقِرون عند القبور؛ومَذْهبهم فى العَقْر على القبور ، كقول زياد الأعجم فى المغيرة بن المهلّب :

إنّ السّماحة والمروءة ضُمِّنَا ... قَبراً بمَرْوَ على الطّريق الواضِحِ (١)
فإذا مَررتَ بقبرِه فاعقِرْ به ... كُومَ الهِجانِ وكلَّ طِرْفٍ سابِحِ (٢)

وقال الآخَر :

نفرَتْ قَلوصِى عن حِجارة حَرّةٍ ... بُنِيتْ على طَلْق اليدين وَهوبِ (٣)
لا تنفِرى ياناقُ منه فإنّه ... شِرِّيبُ خمرٍ مِسْعَرٌ لحرُوبِ
لولا السِّفار وبُعدُ خَرْقٍ مَهْمهٍ ... لتركتُها تحبُو على العُرْقوب

ومَذهبُهم فى العَقْر على القبور مشهور ، وليس فى هذا الشِّعر مايدلّ على مذهبهم فى البَليّة ، فإنْ ظَنّ ظانٌّ أنّ قوله:« أو يُفوِّز راكب »،فيه إيماء إلى ذلك، فليس الأمرُ كما ظنّه . ومعنى البيت ادفنِّى بفلاةٍ جَدّاء مقطوعة عن الإنس ، ليس بها إلّا الذئب والغُراب ، أو أن يعتسف راكبها المَفازة وهى المَهلَكة ، سمّوها مَفازةً على طريق الفأل. وقيل : إنّها تسمّى مَفازةً؛ من فوّز أى هلَك ، فليس فى هذا البيت ذِكرُ البليّة ، ولكنّ الخالع أخطأ فى إيرادِه فى هذا الباب ، كما أخطأ فى هذا الباب أيضا فى إيراده قول مالك ابن الرَّيب :

وعَطِّلْ قَلوصِى فى الرِّكاب فإنّها ... ستُبرِد أكباداً وتُبكى بوَاكِيا (٤)

فظنّ أنّ ذلك من هذا الباب الّذى نحن فيه ، ولم يُرِد الشاعر ذلك ، وإنما أراد

---

(١) الشعر والشعراء ٣٩٧ . (٢) بعده فى الشعر والشعراء :

وانْضَحْ جوانبَ قبره بدمائها ... فلقد يكونُ أخَا دمٍ وذبائحِ

(٣) من أبيات فى رثاء ربيعة بن مكدم ، تنسب إلى ضرار بن الخطاب ، وتنسب لحسان أيضاً ؛ وانظر الأغانى ١٦ : ٥٨ ، ٥٩ (طبعة دار الكتب) . (٤) أمالى القالى ٣ : ١٣٨ .

لَا تركَبوا راحلتى بعدِى ، وعَطِّلوها بحيثُ لا يشاهدها أعادِىَّ وأصادِق ذاهبةً جائيةً تحتَ راكبها ، فيَشمَت العدوّ ويُساء الصديق ، وقد أخطأ الخالع فى مواضعَ عدّة من هذا الكتاب ، وأورد أشعاراً فى غير موضِعها ، وظَنّها مناسبةً لما هو فيه ، فمنها ماذَكَرْناه ، ومنها أنّه ذكَرَ مذهَب العرب فى الحَلْى ووضْعِه على اللّدِيغ ، واستَشْهَدَ عليه بقول الشاعر :

يُلاقِى من تذكُّرِ آلِ لَيْلَى   كما يَلْقَى السَّلِيمُ من العِدادِ [1]

ولا وجهَ لإيراد هذا البيت فى هذا الموضع ، فالعِداد مُعاوَدَة السَّمّ الملسوعَ فى كلّ سنة فى الوَقْت الّذى لُدِغ فيه ، وليس هذا من باب الحَلْى بسبيل .

ومن ذلك إيرادُه قولَ الفرَزْدق « غلبْتُك بالمفقِّئ [2] » فى باب فَقْء عُيون الفُحول ، إذا بلغَت الإبلُ ألفا ، وقد تقدّم شرحُنا لموضع الوَهْم فى ذلك . وسنذكُر هاهنا كثيراً من المواضع الّتى وَهِم فيها إنْ شاء الله .

***

وممّا وَرَد عن العرب فى البليّة قولُ بعضهم :

أبُنَىَّ زوِّدْنى إذا فارَقْتَنِى   فى القَبْر راحلةً برَحْلٍ فاترِ

لِلبَعْث أركَبُها إذا قيل ارْكَبوا   مستوثِقِين معاً لحشر الحاشرِ

وقال عُوَيم النَّبهانىّ :

أبُنَىَّ لَا تنسَى البليّة إنّها   لأبيكَ يومَ نُشورِه مرْكوبُ

***

(١) اللسان ٤ : ٢٧٤ .

(٢) وهو قوله :

غلَبْتُكَ بالمفقِّئِ والمعَنِّى   وبيتِ المحتبِى والخافِقَاتِ

ومن تخيلات العرَب ومذاهبِها ما حكاه ابنُ الأعرابىّ ، قال : كانت العرب إذا نفرَت الناقةُ فسُمِّيتْ لها أمُّها سكنَتْ من النِّفار ، قال الراجز :

أقولُ والوَجْناءُ بى تَقَحَّمُ   وَيلكَ قُلْ ما اسمُ أُمِّها يا عَلْكَمُ

عَلْكَم : اسمُ عبدٍ له ، وإنما سأل عبدَه ترفُّعا أن يَعرِف اسمَ أمِّها ، لأنّ العبيد بالإبل أعرَف ، وهُم رُعاتُها .

وأنشد السكّرىّ :

فقلتُ له ما اسمُ أُمِّها هاتِ فادْعُها   تُجِبْكَ ويَسْكُنْ روعُها ونِفارُهَا

* * *

وممّا كانت العرب كالمجتمعة عليه الهامة ، وذلك أنهم كانوا يقولون : ليس من ميّت يموت ولا قتيل يقتَل ، إلا ويخرج من رأسه هامةٌ ، فإنْ كان قُتِل ولم يُؤخذ بثأره نادت الهامةُ على قَبْره : اسْقونى ، فإنّى صَدِيَة ، وعن هذا قال النبىّ صلّى الله عليه وآله : « لا هامَةَ » .

وحُكى أنّ أبا زيد كان يقول : الهامّة مشدّدة الميم إحدى هوَامّ الأرض ، وأنها هى المتلوّنة المذكورة .

وقيل : إنّ أبا عُبيد قال : ما أرَى أبا زيد حَفِظ هذا ، وقد يُسمّونها الصَّدى والجمع أصْداء ، قال :

* وكيف حَياةُ أصداءٍ وهامِ *

وقال أبو دُواد الإيادىّ :

سُلِّط الموتُ والمَنونُ عليهمْ   فلهمْ فى صدَى المقابرِ هامُ (١)

---

(١) ديوانه ٣٣٩ .

وقال بعضُهم لابنه :

ولا تزْقُوَنْ لى هامَةٌ فوقَ مَرْقَبٍ ... فإنّ زُقاءَ الهامِ للمرءِ عائِبُ
تُنادِي ألا اسْقونِي وكلّ صدًى به ... وتلكَ التى تبيضّ منها الذّوائبُ

يقول له : لا تتركْ ثأرى إن قتلت ، فإنك إن تركتَه صاحتْ هامَتى : اسقونى ، فإن كل صدًى ـ وهو هاهنا العطَش ـ بأبيك ، وتلك التى تبيضّ منها الذوائب ، لصُعوبتها وشِدّتها ، كما يقال : أمرٌ يُشِيب رأسَ الوليد ، ويَحتمل أن يريد به صُعوبة الأمر عليه ، وهو مقبور إذا لم يثأرْ به ، ويحتمل أن يريد به صعوبة الأمر على ابنه ، يعنى أن ذلك عارٌ عليك ، وقال ذو الإصْبَع :

يا عَمْرو إلّا تَدَعْ شَتْمِى ومَنقَصَتى ... أضرِبْكَ حيث تقولُ الهامَةُ اسْقُونى (١)

وقال آخر :

فيارَبِّ إنْ أهلك ولم تَرْوِ هامَتِى ... بلَيلى أَمُتْ لا قبرَ أعطَشُ من قبْرى (٢)

ويحتمل هذا البيت أنْ يكون خارجاً عن هذا المعنى الذى نحن فيه ، وأن يكون رِىّ هامته الذى طلبه من ربّه هو وصالُ لَيْلَى وهما فى الدنيا . وهم يَكنُون عما يَشْفِيهم بأنه يُروِى هامَتَهم .

وقال مغلّس الفقْسىّ :

وإنّ أخاكم قد علمت مكانَه ... بسَفْح قُبًا تَسفِى عليه الأعاصرُ
له هامةٌ تدعُو إذا الليلُ جَنّها ... بَنِى عامرٍ هل للهلالىّ ثائرُ

وقال تَوْبةُ بن الُحميِّر :

ولو أنّ لَيلى الأخيليّةَ سلّمتْ ... علىّ ودُونِى جَنْدَلٌ وصَفائحُ

---

(١) المفضلية ٣١ .

(٢) للمجنون ، ديوانه ١٦٥ .

لسلّمتُ تسليمَ البَشاشةِ أو زقــا ... إليها صدًى من جانبِ القبرِ صائحُ [(١)]

وقال قيسُ بن المُلوَّح ، وهو المجنون :

ولو تلتقي أصداؤنا بعــد موتِنا ... ومِن دونِنا رَمْسٌ مِن الأرض أنْكَبُ [(٢)]

لظَلّ صدَى رَمْسِي وإن كنتُ رِمَّةً ... لِصوتِ صَــدَى لَيلَى يَهَشُّ ويَطْرَبُ

وقال حُميد بنُ ثور :

ألا هَل صَدَى أمِّ الوليــد مكلِّمٌ ... صَداىَ إذا ما كنتُ رَمْساً وأعظُما [(٣)]

* * *

ومما أبطله الإسلام قولُ العَرب بالصَّفَر ، زعموا أنّ فى البطن حَيّةً إذا جاع الإنسان عَضّت على شُرْسُوفه وكبده ، وقيل : هو الجوع بعَيْنه ، ليس أنّها تَعضّ بعد حصول الجوع ، فأما لفظ الحديث : « لاعدوَى ولا هامَة ولا صَفَر ولا غُول » ، فإن أباعُبَيدة مَعمَر بن المثنّى قال : هو صَفَر الشّهر الذى بَعد المحرَّم ، قال : نهى عليه السلام عن تأخيرهم المحرَّم إلى صَفَر ، يَعنِى ما كانوا يفعلونَه من النَّسىء ، ولم يوافق أحدٌ من العلماء أباعُبيدة على هذا التفسير ، وقال الشاعر :

لا يَتأرَّى لِما فى القِـدْرِ يرْقُبه ... ولا يَعَضّ على شُرْسُوفهِ الصَّفَرُ [(٤)]

وقال بعضُ شعراء بنى عَبْس يذكر قَيسَ بنَ زهير لما هَجَر الناس وسَكن الفيافى

---

(١) ديوان الحماسة ـ بشرح التبريزى ٣ : ٢٦٧ .

(٢) ديوانه ٤٦ ، وروايته : * ومن دون رمسينا من الأرض سبسب * .

(٣) ديوانه ٣٠ .

(٤) لأعشى باهلة ؛ الكامل للمبرد (٤ : ٦٥ ، والرواية فيه :

لايتأرَّى لمـا فى القِـدْرِ يرقُبُهُ ... ولا تراهُ أمامَ القِــدْرِ يقتفِرُ

لا يغمِزُ السّاقَ من أينٍ ولاوَصبٍ ... وَلا يعَضُّ على شُرسُوفِهِ الصَّفَرُ

وأَنِسَ بالوَحْش ، ثمّ رأى ليلةً نارا فعشا إليها ، فشمّ عندها قُتار اللّحم ، فنازعتْه شهوته ، فغلبها وقهرها ، ومال إلى شجرة سلَم فلم يزَل يكْدِمُها ويأكُل مِن خَبَطها[1] إلى أن مات :

إنّ قيساً كان ميتَته كرمٌ والحىّ منطلقُ
شامَ ناراً بالهوى فهَوَى وشُجاع البطْن يختفقُ
فى دَرِيسٍ ليس يَستُره رُبَّ حُرٍّ ثوبه خَلَقُ

وقوله : « بالهوى » اسمُ موضع بعينه .

وقال أبو النّجم العِجْلىّ :

إنك ياخَيرَ فتًى نَستعدِى على زمانٍ مسنِتٍ بجَهْدِ
* عضًا كعضّ صفَرٍ بكبْدِ *

وقال آخر :

أردُّ شُجاعَ البطْن قد تعلمينه وأوثر غيرِى من عِيالِك بالطّعمِ

* * *

ومن خُرافات العرب أن الرّجل منهم كان إذا أراد دخول قريةٍ فخاف وباءها أو جنَّها، وقف على بابها، قبل أن يدخلها فنهَقَ نهيق الحمار ، ثم علّق عليه كعب أرْنب ، كأنّ ذلك عُوذة له ورُقْية من الوَباء والجنّ ، ويسمُّون هذا النّهيق التّعشير ، قال شاعرُهم :

ولا ينفع التّعْشير أن حُمّ واقِعٌ ولا زَعزَعٌ ولا كَعْب أرْنبِ

وقال الهيثم بن عَدِىّ : خرج عُروة بن الوَرْد إلى خيبر فى رُفقه ليمتارُوا ، فلمّا قربوا منها عشّروا ، وعاف عُرْوة أن يفعل فعلَهم ، وقال :

---

(١) الخبط هنا : الورق .

لَعمرى لئن عَشّرتُ من خِيفةِ الرَّدَى نُهاقَ حَمــيرٍ إننى لجزُوعُ [1]
فلا وألَتْ تلك النفوسُ ولا أتَتْ قُفولا إلى الأوطان وهى جميعُ
وقالوا ألا أنهَقْ لا تضرّك خَيْبَرٌ وذلك من فعــلِ اليهود وُلوعُ

الوُلوع بالضمّ : الـكَذِب ، ولع الرجُل إذا كَذَب ، فيقال إن رُفقتَه مرضوا ومات بعضُهم ، ونجا عروة من الموت والمرض .

وقال آخر :

لا يُنْجِينَّكَ من حِمامٍ واقــعٍ كَعبٌ تعلَّقُه ولا تَعشــيرُ

***

ويُشابه هذا أن الرجل منهم كان إذا ضَلّ فى فَلاةٍ قلب قميصَه ، وصفّق بيدَيه كأنه يومئ بهما إلى إنسان فيهتدِى ، قال أعرابىّ :

قلبتُ ثيابى والظُّنونُ تجول بى وترْمِى برحْلى نحو كلّ سبيلِ
فَلَأْيًا بلأْيٍ ما عرفت جلِيّتى وأبصرْتُ قَصْدا لم يصب بدَليل

وقال أبو العملّس الطائىّ :

فلو أبصرْتنى بلوَى بطانٍ أُصفِّق بالبَنانِ على البَنـانِ
فأقلبُ تارةً خــوفًا ردائى وأصرُخُ تارةً بأبى فُــلانِ
لقلتُ أبو العمَلَّس قد دَهاهُ من الجِنّان خالعةُ العِنانِ

والأصل فى قَلْب الثِّياب التفاؤل بقَلْب الحال ، وقد جاء فى الشَّريعة الإسلاميّة نحو ذلك فى الأستسقاء .

***

(١) ديوانه ٩٥ .

ومن مذاهب العَرَب أنّ الرجل منهم كان إذا سافَرَ عَمَدَ إلى خَيْط فعَقَده فى غُصْن شجرة أو فِى ساقها ، فإذا عادَ نظرَ إلى ذلك الخيط ، فإنْ وجَدَه بحالِه عَلِم أنّ زوجتَه لم تَخُنْه ، وإن لم يَجِدْه أو وجده مَحْلولا ، قال : قد خانَتْنى ، وذلك العَقْد يُسَمّى الرَّتَم ، ويقال: بل كانوا يعقِدون طَرَفا من غُصْن الشّجرة بطَرَفِ غصنٍ آخَر ، وقال الراجز :

هل ينفعنْكَ اليومَ إنْ هَمت بِهمْ   كثرةُ ماتُوصِى وتَعْقاد الرَّتَمْ (١)

وقال آخَر :

خانَتْه لَمّا رأت شَيْبا بمَفرِقِهِ   وغَرّه حلفُهــا والعقد للرَّتَمِ

وقال آخر :

لا تَحسَبنَّ رَتائمًا عَقَدتهــا   تُنْبِيكَ عنهـا باليقينِ الصادِق

وقال آخَر :

يعَلِّل عَمْرٌو بالرَّتائم قَلْبــه   وفى الحىّ ظَبىٌ قد أُحلّتْ مَحارِمُهْ

فما نفعتْ تلك الوَصايَا ولا جَنَتْ   عليه سِوَى مالا يحبّ رَتائِمُهْ

وقال آخَر :

ماذا الّذى تنفَعُك الرَّتائمُ   إذ أصبحتْ وعِشقُها مُلازِمُ

وهى على لَذّاتهـــا تُداومُ   يزُورها طَبٌّ الفؤاد عارِمُ

* بكلٍّ أدواءِ النّساء عالِمُ *

وقد كانوا يعقِدون الرَّتم للحُمَّى ، ويرَون أنّ من حَلّهـا انتقلتْ الحمّى إليـه ، وقال الشاعر :

حلتْ رُتيمةً فمكثتُ شهرا   أكابِدُ كلَّ مكروهِ الدّواء

***

---

(١) اللسان (رتم) من غير نسبة .

وقال ابنُ السكّيت : إنّ العرب كانت تقول : إنّ المرأة المِقْلات وهى التى لا يَعيشُ لها ولد ، إذا وَطِئَت القتيل الشريفَ عاشَ ولدُها ، قال بِشرُ بنُ أبى خازِم :

تَظَلّ مَقاليتُ النِّساءِ تطأنه يَقُلْن ألا يُلقَى على المرء مِئْزَرُ(١)

وقال أبو عُبيدة : تتخطّاه المِقْلات سبعَ مرّات ، فذلك وَطؤُها له .

وقال ابنُ الأعرابىّ : يمرّون به ويطئون حولَه وقيل : إنّما كانوا يَفعَلون ذلك بالشريف يُقتَل غدْرا أوَ قوَدا .

وقال الكُمَيْت :

وتُطِيلُ المرزَّآتُ المَقاليـ ـتُ إليه القُعودَ بعد القِيامِ

وقال الآخَر :

تركْنا الشَّعْثَمَيْن برَمْل خَبْتٍ تَزُورهما مَقاليتُ النّساءِ

وقال الآخَر :

بنَفْسى التى تَمشى المَقاليتُ حَوْلَه يُطافُ له كَشْحًا هَضِيماً مُهشما

وقال آخَر :

تباشرت المَقالِتُ حِينَ قالُوا ثوَى عَمرُو بنُ مُرّة بالحَفيرِ

***

ومن تخيلات العرَب وخُرافاتها ، أنّ الغلام مِنهم كان إذا سقطتْ له سِنّ أخذَها بين السّبّابة والإبهام واستقبَل الشّمس إذا طلعتْ وقذَفَ بها ، وقال : ياشمسُ أبدِلينى بِسِنّ أحسنَ منها ، وليَجْر فى ظلْمها إياتك ، أو تقول : « إياؤك » ، وهما جميعا شُعاع الشمس، قال طَرَفة :

---

(١) ديوانه ٨٨ .

* سَقَتْه إياةُ الشّمس[1] *

وإلى هذا الخيالِ أشار شاعرُهم بقوله :

شادِنٌ يَجْلو إذا ما ابتَسَمَتْ　　عن أقاحٍ كأقاحِ الرّملِ غرّْ
بدّلَتْه الشمسُ من مَنبِتـه　　بَرَداً أبيضَ مَصقولَ الأشَرْ

وقال آخَر :

وأشنبُ واضحٌ عَذْبُ الثّنـايا　　كأنّ رُضَابَهُ صافى المُـدامِ
كسَتْه الشمسُ لوْناً من سَنـاها　　فـلاحَ كأنّه برْقُ الغَمامِ

وقال آخَر :

بذى أُشُرٍ عَذْبِ المَذاقِ تفرّدتْ　　به الشمس حتّى عاد أبيضَ ناصِعاَ

والناسُ اليوم فى صِبْيانهم على هذا المذهب .

وكانت العربُ تَعتَقـد أنّ دَم الرّئيس يَشفِى مِن عضّة الـكَلْب الـكَلِب ؛ قال الشاعر :

بُناة مـكارمٍ وأُسـاة جُرحٍ　　دِماؤهُمُ من الـكَلَبِ الشّفـاء

وقال عبدُ الله بن الزَّبير الأسَدىّ :

من خـيرِ بيتٍ عَلِمْناه وأ كرَمِـه　　كانت دماؤهُمُ تَشفِى مِنَ الـكَلَبِ

وقال الـكُميت :

أحلامكمْ لسَقامِ الجَهْل شـافِيـةٌ　　كما دِماؤكُمُ تَشفِى مِن الـكَلَبِ

***

ومِن تخيُّلات العرب أنّهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنُونَ وتعرُّضَ الأرواح

---

(١) البيت بتمامه :

سَقَتْهُ إياةُ الشمْسِ إلّا لثاتِه　　أسِفّ ولم تَـكْدَمْ عليهِ بإثمدِ

الخبيثة له بجسوه بتعليق الأقذار عليه ، كخرقة الحيض وعظام الموتى ، قالوا : وأنفع من ذلك أن تعلّق عليه طامِثٌ عِظام موتى ، ثمّ لا يراها يومه ذلك ، وأنشدوا للممزّق العبديّ :

فلو أنّ عندى جارتين وراقياً ... وعلّق أنجاسا علىّ المعلّقُ

قالوا : والتّنجيس يَشفِى إلّا مِن العِشْق ، قال أعرابيّ :

يقولون علّق يالك الخير رِمّةً ... وهل ينفع التّنجيس مَن كان عاشقا !

وقالت امرأة ـ وقد نجّستْ ولدَها فلم يَنفَعْه ومات :

نجّسْتُه لو يَنفَع التّنجيسُ ... والموتُ لاتفوتُه النفوس

وكان أبو مهديّة يعلّق فى عُنقه العِظامَ والصّوف حَذَر الموت ، وأنشدوا :

أتَوْنى بأنجاسٍ لهمْ ومنجّسٍ ... فقلتُ لهمْ ماقدّر اللهُ كائنُ

***

ومن مَذاهِبهم أنّ الرجل منهم كان إذا خَدِرت رِجلُه ذَكَر من يُحِبّ أو دعاه فيذهب خَدَرُها.

ورُوِى أنّ عبد الله بن عمر خَدِرتْ رِجلُه ، فقيل له: ادعُ أحبّ الناس إليك ،فقال: يارسول الله

وقال الشاعر :

على أنّ رِجْلى لايزالُ امْذِلالُها ... مُقيماً بها حتّى أُجِيلَك فى فِكْرى

وقال كُثيّر :

إذا مَذِلَتْ رِجلى ذكرتُكِ أشتَفِى ... بدَعْواكِ من مَذْلٍ بها فيهونُ (١)

وقال جَميل :

وأنتِ لعَيْنى قرّةٌ حينَ نلتقى ... وذكركِ يَشفينى إذا خدرتْ رِجْلِى (٢)

---

(١) اللسان (مذل) من غير نسبة .

(٢) ديوانه ١٧٢ .

وقالت امرأة :

إذا خَدِرَتْ رجلى دعوتُ ابْنَ مصعَبٍ فإنْ قلتُ عبدَ الله أجلَى فتورُها

وقال آخَر :

صَبٌّ محبٌّ إذا ما رِجْلُه خَدِرَتْ نَادى كُبَيْشَةَ حتى يذهبَ الخَدَرُ

وقال المُؤمّل :

واللهِ ما خَدِرَتْ رِجلى ولا عَثَرَتْ إلّا ذكرْتُكِ حتى يَذهبَ الخَدَرُ

وقال الوليد بن يزيد :

أثيبى هائماً كلِفاً مُعَنًّى إذا خَدِرَتْ له رِجلٌ دعاكِ

ونظير هذا الوَهم أنّ الرجل منهم كان إذا اختلَجَتْ عينُه قال : أَرَى مَن أُحِبّه ، فإن كان غائبا تَوَقَّع قدومَه ، وإن كان بعيدا توقع قُرْبه .

وقال بشر :

إذا اختلجتْ عينى أقولُ لعلّها فَتاةُ بنى عَمْرو بها العينُ تلمعُ[(١)]

وقال آخَر :

إذا اختلجَتْ عينى تيقّنتُ أنّنى أراكِ وإن كان المزارُ بَعيدا

وقال آخَر :

إذا اختلجَتْ عينى أقولُ لعلّها لرؤيتها تَهتاجُ عَينى وتطرِفُ

وهذا الوَهْم باقٍ فى الناس اليوم .

***

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا عَشِق ولم يَسْلُ وأَفرط عليه العِشْق حَمَله

---

(١) ديوانه ١١٨ .

رجلٌ على ظَهرِه كما يحمل الصبىّ ، وقام آخر فأحمَى حديدةً أو مِيلًا ، وكوى به بين أليَتَيْه فيذهب عِشْقُه فيما يزعمون .

وقال أعرابىّ :

كويتمْ بين رانفتىَّ جَهْلًا وَنارُ القَلْب يُضرِمُها الغَرامُ

وقال آخَر :

شكوتُ إلى رفيقىّ اشتياقِى فجاءانِى وقد جَمعا دَوَاء
وجاءا بالطبيب ليَكْوِيَانى ولاأبغى ـ عَدِمْتُهُما ـ اكتِوَاء
ولو أتيا بسَلْمَى حين جاءا لعاضانِى من السّقم الشِّفَاء

واستشْهد الخالع على هذا المعنى بقول كثيِّر :

أغاضرَ لو شَهِدْتِ غداةَ بِنتُمْ حُنُوَّ العائدَاتِ على وِسادِى
أوَيْتِ لعاشقٍ لم ترحَمِيهِ بواقِدةٍ تلذَّع بالزِّنادِ

هذا البيت ليس بصريح فى هذا الباب ، ويحتمل أن يكون مُرادُهُ فيه المعنى المشهور المطروقَ بين الشعّراء من ذِكر حرارة الوَجْد ولَذْعِه ، وتشبيهِه بالنار ، إلّا أنه قد رَوَى فى كتابه خبرا يؤكِّد المقصِد الّذى عزاه وادّعاه ، وهو عن محمد بن سليمانَ ابن فُلَيح ، عن أبيه ، عن جدّه ، قال : كنتُ عندَ عبدِ الله بنِ جعفر ، فدخل عليه كُثيِّر وعليه أثر عِلّة ، فقال عبدُ الله : ماهذا بك ؟ قال : هذا مافعلتْ بى أمُّ الُحوَيْرث ، ثم كَشَف عن ثوبه وهو مَكوِىّ ، وأنشد :

عفا الله عن أمِّ الُحوَيْرثِ ذَنبهَا علام تُعنِّينى وتَكمى دَوائيا !
ولو آذنونى قبل أن يرقُموا بها لقلت لهم : أمُّ الحويرث دائيا

* * *

ومِن أوهامهم وتخيُّلاتهم أنّهم كانوا يزعمون أن الرّجل إذا أحَبَّ امرأةً وأحبّته فشقّ برْقُعَها، وشقّت رِداءه، صَلَح حبّهُما ودام، فإن لم يَفعَلا ذلك فسدَ حبُّهما؛ قال سُحَيْمٌ عبدُ بنى الحسْحاس:

وكم قد شققْنا من رداء محبَّرٍ ... ومن بُرقعٍ عن طَفْلةٍ غيرِ عابسِ (١)

إذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبرد بُرقعٌ ... دَوَاليك حتّى كلّنا غير لابِسِ

نرومُ بهذا الفِعلِ بُقياً على الهوى ... وَإلفُ الهوى يغرِى بهذى الوساوِس

وقال آخر:

شققت ردائى يومَ بُرقةِ عالجٍ ... وأمكننى من شَقِّ برقعك السّحقا

فما بالُ هـذا الوُدِّ يفسدُ بيننا ... ويَمحَقُ حبلَ الوصلِ مابيننا مَحْقا!

* * *

ومِن مذاهبهم أنّهم كانوا يرَون أنّ أكل لحوم السِّباع تزيد فى الشجاعة والقوّة، وهذا مذهبٌ طِبِّىٌّ، والأطبّاء يعتقدونه، قال بعضهم:

أبا المعاركَ لاتُتْعِب بأكلِكَ ما ... تظنّ أنّك تُدْنَى منـــه كرّارا

فلو أكَلتَ سِباعَ الأرض قاطبةً ... ما كنتَ إلّا جبانَ القلب خوّارا

وقال بعضُ الأعراب ـ وأكل فؤاد الأسد ليكون شجاعا ـ فعَدَا عليه نَمِر فجرَحه:

أكلتُ من الليث الهصور فؤادَهُ ... لأصبِح أجرَى منه قَلْبا وأقدَما

فأدْرَكَ منّى ثأرَه بابن أختِـه ... فيالَكَ ثأرا ماأشدَّ وأعظَما!

وقال آخَر:

إذا لم يكن قلبُ الفتى غُدْوَةَ الوَغَى ... أصمَّ فقلْبُ اللّيث ليس بنافِـع

---

(١) ديوانه ١٦، ولم يذكر البيت الثالث.

وما نَفْعُ قلبِ الليثِ فى حَوْمة الوَغَى إذا كان سيف المرءِ ليس بقاطِـع !

***

ومن مَذاهبهم أنّ صاحب الفرَس المَهْقوع إذا ركبه فعَرِق تحته اغتلمتْ امرأتُه وطمحتْ إلى غيره ، والهَقْعة : دائرة تـكون بالفرَس ، وربّما كانت على الـكَتِف فى الأكثر ، وهى مستقبَحةٌ عندَهم ، قال بعضُهم لصاحبه :

إذا عَرِق المَهْقُوع بالمرء أَنْعظتْ حَليلتُه وازدادَ حَرُّ عجانِهـا

فأجابه صاحبُه :

قد يركب المهقوعَ من ليس مثله وقد يركب المهقوعَ زوج حَصَانِ (١)

***

ومن مذاهبهم أنهم كانوا يُوقِدون النّار خَلْف المسافر الذى لا يحبّون رجوعَه ، يقولون فى دعائهم : أبعدَه الله وأسحقه ، وأوقدَ ناراً أثرَه ! قال بعضهم :

صحوتَ وَأوقدتَ للجهل نارَا وردَّ عليك الصِّبَا ما أستَعارا

وكانوا إذا خرجوا إلى الأسفار أوقَدوا نارا بينهم وبين المنزِل الّذى يريدونه ، ولم يُوقدوها بينهم وبين المنزل الّذى خرجوا منه تفاؤلا بالرجوع إليه .

***

ومن مذاهبهم المشهورة تعليقُ كَعْب الأرْنَب ، قال ابنُ الأعرابىّ : قلتُ لزيد بن كَثْوَةَ : أتقولون : إنّ من عُلّق عليه كعبُ أرنبٍ لم تقربْه جِنّان الدار ، ولا عُمّار الحىّ؟ قال : إى واللهِ ، ولا شَيْطان الحَماطة ولا جار العُشَيْرة ، ولا غُول القَفْر . وقال أُمرؤُ القَيْس :

---

(١) اللسان (هقع) دون نسبة .

أياهندُ لا تنكِحِى بُوهةً عليه عقيقتُه أحسبَا (١)
مرسّعــــةً بين أدْباقهِ به عَسَمٌ يَبتغى أرنبا
ليَجعَل فى رِجلِه كَعْبَها حِذارَ المَنيّة أن يعطَبا

والحَماطة : شجرة ، والعُشَيرة : تصغير العَشَرة ، وهى شجرة أيضا .

وقال أبو محلِّم : كانت العرب تعلِّق على الصّبىّ سِنَّ ثعلب وسِنَّ هِرّة خوفا من الخَطْفة والنّظرة ، ويقولون : إنّ جنّيّةً أرادتْ صبىّ قوم فلم تَقدِر عليه ، فلامَها قومُها من الجِنّ فى ذلك ؛ فقالت تَعتذِر إليهم :

كأنّ عليــــه نُفَرَهْ ثعالبٌ وهِــــرَرَهْ

* والحَيْض حيضُ السَّمُرهْ *

والسَّمُرة شىء يسيل من السَّمُر كدم الغزال ؛ وكانت العربُ إذا وَلدت المرأةُ أخذوا من دَمِ السَّمُر ـ وهو صَمْغُه الّذى يسيل منه ـ ينقّطونه بين عَيْنَى النُّفَساء ؛ وخَطُّوا على وجه الصبىّ خَطًّا ، ويسمَّى هذا الصمغ السائل من السَّمُر الدَّوْدَم ؛ ويقال بالذال المعجمة أيضا ، وتسمَّى هذه الأشياء الّتى تُعلَّق على الصّبى : النّفرات .

قال عبد الرحمن بنُ أخى الأصمعىّ : إنّ بعض العرَب قال لأبى : إذا وُلِد لك وَلَد فنفِّر عنــه ، فقال له : أبى ، وما التنفير ؟ قال : غَرّب اُسمَه ؛ فوُلِد له ولدٌ فسمّاه قُنفُذا ، وكَنّاه أبا العدّاء ؛ قال : وأنشد أبى :

كالخَمْر مَزْجُ دَوائها مِنهـــا بِها تَشفى الصُّداعَ وتُبرِئُ المَنجُودَا (٢)

قال : يريد أنّ القُنفُذ من مَراكِب الجِنّ ؛ فداوى منهم ولده بمَراكبهم .

* * *

---

(١) ديوانه ١٢٨ .

(٢) المنجود : المكروب .

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا ركب مَفازةً وخاف على نفسه من طَوارِق اللّيل عَمَد إلى وادى شجر فأناخَ راحلتَه فى قرارته ، وعَقَلها وخَطّ عليها خَطًّا ثم قال : أعوذ بصاحب هذا الوادى ، وربما قال : بعظيم هذا الوادى ، وعن هذا قال الله سبحانه فى القرآن : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (١) .

واستعاذ رجل منهم ومعه ولدٌ فأ كلَه الأسد ، فقال :

قد اُستعذْنا بعظيمِ الوادِى … من شرِّ ما فيــه من الأعادِى

* فلم يُجِرْنا من هِزَبْرٍ عادِ *

وقال آخَر :

أعوذُ من شَرِّ البلاد البيـــدِ … بسَيِّدٍ معظَّمٍ مَجيـــدِ

أصبحَ يأوِى بـلِوَى زَرُدِ … ذِى عِزّةٍ وكاهِلٍ شَديد

وقال آخَر :

يا جنّ أجراع اللّوى من عالجِ … عاذَ بِكُمْ سارِى الظّلام الدالجِ

* لا تُرهِقوه بغَوِىٍّ هائجِ *

وقال آخَر :

قد بتّ ضيفا لعظيم الوادى … المانعِى مِنْ سَطْوة الأعادى

* راحِلَتى فى جارِه وزادِى *

وقال آخَر :

هَيَا صاحبَ الشَّجْراء هل أنتَ مانعى … فإنّىَ ضَيْفٌ نازلٌ بفِنائــكا

---

(١) سورة الجن ٦

وإنك للجنّان فى الأرضِ سيّدٌ   ومثلُك آوى فى الظّلام الصّعالِكا

***

ومن مذاهبهم أنّ المسافر إذا خرج من بلده إلى آخَرَ فلا ينبغى له أن يلتفت ، فإنه إذا التفت عاد ، فلذلك لا يلتفت إلّا العاشق الّذى يُريدُ العَوْد ؛ قال بعضهم :

دَعِ التلفّت يا مَسْعودُ وارمِ بها   وجهَ الهَواجِرِ تأمَنْ رَجعةَ البَلَدِ

وقال آخَر ؛ أنشدَه الخالع :

عِيلَ صبرِى بالثّعلبيّة لمّا   طال ليلِى وملّنى قُرنائى

كلّما سارَت المَطَايا بنامِى   لاَ تنفّسْتُ والتفتُّ وَرائى

هذان البيتان ذكَرهما الخالعُ فى هذا الباب ، وعندى أنه لا دَلالة فيهما على ما أراد ، لأن التلفّت فى أشعارهم كثير ، ومُرادُهم به الإبانةُ والإعرابُ عن كثرة الشّوق ، والتأسّف على المفارقة ، وكون الراحل عن المنزل حيث لم يُمكِنْه المُقام فيه بجُثمانه يُتبِعه بَصرَه ، ويتزوّد من رؤيته ؛ كقول الرضىّ رحمه الله :

ولقد مررتُ على طُلولهمُ   ورُسُومهمْ بيَدِ البِلَى نَهْبُ[(١)]

فوقفتُ حتّى ضجّ من لَغَبٍ   نِضْوِى ولَجّ بعَذْلِىَ الرّكْبُ

وتلفّتتْ عينى فمذ خَفِيتْ   عنّى الطّلول تلفّتَ القلْبُ

وليس يُقصَد بالتلفّت ها هنا التفاؤل بالرّجوع إليها ، لأن رُسُومَها قد صارت نَهْبا لِيَدَ البلى ، فأىّ فائدةٍ فى الرّجوع إليها ! وإنما يريد ما قدّمنا ذكره من الحنين والتذكّر لِما مضى من أيّامه فيها ، وكذلك قول الأوّل :

---

(١) ديوانه ١ : ١٤٥ .

تلفّتَ نحو الحيّ حتى وَجدْتُنى   وَجِعتُ من الإصْغاء لِيتاً وأخدَعا[1]

ومِثل ذلك كثير ، وقال بعضُهم فى المذهَب الأوّل :

تلفّتُّ أرجو رجعةً بعد نِيّةٍ   فكان ألتفاتِى زائداً فى بلائيا

أأرجو رُجوعا بعد ماحال بيننا   وبينكم حَزْن الفَلا والفَيافِيا !

وقال آخر ، وقد طلّق امرأته فتلفّتتْ إليه :

تَلفّتُ تَرْجو رجعةً بعد فُرقةٍ   وهيهات مما ترتجى أمُّ مازنِ !

ألم تعلمى أنى جموح عنانه   إذا كان من أهواه غير ملاين

* * *

ومن مذاهبهم ، إذا بُثِرتْ شفَةَ الصبىّ حمل مُنخُلا على رأسه ، ونادى بين بيوت الحىّ : الحلا الحلَا ، الطّعام الطعام ، فتلقى له النساء كِسَرَ الخبز وأقطاعَ التمر واللّحم فى المُنخُل ، ثمّ يلقى ذلك للكلاب فتأكُله فيبرأ من المرض ، فإن أكلَ صبىّ من الصبيان من ذلك الذى ألقاه للكلاب تمرةً أو لقمةً أو لحمةً أصبح وقد بثرتْ شفتهُ . وأنشِد لامرأة :

ألا حَلَا فى شفَةٍ مشقوقهْ   فقد قَضَى مُنخُلُنا حُقوقهْ

* * *

ومن مذاهبهم أنّ الرجل منهم كان إذا طَرِفت عينه بثوب آخر مسح الطارف عين المَطروف سبع مرّات ؛ يقول: فى الأولى : بإحدى جاءت من المدينة ، وفى الثانية: باثنتين جاءتا من المدينة ، وفى الثالثة بثلاثٍ جئن من المدينة ، إلى أن يقول فى السابعة : بسبعٍ جئن من المدينة ، فتَبرأُ عينُ المطروف .

---

(١) للصمة بن عبدالله ، ديوان الحماسة ــ بشرح التبريزى ٣ : ١٩٩ .

وفيهم من يقول : بإحدى من سَبْع جئن من المدينة ، باثنتين من سبعٍ ، إلى أن يقول بسَبْع من سَبْعٍ .

***

ومن مذاهبهم أنّ المرأة منهم كان إذا عَسر عليها خاطبُ النّكاح نشرَتْ جانباً من شَعْرها ، وكحلتْ إحدى عينَيْها مخالفةً للشَّعر المنشور ، وحَجَلتْ على إحدى رِجْليها ويكون ذلك لَيْلا ، وتقول : يالُكاح ، أبغى النّكاح ، قَبْل الصباح ؛ فَيسهل أمرُها وتتزوّج عن قُرْب ، قال رجل لصديقه وقد رأى امرأةً تَفعلُ ذلك :

أما تَرَى أمّك تبغى بَعْلَا   قد نَشرتْ من شَعرها الأَقلَّا
ولم تُوفّ مقلتَيْها كُحْلا   ترفَع رِجْلا وتَحُطّ رِجْلا
هذا وقد شابَ بَنُوها أصْلا   وأصبحَ الأصغرُ منهم كَهْلا
خذ القَطيع ثمّ سِمْهـا الذُّلّا   ضَرْبا به تَترْك هذا الفِعْلا

وقال آخر :

قد كَحلتْ عيناً وأعْفَتَ عَيْنـا   وحَجَلتْ ونَشرتْ قُرَيْنـا
* تَظُنّ زَيْنـا ماتراه شَيْنا *

وقال آخر :

تَصنّعِى ماشئت أنْ تَصنّعى   وكَحّلى عينَيْك أو لا فَدَعِى
ثم احجِلى فى البيت أو فى المجمعِ   مالَكِ فى بَعْل أرَى من مَطمَعِ

***

ومن مذاهبهم كانوا إذا رَحَل الضيف أو غيره عنهم وأحَبّوا ألاّ يعود كسروا

شيئا من الأوانى وراءه ، وهذا مما تَعمله الناسُ اليوم أيضا ، قال بعضهم :

كسرْنا القِدْر بعد أبى سواحٍ فعادَ وقِدْرُنا ذهبتْ ضَياعَا

وقال آخَر :

ولا نَكسِرِ الكِيزانَ فى إثْرِ ضَيفنا ولكننا نقفيه زاداً ليَرْجِعا

وقال آخَر :

أما واللهِ إنّ بَنِى نُفَيلٍ لَحَلّالون بالشّرَف اليَفاعِ
أناسٌ ليس تَكْسِر خلفَ ضَيْفٍ أوانيَهم ولا شعب القِصاعِ

***

ومن مذاهبهم قولهم : إنّ من ولد فى القَمْراء تقلّصت غُرْلته[1] ، فكان كالمَخْتون . ويجوز عندنا أن يكون ذلك من خواصّ القمر ، كما أنّ من خواصّه إبلاء الكَتّان ، وإنتان اللّحم ، وقد رُوِى عن أميرِ المؤمنين عليه السلام : إذا رأيتَ الغلام طويل الغُرْلة فاقْرِبْ به من السُّؤدد ، وإذا رأيته قصير الغُرْلة كأنما خَتَنَه القَمر فأبعِدْ به .

وقال امرؤُ القيس لقَيْصر ، وقد دخل معه الحمّام فرآه أقْلَف :

إنّى حلفتُ يميناً غير كاذبةٍ لأنت أغْلفُ إلاّ ماجَنَى القَمَرُ[2]

ومن مذاهبهم التّشاؤم بالعُطاس ، قال امرؤ القيس :

* وقد أغتدِى قبل العُطاسِ بهيكلٍ[3] *

وقال آخَر :

---

(١) الغرلة : القلفة ، وهى الجلدة فى رأس الإحليل قبل الختان .

(٢) ديوانه ٢٨٠ .

(٣) البيت بتمامه :

وقَدْ أغتدى قبلَ العُطاسِ بهيكلٍ شديدِ منيعِ الجنبِ فَعْمِ المنطّقِ

ديوانه ١٧٣ .

وخَرْقٍ إذا وجّهت فيه لغَزْوةٍ ... مضيت ولم يَحبسْك عنه العَواطِسُ

***

ومن مذاهبهم قولهم فى الدعاء : لاعشتَ إلاّ عيش القراد ! يضربونه مثلا فى الشدّة والصبر على المَشقّة ، ويزْعمون أنّ القراد يعيش ببَطنْه عاما وبظهره عاما ، ويقولون : إنه يُترَك فى طينةٍ ويُرمى بها الحائط فيبقى سنةً على بَطْنه ، وسنةً على ظَهْره ولا يموت ، قال بعضهم :

فلا عشتَ إلا كعَيْش القُرا ... د عاماً ببَطْنٍ وعاماً بظَهْرِ

ومن مذاهبهم كانت النساء إذا غاب عنهنّ من يُحبِبْنه أخذن تُرابا من موضع رجله كانت العربُ تزعُم أنّ ذلك أسرَع لرجوعه .

وقالت امرأةٌ من العرب ـ واقتبضتْ من أثره :

يارَبِّ أنت جارُه فى سَفَرِهْ ... وجار خُصْيَيْه وجارُ ذَكَرِهْ

وقالت امرأةٌ :

أخذتُ تُرابا من مواطىء رجله ... غداةَ غدا كيما يؤوبَ مُسلَّما

***

ومن مذاهبهم ، أنّهم كانوا يسمّون العَشا فى العين الهُدَبِد ، وأصلُ الهدَبد ، اللّبن الخاثر ، فإذا أصاب أحدهم ذلك عمد إلى سَنام فقطَع منه قطعةً ومن الكَبِد قطعة ، وقلاَهما ، وقال عند كلّ لقمة يأكلها بعد أن يمسَح جفنَه الأعلى بسبّابته :

فيا سَنَاما وكَبِدْ ... ألا أذهَبا بالهُدَبِدْ (١)

ليس شفاء الهُدَبِدْ ... إلا السّنام والكَبِدْ

---

(١) انظر اللسان ٤ : ٤٤٦ .

قال : فيذهب العَشا بذلك .

***

ومن مذاهبهم اعتقادُهم أنّ الوَرَل والقُنفذ والأرنب والظّبيَ واليَرْبوع والنّعام مراكبُ الجنّ يمتطونها ، ولهم فى ذلك أشعارٌ مشهورة ، ويزعمون أنّهم يرَوْن الجنّ ويظاهرونهم ويخاطبونهم ، ويشاهدون الغُول ، وربما جامَعوها وتزوّجوها ، وقالوا : إن عمرو بن يَرْبوع تزوج الغولَ وأولدها بنين ، ومكثَتْ عنده دهراً ؛ فكانت تقول له : إذا لاحَ البَرْق من جهة بلادى ـ وهى جهة كذا ـ فاستره عنى ، فإنى إنْ لم تَستُره عنى تركتُ ولدَك عليك ، وطِرْتُ إلى بلاد قومى ؛ فكان عمرو بن يَرْبوع كلّما برق البرقُ غَطّى وجهها بردائه فلا تُبصِره ؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو العَلاء المَعرّى فى قوله يذْكر الإبل وحنينها إلى البرْق :

طَرِبْنَ لضَوْء البارِق المُتعالى ... ببغدادَ وَهْناً ما لهنّ ومالِي [1]

سَمَتْ نحوه الأبصارُ حتى كأنها ... بنارَيْهِ من هنّا وثَمّ صَوالِي

إذا طال عنها سَرّها لَوْ رءوسها ... تمدُّ إليه فى صُدورٍ عَوالِي

تمنّت قويقاً والصّراة أمامَها ... ترابٌ لها من أينُقٍ وجِمالِ

إذا لاحَ إيماضٌ سترتُ وجوهها ... كأنّى عمرو والمطىّ سَعالِي

وكم همّ نِضْوٌ أن يَطيرَ مع الصَّبا ... إلى الشام لولا حَبْسُه بعِقالِ

قالوا : فغَفَل عمرو بن يَرْبوع عنها ليلة وقد لمع البرق فلم يَستُر وجهها، فطارت وقالت له وهى تطير :

أمسِكْ بنيك عَمْرُو إنّى آبقُ ... بَرْقٌ على أرض السَّعالى آلِقُ [2]

---

(١) سقط الزند ١١٦٢ .

(٢) شروح سقط الزند ١١٦٨ .

ومنهم من يقول : ركبتْ بعيراً وطارت عليه ـ أى أسرعَتْ ـ فلم يُدرِكْها . وعن هذا قال الشاعر :

رأى برقاً فأوضَعَ فوقَ بكْرٍ فلا بِكَ ما أسالَ ولا أغاما (١)

قال : فبنو عمرو بن يَرْبوع إلى اليوم يُدْعَوْن بنى السِّعْلاة ، ولذلك قال الشاعر يهجُوهم :

يا قبَح اللهُ بنى السِّعلاةِ عمرو بن يربوع شِرَار النّاتِ (١)

* ليسوا بأبطالٍ ولا أكْياتِ *

فأبدلَ السّين تاء ، وهى لغةُ قوم من العرب .

* * *

ومن مذاهبهم فى الغول قولهم : إنها إذا ضُربتْ ضربةً واحدةً بالسّيف هلكتْ ، فإن ضُرِبت ثانيةً عاشت ، وإلى هذا المعنى أشارَ الشاعرُ بقوله :

فقالت : ثَنِّ ، قلتُ : لها رُوَيْداً مكانَكِ ، إننى ثَبْتُ الجنانِ

* * *

وكانت العرَب تسمّى أصواتَ الجنّ العَزيف وتقول : إن الرجل إذا قَتل قُنفُذا أو وَرَلًا لم يأمَن الجنّ على فَحْل إبله ، وإذا أصاب إبلَه خَطب أو بلاء حَمله على ذلك ، ويزعمون أنهم يَسمَعون الهاتفَ بذلك ، ويقولون مثله فى الجانّ من الحيّات ، وقتله عندَهم عظيم .

ورأى رجلٌ منهم جانا فى قعر بئرٍ لا يستطيع الخروجَ منها ، فنزل وأخرجَه منها على خَطَر عظيم ، وغمّض عينَيْه لئلاّ يرى أين يدخل ، كأنه يريد بذلك التقرّب إلى الجنّ .

(١) شروح سقط الزند ١١٦٨ . نوادر أبى زيد ١٤٦ ، وروايته : « ردما أسال وما أغاما » .

وقال أبو عثمانَ الجاحظ : وكانوا يُسمُّون من يُجاوِر منهم الناس عامراً ، والجمع عُمّار ، فإن تعرّض للصبيان فهو رُوح ، فإن خَبُث وتعرّم فهو شيطان ، فإن زاد على ذلك فهو مارِد ، فإن زاد على ذلك فى القوّة فهو عِفْريت ، فإن طَهُر ولطف ، وصار خيراً كلّه فهو مَلَك ؛ ويفاضِلون بينهم ، ويعتقدون مع كلّ شاعر شَيْطانا ، ويسمونهم بأسماء مختلفة

قال أبو عثمان : وفى النّهار ساعاتٌ يُرى فيها الصغيرُ كبيرا ويُوجـد لأوساط الفيافِى والرّمالِ والحِرار مِثل الدَّوِىّ ، وهو طبع ذلك الوقت ، قال ذو الرّمة :

إذا قال حادِينا لترْنيم نَبْـأةٍ ... صَهٍ لم يكنْ إلا دَوِىّ المَسامِعِ[1]

وقال أبو عثمان أيضا فى الّذين يذكرون عزيفَ الجنّ وتغوّل الغِيلان : إنّ أثر هذا الأمر وابتداء هذا الخيَال أنّ القوم لما نزلوا بلاد الوَحْش عملتْ فيهم الوَحْشة[2] ، ومن انفرد وطال مقامُه فى البلاد الخلاء استوحَشَ ، ولا سيما مع قلّة الأشغال وفَقْد المُذاكرين ؛ والوَحْـدة لا تقطع أيّامها إلا بالتمنى والأفكار ، وذلك أحـد أسباب الوَسْواس[3] .

***

ومن عجائب اعتقادات العرب ومذاهبها اعتقادُهم فى الدِّيك والغُراب والحمامة وساقِ حُرّ ـ وهو الهدِيل ـ والحية ، فمنهم من يَعتقِد أن للجنّ بهذه الحيوانات تَعلُّقات ، ومنهم من يَزعم أنها نوعٌ من الجنّ ، ويعتقدون أنّ سُهيلا والزُّهَرة الضّبّ والذئب والضّبع مُسُوخ ، ومن أشعارهم فى مَراكِب الجنّ قولُ بعضهم فى قُنفُذٍ رآهُ لَيْلا :

فما يُعجِب الجِنّان منك عدِمْتَهمْ ... وفى الأُسْد أفراسٌ لهمْ ونجائبُ[4]
أيُسرَجُ يَرْبوعٌ ويُلجَم قنفـذٌ ... لقد أعوزَتْكم ما علمت النجائبُ[5] !

---

(١) ديوانه ٣٦٠ .
(٢) كذا فى ا والحيوان ، وفى ب : « الوحشية » .
(٣) الحيوان ٦ : ٢٤٩ .
(٤) الحيوان ٦ : ٢٤٠ .
(٥) الحيوان : « المراكب » .

فإن كانت الجِنان جُنّتْ فبالحرَى ولا ذَنْبَ للأقوامِ واللهُ غالبُ [1]

ومن الشعر المنسوب إلى الجنّ :

وكل المطايا قد ركبْنا فلم نجِدْ ألذّ وأشهى من رُكوبِ الأرانِبِ
ومن عَضْرَفُوطٍ عَنّ لى فركِبْتُه أبادِرُ سِرْباً من عطاءٍ قوارِبِ [2]

وقال أعرابيّ يكذّب بذلك :

أيستَمِعُ الأسرارَ راكبُ قُنفُذٍ لقد ضَاعَ سِرُّ اللهِ يا أمَّ معبَدِ !

***

ومن أشعارهم وأحادِيثِهم فى رواية الجنّ وخِطابهم وهتافِهم ما رواه أبو عثمانَ الجاحظ لسمير بن الحارث الضّبي :

ونارٍ قد حَضأتُ بُعَيْدَ وَهْنٍ بدارٍ لا أُريدُ بهـــا مُقاماً [3]
سِوَى تحليل راحلةٍ وعَيْنٍ [4] أكالئُها مخافةَ أن تناما
أتَوْا نارِى فقلتُ : مَنُونَ أنتم ؟ فقالوا : الجنّ قلتُ : عِمُوا ظَلاماً

ويزعمون أنّ عُمَير بنَ ضَبيعة رأى غلمانا ثلاثةً يلعبون نهارا ، فوثَب غلامٌ منهم فقام على عاتقَىْ صاحِبه ، ووَثب الآخَر ، فقام على عاتقَىْ الأعلى منهما ، فلمّا رآهم كذلكَ حَمَل عليهم فصَدَمهم فوقعوا على ظهورهم وهم يَضحَـكون ، فقال عمير بن ضُبَيعة : فما مررتُ يومئذ بشَجَرة إلّا وسَمِعتُ من تحتها ضَحِـكا ؛ فلمّا رجع إلى منزله مَرِض أربعَة أشهر .

---

(١) الحيوان : « ولا ذنب للأقدار » .

(٢) العضرفوط : دويبه بيضاء ناعمة ؛ وهى ضرب من العظاء .

(٣) الحيوان ٤ : ٤٨١ ، ٦ : ١٩٦ ، ونوادر أبى زيد ؛ وفيه : « شمير بن الحارث الضبى » وانظر الخزانة ٣ : ٣ ، والمخصص ١ : ٩٤ ، والميدانى ١ : ٣٢ . حضأت : أشعلت .

(٤) قوله : « سوى تحليل راحلة » ، أراد سوى راحلة أقمت بها فيها بعد تحلة اليمين » .

وحكى الأصمعىّ عن بعضهم أنّه خرج هو وصاحبٌ له يسيران ، فإذا غلامٌ على الطريق ، فقالا له : مَن أنتَ ؟ قال : أنا مسكين قد قُطِع بى فقال أحدهما لصاحبه : أَرْدِفْه خَلْفَك ، فأرْدَفَه ، فالتفتَ الآخَر إليه فرأى فَمَه يتأجّج نارا ، فشدّ عليه بالسّيف فذهبت النارُ فرَجَع عنه ، ثمّ التفت فرأى فَمه يتأجّج نارا فشدّ عليه فذهبَت النار ، ففعَل ذلك مرارا ، فقال ذلك الغلام : قاتَلكما الله ! ماأجْلَدَ كما ! والله مافعلتُها بآدمىّ إلا وانخلَع فؤادُه ، ثم غابَ عنهما فلم يَعلَما خبرَه .

وقال أبو البلاد الطُّهَوِىّ — ويُروَى لتأبّط شرّا :

لَهَانَ عَلَى جُهَينـةَ ما أُلاقِى ... من الرّوْعات يومَ رَحَا بِطانِ (١)

لقيتُ الغولَ تَسرِى فى ظَلامٍ ... بسَهْبٍ كالعَباءَة صَحْصَحَانِ (٢)

فقلتُ لها : كلانا نِقْضُ أَرْضٍ ... أخو سَفَر فخَلِّى لى مكانى (٣)

فشـدّتْ شَدّةً نحوى فأهوَى ... لهـا كفى بمَصقولٍ يمـانِى

فقالتْ : زِدْ فقلتُ : رُوَيْدَ إنّى ... على أمثالها ثَبْتُ الجنـانِ

والذين يرْوُون هذا الشِّعر لتأبّط شرّا يروُون أوّله :

ألا مَن مُبلِـغٌ فتيـاتِ جَهْم ... بمـا لاقيتُ عندَ رَحَا بِطانِ

بأنّى قد لقيتُ الغُولَ تلوِى ... بمَرْتٍ كالصحيفـة صحصحان

فصدّتْ فانتحيْتُ لها بعَضْبٍ ... حُسام غير مؤتَشِب يمـانِى

فقدّ سَراتَها والبرْكَ منهـا ... فخرّت لليَدَيْن وللجِرانِ (٤)

فقالتْ : ثنِّ قلت لها : رُوَيْدًا ... مكانَك إننى ثَبْتُ الجَنانِ

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٣٤ ، وانظر الأغانى ١٨ : ٢١، ٢١٢ ، ومعجم البلدان ٨ : ٢٣١ . ورحابطان : موضع فى بلاد هذيل .
(٢) الصحصحان : ما استوى من الأرض .
(٣) النقض : المهزول قد نقضه السفر .
(٤) السراة ، بالفتح ، الظهر ، والبرك : الصدر .

ولم أنفكّ مضطجِعاً لديْهـــا لأنظُرَ مصبحـــا ماذا دَهانى
إذا عَيْنـــان فى رأسٍ دَقيق كرأس الهرّ مشقوق اللسان
وساقا مُخدَج ولسان كَلْبٍ وثوب من عَباء أو شِنانِ

وقال البَهْرانىّ :

وتزوّجتُ فى الشّبيبة غُولًا بغزَالٍ وصَدْقتى زِقّ خَمْر[1]

وقال الجاحظ : أصدَقَها الخمر لطيب رِيحها ، والغَزال لأنّه من مَراكِب الجنّ .

وقال أبو عبيد بن أيوبَ العَنْبرىّ أحد لصوص العرب :

تقول ـ وقد ألْمَمْتُ بالإنْسِ لَمّةً مخضّبةُ الأطراف خُرس الخلاخِلِ[2]
أهَذا خَدِينُ الغُولِ والذئب والّذى يَهِيمُ بربّات الحجال الهراكِلِ![3]
رأتْ خَلَقَ الدّرسَيْنِ أسودَ شاحِباً من القَوم بَسّاما كريمَ الشمائِلِ[4]
تعوّدَ من آبائه فتَكاتِهمْ وإطعامَهم فى كلّ غبراءَ شامِلِ[5]
إذا صَاد صَيْـدا لَفّهُ بضرامـهِ وشيكا ولم يَنظُرْ لغَلْى المَراجِلِ[6]
ونهساً كنَهْس الصّقْر ثُمّ مِراسـه بكَفّيه رأس الشّيخة المَمائِلِ[7]

ومن هذه الأبيات :

إذا ما أرادَ اللهُ ذُلّ قبيـلةٍ رَماها بتَشتيتِ الهوى والتّخاذُلِ
وأوّل عَجْز القوم عمّـا ينوبُهمْ تقاعُدُهم عنه وطولُ التّوا كُلِ
وأوّل خُبْثُ الماء خُبْثُ تُرابه وأوّل لُؤْم القوم لُؤْمُ الحَلائِل

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٢٥ .
(٢) الحيوان ٦ : ١٦٧ . وخرس الخلاخل : كناية عن امتلاء الساق .
(٣) الهراكل : جمع هركلة ؛ وهى الحسنة الجسم التامة الخلق .
(٤) الدرس : البالى من الثياب . وفى الحيوان : « خلق الأدراس » .
(٥) الغبراء : السنة الجدبة .
(٦) الحيوان : « لنصب المراجل » .
(٧) المراس : المسح والدلك ، والشيخة : نبتة .

وهذا الشِّعر من جيِّد شِعْر العرب ، وإنّما كان غَرَضُنا منه مُتعلِّقًا بأوّله ، وذكرنا سائره لما فيه من الأدب .

وقال عُبَيد بن أيّوبَ أيضا فى المعنَى الّذى نحن بصدده :

وصار خليل الْغُولِ بَعد عَدَاوةٍ صَفيًّا وربّته القِفارُ البَسابسُ[1]

وقال أيضا :

فلِلّهِ دَرُّ الغُولِ أىّ رَفيقَــةٍ لصاحب قَفْرٍ فى المَهامِهِ يذْعَرُ[2]
أرنّتْ بلَحْنٍ بعد لَحْنٍ وأوْقَدَتْ حوَالَىّ نِيرانًا تلوح وتَزْهرُ

وقال أيضاً :

وغُولاً قَفْرةٍ : ذَكَرٌ وأنثى كأنّ عليهما قِطَعَ البِجادِ[3]

وقال أيضاً :

فقد لاقت الغِزلانُ منّى بَلِيَّةً وقد لاقت الغِيلانُ منى الدّواهيا[4]

وقال البَهْرانىّ فى قتل الغُول :

ضُربتْ ضربةً فصارتْ هَباءً فى مَحاقِ القَمْراء آخِرَ شهرِ[5]

وقال أيضا ، يزعم أنه لما ثنى عليها الضّرب عاشَتْ :

فثنّيت والمقــدارُ يَحرُسُ أهلَه فَلَيْتَ يَمِينى يومَ ذلك شَلّتِ !

وقال تأبّط شرّا يَصِفُ الغُولَ ويذكُر أنّه راوَدَها عن نفسها فامتنعتْ عليه فقتَلَها :

فأصبحتُ والغولُ لى جارةٌ فياجارةً أنتِ ماأغْوَلَا

---

(١) الحيوان ٦ : ٢٣٥ .
(٢) الحيوان ٦ : ١٦٥ .
(٣) الحيوان ٦ : ١٥٩ .
(٤) الحيوان ٦ : ١٦٦ .
(٥) الحيوان ٦ : ٢٣٣ .

وطالَبْتُهـا بُضْعَها فالتَوَتْ   فكان من الرأيِ أن تُقتلا
فَجَلّلتُهـا مُرهَفاً صارِماً   أبـانَ المَرافِقَ والمِفصَـلا
فطارَ بقحفِ ابنـةِ الجنّ ذا   شقاشقَ قد أخلَقَ المحملا
فمن يكُ يسأل عن جارَتى   فإنّ لهـا باللِّوى منزِلا
عَظَاءَةُ أرضٍ لها حُلّتا   نِ مِن وَرَق الطَّلح لم تُغزَلا
وكنتُ إذا ماهَممتُ أبتهَلْتُ   وأحْرى إذا قلتُ أن أفعَلا

***

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت عِلّة الواحد منهم وظنّوا أنّ به مَسّاً من الجنّ، لأنّه قتَل حيّةً أو يرْبوعا أو قُنفذا ، عَمِلوا جِمالا من طين ، وجَعَلوا عليها جُوالق ،وملئوها حِنطةً وشَعيرا وتمْرا ، وجعلوا تلك الجِمال فى باب جُحْر إلى جهة المَغرب وقْت غروب الشمس ، وباتوا ليلتَهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجِمال الطّين ، فإنْ رأوا أنّها بحالها قالوا : لم تقبل الدّيَة، فزادوا فيها ، وإن رأوْها قد تساقطتْ وتبدّد ماعليها من المِيرة قالوا : قد قُبِلت الدّيَة ، وأُستدلّوا على شِفاء المَرِيض وضربوا بالدُّفّ ، قال بعضُهم :

قالوا وقد طالَ عَنائِى والسَّقَمْ   احمِل إلى الجنّ جِمالاتٍ وضَمّ
فقد فعلتُ[1] والسَّقامُ لم يَرِمْ   فبالّذى يَملِك بُرْئى أعْتَصِمْ

وقال آخَر :

فياليت أنّ الجنّ جازُوا جِمالتى   وزُحزِح عنّى ماعَنانِى من السَّقَمْ
وياليتهم قالوا أنْطِنا كلّ ماحَوَتْ   يمينُك فى حَرْبٍ عماسٍ وفى سَلَمْ
أعلّـل قلبى بالّذى يزْعُمونه   فياليتَنى عُوفيتُ فى ذلك الزَّعَمْ

---

(١) فى د : « نسكت » .

وقال آخر :

أرى أنّ جِنّانَ النُّوَيرة أصبحوا ... وهمْ بين غَضْبانٍ علىَّ وآسِفِ

حملتُ ولم أَقبَلْ إليهم حمالةً ... تسكّنُ عن قلبٍ من السُّقمِ تالِفِ

ولو أنصَفُوا لم يَطلُبوا غيرَ حقِّهمْ ... ومن لىَ من أمثالهمْ بالتَّناصُفِ !

تَغطَّوْا بثوْب الأرض عنّى ولو بَدَوا ... لأصبحتُ منهمْ آمِناً غيرَ خائف

* * *

وكانوا إذا غُمّ عليهم أمرُ الغائب ولم يَعرِفوا له خبراً جاءوا إلى بئرٍ عاديّة[(١)] أو حفرٍ قديم ونادَوا فيه : يافلان ، أو يا أبا فلانٍ ، ثلاثَ مرّات ، ويزْعمون أنّه إن كان ميّتا لم يَسمَعوا صَوْتا ، وإن كان حيّا سَمِعوا صَوْتا ربما تَوهّموه وَهْماً ، أو سَمِعوه من الصَّدى ، فبَنَوا عليه عقيدَتَهم ، قال بعضُهم :

دعوتُ أبا المِغوارِ فى الجَفْرِ دَعْوةً ... فما آضَ صَوْتى بالّذى كنتُ داعياً

أظنّ أبا المِغوارِ فى قَعْرِ مُظلمٍ ... تجرّ عليه الذّارياتُ السَّوافِيا

وقال :

وكم ناديتُه واللّيلُ ساجٍ ... بِعادِىّ البِئارِ فما أجابا

وقال آخَر :

غابَ فلمْ أرجُ له إيابا ... والجَفْرُ لا يَرجِعُ لى جوابا

وما قرأتُ مُذْ نأى كتابا ... حتّى متَى أستنشِدُ الرِّكابا

* عنه وكلٌّ يَمنعُ الخطابا *

---

(١) عادية : قديمة .

وقال آخَر :

أَلَمْ تَعلَمِى أَنّى دعوتُ مُجاشِعاً ... من الجَفْر والظّلماءُ بادٍ كُسورُها

فجاوَبَنى حتّى ظننتُ بأنّه ... سيَطْلعُ من جَوْفاء صعبٍ خدُورُها

لقد سكنتْ نفسِى وأيقنتُ أنّه ... سيُقدِم والدّنيا عجابٌ أُمورُها

وقال آخَر :

دعوناهُ مِنْ عادِيّةٍ نَضْبَ ماؤُها ... وهَدَّم جالَيْها اختلافُ عُصورِ

فردّ جوابا ماشككتُ بأنّه ... قريب إلينا بالإياب يَصيرُ

أقوى فى البيت الثانى ، وسكّن « نَضَب » ضرورةً كما قال :

* لو عُصْرَ منه البانُ والمِسْكُ انعَصرْ *

***

ومن أعاجيبهم أنّهم كانوا فى الحرب ربّما أخرجوا النّساء فيَبُلْن بين الصّفّين ؛ يرَوْن أنّ ذلك يُطفِىء نارَ الحرب ويقودُهم إلى السِّلم .

قال بعضهم :

لقونا بأبوالِ النّساء جَهالةً ... ونحن نُلاقيهم ببِيضٍ قَواضِبِ

وقال آخَر :

بالَتْ نساء بنى خُراشَةَ خِيفةً ... مِنّا وأدبرَت الرجالُ شِلالا

وقال آخَر :

بالَتْ نساؤُهُمُ والبيضُ قدأخذتْ ... منهمْ مآخِذَ يُستشفَى بها الكَلِبُ

وهذان البيتان يُمكِن أن يراد بهما أنّ النساء يبُلْن خيفةً وذُعْرا ، لا على المعنى الّذى نحن فى ذكره ، فإذَنْ لايكون فيهما دَلالة على المراد .

وقال الآخر :

هيهات ردّ الخيـــل بالأبوالِ　　　إذا غَـدَتْ فى صُوَر السَّعالِى

وقال آخر :

جَعلوا السُّيوف المَشْرَفِيَّةَ منهمُ　　　بَوْل النساء وقَلّ ذاكَ غَناء

***

فأما ذِكرُهم عَزيف الجنّ فى المفاوز والسَّباسِب فكثير مشهور ، كقول بعضهم :

وخَـرْقٍ تحدّث غيطانه　　　حديثَ العَذارى بأسْرارها

وقال آخر :

ودَوِّيّةٍ سَبْسَبٍ سَمْلَقٍ　　　من البيد تَعزِف جِنّانُها (١)

وقال الأعشى :

وبَهْماءَ تَعزفُ جِنّاتُهــا　　　مناهلها آجناتٌ سُدُمْ (٢)

وقال :

وَبلدةٍ مِثل ظَهْر التُّرْسِ مُوحِشةٍ　　　للجنّ بالليل فى حافاتها زَجَلُ (٣)

وقال آخر :

* ببيْداء فى أرجائِها الجنّ تَعزفُ *

وقال الشرقىّ بن القطامىّ : كان رجل من كَلْب ـ يقال له عبيد بن الحُمارِس ـ شجاعا، وكان نازلا بالسَّماوة أيّامَ الرّبيع، فلما حَسَرَ الرّبيع، وقلّ ماؤه ، وأقلعتْ أنواؤه، تحمّل إلى وادى تُبَل ، فرأى رَوْضةً وغديراً ، فقال : روضةٌ وغدير ، وخطْبٌ يَسير ؛ وأنا لما

---

(١) السملق : القاع الصفصف .　　　(٢) ديوانه ٢٩ .

(٣) ديوانه ٤٤ .

حَويتُ مجير ، فنزل هناك ، وله امرأتان : اسمُ إحداهما الرَّباب ، والأخرى خَولة ، فقالت له خَوْلة :

أرَى بلدةً قَفْرا قليلا أنيسُها ... وإنا لنَخْشَى إنْ دَجَا الليلُ أهْلَها

وقالت له الرَّباب :

أرتْك بِرَأْيِي فاستمِعْ عنك قَولها ... ولا تأمَنَنْ جنَّ العَزيفِ وجَهْلَها

فقال مجيبا لهما :

ألستُ كميًّا فى الحروب مُجرَّبا ... شُجاعا إذا شبَّت له الحَرْب مِحْرَبا

سريعاً إلى الهيْجا إذا حَمِس الوَغَى ... فأقسم لا أعْدو الغَدير منكِّبا

ثمّ صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَمة — وهى الأنثى من القَنافذ — فرماها فأقعصَها[1] ومعها ولدُها ، فارتبطه ، فلما كان الليل هتف به هاتفٌ من الجنّ :

يابن الُحمارِس قد أسأتَ جوارَنا ... وركبت صاحبنا بأمرٍ مُفظِعِ

وعقرتَ لَقْحَته وقُدْت فَصيلَها ... قَوْداً عَنيفا فى المنيع الأرْفعِ

ونزلتَ مَرْعًى شائِناً وظَلَمْتَنا ... والظلْم فاعِلُه وخيمُ المَرْتَعِ

فلَنطرُقَنَّك بالذى أو ليْتنا ... شرٌّ يَجيئُك ماله مِنْ مَدْفعِ

فأجابه ابنُ الُحمارِس :

يامّدعى ظُلمِى ولستُ بظالمٍ ... اِسْمَع لدَيْك مَقالتى وتَسمّعِ

إن كنتمُ جِنًّا ظلمتمْ قُنْفُذا ... عُقِرتْ فشرّ عَقيرةٍ فى مَصرَعِ

لاتَطمَعوا فيما لدىّ فما لكُمْ ... فيما حويتُ وحُزْتُه من مَطمَعِ

فأجابه الجنىّ :

ياضارِبَ اللّقْحة بالعَضْب الأفَلْ ... قد جاءك الموتُ وأوْفاكَ الأجَلْ

---

(١) أقعصها : قتلها فى مكانها .

وساقكَ الحَيْن إلى جنِّ تَبَلْ فاليومَ أقوَيْتَ وأعيتكَ الحِيَلْ[1]

فأجابه ابن الحمارِس :

ياصاحبَ اللَّقحة هل أنت بَجَلْ مستمِعٌ مِنِّى فقد قلتَ الخطَلْ
وكثرة المنْطِق فى الحرْبِ فَشَلْ هَيَّجت قَمْقَاما من القوم بَطَلْ[2]
ليثَ ليُوثٍ وإذا هَمَّ فَعَلْ لا يَرهَبُ الجِنَّ ولا الإنسَ أجَلْ

* من كان بالعقوة من جنّ تُبَلْ[3] *

قال : فَسمِعهما شيخٌ من الجِنّ ، فقال : لا والله لا نرى قتل إنسانٍ مِثلِ هذا ثابت القَلْب ماضِى العزيمة ، فقام ذلك الشّيخ وحَمِد الله تعالى ثم أنشد :

يابنَ الحمارِس قد نَزلتَ بلادَنا فأصبْت منهـا مشرَبا ومَنـاما
فبدأْتَنا ظُلْمـا بعَقْر لقُوحنـا وأسأتَ لمّـا أن نطقتَ كلاما
فاعمَدْ لأمرِ الرُّشْدِ واجتَنِب الرَّدى إنا نَرَى لك حُرْمَـة وذِماما
واغرمْ لِصاحبنا لَقُوحاً متبعـا فلقد أصبْتَ بمـا فعلتَ أثاما

فأجابه ابن الحمارس :

الله يَعلَم حيث يُرفَع عَرشُه أنِّى لأكرهُ أن أصيبَ أثاما
أمَّا ادّعاؤك ما ادّعيتَ فإنّنى جئتُ البِلادَ ولا أريدُ مقـاما
فأسمتُ فيها مالنَـا ونزلتُهـا لأُرِيحَ فيهـا ظَهْرَنا أيّاما
فلْيَغْـدُ صاحبكُم علينا نُعطِه ماقد سألت ولا نَراه غَراما

ثم غرم للجِنّ لَقوحا مُتْبَعًا للقُنْفذ وولَدها .

وهـذه الحكاية وإن كانت كَذِبا إلّا أنها تتضمّن أدباً ، وهى من طَرائف

---

(١) الحين : الهلاك . (٢) القمقام : السيد .
(٣) العقوة : المحلة .

أحاديث العرَب فذ كَرْناها لأدبها وإمْتاعِها ؛ ويقال : إنّ الشّرقيّ بن القُطاميّ كان يَصنَع أشعاراً و يَنحَلها غيره .

***

فأما مَذهب العرب فى أنّ لـكلّ شاعر شيطانا يلقِى إليه الشِّعْر فمذهب مشهور ، والشّعراء كافّةً عليه ، قال بعضهم :

إنِّى وإن كنتُ صغيرَ السِّنِّ ... وكان فى العين نبوٌّ عَنّى
فإنّ شيطـانِى أمـيرُ الجِنّ ... يَذهَب بى فى الشّعر كلّ فَنّ

وقال حسّان بنُ ثابت :

إذا ماترَعْرع فينـــا الغُلام ... فما إنْ يقال له : مَنْ هُوَهْ ؟
إذا لم يَسُدْ قبل شدّ الإزارِ ... فذلكَ فينـا الّذى لا هُوَهْ
ولى صاحِبٌ من بَنى الشَّيْصَبانِ ... فطوْرا أقولُ وطَوْرا هُوَهْ

وكانوا يزعمون أنّ اسمَ شيطان الأعشى مِسحَل ، واسم شيطان المُخبَّل عَمرو ، وقال الأعشى :

دعوتُ خَليلى مِسحَـلا ودَعَوا له ... جهنّـام جَدْعا للهجين المذمَّمِ (١)

وقال آخَر :

لقد كان جنىّ الفرزدق قُدوَةً ... وما كان فينا مِثل فَحْل المُخبَّل
ولا فى القوافِى مِثل عَمرٍو وشَيْخِه ... ولا بعد عَمرٍو شاعرٌ مِثل مِسْحَلِ

وقال الفرَزدق يصفُ قصيدته :

كأنّهـــا الذّهب العِقْيانُ حبَّرها ... لسانُ أشعرَ خلقِ الله شَيْطانَا

---

(١) وجهنام تابعة الأعشى .

وقال أبو النَّجْم :

إنى وكلَّ شاعرٍ من البَشَرْ　　شيطانه أنثى وشيطانِى ذَكَرْ

وأنشد الخالعُ فيما نحن فيه لبعض الرُّجّاز :

إن الشياطين أتَوْنى أربعَهْ　　فى غَلَس الليلِ وفيهمْ زَوْبَعَهْ

وهذا لايدلّ على ما نحن بصدده من أمر الشعر وإلقائه إلى الإنسان ؛ فلا وَجْه لإدخاله فى هذا الموضع .

***

ومِن مذاهبهم أنهم كانوا إذا قتلوا الثُّعْبانَ خافوا من الجنّ أن يأخذوا بثأره ، فيأخذون رَوْثَةً ويفتّونها على رأسه ، ويقولون : روْثة راثَ ثأركَ .

وقال بعضهم :

طرحْنا عليه الرَّوْثَ والزَّجْرُ صادقٌ　　فراثَ علينا ثأرُه والطَّوائلُ

وقد يُذَرُّ على الحيّة المقتولة يسيرُ رمادٍ ، ويقال لها : قتلك العيْن فلا ثأرَ لكِ ؛ وفى أمثالهم لِمن ذهب دمُه هدَرا : وهو قتيلُ العيْن ، قال الشاعر :

ولا أكنْ كقتيلِ العيْن وَسْطَكُمُ　　ولا ذَبيحةَ تَشْريق وتَنْحارِ

***

فأما مَذهَبُهم فى الخرَزات والأحجار والرُّقَى والعَزائم فمشهور ، فمنها السُّلْوانة ـ ويقال السُّلْوة ـ وهى خرزة يُسقَى العاشقُ منها فيَسْلُو فى زَعْمهم ، وهى بيضاء شفّافة ، قال الراجز :

لو أشرَبُ السُّلوانَ ما سَلِيتُ　　ما بى غِنًى عنكمْ وإنْ غَنيتُ

السُّلوان : جمعُ سُلْوانة .

وقال اللّحيانىّ : السُّلوانة تُرابٌ من قبرٍ يُسقَى منه العاشق فيَسلُو ، وقال عُروة ابن حزام :

جعلتُ لعرّاف اليمامةِ حُكمَه وعرّاف نجدٍ إنْ هما شفَيانِى
فقالَا نعم : نشفى من الدّاء كُلّه وقاما مع العُوّاد يبتدِرانِ
فما تركَا من رُقْيَةٍ يعرِفانها ولا سَلوةٍ إلا وقد سقَيانى

وقال آخر :

سقَوْنى سَلْوَةً فسلوتُ عنها سقَى اللهُ المنيّةَ مَن سقانِى

أى سلوتُ عن السَّلْوة واشتدّ بى العِشْق ودام . وقال الشَّمردل :

ولقد سُقِيتُ بسَلْوةٍ فكأنما قال المُداوِى للخَيالِ بها ازْدَدِ

***

ومن خرَزاتهم الهِنمَة تُجتلَب بها الرجالُ وتُعطَف بها قلوبُهم ، ورُقيتُها : أخذته بالهِنمَهْ ؛ باللّيل زوْج وبالنّهار أَمَه .

ومنها الفَطْسة والقَبلة والدَّرْدَبيس ؛ كلّها لاجتلاب قلوب الرّجال ، قال الشاعر :

جمّعن من قبَل لهنّ وفَطْسَةً والدَّرْدَبيس تمائماً فى منظمِ
فأُنقاد كلّ مشذَّب مَرِسِ القُوَى لحِبالهنّ وكل جَلْدٍ شَيْظَمِ (١)

وقيل : الدَّرْدَبيس خرزة سوداء يتحبّب بها النّساء إلى بُعولتهن ، توجد فى القُبور العاديّة ، ورُقيتُها : أخذته بالدَّرْدَبيس ، تُدِرّ العرَق اليبيس ، وتذر الجديد كالدَّرِيس ، وأنشد :

قطعتُ القيدَ والخرَزات عنّى فمن لى من عِلاج الدَّرْدَبيسِ !

---

(١) الشيظم : الطويل الجسم .

وأصل الدَّرْدَبيس الداهية ، ونُقِل إلى هذه لقوّة تأثيرها .

***

ومِن خَرَزاتِهم القِرْزَحلة ، أنشد ابنُ الأعرابي :

لاتنفَعُ القِرْزَحْلَةُ العجائزا إذا قطعنَ دونَهـا المفاوِزا

وهي من خَرَز الضّرائر ، إذا لبستْها المرأةُ مالَ إليها بعلُها دون ضَرّتها .

ومنها خَرَزة العُقرة تشدُّها المرأة على حَقْوَيْها فتمنع الحَبَل ، ذكر ذلك ابنُ السّكّيت في إصلاح المنطق .

ومنها اليَنْجَلِب ، ورُقيتُها : أخَذْته باليَنْجَاب ، فلا يَرِمْ ولا يَغِبْ ، ولا يَزَلْ عند الطُّنُب .

ومنها كَرَارِ ، مبنيّةً على الكسر ، ورُقيتُها : يا كَرارِ كُرِّيه ، إنْ أقبل فسُرِّيه ، وإن أدبرَ فضُرِّيه ، مِنْ فَرْجِه إلى فيه .

ومنها الهَمْرة ورُقْيَتها : ياهَمْرَة اُهمريه ، من اُستِه إلى فيه ، ومالِه وبَنِيه .

ومنها الخَصْمة ، خرزة للدّخول على السّلطان والخصومة ، تُجعَل تحتَ فَصّ الخاتَم أوفي زرّ القَميص أو في حَمائِل السّيف ، قال بعضهم :

يُعلّق غيري خصمة في لِقائِهمْ ومالي عليكمْ خصمةٌ غيرُ مَنطِقي

ومنها الوَجيهة ، وهي كالخَصْمة حمراء كالعَقيق .

ومنها العَطْفة ، خَرَزة العَطْف ، والكَحْلة ، خَرَزة سوداء تُجعَل على الصِّبيان لدَفع العين عنهم ، والقبلة خَرَزة بيضاء تُجعَل في عُنُق الفَرَس من العين ، والفَطْسة خَرَزة يَمرَض بها العدوّ ويُقتَل ، ورُقيتُها : أخذته بالفَطْسة ، بالثُّوباء والعطسة ، فلا يَزال في تَعْسَة ، من أمرِه ونَكْسَة ، حتى يَزورَ رَمْسَه .

ومن رُقاهم للحُبّ: هَوابَه هَوابَه، البرقُ والسّحابَه، أخذتهُ بمَرْكَن، فحبّه تمكّن. أخذته بإبره، فلا يزَل فى عَبْره. خلّيته بإشْفى [1]، فقلبُه لا يهدا. خلّيته بمبرد، فقلبه لا يبرُد.

وترقِى الفاركُ زوجَها إذا سافر عنها فتقول: بأُفول القمر، وظلّ الشّجر، شِمال تَشمَله، ودَبور تدبره، ونَكباء تنكُبه، شِيكَ فلا انتعَش؛ ثم ترمى فى أثره بحصاة ونواة وروثة وبعرة، وتقول: حصاة حصّت أثره، نواة أنأت داره، روْثة راثَ خبرُه لقعته ببعرة.

وقالت فاركٌ فى زوجها:

أتبعتُه إذْ رَحَل العيسَ ضُحَى ... بعد النّواة رَوْثةً حيثُ انتوى
* الرّوث للرّثى، وللنّأْى النّوَى *

وقال آخَر:

رَمَتْ خلفَه لمّا رأت وشْكَ بينِه ... نواةً تلتْها روْثة وحَصاةُ
وقالت: نأتْ منكَ الدّيارُ فلادَنَتْ ... وراثَتْ بِكَ الأخبارُ والرّجعاتُ
وحصّت لكَ الآثار بعد ظُهورِها ... ولا فارَق التّرحال منك شَتاتُ

وقال آخَر يُخاطِب امرأته:

لا تقذِفى خَلْفى إذا الرّكبُ اغتدَى ... روثة عَيْرٍ وحَصاةٍ ونوَى
لن يَدفع المقدارَ أسبابُ الرُّقَى ... ولا التّهاويلُ على جِنّ الفَلاَ

هذا الرّجز أورَدَه الخالع فى هذا المَعرض، وهو بأن يدلّ على عكس هذا المعنى أولى، لأنّ قوله: « لن يَدفَع المقدارَ بالرُّقَى، ولا بالتّهاويل على الجن » كلام يُشعِر بأنّ قَذْف الحصاة والنّواة خَلْفَه كالعُوذَة له، لا كما تفعله الفارِك الّتى تتمنّى الفِراق.

* * *

(١) الإشفى: الإسكاف.

فأمّا مَذهبُهم فى القِيافة والزّجْر والكَهانة واختلافُهم فى السّانح والبارح ، وتشاؤمهم باللّفظة والكَلِمة وتأويلُهم لها وتيمّنُهم بكلمة أخرى ، وما كانوا يفعلونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحامى فكلّه مشهورٌ معروف لا حاجةَ لنا إلى ذكرِه هاهنا .

***

فأمّا لفظ أمير المؤمنين عليه السلام فى قوله : « نَشْرة » ، فإنّ النّشرة فى اللغة كالعُوذَة والرُّقْية ، قالوا : نَشَرْت فلانا تَنْشيرا ، أى رَقَيْتُه وعوّذته . وقال الكلابىّ : إذا نشر المَسفوع فكأنّما أُنشِط من عِقال ، أى يذهب عنه مابه سَرِيعاً .

وفى الحديث أنّه قال : « فلعلّ طبًّا أصابه » يعنى سحراً ، ثم عَوَّذَه بـ« قُلْ أعوذُ بِرَبّ الناس » ، أى رَقاه ، وكذلك إذا كُتِب له النُّشرة .

وقد عدّ أميرُ المؤمنين عليه السلام أموراً أربعةً ذكر منها النشرة ، ولم يكن عليه السلام ليقول ذلك إلّا عن تَوْقيف من رسولِ الله صلّى الله عليه وسلّم .

تم الجزء التاسع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

ويليه الجزء العشرون

فهرس الموضوعات

	صفحة
تابع ماورد من حكمه عليه السلام ومختار أجوبة مسائله ، كلامه	٧ ـ ٣٧٤
فصل فى الحياء وما قيل فيه	٤٥ ـ ٤٧
مثل من شجاعة علىّ عليه السلام	٦٠ ـ ٦٢
قصة غزوة الخندق	٦٢ ـ ٦٤
ماجرى بين يحيى بن عبد الله وعبد الله بن مصعب عند الرشيد	٩١ ـ ٩٤
من كلامه عليه السلام لكميل بن زياد النخعى وشرح ذلك	٩٩ ، ١٠٠
نبذ من غريب كلام الإمام علىّ وشرحه لأبى عبيد	١١٦ ـ ١٢٤
نبذ من غريب كلام الإمام علىّ وشرحه لابن قتيبة	١٢٤ ـ ١٣٠
خطبة منسوبة للإمام علىّ خالية من حرف الألف	١٤٠ ـ ١٤٣
نبذ مما قيل فى السلطان	١٤٩ ـ ١٥١
من كلامه عليه السلام فى وصف صديق وشرح ذلك	١٨٣ ، ١٨٤
نبذ من الأقوال الحكيمة فى حمد القناعة وقلة الأكل	١٨٤ ـ ١٩٠
نبذا من الأقوال الحكيمة فى الفقر والغنى	٢٢٧ ـ ٢٣١
نبذ من الأقوال الحكيمة فى الوعد والمطل	٢٤٨ ، ٢٤٩
نبذ من الأقوال الحكيمة فى وصف حال الدنيا وصروفها	٢٨٧ ـ ٢٩٧
أقوال مأثورة فى الجود والبخل	٣١٦ ـ ٣١٨
نبذ مما قيل فى حال الدنيا وهوانها واغترار الناس بها	٣٢٦ ـ ٣٣٠

	صفحة
مما ورد فى الطيب من الآثار	٣٤١ ـ ٣٥١
نبذ مما قيل فى التيه والفخر	٣٥٢ ـ ٣٥٧
طرائف حول الأسماء والكُنى	٣٦٥ ـ ٣٧١
أقوال فى العين والسحر والعدوى والطِّيَرة والفأل	٣٧٢ ـ ٣٨٢
نكت فى مذاهب العرب وتخيّلاتها	٣٨٣ ـ ٤٢٩

شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء العشرون

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثانية
(١٩٦٧ م – ١٣٨٧ هـ)
جميع الحقوق محفوظة

منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي
قم - ايران ١٤٠٤ هـ ق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل

---

(٤٠٩)

الأصْلُ :

وقال عليه السلام :

مُقَارَبَةُ النَّاسِ فِي أَخْلَاقِهِمْ أَمْنٌ مِنْ غَوَائِلِهِمْ .

***

الشَّرْحُ :

إلى هذا نَظَر المتنبّي فى قوله :

وخَلّةٍ فى جليسٍ أتقيه بهـا كَيْما يرى أننا مِثْلان فى الوَهَنِ [1]
وكِلْمةٍ فى طَريق خِفتُ أُعْرِبُها فيُهتدَى لى فلم أقدِرْ على اللَّحَنِ

وقال الشاعر :

وما أنا إلّا كالزّمان إذا صحَا صحوتُ وإن ماقَ الزمانُ أمُوقُ [2]

وكان يقال : إذا نزلتَ على قوم فتشبَّهْ بأخلاقهم ، فإنّ الإنسان من حيث يوجَد ، لا من حيث يُولَد . وفى الأمثال القديمة : من دَخَل ظَفارِ حَمَّر .

شاعر :

أحامِقُــه حتّى يُقال سجيّة ولو كان ذا عَقْل لـكنتُ أُعاقِلُه

---

(١) ديوانه ٤ : ٢١٢ .
(٢) لبشار ، الأغانى ٣ : ٢٢٥ .

(٤١٠)

الأصْلُ

وَقَالَ عليه السَّلَامُ لِبَعْضِ مُخَاطِبِيهِ وَقَدْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يُسْتَصْغَرُ مِثْلُهُ عَنْ قَوْلِ مِثْلِهَا :

لَقَدْ طِرْتَ شَكِيراً ، وَهَدَرْتَ سَقْباً .

* * *

قَالَ : الشَّكِيرُ هاهنا : أَوَّلُ مَا يَنْبُتُ مِنْ رِيشِ الطَّائِرِ قَبْلَ أَنْ يَقْوَى وَيَسْتَحْصِفَ. وَالسَّقْبُ : الصَّغِيرُ مِنَ الْإِبِلِ ، وَلَا يَهْدِرُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَسْتَفْحِلَ .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قولهم : قد زَبَّبَ قبل أن يُحصرم .

ومن أمثال العامّة : يقرأ بالشّواذّ ، وما حفِظ بعدُ جزء المفصَّل .

(٤١١)

الأصلُ :

وقال عليه السلام :

مَنْ أَوْمَأَ إِلَى مُتَفَاوِتٍ خَذَلَتْهُ الْحِيَلُ .

***

الشرح :

قيل فى تفسيره : من استدلّ بالمتشابه من القرآن فى التّوحيد والعَدْل انكشفتْ حيلتُه ، فإنّ علماء التّوحيد قد أوضحوا تأويلَ ذلك .

وقيل : مَن بَنَى عقيدةً له مخصوصةً على أمرين مختلفين : حقٍّ وباطل ، كان مُبطلا.

وقيل : من أومأ بطمعه وأمله إلى فائتٍ قد مَضى وانقضى لن تنفعه حِيلة ، أى لا يُتبِعنّ أحدُكم أملَه ماقد فاته ؛ وهذا ضعيفٌ لأنّ المتفاوت فى اللّغة غيرُ الفائت .

(٤١٢)

الأصل :

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ : إِنَّا لَا نَمْلِكُ مَعَ اللهِ شَيْئاً، وَلَا نَمْلِكُ إِلَّا مَامَلَّكَنَا ، فَمتى مَلَّكَنا مَاهُوَ أَمْلَكُ بِهِ مِنَّا كَلَّفنَا ، وَمَتى أَخَذَهُ مِنَّا وَضَعَ تَكْلِيفَهُ عَنَّا .

***

الشَّرحُ :

مَعنَى هذا الكلام أنّه عليه السلام جعل الحولَ عبارةً عن المِلْكيّة والتصرّف ، وجعل القوّة عبارةً عن التكليف ، كأنه يقول : لا تَمَلُّك ولا تَصرُّف إلّا بالله ، ولا تكليف لأمرٍ من الأمور إلّا بالله ؛ فنحن لا نَمْلِك مع الله شيئاً ، أى لا نستقلّ بأن نَمْلِك شيئاً ؛ لأنه لولا إقدارُه إيّانا وخلقته لنا أحياء لم نكن مالِكين ولا متصرّفين ، فإذا ملّكنا شيئاً هو أملك به ـ أى أقدرُ عليه منّا ـ صرْنا مالكين له كالمال مثلاحقيقة، وكالعَقْل والجوارح والأعضاء مجازاً ، وحينئذيكون مكلّفا لنا أمراًيتعلّق بما ملّكنا إياه، نحو أن يكلّفنا الزّكاة عند تمليكنا المال ، ويكلّفنا النَّظَر عند تمليكنا العقْل ، ويكلّفنا الجهادَ والصّلاة والحجّ وغيرَ ذلك عند تمليكنا الأعضاء والجوارح، ومتى أخذ منّا المالَ وَضَع عنا تكليفَ الزّكاة ، ومتى أخذَ العقْل سَقَط تكليفُ النّظَر، ومتى أخذَ الأعضاء والجوارح سَقَط تكليف الجهاد وما يَجرى مجراه .

هذا هو تفسيرُ قوله عليه السلام ؛ فأمّا غيرُه فقد فسّره بشىء آخر ، قال

أبو عبد الله جعفرُ بنُ محمد عليه السلام : فلا حَوْلَ على الطاعة ولا قوّةَ على تَرْكِ المعاصى إلا بالله ؛ وقال قوم ـ وهم المجبرة : لا فعل من الأفعال إلّا وهو صادِر من الله ، وليس فى اللّفظ ما يدلّ على ما ادّعَوْا ، وإنما فيه أنه لا اقتدار إلا بالله ، وليس يَلزَم من نَفْى الأقتدار إلا بالله صِدْق قولنا : لا فعل من الأفعال إلا وهو صادرٌ عن الله ؛ والأَوْلى فى تفسير هذه اللفظة أن تُحمَل على ظاهِرها ، وذلك أنّ الحَوْل هو القوّة ، والقوّة هى الحَوْل كلاهما مُترادِفان ؛ ولا ريبَ أنّ القدرة من الله تعالى ، فهو الّذى أقدَر المؤمنَ على الإيمان ، والكافرَ على الكفر ، ولا يلزم من ذلك مخالفةُ القول بالعَدْل ؛ لأنّ القدرة ليست موجِبة .

فإن قلتَ : فأىَّ فائدةٍ فى ذِكر ذلك وقد علم كلّ أحد أنّ الله تعالى خَلَق القُدْرة فى جميع الحيوانات ؟

قلت : المرادُ بذلك الردّ على من أثبَت صانعاً غيرَ الله ، كالمجوسِ والثَّنَويّة ، فإنهم قالوا بإلهين : أحدهما يَخلُق قدرةَ الخَيْر ، والآخر يَخلُق قدرة الشرّ .

(٤١٣)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لِعمَّارِ بْنِ ياسِرٍ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى وقَدْ سَمِعَهُ يُرَاجِعُ الْمُغِيرَةَ ابْنَ شُعْبَةَ كَلاماً :

دَعْهُ يا عَمَّارُ ، فإنَّهُ لَنْ يأخُذَ مِنَ الدِّينِ إلَّا ما قارَبَهُ مِنَ الدُّنيا ، وعَلَى عَمْدٍ لَبَّسَ عَلى نَفْسِهِ ، لِيَجْعَلَ الشُّبُهاتِ عاذِراً لِسَقَطاتِهِ .

***

الشرح :

[المغيرة بن شعبة]

أصحابُنا غيرُ متَّفقين على السكوت على المغيرة ، بل أكثر البغداديِّين يفسِّقونه ، ويقولون فيه ما يقال فى الفاسق ؛ ولما جاء عروة بن مسعود الثَّقَفيّ إلى رسولِ الله صلى الله عليه وآله عامَ الُحدَيْبيَة نظر إليه قائما على رأس رسول الله مقلَّداً سيفا ، فقيل : من هذا ؟ قيل : ابنُ أخيك المغيرة ، قال : وأنت ها هنا ياغُدَر ! والله إنّى إلى الآن ما غسلتُ سوءتكَ .

وكان إسلامُ المغيرة من غير اعتقادصحيح ، ولا إنابة ونيّة جميلة، كان قد صَحِب قوما فى بعض الطُّرق ، فاستغفلهم وهم نيام ، فقتلهم وأخذ أموالهم وهرب خوفا أن يُلحَق فيُقتل ، أو يؤخذ ما فاز به من أموالهم ؛ فقَدِم المدينة فأظهر الإسلام ، وكان رسول الله

صلى الله عليـه وآله لا يردّ على أحـدٍ إسلامَه ؛ أسلَم عن علّة أو عن إخلاص ، فامتنَع بالإسلام ، واعتصم ، وحَمِي جانبه .

ذَكر حديثه أبو الفرج عليّ بنُ الحسين الأصفهانيّ فى كتاب " الأغانى " [1] ، قال : كان المغيرة يحدّث حديث إسلامه ، قال : خرجتُ مع قوم من بنى مالك ونحن على دِين الجاهليّة إلى المُقَوْقس مَلِك مصر ، فدخلنا إلى الإسكندرية ، وأهدَيْنا للمَلِك هدايا كانت معنا ، فـكنتُ أهوَن أصحابى عليه ، وقبَضَ هدايا القوم ، وأمر لهم بجوائز ، وفضّل بعضهم على بعض ، وقصّر بى فأعطانى شيئاً قليلا لا ذِكر له ، وخرجْنا ، فأقبلت بنو مالك يشترون هَدايا لأهلهم وهم مسرورون ، ولم يَعرِض أحدٌ منهم علىّ مواساةً ، فلما خرجوا حَملوا معهم خمرا ، فـكانوا يَشربون منها ، فأشرب معهم ، ونفسى تأبى أن تدعَنى معهم ، وقلتُ : ينصرفون إلى الطائف بما أصابوا ، وما حَباهم به الملك ، ويخبرون قومى بتقصيره بى وازدرائه إياى ! فأجمعتُ على قتلِهم ، فقلت : إنّى أجد صُداعا ، فوضعوا شرابَهم ودعَوْنى ، فقلت : رأسى يُصدّع ، ولـكن اجلسوا فأسقِيكم ، فلم يُنكِروا من أمرى شيئاً ، فجلست أسقيهم وأُشرِب القَدَح بعد القَدَح ، فلمّا دبّتِ الـكأس فيهم اشتهَوُا الشراب ، فجعلتُ أصرِّف لهم وأترع الـكأس ، [فيشربون ولا يدرون [2]] ، فأهمدتهم الخمرُ حتى ناموا ، مايعقلون ، فوثبتُ إليهم فقتلتهم جميعا ، وأخذت جميع ما كان معهم .

وقَدِمتُ المدينة فوجدتُ النبيّ صلى الله عليه وآله بالمسجد وعنده أبو بكر ـ وكان بى عارفا ـ فلما رآنى قال : ابن أخى عُرْوة ؟ قلت : نعم ، قد جئتُ أشهد أن لا إله إلّا الله ، وأنّ محمدا رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الحمد لله : فقال أبو بكر مِن مصرَ أقبلتَ ؟ قلت : نعم ؟ قال : فما فعل المالـكيّون الذين كانوا معك ؟ قلت : كان

(١) الأغانى ١٦ : ٨٠ ـ ٨٢ (طبعة دار الـكتب) مع اختلاف الرواية .
(٢) من الأغانى .

بينى وبينهم بعض ما يكون بين العَرَب ، ونحن على دين الشرك ، فقتلتهم ، وأخذت أسلابهم، وجئتُ بها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ليُخَمِّسَها [ويرى فيها رأيه(١)]؛فإنها غنيمة من المشركين ، فقال رسولُ الله : أمّا إسلامُك فقد قبلتُه ، ولا نأخذ من أموالهم شيئاً ولا نخمّسها ، لأنّ هذا غَدْر ، والغَدْر لا خير فيه ، فأخذنى ماقَرُب وما بَعُد ، فقلتُ : يارسول الله ، إنما قتلتهم وأنا على دِين قومى ، ثمّ أسلمتُ حين دخلتُ إليك الساعة ، فقال عليه السلام : الإسلام يَجُبّ ماقبله . قال : وكان قَتل منهم ثلاثة عشر إنسانا ، واحتوى على مامعهم ؛ فبلغ ذلك ثقيفا بالطائف ، فتداعَوْا للقتال ، ثم اصطَلَحوا على أن حمل عمىّ عُروة بن مسعود ثلاث عشرة دِيَة .

قال : فذلك معنى قولِ عُرْوة يوم الحُدَيْبية : « ياغُدَر ، أنا إلى الأمس أغسل سوءتك ، فلا أستطيع أن أغسلها » ،فلهذا قال أصحابنا البغداديون : مَنْ كان إسلامُه على هذا الوجه ، وكانت خاتمته ماقد تواتر الخبر به ؛ من لعن علىّ عليه السلام على المنابر إلى أن مات على هذا الفعل ، وكان المتوسط من عمره الفِسْق والفُجور وإعطاء البَطْن والفَرْج سؤالهما ، وممالأة الفاسِقين ، وصرْف الوقت إلى غير طاعة الله ، كيف نتولّاه ! وأىّ عُذْر لنا فى الإمساك عنه ، وألّا نكشف للناس فِسْقَه !

***

[إيراد كلام لأبى المعالى الجوينى فى أمر الصحابة والرّد عليه]

وحضرت عند النقيب أبى جعفر يحيى بن محمد العلوىّ البَصْرىّ فى سنة إحدى عشرة وستمائة ببغداد ، وعنده جماعة ، وأحدُهم يقرأ فى الأغانى لأبى الفرج ، فمرّ ذكر المغيرة بن شعبة وخاض القوم ، فذمّه بعضهم ، وأثنى عليه بعضهم ، وأمسك عنه آخرون ؛ فقال

---

(١) من الأغانى .

بعض فقهاء الشِّيعة ممن كان يشتغل بطرفٍ مِن علم الـكلام على رأى الأشعرىّ : الواجب الـكفّ والإمساك عن الصّحابة ، وعمّا شَجر بينهم ، فقد قال أبو المعالى الجوينى : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نَهَى عن ذلك ، وقال : « إيّاكم وماشَجَر بين صحابتى » ، وقال : « دَعُوا لى أصحابى ، فلو أنفق أحدكم مِثل أُحُدٍ ذهبا لما بَلَغ مُدّ أحدهم ولا نَصِيفَه » ؛ وقال : « أصحابى كالنّجوم ، بأيّهم اقتديتم اهتديتم » ، وقال : « خيرُكم القَرْن الذى أنا فيه ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه » ، وقد ورد فى القرآن الثّناء على الصحابة وعلى التابعين ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وآلِه : وما يُدْرِيك لعلّ الله اطّلع على أهل بَدْر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لـكم » ! وقد رُوِى عن الحسن البَصْرِى أنه ذكر عنده الجمل وصِفِّين فقال : تلك دماءٌ طَهّر اللهُ منها أسيافَنا ، فلا نلطّخ بها ألسنتَنا .

ثم إنّ تلك الأحوال قد غابتْ عنّا وبَعُدتْ أخبارُها على حقائقها ؛ فلا يليق بنا أن نخوضَ فيها ؛ ولو كان واحدٌ من هؤلاء قد أخطأ لَوَجب [أن يُحفَظ رسول الله صلى الله عليه وآله فيه ، ومن المروءة] (١) أن يُحفَظ رسول الله صلى الله عليـه وآله فى عائشةَ زوجته ، وفى الزبير ابن عمّته ، وفى طلحة الّذى وَقاه بيده . ثمّ ما الذى ألزَمَنا وأوْجَب علينا أن نَلعَن أحداً من المسلمين أو نبرأ منه ! وأىّ ثواب فى اللّعنة والبراءة ! إنّ الله تعالى لا يقول يومَ القيامة للـمكلَّفِ : لِمَ لَمْ تَلعَن ؟ بل قد يقول له : لِم لعنْتَ ؟ ولو أنّ إنسانا عاش عمرَه كلّه لم يَلعَن إبليسَ لم يكن عاصيا ولا آثما ، وإذا جعَل الإنسانُ عِوَض اللعنة أستغفر الله كان خيراً له . ثم كيف يجوز للعامّة أن تُدخِل أنفسَها فى أمور الخاصّة ، وأولئك قوم كانوا أمراء هذه الأمّة وقادتَها ، ونحن اليوم فى طبقة سافلةٍ جدا عنهم ؛ فـكيف يَحسُن بنا التعرّض لذِكرهم ! أليس يَقبُح من الرعيّة أن تخوضَ فى دقائق أمورِ الملكِ وأحواله وشئونه الّتى تجرى بينه وبين أهله وبَنِى عمّه ونسائه وسَراريِّه ! وقد كان

---

(١) تـكملة من ا .

رسول الله صلى الله عليه وآله صِهراً لمعاوية . وأخته أمّ حبيبة تحته ، فالأدب أن تُحفظ أمُّ حبيبَة وهى أمّ المؤمنين فى أخيها .

وكيف يجوز أن يُلعَن مَن جعل الله تعالى بينه وبين رسوله مودّة ! أليس المفسّرون كلّهم قالوا : هذه الآية أُنزِلت فى أبى سُفْيان وآله ، وهى قولُه تعالى : ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ﴾[1] ! فكان ذلك مُصاهرة رسول الله صلى الله عليه وآله أبا سُفْيان وتزويجه ابنته . على أنّ جميع ما تَنقُله الشّيعة من الاُختلاف بينهم والمشاجَرة لم يَثبُت ، وما كان القومُ إلا كبَنى أمٍّ واحدة ولم يتكدّر باطنُ أحدٍ منهم على صاحبه قطّ، ولا وقع بينهم اُختلاف ولا نزاع .

فقال أبو جعفر رحمه الله : قد كنتُ منذ أيام عَلَّقتُ بخطّى كلاما وجدتُه لبعض الزّيْديّة فى هـذا المعنى نَقْضا وردّا على أبى المعالى الجُوَينىّ فيما اُختاره لنفسه من هذا الرأى ، وأنا أخرِجه إليـكم لأستغنى بتأمّله عن الحديث على ما قاله هذا الفقيه ، فإنّى أجدُ ألما يمنَعنى من الإطالة فى الحديث ؛ لاسيما إذا خرج مَخرَج الجَدَل ومُقاومة الخصوم . ثمّ أخرَج من بين كتبه كرّاسا قرأناه فى ذلك المجلس واُستحسَنه الحاضرون ، وأنا أذكر ها هنا خلاصتَه .

قال : لولا أن الله تعالى أوجَب معاداةَ أعدائه ، كما أوجَب مُوالاةَ أوليائه ، وضَيّق على المسلمين تركَها إذا دَلّ العقل عليها ، أو صحّ الخبرُ عنها بقوله سبحانه : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[2] ، وبقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[3] ، وبقوله سبحانه : ﴿ لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا

---

(١) سورة الممتحنة ٧ .

(٢) سورة المجادلة ٢٢ .

(٣) سورة المائدة ٨١ .

غَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) ؛ ولإجماع المسلمين على أنّ الله تعالى فرضَ عداوة أعدائه ، وولاية أوليائه ، وعلى أنّ : البغض فى الله واجب ، والحبّ فى الله واجب ـ لما تعرّضْنا لمعاداة أحدٍ من الناس فى الدّين ، ولا البراءة منه ، ولكانت عداوتُنا للقوم تكلفا . ولو ظَنَنّا أنّ الله عزّ وجلّ يَعذِرنا إذا قلنا : يارَبّ غاب أمرُهم عنّا ، فلم يكن نَخوْضنا فى أمرٍ قد غاب عنّا معنًى ، لأعتمدنا على هذا العُذْر ، ووالَيْناهم ، ولكنّا نخاف أن يقول سبحانه لنا : إن كان أمرُهم قد غاب عن أبصاركم ، فلم يَغِب عن قلوبكم وأسماعِكم ؛ قد أتتْكم به الأخبارُ الصحيحة التى بمثلِها ألزَمْتم أنفسَكم الإقرار بالنبىّ صلّى الله عليه وآله ومُوالاةَ مَن صَدّقه ، ومعاداةَ مَن عَصاه وجَحدَه ، وأُمِرْتم بتدبّر القرآن وما جاء به الرسولُ ، فهلاّ حذِرتم من أن تكونوا من أهل هذه الآية غداً : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنا سَادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونا السبيلا ﴾ (٢) !

فأمّا لفظة اللّعن فقد أمر الله تعالى بها وأوجبَها ، ألا ترَى إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاّعِنُون ﴾ (٣) ، فهو إخبارٌ معناهُ الأمر ، كقوله : ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثةَ قروء (٤) ﴾ ؛ وقد لعن الله تعالى العاصين بقوله : ﴿ لُعِنَ الذينَ كفَرُوا مِنْ بنى إسْرَائيل على لسان داود (٥) ﴾ ، وقوله : ﴿ إنّ الذينَ يُؤْذُون الله ورَسولَه لَعَنَهُمُ اللّهُ فى الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابا مُهِينا ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ مَلْعُونين أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلا (٧) ﴾ ، وقال الله تعالى لإبليس : ﴿ وإنّ عَلَيْكَ لَعْنَتى إلى يوم الدين (٨) ﴾ وقال : ﴿ إن الله لَعَنَ الكافرين وأعدّ لهم سعيرا (٩) ﴾ .

---

(١) سورة الممتحنة ١٣ .
(٢) سورة الأحزاب ٦٧ .
(٣) سورة البقرة ١٥٩ .
(٤) سورة البقرة ٢٢٨ .
(٥) سورة المائدة ٧٨ .
(٦) سورة الأحزاب ٥٧ .
(٧) سورة الأحزاب ٦١ .
(٨) سورة ص ٧٨
(٩) سورة الأحزاب ٦٤ .

فاما قولُ من يقول : « أيُّ ثواب فى اللّعن ! وإن الله تعالى لا يقول للمكلّف لِمَ لم تلعن ؟ بل قد يقول له : لم لَعَنْتَ ؟ وأنه لو جعل مكان لَعَنَ الله فلانا ، اللّهم اغفر لى لكان خيراً له ، ولو أنّ إنسانا عاش عمره كلّه لم يَلعَن إبليس لم يُؤاخذ بذلك » ؛ فكلامُ جاهلٍ لا يدرى ما يقول ؛ اللّعن طاعة ، ويُستحقّ عليها الثوابُ إذا فُعلَتْ على وجهها ، وهو أن يُلْعَنَ مستحقُّ اللّعن للهِ وفى الله ، لا فى العصبيّة والهوى ، ألا ترَى أن الشّرع قد وَرَد بها فى نَفْى الولد ، ونطق بها القرآن ، وهو أن يقول الزوج فى الخامسة : ﴿ أنّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين[1] ﴾ فلو لم يكن الله تعالى يريد أن يتلفظ عبادُه بهذه اللفظة وأنه قد تعبّدهم بها ، لما جعلها من معالم الشّرع ، ولما كرّرها فى كثير من كتابه العزيز ، ولما قال فى حقّ القاتل : ﴿ وغَضِبَ اللهُ عليه ولعنه[2] ﴾ ، وليس المراد من قوله : « ولعنه » إلاّ الأمر لنا بأن نلعنه ، ولو لم يكن المرادُ بها ذلك لكان لنا أن نلعنه ، لأنّ الله تعالى قد لعنه ، أفيلعن الله تعالى إنسانا ولا يكون لنا أن نلعنه ! هذا مالا يَسُوغ فى العقل ؛ كما لا يجوز أن يمدح اللهُ إنسانا إلّا ولنا أن نمدحَه ، ولا يذمّه إلّا ولنا أن نذمَّه ؛ وقال تعالى : ﴿ هَلْ أنبّئكم بشَرٍّ من ذلك مَثوبةً عند الله مَن لعنه الله[3] ﴾ ، وقال : ﴿ ربّنا آتِهم ضِعفَين من العذاب والعَنْهم لعنًا كبيراً[4] ﴾ ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ وقالت اليهودُ يدُ الله مَغلولة غُلّت أيديهم ولعنُوا بما قالوا[5] ﴾ . وكيف يقول القائل : إنّ الله تعالى لا يقول للمكلّف : لِمَ لم تلعن ؟ ألا يعلم هذا القائل أنّ الله تعالى أمر بولاية أوليائه ، وأمر بعداوة أعدائه ، فكما يَسأل عن التولّى يَسأل عن التبرّى ! ألا ترَى أن اليهوديّ إذا أسلَمَ يُطالَب بأن يقال له : تلفَّظْ بكلمة الشهادتين ، ثمّ قلْ : برئتُ

---

(١) سورة النور ٧ .
(٢) سورة النساء ٩٣ .
(٣) سورة المائدة ٦٠ .
(٤) سورة الأحزاب ٦٨ .
(٥) سورة المائدة ٦٤ .

من كلّ دين يُخالِف دين الإسلام ، فلا بدّ من البَراءة ، لأنّ بها يتمّ العمل ! ألم يسمع هذا القائلُ قول الشاعر :

تَوَدُّ عَــدُوِّى ثم تزعُمُ أننى ... صديقُك ، إنّ الرّأى عنكَ لعازِبُ

فمودّة العدوّ خروجٌ عن ولاية الولىّ ، وإذا بطلت المودّة لم يبق إلّا البراءة ؛ لأنه لايجوز أن يكون الإنسانُ فى درجة متوسطة مع أعداء الله تعالى وعُصاتِه بألّا يودّهم ولا يبرأ منهم بإجماع المسلمين على نَفْى هذه الواسطة .

وأما قولُه : « لو جَعَل عِوضَ اللّعنة أستغفِر الله لكان خيراً له » ، فإنه لو استغفر من غير أن يَلعَن أو يَعتقِد وجوب اللّعن لما نَفَعه استغفارُه ولا قُبل منه ، لأنه يكون عاصيا لله تعالى ، مخالفا أمره فى إمساكه عمّن أوجَب الله تعالى عليه البراءة منه ، وإظهار البراءة ، والمُصرّ على بعض المعاصى لاتُقبل توبته واستغفاره عن البعض الآخر ، وأمّا من يعيش عمره ولا يلعن إبليسَ ، فإن كان لايعتقد وجوبَ لَعْنِه فهو كافر ، وإن كان يعتقد وجوبَ لَعْنِه ولا يلعَنه فهو مخطىء ؛ على أنّ الفرق بينه وبين تَرْك لَعنِه رءوس الضلال فى هذه الأمة كمعاوية والمغيرة وأمثالهما ، أن أحدا من المسلمين لايُورِث عنده الإمساكُ عن لعن إبليس شبهة فى أمر إبليس ، والإمساكُ عن لَعْن هؤلاء وأضرابهم يثير شبهة عند كثيرٍ من المسلمين فى أمرهم ، وتجنُّب مايُورِث الشبهة فى الدين واجب ، فلهذا لم يكن الإمساكُ عن لَعْن إبليس نظيرا للإمساك عن أمر هؤلاء .

***

قال : ثمّ يقال للمخالفين : أرأيتم لو قال قائلٌ : قد غاب عنّا أمر يزيد بنَ معاوية والحجّاج بن يوسف ، فليس ينبغى أن نخوض فى قصّتهما ، ولا أن نلعنهما ونعادِيهما ونبرأ منهما ؛ هل كان هــذا إلّا كقولكم : قد غاب عنا أمرُ معاوية والمغيرة بن

شُعبة وأضرابهما ، فليس لخوضنا فى قصتهم معنًى !

وبعد ، فكيف أدخلتمُ أيها العامّة والحشويّة وأهل الحديث أنفسكم فى أمر عثمان وخُضْتم فيه ، وقد غاب عنكم ؛ وبرئتم مِن قَتلتِه ، ولعنتموهم ! وكيف لم تحفظوا أبا بكر الصّديق فى محمد ابنِه فإنكم لعنتموه وفسّقتموه ، ولا حفِظتم عائشة أمَّ المؤمنين فى أخيها محمد المذكور ، ومنعتمونا أن نخوض وندخِل أنفسنا فى أمر علىّ والحسن والحسين ومعاوية الظالم له ولهما ، المتغلّب على حَقِّه وحقوقهما ! وكيف صار لعنُ ظالم عثمان من السّنّة عندكم ، ولعن ظالم علىٍّ والحسن والحسين تكلّفا ! وكيف أدخلت العامّة أنفسها فى أمر عائشة وبَرِئتْ ممّن نظر إليها ، ومِن القائل لها : ياحُمَيْراء ، أو إنما هى حُمَيراء ، ولَعَنْته بكشفِه سترَها ، ومنعتْنا نحن عن الحديث فى أمر فاطمةَ وما جرى لها بعد وَفاةِ أبيها .

فإن قلتم : إنّ بيت فاطمة إنما دُخِل ، وسترها إنما كُشِف ، حِفْظا لنظام الإسلام ، وكَيْلا يَنتشر الأمرُ ويُخْرِج قومٌ من المسلمين أعناقهم من رِبقة[1] الطاعة ولزوم الجماعة .

قيل لكم : وكذلك ستر عائشة إنما كُشِف ، وهَوْدجها إنما هُتِك ، لأنها نشرتْ[2] حبل الطاعة ، وشَقّت عصا المسلمين ، وأراقت دماء المسلمين من قبل وصول علىٍّ بن أبى طالب عليه السلام إلى البَصرة ، وجرى لها مع عثمان بن حُنيف وحَكيم بن جَبَلة ومَنْ كان معهما من المسلمين الصالحين من القَتل وسَفْك الدماء ماتَنطق به كُتبُ التواريخ والسِّير ؛ فإذا جاز دُخولُ بيت فاطمة لأمر لم يقع بعدُ جاز كَشْف سِتر عائشة على ماقد وقع وتحقق ، فكيف صار هَتْك ستر عائشة من الكبائر التى يجب معها التّخليد فى النار ،

---

(١) ربقة الطاعة : عروتها .

(٢) نشرت حبل الطاعة : أى قطعته .

والبراءة من فاعله ، ومِن أوْكَدِ عُرى الإيمان ، وصار كَشْفُ بيت فاطمة والدّخول عليها منزلها وجَمْع حَطَب ببابها ، وتهدّدها بالتّحريق من أوْكد عُرَى الدّين ، وأثبت دَعائم الإسلام ؛ ومما أعزّ الله به المسلمين وأطفأ به نار الفتنْة ؛ والحُرْمتان واحدة ، والسِّتران واحد . وما نحبّ أن نقول لكم : إنّ حرمة فاطمة أعظم ، ومكانها أرفع ،وصيانتها لأجل رسول الله صلى الله عليه وآله أولى ، فإنها بَضعةٌ منه ، وجزءٌ من لحمه ودمِه ، وليست كالزّوجة الأجنبيّة التى لا نَسَب بينها وبين الزّوج ، وإنما هى وُصْلة مستعارةٌ ، وعَقْد يجرِى مجرى إجارة المنفعة ، وكما يملك رقّ الأمَة بالبَيْع والشراء ، ولهذا قال الفرَضيّون : أسباب التوارُث ثلاثة : سبب ، ونسب ، ووَلاء ؛ فالنسب القرابة ، والسبب النكَاح ، والولاء : وَلاء العِتق ؛ فجعلوا النِّكَاح خارجا عن النّسب ؛ ولو كانت الزوجة ذات نسب لجعلوا الأقسام الثلاثة قسمين .

وكيف تكون عائشة أو غيرُها فى منزلة فاطمة ، وقد أجمع المسلمون كلّهم من يحبّها ومن لا يحبّها منهم أنها سيِّدة نساء العالمين !

قال : وكيف يَلزمنا اليوم حفظ رسولِ الله صلى الله عليه وآله فى زوجتِه ، وحفظ أمّ حبيبة فى أخيها ، ولم تُلزِم الصحابةُ أنفسها حِفظَ رسول الله صلى الله عليه وآله فى أهلِ بيته ، ولا ألْزمت الصحابةُ أنفسها حفظَ رسول الله صلى الله عليه وآله فى صِهْره وابن عمّه ابن عفان ، وقد قتلوهم ولعنوهم ؛ ولقد كان كثيرٌ من الصحابة يَلعَن عثمانَ وهو خليفة ؛ منهم عائشة كانت تقول : اقتلو نَعْثَلًا ، لعن الله نَعْثَلًا ؛ ومنهم عبد الله بنُ مسعود ؛ وقد لعَن معاوية علىّ بن أبى طالب وابنَيه حَسَنا وحُسينا وهم أحياء يرزقون بالعراق ، وهو يلعنهم بالشام على المنابر ، ويَقنُت عليهم فى الصّلوات ، وقد لعن أبو بكر وعمرُ سعدَ بن عُبادة وهو حىّ ، وبرئا منه ، وأخرجاه من المدينة إلى الشام ، ولعن عمرُ

خالد بنَ الوليد لما قتل مالك بنَ نُوَيرة ، وما زال اللعن فاشيا فى المسلمين إذا عرفوا من الإنسان معصيةً تقتضى اللعن والبراءة .

قال : ولو كان هذا أمراً معتبرا وهو أن يُحفَظ زيدٌ لأجل عمرو فلا يُلعَن ، لوجب أن تُحفَظ الصحابةُ فى أولادهم ، فلا يُلعنوا لأجل آبائهم ، فكان يجب أن يُحفظ سعدُ بنُ أبى وقّاص فلا يُلعن ابنُه عمر بن سعد قاتل الحسين ، وأن يحفظ معاوية فلا يلعن يزيد صاحب وَقْعة الحَرّة وقاتل الحسين ، ومخيف المسجد الحرام بمكّة ، وأن يُحفَظ عمر بن الخطّاب فى عبيد الله ابنه قاتل الهُرْمُزان ، والمحارب عليّا عليه السلام فى صِفّين .

* * *

قال : عَلَى أنّه لو كان الإمساك عن عداوةِ من عادى الله من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من حفظ رسول الله صلى الله عليه وآله فى أصحابه ورعاية عهدِه وعقدِه لم نُعادِهم ولو ضُرِبتْ رِقابُنا بالسيوف ، ولكن محبّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه ليست كمحبّة الجهّال الذين يصنع أحدُهم محبّته لصاحبه موضع العصبيّة ، وإنما أوجَب الله رسولُ الله صلى الله عليه وآله محبّة أصحابه لطاعتِهم لله ، فإذا عصَوا الله وتركوا ماأوجب محبّتَهم ؛ فليس عند رسول الله صلى الله عليه وآله محاباة فى تركِ لزوم ما كان عليه من محبّتَهم ، ولا تغطرسٌ فى العُدولِ عن التمسك بموالاتهم ، فلقد كان صلى الله عليه وآله يحبّ أن يُعادِيَ أعداءَ الله ولو كانوا عِترتَه ، كما يحبّ أن يواليَ أولياء الله ولو كانوا أبعدَ الخلقِ نَسَباً منه ، والشاهد على ذلك إجماع الأمّة على أنّ الله تعالى قد أوجب عداوة من ارتدّ بعدَ الإسلام ، وعداوة من نافق وإن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذى أمرَ بذلك ودعا إليه

وذلك أنه صلى الله عليه وآله قد أوجب قطع السارق وضرب القاذف ، وجَلْد البِكْر إذا زَنَى ، وإن كان من المهاجرين أو الأنصار ؛ ألا ترى أنه قال : لو سَرَقَتْ فاطمةُ لقطعتُها ؛ فهذه ابنته ، الجارية مَجْرَى نفسه ، لم يُحابِها في دين الله ، ولا رَاقبها فى حُدود الله ، وقد جلد أصحاب الإفك ، ومنهم مِسطح بن أثاثة ، وكان من أهلِ بَدْر .

قال : وبعد ، فلو كان محلّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله محلّ من لا يعادَى إذا عَصى الله سبحانه ولا يُذكر بالقبيح ، بل يجب أن يُراقَب لأجل اسم الصُّحبة ، ويغضَى عن عُيوبه وذُنوبه ، لكان كذلك صاحبُ موسى المسطور ثناؤه فى القرآن لما اتّبع هواه ، فانسلخ مما أُوتى من الآيات وغوَى ، قال سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الذى آتيناهُ آياتِنا فانسَلخَ منها فأتبعهُ الشَّيطانُ فكانَ مِنَ الْغاوِين ﴾[1] ، ولكان ينبغى أن يكون محلّ عَبَدة العِجْل من أصحاب موسى هذا المحلّ ، لأنّ هؤلاء كلّهم قد صحبوا رسولًا جليلا من رُسُل الله سبحانه .

قال : ولو كانت الصّحابة عند أنفسِها بهذه المنزلة ؛ لعلمتْ ذلك من حالِ أنفسِها ، لأنّهم أعرَف بمحلّهم من عوامّ أهلِ دهرنا ، وإذا قدرتَ أفعالَ بعضِهم ببعض دلّتكَ على أنّ القِصّة كانت على خلاف ماقد سبق إلى قلوبِ النّاس اليوم ؛ هذا علىّ وعمّار ، وأبو الهَيْثم بن التَّيِّهان ، وخزيمة بن ثابت ، وجميعُ من كان مع علىّ عليه السلام من المهاجِرين والأنصار ، لم يرَوْا أن يتغافلوا عن طَلْحة والزّبير حتّى فعلوا بهما وبمن مَعهما ما يُفعَل بالشُّراة فى عصرنا ، وهذا طلحة والزُّبير وعائشة ومَنْ كان معهم وفى جانبهم لم يرَوا أن يُمسكوا عن علىّ ؛ حتّى قصدوا له كما يُقصَد للمتغلّبين فى زماننا ، وهذا معاوية وعَمْرو لم يَريا

---

(١) سورة الأعراف ١٧٥ .

عليًّا بالعين التى يرَى بها العامّى صديقَه أو جارَه ، ولم يُقصِّرا دونَ ضَرْب وجهه بالسّيف ولعنِه ولعنِ أولاده وكلّ من كان حيًّا من أهله ، وقتلِ أصحابه ، وقد لعَنهما هو أيضا فى الصّلوات المفروضات ، ولعَن معهما أبا الأعور السُّلَمىّ ، وأبا موسى الأشعرىّ ، وكلاهما من الصّحابة ، وهذا سعدُ بن أبى وَقّاص ، ومحمّد بن مَسلَمة ، وأسامة بن زيد ، وسعيدبن زيد بن عمرو بن نُفَيل ، وعبد الله بن عمَر ، وحسّان بن ثابت ، وأَنَس بن مالك ، لم يرَوا أن يقلّدوا عليًّا فى حرب طلحةَ ، ولا طلحةَ فى حَرْب علىّ ، وطلحة والزّبير بإجماع المسلمين أفضل من هؤلاء المعدُودين ، لأنهم زعموا أنّهم قد خافوا أن يكون علىٌّ قدغَلط وزلّ فى حَرْبهما ، وخافوا أن يكونا قد غَلطا وزَلّا فى حرب علىّ ؛ وهذا عثمانُ قد نَفى أبا ذَرّ إلى الرَّبَذة كما يُفعل بأهلِ الخنا والرِّيَب ، وهذا عمّار وأبنُ مسعود تلقّيا عثمانَ بما تلَقّياه به لمّا ظهر لهما ــ بزَعْمهما ــ منه ماوعَظاه لأجله، ثمّ فعل بهما عثمانُ ماتناهى إليكم ، ثم فَعَل القومُ بعثمانَ ماقد علمتم وعَلِم الناس كلّهم ، وهذا عمر يقول فى قصّة الزُّبير بن العوّام لمّا أستأذنَه فى الغَزْو : ها إنّى ممسِكٌ بباب هذا الشِّعب أن يَتفرّق أصحابُ محمّد فى الناس فيضلّوهم ، وزعم أنه وأبو بكر كانا يقولان : إنّ عليًّا والعبّاس فى قصّة الميراث زَعَماهما كاذِبَيْن ظالمَيْن فاجرَيْن ؛ ومارأينا عليًّا والعبّاس اعتذَرا ولا تنصّلا ، ولا نَقَل أحدٌ من أصحاب الحديث ذلك ، ولا رأينا أصحابَ رسول الله صلّى الله عليه وآله أنكَرُوا عليهما ماحكاه عمرُ عنهما ، ونسبَه إليهما ، ولا أنكروا أيضا على عمرَ قوله فى أصحاب رسولِ الله صلّى الله عليه وآله : إنّهم يريدون إضلالَ النّاس ويهمون به ، ولا أنكروا على عثمانَ دَوْسَ بطن عمّار ، ولا كَسْر ضِلَع أبنِ مسعود ، ولا على عمّار وابن مسعود ماتلقّيا به عثمان ، كإنكار العامّة اليومَ الخوض فى حديث الصحابة ، ولا اعتقدت الصحابة فى أنفسها مايعتقده العامّة فيها ؛ اللهمّ إلا أن يزْعموا أنّهم أعرَف بحقّ القوم منهم . وهذا علىٌّ

وفاطمة والعبّاس مازالوا على كلمةٍ واحدة يكذّبون الرواية : « نحن معاشرَ الأنبياء لانُورَث » ، ويقولون : إنّها مختلَقة .

قالوا : وكيف كان النّبي صلّى الله عليه وآله يُعرِّف هذا الحكم غيرَنا ويكتمُه عنّا ونحن الوَرَثة ؛ ونحن أولَى الناسِ بأن يُؤدَّى هذا الحكم إليه ، وهذا عمرُ بنُ الخطّاب يَشهد لأهل الشورى أنّهم النّفر الذين تُوفِّي رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وهو عنهم راضٍ ، ثمّ يأمر بضَرْب أعناقهم إن أخّروا فصل حال الإمامة ، هذا بعد أن ثَلَبهم، وقال فى حقّهم ما لوسمِعَتْه العامّة اليومَ من قائل لوضعتْ ثوبَه فى عنقِه سَحْبا إلى السلطان ، ثمّ شهِدتْ عليه بالرّفض واستحلّت دمَه ، فإن كان الطّعن على بعض الصّحابة رفضا فعُمر بن الخطّاب أرفض الناس وإمام الرّوافض كلّهم . ثمّ ماشاع واُشتهر من قول عمَر : كانت بَيعةُ أبى بكر فَلْتة ، وَقَى اللهُ شرّها ؛ فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه ؛ وهذا طعنٌ فى العَقْد ، وقَدْح فى البَيْعة الأصليّة .

ثم مانقل عنه مِن ذِكر أبى بكر فى صَلاته ، وقوله عن عبد الرحمن اُبنه : دُوَيبّة سوء ولهوَ خيرٌ من أبيه . ثم عمر القائل فى سعد بن عُبادة ، وهو رئيس الأنصار وسيّدُها : اقتلوا سعدا ، قتَلَ اللهُ سَعْدا ، اقتلوه فإنّه منافق . وقد شتَمَ أباهريرة وطعَنَ فى روايته، وشتَم خالدَ بنَ الوليد وطعَنَ فى دِينه ، وحَكَم بفِسْقه وبُوجوب قتله ، وخوّن عمرو بن العاص ومعاويةَ بنَ أبى سُفيان ونسبهما إلى سرقةِ مال الفَىْء واُقتطاعه ، وكان سريعا إلى المَساءة، كثيرَ الجَبْه والشّتْم والسّبّ لكلّ أحد ، وقلّ أن يكون فى الصّحابةِ من سَلِم من معرّة لسانه أو يدِه ، ولذلك أبغَضوه وملُّوا أيّامه مع كثرة الفُتوح فيها ، فهلاّ احترم عمرُ الصّحابة كما تحترمهم العامّة ! إمّا أن يكون عمر مخطئا ، وإمّا أن تكون العامّة على الخطأ !

فإن قالوا : عمرُ ماشتَم ولا ضَرَب ، ولا أساء إلّا إلى عاصٍ مستحقٍ لذلك ، قيل لهم : فكأنّا نحن نقول : إنّا نريد أن نبرأ ونعادىَ من لايستحقّ البراءة والمعاداة ! كلاّ ماقلنا هذا ، ولا يقول هذا مسلم ولا عاقل .

وإنّما غرضنا الّذى إليه نجرى بكلامنا هذا أن نوضّح أنّ الصّحابة قومٌ من النّاس لهم ماللِناس ، وعليهم ماعليهم ، مَن أساء منهم ذمّمناه ، ومن أحسَنَ منهم حَمِدناه، وليس لهم على غيرِهم من المسلمين كبيرُ فَضْل إلّا بمشاهدة الرسول ومعاصرتِه لا غير ، بل ربّما كانت ذنوبُهم أفحَش من ذنوب غيرهم ، لأنهم شاهدوا الأعلامَ والمعجزات ، فقرُبت اُعتقاداتهُم من الضرورة ، ونحن لم نشاهدْ ذلك ، فكانت عقائدُنا مَحْض النّظر والفكر ، وبعرضيَّة الشُّبَه والشّكوك ، فمعاصِينا أخفّ لأنّا أعذَر .

* * *

ثم نعود إلى ما كنّا فيه فنقول : وهذه عائشة أمّ المؤمنين ؛ خرجت بقميص رسول الله صلّى الله عليه وآله فقالت للناس : هذا قميصُ رسول الله لم يبْلَ ، وعثمانُ قد أبلَى سنّته ؛ ثم تقول : اقتُلوا نعْثَلا ، قتَل الله نَعْثَلا ، ثم لم ترض بذلك حتى قالت : أشهد أنّ عثمانَ جيفةٌ على الصّراط غداً . فمن الناس من يقول : روَتْ فى ذلك خبراً ، ومن النّاس من يقول : هو موقوفٌ عليها ؛ وبدون هذا لو قاله إنسان اليوم يكون عند العامّة زنديقا . ثمّ قد حصر عثمان ؛ حصرتْه أعيانُ الصحابة ، فما كان أحدٌ يُنْكِر ذلك ، ولا يُعظمه ولا يَسعَى فى إزالته ، وإنما أنكروا على من أنكر على الحاصِرين له ، وهو رجلٌ كما علمتم من وجوهِ أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ثمّ من أشرافهم ، ثم هو أقرب إليه من أبى بكر وعمر ؛ وهو مع ذلك إمامُ المسلمين ، والمختارُ منهم للخلافة ، وللإمام حقّ على رعيّته عظيم ، فإن كان القومُ قد أصابوا فإذَنْ ليست الصحابةُ فى الموضع الّذى وضعتْها به العامّة ، وإن كانوا ما أصابوا فهذا هو الّذى نقول ؛ من أنّ الخطأ جائزٌ على

آحاد الصّحابة ؛ كما يجوز على آحادِنا اليوم . ولَسْنا نَقدَح فى الإجماع ، ولا نَدّعى إجماعاً حقيقيّا على قَتْل عثمان ، وإنما نقول : إنّ كثيرا من المسلمين فعَلوا ذلك والخَصْم يسلِّم أنّ ذلك كان خطأ ومعصيةً ، فقد سَلَّم أنّ الصحابىّ يجوز أن يُخطىء ويَعصِى ، وهو المطلوب .

وهذا المُغِيرة بن شُعْبة وهو من الصحابة ، ادُّعِى عليه الزنا ، وشهد عليه قومٌ بذلك ، فلم يُنكر ذلك عمر ، ولا قال : هذا محال وباطل لأنّ هذا صحابىّ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله لا يجوز عليه الزنا . وهلّا أنكر عمرُ على الشهود وقال لهم : ويحكم هلّا تغافلتم عنه لمّا رأيتموه يَفعَل ذلك ، فإنّ الله تعالى قد أوجَب الإمساكَ عنْ مساوىْ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله ، وأوْجَب السترَ عليهم ! وهلا تركتموه لرسول الله صلى الله عليه وآله فى قوله : « دَعُوا لى أصحابى » ! ما رأينا عمر إلّا قد انتَصَب لسماع الدّعوى، وإقامة الشّهادة ، وأقبَل يقول للمغيرة : يامغيرة ، ذهب رُبْعك ، يامغيرة ، ذَهَب نصفُك ، يامغيرة ، ذَهَب ثلاثة أرباعك ، حتى اضطرب الرابع ، فجُلِد الثلاثة . وهلّا قال المغيرة لعمر : كيف تسمع فىّ قول هؤلاء ، ولَيْسوا من الصّحابة ، وأنا من الصحابة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله قد قال : « أصحابى كالنّجوم ، بأيِّهم اقتدَيتم اهتديتم » ! ما رأيناه قال ذلك ، بل استسلَمَ لحُكم الله تعالى . وهاهنا مَن هو أمثَل من المغيرة وأفضَل ، قدامة بن مَظْعون ، لمّا شَرب الخمر فى أيّام عُمَر ، فأقام عليه الحدّ ، وهو رجلٌ من عِلْية الصحابة ومن أهل بَدْر ، والمشهود لهم بالجنّة ، فلم يردّ عمرُ الشهادة ، ولا دَرَأ عنه الحدَّ لعلّةِ أنه بَدْرِىّ ، ولا قال : قد نَهى رسولُ الله صلى الله عليه وآله عن ذِكر مَساوِىء الصّحابة . وقد ضرب عمرُ أيضا ابنَه حدّا فمات ، وكان ممّن عاصَر رسولَ الله صلّى الله عليه وآله ولم تَمنَعْ معاصَرَته له من إقامة الحدّ عليه .

وهذا علىٌّ عليه السلام يقول : ما حدّثنى أحدٌ بحديثٍ عن رسول الله صلى الله عليه

وآله إلّا استحلفْتهُ عليه ، أليس هذا اتّهاماً لهم بالكذب ! وما استثنى أحداً من المسلمين إلا أبا بكر على ماوَرَد فى الخبر ، وقد صرّح غيرَ مرّة بتكذيب أبى هريرة ، وقال : لا أحدَ أكذَبَ من هذا الدَّوْسى على رسول الله صلّى الله عليه وآله . وقال أبو بكر فى مرضِه الّذى مات فيه : وَدِدْتُ أنّى لم أكشِفْ بيتَ فاطمة ولو كان أغلِق على حرب، فندم والنّدم لا يكون إلّا عن ذَنْب .

ثم ينبغى للعاقل أن يفكّر فى تأخّر علىٍّ عليه السلام عن بَيْعة أبى بكر بن ستّة أشهر إلى أن ماتت فاطمةُ ، فإن كان مصيبا فأبو بكر على الخطأ فى انتصابه فى الخلافة ، وإن كان أبو بكر مصيباً فعلىّ على الخطأ فى تأخّره عن البَيْعة وحضور المسجد ؛ ثم قال أبو بكر فى مرض موته أيضا للصحّابة : فلمّا استخلفتُ عليكم خيرَكم فى نفسى — يعنى عمر — فكلُّكم وَرِمَ لذلك أنفُه يريد أن يكون الأمر له ، لمّا رأيتم الدنيا قد جاءت ، أما والله لتتخذُنّ ستائرَ الدِّيباج ونَضائد الحرير[1] . أليس هذا طَعْنا فى الصحابة ، وتصريحا بأنه قد نسبَهم إلى الحسد لعمَر ، لما نصّ عليه بالعهد ! ولقد قال له طلحة لمّا ذكر عمر للأمر : ماذا تقول لربّك إذا سألك عن عباده ، وقد ولّيتَ عليهم فظّا غليظا ! فقال أبو بكر : أجلسونى أجلسونى ، بالله تخوِّفنى ! إذا سألنى قلتُ : ولّيت عليهم خيرَ أهلك ، ثم شتمه بكلام كثير منقول، فهل قول طلحة إلا طعنٌ فى عمرَ ، وهل قول أبى بكر إلّا طعنٌ فى طلحة !

ثم الذى كان بين أُبىّ بن كعب وعبدِالله بن مسعود من السِّباب حتى نفى كلّ واحد منهما الآخر عن أبيه وكلمةُ أُبىّ بن كعب مشهورة منقولة : مازالت هذه الأمّة مكبُوبةً على وجهها منذ فقدوا نبيِّهم ، وقوله : ألا هلك أهلُ العقيدة ، والله ماآسَى عليهم إنما آسَى على من يضلّون من الناس .

(١) الكامل للمبرد ١ : ٧ .

ثم قولُ عبد الرحمن بن عوف : ما كنت أرى أن أعيش حتى يقول لى عثمان : يا منافق ؛ وقوله : لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ ما ولّيت عثمان شِسْع نعلى[1] ؛ وقوله : اللهم إن عثمان قد أبَى أن يقيم كتابك فافعلْ به وافعل .

وقال عثمانُ لعلىّ عليه السلام فى كلامٍ دارَ بينهما : أبو بكر وعمرُ خيرٌ منك ؛ فقال علىّ : كذبت ، أنا خيرٌ منك ومنهما ، عبدتُ الله قبلهما ، وعبَدْته بعدَهما .

وروى سُفيانُ بن عُيَينة عن عمرو بن دينار ، قال : كنت عند عروةَ بن الزبير ، فتذاكَرْنا كم أقام النبىُّ بمكّة بعد الوَحْى ؟ فقال عروة : أقام عشرا ، فقلت : كان ابنُ عبّاس يقول : ثلاث عشرة ، فقال : كذب ابنُ عباس . وقال ابنُ عباس : المُتْعة[2] حلال ؛ فقال له جُبَير بنُ مُطعِم : كان عمرُ ينهى عنها ، فقال يا عُدَىّ نفسه ، مِنْ ها هنا ضللتم ، أُحدّثكم عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتحدّثنى عن عمر !

وجاء فى الخبر عن علىٍّ عليه السلام ، لولا ما فعَل عمرُ بنُ الخطّاب فى المُتْعة ما زَنَى إلا شقىّ ؛ وقيل : ما زَنَى إلا شفًا ، أى قليلا .

فأمّا سبّ بعضهم بعضا وقَدْح بعضهم فى بعض فى المسائل الفقهيّة فأكثرُ مِن أن يُحصَى ، مِثلُ قول ابن عباس وهو يردّ على زيد مذهبه القوْل فى الفرائض : إن شاء ـ أو قال : من شاء ـ باهَلْته[3] إن الذى أحصى رَمْل عالج[4] عَدداً أعدَل من أن يجعل فى مال نِصْفا ونصفا وثلثا ، هذان النِّصفان قد ذَهبا بالمال ، فأين موضعُ الثلث !

---

(١) الشسع : قبال النعل .

(٢) نكاح المتعة ؛ هو أن يتزوج الرجل المرأة يستمتع بها أياماً ثم يتركها .

(٣) باهل القوم بعضهم بعضاً وابتهلوا : تلاعنوا .

(٤) عالج : موضع به رمل ، معروف .

ومِثل قول أبىّ بن كعب فى القرآن : لقد قرأتُ القرآن وزَيْدٌ هذا غلامذو ذُؤابتين يلعب بين صبيان اليهود فى المكتب .

وقال علىٌّ عليه السّلام فى أمّهات الأولاد وهو على المِنبر : كان رأيى ورأى عمرَ ألّا يُبَعنَ ، وأنا أرى الآن بَيعهنّ ، فقام إليه عبيدة السّلمانىّ ، فقال : رأيُك فى الجماعة (١) أحبُّ إلينا من رأيك فى الفُرْقة .

وكان أبو بكر يرى التّسوية فى قَسْم الغنائم ، وخالفه عمر وأنكر فعله .

وأنكرتْ عائشة على أبى سلمة بن عبد الرحمن خلافه على ابن عباس فى عِدّة المتوفَّى عنها زوجُها وهى حامل ؛ وقالت : فَرّوج يصقع (٢) مع الدِّيَكة .

وأنكرت الصحابة على ابن عباس قوله فى الصَّرف ، وسفّهوا رأيه حتى قيل : إنه تابَ من ذلك عند موته .

واختلفوا فى حدِّ شارب الخمر حتى خطّأ بعضهم بعضا .

وروَى بعض الصّحابة عن النبىّ صلّى الله عليه وآله أنه قال : الشؤم فى ثلاثة : المرأة والدّار ، والفرَس ، فأنكرتْ عائشة ذلك ، وكذّبت الراوى وقالت : إنه إنما قال عليه السلام ذلك حكايةً عن غيره .

وروَى بعض الصّحابة عنه عليه السلام أنه قال : التاجرُ فاجرٌ ، فأنكرتْ عائشةُ ذلك ، وكذّبت الراوى وقالت : إنما قاله عليه السلام فى تاجر دلّس .

وأنكَر قومٌ من الأنصار روايةَ أبى بَكر : « الأئمّة من قريش » ، ونَسَبوه إلى افتعال هذه الكلمة .

---

(١) ب : « لجماعة » .

(٢) صقع الديك صقعاً : صاح .

وكان أبو بكر يقضى بالقضاء فينقضه عليه أصاغرُ الصّحابة كبلال وصُهيب ونحوهما. قد رُوِىَ ذلك فى عِدّة قضايا .

وقيل لابن عبّاس : إنّ عبدَالله بن الزبير يزعم أنّ موسى صاحبَ الخضِر ليس مُوسَى بنى إسرائيل؛ فقال : كذَب عدوُّ الله ! أخبرَنى أبىّ بنُ كعب ، قال : خطبَنا رسولُ الله صلّى الله عليه وآله وذَكَر كذا ؛ بكلامٍ يدلّ على أنّ موسى صاحبَ الخضِر هو موسى بنى إسرائيل .

وباع معاويةُ أوانىَ ذَهَب وفِضّة بأكثرَ من وزنها ، فقال له أبو الدّرداء : سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآله يَنهَى عن ذلك ، فقال معاوية : أمّا أنا فلا أرى به بأسا ؛ فقال أبو الدّرداء : مَن عَذيرى من معاوية ! أُخبره عن الرّسول صلى الله عليه وسلّم ، وهو يُخبرنى عن رأيه ! والله لا أساكنُك بأرضٍ أبدا .

وطَعَن ابنُ عبّاس فى أبى هريرة ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله : « إذا استيقظ أحدُكم من نوْمه فلا يُدخِلنّ يدَه فى الإناء حتّى يتوضّأ » ، وقال : فما نَصْنَع بالمِهْراس (١) !

وقال علىّ عليه السلام لعُمَر وقد أفتاه الصحابة فى مسألة وأجمعوا عليها : إن كانوا راقبوك فقد غَشّوك ، وإن كان هذا جهدُ رأْيهم فقد أخطئوا .

وقال ابن عبّاس : ألا يتّقى الله زيدُ بنُ ثابت ، يجعل ابن الابن ابناً ، ولا يجعل أب الأب أباً !

وقالت عائشة : أخبروا زيدَ بنَ أرقَم أنه قد أحبَط جهادَه مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

---

(١) المهراس : إناء مستطيل منقور يتوضأ فيه .

وأنكرت الصحابة على أبى موسى قوله : إنّ النوم لا يَنقُض الوضوء ، ونسبتْه إلى الغَفْلة وقلّة التحصيل ، وكذلك أنكرت على أبى طلحة الأنصارىّ قوله : إن أكْلَ البَرَد لا يُفطِّر الصائم ، وهَزِئتْ به ونَسبته إلى الجهل .

وسمع عمرُ عبدَ الله بنَ مسعود وأبىّ بن كعب يختلفان فى صلاة الرجل فى الثّوب الواحد، فصَعِد المنبر وقال: إذا اختلف اثنان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم فعَن أىّ فُتْياكم يصدر المسلمون ! لا أسمَع رجلين يختلفان بعد مُقامى هذا إلّا فعلتُ وصَنعتُ .

وقال جرير بنُ كُلَيب : رأيتُ عمر يَنهى عن المُتعة ، وعلىّ عليه السلام يأمرُ بها ، فقلت : إنّ بينكما لشرًّا ، فقال علىّ عليه السلام : ليس بيننا إلّا الخير ، ولكن خيرُنا أتبعُنا لهذا الدِّين .

قال هذا المتكلّم : وكيف يصحُّ أن يقول رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم : « أصحابى كالنّجوم بأيِّهم اقتدَيتم اهتدَيْتم » ؛ لا شبهةَ أنّ هذا يُوجب أن يكون أهلُ الشام فى صفِّين على هُدًى ، وأن يكون أهلُ العراق أيضا على هُدًى ؛ وأن يكون قاتل عمّار بن ياسر مهتديا ؛ وقد صحّ الخبرُ الصحيحُ أنه قال له : « تقتُلك الفئة الباغية » ، وقال فى القرآن: ﴿ فقَاتِلُوا الّتى تَبغِى حَتّى تفِىءَ إلى أمرِ الله ﴾؛ فدلّ على أنّها مادامت موصوفة بالمقام على البَغْى ، مُفارِقة لأمر الله ، ومَن يفارق أمر الله لا يكون مهتديا .

وكان يجب أن يكون بُسرُ بن أبى أرطَاة الّذى ذَبح ولَدىْ عُبيد الله بن عبّاس الصغيرين مُهتديا ، لأنّ بُسْراً من الصحابة أيضا ، وكان يجب أن يكون عمرو بنُ العاص ومعاوية اللّذان كانا يلعَنان عليًا أدبارَ الصلاة وولديه مهتديين ؛ وقد كان فى الصحابة من يزنِى ومن يشرب الخمرَ كأبى مِحْجَن الثّقفى ، ومن يرتدّ عن الإسلام كطليحة ابن خُوَيلد ، فيجب أن يكون كلّ مَن اقتدى بهؤلاء فى أفعالهم مُهديا .

قال : وإنّما هـــذا من موضاعاتِ متعصِّبةِ الأمويّة ، فإن لهم مَن يَنصرهم بلسانه ، وبوَضْعِه الأحاديث إذا عَجز عن نصرهم بالسيف .

وكذا القولُ في الحديث الآخر ، وهو قوله : « القرْن الذى أنا فيه » ، وممّا يدلّ على بطلانه أنّ القرْن الذى جاء بعده بخمسين سنةً شرُّ قرون الدّنيا ، وهو أحد القُرُون الّتى ذَكَرها فى النّص ، وكان ذلك القرْن هو القرْن الّذى قُتِل فيه الُحسين ، وأُوقع بالمدينة ، وحُوصرتْ مَكّة ، ونُقِضت الكَعْبة ، وشَرِبت خلفاؤُه والقائمُون مَقامه والمنتصِبون فى مَنصِب النّبوة الخُمُور ، وارتَكَبوا الفُجُور ، كما جرى ليزيدَ بن معاوية وليزيد بن عاتكة وللوَليد بن يزيد ، وأُرِيقت الدّماء الحرام ، وقُتِل المسلمون ، وسُبِىَ الحريم ، واستُعبد أبناء المهاجرين والأنصار ، ونُقِش على أيديهم كما يُنقَش على أيدى الرُّوم ، وذلك فى خلافةِ عبدِ الملك وإمرةِ الحجّاج . وإذا تأمّلتَ كتبَ التواريخ وجدت الخمسين الثانيةَ شرّاً كلّها لاخيرَ فيها ، ولا فى رؤسائها وأمرائها ، والناسُ برؤسائهم وأمرائهم ، والقرن خَمْسون سنةً ،فكيف يصحّ هذا الخبر .

قال : فأمّا ماورد فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(١) .
وقوله: ﴿ مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ وَالّذينَ مَعَهُ ﴾(٢) .

وقول النبىّ صلى الله عليه وآله : إنّ الله اطّلع على أهلِ بَدْر ؛ إن كان الخبرُ صحيحا فكلّه مشروط بسلامةِ العاقبة ، ولا يجوزأن يخبر الحكيم مكلّفا غير معصوم بأنّه لاعقاب عليه ، فليفعل ماشاء .

قال هذا المتكلّم : ومَن أنصف وتأمّل أحوالَ الصّحابة وجَدَهم مِثلنا ، يجوز عليهم مايجوز علينا ، ولا فرق بيننا وبينهم إلّا بالصّحبة لاغير ، فإنّ لها منزلةً وشَرَفا ،

---

(١) سورة الفتح ١٨ .   (٢) سورة الفتح ٢٩ .

ولكن لا إلى حدٍّ يمتنع على كلِّ من رأى الرسولَ أو صحبَه يوماً أو شهراً أو أكثر من ذلك أن يخطىء ويزلَّ ، ولو كان هذا صحيحا ما احتاجت عائشةُ إلى نزول براءتها من السّماء ، بل كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله من أوّل يومٍ يعلم كَذِب أهل الإفك ، لأنّها زوجته ، وصُحبتُها له آكدُ من صُحبة غيرِها . وصَفْوان بن المعطّل أيضا كان من الصّحابة ، فكان ينبغي ألّا يَضيق صدرُ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، ولا يَحمِل ذلك الهمَّ والغمَّ الشديدَين اللّذَين حملهما ويقول : صَفْوان من الصّحابة ، وعائشة من الصّحابة ، والمعصيةُ عليهما ممتنعة .

وأمثالُ هذا كثير ، وأكثر من الكثير ؛ لمن أراد أن يَستقرئَ أحوالَ القوم ، وقد كان التابعونَ يَسلُكون بالصحابة هذا المَسلك ، ويقولون فى العُصاة منهم مِثلَ هذا القول ، وإنما اتخذهم العامّة أربابا بعد ذلك .

قال : ومَن الّذى يجترئ على القول بأنّ أصحابَ محمّد لا تجوز البراءةُ من أحدٍ منهم وإن أساء وعصى بعدَ قول الله تعالى للذى شرّفوا برؤيته : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[1] بعد قوله : ﴿ قل إنّى أخاف إن عَصيتُ ربّى عذابَ يوم عظيم ﴾[1] وبعد قوله : ﴿ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحقّ وَلا تتبع الهوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سبيل الله إنّ الّذِين يَضِلُّونَ عنْ سَبيلِ اللهِ لهمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ﴾[2] ، إلا من لا فهمَ له ولا نظرَ معه ، ولا تمييزَ عنده .

***

قال : ومَنْ أحبَّ أن ينظر إلى اختلاف الصحابة ، وطعن بعضهم فى بعض وردِّ بعضهم على بعض ، وما ردّ به التابعون عليهم واعترضوا به أقوالهم ، واختلاف التابعين أيضا فيما بينهم ، وقدح بعضهم فى بعض ، فلينظرْ فى كتاب النَّظّام ، قال الجاحظ : كان النظّام

---

(١) سورة الزمر ٦٥ . (٢) سورة ص ٢٦ .

أشدَّ الناس إنكارا على الرافضة ، لطعنهم على الصحابة ، حتى إذا ذَكَرَ الفُتْيا وتنقُّل الصحابةِ فيها ، وقضاياهم بالأمور المختلفة ، وقول من استعمل الرأى فى دين الله ، انتظم مطاعن الرافضة وغيرها ، وزاد عليها ؛ وقال فى الصحابة أضعاف قولها .

قال : وقال بعض رؤساء المعتزلة : غَلطُ أبى حنيفة فى الأحكام عظيم ، لأنه أضل خَلْقًا وغلطُ حمّاد[١] أعظمُ من غَلط أبى حنيفة ، لأنّ حمادا أصلُ أبى حنيفة الذى منه تفرّع ، وغَلط إبراهيم أغلط وأعظَم من غَلط حمّاد ، لأنه أصلُ حماد وغلَط علقمة[٢] والأسود[٣] أعظَم من غلط إبراهيم ؛ لأنهما أصله الذى عليه اعتمد ، وغلط ابن مسعود أعظمُ مِن غلط هؤلاء جميعا ، لأنه أول من بَدَر إلى وَضْع الأدْيان برأيه ، وهو الذى قال : أقول فيها برأيى ، فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنّى .

قال : واستأذن أصحابُ الحديث على ثمامةَ[٤] بخُراسان حيث كان مع الرّشيدِ بنِ المهدىّ ، فسألوه كتابه الذى صنفه على أبى حنيفة فى اجتهادِ الرأى ، فقال : لستُ على أبى حنيفة كتبتُ ذلك الكتاب ، وإنما كتبته على علقمة والأسود وعبد الله بن مسعود لأنهم الذين قالوا بالرأى قبل أبى حنيفة .

قال : وكان بعض المعتزلة أيضا إذا ذكر ابن عباس استصغره وقال : صاحبُ الذؤابة يقول فى دين الله برأيه .

وذكر الجاحظ فى كتابه المعروف « بكتاب التوحيد » أنّ أباهريرة ليس بثقة فى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله ؛ قال : ولم يكن علىٌّ عليه السلام يوثّقه فى الرّواية ، بل يتهمه ، ويقدح فيه ، وكذلك عمر وعائشة .

---

(١) حماد هو حماد بن أبى سليمان .
(٢) علقمة بن قيس .
(٣) الأسود بن يزيد .
(٤) ثمامة بن أشرس .

وكان الجاحظ يفسّق عمرَ بن عبد العزيز ويستهزئ به ويكفّره ، وعمر بن العزيز وإن لم يكن من الصحابة فأكثرُ العامة يرَى له من الفضْل ما يراه لواحدٍ من الصّحابة .

وكيف يجوز أن نحكم حُكما جزْما أنّ كل واحد من الصحابة عدْل ، ومن جملة الصحابة الحكم بنُ أبى العاص ! وكفاك به عدوّا مُبغضا لرسول الله صلّى الله عليه وآله ! ومن الصحابة الوليدُ بنُ عُقْبة الفاسقُ بنصّ الكتاب ، ومنهم حبيب بن مسلَمة الذى فعَل ما فعل بالمسلمين فى دَوْلة معاوية ، وبُسْر بن أبى أرطاة عدوّ الله وعدوّ رسوله ، وفى الصحابة كثيرٌ من المنافقين لا يَعرِفهم الناس . وقال كثيرٌ من المسلمين : مات رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يُعرِّفه الله سبحانه كلّ المنافقين بأعيانهم ، وإنما كان يعرف قوما منهم ، ولم يُعلم بهم أحداً إلا حذيفة فيما زعموا ، فكيف يجوز أن نحكم حُكما جزْما أن كلّ واحد ممّن صَحِب رسول الله أو رآه أو عاصرَه عدْل مأمون ، لا يقع منه خطأ ولا معصية ، ومن الذى يمكنه أن يتحجّر واسعا كهذا التحجّر ، أو يحكم هذا الحكم !

قال : والعجب من الحشويّة وأصحاب الحديث إذ يجادلون على معاصى الأنبياء ، ويثبتون أنهم عصَوا الله تعالى ، وينكرون على من ينكر ذلك ، ويطعنون فيه ، ويقولون : قدَرىّ معتزلى ، وربما قالوا : مُلحِد مخالِف لنص الكتاب ، وقد رأينا منهم الواحد والمائة والألف يجادِل فى هذا الباب ، فتارة يقولون : إنّ يوسف قعد من امرأة العزيز مَقْعد الرّجل من المرأة ، وتارةً يقولون : إن داود قتل أوريا لينكح امرأته ، وتارةً يقولون : إنّ رسول الله كان كافراً ضالّا قبل النّبوة ، وربما ذكروا زينب بنت جَحش وقصّة الفِداء يوم بدر .

فأما قدحُهم فى آدم عليه السلام ، وإثباتُهم معصيته ومناظرتهم مَن يذكر ذلك

فهو دأبُهم ودَيْدَنُهم ، فإذا تكلّمَ واحد فى عمرو بنِ العاص أو فى معاويةَ وأمثالِهما ونَسَبَهم إلى المعصية وفِعْل القبيح ، احمرّت وجوهُهم ، وطالت أعناقُهم ، وتخازَرتْ أعينُهم ، وقالوا : مبتدِع رافضىّ ، يسبّ الصّحابة ، ويَشتمُ السَّلَف ، فإن قالوا : إنّما اتبعْنا فى ذِكر معاصى الأنبياء نصوصَ الكتاب ؛ قيل لهم : فاتّبعوا فى البراءة من جميع العُصاة نصوصَ الكتاب ، فإنه تعالى قال : ﴿ لا تَجِدُ قوماً يُؤْمنون بِاللهِ وَاليومِ الآخرِ يُوادُّونَ مَن حادَّ اللهَ ورَسُولَهُ ﴾[1] ، وقال : ﴿ فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا الّتى تَبغِى حتّى تَفِىءَ إلى أمرِ الله ﴾[2] ، وقال : ﴿ أطيعوا اللهَ وأطيعُوا الرسول وأولِى الأمرِ منكم ﴾[3] .

ثمّ يسألون عن بيعة علىّ عليه السلام : هل هىَ صحيحة لازمة لكلّ الناس ؟ فلا بدّ مِن « بَلَى » ، فيقال لهم : فإذا خَرَج على الإمام الحقّ خارجٌ أليسَ يجب على المسلمين قتالُه حتّى يعودَ إلى الطاعة ؟ فهل يكون هذا القتال إلّا البراءة الّتى نَذكُرها لأنه لا فرق بين الأمرين ، وإنّما برئْنا منهم لأنّا لسنا فى زَمانهم ، فيُمكننا أن نقاتلَ بأيدينا ، فقُصارَى أمرِنا الآن أن نبرأ منهم ونَلعنَهم ، وليكون ذلك عوضاً عن القتال الّذى لا سبيلَ لنا إليه .

قال هذا المتكلّم : على أنّ النَّظّام وأصحابَه ذَهَبوا إلى أنه لا حُجّة فى الإجماع ، وأنه يجوز أن تجتمع الأمّة على الخطأ والمعصية ، وعلى الفِسْق بل على الرِّدّة ، وله كتابٌ موضوع فى الإجماع يَطعَن فيه فى أدلّة الفقهاء ، ويقول : إنّها ألفاظ غيرُ صريحة فى كون الإجماع حجّة ، نحو قوله : ﴿ جعلناكُم أمّة وَسَطا ﴾[4] وقوله : ﴿ كنتمْ خيرَ أمّة ﴾[5] وقوله : ﴿ ويتّبعْ غيرَ سبيلَ المؤمنينَ ﴾[6] .

---

(١) سورة المجادلة ٥ .
(٢) سورة الحجرات ٩ .
(٣) سورة النساء ٥٩ .
(٤) سورة البقرة ١٤٣ .
(٥) سورة آل عمران ١١٠ .
(٦) سورة النساء ١١٥ .

وأما الخبر الذى صورته : « لا تجتمع أمّتى على الخطأ » ، فخبرُ واحد ، وأمثلُ دليل للفقهاء قولهم : إنّ الهمم المختلفة ، والآراء المتباينة ، إذا كان أربابُها كثيرة عظيمة ، فإنّه يستحيل اُجتماعُهم على الخطأ ، وهذا باطل باليهودِ والنّصارى وغيرِهم من فِرَق الضلال.

هذه خلاصةُ ما كان النّقيب أبو جعفر ، عَلّقه بخطّه من الجزء الّذى أقرأناه .

* * *

ونحن نقول : أمّا إجماع المسلمين فحجّـة ، ولسنا نرتضى ماذكره عنّا من أنّه أمثل دليل لنـا أنّ الهِمَم المختلفة ، والآراء المتباينة ، يستحيل أن تتفق على غير الصّواب؛ ومن نَظَر فى كُتُبنا الأصوليّـة علم وثاقَة أدلّتنا على صحّة الإجماع وكونه صوابا ، وحجّـة تحريم مخالفتـه ، وقد تـكلّمتُ فى اعتبار الذّريعـة للمُرتَضى على ماطعَن به المُرتَضى فى أدلّة الإجماع .

وأما ماذكره من الهجوم على دارِ فاطمَة وجَمع الحَطَب لتحريقها فهو خبرُ واحدٍ غير موثوق به ، ولا معوّل عليه فى حقّ الصّحابة ، بل ولا فى حقّ أحد من المسلمين ممن ظهرت عدالتُه .

وأما عائشة والزبير وطلحة فمذهبُنا أنّهم أخطئوا ، ثم تابوا ، وأنّهم من أهل الجنّة ، وأن عليا عليه السلام شهدَ لهم بالجنة بعد حرْب الجَمَل .

وأما طعن الصحابة بعضهم فى بعض ، فإن الخلاف الذى كان بينهم فى مسائل الاجتهاد لا يوجب إثْما ، لأن كل مجتهد مُصيب ، وهـذا أمرٌ مذكور فى كُتُب أصول الفِقْـه وما كان من الخلاف خارجاً عن ذلك فالـكثيرُ من الأخبار الواردة فيه غيرُ موثوقٍ بها وما جاء من جهة صحيحةٍ نظر فيه ورجح جانب أحد الصحابيّين على قَدْر منزلته فى الإسلام كما يُروَى عن عُمر وأبى هريرة .

فأمّا عليّ عليه السلام فإنّه عندنا بمنزلة الرّسول صلّى الله عليه وآله فى تصويب قولِه، والاُحتجاج بِفعله ، ووجوب طاعتِه ؛ ومتى صحّ عنه أنّه قد برئ من أحد من النّاس برئْنا منه كائناً مَن كان ، ولكنّ الشأن فى تصحيح مايُروَى عنه عليه السلام، فقد أكثر الكذب عليه ، وولّدت العصبيّة أحاديثَ لا أصل لها .

فأمّا براءته عليه السلام من المغيرة وعَمرو بن العاص ومعاوية ، فهو عندنا معلوم جارٍ مَجرَى الأخبار المتواتِرة ، فلذلك لا يتولّاهم أصحابُنا ، ولا يُثنُون عليهم ، وهم عند المعتزِلة فى مَقامٍ غيرِ محمود ، وحاشَ لله أن يكون عليه السلام ذَكَرَ مَن سَلَف من شيوخ المهاجرين إلّا بالجميل والذِّكر الحسَن بمُوجب ماتقتضيه رِئاسته فى الدِّين ، وإخلاصُه فى طاعةِ ربّ العالمين ، ومَنْ أحبّ تتبُّع ماروِى عنه ممّا يُوهِم فى الظّاهر خلافَ ذلك فليراجع هذا الكتاب ، أعنى شرْح نهج البلاغة ، فإنا لم نَتْرك موضعاً يُوهِم خلافَ مذهبنا إلّا وأوضحْناه وفسّرناه على وجهٍ يُوافِق الحقّ ، وبالله التوفيق .

***

[عمّار بن ياسر وطرف من أخباره]

فأما عمّار بنُ ياسر رحمه الله ، فنحنُ نذكر نسبه وطَرَفا من حالِه ممّا ذكَرَه ابنُ عبد البرّ فى كتاب الاُستيعاب [1] ، قال أبو عمر بنُ عبدِ البَرّ رحمه الله .

هو عمّار بنُ ياسر بنِ عامرِ بنِ مالك بن كنانةَ بن قيس بن حصين بن لَوذ بن ثَعلبة بن عَوف بن حارثةَ بن عامر بن نام بن عنس ـ بالنون ـ بنِ مالك بن أُدد العَنسى المَذحِجىّ ، يكنَى أبا اليَقْظان ، حليفٌ لبنى مخزوم ، كذا قال ابن شهاب وغيره .

---

(١) الاستيعاب ٤٣٤ وما بعدها (طبعة الهند) .

وقال موسى بن عقبة : وممّن شهد بدْرا عمّار بن ياسر حليفٌ لبنى مخزوم بن يقَظَة .

وقال الواقدىّ وطائفةٌ من أهل العلم : إنّ ياسراً والد عمّار بن ياسر عربىّ قَحْطانىّ من عَنْس ، من مَذْحج ، إلّا أن ابنه عمّارا مولًى لبنى مخزوم ، لأنّ أباه ياسرا تزوّج أمَةً لبعضِ بنى مخزوم فأولدَها عمّارا ، وذلك أنّ ياسرا قَدِم مكّة مع أخوَين له يقال لهما : الحارث ومالك فى طَلَب أخٍ لهم رابع ، فرجع الحارث ومالكٌ إلى اليَمن ، وأقامَ ياسرٌ بمكّة ، فحالَفَ أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ،فزوّجه أبو حذيفة أمةً له يقال لها سُمَيّة بنت خياط ، فولدتْ له عمّارا فأعتقه أبو حذيفة ، فصار ولاؤه لبنى مخزوم ،وللحِلْف والوَلاء الّذى بين بنى مَخْزوم وعمّار بن ياسر كان اُجتماع بنى مخزوم إلى عثمان حين نال من عمّار غِلمانُ عثمانَ مانالوا من الضّرب ، حتّى انفتَق له فَتْق فى بَطْنه وكَسَروا ضِلَعا من أضلاعه ، فاجتمعتْ بنو مخزوم ؛ وقالوا : واللهِ لئن مات لا قتَلْنا به أحداً غيرَ عثمان .

قال أبو عمَر : وأسلمَ عمّار وعبدالله أخوه وياسر أبوهما وسُمَيّة أمُّهما،وكان إسلامُهم قديما فى أوّل الإسلام فعُذِّبوا فى الله عذابا عظيما ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وآله يَمرُّ بهم وهمْ يعذَّبون فيقول : « صبراً يا آلَ ياسِر ، فإن مَوعِدَكم الجنّة » ، ويقول لهم أيضا : « صَبْرا يا آلَ ياسر ، اللّهم اغفرْ لآل ياسر ، وقد فعلت » [٢] .

قال أبو عمر : ولم يزل عمّار مع أبى حُذَيفة بن المغيرة حتّى مات وجاء اللهُ بالإسلام .

فأمّا سُمَيّة فقتَلها أبو جهل ، طعنها بحَرْبة فى قُبُلها فماتت ، وكانت من الخيِّرات

الفاضلات وهي أوّل شهيدةٍ فى الإسلام، وقد كانت قريش أُخذتْ ياسراً وسُمَيّة وابْنَيهما؛ وبلالا وخبّابا وصُهيبا فألبَسوهم أدراعَ الحديد، وصَهروهم فى الشّمس حتّى بلغ الجهدُ منهم كلَّ مَبلَغ، فأعطوهم ماسألوا من الكفر، وسبِّ النبيِّ صلّى الله عليه وآله، ثم جاء إلى كلِّ واحد منهم قومُه بأنطاعِ الأدَم فيها الماء فألقوهم فيها، ثمّ حَملوا بجوانبها، فلمّا كان العشيُّ جاء أبو جهل فجعل يَشتُم سُمَيّة ويرفث، ثمّ وَجأها بحرْبة فى قُبُلها فقتلها؛ فهيَ أوّلُ من استُشهد فى الإسلام، فقال عمّار للنبيّ صلّى الله عليه وآله : يارسولَ الله بلغ العذاب من أمّى كلَّ مبلغ، فقال : « صبراً ياأبا اليَقْظان، اللّهمّ لا تُعذِّب أحدا من آل ياسر بالنّار »، قال أبو عمر : وفيهم أُنزِل : ﴿ إلّا مَنْ أُكرِه وقلبُه مطمئنٌّ بالإيمان ﴾(١).

قال : وهاجَر عمّار إلى أرض الحَبَشة وصلّى القِبلتَين، وشَهِد بدرا والمَشاهدَ كلَّها وأبلَى بلاءً حسنا، ثم شَهِد اليمامة، فأبلى فيها أيضا، ويومئذ قُطِعتْ أذنه .

قال : وذَكَر الواقديّ عن عبد الله بنِ نافع، عن أبيه، عن عبد الله بنِ عمر، قال: رأيتُ عمّارَ بن ياسر يومَ اليَمامة على صَخْرة وقد أشرَف يصيح : يامعشرَ المسلمين، أمِن الجنّة تفرّون ؟ أنا عمّار بنُ ياسر، هلُمّوا إلىّ، وأنا أنظر إلى أُذُنه قد قطعتْ، فهي تذبذَب وهو يقاتِل أشدّ القِتال .

قال أبو عمر : وكان عمّار طويلا أشهَل، بعيدَ مابين المَنكبين، قال : وقد قيل فى صفته : كان آدمَ طُوالاً مضطرباً، أشهَل العينين، بعيد مابين المَنكبين، رجلا لايغيّر شيبَه .

---

(١) سورة النحل ١٠٦ .

قال : وكان عمّار يقول : أنا تِرْبُ[١] رسولِ الله صلّى الله عليه وآله ، لم يكن أحدٌ أقرب إليه سِنًّا منّى .

قال : وقُتِل عمّار وهو ابنُ ثلاثٍ وتسعين سنةً ، والخبرُ المرفوعُ مشهور فى حَقّه : « تقتلُكَ الفئةُ الباغية » ، وهو من دلائل نبوّة رسول الله صلّى الله عليه وآله ، لأنّه إخبارٌ عن غَيْب .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله فى عمّار : « مُلِئَ إيمانا إلى مُشاشِه[٢] » ، ويُروَى : « إلى أخمص قدَمَيه » .

وفضائلُ عمّار كثيرة ، وقد تقدم القولُ فى ذِكر عمّار وأخبارِه ، وما ورد فى حقه .

---

(١) ترب الإنسان : من ولد معه فى العام الذى ولد فيه .
(١) المشاشة : الأصل .

(٤١٤)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

ما أحْسَنَ تَوَاضُعَ الأَغْنِياءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللهِ ، وَأَحْسَنُ مِنْهُ تِيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الأَغْنِيَاءِ اتِّكالاً عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ .

الشرح :

قد تقدَّم شرح مِثل هذه الكلمة مراراً .

* * *

وقال الشاعر :

قنعتُ فأعتقتُ نفسِي ولنْ ... أُملِّكَ ذا ثَرْوَةٍ رِقَّهَا
ونَزَّهتُها عن سُؤالِ الرِّجالْ ... ومِنَّةِ من لا يَرَى حَقَّهَا
وإنّ القَناعةَ كَنزُ اللَّبيب ... إذا ارتَتَقتْ فتقتْ رتقَهَا
سيَبعثُ رِزْقَ الشِّفاهِ الغِراثِ ... وخُمْصِ البطونِ الّذِي شَقَّهَا [1]
فما فارقَتْ مُهجةٌ جِسمَها ... لعَمْرُكَ أو وُفِّيَتْ رِزقَهَا
مواعيدُ ربِّكَ مصدوقةٌ ... إذا غيرُها فَقَدَتْ صِدقَهَا

---

(١) الغراث : الجياع .

(٤١٥)

الأصْلُ:

قال عليهِ السلامُ :

ما اسْتَوْدَعَ اللهُ امْرأً عَقْلاً إلّا لِيَسْتَنْقِذَهُ بِهِ يَوْماً ما .

***

الشَّرْحُ :

لا بدّ أن يكون للبارئ تعالى فى إيداع العقْل قلبَ زيد مثلا غرَض ، ولا غرَض إلا أن يستدلّ به على ما فيه نجاتُه وخلاصُه ، وذلك هو التّكليف ، فإنْ قصّر فى النظر وجَهِل وأخطأ الصّواب فلا بدّ أن يُنقذه عقلُه مِن وَرْطة مِن وَرَطات الدنيا ، وليس يخلوا أحدٌ عن ذلك أصلا ، لأن كلّ عاقل لا بدّ أن يتخلّص من مَضرّةٍ سبيلُها أن تُنَال بإعمال فِكرتِه وعقله فى الخلاص منها ؛ فالحاصل أنّ العقل إمّا أن ينقذ الإنقاذ الدّينى ، وهو الفلاح والنّجاح على الحقيقة ، أو يُنقذ من بعضِ مَهالِكِ الدّنيا وآفاتها ، وعلى كلّ حال فقد صحّ قولُ أميرُ المؤمنين عليه السلام ، وقد رُويتْ هذه الكلمة مرفوعةً ، ورُويتْ : « إلا استنقذه به يوماً ما » .

وعنه صلّى الله عليه وآله : « العقل نورٌ فى القَلب يُفرِّق به بين الحقّ والباطل » .

وعن أنسٍ قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الرّجل يكون حسَنَ العقل كثيرَ الذنوب ، فقال : ما من بشَر إلّا وله ذنوب وخطاياً يقترفها ، فمن كانت سجيّتهُ العَقل ، وغريزَته اليقين ، لم تضرّه ذنوبُه ؛ قيل : كيف ذلك يارسولَ الله ؟ قال :

كلّما أخطأ لم يَلبَثْ أن يتدارَكَ ذلك بتوبةٍ وندامةٍ على مافرط منه ، فيمحو ذُنوبه ، ويَبقَى له فضل يدخُل به الجنّة .

***

[نُـكَت فى مدح العقل وما قيل فيه]

وقد تقدّم من قولنا فى العقل وماذُكر فيه مافيه كفاية؛ ونحن نذكر هاهنا شيئاً آخر: كان يقال : العاقل يُروِّى ثم يَرْوِى ويَخبُرُ ثم يُخبِر .

وقال عبدُ اللهُ بن المعتز : ما أبيَنَ وجوهَ الخير والشّر فى مِرآة العقل !

لقمان : يابنىّ ، شاوِرْ مَن جرَّب الأمور فإنّه يعطيكَ مِن رأيه ماقام عليه بالغلاء وتأخذه أنتَ بالمجّان .

أردشير بن بابك : أربعـة تحتاج إلى أربعـة : الحسَب إلى الأدب ، والسرورُ إلى الأمن ، والقَرابة إلى المودّة ، والعقل إلى التّجربة .

الإسكندر : لا تحتقر الرأىَ الجزيلَ من الحقير ، فإنّ الدُّرّة لا يُستهان بها لِهوان غائصها .

مَسلَمة بنُ عبد الملك : ما ابتدأتُ أمراً قطُّ بحَزْم فرجعتُ على نفسى بلائمة ، وإن كانت العاقبة علىّ ، ولا أضعتُ الحزم فسُررْت وإن كانت العاقبة لى.

وَصَف رجلٌ عضدَ الدّولة بن بُوَيه ، فقال : لو رأيته لرأيتَ رجلا له وجهٌ فيـه ألفُ عَيْن ، وفمٌ فيه ألفُ لسان ، وصدرٌ فيه ألفُ قَلْب .

أَثنَى قومٌ من الصّحابة على رجل عند رسول الله صلّى الله عليه وآله بالصّلاة والعبادة وخصال الخَيْر حتى بالَغوا ، فقال صلّى الله عليه وآله : كيف عقلُه ؟ قالوا : يارسولَ الله

نخبرك باجتهاده فى العبادة وضروب الخير ، وتسألُ عن عَقْله ! فقال : إنّ الأحمق ليصيبُ بحُمْقه أعظم مما يصيبُه الفاجر بفجوره ، وإنما ترتفع العِباد غداً فى درجاتهم ، وينالُون من الزُّلْفى من ربِّهم على قَدْر عُقولهم .

الرَّيْحانىّ : العَقل مَلِك ، والخِصال رعيّته ، فإذا ضَعُف عن القيام عليها ، وَصَل الخلَل إليها . وسَمِع هذا الكلامَ أعرابىّ فقال : هذا كلامٌ يقطُر عسَلُه .

قال مَعنُ بنُ زائدة : مارأيتُ قفَا رجل إلّا عرفتُ عقله ؛ قيل : فإن رأيتَ وجهَه؟ قال : ذا كتابٌ يُقرأ .

بعض الفلاسفة : عقلُ الغريزة مُسلمٌ إلى عَقْلِ التجربة .

بعضُهم : كلّ شىء إذا كَثُر رَخُص إلّا العقل ، فإنّه إذا كَثُر غلا .

قالوا فى قوله تعالى : ﴿ لِيُنذِرَ من كان حيًّا ﴾ [1] ، أى من كان عاقلا .

ومن كلامهم : العاقل بخشونة العَيْش مع العقلاء آنَس منه بِلِين العيش مع السُّفهاء .

أعرابىّ : لو صُوِّر العقلُ أظلمَتْ معه الشّمس ، ولو صُوِّر الحمق لأضاء معه اللّيل .

قيل لحكيم : مَتَى عَقَلْتَ ؟ قال : حين وُلِدتُ ، فأنكرُوا ذلك ، فقال : أمّا أنا فقد بكَيت حين جُعْت ، وطلبتُ الثّدْىَ حين احتجْتُ ، وسَكَتُّ حين أُعطِيت ؛ يريد أنّ من عرَف مقاديرَ حاجتِه فهو عاقل.

المأمون: إذا أنكرتَ مِن عقلِك شيئاً فاقدَحْه بعاقِل.

بُزُرجُمهر : العاقل الحازم إذا أشكَل عليه الرأىُ بمنزلة من أضلَّ لؤلؤةً فجمَع ماحولَ مسقطها من التُّراب ، ثم التَمَسها حتّى وَجَدها ، وكذلك العاقلُ يجمَع وجوهَ

(١) سورة يس ٧٠ .

الرَّأى فى الأمر المُشكِل ، ثم يَضرِب بعضَها فى بعض حتّى يَستخلِص الرأى الأصوَب .

كان يقال : هجينٌ عاقلٌ خيرٌ من هِجان جاهِل .

كان بعضهم إذا استُشير قال لمشاوِرِه : أنظرنى حتّى أصقُلَ عقلى بنَوْمة .

إذا نزلت المقادير ، نزلت التدابير . من نَظَر فى المَغَابّ ، ظَفِر بالمحابّ . من استدّت عزائمِه اشتدّت دعائمه . الرأىُ السّديد ، أجْدى من الأيْد الشّديد .

بعضُهم :

وما ألف مَطْرُور السِّنان مشدّد   يُعارِض يوم الرّوع رأياً مسدَّدا

أبو الطَّيِّب :

الرأىُ قبل شَجاعةِ الشّجعان   هو أوّلٌ وهْىَ المحلّ الثانى (١)

فـإذا هما اجتمعا لنفسٍ حُرَّةٍ   بَلغتْ مِن العَليـاء كلَّ مكانِ

ولرّبما طَعَن الفـتَى أقرانَه   بالرأى قبـل تطاعُن الأقرانِ

لولا العقولُ لـكان أدْنَى ضَيْغَمٍ   أدنى إلى شرَفٍ من الإنسانِ

ولمَا تفاضَلَت النفوسُ ودبَّرَتْ   أيدى الـكُماة عَوالىَ المُرّانِ

ذَكر المأمونُ وَلدَ علىٍّ عليه السلام ، فقال : خُصّوا بتدبير الآخرة ، وحُرِموا تدبيرَ الدنيا .

كان يقال : إذا كان الهوى مقهورا تحت يَدِ العقل ، والعَقْل مسلّط عليه ، صُرِفتْ مَساوِئُ صاحبه إلى المحاسن ، فعُدّت بلادتُه حلما ، وحِدّته ذَكاء ، وحَذَره بلاغة، وعِيُّه صَمْتا ، وجُبْنه حَذَرا ، وإسرافُه جُودا .

---

(١) ديوانه ٤ : ٣٨٦ .

وذكر هذا الكلام عند بعضهم فقال : هـذه خِصِّيصة الخطِّ نقلها مرتِّب هـذا الكلام إلى العقل .

سمع مُحمد بنُ يَزْداد كاتبُ المأمون قولَ الشاعر :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ فإنَّ فسادَ الرأى أن تَتردّدا

فأضاف إليه :

وإن كنتَ ذا عزمٍ فأنفِذه عاجلاً فإنَّ فساد العَزْمِ أن يتفنَّدا

(٤١٦)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنْ صارَعَ الحقَّ صَرَعَهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا مِثْلُ قوله فى موضع آخر : مَنْ أبدى صفحته للحقّ هلك ، ونحو هذا قولُ الطائىّ :

وَمَن قامَرَ الأيّامَ عن ثَمَراتِها　　فأَحْجِ بِها أن تَنْجلى وَلها القَمْرُ

(٤١٧)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الْقَلْبُ مُصْحَفُ الْبَصَر .

***

الشَّرْحُ :

هذا مِثلُ قولِ الشاعر :

تخبرني العينان ما القلبُ كاتمٌ   وما جنّ بالبَغْضاء والنَّظَر الشَّزْرِ (١)

يقول عليه السلام : كما أنّ الإنسان إذا نظر فى المصحَف قرأ ما فيه ، كذلك إذا أبصر الإنسانُ صاحبَه فإنه يرَى قلبه بوساطة رؤية وجهه ، ثم يعلم ما فى قلبه من حُبّ وبُغْض وغيرهما ، كما يعلم برؤية الخطّ الذى فى المصحف ما يدلّ الخطّ عليه .

وقال الشاعر :

إنّ العيونَ لَتُبدِى فى تقلُّبها   ما فى الضمائر من وُدٍّ ومِنْ حَنَقِ (٢)

---

(١) يقال : نظر إليه شزراً : إذا نظر بمؤخر عينيه .   (٢) الحنق : البغض .

(٤١٥)

الأَصْلُ :

وقالَ له عليهِ السلامُ :

التُّقَى رَئِيسُ الأَخْلاقِ .

***

الشَّرْح :

يعنى رئيس الأخلاق الدينيّة ، لأنّ الأخلاق الحميدةَ كالجود والشجاعة والحلم والعفّة وغير ذلك ، لو قدَّرْنا انتفاء التكاليف العقلية والشرعيّة ، لم يكن التُّقى رئيساً لها، وإنما رياسة التُّقى لها مع ثُبوت التكليف ، لا سيما الشرعىّ . والتّقى فى الشّرع هو الوَرَع والخوْفُ من الله ، وإذا حصل حصلت الطاعات كلها ، وانتفت القبائح كلها ؛ فصار الإنسان معصوما ، وتلك طبقة عالية ، وهى أشرف من جميع الطّبقات التى يُمدح بها الإنسان ، نحو قولنا : جَوادٌ أو شُجاع أو نحوهما ، لأنّهما طبقة ينتقل الإنسانُ منها إلى الجنّة ودار الثوات الدائم ، وهذه مزيّة عظيمةٌ يَفضُل بها على سائر طبقات الأخلاق .

(٤١٩)

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام :

لَا تَجْعَلَنَّ ذَرَبَ لِسَانِكَ عَلَى مَنْ أَنْطَقَكَ ، وَبَلاَغَةَ قَوْلِكَ عَلَى مَنْ سَدَّدَكَ .

***

الشَّرْحُ :

يقول : لا شُبهةَ أنّ الله تعالى هو الّذى أنطقك ، وسدّد لفظك ، وعلّمك البيان كما قال سبحانه: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ * علّمه البيان﴾[1] ،فقبيحٌ أن يجعل الإنسانُ ذَرَب لسانِه وفصاحةَ منطِقه على من أنطقَه وأقدرَه على العبادة ، وقبيحٌ أن يجعَل الإنسانُ بلاغة قوله على من سدّد قولَه ، وجعلَه بليغا حسَنَ التعبير عن المعانى التى فى نفسه ، وهذا كمن يُنعِم على إنسانٍ بسيفٍ فإنّه يَقبُح منه أن يَقتله بذلك السّيف ظُلماً قبحا زائدا على مالَوْ قتله بغير ذلك السّيف ، وما أحسَنَ قول المتنبّى فى سَيف الدولة :

ولمّا كَسا كعباً ثيابا طَغَوْا بهـــا ... رَمَى كلَّ ثوب من سِنان بخارقِ[2]
ومايُوجِـع الحِرْمانُ من كَفِّ حازِم ... كما يُوجِـع الحرمانُ من كفِّ رازِقِ

---

(١) سورة الرحمن ٣ ، ٤ .

(٢) ديوانه ٢ : ٣٢٢ .

(٤٢٠)

الأصل

وقال عليه السلام :

كَفَاكَ أَدَباً لِنفسِكَ اجْتِنابُ ما تَكْرَهُهُ مِنْ غَيْرِكَ .

***

الشرح :

قد قال عليه السلام هذا اللفظ أو نحوَه مرارا ، وقد تكلّمنا نحنُ عليه ، وذكرْنا نظائرَ له كثيرة نَثْرا ونَظْما .

وكَتَب بعضُ الكُتّاب إلى بعض الملوك فى حالٍ اقتضَتْ ذلك :

ماعَلَى ذا افترَقْنا بِشَبْذَانَ[1] إذْ كُنّا ولا هكذا عَهِدْنا الإخاء

تَضرب الناسَ بالمهنّدة البِيضِ على غدرِهم وتَنْسَى الوَفاء[2]

(١) كذا فى د ؛ وهو الصواب والذى فى « ابشبذر » ، وهو تصحيف .

(٢) المهندة : السيوف .

(٤٢١)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ يعزِّى قوْما :

منْ صبرَ صَبْرَ الأحْرارِ ، وإلّا سلَا سُلُوَّ الأغمارِ .

وفى خَبرٍ آخَرَ أنَّهُ عليهِ السلامُ قالَ لِلأشْعَثِ بْنِ قيسٍ مُعَزِّياً عن ابْنٍ لَهُ : إن صَبَرْتَ صَبْرَ الأكارِمِ ، وإلّا سلوْتَ سُلوَّ الْبَهائِمِ .

***

الشرح :

أخذ هذا المعنى أبو تمّام بل حكاه فقال :

وقال علىٌّ فى التّعازى لأشعثٍ وخافَ عليه بعضَ تلك المآثِمِ [1]
أتصبرُ للبَلوى عَزاءً وحِسْبةً فتؤجَرَ أم تسلو سُلُوَّ البهـائمِ !

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

(٤٢٢)

الأصْلُ

وقالَ عليهِ السلامُ فى صِفةِ الدُّنْيا :

الدُّنْيـا تَغُرُّ وتَضُرُّ وَتَمُرُّ ؛ إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَرْضَها ثَوَاباً لأوْليـائهِ ، ولا عِقاباً لأعْدائهِ .

الشَّرْحُ :

قد تقدّم لنا كلام طويل فى ذم الدنيا .

ومن الكلام المستحسَن قولُه : « تَغُرُّ وتَضُرُّ وتَمُرّ » ، والكلمة الثانيةُ أحسن وأجمل .

وقرأتُ فى بعض الآثار أن عيسى عليهِ السلام مرّ بقريةٍ وإذا أهلها مَوْتَى فى الطّرُق والأفْنِية ، فقال للتلامذة : إنّ هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافَنوا ، فقالوا يا سيّدَنا ، ودِدْنا أنا عَلِمْنا خبرَهم ، فسأَل اللهَ تعالى ، فقال له : إذا كان الليلُ فنادِهم يجيبوك ؛ فلما كان اللّيلُ أشرَف على نَشزٍ ثمّ ناداهم ، فأجابه مجيب ، فقال : ما حالُكم ، وما قصّتُكم ؟ فقال : بتْنا فى عافية ، وأصبَحْنا فى الهاوية ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لحبّنا الدنيا ، قال : كيف كان حبّكم لها ؟ قال : حبّ الصبيّ لأمه ، إذا أقبلتْ فَرِحَ بها ، وإذا أدبرتْ حَزِن عليها وبَكَى ، قال : فما بالُ أصحابك لم يجيبونى ؟ قال : لأنهم ملجَمون بلُجُمٍ من نارٍ بأيدى ملائكةٍ غِلاظٍ شِداد ؛ قال : فكيف أجبتَنى أنتَ مِن بينهم ؟ قال : لأنى كنتُ فيهم ، ولم أكن منهم ، فلمّا نزل بهم العذابُ أصابنى معهم ، فأنا معلّق على شَفِيرِ جهنّم لا أدرِى أنجو منها أُكَبْكب فيها ؟ فقال المسِيح لتلامذته : لأَكْلُ خُبزِ الشَّعير بالملح الجَريشِ ولبْس المُسُوح والنّوم على المزابل وسِباخِ الأرض فى حرّ الصيف ، كثيرٌ مع العافية مِن عذاب الآخرة .

(٤٢٣)

الأَصْلُ :

وَإِنَّ أهلَ الدُّنيا كَرَكْبٍ ، بَيْناهمْ حَلُّوا إذْ صاحَ بِهِمْ سائِقُهُمْ فارْتحلُوا .

***

الشَّرْحُ :

رُوِي : « بيناهُم حُلُول » ، وبينا هي بَيْن نفسها ، ووزنها « فَعْلى » ، أُشبعت فَتحةُ النون فصارت ألفا ؛ ثمّ قالوا : « بينما » فزادوا « ما » ، والمعنى واحد ، تقول : بينا نحن نفعل كذا جاء زيد ، أي بين أوقاتِ فِعلِنا كذا جاء زيدٌ ، والجملُ قد يضافُ إليها أسماء الزمان نحو قولهم : « أتيتك زَمَن الحجّاج أمير » ، ثمّ حذفوا المضافَ الّذي هو أوقات ، وَولِيَ الظّرف الذى هو بين الجملة الّتى أقيمتْ مَقام المحذوف .

وكان الأصمعيّ يخفِض بعدَ « بينا » إذا صَلَح فى موضعه « بيَن » ، ويُنشِد قول أبي ذُؤيب بالكسر :

بَينا تعنُّقِه الكُماة ورَوْغِه يوما أُتِيحَ له جَرِيءٌ سَلْفَعُ

وغيرُه يرْفَع ما بعد « بَيْنا » و « بينما » على الابتداء والخبر ، فأمّا إذْ وإذا فإنّ أكثر أهل العربية يمنعون من مَجِيئهما بعد بَيْنا وبينما ، ومنهم من يُجِيزه ، وعليه جاء كلامُ أمير المؤمنين ، وأنشدوا :

بينما النّاسُ على عَلْيائِها إذ هوَوْا فى هُوّةٍ منها فغارُوا

وقالت الُحرَقة بنتُ النُّعمان بن المنذر :

وبَيْنا نسوسُ النّاسَ والأمرُ أمرُنا إذَا نحنُ فيهمْ سُوقةٌ نتنصَّفُ (١)

وقال الشاعر :

استَقدرِ اللهَ خيراً وارضَيَنّ به فبينما العُسْر إذ دارتْ مَياسِيرُ

وبَينما المرء فى الأحيــاء مُغْتبِطٌ إذ صارَ فى اللّحْدِ تَعفُوه الأعاصِيرُ

وممّا جاء فى وصف الدّنيا ممّا يناسب كلامَ أمير المؤمنِين قولُ أبى العَتاهية :

إنّ داراً نحن فيها لدارُ ليس فيهــا لمقيم قَرارُ

كم وكمْ قد حلّهــا من أناسٍ ذَهبَ اللّيلُ بِهمْ والنّهــارُ

فهُمُ الرَّكْب قد أصابوا مَناخاً فاستراحوا ساعةً ثم ساروا

وكذا الدّنيا على مارَأيْنــا يَذهَب الناسُ وتخلُو الدّيارُ

---

(١) فى الأصل « نتصف » وهو غير مستقيم ، والصواب ما أثبتنا .

(٤٢٤)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لابنهِ الحسن عليهِ السلامُ:

يا بُنَيَّ ؛ لَا تُخَلِّفَنَّ وَرَاءَكَ شَيْئاً مِنَ الدُّنيا فَإِنَّكَ تُخَلِّفُهُ لِأَحدِ رَجُلَيْنِ : إِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ ، وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ فِيهِ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ ؛ فَكُنْتَ عَوْناً لَهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ؛ وَلَيْسَ أَحَدُ هذَيْنِ حَقِيقاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ .

وَيُرْوَى هذَا الكلامُ على وجهٍ آخرَ ، وهو :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ الَّذِي فِي يَدَيْكَ مِنَ الدُّنيا قَدْ كَانَ لَهُ أَهْلٌ قَبْلَكَ ، وَهُوَ صَائِرٌ إِلَى أَهْلٍ بَعْدَكَ ، وَإِنَّمَا أَنْتَ جَامِعٌ لِأَحَدِ رَجُلَيْنِ : رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِطَاعَةِ اللهِ فَسَعِدَ بِمَا شَقِيتَ بِهِ ، أَوْ رَجُلٍ عَمِلَ فِيمَا جَمَعْتَهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ فَشَقِيَ بِمَا جَمَعْتَ لَهُ ؛ وَلَيْسَ أَحَدُ هذَيْنِ أَهْلاً أَنْ تُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِكَ ، أَوْ تَحْمِلَ لَهُ عَلَى ظَهْرِكَ ؛ فَارْجُ لِمَنْ مَضَى رَحْمَةَ اللهِ ، وَلِمَنْ بَقِيَ رِزْقَ اللهِ تعالَى.

***

الشّرحُ :

رُوِى : « فإنّكَ لا تُخلِّفه إلّا لأحدِ رجلين »، وهذا الفصل نَهىٌ عن الادّخار،وقد سَبَق لنا فيه كلامٌ مُقنع .

وخلاصةُ هذا الفصلِ أنك إنْ خلّفت مالا ؛ فإمّا أن تخلّفه لمن يَعمل فيه بطاعة الله ، أو لِمن يعمَل فيه بمعصيته ، فالأوّل يَسعَد بما شَقيتَ به أنتَ ، والثانى يكون مُعاناً

منك على المَعْصية بما تركتَه له من المال ، وكلا الأمرينِ مذموم ، وإنّما قال له : « فارْجُ لمن مضى رحمةَ الله ، ولمن بَقِىَ رزقَ الله » ،لأنّه قال فى أوّل الكلام: « قد كان لهذا المال أهلٌ قَبْلَك ، وهو صائرٌ إلى أهلٍ بَعدك » .

والكلامُ فى ذَمِّ الادّخار والجمعِ كثيرٌ ، وللشّعراء فيه مذاهبُ واسعة ومَعانٍ حَسَنة.

وقال بعضهم :

ياجامعاً مانعاً والدّهرُ يرمُقُه … مدبِّرًا أىَّ باب عنه يُغْلِقُهُ
وناسياً كيف تأتيه منيّتُه … أغادِيًا أم بها يَسرِى فتَطرُقه
جمعتَ مالًا فقل لى هل جمعتَ له … ياجامعَ المالِ أيّاما تفرّقُهُ
المالُ عندك مخزونٌ لوارثهِ … ما المالُ مالُكَ إلّا يومَ تُنفِقُهُ
أرْفِه ببالِ فتًى يَغدو على ثقةٍ … أنّ الذى قَسم الأرزاقَ يرْزُقُهُ
فالعِرْض منه مَصونٌ لا يُدنّسُه … والوجهُ منه جديدٌ ليس يُخْلِقه
إنّ القناعةَ من يَحلُلْ بساحتِها … لَم يَلْقَ فى ظِلّها همًّا يؤرّقُه

(٤٢٥)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ لقائلٍ قالَ بحضرَتهِ أستغفرُ الله : ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! أتدرِي مَا الاستِغْفَارُ؟ إنَّ للاستِغْفَارِ درَجةَ العِلِّيِّينَ ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعانٍ : أوَّلُهَا النَّدمُ عَلَى مامَضَى ، وَالثَّانِي العَزْمُ عَلَى تَرْكِ العَوْدِ إلَيْهِ أبَداً ، وَالثَّالِثُ أنْ تُؤدِّيَ إلَى المَخْلُوقِينَ حُقوقَهُمْ حتَّى تَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجلَّ أمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ ، وَالرَّابِعُ أنْ تَعمِدَ إلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا ، والخامِسُ أنْ تَعمِدَ إلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتذِيبَهُ بالأحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الجِلْدَ بالعَظْمِ ، وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ ، السَّادِسُ أنْ تُذِيقَ الجِسْمَ ألَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أذَقْتَهُ حَلاوَةَ المَعْصِيَةِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ : أسْتَغْفِرُ اللهَ .

***

الشَّرْحُ :

قد رُوِي : «إنَّ الاستغفارَ درجةُ العليِّين»،فيكون على تقدير حَذْف مضاف،أى أنّ دَرَجة الاستغفار درجة العِلِّيِّين ، وعلى الرواية الأولى يكون على تقدير حَذْف مضاف ، أى أن لصاحب الاستغفار دَرَجة العليِّين.وهو هاهنا جمعٌ على «فِعِّيل» كضِلِّيل وخِمِّير، تقول : هذا رجلٌ عِلِّيٌّ ؛ أى كثيرُ العلوّ ، ومنه العلِّيَّة للغرْفة على إحدى اللّغتين،ولايجوز أن يفسَّر بما فسَّر به الراونديّ من قوله:إنه اسمُ السماء السابعة ، ونحو قوله:« هو سِدْرة المنتهى »،ونحو قوله : « هو موضعٌ تحت قائمة العرْش اليمنى » ؛ لأنه لو كان كذلك لكان

عَلَما ، فلم تدخُله اللّام . كما لا يقال : « الجُهَنّم » ، وكذلك أيضا لا يجوز تفسيرُه بما فسّره الراوندىّ أيضا ؛ قال: العليّين ، جمع علىّ: الأمكنة فى السماء ، لأنه لو كان كذلك لم يُجمع بالنون لأنها تختصّ بمن يَعقل ، وتصلح أن تكون الوجوه الأولى تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ كلاّ إنّ كتاب الأبرار لفى عِلّيِّين ﴾ [1] .

قوله : « نَبَت على السُّحْت » ، أى على الحرام ؛ يقال: سُحْت ، بالتسكين ، وسُحُت بالضم ، وأسحَتَ الرجُل فى تجارتِه ؛ أى اكتَسَب السُّحْت .

***

[فصل فى الاستغفار والتوبة]

وينبغى أن نذكر فى هذا الموضوع كلاماً مختصرا مما يقوله أصحابُنا فى التوبة ؛ فإنّ كلام أميرِ المؤمنين هو الأصل الذى أخَذَ منه أصحابُنا مَقالتهم ، والذى يقولونه فى التوبة، فقد أتى على جوامِعه عليه السلام فى هذا الفصل على اختصاره .

قال أصحابنا : الكلام فى التوبة يقع من وجوه : منها الكلامُ فى ماهية التوبة والكلام فى إسقاطِها الذّمّ والعقاب ، والكلام فى أنه يجب علينا فِعلُها ، والكلام فى شُرُطها .

أما ماهيّة التوبة فهى النّدم والعزْم ، لأنّ التوبة هى الإنابة والرّجوع ، وليس يمكن أن يرجع الإنسانُ عمّا فعله إلا بالنّدم عليه ، والعزم على تَرْك معاودته ، ومايتوب الإنسان منه ؛ إمّا أن يكون فعلا قبيحاً ، وإما أن يكون إخلالاً بواجب ، فالتوبة من الفعل القبيح هى أن يَندَم عليه ، ويَعزِم ألّا يعود إلى مِثله ، وعَزمُه على ذلك هو كراهيته لفِعله ، والتوبةُ من الإخلال بالواجب هى أن يَندَم على إخلاله بالواجب

---

(١) المطففين : ١٨ .

ويَعزم على أداء الواجب فيما بعد .

فأما القول فى أن التوبة تُسقِط العذاب فعندنا أن العقل يقتضى قُبْح العقاب بعد التوبة ، وخالف أكثرُ المُرجئة فى ذلك من الإمامية وغيرهم ؛ واحتجّ أصحابُنا بقُبح عقوبة المسىء إلينا بعد ندمِه واعتذارِه وتنصُّله ، والعلم بصدقه والعلم بأنّه عازمٌ على ألاّ يعود .

فأما القول فى وجوب التوبة على العُصاة ؛ فلا ريب أنّ الشرع يوجب ذلك ، فأمّا العقل فالقول فيه أنه لا يخلو المكلَّف إما أن يَعلم أن معصيته كبيرة ، أو يعلم أنها صغيرة ، أو يجوز فيها كلا الأمرين ، فإن عَلم كونها كبيرة وَجب عليه فى العقول التوبة منها ، لأن التوبة مُزيلة لضَرَر الكبيرة ، وإزالة المضارّ واجبة فى العقول ، وإن جوّز كونها كبيرة وجوّز كونها صغيرة ، لزمه أيضا فى العقل التوبة منها ، لأنه يأمن بالتوبة من مَضَرّة مخوفة ، وفعل ما يؤمن من المضارّ المخوفة واجب ، وإن علم أنّ معصيته صغيرة ؛ وذلك كمعاصى الأنبياء ، وكمن عصى ثمّ علم بإخبار نبىّ أنّ معصيته صغيرة محبطة ، فقد قال الشيخ أبو علىّ : إنّ التوبة منها واجبة فى العقول ، لأنه إن لم يتب كان مُصِرًّا والإصرار قبيح .

وقال الشيخ أبو هاشم : لا تجب التوبة منها فى العقل بالشرع ، لأنّ فيها مصلحة يعلمها الله تعالى ، قال : إنه يجوز أن يخلو الإنسان من التوبة عن الذنب ، ومن الإصرار عليه ، لأنّ الإصرار عليه هو العزم على مُعاوَدة مِثله ، والتوبة منه أن يَكره معاودة مثله مع الندم على ما مضى ، ويجوز أن يخلوَ الإنسانُ من العَزْم على الشىء ، ومن كراهته .

ومال شيخنا أبو الحسين رحمه الله إلى وجوب التوبة هاهنا عَقْلا ، لدليلٍ غيرِ دليل أبى علىّ رحمه الله .

فأما القولُ فى صفات التَّوبة وشروطها فإنها على ضربين :

أحدُهما يعمّ[1] كلَّ توبة ، والآخر يختلف بحَسَب اختلاف ما يتاب منه ، فالأول هو النّدم والعزْم على تركِ المعاوَدة .

وأما الضرب الثانى ؛ فهو أنّ ما يَتُوب منه المكلَّف إما أن يكون فِعْلا أو إخلالا بواجب ؛ فإن كان فعلا قبيحا وَجَب عند الشيخ أبى هاشم رحمه الله أن يندم عليه ، لأنه فعل قبيح ، وأن يكره مُعاوَدة مثله لأنه قبيح ، وإن كان إخلالا بواجب وَجَبَ عليه عنده أن يَندم عليه ، لأنه إخلالٌ بواجب ، وأن يعزم على فعل مِثلِ ما أخَلَّ به لأنه واجب ؛ فإن نَدِم خوف النار فقط ، أو شوقا إلى الجنة فقط ، أو لأنّ القبيح الذى فعله يضرّ ببدنه كانت توبته صحيحة[2] ، وإن ندم على القبيح لقُبْحِهِ ولخوف النار ، وكان لو انفرد قبحه ندِم عليه ، فإنّ توبته تكون صحيحةً ، وإن كان لو انفرد القبحُ لم يَندَم عليه ؛ فإنه لا تكون تَوبتُه صحيحةً عنده ، والخلاف فيه مع الشيخ أبى علىّ وغيره من الشيوخ رحمهم الله ؛ وإنما اختار أبو هاشم هذا القول لأنّ التوبة تَجرِى مَجرَى الاعتذار بيننا ؛ ومعلوم أن الواحد منّا لو أساء إلى غيره ثمّ نَدِم على إساءته إليه واعتذر منها خوفا من معاقبته له عليها ، أَوْ من معاقبة السلطان حتى لو أمن العقوبة ، لما اعتذر ولا نَدِم ، بل كان يُواصِل الإساءة ، فإنه لا يسقط ذمُّه ، فكذلك التّوبة خوف النار لا لِقُبح الفعل .

وقد نقل قاضى القُضاة هذا المذهب عن أمير المؤمنين عليه السلام والحسن البَصْرىّ وعلىّ بن موسى الرِّضا والقاسم بن إبراهيم الزَّينبىّ .

قال أصحابُنا : وللتوبة شروط أُخَرُ تختلِف بحَسَب اختلاف المعاصى ، وذلك أنّ

---

(١) د : « يغمر » .

(٢) فى ب : «توبة كانت صحيحة» . . وصوابه من : د ، ا .

ما يتوب منه المكلّف ؛ إما أن يكون فيه لآدمىّ حَقٌّ أولا حقَّ فيه لآدمىّ ، فما ليس للآدمىّ فيه حقّ فنحو تَرْكِ الصّلاة ، فإنّه لا يجب فيه إلا النّدم والعزْم على ما قدّمنا وما لآدمىٍّ فيه حقٌّ على ضربين : أحدُهما أن يكون جنايةً عليه فى نفسِه أو أعضائه أو مالِه أو دِينِه ، والآخَر ألا يكون جِنايةً عليه فى شىء من ذلك ، فما كان جنايةً عليه فى نفسِه أو أعضائِه أو مالِه ، فالواجبُ فيه النّدَم والعزْم ، وأن يَشرع فى تسليم بدل ما أتْلَف ، فإن لم يتمكّن من ذلك لِفقرٍ أو غيره عَزَم على ذلك إذا تمكّن منه ، فإنْ مات قبلَ التمكّن لم يكن من أهل العِقاب ، وإن جَنَى عليه فى دينه بأن يكون قد أضلّه بشُبْهة أستزَلّه بها ؛ فالواجبُ عليه مع النّدم العزْم والاُجتهاد فى حَلِّ شبهتِه من نفسه ، فإن لم يتمكّن من الاجتماع به عزم على ذلك إذا تمكّن ، فإنْ ماتَ قبلَ التمكن ، أو تمكن منه وأجتَهَد فى حلّ الشبهة فلم تنحَلّ من نفس ذلك الضالّ ، فلا عقابَ عليه ؛ لأنه قد أستفْرَغ جهدَه ؛ فإن كانت المعصية غيرَ جناية نحو أن يَغتابه أو يَسمع غيبتَه فإنه يلزَمه النّدم والعزْم ، ولا يلزَمه أن يستحلّه أو يعتذرَ إليه ، لأنه ليس يلزمه أرْشٌ[1] لمن أغتابه فيستحلّه ، ليَسقُط عنه الأرْشُ ، ولا غَمّه فيزيل غمّه بالاُعتذار ، وفى ذكر الغِيبَة له ليستحِلّه فيزيل غمّه منها إدخالُ غمٍّ عليه ، فلم يجُزْ ذلك ، فإن كان قد أسمَع المغتابَ غيبتَه فذلك جِنايةٌ عليه ، لأنّه قد أوصَل إليه مضَرّة الغمّ ، فيلزَمه إزالة ذلك بالاُعتذار .

---

(١) الأرش : دية الجراحات ؛ وقيل هو الجراحات نفسها تكون على قدر معلوم .

(٤٢٦)

الأصْـلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ : الحِلْمُ عَشِيرَةٌ .

* * *

الشّـرح :

كان يقال : الحلم جنودٌ مجنَّدة لاأرزاقَ لها .

وقال عليه السلام : وجدتُ الأُحتمالَ أنصرَ لى من الرّجال .

وقال الشاعر :

وَلَلْـكَفُّ عن شَتْمِ اللئيم تـكرُّماً أضَرُّ له من شَتْمه حـين يشتم

وكان يقال : مَن غَرَس شجرةَ الحِلْم ، اجتنَى ثَمرَةَ[1] السِّلْم .

وقد تقدّم من القول فى الحِلْم مافيه كفاية .

---

(١) فى ب « شجرة » وهو تصحيف .

(٤٢٧)

الأصلُ :

وقال عليه السلام :

مِسْكِينُ ابْنُ آدَمَ ! مَكْتُومُ الْأَجَلِ ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ ، وَتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ ، وَتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ .

***

الشرحُ :

قد تقدّم هاهنا خبر المبتدأ عليه ، والتقدير : «ابنُ آدم مِسكين» ، ثمّ بيّن مَسْكَنَتَه من أين هى ؟ فقال : إنّها من سِتّة أوجُه : أجلُه مكتوم لا يدرِى مَتَى يُخترَم ، وعِلَله باطنة لا يدرِى بها حتّى تَهيجَ عليه ، وعَملُه محفوظ ؛ ﴿ مَالِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾[1] ، وقَرْص البَقّة يؤلمه ، والشَّرْقة بالماء تَقتُله ، وإذا عَرِق أنتنتْه العَرْقة الواحدة وغيّرتْ رِيحَه ؛ فمن هو على هذه الصّفات فهو مسكين لا محالة ، لا ينبغى أن يأمن ولا أن يَفْخَر .

---

(١) سورة الكهف ٤٩ .

(٤٢٨)

الأَصْلُ :

وَيُرْوَى أنهُ عليهِ السلامُ كَانَ جالساً فى أصحابهِ إذ مرَّتْ بهمُ امرأَةٌ جَمِيلَةٌ فرَمَقها القومُ بأبصارِهم ، فقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أبْصارَ هَذهِ الفُحُولِ طَوامحُ ، وَإنَّ ذَلكَ سَببُ هِبابِهَا ؛ فَإذا نَظَرَ أحدُكُمْ إلى امْرَأَةٍ تُعْجِبُهُ فَلْيُلامِسْ أَهْلَهُ ، فَإنَّمَا هِيَ امْرَأَةٌ كامْرَأَتِهِ .

فقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْخَوارِجِ : قَاتَلَهُ اللهُ كَافِراً ، ما أَفْقَهَهُ !

قَالَ : فوَثَبَ الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ ؛ فقَالَ عليه السلامُ :

رُوَيْداً ، إنَّمَا هُوَ سَبٌّ بِسَبٍّ ، أَوْ عَفْوٌ عَنْ ذَنْبٍ .

***

الشَّرْحُ :

تقول : هَبَّ الفَحْل والتَّيْسَ يهِبّ بالكَسْر هَبيبا أو هبابا ؛ إذا هاجَ للضِّراب أو للسِّفاد ، والهباب أيضا : صَوتٌ ، والتَّيْسُ إذا هبّ فهو مِهْباب ؛ وقد هَبْهبته ، أى دعوتُه لينزُوَ (١) فتهبهب ؛ أى تزعْزَع .

وسَألنى صديقُنا علىُّ بن البِطْريق عن هذه القِصّة فقال : ماباله عَفَا عن الخارجىّ وقد طَعَن فيه بالكفر ، وأنكر على الأشعث قوله : « هذه عليكَ لا لَكَ » ، فقال :

---

(١) نزا : وثب .

مايُدْريك عليكَ لعنةُ الله ماعليّ مما لى ! حائك ابن حائك ، منافق ابن كافر ! وما وَاجَهَه به الخارجيّ أفظَع مما واجَهَه الأشعث ! فقلتُ : لا أدرى .

قال : لأنّ كلّ صاحب فضيلة يعظُم عليه أن يُطعَن فى فضيلته تلك ، ويُدَّعى عليه أنه فيها ناقص ، وكان علىٌّ عليه السلام بيت العلم ، فلمّا طعن فيه الأشعث طعن بأنّك لا تدْرى ماعليك مما لك ، فشَقّ ذلك عليــه ، وامتَعَض منــه ، وَجَبَهه ولعَنَه ؛ وأمّا الخارجى فلم يَطعَن فى عِلمه ، بل أثبتَه له ، واعترَف به ، وتعجّب منــه ، فقال : « قاتَـلَه الله كافراً ما أفقهَه ! » ، فاغتَفَر له لفظةَ « كافر » بما اعترف له به من علوّ طَبَقته فى الفقْه ، ولم يَخشُن عليه خُشونته على الأشعث ، وكان قد مَرَنَ على سَماع قول الخوارج : أنت كافر ، وقد كفرتَ ، يَعنُون التّحكيم ، فلم يَحفِل بتلك اللّفظة ونَهى أصحابَه عن قتلِه محافظة ورعايةً له على مامَدَحه به .

(٤٢٩)

الأصل

وقالَ عليهِ السلامُ :

كَفاكَ مِنْ عَقْلِكَ ، ما أَوْضَحَ لكَ سُبُلَ غَيِّكَ مِنْ رُشْدِكَ .

* * *

الشرح :

يقول عليه السلام : كفى الإنسان من عِقْله ما يَفرِقُ به بين الغيّ والرّشاد ، وبين الحقّ من العقائد والباطل ، فإنّه بذلك يتمّ تكليفه ، ولا حاجةَ فى التّكليف ، والفرْق بين الغَيّ والرُّشْد إلى زيادة على ذلك ، نحو التجارب التى تُفيده الحزْم التامّ ، ومعرفة أحوالِ الدّنيا وَأهلِها ، وأيضا لا حاجةَ له إلى أن يكون عندَه من الفِطْنة الثّاقبة والذّكاء التّام ما يَستنبِط به دقائقَ الكلام فى الحِكْمة والهَنْدسة والعلوم الغامِضَة ، فإنّ ذلك كلّه فَضْل مستغنًى عنه ، فإنْ حُصِّل للإنسان فقد كَمُل ، وإن لم يُحصَّل للإنسان فقد كَفاه فى تكليفه ونَجاتِه من مَعاطِب العِصْيان ما يَفرِق به بين الغَيّ والرّشاد ، وهو حصول العلوم البديهية فى القَلْب ، وما جرَى مَجراها من علوم العادات ، وما يذكره أصحابُنا فى باب التكليف .

(٤٣٠)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

افْعَلُوا الْخَيْرَ ، وَلَا تَحْقِرُوا مِنْهُ شَيْئاً ، فَإِنَّ صَغِيرَهُ كَبِيرٌ ، وَقَلِيلَهُ كَثِيرٌ وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : إِنَّ أَحَداً أَوْلَى بِفِعْلِ الْخَيْرِ مِنِّي ، فَيَكُونَ وَاللهِ كَذَلِكَ .

***

الشرح :

القليلُ من الخير خيرٌ مِنْ عَدَمِ الخيرِ أصلا .

قال عليه السلام : لايقولَنَّ أحدُكم إنّ فلاناً أولَى بِفِعْل الخيرِ منّى ، فيكون والله كذلك ، مثاله قوم مُوسِرون فى محلّة واحدة ، قَصَد واحدا منهم سائلٌ فردّه ، وقالَ له : اذهبْ إلى فلان ، فهو أولَى بأن يتصدّق عليك منّى ، فإنّ هذه الكلمة تقال دائما ، نَهَى عليه السلام عن قولِها وقال : « فيكونَ والله كذلك » ، أى أنّ الله تعالى يوفِّق ذلك الشخصَ الذى أُحيلَ ذلك السائلُ عليه، ويُيسّر الصّدقةعليه، ويُقوّى دواعيَه إليها، فيَفعلها فتكون كلمة ذلك الإنسان الأوّل قد صادفتْ قَدَرا وقضاء ، ووَقعَ الأمر بمُوجِبها .

(٤٣١)

الأصْلُ :

إنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ أَهْلاً ، فَمَهْمَا تَرَكْتُمُوهُ مِنْهُمَا كَفَاكُمُوهُ أَهْلُهُ .

***

الشَّرْحُ :

يقول عليه السلام : إنْ عَنَّ لك بابٌ من أبواب الخير وتركته ، فسوف يكفيكه بعضُ الناس ممّن جَعَله الله تعالى أهلاً للخير وإسداء المعروفِ إلى الناس ، وإنْ عنّ لك بابٌ من أبواب الشرّ فتركْته ، فسوفَ يكفيكه بعضُ الناس ممن جعلتْهم أنفسُهم وسوء اختيارهم أهلا للشرّ وأذى الناس ؛ فاُخترْ لنفسك أيّما أحبّ إليك ، أن تحظَى بالمَحمَدة والثواب ، وتفعل ما إن تركته فَعَلَه غيرُك وحظِي بحَمْده وثوابِه ،أو أن تترُكه ! وأيّما أحبّ إليك : أن تَشقَى بالذّم عاجلاً ، والعقابِ آجلاً ، وتفعل ما إن تركته كفاكه غيرُك ، وبلغتَ غرضك منه على يدِ غيرِك ، أو أن تفعله ؟ ولا ريبَ أنّ العاقلَ يختارُ فعلَ الخير وتركَ الشّر إذا أفْكَر حقّ الفِكْر فيما قد أوضحْناه[1] .

---

(١) ا : « وضح » .

(٤٣٢)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلام :

مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ ، أَصْلَحَ اللهُ عَلانِيَتَهُ ، وَمَنْ عَمِلَ لِدِينِهِ ، كَفَاهُ اللهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ ، وَمَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ، أَحْسَنَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .

* * *

الشَّرْحُ :

لا ريبَ أنّ الأعمال الظاهرة تبعٌ للأعمال الباطنة ، فمَن صَلَح باطنُه صَلَح ظاهرُه وبالعكس ، وذلك لأنّ القلبَ أميرٌ مسلّطٌ على الجوارح ، والرعيةَ تتْبَع أميرَها ولا ريبَ أنّ من عَمِل لدينهِ كفاهُ الله أمرَ دُنياه ، وقد شَهِد بذلك الكتابُ العزيزُ فى قوله سبحانه : ﴿ ومَن يتقِ اللهَ يَجعلْ له مَخرَجاً ويرْزُقْه من حيث لا يحتسِب ﴾ (١) .

ولهذا أيضا عِلّة ظاهرة ؛ وذلك أنّ من عَمِل لله سبحانه وللدّين فإنه لا يخفى حالُه فى أكثر الأمر عن الناس ، ولا شبهة أنّ الناس إذا حَسُنَتْ عقيدتُهم فى إنسان وعَلِموا مَتانَةَ دينه بوّبوا له إلى الدّنيا أبواباً لا يَحتاجُ أن يتكلّفها ، ولا يتعَب فيها ، فيأتيه رزقُه من غيرِ كُلفة ولا كدّ ؛ ولا ريبَ أنّ من أحسَن فيما بينَه وبين الله أحسنَ الله ما بينه وبين الناس ، وذلك لأنّ القلوبَ بالضّرورة تميلُ إليه وتحبّه ، وذلك لأنّه إذا كان مُحسنا بينَه وبين الناس عفّ عن أموالِ الناس ودِمائِهم وأعراضِهم ، وتركَ الدخولَ فيما لا يَعنِيه ، ولا شبهةَ أنّ من كان بهذه الصّفة فإنه يحسن ما بينَه وبين الناس .

---

(١) سورة الطلاق آية (٢، ٣) .

(٤٣٣)

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

اَلْحِلْمُ غِطَاءٌ سَاتِرٌ ، وَالعَقْلُ حُسَامٌ قَاطِعٌ ، فَاسْتُرْ خَلَلَ خُلُقِكَ بِحِلْمِكَ ، وَقَاتِلْ هَوَاكَ بِعَقْلِكَ .

***

الشَّرحُ :

لمّا جعل الله الحِلْمَ غِطاءً ، والعقل حُساماً ، أمره أن يستُرَ خَلَلَ خُلُقه بذلك الغطاء وأن يُقاتِلَ هَواهُ بذلك الحُسام ، وقد سبق القولُ فى الحلم والعقْل .

(٤٣٤)

الأصلُ

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ لِلّهِ عِباداً يختصُّهُمْ بالنِّعمِ لِمنَافِعِ العِبادِ ، فَيُقِرُّهَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا ، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ حَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِمْ .

***

الشرح :

قد ذكرْنا هذا المعنى فيما تقدَّم، وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا ، وقريبٌ من ذلك قولُ الشاعر :

وبالنّاس عاشَ الناسُ قِدْماً ولم يزَلْ ... من الناسِ مَرْغوبٌ إليه وراغِبُ

وأشدّ تصريحاً بالمعنى قول الشاعر :

لم يُعطِك اللهُ ما أعطاكَ من نِعمٍ ... إلّا لتُوسِعَ من يرْجوكَ إحسانا

فإنْ مَنعتَ فأَخلِقْ أن تُصادِفَها ... تطير عنكَ زرافاتٍ ووِحْدانا

(٤٣٥)

الأصلُ :

وَقالَ عليه السلامُ :

لَا يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أنْ يَثِقَ بِخَصْلَتَيْنِ : العافِيَـةِ والْغِنَى ، بَيْنَا تَرَاهُ مُعافًى إذْ سَقِمَ وبَيْنَا تَرَاهُ غَنِيًّا إذ افْتَقَرَ .

* * *

الشرح :

قد تقدَّم القولُ في هذا المعنى .

وقال الشاعر :

وبينما المرء في الأحيـاءِ مُغْتَبِط ... إذصارَ في اللَّحْدِ تَسْفِيهِ الاعاصيرُ

وقال آخَرُ :

لا يَغُرَّنْك عِشـاءٌ ساكِنٌ ... قـد يُوافِي بالمنِيَّاتِ السَّحَرْ

وقال عُبيدُ الله بنُ طاهر :

وإذا ماأعارَكَ الدهرُ شيئـاً ... فهْوَ لابدَّ آخِـذٌ ماأعارَا

آخَر :

يَغُرُّ الفتَى مَرُّ الليـالى سَليمةً ... وهُنَّ به عمّا قليـلٍ عَواثِرُ

وقال آخَر :

ورُبَّ غَنِيٍّ عظيمِ الـثَّراءِ ... أمسَى مُقِلاً عَدِيماً فقـيرَا

وكم باتَ مِنْ مُترَفٍ في القُصور ... فعُوِّض في الصّبح عنها القُبورَا

(٤٣٦)

الأصْلُ :

وقال عليه السلامُ :

مَنْ شَكَا الحاجَةَ إلَى مُؤْمِنٍ فَكأَنَّما شَكاهَا إلى اللهِ ، ومَنْ شَكاها إلى كافِرٍ فَكأنَّما شَكا اللهَ .

***

الشرح :

قد تقدَّم القولُ فى شَكوَى الحالِ وكراهيتها ، وكلامُ أميرِ المؤمنين عليه السلام يدلُّ على أنه لايَكرَه شَكوَى الحالِ إلى المؤمن ، ويَكرَهها إلى غير المؤمن ، وهذا مذهبٌ دِينىٌّ غيرُ المذهب العُرْفىّ .

وأكثر مذاهِبه ومقاصده عليه السلام فى كلامه يَنْحو فيها نَحوَ الدِّين والوَرَع والإسلام ، وكأنه يَجعَل الشكوى إلى المؤمن كالشكوى إلى الخالق سبحانه ، لأنه لايشكو إلى المؤمن إلّا وقد خَلَتْ شكْواه من التسخُّط والتأفّف ، ولا يشكُو إلى الكافر إلّا وقد شابَ شكْواه بالاستزادة والتَّضجُّر ، فافترَقت الحالُ فى الموضعين .

فأمّا المذهب المشهورُ فى العُرْف والعادة فاستهْجانُ الشّكوى على الإطلاق لأنّها دليلٌ على ضَعْف النّفس وخذْلانها ، وقلّة الصّبر على حوادث الدّهر ، وذلك عندَهم غيرُ محمود .

(٤٣٧)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ في بعضِ الأعيادِ :

إنَّما هُوَ عِيدٌ لِمَنْ قَبِلَ اللهُ صِيامَهُ ، وشَكَرَ قِيامَهُ ، وكُلُّ يَوْمٍ لا نَعْصِي اللهَ فيهِ فَهُوَ يوْمُ عِيدٍ .

***

الشرح :

المعنَى ظاهرٌ ، وقد نَقَله بعضُ المحُدَثين إلى الغزَل فقال :

قالوا أتَى العِيدُ قلتُ أهلاً إنْ جاءَ بالوَصْل فهوَ عِيدُ
منْ ظَفِرتْ بالمُنَى يدَاهُ فــكلُّ أيامِه سُعودُ

ورأيتُ بعض الصُّوفيّة وقد سَمِع هٰذين البيتين من مُغَنٍّ حاذقٍ ، فطَرِب وصَفّق وأخذَهما لمعنًى عندَه .

وقد قال بعضُ المحُدَثين في هذا المعنى أيضا :

قالوا أتَى العِيدُ والأيامُ مشرقةٌ وأنتَ تبكِي وكل الناسِ مَسرُورُ
فقلتُ إنْ واصَلَ الأحبابُ كان لنا عيداً وإلّا فهذا اليومُ عاشُورُ

(٤٣٨)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أعْظَمَ الحسَرَاتِ يوْمَ القِيامَةِ حَسْرَةُ رَجُلٍ كَسَبَ مالاً فى غَيْرِ طاعةِ اللهِ ؛ فوَرَّثَهُ رَجُلاً فأنْفَقَهُ فى طاعَةِ اللهِ سُبْحانَهُ فدَخَلَ بهِ الجَنَّةَ ، ودَخَلَ الأوَّلُ بهِ النَّارَ .

***

الشَّرْحُ :

كان يقال لعمر بنِ عبدالعزيز بن مروان : السعيد ابن الشقىّ ، وذلك أنّ عبدَالعزيز ابن مروان ملَكَ ضِياعا كثيرة بمصر والشام والعراق والمدينة من غير طاعة الله ، بل بسلطان أخيه عبدالملك ، وبولاية عبدالعزيز نفسه مصر وغيرها ، ثم تركها لابنه عمر ، فكان يُنْفِقُها فى طاعة الله سبحانه وفى وجوه البِرّ والقُربات ، إلى أن أفضَت الخلافةُ إليه ، فلما أفضت إليه أخرَج سِجِلاّت عبد الملك بها لعبد العزيز فمزّقها بمحضَر من الناس ، وقال : هذه كُتِبتْ من غير أصل شرعىّ ، وقد أعدْتُها إلى بيت المال .

(٤٣٩)

الأصْلُ

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً ، وَأَخْيَبَهُمْ سَعْياً ، رَجُلٌ أَخْلَقَ بَدَنَهُ فِي طَلَبِ آمالِهِ ، وَلَمْ تُساعِدْهُ المَقادِيرُ عَلَى إِرادَتِهِ ، فَخَرَجَ مِنَ الدُّنيا بِحَسْرَتِهِ ، وَقَدِمَ عَلَى الآخِرَةِ بِتَبِعَتِهِ .

الشَّرْحُ :

هذه صورةُ أكثر الناس، وذلك لأنَّ أكثرهم يَكُدّ بدنه ونفسَه في بلوغ الآمال الدّنيويّة ، والقليل منهم من تساعِده المقاديرُ على إرادته ، وإن ساعدَتْه على شيء منها بقِيَ في نفسه مالا يبْلغه ، كما قيل :

نَروحُ ونَغــدُو لحاجاتنا وحاجَةُ من عاش لاتَنقَضِى
تَموتُ مــع المرءِ حاجاتُه وتَبْقَى له حاجَةٌ مابقِي

فأكثرُهم إذَنْ يَخرُج من الدنيا بحَسْرَته ، ويقْدِم على الآخرة بتَبِعته ، لأنَّ تلك الآمال التى كانت الحركة والسعىُ فيها ليستْ متعلقةً بأمور الدّين والآخرة ، لا جرَم أنها تبعات وعُقوبات ، ونسأل الله عفوَه .

(٤٤٠)

الأصلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

الرِّزْقُ رِزْقَانِ : طَالِبٌ وَمَطْلُوبٌ ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَهُ المَوْتُ حَتَّى يُخْرِجَهُ عَنْهَا ، وَمَنْ طَلَبَ الآخرةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ (١) .

***

الشرحُ :

هذا تحريضٌ على طلب الآخرة ، ووَعْد لمن طَلَبها بأنه سيُكفى طلب الدنيا ، وإنّ الدنيا ستَطلبُه حتى يستوفيَ رزقَه منها .

وقد قيل : مَثَل الدّنيا مَثل ظِلّك ، كلّما طلبته بَعُد عنك ، فإنْ أدبَرْتَ عنه تَبِعك .

---

(١) د « رزقه منها » .

(٤٤١)

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ أوْليـاءَ اللهِ هُمُ الَّذِينَ نَظَرُوا إلى باطِنِ الدُّنيا إذا نَظَرَ النَّاسُ إلى ظاهِرِها ، وَاشْتَغَلُوا بآجِلِها إذَا اشْتَغَلَ النَّاسُ بِعاجِلِها ، فأَماتُوا مِنْها ما خَشُوا أنْ يُمِيتَهُمْ وتَرَكُوا مِنْها ما عَلِمُوا أنَّهُ سَيَتْرُكُهُمْ ، وَرَأَوا اسْتِكْثارَ غَيْرِهِمِ مِنْها اسْتِقْلالاً ، وَدَرْكَهُمْ لهَا فواتاً ، أعداءٌ لما سالَمَ النَّاسُ ، وسَلْمٌ لِمَنْ عادَى النَّاسُ ، بِهِمْ عُلِمَ الْكِتابُ ، وبِهِ عَلِمُوا ، وَبِهِمْ قَامَ كتابُ اللهِ تعالَى ، وَبِهِ قَامُوا ، لا يرَوْنَ مَرْجُوًّا فَوْقَ مايَرْجُونَ ، ولامَخُوفاً فَوْقَ مَا يَخافُونَ .

***

الشَّرح :

هذا يَصلُح أن تجعله الإماميّة شرح حال الأئمّة المعصومِين على مذاهبهم ، لقَولِه : فوقَ ما يرْجون ، بهم عُلم الـكتاب ، وبه عَلِموا ؛ وأما نحن فنجعله شرح حالِ العلماء العارفين وهم أولياء الله الذين ذكرهم عليه السلام لما نظر الناسُ إلى ظاهر الدنيا وزُخْرُفها من المناكح والملابس والشَّهوات الحِسِّية ، نظروا همْ إلى باطن الدنيا ، فاشتغلوا بالعلوم والمعارف والعبادة والزهد فى المَلاذّ الجُسْمانيّة ، فأمَاتُوا من شَهَواتِهم وقُواهم المذمومة كقوّة الغَضب وقوّة الحسد ما خافوا أن يُميتهم ، وتركُوا من الدنيا اقتناءَ الأموال لعلمهم أنها ستترُكهم ، وأنه لا يمكن دوامُ الصُّحْبة معها ، فكان استِكثارُ الناس من تلك الصفات استقلالا عندهم ، وبلوغ الناس لها فَوْتا أيضا عندهم ، فهم خَصْمٌ لما سالمه الناس

مِن الشهوات ، وسلّم لِما عاداه الناس من العُلوم والعبادات ، وبهم عُلم الكتاب ، لأنه لولاهم لما عُرِف تأويل الآيات المتشابهات ، ولأخَذَها الناسُ على ظواهرها فضلّوا وبالكتاب عُلموا ، لأن الكتابَ دلّ عليهم ، ونبّه الناس على مواضعهم ، نحو قوله : ﴿ إنما يَخشَى اللهَ من عبادِه العلماء ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ هل يستَوى الذين يعلمون والذين لا يَعلمون ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ومَن يُؤتَ الحكمةَ فقد أُوتىَ خيراً كثيراً ﴾ (٣) .

ونحو ذلك من الآيات التى تنادى عليهم ، وتخطُب بفَضْلهم ، وبهم قام الكتاب لأنهم قرّروا البَراهين على صِدْقه وصحة وروده من الله تعالى على لسان جبريل عليه السلام ولولاهم لم يَقُم على ذلك دَلالة للعوامّ ، وبالكتاب قاموا ، أى باتباع أوامر الكتاب وآدابه قاموا ، لأنه لولا تأدُّبهم بآداب القرآن ، وامتثالهم أوامرَه ؛ لما أغنى عنهم عِلمُهم شيئاً ، بل كان وَباله عليهم ، ثم قال : إنهم لا يرَوْن مَرْجُوّاً فوق مايَرْجون ، ولا مَخُوفا فوق ما يخافون ، وكيف لا يكونون كذلك ومَرْجُوُّهم مجاوَرة الله تعالى فى حظائر قُدْسه ، وهل فوق هذا مَرْجُوّ لراجٍ ، ومخوفهم سخط الله عليهم وإبعادُهم عن جنَابه ، وهل فوق هذا مخوفٌ لخائف .

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) سورة الزمر ٩ .

(٣) سورة البقرة ٢٦٩ .

(٤٤٢)

الأصْلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

اُذْكُروا انقِطَاعَ اللّذّاتِ ، وبَقاءَ التّبِعاتِ .

***

الشرْحُ :

قد تقدّم القولُ فى نحو هذا مرارا ؛ وقال الشاعر :

تفنى اللّذاذةُ ممن نال بُغْيَتَهُ   من الحرام ، ويَبقَى الإثمُ والعارُ
تبقى عواقب سُوء فى مَغبّتها   لاخير فى لذّة من بعدها النّارُ

وراوَدَ رجل امرأة عن نفسها ، فقالت له : إن امرأً يبيع جنّةً عرضُها السمٰوات والأرض بمقدار إصبَعين لجاهلٌ بالمساحَة ؛ فاستحيا ورَجَع .

(٤٤٣)

الأصْلُ :

وقالَ عليه السلامُ : اُخْبُرْ تَقْلِهْ .

قالَ الرَّضيّ رحمهُ اللهُ تعالَى : ومنْ النّاسِ مَنْ يرْوِى هذا لرسولِ اللهِ صلى الله عليهِ وآلهِ ، وَمِمّا يقوّى أنّهُ مِنْ كلامِ أميرِ المؤمنين عليهِ السلامُ ما حَكاهُ ثعلب قالَ : حدّثنا ابن الأعرابيّ قالَ : قال المأمون : لولا أن عليًّا عليه السلامُ قالَ : اُخْبُرْ تَقْلِهْ ، لقلتُ أنا : اِقْلِهْ تَخْبُرْ .

***

الشَّرْحُ :

المعنى اختَبِرِ الناسَ وَجرِّبهم تُبغِضهم ، فإن التجربةَ تكشف لك مساوِيهم وسوءِ أخلاقهم ، فَضربَ مثلاً لمن يُظَنّ به الخيرُ وليس هناك ، فأمّا قول المأمون : لولا أنّ عليًّا قاله لقُلتُ : اقْلِهْ تَخْبُر ، فليس المراد حقيقة القِلَى ، وهو البُغْض بل المراد الهَجْر والقطيعة ، يقول : قاطِعْ أخاكَ مجرّبًا له هل يَبقَى على عَهدِكَ أم يَنقُضه ويحوّله عنك .

ومن كلام عُتبةَ بن أبى سُفْيان : طيّروا الدّم فى وجوه الشّباب ، فإن حَلُموا وأحسنوا الجواب فهم هم ، وإلا فلا تَطمعوا فيهم ، يقول : أغضِبوهم لأن الغضبان يَحمرّ وجهه ، فإن ثبتوا لذلك الكلام المُغضِب وحَلُموا وأجابوا جوابَ الحليم العاقل ، فهم ممن يُعقَد عليه الخِنصر ويُرْجى فلاحُه ، وإن سَفِهُوا وشَتموا ولم يَثبتُوا لذلك الكلام فلا رجاء لفلاحِهم . ومن المعنى الأوّل قولُ أبى العَلاء :

جرّبتُ دهرِى وأهلِيه فما تَركتْ لىَ التجاربُ فى وُدّ امرئٍ غرَضَا[1]

وقال آخر :

وكنتُ أرى أنّ التجارِبَ عُـــدّةٌ فخانَتْ ثِقاتُ الناسِ حتّى التجارِبُ

وقال عبدُ الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبى طالب :

رأيتُ فُضَيلاً كان شيئاً ملففاً فأبرزَه التمحيصُ حتّى بدا لِيا[2]

آخَر :

عَتَبتُ على سَــلْمٍ فلمّا فقَدْتُه وجرّبْتُ أقواماً رجَعتُ إلى سَلْمِ

مِثلُه :

ذَمَمتُك أوّلا حـــتّى إذا ما بلوْتُ سواكَ عادَ الذمُّ حَمْدا

ولم أحْمـــدْك من خَيرٍ ولـــكن وَجدتُ سِواكَ شرّا منك جِدّا

فعُدْتُ إليكَ مُضطرّا ذليلاً لأنّى لم أجــدْ مِن ذاك بُدّا

كمَجهودٍ تَحــامَى أكلَ مَيْتٍ فلمّا اضطُرّ عادَ إليه شَــــدّا

الّذى يتعلّق به غَرضُنا من الأبيات هو البَيْت الأوّل ، وذكرنا سائرَها لحُسْنِها .

---

(١) سقط الزند ٦٥٦ .

(٢) الأغانى ١٢ : ٢١٤ ، وروايته « رأيت قصيا » .

(٤٤٤)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

ما كانَ اللهُ عز وجل لِيفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ بابَ الشُّكْرِ ، ويُغْلِقَ عَنْهُ بابَ الزِّيادَةِ ، ولا لِيفْتَحَ عَلَى عَبْدٍ باب الدُّعاء ، ويُغْلِقَ عَنْهُ باب الإجابَةِ ، ولا لِيَفْتَحَ عَلَيْهِ باب التَّوْبَةِ ، ويُغْلِقَ عَنْهُ بابَ المَغْفِرَةِ .

***

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى الشّكر واقتضائِه الزيادة [و][1] اقتضاء الدّعاء الإجابَة ؛ والتّوبة : المغفرة ؛ على وجهِ الاستقصاء فى الجميع .

---

(١) تكملة من د

(٤٤٥)

الأصْلُ

وقال عليهِ السلامُ :

أَوْلَى النَّاسِ بِالْكَرَمِ مَن عَرَّقَتْ فِيهِ الْكِرَامُ .

***

الشَّرْحُ :

أعرقت وعرّقت فى هذا المَوْضع بمعنًى ، أى ضربتْ عروقُه فى الكَرَم ، أى له سَلَف وآباء كرامٌ . وقال المبرّد : أنشدنى أبو محلم السّعدىّ :

إنّا سَأَلنا قَومَنا لخيارُهم ... من كان أفضلَهم أبوهُ الأفضَلُ (١)

أعطَى الّذى أعطَى أبوه قبلَه ... وتبخّلتْ أبناءُ من يَتَبخّلُ

قال : وأنشَدَنى أيضا فى المعنى :

لَطَلْحَةُ بن خُثَيمٍ حين تَسألُه ... أندَى وأَكْرمُ من فِند بنِ هَطَّالِ (٢)

وبيتُ طلحةَ فى عزٍّ ومَكرُمةٍ ... وبيت فِنْدٍ إلى رِبْقٍ وأحمالِ (٣)

ألَا فتى من بنى ذُبْيان يَحمِلنى ... وليس يَحمِلنى إلا ابنُ حَمّالِ (٤)

فقلتُ طلحة أولَى من عمَدْتُ له ... وجئتُ أمشى إليه مَشْىَ مُختالِ

مُستيقناً أنّ حَبْلِى سوف يُعْلِقهُ ... فى رأس ذَيّالة أو رأسِ ذَيّالِ (٥)

---

(١) الكامل ١ : ٣٦٣ ، وروايته : « أبوه الأول » .

(٢) الكامل ١ : ٣٦٣ ، وروايته : « لطلحة بن حبيب » .

(٣) ربق : حبل فيه عدة عرا ، تشد به البهم . وأحمال : جمع حمل ، بالتحريك ؛ وهو الخروف .

(٤) قال أبو العباس: « يعنى ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر »

(٥) قوله : « فى رأس ذيالة » ، يعنى فرساً أنثى أو حصاناً . والذيال : الطويل الذنب .

وقال آخَر :

عنـــدَ المُلوكِ مَضَرّةٌ وَمنافعٌ وأرَى البَرامِكَ لَا تَضُرُّ وتَنفَعُ
إنّ العُروقَ إذا استسَرَّ بها الثّرى أثْرَى النّباتُ بها وطابَ المزرَعُ
وإذا جهلتَ من امرئٍ أعراقَه وقـــديمَه فانظر إلى مايَصْنَعُ

وقال آخر :

إنّ السّرىّ إذا سرى فبِنَفْسِه وابنُ السّرِى إذا سَرَى أسرَاهُمَا

وقال البُحترىّ :

وأرى النّجابَةَ لا يـكون تمامُها لنجيبِ قومٍ ليسَ بابن نجيبِ [1]

---

(١) ديوانه ١ : ٥٧ .

(٤٤٦)

الأصْلُ :

وسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أيُّما أفْضَلُ ؟ العَدْلُ أوِ الجودُ ؟ فقَالَ :

الْعَدْلُ يَضَعُ الأمُورَ مَواضِعَها، والْجُودُ يُخْرِجُها مِنْ جِهَتِهَا ، والْعَدْلُ سائِسٌ عامٌّ ؛ والْجُودُ عارِضٌ خاصٌّ ، فالْعَدْلُ أشْرَفُهُما وأفْضَلُهُما .

* * *

الشَّرْحُ :

هذا كلامٌ شريفٌ جليلُ القَدْر ؛ فضَّل عليه السلام العَدْل بأمرين :

أحدُهما أن العدل وضعُ الأمور مواضعَها ، وهكذا العَدالة فى الاصطلاح الْحُكْمىّ ، لأنها المَرْتَبة المتوسطة بين طرَفى الإفراط والتفريط ، والْجود يُخرِج الأمر من موضعِه ، والمراد بالْجُود ها هنا هو الجود العُرْفىّ ، وهو بَذْل الْمُقتَنَيات للغير ، لا الجود الحقيقىّ ، لأنّ الْجُود الحقيقىّ ليس يُخرِج الأمر من جهته ، نحو جود البارِئ تعالى .

والوجه الثانى : أنّ العدل سائسٌ عامّ فى جميع الأمور الدِّينيّة والدنْيويّة ، وبه نظام العالَم وقِوام الوجود ؛ وأمّا الجود فأمرٌ عارِضٌ خاصّ ، ليس عموم نفعه كعموم نفع العدْل .

(٤٤٧)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

النَّاسُ أعْدَاءُ ماجَهِلُوا .

* * *

الشرح :

هذه من ألفاظه الشريفة التى لا نظيرَ لها ، وقد تقدّم ذكرها وذكرُ ما يُناسبها .

وكان يقال : مَن جَهِل شيئا عاداه .

وقال الشاعر :

جهلتَ أمراً فأبديْتَ النَّكيرَ له والجاهلُون لأهْلِ العلم أعداءُ

وقيل لأفلاطون : لِمَ يُبغض الجاهلُ العالِمَ ، ولا يُبْغِضُ العالمُ الجاهلَ ؟ فقال : لأنّ الجاهلَ يَستشعِر النقّص فى نفسِه ، ويظنّ أنّ العالم يَحتقِره ، ويزْدَرِيه فيُبغِضه ، والعالِم لا نَقْص عنده ولا يَظُنّ أنّ الجاهلَ يَحتقِره ، فليس عنده سببٌ لبُغْض الجاهِل .

(٤٤٨)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الزُّهْدُ كُلُّهُ بيْنَ كَلِمتَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ ؛ قَالَ اللهُ سُبْحانَهُ : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتاكُمْ ﴾ [1] ، وَمَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى المَاضِى وَلَمْ يَفْرَحْ بِالآتِى فقدْ أَخَذَ الزُّهْدَ بِطرَفَيْهِ .

***

الشَّرح :

قد تقدّم القولُ فى هذين المعنيين بما فيه كفاية .

---

(١) سورة الحديد ٢٣

(٤٤٩)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

أُلوِلَايَاتُ مَضَامِيرُ الرِّجَالِ .

***

الشرح :

أى تعرف الرجالُ بها كما تُعرَف الخيلُ بالمضمار ، وهو المَوضع أو المُدّة التى تُضمَّر فيها الخيل ، فمِنَ الوُلاة مَن يَظهَر منه أخلاقٌ حميدة ، ومنهم من يظهر منه أخلاقٌ ذميمة .

وقال الشاعر :

سكراتٌ خمسٌ إذا مُنِيَ المر ء بهــا صارَ عُرضةً للزّمانِ
سَكْرةُ المَالِ والحــداثة والعِشْ قِ وسكرُ الشّراب والسّلطانِ

وقال آخر :

يابنَ وَهْبٍ والمرء فى دَوْلة السل طانِ أعمَى مادامَ يُدعَى أمِيرا
فإذا زَالتِ الولايةُ عَنْــهُ واستوَى بالرّجال عادَ بَصيرا

وقال البُحتريّ :

وتاه سَعيدٌ أن أُعِيرَ رياسَةً وقُلّد أمراً كان دونَ رِجالهِ
وضاقَ على حَقّ بعَقْب اتّساعِهِ فأوسَعْتُه عذراً لِضيق أُحتمالِهِ
فأدبرَ عنّى عنـــد إقبال حَظّه وغيّر حالِي عنـــدَه حُسنُ حالِهِ
فليتَ أبا عثمانَ أمسكَ تِيهه كإمساكِهِ عنـــد الحقوقِ بمالِهِ

(٤٥٠)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَا أَنْقَضَ النَّوْمَ لِعَزَائِمِ الْيَوْمِ !

***

الشَّرْحُ :

هذه الكلمةُ قد سبقتْ ، وتكلّمنا عليها ، وما أحسنَ قولَ المعرّى :

ماقَضَى الحاجاتِ إلّا شِمِلٌ   نومُه فوقَ فِراشٍ من نمالْ(١)

وقال الرّضىّ رحمه الله :

عليها أخامِسُ مِثلُ الصّقورِ   طُوال الرجاءِ جِسام الأَرَبْ

وكلّ فتًى حَظُّ أجفانِهِ   من النوم مَضْمَضَةٌ يُسْتلبْ(٢)

فبيْنا يقال كَرَى جَفْنَه   بِقِطْعٍ من اللّيل إذ قيل هَبْ

---

(١) الشمل : السريع

(٢) يقال : مضمض النعاس فى عينه ، إذا دب .

(٤٥١)

الأصْلُ

وقالَ عليهِ السلامُ :

لَيْسَ بَلَدٌ بأحَقَّ بِكَ مِنْ بَلَدٍ ؛ خَيْرُ الْبِلَادِ ماحَمَلَكَ .

***

الشرح :

هذا المعنى قد قيل كثيرا ، ومن ذلك قولُ الشاعر :

لا يَصْدِفنّكَ عن أمرٍ تُحاوِلُهُ … فِراقُ أهلٍ وأحبابٍ وجيرانِ [1]

تلقَى بكلِّ ديارٍ ماحللتَ بها [2] … أهلا بأهلٍ وأوطانًا بأوطانِ

وقال شَيْخى أبو جعفر يحيى بن أبى زَيْد نقيبُ البَصْرة :

أنْسَيْتنى بلدِى وأرضَ عشيرتى … ونزلتُ مِنْ نُعماكَ أكرمَ مَنْزلِ

وأخذتُ فيك مدائِحى فكأنها … فى آل شَمّاسٍ مدائحُ جَرْوَلِ

أبو عُبادة البُحتُرىّ :

فى نعمةٍ أُوطِنْتُها وأقمتُ فى … أكنافِها فكأننى فى مَنْبِجِ [3]

ومَنْبِج ، هى مدينة البحترىّ .

أبو تمام :

كلُّ شِعبٍ كنتم به آلَ وَهْبٍ … فهو شِعْبى وشِعْب كلِّ أديبِ [4]

---

(١) فى د : « فراق ربع » والمعنى عليه يستقيم أيضاً (٢) فى د « بلاد » وهو مستقيم أيضاً .
(٣) ديوانه ١ : ١٠٣ (٤) ديوانه ١ : ١٣١

إنّ قلبي لكمْ لكالكبدِ الحرّى   وقلبي لغيركمْ كالقلوبِ

وقد ذهب كثيرٌ من الناس إلى غير هذا المذهب، فجعلوا بعض البلاد أحقّ بالإنسان من بعض، وهو الوطن الأوّل ومَسقِط الرّأس، قال الشاعر:

أحبُّ بلاد الله ما بين مَنْبِجٍ   إليّ وسَلمى أن يَصُوب سَحابُها[(١)]

بلادٌ بها نيطتْ عليّ تمائمي   وأوّلُ أرض مَسّ جِلدِي تُرابُها

وكان يقال: مَيْلُك إلى مولدِك مِن كَرَم مَحتِدك.

وقال ابنُ عبّاس: لو قَنع الناسُ بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم، لما اشتكى أحدٌ الرّزق.

وكان يقال: كما أنّ لحاضِنَتِك حقّ لَبَنِها فلِأَرْضك حُرْمَة وَطَنِها.

وكانت العربُ تقول: حِماكَ أَحْمَى لك، وأهلُك أَحْفَى بك.

وقال الشاعر:

وكُنّا ألِفْناها ولم تكُ مألفا   وقد يُؤلَف الشيءُ الذى ليس بالحَسَنْ

كما تُؤلَف الأرضُ التى لم يَطِبْ بها   هَواءٌ ولا ماءٌ ولكنها وَطَنْ

أعرابيّ:

رمْلةٌ حضَنَتْني أحشاؤها، وأرضعَتْني أحساؤها.

كانت العرب إذا سافرتْ حملتْ معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحَه، وتَطرحُه فى الماء إذا شربتْه، وكذلك كانت فلاسِفةُ يونانَ تَفعل.

وقال الشاعر فى هذا المعنى:

نسيرُ على علمٍ بكُنْه مَسيرنا   بعُفّةِ زاد فى بطون المَزاوِدِ[(٢)]

---

(١) معجم البلدان ٨ : ١٨٠ فى ثلاثة أبيات نـ..ا إلى بعض الأعراب.

(٢) العفة: بقية اللبن فى الضرع بعد أن يحلب أكثر ما فيه.

ولا بدّ فى أسفارِنا من قبيصةٍ　　من التّرب نُسقاها لحبّ الموالدِ

وقالت الهند: حُرمة بلدِك عليك كحرمةِ أبويك، كان غِذاؤك منهما وأنت جنين وكان غذاؤهما منك.

ومن الكلام القديم: لولا الوطنُ وحبُّه لَخرِبَ بلد السَّوْء.

ابن الرُّومىّ:

وحَبّبَ أوطانَ الرّجال إليهمُ　　مآربُ قضَّاها الشبابُ هُنالكا

إذا ذَكَروا أوطانَهمْ ذَكَّرتهمُ　　عُهودَ الصِّبا فيها فحَنُّوا لذالكا

(٤٥٢)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ وقَدْ جاءَهُ نَعْيُ الأشْتَرِ رَحِمَهُ اللهُ :

مالِكٌ ، ومالِكٌ ؟ واللهِ لَوْ كانَ جَبَلاً لَكانَ فِنْداً ، أوْ كانَ حَجَراً لَكانَ صَلْداً لا يَرْتَقِيهِ الحافِرُ ، ولا يُوفِي عَلَيْهِ الطَّائِرُ .

قالَ الرَّضِيَّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى :

الْفِنْدُ : المُنْفَرِدُ مِنَ الْجِبالِ .

***

الشَّرْحُ :

يقال : إنّ الرّضيّ خَتَم كتاب نَهْج البلاغة بهذا الفصل ، وكُتبتْ به نُسَخٌ متعدِّدة ثمّ زاد عليه إلى أن وَفى الزِّيادات التى نذكرها فيما بعد .

وقد تقدّم ذكرُ الأشتر ، وإنما قال : لو كان جبلا لكان فِندا ، لأن الفند قِطعةُ الجبل طُولا ، وليس الفِنْد القِطعةَ من الجبل كيفما كانت ، ولذلك قال : لا يرتقيه الحافر ، لأنّ القطعة المأخوذة من الجَبَل طُولا فى دِقّة لا سبيل للحافر إلى صعودِها ، ولو أُخِذت عَرْضا لأمكَن صُعُودها .

ثم وَصَف تلك القطعَة بالعلوّ العظيم ، فقال : ولا يوفى عليه الطائر ، أى لا يصعد عليه ، يقال : أوفى فلانٌ على الجبَل : أشرَف .

(٤٥٣)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

قَليلٌ مَدُومٌ عَليهِ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مَمْلُولٍ مِنْهُ .

***

الشَّرْحُ :

هذا كلامٌ يُخاطِب به أهل العبادات والصلاة ، قال : قليلٌ من النوافل يدومُ المرء عليه خيرٌ له من كثير منها يمَلّه ويترُكه .

والجيّد النادر فى هذا قولُ رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّ هذا الدِّين متين ، فأَوْغِلْ فيه برِفْق ، فإنّ المنبَتّ لا أرضاً قطَع ، ولا ظهْراً أبقَى .

وكان يقال : كلّ كثير مملول .

وقالوا : كلّ كثير عدوٌّ للطبيعة .

وقال الشاعر :

إنّى كَثُرتُ عليـــه فى زيارتِه ... فملّ والشىء مملولٌ إذا كَثُرا
ورابَنى منه أنى لا أزالُ أرَى ... فى طَرفه قِصراً عنى إذا نَظَرا

(٤٥٤)

الأصلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إذا كَانَ فى رَجُلٍ خَلَّةٌ رَائِعَةٌ ، فانْتَظِرُوا مِنْهُ أَخَوَاتِهَا .

* * *

الشرحُ :

مثال ذلك إنسان مَستور الحال عنا رأيْناه وقد صدرتْ عنه حركةٌ تَروعُك وتُعجبك إما لحُسنها أو لقُبْحها ، مثل أن يتصدّق بشىء له وَقع ومقدار مِن مالِه ، أو ينكر منكراً عجز غيرُه عن إنكاره أو يَسرِق أو يَزنىَ ؛ فينبغى أن يُنتظر ويُترقّب منه أخَوات ما وَقَع منه ؛ وذلك لأنّ العقل والطبيعة الّتى فيه المحرِّكة له إلى فعل تلك الحركة ، لا بدّ أن تحرّكه إلى فِعْل ما يُناسِبها ، لأنّها ما دعتْه إلى فِعل تلك الحركة لخصوصيّة تلك الحركة ، بل لما فيها من المعنى المقتضِى وقوعَها ، وهذا يتعدّى إلى غيرها ممّا يجانسها ، ولذلك لا ترَى أحداً قد اطّلعتَ من حالِه يوما على أنه قد شَرِب الخمر إلّا وسوف تَطّلع فيما بعدُ منه على أنّه يشرَبُها ، وبالعكس فى الأمور الحسنة لا ترى أحدا قد صدَر عنه فِعلٌ من أفعال الخير والمروءة إلّا وستَراه فيما بعدُ فاعلا نظيره أو ما يقاربُه .

وشتمَ بعضُ سفهاء البَصْرة الأحنفَ شتْماً قبيحا فحَلَم عنه ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : دعُوه فإنى قد قتلتُه بالحلم عنه ، وسيقتُل نفسَه بجراءته ؛ فلمّا كان بعدَ أيّام جاء ذلك السفيهُ فشتَم زياداً ؛ وهو أميرُ البَصْرة حينئذ ، وظنّ أنه كالأحنف ، فأمر به فقطِع لسانه وَيدُه .

(٤٥٥)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ لِغَالِبِ بْنِ صَعْصَعَةَ أبى الفَرَزْدَق فى كلامٍ دارَ بينهما :

ما فَعَلَتْ إبِلُكَ الْكَثِيرَةُ ؟ قالَ : ذَعْذَعَتها الحُقُوقُ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ عليهِ السلامُ : ذَلِكَ أَحْمَدُ سُبُلِهَا .

***

الشرح :

ذعذَعَتها بالذال المعجمة مكرّرة : فرّقتها ، ذَعْذَعْتُه فتذعذَع ، وذَعْذَعةُ السرّ : إذاعتهُ . والذّعاذِع : الفِرَق المتفرِّقة ، الواحدةَ ذعذَعة ، وربما قالوا : تفرّقوا ذَعاذِع .

***

دخل غالبُ بنُ صعصعةَ بن ناجية بن عقال المجاشِعىّ على أمير المؤمنين عليه السلام أيّام خلافته ، وغالبٌ شيخٌ كبير ، ومعه ابنهُ همّام الفرَزْدق وهو غلام يومئذ ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : مَن الشيخ ؟ قال : أنا غالبُ بنُ صعصعة ؛ قال : ذو الإبل الكثيرة ؟ قال : نعم ، قال : ما فعلتْ إبلُك ؟ قال: ذعْذعَتها الحقوق ، وأذهبتْها الحملات والنوائب ؛ قال : ذاك أحمد سُبُلِها ؛ مَن هذا الغلامُ معَك ؟ قال : هذا ابنى ، قال : ما اسمه ؟ قال همّام ؛ وقد روّيتُه الشعرَ يا أمير المؤمنين وكلامَ العرَب ، ويوشِك أن يكون شاعراً مُجيدا ؛ فقال : لو أقرأتَه[1] القرآنَ فهو خيرٌ له ؛ فكان الفرزدقُ بعدُ يروى هذا الحديثَ ويقول : ما زالتْ كلمتهُ فى نفسى حتّى قيّد نفسَه بقيْد وآلى ألّا يفكّه حتّى يَحفظ القرآنَ ، فما فكّه حتى حفِظه .

(١) فى د « أقرئه » والمعنى عليه يستقيم أيضاً .

(٤٥٦)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنِ اتَّجَرَ بِغَيْرِ فِقْهٍ فَقَدِ ارْتَطَمَ فى الرِّبا .

***

الشَّرْحُ :

يقول : تَجَرَ فلانٌ واتّجر فهو تاجر ، والجمع تَجْر ، مِثل صاحِب وصَحْب ، والتِّجارة والتَّجْر بمعنًى واحد ؛ إذا أخذتَهما مصدرَيْن لـ « تَجَرَ » ، وأرض مَتْجَرةٌ ، يُتّجر فيها .

وارتطم فلانٌ فى الوَحْل والأمر إذا ارْتبَكَ فيه ولم يَقدِر على الخروج منه ، وإنّما قال عليه السلام ذلك لأنّ مسائلَ الرِّبا مُشْتَبِهة بمسائل البَيْع ، ولا يَفْرِق بينهما إلّا الفقيه ؛ حتى إنّ العُظماء من الفقهاء قد اشتبَه عليهم الأمرُ فيها فاختلفوا فيها أشدَّ اختلاف ؛ كبَيْع لحم البقر بالغنم متفاضلا ، هل يجوز أم لا ؟ وكذلك لَبَن البقر بلَبَن الغَنَم ، وجلود البَقَر بجلود الغَنَم ، فقال أبو حنيفة : اللُحوم والألبان والجلودُ أجناسٌ مختلفة ، فيجوز بيعُ بعضها ببعض متفاضِلا ، نظرا إلى أنّ أصولها أجناسٌ مختلفة ، والشافعىّ لا يُجيزُ ذلك ويقول : هو رِبًا ، وكذلك القول فى مُدَّىْ عَجْوة ودرْهم بمُدّ عَجوة . وكذلك بَيْع الرُّطَب بالتمر متساوِيًا كَيْلا ، كلّ ذلك يقول الشافعى : إنّه رِبًا ، وأبو حنيفة يُخرجه عن كونه رِبًا ، ومسائلُ هذا الباب كثيرة .

(٤٥٧)

الأصْلُ

وقالَ عليه السلامُ :

مَنْ عظَّمَ صِغارَ المصائِبِ ؛ ابْتَلاَهُ اللهُ بِكِبارِها .

***

الشَّرحُ :

إنّما كان كذلك لأنه يشكو الله ويَتسخّط قضاءه ، ويَجْحد النّعمة فى التّخفيف عنه ، ويدّعى فيما ليس بمُجحِف به من حَوَادِث الدّهر أنّه مُجحِف ، ويتألّم بين الناس ؛ لذلك أكثَرَ ممّا تقتضيه نَكْبَته ، ومَن فعَلَ ذلك استَوْجَب السُّخْطَ من الله تعالى ، وابتُلِيَ بالكثير من النَّكبة ، وإنما الواجب على من وقع فى أمر يَشُق عليه ، ويتألّم منه ويَنال من نفسه ، أو من مالِه نَيْلاً ما ، أن يَحْمَد الله تعالى على ذلك ، ويقول : لعلّه قد دَفَع بهذا عنّى ماهو أعظَم منه ، ولئن كان قد ذهب من مالى جزء فلقد بقيَ أجزاء كثيرة .

وقال عروةُ بنُ الزّبير لمّا وقَعت الأَكلة فى رِجْله فقطعها ومات ابْنُه : اللهمّ إنّك أخذتَ عُضوا وتركْت أعضاء ، وأخذتَ ابنا وتركت أبناء ، فلْيَهْنِك ؛ لئن كنتَ أخذْتَ لقد أبقيت ، ولئن كنتَ ابتَلَيْت لقد عافَيْت .

(٤٥٨)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، هانَتْ عَلَيْهِ شَهْوَتُهُ .

* * *

الشّرحُ :

قد تقدّم مِثلُ هذا المعنى مِراراً ، ومن الكلام المشهور بين العامّة : قبّحَ اللهُ امْرأً تَغْلِب شَهْوَته على نَخْوَته .

والجيّد النادر فى هذا قولُ الشاعر :

فإنّكَ إنْ أَعطيْتَ بطنَكَ سُؤْلَه … وفَرْجَك نالا مُنتهَى الذّمّ أجمعا [1]

---

(١) لحاتم الطائى ، ديوانه ١١٤ .

(٤٥٩)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ .

ما مَزَح امْرُؤٌ مَزْحَةً ، إلاّ مَجَّ مِنْ عَقْلِهِ مَجّةً .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدَّم القولُ فى المزاح .

وكان يقال : خيرُ المزاحِ لا يُنال ، وشرّه لا يُستقالُ .

وقيل : إنّما سُمّىَ المِزاحُ مِزاحاً لأنه أُزِيح عن الحقّ .

(٤٦٠)

الأصْلُ :

وقال عليهِ السلاَمُ :

زُهْدُكَ فى رَاغِبٍ فِيكَ نُقْصَانُ حَظٍّ ، ورَغْبَتُكَ فى زاهِدٍ فِيكَ ذُلُّ نَفْسٍ

***

الشَّرْحُ :

أى نقصانُ حظٍّ لك ، وذلك لأنّه ليس مِن حَقّ مَن رَغِب فيك أن تزهَد فيه لأنّ الإحسان لا يُكافَأ بالإساءة ، وللقصد حُرْمة ، وللآمل ذمام ، ومن طَلَب مودّتك فقد قَصَدك وأمّلك ، فلا يجوزُ رفضُه واطّراحُهُ والزّهدُ فيه ، وإذا زَهدتَ فيه فذلك لنقُصانِ حَظّك لا لنقُصان حَظّه ، فأمّا رَغْبَتُك فى زاهدٍ فيك فمذلّة ، لأنك تطرح نفسَك لمن لا يعبأ بك ، وهذا ذُلٌّ وصَغار .

وقال العباسُ بنُ الأحنَف فى نسيبه ، وكان جيّدَ النَّسِيب :

ما زلتُ أزهَد فى مودّة راغِبٍ   حتّى ابتُليتُ برَغْبةٍ فى زَاهِدِ

هٰذا هو الدّاء الّذى ضَاقت به   حِيَلُ الطّبيب وطَال يأسُ العائِد

أى ما زلتُ عزيزا حتى أذلّنى الحبّ .

(٤٦١)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

ما زَالَ الزُّبَيْرُ رَجُلاً منّا أهْلَ الْبَيْتِ حَتّى نشأ ابْنُهُ الْمَشْئُومُ عَبْدُ الله .

***

الشَّرْحُ :

ذكر هذا الكلامَ أبو عُمَر بن عبد البرّ فى كتاب " الاستيعاب " عن أميرِ المؤمنين عليه السلام فى عبدِ الله بن الزبير ، إلا أنه لم يَذْكُر لفظة المشئوم .

***

[عبدالله بن الزبير وذكر طرف من أخباره]

ونحن نَذْكُر ما ذكره ابن عبد البرّ فى ترجمة عبد الله بن الزبير ، فإنّ هذا المُصنِّف يَذْكُر جُمَل أحوالِ الرّجل دون تفاصِيلها ، ثمّ نذكر تفصيل أحواله من مواضعَ أخرى .

قال أبو عمرَ رحمه الله : يُكنى[1] عبدُ الله بن الزبير أبا بكر ، وقال بعضُهم : أبا بكير ، ذكر ذلك أبو أحمد الحاكم الحافظ فى كتابه فى الكُنَى . والجمهور من أهل السِّيَر وأهلِ الأثر على أنّ كُنيته أبو بكر ، وله كنيةٌ أخرى أبو خُبَيْب بابنه خُبَيب

(١) الاستيعاب ٩٠٤ ، طبعة نهضة مصر .

وكان أسنّ ولده ، وخُبَيب هو صاحبُ عمر بن عبدِ العزيز الذى مات من ضَرْبه إذ كان والياً على المدينة للوليد ، وكان الوليدُ أمره بضَرْبه فمات من أذيّة ذلك فوداه عمرُ بعدُ .

قال أبو عمر : (١ وسمّاه رسول الله صلى الله عليه وآله باسم جدّه ، وكنّاه بكُنْية جدّه عبدِ الله أبى بكر ١) ، وهاجرتْ أمّه أسماء من مكّة إلى المدينة وهى حاملٌ به ، فولَدَته فى سنة اثنتين من الهجرة لِعشرين شهرًا مِن التاريخ ، وقيل : وُلد فى السّنة الأولى ، وهو أوّل مولود ولد فى الإسلام من المهاجرين بعد الهجْرة .

ورَوَى هشامُ بنُ عروة عن أسماء قالت : حملتُ بعبدِ الله بمكّة ، فخرجتُ وأنا مُتِمٌّ (٢) فأتيتُ المدينة فنزلتُ بقباء ، فولدته بقباء ، ثم أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله فوضعتُه فى حِجره ، فدعا بتمرةٍ فمضَغها ثم تَفَل فى فيه ، فكان أوّل شىء دَخَل جوفَه ريقُ رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ثمّ حنّكه بالتّمرة ، ثم دعا له وبارك عليه ، وهو أوّل مولود وُلِد فى الإسلام للمهاجِرين بالمدينة ، قال : ففَرحوا به فرحاً شديداً ، وذلك أنّهم قد كان قيل لهم : إنّ اليهود قد سَحَرَتْكم فلا يُولد لكم .

قال أبو عمر : وشَهِد عبدُ الله الجَمَل مع أبيه وخالتِه ، وكان شَهْماً ذَكراً ذا أنفة ، وكان له لَسَنٌ وفَصاحة وكان أطلسَ لا لِحيةَ له ولا شَعرَ فى وجهه ، وكان كثيرَ الصّلاة ، كثيرَ الصّيام ، شديدَ البأس ، كريمَ الجدّات والأمّهات والخالات ، إلّا أنه كان فيه خلال لا يَصلُح معها للخلافة ، فإنّه كان بخيلا ضَيِّق العَطَن سيّء الخُلُق حَسُودا ، كثيرًا الخلاف ، أخرجَ محمّدَ بنَ الحنفيّة من مكّة والمدينة ، ونَفَى عبدَ الله ابنَ عبّاس إلى الطائف.

(١ ـ ١) عبارة الاستيعاب : « كناه رسول الله صلى الله عليه وسلم باسم جده أبى أمه أبى بكر الصديق ، وسماه باسمه » .

(٢) المتم : التى اكتملت مدة حملها .

وقال علىٌّ عليه السلام فى أمرِه : مازال الزبيرُ يُعَدُّ منّا أهلَ البيت حتّى نشأ ابنُه عبدُ الله . قال أبو عمر : وبُويع له بالخلافة سنةَ أربع وستّين فى قول أبى مَعشر .

وقال المدائنىّ : بُويع له بالخلافة سنةَ خمسٍ وستّين .

وكان قبلَ ذلك لايدْعَى باسم الخلافة ، وكانت بَيْعته بعد موتِ معاوية بن يزيدَ ابن معاوية ، على طاعتِه أهل الحجاز واليمن والعراق وخُراسانَ ، وحَجَّ بالناس ثمانِىَ حِجَجٍ ، وقُتل فى أيام عبدِ الملك بن مَرْوَان يوم الثّلاثاء لثلاث عشرة بقين من جُمادى الأولى ؛ وقيل : من جُمادَى الآخرة سنة ثلاثٍ وسبعين ، وهو ابن اثنتين وسبعين سنةً ؛ وصُلب بمكّة بعد قتله ، وكان الحجّاج قد ابتدأ بحصاره من أوّل ليلة من ذى الحِجّة سنَة اثنتين وسبعين ، وحَجّ الحجّاج بالناسِ فى ذلك العام ، ووَقَف بعرَفة وعليه درع ومِغْفَر ، ولم يَطُوفوا بالبَيْتِ فى تلك السنة . فحاصَرَه ستّة أشهر وسبعةَ عشرَ يوما إلى أن قتَله .

قال أبو عمر : فروَى هشامُ بنُ عروة عن أبيه ، قال : لمّا كان قبلَ قَتْل عبد الله بعشرةِ أيّام دخَل على أمّه أسماء بنت أبى بكر وهى شاكية ، فقال : كيف تجدِينَك يا أمّه ؟ قالت : ماأجِدُنى إلّا شاكية ، فقال لها : إنّ فى الموت لراحة ؛ فقالت : لعلّك تمنّيته لى ، وما أحبُّ أن أموتَ حتّى يأتىَ علىّ إحدَى حالتَيْك ، إمّا قُتلتَ فأحتَسِبَك ، وإما ظَفِرتَ بعدوّك فقرّت عَيْنى .

قال عروة : فالتفتَ عبدُ الله إلىّ وضَحِك ، فلمّا كان اليوم الذى قُتل فيه دخَل عليها فى المسجد ، فقالت : يابُنىّ لاتقبل منهم خُطّة تخاف فيها على نفسك الذُّلّ [مخافة القتل] (١) ؛ فواللهِ لَضرْبةُ سيفٍ فى عِزٍّ خيرٌ من ضربةِ سَوطٍ فى مَذَلّة ، قال : فخرج

---

(١) من د

عبدُ الله وقد نُصِب له مِصراعٌ عند الكعبة ، فكان يكون تحته ، فأتاه رجلٌ من قريش فقال له : ألا نفتح لك بابَ الكعبة فتدخلها ؟ فقال : والله لو وَجدوكم تحتَ أستارِ الكعبة لَقَتَلوكم عن آخرِكم ، وهل حُرمةُ البيتِ إلّا كحرمة الحرَم ! ثم أنشد:

ولستُ بمُبتاعِ الحياةِ بُسُبَّـةٍ ولا مُرتقٍ مِن خَشْية الموت سُلّما

ثمّ شدّ عليه أصحابُ الحجاج ، فسأل عنهم ، فقيل : هؤلاء أهلُ مِصر ، فقال لأصحابه: اكسروا أغمادَ سيوفِكم ، واحملوا معى ، فإننى فى الرّعيل الأول ، ففعلوا ، ثمّ حَمل عليهم وحَملوا عليه ، فكان يضرب بسَيْفين ، فلَحِق رجلا فضرَبه فقطع يدَه ، وانهزموا وجعل يضرِبُهم حتى أخرجهم من باب المسجد ، وجعل رجلٌ منهم أسوَد يَسبّه ، فقال له : اصبر يابن حام ، ثم حمل عليه فصرَعه ، ثم دخل عليه أهلُ حِمْص من باب بنى شَيْبة فسأل عنهم ، فقيل : هؤلاء أهلُ حِمص ، فشدّ عليهم وجَعل يضرِبهم بسيفه حتى أخرَجهم من المسجد ، ثم انصرَف وهو يقول :

لو كانَ قِرْنى واحـداً أَرْديتُه أوردْتُه الموتَ وقد ذَكّيْتُه

ثمّ دخل عليه أهلُ الأُرْدُنّ من باب آخر ، فقال : مَن هؤلاء ؟ قيل : أهلُ الأُرْدُنّ ، فجعل يضرِبهم بِسيْفه حتى أخرجَهم من المسجد ، ثمّ انصرَف وهو يقول :

لا عهد لى بغارةٍ مِثل السَّيْلْ لا يَنجلى قَتامُها حتّى اللَّيلْ

فأَقْبَل عليه حَجَر من ناحية الصَّفَا فأصابه بين عَينَيه ، فنكّس رأسه وهو يقول :

ولَسْنَا على الأعقاب تدمَى كُلومُنا ولكنْ على أقدامِنا تقطرُ الدّمَا(١)

---

(١) للحصين بن الحمام المرى من المفضلية ١٢ .

أنشدَه متمثِّلا ، وحَمَاه مَوْليَان له ، فكان أحدهما يرتجز فيقول :

* العبدُ يحمِي ربَّه ويَحْتَمِى *

قال : ثمّ اجتمعوا عليه ، فلم يزالوا يضربونه ويضربهُم حتى قتلوه ومولييْه جميعا ، فلمّا قُتِل كبّر أهلُ الشام ، فقال عبد الله بن عمر : المكبِّرون يومَ وُلد خَيرٌ من المكبِّرين يوم قُتل .

قال أبو عمر : وقال يعلى بنُ حَرْملة : دخلتُ مكّة بعد ما قُتِل عبدُ الله بنُ الزّبير بثلاثةِ أيام ، فإذا هو مصلوب ، فجاءت أمّه أسماء ، وكانت امرأةً عجوزاً طويلة مكفوفة البَصر تقاد ، فقالت للحجّاج : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ فقال لها : المنافق؟! قالت: والله ما كان مُنافقا ، ولكنه كان صَوّاما قَوّاما برّا ؛ قال : انصرفى فإنك عجوز قد خَرِفْتِ . قالت : لا والله ماخَرِفْتُ ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « يَخرجُ من ثقيف كذّاب ومبير (١) » ، أمّا الكذّاب فقد رأيناه ـ تعنى المختار ـ وأما المُبير فأنت .

قال أبو عمر : ورَوَى سعيد بنُ عامر الخرّاز عن ابن أبى مُليكة ، قال: كنت الآذن لمن بشّر أسماء بنزول ابنها عبد الله من الخشبة ، فدعتْ بمِرْكَن (٢) وشبٍّ يمانٍ، فأمرتنى بغسْله ، فكنا لا نتناول منه عُضْوا إلّا جاء معنا ، فكنا نغسل العضو ونَدَعه فى أكفانه ونتناول العضو الذى يليه فنغسله ، ثم نضعه فى أكفانه ، حتى فرغْنا منه ، ثمّ قامت فصلّت عليه ، وقد كانت تقول : اللّهم لا تمتنى حتى تَقَرّ عينى بجثّته ، فلما دفنته لم يأت عليها جمعة حتى ماتت .

قال أبو عمر : وقد كان عُروة بنُ الزبير رَحَلَ إلى عبد الملك ، فرَغِب إليه فى إنزال عبد الله من الخشبة ، فأسعفه بذلك ، فأنزل .

---

(١) المبير : المهلك . (٢) المركن : الإناء .

قال أبو عمر : وقال علىّ بن مجاهد : قُتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلا ، إنّ منهم لَمَنْ سالَ دمُه فى جوف الكعبة .

قال أبو عمر : ورَوَى عيسى عن أبى القاسم ، عن مالك بن أنس ، قال : كان ابن الزبير أفضل من مَرْوان وأولَى بالأمر منه ومن أبيه ، قال وقد رَوَى علىّ بنُ المَدائنىّ ، عن سُفيان بن عُيينة ، أن عامر بن عبد الله بن الزبير مكث بعد قتل أبيه حَوْلا لا يسأل الله لنفسه شيئاً إلا الدعاء لأبيه .

قال أبو عمر : ورَوَى إسماعيل بن عليّة ، عن أبى سُفْيان بن العَلاء ، عن ابن أبى عَتِيق ، قال : قالت عائشةُ : إذا مَرّ ابنُ عمرَ فأَرُونيه ، فلما مَرّ قالوا : هذا ابنُ عمر فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، ما مَنَعك أن تَنْهانى عن مَسيرى ، قال : رأيتُ رجلا قد غَلَب عليكِ ، ورأيتُكِ لا تُخالفينه ـ يعنى عبد الله بن الزبير ـ فقالت : أما إنك لو نَهيتَنى ما خرجتُ .

***

فأما الزّبير بنُ بكار فإنه ذكر فى كتابِ " أنساب قريش " من أخبار عبد الله وأحواله جُملة طويلة نحن نختصرها ، ونذكر اللُّباب منها ، مع أنه قد أطنب فى ذكر فضائله والثناء عليه ، وهو معذورٌ فى ذلك ، فإنه لا يلامُ الرجلُ على حُبِّ قومه ، والزّبير ابن بكار أحدُ أولاد عبد الله بن الزبير ، فهو أحقّ بتقريظه وتأبينه .

قال الزبير بنُ بكار : أمّه أسماء ذاتُ النِّطاقين ابنةُ أبى بكر الصِّديق ، وإنما سُمّيتْ ذاتَ النِّطاقين لأنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله لما تجهز مهاجراً إلى المدينة ومعه أبو بكر لم يكن لسفرتهما شِناق[1] ؛ فشقّت أسماء نِطاقها فشَنَقَتْها به ، فقال لها رسول الله

---

(١) الشناق : الحبل .

صلّى الله عليه وآله : قد أبدلكِ اللهُ تعالى بنطاقِكِ هذا نطاقَيْن فى الجنة ، فسُمِّيتْ ذاتَ النِّطاقين . قال : وقد روَى محمد بنُ الضحاكِ : عن أبيه أن أهل الشام كانوا وهم يقاتلون عبد الله بمكة يَصِيحون : يابن ذات النِّطاقين ، يظنونه عَيْبا ، فيقول ابنها : والاله ، ثمّ يقول : إنى وإياكم لكما قال أبو ذؤيب :

وعيّرنى الواشُــونَ أنِّى أُحِبُّهَا   وتلكَ شَكاةٌ ظاهرٌ عنكَ عارُها[١]
فإنْ أعتَذِرْ عنها فإنِّى مكذَّبٌ   وإنْ تعتذِر يُرَدَدْ عليك اعتذارُها

ثمّ يُقبِل على ابن أبى عتيق — وهو عبدُ الله بن محمّد بن عبد الرحمن بن أبى بكر — فيقول : ألا تسمعُ يابنَ أبى عَتيق !

قال الزبير : وزعموا أنّ عبد الله بنَ الزبير لمّا وُلِد أُتِىَ به رسولَ الله صلى الله عليه وآله ، فنَظر فى وجهِه وقال : « أهو هو ؟ ليَمنعَنّ البيتَ أو ليَموتَنّ دونه » .

وقال العُقَيلىّ فى ذلك :

برٌّ تبيَّنَ ما قال الرســولُ له   وذو صَلاةٍ بضاحِى وجهه عَــلَمُ[٢]
حَمامة من حَمامِ البيتِ قاطِنَــة   لا تَتبع الناسَ إن جارُوا وإن ظلَمُوا

قال : وقد روَى نافعُ بن ثابت ، عن محمّد بن كَعْب القُرَظىّ ، أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله دخل على أسماء حينَ وُلِد عبدُ الله فقال : أهو هو؟ فتركتْ أسماء رَضاعه ، فقيل لرسول الله صلّى الله عليــه وآله : إنّ أسماءَ تركتْ رَضاعَ عبدِ الله لمّا سمعتْ كَلِمتك ، فقال لها : « أرْضِعيه ولو بماءِ عَيْنَيْك ، كَبْش بين ذِئابٍ عليها ثِيابٌ ، ليَمنعَنّ الحَرَم أو ليَموتَنّ دونَه » .

قال : وحدّثنى عَمّى مُصعَب بنُ عبد الله ، قال : كان عبدُ الله بنُ الزبير يقول : ماجرتْ بى أمّى فى بَطْنها ، فما أصابها شىءٌ من نَصَب أو مَخْمصة[٣] إلا وقد أصابنى .

---

(١) ديوان الهذليين ١ : ٢١ ، قال : ظاهر عنك ، أى لايعلق بك ، أى يظهر عنك وينبو .
(٢) رواية : « د » . « يزينني ذكر ما قال الرسول له »   (٣) المخمصة : الجوع .

قال : وقالت عائشةُ : يارسول الله ، ألا تَكْنِينى ؟ فقال : تَكَنَّىْ باُسمِ ابنِ أُخْتِك عبد الله ، فكانت تُكنَى أمَّ عبدِ الله .

قال : وروى هِندُ بن القاسم ، عن عامر بنِ عبد الله بنِ الزّبير ، عن أبيه ، قال : احتجَم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله ، ثمّ دَفع إلىّ دمه ، فقال : اذهب به فوارِه حيث لايَراه أحد ، فذهبتُ به فشرِبْتُه ، فلمّا رجعتُ قال : ماصنعت ؟ قلتُ : جعلته فى مكان أظنّ أنه أخفَى مكانٍ عن الناس ، فقال : فلعلك شربته ؟ فقلتُ : نعم .

قال : وقال وَهْب بنُ كَيْسان : أوّلُ من صَفّ رِجْليه فى الصّلاة عبدُ الله بن الزبير فاقتدَى به كثيرٌ من العباد ، وكان مجتهدا .

قال : وخَطَب الحجّاج بعد قَتْله زجلة[1] بنت مَنْظور بن زَبّان بن سَيّار الفَزاريّة ، وهى أمّ هاشم بنِ عبدِ الله بنِ الزّبير ، فقلعت ثَنِيّتها وردّته ، وقالت : ماذا يريدُ إلى ذَلْفاء ثَكْلى حرّى ! وقالت :

أبعـــد عائذِ بيتِ الله تخطُبُنى ... جهلاً جهلتَ وَغِبّ الجهل مَذْمومُ
فاذهبْ إليك فإنّى غـيرُ نا كحةٍ ... بعـدَ أبن أسماء ماأسْتَنّ الدّياميمُ
مَن يَجعـلُ العَيْر مُصفرّا جَحافلُه ... مِثل الجوادِ وفَضـل الله مَقْسومُ !

قال : وحدّثنى عبدُ الملك بنُ عبد العزيز ، عن خاله يوسف بنِ الماجِشون ، قال : قسمَ عبدُ الله بنُ الزّبير الدهرَ على ثلاث ليال : فليلةٌ هو قائم حتّى الصباح ، وليلة هو راكع حتّى الصباح ، وليلة هو ساجد حتّى الصباح .

قال : وحدّثنا سليمان بنُ حَرْب بإسنادٍ ذكَره ورَفعه إلى مُسلِم المكّى ، قال : رَكَع عبدُ الله بنُ الزبير يوما ركعةً ، فقرأتُ البقرة وآلَ عمران والنّساء والمائدةَ ، وما رَفَع رأسَه .

---

(١) ضبط فى د : « رجلة » .

قال : وقد حدّث من لا أُحصيه كثرةً من أصحابنا ، أنّ عبدَ الله كان يواصِل الصّوم سَبْعا ، يصومُ يومَ الجمعة فلا يُفطِر إلّا يومَ الجمعة الآخر ، ويَصُوم بالمدينة فلا يُفطِر إلا بمكّة ، ويصوم بمكّة فلا يُفطِر إلّا بالمدينة .

قال : وقال عبد الملك بنُ عبد العزيز : وكان أوّل ما يُفطِر عليه إذا أفطَرَ لبَن لَقْحة بسَمْن بقَر ، قال الزبير : وزادَ غيرُه : وَصبِر .

قال : وحدّثنى يعقوب بنُ محمّد بن عيسى بإسنادٍ رَفَعه إلى عُرْوَة بن الزّبير ، قال : لم يكن أحدٌ أحَبَّ إلى عائشةَ بعد رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وبعد أبى بكر من عبدِ الله بن الزّبير .

قال : وحدّثنى يعقوبُ بنُ محمّد بإسنادٍ يرفعه إلى عبدِ الرحمن بنِ القاسم ، عن أبيه قال : ما كان أحدٌ أعلم بالمناسِك من ابن الزبير .

قال : وحدّثنى مُصعب بنُ عثمان ، قال : أوصتْ عائشةُ إلى عبدِ الله بن الزبير وأوصَى إليه حكيمُ بنُ حِزام وعبدُ الله بن عامر بن كُرَيز والأسوَدُ بن أبى البَخْتَرِىّ وشَيبة بنُ عثمان والأسوَد بنُ عوف .

قال الزبير : وحدّث عمرُ بنُ قيس ، عن أمّه قالت : دخلتُ على عبد الله بنِ الزّبير بيتَه ، فإذا هو قائمٌ يصلّى ، فسقطتْ حيّة من البيت على ابنه هاشم بنِ عبد الله فتطوّقت(١) على بطنِه وهو نائمٌ ، فصاحَ أهلُ البيت : الحيّة الحيّة ! ولم يزالُوا بها حتّى قَتَلوها وعبدُ الله قائمٌ يصلّى ما الْتَفَت ولا عَجِل ، ثمّ فرَغ من صلاته بعد ما قُتِلت الحيّة فقال : مابالكم ؟ فقالت أمّ هاشم : إى رَحِمَك الله ، أرأيتَ إنْ كُنّا هُنّا عليك أيَهُون عليك ابنُك ! قال : وَيْحَكِ ! وما كانت التِفاتةٌ لو الْتَفتُّها مُبْقِيةً من صَلاتى .

---

(١) فى د : « فتطوت » والمعنى عليه يستقيم .

قال الزبير : وعبدُ الله أوّلُ من كَسا الكعبةَ الدِّيباج ، وإن كان لَيُطَيِّبها حتى يَجِد رِيحَها من دَخَل الحَرَم . قال : ولم تكن كِسْوة الكعبة من قَبْله إلّا المسُوح (١) والأنْطاع ، فلمّا جرّد المهدىّ بنُ المنصور الكَعْبة ، كان فيما نَزَع عنها كِسْوة مِن ديباج مكتوب عليها : لعبد الله أبى بكر أمير المؤمنين . قال : وحدّثنى يحيى بنُ مَعين بإسناد رَفَعه إلى هشام بن عروة ، أنّ عبدَالله بنَ الزبير أُخِذ من بين القتلى يومَ الجمل وبه بِضْعٌ وأربعون طَعْنةً وضَرْبة . قال الزبير : واعتلّت عائشةُ مَرّة ، فدخل عليها بنو أُختها أسماء : عبدُ الله وعروةُ والمنذر ، قال عروة : فسألناها عن حالِها ، فشكَتْ إلينا نَهْكَة من عِلّتها فعزّاها عبدُ الله عن ذلك ، فأجابته بنحو قولها ، فعادَ لها بالكلام ، فعادت له بالجواب ، فصَمتَ وبكَى ، قال عروة : فما رأينا مُتحاوِرَيْن من خَلْق الله أبلغَ منهما. قال : ثم رفعت رأسَها تنظر إلى وجهه ، فأُبهِتَتْ لبكائه ، فبكَت ثمّ قالت : ما أحَقَّنى منك يا بُنَىّ ، ماأَرَى . فلم أعلم بعدَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وبعد أبوَىّ أحداً أُنزِل عندى مَنزِلَتَك ، قال عروة : وما سمعتُ عائشةَ وأمّى أسماء تدْعُون لأحدٍ من الخلق دعاءَهما لعبدِ الله ، قال : وقال موسى بن عقبة : أَقرأنى عامرُ بنُ عبد الله بن الزبير وصيّةَ عبدِ الله بنِ مسعود إلى الزّبير بن العوّام وإلى عبد الله بنِ الزّبير مِن بعده ، وإنّهما فى وصيّتى فى حِلّ وبِلّ (٢) .

قال : ورَوَى أبو الحسن المدائنىّ ، عن أبى إسحقَ التميمىّ ، أنّ معاويةَ سَمع رجلا يُنشِد :

ابنُ رَقاشِ ماجِدٌ سَمَيْدَعُ   يَأْبَى فيُعطِى عن يدٍ أوْ يَمنَعُ

---

(١) المسح : « الكساء من الشعر ؛ وجمعه مسوح .
(٢) فى د « وتل » تصحيف . والبل : المباح ، قالوا : هو لك حل وبل .

فقال : ذلك عبدُ الله بنُ الزبير : وكان عبدُ الله من جُمْلة النّفر الّذين [1] أمرَهم عثمان بنُ عفّان أن يَنسَخوا القرآنَ فى المصاحِف .

قال : وحدّثنا محمّد بنُ حسن ، عن نوْفل بن عُمارة ، قال: سُئل سعيدُ بن المسيّب عن خُطباء قُرَيش فى الجاهليّة ، فقال : الأسود بن المطّلب بن أسَد ، وسُهَيل بن عمرو . وسُئِل عن خُطبائهم فى الإسلام،فقال : معاوية وابنه،وسعيدُ بن العاص وابنُه ، وعبدالله ابن الزبير .

قال : وحدّثنا إبراهيمُ بنُ المنذِر ، عن عثمانَ بن طَلْحة ، قال : كان عبدُ الله بنُ الزبير لا يُنازَع فى ثلاثٍ : شجاعة ، وعِبادة ، وبلاغة .

قال الزبير : وقال هشام بنُ عُرْوة : رأيتُ عبدَ الله أيّامَ حِصاره والحجَرَ مِن المَنْجَنيق يهوِى حتّى أقولَ : كاد يأخذ بِلحْيَتِه ، فقال له أبى : أيَا ابن أمٍّ ، والله إنْ كادَ ليأخذُ بلِحْيَتك ، فقال عبدُ الله : دَعْنى يا ابنَ أمّ ، فوالله ماهى إلا هَنَةٌ حتّى كأنّ الإنسانَ لم يكن ، فيقول أبى وهو يُقبِل علينا بوجهه : والله ما أخشَى عليك إلّا من تلك الهَنَة .

قال الزبير : فذكَرَ هشامٌ ، قال : والله لقد رأيتُه يُرْمَى بالمنجَنيق فلا يَلتفِت ولا يُرعَد صَوتُهُ ؛ وربّما مرّت الشّظّية منه قريباً من نحْره .

وقال الزّبير : وحدّثنا ابنُ الماجِشون ، عن ابن أبى مُليكة عن أبيه قال : كنتُ أطوفُ بالبَيْت مع عُمَر بنِ عبد العزيز ، فلمّا بلغتُ الملتزم تخلّفتُ عنده أدعو ثم لحِقت عمر ، فقال لى : ماخلّفك ؟ قال : كنتُ أدعو فى مَوْضع رأيتُ عبدَ الله بنَ الزبير فيه يَدْعو ، فقال : ما تَترك تحنُّناتِك على ابنِ الزبير أبداً ! فقلتُ : والله مارأيتُ

---

(١) ب : « الذى » .

أحداً أشدَّ جِلْدا على لَحم ، ولَحما على عَظْم من ابن الزبير ؛ ولا رأيتُ أحداً أثبتَ قائماً ، ولا أحسَنَ مصليّاً من ابنِ الزبير ، ولقد رأيتُ حَجَرا من المَنجنيق جاءه فأصابَ شُرْفةً من المَسجد ، فمرّت قُذاذَة مِنْها بين لَحيتِه(١) وَحلقه ، فلم يَزُل من مُقامه ، ولا عرفنا ذلك فى صَوْته ، فقال عمر : لا إلٰه إلّا الله ، لجَادَ ما وصَفْتَ !

قال الزُّبير : وسمعتُ إسماعيل بنَ يعقوبَ التَيمىَّ يحدِّث ، قال : قال عمر بنُ عبد العزيز لابن أبى مُلَيكة : صفْ لنا عبدَ الله بن الزبير ، فإنّه ترَمْرَم على أصحابِنا فتَغَشْمَروا عليه ، فقال : عن أىِّ حاليه تَسأل ؟ أعن دِينِه ، أم عن دُنياه ؟ فقال : عن كُلٍّ ، قال : والله مارأيتُ جِلْدا قطّ رُكِّب على لَحم ولا لحماً على عَصَب ، ولا عَصَباً على عَظْمٍ ، مِثْل جِلْده على لحمِه ولامثل لحمه على عَصَبِه ، ولامثل عصبه على عَظْمِه ؛ ولارأيتُ نَفْسا رُكِّبت بين جنبين مثل نفسٍ له رُكِّبتْ بين جَنْبين ، ولقد قام يوما إلى الصَّلاَة ، فمرّ به حَجرٌ من حجارة المَنْجنيق ، بَلبنَةٍ مطبوخة من شُرُفات المسجدِ ، فمرّت بين لَحْيَيْه وصدرِه ، فو اللهِ ما خَشع لها بصرُه ، ولا قطَع لها قراءته ، ولا رَكع دونَ الركوع الّذى كان يركع ، ولقد كان إذا دَخَل فى الصلاة خرَج من كلّ شىء إليها ؛ ولقد كانَ يركع فى الصلاة فيقَع الرَّخَم على ظهرِه ويَسجُد فكأنه مطروح .

قال الزّبير : وحدّث هشامُ بنُ عُروَة ، قال : سمعتُ عمّى ، يقول : ما أبالى إذا وجدتُ ثلاثمائة يَصبِرون صَبْرى ، لو أجلَب علىَّ أهلُ الأرض .

قال الزبير : وقَسم عبدُ الله بن الزبير ثُلُث مالِه وهو حَىّ ؛ وكان أبوه الزّبير قد أوصَى أيضا بثُلُث مالِه . قال : وابنُ الزبير أحد الرّهْط الخمسة الّذين وَقَع اتفاق أبى موسى الأشعرىّ وعَمرو بن العاص على إحضارِهم ، والاستشارة بهم فى يوم التّحكيم

(١) فى د « لحييه » .

وهم : عبدُ الله بن الزبير ، وعبدُ الله بن عمرو ، وأبو الجَهم بن حُذيفة ، وجُبير بن مُطْعِم ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

قال الزبير : وعبدُ الله هو الّذى صلّى بالناس بالبَصْرة لمّا ظهر طَلْحة والزّبير على عثمانَ بن حَنيف بأمرٍ منهما له . قال : وأعطَت عائشةُ من بَشّرها بأنّ عبد الله لم يُقتل يومَ الجمل عَشرةَ آلافِ درهم .

قلتُ : الّذى يَغلِب على ظنّى أنّ ذلك كان يوم إفريقيَة ، لأنّها يوم الجمل كانت فى شُغل بنفسِها عن عَبدِ الله وغيره .

قال الزبير : وحدّثنى علىُّ بنُ صالح مرفوعاً أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله كلَّم فى صِبْية ترَعْرَعوا ، منهم عبد الله بنُ جعفر ، وعبدُ الله بن الزبير ، وعُمَر بن أبى سَلَمة ، فقيل : يا رَسُول الله ، لو بايعتَهم فتصيبَهم برَكتُك ، ويكونَ لهم ذِكْر ! فأُتِى بهم فكأنهم تكعكعوا حين جىء بهم إليه ، واقتحم ابنُ الزبير ، فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وقال : إنه ابنُ أبيه ؛ وبايَعَهم .

قال : وسُئِل رأسُ الجالوتِ : ما عندكم من الفَراسة فى الصِّبيان ؟ فقال : ما عندنا فيهم شىء ، لأنّهم يُخلَقون خَلْقاً مِنْ بعد خَلْق ؛ غير أنّا نرمُقُهم ، فإنْ سَمِعناه منهم من يقول فى لعبه : من يكون معى ؟ رأيناها همة وخبء صدق فيه ، وإن سمعناه يقول : مع مَن أكون ؟ كرهْناها منه . قال : فكان أوّل شىء سُمِع من عبدِ الله بنِ الزبير أنه كان ذاتَ يومٍ يلعَب مع الصّبيان ، فمرّ رجلٌ ، فصاح عليهم ، ففرّوا منه ، ومَشَى ابنُ الزبير القَهْقَرى ، ثم قال : يا صِبْيان ؛ اجعلونى أميرَكم ، وشُدّوا بنا عليه . قال : ومرّ به عمرُ بنُ الخطّاب وهو مع الصّبيان ، ففرّوا ووَقَف ، فقال لِمَ[1] لَمْ تفرّ مع أصحابك ؟ فقال : لم أُجرِم فأخافَك ، ولم تكن الطّريق ضَيّقةً فأُوسّعَ عليك !

ورَوَى الزّبير بنُ بكّار ، أنّ عبدَ الله بن سَعْد بن أبى سَرْح غزا إفريقيَة فى خلافة

---

(١) فى د « مالك لاتفر » ؛ وهو مستقم أيضا .

عثمان ، فقتل عبدُ الله بنُ الزبير جِرجيرَ أميرَ جَيْش الرُّوم ، فقال ابنُ أبى سَرْح : إنّى موجِّه بشيراً إلى أمير المؤمنين بما فتح علينا ، وأنتَ أَوْلَى مَن هاهنا ، فانطَلِقْ إلى أمير المؤمنين فأَخْبره الخبَرَ ، قال عبدُ الله : فلمّا قدمتُ على عثمان أخبرتُه بفَتْح الله وصُنْعه ونصرِه ، ووصَفْتُ له أمرَنا كيف كان ، فلمّا فَرغْت من كلامى قال : هل تستطيعُ أن تؤدِّىَ هذا إلى الناس ؟ قلت : وما يمنعنى من ذلك ! قال : فاُخرج إلى النّاس فأخبِرْهم قال عبد الله : فخرجتُ حتّى جئتُ المنبر فاستقبلْتُ الناسَ ، فتلقّانى وجهُ أبى ، فدخَلَتْنى له هَيْبة عرَفها أبى فى وَجْهى ، فقَبَض قبضةً من حَصْباء، وجمعَ وجهَه فى وجهى وهمّ أن يحصِبَنى فأحْزَمْتُ ، فتكلّمتُ .

فزعموا أنّ الزبير لما فرَغ عبدُ الله من كلامه قال : والله لَكأنّى أسمع كلامَ أبى بكر الصّدّيق : من أراد أن يتزوّج امرأةً فلينظرْ إلى أبيها وأخيها فإنّها تأتيه بأحدِهما .

قال الزّبير : ويُلقَّب عبدُ الله بعائذِ البيت ، لاُستعاذتِه به .

قال : وحدّثنى عمّى مُصعب بنُ عبد الله ، قال : إنّ الذى دعا عبدَ الله إلى التعوّذ بالبَيْت شىءٌ سَمِعه من أبيه حين سار من مكّة إلى البَصْرة ؛ فإنّ الزبير التفتَ إلى الكعْبة بعد أنْ ودّع ووجّه يريدُ الرّكوب ، فأقبَلَ على ابنِه عبدِالله ، وقال : تاللهِ مارأيتُ مِثلَها لطالب رَغْبةٍ أو خائفٍ رَهْبة .

ورَوَى الزّبير بنُ بكّار ، قال : كان سبب تعوّذ ابن الزّبير بالكعبة أنه كان يمشى بعد عتَمةٍ فى بعض شوارع المدينة ؛ إذ لقِىَ عبدالله بن سَعْد بن أبى سَرْح متلثّماً لايبدُو منه إلّا عَيْناه . قال : فأخذتُ بيدِه وقلتُ : ابنُ أبى سَرْح ! كيف كنتَ بعدى ؟ وكيفَ تركتَ أميرَ المؤمنين ؟ يعنى معاوية — وقد كان ابنُ أبى سَرْح عندَه بالشام — فلم يكلِّمنى ، فقلت : مالك ؟ أمات أمير المؤمنين ؟ فلم يكلمنى ، فتركْتُه وقد أثبتَ معرفتَه ، ثمّ خرجتُ حتّى لقيتُ الحسينَ بنَ علىّ رضى الله عنه ، فأخبرتُه خبَره ، وقلتُ : ستأتيك رُسُل الوَليد ، وكان الأميرُ عَلَى المدينة الوليدَ بن عُتْبة بن

أبى سُفْيان؛فانظر ما أنتَ صانع ! واعلم أنّ رَواحِلى فى الدّار مُعدّة،والمَوْعِد بينى وبَيْنك أن تغفل عنّا عيونهم ، ثمّ فارقته فلم ألبثْ أن أتانى رسولُ الوَليد ، فجئتُه فوجدتُ الحسينَ عندَه ، ووجدتْ عنده مَروان بنَ الحكَم ، فنَعى إلىّ معاوية ؛ فاسترجعت فأقبَل علىّ ، وقال : هلمّ إلى بَيْعة يزيدَ ، فقد كتب إلينا يأمُرُنا أن نأخذَها عليك ! فقلت : إنّى قد علمتُ أنّ فى نفسه علىّ شيئاً لِترْكى بَيعتَه فى حياة أبيه ، وإن بايعتُ له على هذه الحال توهّمَ أنّى مُكرَه على البَيْعة ، فلم يَقَعْ منه ذلك بحيث أريد ، ولكن أصبِح ويَجتمع الناس ، ويكون ذلك علانيةً إن شاء الله ؛ فَنظَر الوليد إلى مَرْوان فقال مَرْوان : هو الّذى قلتُ لك ؛ إنْ يَخرج لم تَرَه.فأحببتُ أنْ ألقىَ بينى وبينَ مَرْوان شرّا نَتشاغَل به ، فقلتُ له : وما أنتَ وذاكَ يابنَ الزّرقاء ! فقال لى ، وقلتُ له ، حتّى تواثَبْنا ، فتناصيتُ أنا وهو ، وقام الوليدُ فحجز بيننا ، فقال مروان : أتحجُز بيننا بنَفْسك ، وتَدع أن تأمر أعوانَك ! فقال : قد أرَى ماتُريد ، ولكن لا أتولّى ذلك منه والله أبداً ، اذهب يابنَ الزّبير حيثُ شئتَ ؛ قال : فأخذتُ بيدِ الحُسَين،وخرجنا من الباب حتّى صِرْنا إلى المَسْجِد ، وأنا أقول :

ولا تحسبنّى يامُسافِرُ شَحْمةً تَعجّلها من جانب القِدْرِ جائعُ

فلما دخل المسجدَ افترَق هو والحُسين ، وعَمد كلّ واحد منهما إلى مُصلاّه يُصلّى فيه ، وجعلَت الرسلُ تختلِف إليهما ، يَسمَع وَقْع أقدامِهم فى الحصْباء حتّى هدأ عنهما الحِسّ ، ثمّ انصرَفا إلى منازِلِهما ، فأتَى ابنالزبير رواحله ، فقعَد عليها ، وخرج من أدبارِ دارِه ، ووافاه الحسينُ بنُ علىّ ، فخرَجا جميعاً من لَيْلَتهم ، وسلكوا طريقَ الفُرْع حتّى مرّوا بالجَثْجاثة وبها جعفر بنُ الزبير قد ازْدرَعها ، وغَمِز عليهم بعيرٌ من إبلهم فانتهَوْا إلى جعفر ، فلما رآهم قال : مات معاويةُ ؟ فقال عبدُ الله : نعَم ، انطَلِقْ

معنا وأعطنا أحدَ جَمَلَيْك ـ وكان يَنضح على جَملين له ـ فقال جعفر متمثِّلا :

إخوتِي لاتبعدوا أبداً ۞ وبَلَى واللهِ قد بَعُدُوا

فقال عبدُ الله ـ وتطيّر منها : بفيكَ التّراب ! فخرَجوا جميعا حتّى قَدِموا مكّة ،قال الزبير : فأمّا الحُسين عليه السلام فإنّه خرج من مكّة يومَ التّروية يَطلُب الكوفة والعراق ، وقد كان قال لعبد الله بنِ الزبير : قد أتتْنى بَيْعةُ أربعين ألفاً يَحلِفون لى بالطلاق والعتاق من أهل العراق ، فقال : أتخرُجُ إلى قومٍ قتلوا أباك وخذَلوا أخاك!

قال : وبعضُ الناس يزْعم أن[1] عبدَ الله بنَ عباس هو الّذى قال للحُسين ذلك .

قال الزّبير : وقال هشام بنُ عُروة : كان أوّل ماأفصَح به عمّى عبد الله وهو صغير : السّيف ، فكان لا يَضعُه مِن فيه ، وكان أبوه الزبير إذا سَمِع منه ذلك يقول : أما والله ليكونَنّ لك منه يومٌ ويومٌ وأيّام !

* * *

فأما خبرُ مَقتَل عبد الله بن الزّبير فنحن نوردُه من تاريخ أبى جعفر محمد بن جَرير الطبرىّ رحمه الله . قال أبو جعفر : حَصَر[2] الحجّاجُ عبدَ اللهِ بنَ الزبير ثمانيةَ أشهر، فرَوَى إسحاق بنُ يحيى عن يوسفَ بن ماهك ، قال : رأيتُ مَنجنيقَ أهل الشام يُرمَى به ، فرَعَدتِ السماء وبرَقتْ ، وعلا صوتُ الرّعد على صَوْت المَنجنيق ، فأعظَمَ أهلُ الشام ماسَمِعوه ، فأمسكوا أيديَهم ، فرَفَع الحجّاج بِرْكة[3] قبائه ، فغَرَزها فى منطقته ،ورَفَع حَجَر المَنجنيق فوَضَعه فيه ، ثم قال : ارموا ، ورَمَى معهم ؛ قال : ثمّ أصبحوا فجاءت

---

(١) كذا فى د ؛ وفى ب : « ابن » تصحيف .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ٨٤٤ ، وما بعدها (طبعة أوربا) ، مع تصرف واختصار .

(٣) بركة قبائه : مقدمه .

صاعقةٌ يتبَعها أُخْرى ، فقَتلتْ من أصحاب الحجّاج اثنَى عشرَ رجلا ؛ فأنكر أهلُ الشام ، فقال الحجّاج : ياأهلَ الشام ، لاتُنكروا هذا ، فإنّى ابنُ تِهامة ، هذه صَواعقُ تِهامةَ ، هذا الفتحُ قد حَضَر فأبشِروا ، فإنّ القوم يُصيبهم مِثل ماأصابَكم ، فصعقت من الغَد فأُصيبَ من أصحاب ابن الزبير عدّة ما أصاب الحَجّاج ، فقال الحجّاج : ألا ترون أنهم يُصابُون وأنتم على الطّاعة ، وهم على خلاف الطاعة ! فلم تزلْ الحربُ بين ابنِ الزّبير والحجّاج حتّى تفرّق عامّة أصحاب ابن الزبير عنه ، وخرج عامّة أهلِ مكّة إلى الحجّاج فى الأمان .

قال : ورَوَى إسحاق بنُ عبيدالله ، عن المُنذِر بن الجَهْم الأسلَمِىّ ، قال : رأيتُ ابنَ الزّبير ، وقد خَذَلَه من معهخِذْلانا شديداً ، وجَعلوا يَخرجون إلى الحجّاج ، خرج إليه منهم نحوعشرة آلاف ، وذكر أنه كان ممّن فارَقَه ، وخرج إلى الحجاج ابناه : خُبَيب وحمزة ، فأخذا من الحجاج لأنفسهما أمانا .

قال أبو جعفر : فروى محمد بن عمر ، عن ابن أبى الزّناد ، عن مَخْرمة بن سلْمان الوالبىّ ، قال : دخل عبدُ الله بن الزبير على أمّه حين رَأى من النّاس مارأى من خِذْلانه ، فقال : ياأمّه ، خَذَلنى النّاس حتى وَلدِى وأهلى ، ولم يبقَ معى إلّا اليسير ممّن ليس عنده من الدّفع أكثر من صَبْر ساعة ، والقوم يُعطوننى ماأردتُ من الدّنيا ، فما رأيُكِ ؟ فقالت : أنت يابُنىّ أعلَم بنفسك ، إن كنتَ تعلم أنّك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له ، فقد قُتِل عليه أصحابُك ، ولا تُمكِّن من رقَبتِك يتلعّب بك غِلمانُ بنى أميّة ، وإن كنتَ إنّما أردتَ الدُّنيا فبئس العبدُ أنتَ ! أهلكتَ نفسَك وأهلكتَ من قُتِل معك ، وإن قلتَ : قد كنتُ على حقّ فلما وَهَن أصحابى وَهَنْتُ وضعفت ، فليس هذا فِعلُ الأحرار ولا أهل

الدّين ، وكم خُلُودك فى الدنيا ! القَتْل أحسن ، فدنا أبنُ الزبير فقبّل رأسَها ؛ وقال : هذا واللهِ رأيى الذى قمتُ به داعياً إلى يومى هذا ، وما ركنتُ إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياةَ فيها ؛ ولم يَدْعُنى إلى الخرُوج إلّا الغضبُ لله أن تُستَحلّ محارمُه[1] ، ولكنّى أحببتُ أن أعلم رأيَكِ ، فزِدْتِنى بصيرةً مع بصيرتى . فانظُرى يا أمّه ، فإنى مقتول من يومى هذا ، فلا يَشتدّ حُزْنك ، وسَلّمى لأمرِ الله ، فإنّ ابنَك لم يتعمّد إتيان مُنكَر ، ولا عَملاً بفاحشة ، ولم يَجُرْ فى حُكْم ، ولم يغدِر فى أمان ، ولم يتعمّد ظُلمَ مُسلِم ولا مُعاهِد ، ولم يبلُغنى ظلمٌ عن عُمّالى فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن شىءٌ آثرَ عندى من رِضَا ربى . اللهمّ إنى لا أقول هذا تزكيةً منّى لنفسى ، أنتَ أعلمُ بى ، ولكنّنى أقوله تعزيةً لأمّى لتسلوَ عنّى . فقالت أمّه : إنى لأرْجو من الله أن يكون عَزائى فيك حَسَناً إنْ تقدّمْتَنى ، فلا أخرُج من الدنيا حتى أنظرَ إلى ما يصيرُ أمرُكَ ، فقال : جزاكَ الله يا أمّه خيراً ! فلا تَدَعى الدّعاء لِى قبلُ وبعد ؛ قالت : لا أدعُه أبداً ، فمن قُتِل على باطل فقد قُتِلتَ على حقّ . ثم قالت : اللهمّ ارحمْ طول ذلك القيامِ فى الليل الطويل ، وذلك النّحيب والظّمأ فى هَواجِرِ المدينة ومَكّة ، وبرّه بأبيه وبى ! اللهم إنى قد سلّمته لأمرِكَ فيه ، ورضيت بما قضيتَ ، فأثِبْنى فى عبدِ الله ثوابَ الصّابرين الشاكرين .

قال أبو جعفر : ورَوَى محمّد بن عمَر ، عن موسى بن يعقوب بن عبد الله ، عن عمّه ، قال : دخل ابنُ الزبير على أمّه وعليه الدّرع والمِغفَر ، فوَقَف فسلّم ، ثمّ دنا فتناول يدَها فقبّلها ، فقالت : هذا وَداع فلا تَبْعَد ، فقال : نعَم ، إنّى جئت مودّعا ، إنى لأرَى أنّ هذا اليومَ آخرُ يوم من الدنيا يمرّ بى ؛ واعلمى يا أمّه أنى إن قُتلتُ فإنما أنا لحمٌ لا يَضرّه ما صُنِع به ، فقالت : صدقتَ يا بُنىّ ، أتمّ على بَصيرَتِك ، ولا تُمكّن ابنَ

---

(١) الطبرى : « أن يستحل حرمه » .

أبى عَقِيل منك ، وادنُ منى أودِّعك ؛ فدنا منها فقبّلها وعانقها ، فقالت حيث مسّت الدِّرع : ما هذا صَنِيعُ مَن يريدُ ما تريدُ ! فقال : ما لبستُها إلا لأشدّ منكِ ، فقالت : إنها لا تشدّ منى ؛ فنزعها ، ثمّ أخرجَ(١) كمّيه وشدّ أسفَل قميصه ، وعمَد إلى جبّةِ خَزٍّ تحت القميص ، فأدخَل أسفلَها فى المِنطقة ، فقالت أُمه : شَمِّرْ ثيابَك ، فشمَّرها ، ثم انصرف وهو يقول :

إنّى إذا أعرِف يومِى أصــبِرْ إذ بعضُهم يعرِف ثم يُنكِرْ

فسمعت العجوز قوله ، فقالت : تصبر والله ، ولم لا تصبر وأبوك أبو بكر والزبير ، وأمك صفية بنت عبد المطلب !

قال وَرَوَى محمد بن عمر عن ثَوْر بن يزيدَ عن رجل من أهل حِمْص قال : شهدتهُ واللهِ ذلك اليوم ونحن خمسمائة من أهلِ حِمْص ، فدَخَل من باب المسجد لا يدْخُل منه غيرنا ، وهو يَشدّ علينا ونحن مُنهزمون وهو يرتجز :

إنى إذا أعرِف يومى أصـبِرْ وإنما يَعرِف يَوْمَيْــه الْحُرّ

* وبَعضُهْم يَعرِف ثمّ يُنْكِرْ *

فأقول : أنت واللهِ الحرّ الشريف ، فلقد رأيتُه يقف بالأبطَح ،لا يدنو منه أحدٌ حتّى ظنّننا أنهُ لا يقتل .

قال وَرَوَى مُصعَب بنُ ثابت ، عن نافع مولَى بنى أسَد ، قال : رأيتُ الأبوابَ قد شُحِنتْ بأهل(٢) الشام ، وجَعَلوا على كلّ باب قائدا ورجالا وأهل بلد ، فكان لأهل حِمصَ الباب الّذى يواجه بابَ الكعبة ، ولأهلِ دمشق باب بنى شَيْبة ، ولأهل الأُرْدُنّ بابُ الصّفا ، ولأهل فِلَسْطين باب بنى جُمَح ، ولأهلِ قِنّسْرِينَ بابُ بنى سَهْم ، وكان الحجاج وطارقُ بن عمرو فى ناحية الأبطح إلى المَرْوَة ، فمرة يحمِل ابنُ الزّبير

(١) الطبرى : « أدرج » .

(٢) الطبرى : « من أهل الشام » :

فى هـذه الناحية ، ولـكأنه أسَد فى أجمة ما يُقدِم عليه الرّجال ، فيعدُو فى أثَر الرجال وهم على الباب حتّى يُخرجهم ، ثم يصِيح إلى عبدالله بن صَفْوان ، ياأبا صَفْوان ، وَيلُ أُمّه فتحا لو كان له رجال ! ثم يقول :

* لو كان قِرْنى واحدا كُفِيتُه (١) *

فيقول عبدُ الله بن صَفْوان : إى والله وألفا .

قال أبو جعفر : فمّا كان يوم الثلاثاء ، صبيحة سبع عشرةَ من جُمادى الأولى سنَة ثلاث وسَبْعين ، وقد أخـذ الحجّاج على ابن الزّبير بالأبواب ، باتَ ابنُ الزّبير تلك الليلة يصلّى عامّة الليل ، ثم احتبَى بحمائِل سيفِه ، فأغفَى ثم انتَبه بالفَجْر ، فقال : أَذِّنْ ياسعد ؛ فأذّن عنـد المَقام ، وتوضّأ ابنُ الزبير ورَكع ركعتَى الفَجْر ، ثم تقدَّم وأقام المؤذّن ، فصلّى ابنُ الزبير بأصحابه فقرأ « ن والقَلَم » حَرْفا حرفاثمّ سلّم، ثمّ قام ، فَحمِدالله وأثنى عليه ثم قال : اكشفوا وجوهَـكم حتى أنظرَ ، وعليها المَغافِر والعَمائم ، فـكَشَفوا وجوهَهم ، فقال : يا آل الزّبير ، لو طِبْتم لى نَفْسا عن أنفسكم كنّا أهلَ بيت مِن العرب اصطُلِمْنا ، لم تُصبنا مَذَلّة ، ولم نقرّ على ضَيْم . أمّا بعد يا آل الزبير ، فلاَ يرُعْكم وَقعُ السّيوف ، فإنى لم أحضر مَوْطنا قطّ ارتُثِثْتُ فيـهِ بين القَتْلَى ، وما أجـد من دواء جراحها أشدّ ممّا أجِد من ألَم وَقْعها . صونوا سيوفَـكم كما تصونون وجوهَـكم . لا أعلم امرأً كَسَر سيفَه واستَبقى نفسَه . فإنّ الرّجل إذا ذهبَ سلاحُه فهو كالمرأة أعزَل . غضّوا أبصاركم عن البارِقَة ، وليَشغل كلُّ امرئٍ قِرْنه ، ولا يُلهينّـكم السّؤالُ عنّى ، ولا تقولُنّ : أين عبدُ الله بن الزّبير ؟ ألا من كان سائلا عنّى فإنّى فى الرّعيل الأوّل ، ثمّ قال :

---

(١) من أبيات لدويد بن زيد بن نهد ، طبقات الشعراء ٢٧ ، ٢٨ .

أبَى لابنِ سَلْمى أنّه غيرُ خالدٍ   يُلاقِي المَنايا أيَّ وجهٍ تيَمَّما (١)
فلستُ بمُبتاعِ الحياةِ بسُبّةٍ   ولا مُرْتقٍ من خَشْيةِ الموت سُلَّما

ثمّ قال: احملوا على بركة الله، ثمّ حَمَل حتّى بلغ بهم إلى الحَجُون، فرُمِىَ بحجَر، فأصاب وجهه، فأرعِشَ ودَمِىَ وجهُه، فلمّا وجد سُخونة الدّم تسيلُ على وجهه ولحيته قال:

ولَسْنا على الأعقاب تَدْمَى كُلومُنا   ولكنْ على أقدامِنا تَقطُر الدِّما (٢)

قال: وتَقاوَوا عليه، وصاحتْ مولاةٌ له مجنونة: وا أمير المُؤمنيناه! وقد كان هوَى، ورأتْه حين هَوَى فأشارتْ لهم إليه، فقُتِل وإنّ عليه لثياب خَزٍّ، وجاء الخبرُ إلى الحجّاج، فسَجَد وسار هو وطارقُ بنُ عمرو، فوَقَفا عليه، فقال طارق: ماوَلَدتِ النّساء أذكَرَ مِن هذا، فقال الحجاج: أتمدَح من يُخالِف طاعة أمير المؤمنين! فقال طارق: هو أعذَرُ لنا، ولولا هذا ما كان لنا عُذْرٌ، إنّا مُحاصِروه وهو فى غير خَنْدق ولا حِصْن ولا مَنَعة منذُ ثمانيةِ أشهُر يَنتصِف منّا، بل يَفضُل علينا فى كلّ ما التقينا نحن وهو؛ قال: فبلغ كلامُهما عبد الملك، فصوّب طارقا.

قال: وبَعثَ الحجّاجُ برأس ابن الزبير ورأس عبد بن صَفْوان ورأس عمارة بن عمْرو ابن حَزم إلى المدينة، فنصبت الثلاثة بها، ثمّ حملتْ إلى عبد الملك.

***

ونحن الآن نذكرُ بقية أخبارِ عبد الله بن الزبير ملتقطةً من مواضع متفرقة:

رُئِىَ عبدُ الله بنُ الزبير فى أيام معاوية واقفاً بباب مَيّةَ مولاة معاوية، فقيل له:

---

(١) للحصين بن الحمام المرى، الأغانى ١٤ : ٨ .
(٢) للحصين بن الحمام المرى، ديوان الحماسة ١ : ١٩٢ — بشرح التبريزى .

يا أبا بكر ، مِثلُكَ يَقِفُ بباب هذه ! فقال : إذا أعْيَتكم الأمورُ مِن رُءوسها فخذوها من أذنابها .

ذكر معاويةُ لعبد الله بن الزبير يزيد ابنه ، وأراد منه البَيْعة له ، فقال ابنُ الزبير : أنا أناديك ولا أناجيك ، إن أخاكَ مَنْ صدَقك ، فانظر قبل أن تقدم ، وتفكّر قبل أن تَنْدَم ؛ فإن النظر قبل التقدم ؛ والتفكّر قبل التندّم ؛ فضَحِك معاويةُ وقال : تعلمتَ يا أبا بكرٍ الشّجاعة عند الكِبَر .

***

كان عبدُ الله بنُ الزبير شديد البُخْل ، كان يُطعِم جندَه تمرا ، ويأمُرهم بالحرْب ، فإذا فرّوا مِن وَقع السيوف لامَهم وقال لهم : أكَلتم تَمْرِى ، وعصَيْتم أمرى فقال بعضهم :

ألم تَرَ عبدَ الله — والله غالبٌ   على أمره — يبغى الخلافَة بالتّمْرِ

وكسَرَ بعضُ جنده خمسة أرماح فى صدور أصحاب الحجّاج ، وكلّما كسَرَ رُمحا أعطاه رُمحا ، فشَقّ عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماح ! لا يَحتمِل بيتُ مال المسلمين هذا .

قال : وجاءه أعرابىّ سائلٌ فَرَدّه ، فقال له : لقد أحرَقَت الرّمْضاء قدمىّ ؛ فقال : بُلْ عليهما يبردان .

***

جَمع عبد الله بنُ الزبير محمد بن الحنفيّة وعبد الله بن عباس فى سبعة عشر رجلا من بنى هاشم ، منهم الحسن بنُ الحسن بن علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، وحصَرَهم فى شِعْب بمكة يُعرَف بشعب عارِم ، وقال : لا تمضى الجمعةُ حتى تُبايعوا إلىّ أو أضرب أعناقكم ، أو أحرِقكم بالنار ، ثم نهض إليهم قبل الجمعة يريد إحراقهم بالنار ، فالتزمه

ابن مِسْوَر بن مخرمة الزهرىّ ، وناشده الله أن يؤخّرهم إلى يوم الجمعة ، فلمّا كان يوم الجمعة دعا محمد بن الحنفيّة بغَسول وثياب بيض ، فاغتسل وتلبّس وتحنّط ، لا يَشُكُّ فى القتل ، وقد بعث المختار بن أبى عُبيد من الكوفة أبا عبدِ الله الجَدَلىّ فى أربعة آلاف ، فلما نزلوا ذات عِرْق ؛ تعجّل منهم سبعون على رواحلهم حتى وافَوْا مكة صبيحة الجمعة يُنادُون : يا محمّد ، يامحمّد ! وقد شهَروا السّلاح حتى وافَوْا شِعْبَ عارِم ، فاستخلصوا محمّدَ ابن الحنفيّة ومن كان معه ، وبعث محمد بنُ الحنفيّة الحسن بنَ الحسن يُنادِى : من كان يرَى أن الله عليه حقّا فليشِمْ سَيْفَه ، فلا حاجة لى بأمر الناس ، إنْ أُعطِيتُها عفوا قَبِلتُها ، وإن كَرِهوا لم نبْتزّهم(١) أمرَهم .

وفى شِعب عارم وحصار ابن الحنفيّة فيه يقول كُثيّرُ بنُ عبدِ الرحمن :

ومن يرَ هذا الشيخ بالخَيف مِن مِنىً ... مِنَ الناس يَعلم أنه غيرُ ظالِمِ
سَمِىّ النبىّ المصطفى وابنُ عمّه ... وحَمّالُ أثقالٍ وفَكّاكُ غارِمِ
تخبّر من لاقيتَ أنك عائذٌ ... بل العائذُ المحبوسُ فى سِجْن عارِمِ

وَرَوَى المَدائنىّ ، قال : لما أخرجَ ابنُ الزبير عبدَ الله بن عباس من مكة إلى الطائف مرّ بنَعمان ، فنزل فصلّى ركعتين ، ثم رفع يَدَيْه يدعو ، فقال : اللهمّ إنك تعلم أنه لم يكنْ بلدٌ أحبّ إلىّ من أن أعبُدَك فيه من البلد الحرام ، وأننى لا أحبّ أن تقبض رُوحى إلّا فيه ، وأنّ الزبير أخرجنى منه ، ليكون الأقوى فى سلطانه . اللهمّ فأوْهِن كيدَه ، واجْعل دائرة السَّوْء عليه . فلمّا دنا من الطّائف تلقاه أهلها ، فقالوا : مرحباً بابن عمّ رسول الله صلى الله عليه ! أنتَ والله أحبُّ إلينا وأكرم علينا ممّن أخرجك ؛ هذه مَنازِلنا تخيّرها ، فانزلْ منها حيث أحببت ؛ فنزل مَنزلا ، فكان

---

(١) لم نبتزهم أمرهم : لم تسلبه منهم عفوا .

يَجلس إليه أهلُ الطَّائف بعد الفجر وبعد العَصْر ؛ فيتكلَّم بينهم ، كان يحمد الله ويذكُر النبيَّ صلى الله عليه وآله والخلفاء بعده ، ويقول : ذهبوا فلم يَدَعوا أمثالهم ولا أشباههم ولا مَن يُدَانيهم ؛ ولكنْ بقى أقوامٌ يطلُبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويلبَسون جلود الضَّأن ؛ تحتَها قلوبُ الذِّئاب والنُّمور ، لِيَظُنَّ الناسُ أنهم من الزاهدين فى الدنيا ، يُراءون النـاس بأعمالهم ، ويُسْخِطون الله بسرائرهم ؛ فادعوا الله أن يقضىَ لهذه الأمة بالخير والإحسان ، فيولِّى أمرها خيارَها وأبرارَها ، ويُهلك فُجّارها وأشرارها ، ارفعوا أيديَكم إلى ربِّكم وسلُوه ذلك ؛ فيفعلون .

فبلغ ذلك ابن الزبير ، فكتب إليه :

أما بعد ، فقد بلغنى أنك تجلس بالطّائف العَصْرَيْن فتُفْتيهم بالجهل ، تَعيب أهلَ العَقْل والعِلم ؛ وإنّ حِلْمى عليك ، واستدامتى فَيئك جرّآك علىّ ، فاكفُفْ ـ لا أبا لغيرك ـ مِنْ غَرْبك ، وارْبَعْ على ظَلْعك[1] ، واعقل إن كان لك معْقول ، وأكْرم نفسك فإنك إن تُهِنْها تجدها على الناس أعظم هَوَانا ، ألم تسمع قول الشاعر :

فنفسكَ أكْرِمْهـا فإنّك إن تَهُنْ ... عليكَ فلنْ تلقى لها ـ الدهرَ ـ مُكرِما

وإنِّى أُقسم بالله لئن لم تنته عمّا بلغنى عنك لتجدَنَّ جانبى خَشِنا ، ولتجدنّنى إلى مايَرْدَعُك عنّى عجِلا ، فَرَ رأيك ، فإنْ أشقى بك شقاؤك على الرَّدى فلا تَلُم إلا نفسك .

فكتب إليه ابنُ عباس :

أما بعد ، فقد بلغنى كتابُك ؛ قلت : إنّى أُفتى الناس بالجهل ، وإنما يُفتى بالجهْل مَن لم يعرف مِن العلم شيئاً ، وقد آتانى اللهُ مِن العلم مالم يؤتِك . وذكرت أنّ حِلمك عنى ، واستدامتَك فَيْئ جرّآنى عليك ، ثمّ قلت : اُكففْ مِن غَرْبك ، وارْبَعْ على

---

(١) يقال : اربع على ظلعك ؛ أى افعل بقدر ماتطيق ، ولاتحمل عليها أكثر مما تطيق :

ظَلْعك ؛ وضربت لىَ الأمثال ، أحاديث الضّبع ، متى رَأيتنى لعُرامِك[1] هائبا ، ومن حَدّك نا كِلا ! وقلت : لئن لم تـكفف لتجدنّ جانبى خَشِناً ، فلا أبقى الله عليك إن أبقيت ، ولا أرعى عليك إن أرْعيت ! فوالله أنتهى عن قول الحق ، وصفة أهل العدل والفضل ، وذمّ الأخسَرِين أعمالا ، الذين ضَلّ سعيُهم فى الحياة الدنيا وهُم يحسبون أنهم يُحسنون صُنْعا ؛ والسّلام.

***

قَدِم معاوية المدينة راجعا من حَجّة حَجّها ، فـكثُر الناسُ عليه فى حوائجهم ، فقال لصاحِب إبله : قَدّم إبلك لَيْلا حتى أرتحل ؛ ففعل ذلك ، وسار ولم يعلم بأمره إلّا عبدالله بنُ الزبير ؛ فإنه ركب فَرَسه وقفَا أثره ، ومعاوية نائم فى هَوْدجه ، فجعل يسيرُ إلى جانبه، فانتبه معاويةُ ، وقد سمع وَقْع حافر الفَرَس، فقال : من صاحب الفرس ؟ قال: أنا أبو خُبيْب، لوقد قتلتك منذ الليلة ! يُمازحه ، فقال معاوية : كلاّ لستَ من قَتلة الملوك ، إنما يصيد كلُّ طائر قَدْرَه . فقال ابنُ الزبير : إلىّ تقول هـذا ، وقد وقفتُ فى الصّفّ بإزاء علىّ بن أبى طالب ؛ وهو مَن تعلم ! فقال معاوية : لاجرم ! إنه قَتلك وأباك بيسرى يدَيْه ، وبقيتْ يدُه اليمنى فارغة يطلب مَنْ يقتله بها . فقال ابن الزبير : أما والله ما كان ذاك إلّا فى نَصْر عثمان فلم نُجزَ به ، فقال معاوية : خَلّ هذا عنك ، فوالله لولا شدّة بُغْضِك ابن أبى طالب لجرَرْت بِرِجْل عثمان مع الضبُع . فقال ابن الزبير : أفعَلْتها يامعاوية ! أما إنّا قد أعطَيْناك عَهْدا ، ونحنُ وافون لك به مادمتَ حيّا ، ولـكن ليعلمنّ مَنْ بعـدك ، فقال معاوية : أما واللهِ ماأخافُك إلّا على نفسك ، ولـكأنى بك وأنت مشـدودٌ مَرْبوط فى الأنشوطة[2] ، وأنت تقول : ليت أبا عبد الرحمن كان حيًّا ، وليتنى كنتُ حيا يومئذ ، فأحلّك حلاّ رفيقا ، ولبئس المُطلق والمعتق والمَسْنون عليه أنت يومئذ !

---

(١) العرار : الشراسة والشدة .

دَخل عبدُالله بنُ الزبير على معاوية وعندَه عمرو بنُ العاص ، فتكلم عمرو ـ وأشار إلى ابن الزبير ـ فقال : هذا والله يا أميرَ المؤمنين الّذى غرّته أناتُك ، وأبْطَره حِلْمك ، فهو يَنْزُو فى نَشْطته نزْوَ العير فى حبالته ، كلّما قَمصتْه الغُلَواء والشِّرَّة سكّنت الأنشوطةُ منه النّفرة ، وأحْرِ به أن يئول إلى القِلّة أو الذِّلّة ، فقال ابنُ الزبير : أما واللهِ يابنَ العاص ، لولا أنّ الإيمان ألزمنا بالوَفاء ، والطاعةِ للخُلفاء ـ فنحن لا نريد بذلك بدَلا ، ولا عنه حِوَلا ـ لكان لنا وله ولك شأن ، ولو وَكَله القضاء إلى رأيك ، ومَشُورة نُظَرائك لدافَعْناه بمَنكِب لا تئوده المُزاحمة ، ولقاذَفْناه بحَجَر لا تَنْكَؤه المُراجمة ؛ فقال معاوية : أما والله يابنَ الزّبير لولا إيثارِى الأناةَ على العَجَل ، والصَّفْحَ على العقُوبة ، وأنّى كما قال الأوّل :

أُجامِلُ أقواماً حَياءً وقد أرَى ... قُلوبَهمُ تَغْلى علىّ مِراضُهـــا

إذاً لقَرَنْتُك إلى ساريةٍ من سَوارِى الحَرَم تُسكِّن بها غُلَواءكَ ، وينقَطِع عندَهَا طَمعُك ، وتَنقُص من أَمَلك ، ما لَعلّك قد لوَيْته فشزرته ، وفتَلْته فأبرَمْته . وايمُ اللهِ إنّك من ذلك لَعلَى شَرف جُرُف بَعيدِ الهُوّة ؛ فكُن على نفسِك ولها ، فما توبِق ولا تنقذ غيرَها ، فشأنك وإيّاها .

***

قطع عبدُالله بن الزّبير فى الُخطبة ذِكْرَ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله جمعاً كثيرة ، فاستعظَم الناسُ ذلك ، فقال : إنى لا أرغَب عن ذِكره ، ولكنّ له أُهَيل سوء إذا ذكرتُه أتلعوا أعناقهم ، فأنا أحِبّ أن أكْبتهم .

***

لمّا كاشف عبدُالله بنُ الزبير بنى هاشم وأظهرَ بُغضهم وعابهم ، وهمّ بما همّ به فى

أمرهم ، ولم يذكر رسولَ الله صلى الله عليه وآله فى خُطبةٍ ، لا يومَ الجمعة ولا غيرها ، عاتبَه على ذلك قومٌ من خاصّته ، وتشاءموا بذلك منه ، وخافوا عاقبتَه ، فقال : واللهِ ما تركتُ ذلك علانيةً إلّا وأنا أقوله سِرّا وأكثر منه ؛ لكنّى رأيتُ بنى هاشم إذا سمعوا ذِكرَه اشرَأبّوا واحمرّت ألوانُهم ، وطالتْ رقابُهم ، والله ما كنتُ لآتى لهم سُروراً وأنا أقدر عليه ، واللهِ لقد هممتُ أن أحظر لهم حظيرةً ثم أضرِمها عليهم نارا ، فإنى لا أقتلُ منهمْ إلّا آثماً كفّارا سحّارا ، لا أنماهم [1] الله ولا باركَ عليهم ، بيتُ سَوء لا أوّل لهم ولا آخِر ، والله ما ترك نبىّ الله فيهمْ خيرا ، استفرَع نبىّ الله صدْقهم فهمْ أكذَب الناس .

فقام إليه محمّد بنُ سعد بنِ أبى وقّاص فقال : وفّقك الله يا أمير المؤمنين ! أنا أوّل مَن أعانك فى أمرهم ، فقام عبدُ الله بنُ صَفوَان بن أميّة الجُمحىُّ ، فقال : والله ما قلتَ صوابا ، ولا هممتَ برُشْد ، أرَهْطَ رسول الله صلّى الله عليه وآله تَعيب ، وإياهم تَقتُل ، والعرب حوْلك ! واللهِ لو قتلتَ عِدّتهم أهل بيت من الترك مُسلِمين ما سوّغه الله لك ، واللهِ لو لم [2] يَنصُرْهم الناس منك لنَصرَهم اللهُ بنَصْره . فقال : اجلس أبا صَفْوان فلستَ بناموس [3] .

فبلَغ الخبرُ عبدَالله بن العبّاس ، فخرج مُغضَبا ومعه ابنُه حتى أتى المسجد ، فقصد قَصْد المنبَر فحمد اللهَ وأثنى عليه ، وصلى على رسول الله صلى الله عليه وآلهِ ثمّ قال : أيها الناس ، إن ابن الزّبير يزعُم أن لا أوّل لرسول الله صلّى الله عليه وآله ولا آخِر ، فيا عَجبا كلَّ العَجبِ لافترائه ولكَذِبه! والله إنّ أوّل من أخَذَ الإيلافَ وحَمى عِيرات [4]

---

(١) لا أنماهم : لا أكثر عددهم . (٢) فى د « لولا » . (٣) الناموس : الحاذق .

(٤) العير ـ بالكسر : الإبل تحمل الميرة ؛ بلا واحد من لفظها ، وجمعه عيرات .

قريش لهاشم ، وإن أوّل من سقى بمكّة عذبا (١) ، وجعل بابَ الكعبة ذَهبا لَعبدُ المطّلب، والله لقد نشأتْ ناشئتُنا مع ناشئةِ قُرَيش ، وإنْ كنّا لقالتَهم (٢) إذا قالوا ، وخُطباءَهم إذا خَطَبوا ؛ وما عُدَّ مَجْد كمجدِ أوّلنا ، ولا كان فى قُرَيشٍ مجدٌ لِغَيْرنا ؛ لأنّهـا فى كفر ماحِق ، ودِينٍ فاسق ، وضلّة وضلالة ، فى عَشْوَاء (٣) عَمْياء ، حتّى اختارَ الله تعالى لها نُورا ، وبَعث لها سِراجا ، فانتجبه (٤) طيباً من طيّبين ، لا يَسُبّه بمسبّة ، ولا يبغى عليه غائلة ، فكان أحدنا وولدَنا ، وعمّنا وابنَ عمّنا (٥) . ثمّ إنّ أسبقَ السابقين إليه منّا وابنُ عمّنا ، ثم تلاه فى السّبق ، أهلُنا ولحمتنا (٦) واحدا بعد واحد .

ثمّ إنّا لخير الناس بعدَه وأكرَمُهم أدَبا ، وأشرَفُهم حسَبا ، وأقربهم منه رَحما .

واعَجَبا كلَّ العجَب لابن الزبير ! يعيبُ بنى هاشم ، وإنما شَرُف هو وأبوه وجدُّه بمُصاهرَتِهم ؛ أما واللهِ إنّه لمسلوبُ قريش ، ومتى كان العوّام بن خُوَيلد يطمَع فى صفيّة بنت عبد المطلب ! قيل للبَغل : مَن أبوك يابَغْل ؟ فقال : خالى الفرَس . ثمّ نزل .

***

خطب ابنُ الزبير بمكّة على المِنبر ؛ وابن عباس جالسٌ مع النّاس تحتَ المِنبر ، فقال : إنّ هاهنا رَجُلا قد أعمَى الله قلبه كما أعمَى بَصرَه ، يزعُم أن مُتْعة النّساء حلالٌ من اللهِ ورَسولِه ، ويُفتى فى القَمْلة والنّمْلة ؛ وقد احتمَل بيتَ مال البَصْرة بالأمس ، وترَكَ المسلمين بها يرتَضخون (٧) النّوَى ؛ وكيف ألومُه فى ذلك ، وقد قاتَلَ أمَّ المؤمنين وحَوارِيَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله ، ومن وقاه بيَدِه !

---

(١) فى الطبرى : « وعبد المطلب هو الذى كشف عن زمزم بئر إسماعيل بن إبراهيم واستخرج ما كان فيها مدفونا » .

(٢) القالة : جمع قائل .

(٣) فتنة عشواء ، من العشى ؛ وهو سوء البصر بالليل والنهار .

(٤) انتجبه : انتخبه .

(٥) ابن عمنا ، أى على بن أبى طالب .

(٦) اللحمة : القرابة .

(٧) يرتضخون النوى : يكسرونه .

فقال ابنُ عباس لقائده سعد بن جُبير بن هشام مولَى بنى أسَد بن خُزيمة : استقبِل بى وجهَ ابنِ الزبير ، وارفَعْ من صدْرى ؛ وكان ابنُ عباس قد كُفَّ بَصرُه فاستقبل به قائدُه وجهَ ابنِ الزبير ، وأقام قامَته فحسَرَ عن ذِراعَيه ، ثم قال يابنَ الزّبير :

قد أنصفَ القارةَ مَن راماها (١) إنّا إذا ما فِئــــةٌ نلقاها

نردّ أُولاهــا على أُخراهَا حتى تَصيرَ حرَضاً دَعْواهَا (٢)

يابنَ الزّبير ؛ أما العمَى فإنّ الله تعالى يقول : ﴿ فإنّهـا لا تَعمَى الأبصارُ ولـكنْ تعمَى القلوبُ التى فى الصدور ﴾ (٣) ؛ وأمّا فُتْيايَ فى القمْلة والنّملة ؛ فإنّ فيها حُـكمين لا تعلَمها أنتَ ولا أصحابك . وأما حَمْلى المال فإنه كان مالاً جبَيْناه فأعطَيْنا كلَّ ذى حقّ حقه ، وبقيتْ بقيّةٌ هى دونَ حقّنا فى كتاب الله فأخذْناها بحقّنا . وأما المُتْعة فسَلْ أمّكَ أسماء إذا نزلت عن بُرْدَىْ عَوْسَجة . وأما قتالُنا أمّ المؤمنين فبنا سمّيتْ أمّ المؤمنين لا بك ولا بأبيك ؛ فانطَلَق أبوك وخالك إلى حِجاب مدّه الله عليها ، فهتَـكاه عنهـا ، ثمْ اتخذاها فتنة يقاتِلان دُونَها ، وصانا حلائلهما فى بُيوتهما ، فما أنصفا الله ولا محمّدا من أنفسِهما أن أبرَزَا زوجةَ نبيِّه وصانا حلائلهما . وأما قتالنا إيّاكم فإنّا لقِينا زَحفا ، فإن كنّا كُفّارا فقد كفَرتم بفِرارِكم منّا ، وإنْ كنّا مؤمنين فقد كفَرتم بقتالِـكم إيّانا، وايمُ اللهِ لولا مكانُ صَفِيّة فيكم ، ومكانُ خديجة فينا ، لما تركت لبنى أسد بن عبدِ العُزّى عَظْما إلّا كسَرْته .

فلما عادَ ابنُ الزبير إلى أمّه سألها عن بُرْدَىْ عَوْسجة ، فقالت : ألم أنهَك عن ابن عباس وعن بنى هاشم ! فإنّهم كُعُمُ (٤) الجواب إذا بدِهوا ، فقال : بلى ، وعصيتُكِ .

(١) فى اللسان : القارة : قوم رماة من العرب ، وفى المثل : « قد أنصف القارة من راماها » .
(٢) الحرض : الفساد فى الذهن والعقل والبدن .
(٣) سورة الحج آية ٤٦ .
(٤) كعم البعير : شدفاه لئلا يعض أو يأكل ، والكعام ـ ككتاب ـ : مايجعل على فمه ، والجمع كعم ، والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخرسة تلجم أفواه مناظريهم .

فقالت : يا بُنَيّ ، احذرْ هذا الأعمى الّذى ما أطاقته الإنس والجنّ ، واُعلمْ أنّ عنده فضائحَ قريش ومَخازيَها بأسرِها ، فإيّاكَ وإيّاه آخر الدهر ، فقال : أيمنُ بنُ خريمِ بنِ فاتِك الأسدىّ :

يابن الزّبيرِ لقد لاقيْتَ بائقةً ... مِن البوائقِ فالطُفْ لُطفَ مُحْتالِ
لاقَيْتَه هاشميًا طابَ مَنبته ... فى مَغْرِسَيْه كريمَ العمّ والخالِ
ما زال يقرَع عنكَ العَظْم مقتدرا ... على الجواب بصَوْت مُسمع عالِ
حتى رأيتك مِثل الكَلْب مُنْجَحِراً ... خَلفَ الغبيطوكنتَ الباذِخَ العالى
إن ابنَ عباسٍ المعروف حِكْمَته ... خيرُ الأنام له حالٌ مِن الحالِ
عيّرته المُتْعة المَتْبوع سُنّتها ... وبالقتال وقد عيّرت بالمالِ
لمّا رَماكَ على رِسْلٍ بأسْهُمِه ... جرَتْ عليك بسَيْفِ الحالِ والبالِ
فاُحتزّ مِقوَلَك الأعْلى بشَفْرَتِه ... حزًّا وَحِيًا بلا قِيلٍ ولا قالِ(١)
واُعلمْ بأنك إن عاوَدْتَ غَيْبَته ... عادتْ عليكَ مَخازٍ ذات أذيالِ

***

ورَوى عثمانُ بنُ طلحةَ العَبْدَرِىّ ، قال : شهدتُ مِن ابنِ عباس رحمه الله مَشهدا ما سمِعْتُه من رجلٍ من قريش ، كان يُوضَع إلى جانب سَريرِ مَرْوان بن الحَكَم ـ وهو يومئذ أميرُ المدينة ـ سريرٌ آخرُ أصغر من سريره ؛ فيَجلس عليه عبدُ الله بنُ عباس إذا دخل ، وتُوضَع الوَسائد فيما سِوَى ذلك ، فأذِن مروانُ يوماً للناس ، وإذا سريرٌ آخر قد أُحدِث تجاه سَرير مَرْوان ، فأقبل ابنُ عباس فجلس على سريره ، وجاء عبدُ الله ابنُ الزّبير فجلس على السرير المُحدَث ، وسَكت مروانُ والقومُ ، فإذا يَدُ ابنِ الزبير

---

(١) وحيا : سريعا .

تتحرّك فعلم أنه يريدُ أن ينطِق ، ثمّ نطَق فقال : إنّ ناسا يزعمون أنّ بيْعةَ أبى بكر كانت غَلَطا وفَلْتة ومغالَبة ؛ ألا إنّ شأن أبى بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، ويزعمون أنه لولا ما وَقَع لكان الأمرُ لهم وفيهم ، واللهِ ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وآله أحدٌ أثبتَ إيمانا ، ولا أعظمَ سابقةً من أبى بكر ، فمَنْ قال غيرَ ذلك فعليه لعنة الله ! فأين هم حين عَقَد أبو بكر لعمر ، فلم يَكُن إلا ما قال ، ثمّ ألقى عمرُ حظَّهم فى حُظوظ ، وجدَّهم فى جُدُود ، فقسّمت تلك الحظوظ ، فأخّر الله سَهْمَهم ، وأدحض جَدَّهم ، وولَّى الأمرَ عليهم من كان أحقّ به منهم ، فخرجوا عليه خروجَ اللّصوص على التّاجر خارجا من القرية ، فأصابوا منه غِرّة فقتلوه ، ثم قَتَلهم الله به قِتْلة ، وصاروا مطرُودين تحتَ بُطون الكواكب .

فقال ابنُ عبّاس : على رِسْلك[1] أيها القائل فى أبى بكر وعُمَر والخلافة ، أما واللهِ ما نالا ولا نال أحدٌ منهما شيئاً إلا وصاحبنا خيرٌ ممن نالا ، وما أنكَرْنا تقدّم من تقدّم لعَيْب عِبْناه عليه ؛ ولو تقدم صاحبُنا لكانَ أهلا وفوقَ الأهْل ، ولولا أنّك إنما تذكُر حظّ غيرك وشرفَ امرئٍ سواك لكلّمتك ، ولكن ما أنتَ وما لا حظّ لك فيه ! اقتصِر على حظّك ، ودَعْ تَيْماً لِتَيْم ، وعدِيًا لعَدِىّ ، وأُميّة لأميّة ، ولو كلّمنى تَيمىٌّ أو عدَوِىّ أو أُمَوِىٌّ لكلّمته وأخبرتُه خبرَ حاضرٍ عن حاضر ، لا خبرَ غائبٍ عن غائب ، ولكن ما أنت ، وما ليس عليك ! فإن يكن فى أسدِ بنِ عبدِ العزّى شىء فهو لك ، أما واللهِ لنحنُ أقرَب بك عهدا ، وأبيَض عندك يداً ، وأوفر عندك نِعْمة ممّن أمسيت ؛ تَظُنّ أنّك تصول به علينا ، وما أخلَق ثوبُ صفية بعد ! واللهُ المستعان على ما تَصِفون .

***

(١) الرسل : الرفق والتؤدة .

أوصى معاوية يزيدَ ابنه لمّا عقد له الخلافة بعده؛ فقال: إنى لا أخاف عليك إلّا ممّن أُوصيك بحفظ قرابته ورعاية حقّ رحمه، مَن القلوبُ إليه مائلة، والأهواءُ نحوَه جانحة، والأعيُن إليــه طامحة، وهو الحُسين بنُ علىّ، فاقسِمْ له نصيبا من حِلْمك، واُخصُصْه بقِسْط وافرٍ من مالِك؛ ومتّعه بروح الحياةِ، وأبلغ له كلّ ما أحبّ فى أيامك، فأمّا من عداه فثلاثة: وهم عبدُالله بنُ عمر رجلٌ قد وقذته العِبادة؛ فليس يريدُ الدنيـا إلا أن تجيئه طائعــةً لا تراقُ فيهـا محجمةُ دَم، وعبدُ الرحمن بنُ أبى بكر، رجل هِقْلٌ[1] لا يحمل ثِقْلا، ولا يستطيع نهوضا؛ وليس بذى هِمّة ولا شرَف ولا أعوان، وعبدُ الله ابنُ الزبير وهو الذئب الماكر، والثّعلب الخاتر؛ فوجّه إليه جِدّك وعزْمَك ونكيرك ومكرك؛ واُصرِفْ إليه سَطوتك، ولا تثِقْ إليـه فى حال، فإنه كالثّعلب، راغ بالختل عند الإرهاق، واللّيث صالَ بالجراءة عند الإطلاق؛ وأما ما بعدَ هؤلاء فإنى قد وطّأتُ لك الأُمَم، وذلّلت لك أعناقَ المنابِر، وكفَيتُك مَن قرُب منك، ومَن بعُد عنك: فكن للنّاس كما كان أبوك لهم يكونوا لك كما كانوا لأبيك.

***

خَطَب عبدُالله بن الزبير أيام يزيد بن معاوية فقال فى خطبته: يزيد القُرود، يزيد الفُهود، يزيد الخمور، يزيد الفُجور! أما والله لقد بلغنى أنه لايزال مخموراً يخطُب النّاس وهو طافِحٌ فى سُكره. فبلَغ ذلك يزيدَ بنَ معاوية، فما أمسى ليلتَه حتى جهز جيش الحَرّة، وهو عشرون ألفا، وجلس والشُّموعُ بين يديه، وعليه ثيابٌ مُعصفَرة، والجنود تُعرَض عليه ليلا، فلمّا أصبح خرج فأبصرَ الجيش، ورأى تَعبيَتَه فقال:

أبلغْ أبا بكرٍ إذا الجيشُ اُنبَرى ‏ ‏ ‏ ‏ وأخــذَ القومُ علَى وادى القُرَى

---

(١) الهقل: الفتى من النعام.

أَجْمع سَكْرانَ مِنَ القوم ترَى   عِشرِينَ ألفاً بين كَهْلٍ وفَتَى

* أم جَمْع ليثٍ دونه ليثُ الشرَى *

* * *

لمّـا خرج الحسينُ عليه السلام من مكّة إلى العراق ضرَب عبدُالله بنُ عباس بيدِه على منكب ابنِ الزّبير ؛ وقال :

يالَكِ من قُبَّرةٍ بمَعمَرِ   خلاَ لَكِ الجوُّ فبِيضِى واصفِرِى[1]

ونَقِّرِى ما شِئْتِ أن تُنَقِّرِى   هـذا الحسينُ سائرٌ فأبْشرِى

خلا الجوُّ والله لك يابن الزبير ! وسار الحسين إلى العراق ، فقال ابنُ الزبير : يابن عباس ، والله ما ترَوْن هذا الأمر إلّا لكم ، ولا ترون إلّا أنكم أحق به من جميع الناس ، فقال ابنُ عباس : إنمـا يرى مَن كان فى شكّ ، ونحن من ذلك على يَقِين ولكن أخبِرْنى عن نفسك ، بماذا ترُوم هذا الأمر ؟ قال : بِشرَفى، قال : وبماذا شَرُفْتَ إن كان لك شرَف ؟ فإنمـا هو بنا ، فنحن أشرَف منك ، لأنّ شرفَك مِنّا . وعلَتْ أصواتُهما ، فقال غلام من آل الزبير : دَعْنا منك يابن عباس ؛ فو الله لاتُحبُّوننا يابنى هاشم ولا نُحِبّكم أبدا ؛ فلَطَمه عبدُ الله بن الزبير بيده وقال : أتتكلّم وأنا حاضر ! فقال ابنُ عبّاس : لم ضربت الغلامَ ، واللهِ أحقُّ بالضرب منهُ مَن مَزَق ومَرَق ، قال : ومَن هو ؟ قال : أنت .

قال : واعترض بينهما رجالٌ من قُرَيش فأسكتوهما .

* * *

---

(١) تنسب الأبيات إلى طرفة ، العقد الثمين ١٨٥ .

دخل عبدُ الله بنُ الزبير على معاوية ، فقال : اسمع أبياتاً قلتها عاتبتُك فيها ، قال : هاتِ ، فأنشَدَه :

لَعمرِىَ ما أدْرِى وإنِّى لأوْجَـلُ ... على أينا تَعْدو المنيــة أوّلُ
وإنى أخوكَ الدّائمُ العَهْـدِ لم أزَلْ ... إن أعياكَ خَصْمٌ أو نبا بكَ مَنْزِلُ
أحارِبُ من حارَبْتَ مِن ذى عداوةٍ ... وأحبس يوماً إن حُبِسْت فأعقِلُ
وإن سؤتنى يوماً صَفَحتُ إلى غدٍ ... ليعقب يومٌ منك آخر مُقبــلُ
ستقطَع فى الدّنيا ـ إذا ما قَطَعْتنى ـ ... يمينَك ، فانظر أىَّ كَفٍّ تبدَّلُ !
إذا أنت لم تُنصِفْ أخاكَ وجـدْته ... على طَرَف الهِجْران إن كان يعقِلُ
ويركَب حـدَّ السيفِ مِن أن تضيمَه ... إذا لم يـكن عن شفرةِ السّيف مَعدِلُ
وكنتُ إذا ما صاحبٌ مَـلَّ صحبتى ... وبدّل شرًّا بالذى كنتُ أفعَلُ
قلبْتُ له ظَهْرَ المِجَنِّ ولم أُقِمْ ... على الضَّيْمِ إلّا رَيْثما أتحوّلُ
وفى الناس إن رَثّتْ حِبالُك واصِلٌ ... وفى الأرض عن دارِ القِلى متحوَّلُ
إذا انصرفَتْ نفسى عن الشىء لم تـكَدْ ... إليه بوَجْـهٍ آخر الدهرِ تقبلُ

فقال معاوية : لقد شعَرتَ بعدى يا أبا خُبَيب ! وبينما هما فى ذلك دخل معنُ بن أوْس المُزَنىّ ، فقال له معاوية : إيهٍ ! هَلْ أحدثْتَ بعدنا شيئا ؟ قال : نعم ، قال : قل ؛ فأنشد هذه الأبيات ، فعجب معاويةُ وقال لابن الزبير : ألم تنشدْها لنَفْسك آنفا ! فقال : أنا سوّيت المعانى ، وهو ألّف الألفاظ ونَظَمها ، وهو بعدُ ظِئْرى [(١)] ، فما قال من شىء فهو لى ـ وكان ابن الزّبير مسترضَعا فى مُزَيْنة ـ فقال معاوية : وكَذِبا يا أبا خبيب ! فقام عبدُ الله فخرج .

---

(١) يقال : هى ظئره ، وهو ظئره ، وهم وهن أظآره ، أى أخوانه من الرضاعة .

وقال الشعْبيّ : فقد رأيت عجبا بفناء الـكَعبة أنا وعبد الله بن الزبير وعبدُ الملك بن مروان ومصعب بن الزبير ، فقام القوم بعد مافرَغوا من حديثهم ، فقالوا : ليَقُمْ كلُّ واحد منكم ؛ فليأخذْ بالرُّكْن اليمانىّ ، ثم يَسأل الله تعالى حاجته ، فقام عبد الله بن الزبير فالْتَزَم الرُّكْن وقال : اللّهم إنك عظيمٌ تُرجَى لـكلّ عظيم ، أسألك بحُرمة وجهك وحُرمة عَرْشك وحرمة بيتك هذا ، ألّا تخرجَنى من الدنيا حتى ألِيَ الحجاز ، ويسلَّم علىّ بالخلافة ، وجاء فجلس .

فقام أخوه مصعب فالْتَزَم الرّكْن وقال : اللّهمّ ربّ كلّ شىء ، وإليك مصيرُ كلّ شىء ، أسألك بقُدرتك على كل شىء ، ألّا تُميتَنى حتى ألِيَ العراق ، وأتزوّج سُكينة بنت الحسين بن علىّ ، ثمّ جاء فجلس .

فقام عبد الملك فالْتَزَم الركن وقال : اللَّهمّ ربّ السموات السّبْع ، والأرض ذات النبت والقَفْر ، أسألك بما سألك به المطيعون لأمرك ، وأسألك بحق وجهك ، وبحقّك على جميع خلقك،ألّا تميتَنى حتى ألىَ شرق الأرض وغربها ، لا يُنازِعنى أحد إلّا ظَهرتُ عليه ، ثم جاء فجلس .

فقام عبد الله بنُ عمرَ فأخـذ بالرّكن وقال : يارحْمٰن يارحيم ، أسألك برحمتك الّتى سبقتْ غَضبك ، وبقدرتِك على جميـع خلقِك ، ألّا تميتَنى حتى توجِبَ لى الرّحمة .

قال الشعبىّ : فوالله ماخرجتُ من الدّنيا حتى بلغ كلّ من الثّلاثة ماسأل ، وأُخلِقْ بعبدِ الله بن عمر أن تجاب دعوتهُ ، وأن يكون من أهل الرّحمة .

***

قال الحجّاج فى خطبته يوم دخل الكوفة : هذا أدبُ ابن نَهية، أما والله لأؤدِّبنّكم غيرَ هذا الأدب .

قال ابن ماكولا فى كتاب الإكمال : « يعنى مُصعب بن الزبير وعبد الله أخاه، وهى نَهية بنتُ سعيد بن سهم بن هُصَيْصٍ ، وهى أمّ ولد أسد بن عبد العُزّى بن قُصَىّ » ،وهذا من المواضع الغامضة .

***

وَروى الزبير بنُ بكّار فى كتاب أَنْساب قريش قال : قَدِم وفدٌ من العراق على عبد الله بن الزبير ، فأتوه فى المسجد الحرام ، فسلّموا عليه ، فسألهم عن مصعب أخيه وعن سيرته فيهم ، فأَثْنَوْا عليه ، وقالوا : خيراً ، وذلك فى يوم جمعةٍ ، فصلّى عبد الله بالناس الجمعة ، ثمّ صَعِد المنبر ،فحمِد اللهَ ثم تمثّل :

قد جرَّبونى ثمّ جرَّبونى ... من غلْوَتَيْنِ ومِن المئين(١)
حتى إذا شابُوا وشيَّبونى ... خلَّوْا عِنانى ثمّ سيَّبونى(٢)

أيّها النّاس ، إنى قد سألتُ هذا الوفد من أهل العراق عن عاملهم مصعب بن الزبير فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحبّ ، ألا إن مصعبا أطْبَى(٣) القلوب حتى لاتعدل به ، والأهواءَ حتى لاتَحُول عنه ، واستمال الألسُن بثنائها، والقلوب بنصائحها ، والأنفس بمحبّتها وهو المحبوب فى خاصّته ، المأمونُ فى عامّته ، بما أطلق اللهُ به لسانه من الخير وبَسَط به يديه من البذل ، ثم نزل .

وروى الزّبير قال : لما جاء عبد الله بنَ الزّبير نعىُ المصعب صَعِد المنبرَ فقال :

---

(١) الغلوة : الغاية .
(٢) سيبونى : تركونى .
(٣) اطبى القلوب : استمالها .

الحمدُ لله الذى له الخلق والأمر ، يؤتى المُلك من يشاء ، ويَنزع المُلك ممّن يشاء ، ويُعزّ من يشاء ، ويُذلّ من يشاء ، ألا وإنّه لم يُذْلِل اللهُ من كان الحقّ معه ولو كان فَرْدا ، ولم يُعزِّز اللهُ وليّ الشيطان وحِزْبه وإن كان الأنام كلُّهم معه ، ألا وإنه قد أتانا من العراق خبرٌ أحزَنَنا وأفرَحنا ، أتانا قتلُ المصعب رحمه الله ، فأمّا الذى أحزَنَنا فإنّ لفِراق الحميم لَذْعة يجِدها حميمُه عند المصيبة ، ثم يَرْعَوِى بعدَها ذو الرأى إلى جميل الصبر وكرمِ العزاء ، وأما الذى أفرَحنا فإنّ قتَله كان عن شهادة ، وأنّ الله تعالى جعل ذلك لنا وله ذخِيرة . ألا إنّ أهلَ العراق ، أهل الغدْر والنّفاق ، أسلَموه وباعوه بأقلّ الثمن ، فإن يُقتَل المصعب فإنا لله وإنّا إليه راجعون ! مانموت جَبْحا كما يموت بنو العاص ، مانموتُ إلّا قتْلا ، قعصاً[1] بالرّماح ، وموتاً تحتَ ظِلال السيُوف ، ألا إنّما الدنيا عاريّة من الملك الأعلى الّذى لايزول سلطانهُ ولا يَبيد ، فإنْ تُقبل الدّنيا علىّ لاآخذُها أخْذَ الأشِر البطر[2] ، وإن تُدْبر عنّى لاأبكى عليها بكاءَ الخَرِفِ المهتَر ، وإن يَهلِك المُصعَب فإنّ فى آل الزبير خَلفا . ثم نزل .

***

وروى الزّبير بن بكّار قال : خَطب عبدُ الله بنُ الزّبير بعد أن جاءه مَقتل المُصعب ، فَحمِد اللهَ وأثنى عليه ثمّ قال : لئن أُصِبتُ بمصعب فلقد أصِبت بإمامى عثمان ، فعظمت مصيبته ، ثم أحسن الله وأجمل ، ولئن أُصِبت بمُصعَب فلقد أصبت بأبى الزّبير ، فعظمت مُصيبتهُ ، فظننتُ أنّى لا أُجيزها ، ثم أحسَن الله وسَلّم ، واستمرّت مريرتى ، وهلْ كان مُصعَب إلّافتىً من فِتْيانى ! ثم غلبَه البكاء فسالتْ دموعُه وقال : كانوالله سَرِيًّا مَرِيًّا ، ثمقال :

---

(١) القعص : الموت السريع .

(٢) الأشر والبطر كلاهما بمعنى واحد .

هُمُ دَفَعوا الدّنيا على حين أعرَضت   كِراماً وسَنُّوا للكِرام التأسِّيَا

***

ورَوَى أبو العباس فى الكامل أنّ عروة لمّا صُلِبَ عبدُ الله جاء إلى عبدِ الملك فوَقَف ببابه ، وقال للحاجب : أَعلِمْ أميرَ المؤمنين أنّ أبا عبدِ الله بالباب ، فدخل الحاجب فقال : رجلٌ يقول قولا عظيما . قال : وماهو ؟ فتهيَّب ، فقال : قل . قال : رجلٌ يقول : قلْ لأميرِ المؤمنين : أبو عبد الله بالباب ، فقال عبد الملك : قلْ لعروةَ يدخُل ، فدخل فقال : تأمرُ بإنزال جِيفةِ أبي بكر فإنّ النساءَ يَجْزَعْن ، فأَمر بإنزاله . قال : وقد كان كَتَب الحجّاجُ إلى عبدِ الملك يقول : إنّ خزائن عبدِ الله عند عُرْوة ، فمُرْه فليُسلِّمها ؛ فدَفَع عبدُ الملك إلى عروة ، وظنّ أنه يتغيّر ، فلم يَحفِل بذلك كأنه ما قرأه ، فكَتَب عبدُ الملك إلى الحجّاجِ ألا يَعرِض لعُروة .

***

ومن الكلام المشهور فى بُخْل عبدِ الله بن الزّبير الكلام الّذى يُحكَى أنّ أعرابيًا[1] أتاه يَستَحمِله ، فقال : قد نَقِبَ خُفُّ راحِلَتى فاحمِلنى[2] إنى قطعتُ الهواجر إليك عليها ، فقال له : ارْقَعْها بِسبْت ، واخْصفها بهُلب ، وأَنجِدْ بها ، وسِرْ بها البردين[3] فقال : إنما أتيتك مستحملا ، لم آتِك مستوصِفا ، لعن الله ناقةً حملتنى إليك ، قال : إنّ وراكبها[4] .

---

(١) الخبر فى الأغانى ١ : ١٥ ، ١٦ .

(٢) الأغانى : « نفدت نفقتى ، ونقبت راحلتى » . ونقب البعير ؛ إذا رقت أخفافه .

(٣) السبت : جلود البقر المدبوغة بالقرظ تحذى منها النعال السبتية . والخصف : أن يظاهر الجلدين بعضهما إلى بعض ويخرزهما . والهلب : شعر الخنزير الذى يخرز به ، الواحد هلبة ، وأنجد ، إذا دخل بلاد نجد ، وهو موصوف بالبرد . والبردان : الغداة والعشى .

(٤) فى الأغانى عن اليزيدى : « أن » هاهنا بمعنى نعم ، كأنه إقرار بما قال ، ومثله قول ابن قيس الرقيات :

وَيقُلْنَ شَيْبٌ قَدْ عَلَا   كَ وَقَدْ كَبِرْتَ ، فَقُلْتَ إِنَّهْ

وهذا الأعرابي هو فَضالة بن شريك ، فهجاه فقال :

أرَى الحاجاتِ عند أبي خُبَيْبٍ نَكِدْنَ ولا أُمَيَّةَ بالبلادِ (١)
من الأعياصِ أو مِن آلِ حَرْب أغرّ كغُرَّةِ الفرَس الجوادِ

***

دخل عبدُ الله بنُ الزّبير على معاويةَ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تدعَنّ مروانَ يرمي جماهيرَ قُريش بمَشاقِصِه (٢) ، ويَضْرِب صَفاتَهم بمعوَله . أما والله ، إنه لولا مكانُك لكان أخَفّ على رِقابنا من فَراشَة ، وأقلّ في أنفسِنا من خُشاشة (٣) ، وايمُ الله لِئن مَلَك أعِنّة خَيْل تَنقادُ له لتركَبَنّ منه طبقاً (٤) تخافه .

فقال معاوية : إنْ يطلبْ مَرْوان هذا الأمر فقد طَمِع فيه مَن هُوَ دونه ، وإنْ يَترُكْه يترُكْه لمن فوقَه ، وما أراكم بمنتَهين حتى يبعثَ الله عليكم من لا يَعطِف عليكم بقَرابة ، ولا يَذْكركم عند مُلِمّة ، يَسومكم خَسْفا ، ويَسُوقُكم عَسْفا .

فقال ابن الزبير : إذنْ والله يطلق عقَال الحرْبِ بكتائب تَمُور (٥) كرِجْل الجراد ، تتبع غِطْريفاً (٦) من قُرَيش لم تكن أمُّه راعيةَ ثَلّة (٧) .

فقال معاوية : أنا ابن هِنْد ، أطلقتُ عقال الحرْب ، فأكلْت ذِرْوة السَّنام ، وشرِبتُ عُنْفوان المكرَع (٨) وليس للآكل بعدي إلا الفَلْذة (٩) ، ولا للشارب إلا الرنق (١٠) .

---

(١) من ستة أبيات في الأغاني . وأبو خبيب كنية ابن الزبير ؛ وخبيب ولده الأكبر . ويقال : نكده حاجته ، إذا منعه إياها .

(٢) المشاقص : جمع مشقص ؛ وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش .

(٣) الخشاشة : واحدة الخشاش ؛ وهي حشرات الأرض والعصافير ونحوها .

(٤) الطبق : الحال ؛ وفي قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ ﴾ .

(٥) تمور : تضطرب . (٦) الغطريف : السيد الشريف .

(٧) الثلة : جماعة الغنم ؛ أو الكثيرة منها .

(٨) عنفوان الشيء : أوله ، أو أول بهجته . والمكرع : المورد ، مفعل من كرع في الماء أو الإناء .

(٩) الفلذة : القطعة من اللحم . (١٠) ماء رنق : كدر .

فسكت ابنُ الزّبير .

***

قَدِم عبد الله بنُ الزّبير على معاوية وافدا ، فرحّب به وأدناه حتّى أجلسَه على سريره ، ثم قال : حاجَتكَ أبا خُبَيْب ! فسأله أشياء ، ثم قال له : سَلْ غيرَ ماسألتَ ؛ قال : نعم ، المهاجرون والأنصار تَردُّعليهم فيئهم ، وتَحفَظ وصِيّةَ نبيّ الله فيهم ، تقبَلمن مُحسِنهم ، وتتجاوَز عن مُسيئِهم .

فقال معاوية : هَيْهـاتَ هَيْهات ، لا والله ما تأمَن النّعجةُ الذّئب وقد أكَل أليَتَها(١) .

فقال ابنُ الزّبير : مَهْلا يامعاوية ، فإنّ الشاةَ لتدرّ للحالب وإنّ المُدْية فى يده، وإنّ الرجل الأريبَ لَيُصانع ولدَه الّذى خرجَ من صُلْبه ، وما تدور الرحَى إلّا بقُطْبها ، ولا تَصلُح القَوسُ إلاّ بمَعْجِسها(٢) .

فقال : ياأبا خُبَيب ، لقـد أجررتَ الطرُوقة قبل هِباب الفَحْل(٣) هيهات ، وهى لاتصطكّ لحبائها اصطـكاكَ القروم السوامى(٤) .

فقال ابنُ الزبير : العَطَن بعد العَلّ ، والعلّ بعد النَّهَل ، ولا بدّ للرّحاء من الثّفال(٥)

ثمّ نهض ابنُ الزبير .

فلما كان العِشاء أخذتْ قُريش مجالسَها ، وخرج معاويةُ على بنى أميّة فوَجَد عمرو

---

(١) الألية : ما ركب فى العظم من شحم ولحم . (٢) المعجس : المقبض .

(٣) ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربهـا الفحل . وأجره رسنه : جعله يجره . وهب الفحل من الإبل وغيرها هبابا وهبيبا ، أراد السفاد .

(٤) تصطك : تضطرب . والقروم جمع قرم ؛ وهو الفحل والسوامى : جمع سام ، وصف من سما الفحل سماوة : تطاول إلى الناقة التى تشول بذنبها رغبة اللقاح .

(٥) العطن : مبرك الإبل حول الحوض . والعل والعلل : الشرب الثانى ، والنهل : الشرب الأول . والثفال : جلد أو نحوه يبسط تحت الرحى ليقع عليه الطحين .

ابنَ العاص فيهم ، فقال : ويحكُم يابنى أميّة ! أفيكم من يكفينى ابنَ الزبير ؟ فقال عمرو : أنا أكفيكه ياأميرَ المؤمنين ؛ قال : ما أظنُّك تفعل ؟ قال : بلى واللهِ لأربِّدَنّ وجهَه[١] ، ولأُخرِسَنّ لسانه ، ولأردّنّه ألينَ من خَمِيلة[٢] .

فقال : دونَك ، فاعْرِض له إذا دخل . فدخل ابنُ الزبير ـ وكان قد بلغه كلامُ معاوية وعمرو ـ فجلس نصب عَيْنى عمرو ، فتحدّثوا ساعةً ثمّ قال عمرو :

وإنى لنارٌ مايطاقُ اصطِلاؤها لدَىَّ كلامٌ مُعضِلٌ مُتفاقِم[٣]

فأطرَق ابنُ الزبير ساعةً ينكُتُ فى الأرض ، ثمّ رفع رأسه وقال :

وإنّى لبحْرٌ ما يُسامَى عُبابُه مَتَى يَلْق بَحرِى حرّ نارِك يَخمُد

فقال عمرو : واللهِ يابن الزّبير إنك ماعلمت لمتجلببٌ جلابيبَ الفتنة ، متأزّر بوصائل[٤] التّيه ، تَتعاطَى الذُّرا الشاهقة ، والمعالىَ الباسقة . وما أنت من قريش فى لباب جوهرها ولا مؤنق حَسبها[٥] !

فقال ابن الزبير : أما ماذكرتَ من تعاطىّ الذرا فإنّه طالَ بى إليها وسما مالا يطُول بك مِثلُه : أنفٌ حِمِىٌّ ، وقَلْبٌ ذَكِىّ ، وصارمٌ مَشرَفىّ ، فى تَليدٍ فارع[٦] ، وطريفٍ مانِع ، إذ قعد بك انتفاخ سَحْرك[٧] ، ووَجيبُ قَلبك[٨] . وأمّا ماذكرت من أنى لستُ من قريش فى لُباب جَوْهرِها ، ومؤنِق حَسَبها ، فقد حضرتْنى وإياك الأكفاء العالِمون بى وبك ، فاُجعلْهم بينى وبينَك .

---

(١) أى لأصيرنه أربد ، والربدة : لون إلى الغبرة .
(٢) الخميلة : القطيفة . (٣) تفاقم الأمر ، إذا عظم .
(٤) الوصائل : جمع وصيلة ؛ وهى ثوب مخطط يمان .
(٥) آنقنى الشىء إيناقا ؛ أعجبنى فهو مؤنق .
(٦) فارع : عال .
(٧) السحر : الرئة ؛ ويقال : انتفخ سحره ، أى عدا طوره .
(٨) وجيب القلب : خفقانه واضطرابه .

فقال القوم : قد أنصفَك ياعمرو ، قال : قد فعلت .

فقال ابن الزبير : أما إذ أمكنَنى اللهُ منك فلأربِّدَنّ وجهَك ، ولأخرِسَنّ لسانَك ولترجعنّ فى هذه الليلة ، وكأن الذى بين منكِبيك مشدود إلى عُروقِ أخدَعَيك ؛ ثمّ قال : أقسمتُ عليكم يامعاشرَ قريش ، أنا أفضلُ فى دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهمّ أنت ، قال : فأبى أفضلُ أم أبوه ؟ قالوا : أبوكَ حوارىّ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله وابنُ عمّته ؛ قال : فأمى أفضلُ أمْ أمُّه ؛ قالوا : أُمّك أسماء بنتُ أبى بكر الصِّدّيق ، وذاتُ النِّطاقَين؛قال:فعمّتى أفضلُ أم عمّتُه؟قالوا : عمّتُك سَلْمى ابنة العوّام صاحبةُ رسول الله صلى الله عليه وآله أفضلُ من عمّته ، قال : فخالتى أفضلُ أم خالته ؟ قالوا : خالتك عائشةُ أمُّ المؤمنين ، قال : فجدتى أفضلُ أم جدّته ؛ فقال : جدّتك صفيّة بنتُ عبدالمطلب عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : فجدى أفضلُ أمْ جدُّه ؟ قالوا : جدُّك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قَضَت الغَطارفُ من قُريش بيننا ... فاصبر لفَصْل خِصامِها وقضائِها (١)

وإذا جَرَيْتَ فلا تجارِ مبرِّزا ... بذّ الجياد على احتفال جِرائِها (٢)

أما والله يابن العاص ؛ لو أن الذى أمَرَك بهذا واجهنى بمِثْله لقصّرْت إليه مِن سامى بصرِه، ولتركته يتاجْلَج لسانه ، وتضطَرِم النار فى جوفه ؛ ولقد استعان منك بغير وافٍ ولجأ إلى غيرِ كافٍ ، ثمّ قام فخرج .

***

وذكر المسعودىّ فى كتاب مُرُوج الذهب أنّ الحجّاج لما حاصر ابن الزبير لم يزل يزحَف حتى مَلَكَ الجبل المعروف بأبى قُبَيْس ، وقد كان بيدِ ابن الزبير ، فكتب

(١) الغطارف : جمع غطريف ؛ وهو السيد .

(٢) برز تبريزا : فاق اصحابه ، وبذ : فاق وغاب . واحتفل القوم : اجتمعوا . والجراء والمجاراة ، مصدر « جارى » .

بذلك إلى عبد الملك ، فلما قرأ كتابه كبرّ وكبرّ من كان فى دارِه حتى اتّصل التكبير بأهل السّوق ، فكبّروا ، وسأل الناسُ ما الخبر ؟ فقيل لهم : إن الحجاج حاصرَ ابنَ الزبير بمكة ، وظفر بأبى قُبَيْس ، فقال الناس : لا نرضى حتى يُحمَل أبو خُبَيْب إلينا مكبّلاً على رأسِه بُرْنُس ، راكبَ جملٍ ، يُطاف به فى الأسواق ، تراه العيون .

***

وذكر المسعوديُّ أنّ عمة عبدِ الملك كانت تحت عروة بن الزّبير ، وأنّ عبد الملك كتب إلى الحجّاج يأمُره بالكفّ عن عُرْوة ، وذلك قبل أن يقتل عبدُ الله وألّا يسوءه إذا ظَفِر بأخيه فى ماله ولا فى نفْسِه ؛ قال : فلما اشتدّ الحصار على عبد الله خرج عُرْوة إلى الحجّاج فأَخَذ لعبد الله أمانًا ورَجَع إليه ، فقال : هذا عمرو بنُ عثمان ، وخالدُ بنُ عبدِ الله بن خالد بن أسيد ، وهما فَتَيا بنى أميّة يُعطيانك أمان عبدِ الملك ابن عمّهما على على ما أحدثْتَ أنتَ ومن معك ، وأن تنزل أيّ البلادِ شئت ، ولك بذلك عهدُ الله وميثاقُه ، فأبَى عبدُ الله قبول ذلك ، ونهتْه أُمّه وقالت : لا تَموتَنّ إلّا كَرِيمًا ، فقال لها : إنى أخاف إنْ قُتِلتُ أن أُصلَبَ أو يمثّل بى ، فقالت : إنّ الشاة بعد الذّبح لا تُحِسّ بالسّلْخ .

***

وروى المسعوديُّ أنّ عبد الله بن الزّبير بعد موت يزيد بن معاوية طَلَب مَن يؤمِّره على الكوفة ، وقد كان أهلها أحبّوا أن يليَهم غير بنى أمية ، فقال له المختار بنُ أبى عُبيد : اطلُبْ رجلا له رِفْق وعلم بما يأتى ، وتدبّرْ قوله إياها يستخرجْ لك منها جندا تغلب به أهل الشام ، فقال : أنت لها ، فبعثه إلى الكوفة ، فأتاها وأَخرج ابن مطيع مِنها ، وابتنى لنفسه داراً ، وأنفق عليها مالًا جليلا ، وسأل عبد الله بن الزّبير أن يحتسب له به من مال العِراق ، فلم يفعل ، فخلعه وجَحَد بَيْعَته ، ودعا إلى الطالبيِّين .

قال المسعودىّ : وأظهر عبدُ الله بنُ الزبير الزّهدَ فى الدّنيا ، وملازمةَ العبادة ، مع الحِرْص على الخلافة وشَبْرِ بَطْنه ، فقال : إنما بَطْنى شبْر ، فما عَسَى أن يَسَع ذلك الشِّبْر ! وظَهر عنه شُحٌّ عظيم على سائرِ الناس ، ففى ذلك يقول أبو حمزة مولى آل الزّبير :

إن الموالىَ أمستْ وهى عاتِبةٌ ... على الخليفةِ تَشكُو الجوعَ والحَرَبا

ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا ... أىّ الملوك على ما حولنا غلبا !

وقال فيه أيضا :

لو كان بطنُك شبْراً قد شبعتَ وقد ... أفضلْتَ فَضْلا كثيراً للمساكين

ما زلتَ فى سُورةِ الأعراف تدرُسها ... حتى فؤادىَ مِثلُ الخزّ فى اللِّينِ

وقال فيه شاعرٌ أيضا ، لما كانت الحرب بينَه وبين الُحصَين بن نُمير قبل أن يموتَ يزيدُ بنُ معاوية :

فيا راكباً إمّا عَرَضْتَ فبلِّغنْ ... كبيرَ بَنى العوّام إنْ قيلَ مَن تعنى

تُخبِّر مَنْ لاقيتَ أنك عائذٌ ... وتُكثِرُ قتلَى بين زَمزمَ والرُّكنِ

وقال الضَّحّاكُ بن فَيْروز الدَّيْلمىّ :

تخبِّرنا أنْ سوفَ تَكفِيكَ قَبضةٌ ... وبَطنُكَ شِبْر أو أقلُّ من الشِّبْرِ

وأنتَ إذا ما نِلتَ شيئا قضَمْتَه ... كما قضَمتْ نارُ الغضَا حطَب السِّدرِ

فلو كنتَ تجزِى أو تُثيبُ بنِعمةٍ ... قريبا لرَدّتْك العُطوفُ على عَمرو

قال : هو عَمرو بنُ الزّبير أخوه ، ضَرَبه عبدُ الله حتى مات وكان مبايِنا له [1] .

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٨٤ ، ٨٥ .

كان يزيدُ بنُ معاويةَ قد وَلّى الوليدَ بنَ عُتْبةَ بن أبى سُفْيان المدينةَ ، فسرّح الوليد منها جَيْشا إلى مكة لحرب عبدِ الله بنِ الزبير ، عليه عَمرو بنُ الزبير ، فلمّا تصافّ القومُ انهزَم رجالُ عَمرٍو وأسلموه ، فظفَرِ به عبدُ الله ، فأقامه للناس بباب المسجد مجرّدا ، ولم يزَل يَضرِبه بالسِّياطِ حتى مات[1] .

وقد رأيتُ فى غيرِ كتابِ المسعوديّ ، أنّ عبدَ الله وجَد عَمْرا عند بعض زَوْجاته ، وله فى ذلك خبرٌ لا أُحِبُّ أن أذكُره .

***

قال المسعوديّ : ثم إنّ عبدَ الله بنَ الزبيرِ حَبَس الحسنَ بن محمد بن الحنفيّة فى حَبْس مظلم[2] ، وأراد قتله ، فأعمل الحيلَة حتى تخلّص من السِّجن ، وتَعسّف الطريقَ على الجبال ، حتى أتى مِنًى ، وبها أبوه محمّد بنُ الحنفيّة[3] .

ثم إنّ عبد الله جمعَ بنى هاشم كلَّهم فى سجن عارمٍ ، وأراد أن يُحرِقهم بالنار ، وجعل فى فم الشِّعب حَطبا كثيرا ، فأرسل المختارُ أبا عبد الله الجدَليّ فى أربعةِ آلافٍ ، فقال أبو عبدِ الله لأصحابه : وَيحكم ! إنْ بلغ ابنَ الزبير الخبرُ عجّل على بنى هاشم فأتى عليهم ، فانتدب هو نفسُه فى ثمانمائة فارس جريدةً ، فما شعَر بهم ابن الزبير إلّا والرايات تخفُق بمكة ، فقصد قَصْد الشِّعب ، فأخرَج الهاشميّين منه ، ونادَى بشِعارِ محمد بن الحنفيّة ، وسمّاه المهديّ ، وهرَب ابنُ الزبير ، فلاذَ بأستار الكَعْبة ، فنهاهم محمد بنُ الحنفيّة عن طلبه

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٨٥ .

(٢) مروج الذهب : « سجن عارم » .

(٣) فى مروج الذهب : « فنى ذلك يقول كثير :

تُخَبِّرُ مَنْ لاقيتَ أنك عائذٌ ... بل العائذُ المظلومُ فى سِجْنِ عارِمِ

ومَنْ يرَ هذا الشيخ بالخيفِ من مِنًى ... من الناسِ يعلم أنه غيرُ ظالِمِ

سَمِيُّ نبيّ اللهِ وابنُ وصيِّهِ ... وفَكّاكُ أغلالٍ وقاضى مغارِمِ

وعن الحرْب ، وقال : لا أريد الخلافة إلا إن طلبنى الناس كلُّهم ، واتفقوا علىّ كلهم ، ولا حاجة لى فى الحرب (١) .

***

قال المسعودىّ : وكان عروة بن الزبير يعذر أخاه عبدَ الله فى حَصْر بنى هاشم فى الشِّعب ، وجمعِه الحَطَب ليُحرِقهم ويقول : إنّما أراد بذلك ألّا تنتشر الكلمة ، ولا يختلفَ المسلمون ، وأن يدخلوا فى الطّاعة ، فتكونَ الكلمةُ واحدة ، كما فعَل عمرُ بنُ الخطّاب ببنى هاشم لَمّا تأخّروا عن بيعة أبى بكر ، فإنه أحضَر الحطَب ليُحرِّق عليهم الدار (٢) .

***

قال المسعودىّ : وخطب ابنُ الزّبير يومَ قَدِم أبو عبدِ الله الجدَلىّ قبل قدومه بساعتين ، فقال : إنّ هذا الغلامَ محمّد بنَ الحنفيّة قد أبَى بَيْعتى ، والمَوْعِد بينى وبينَه أن تغرُب الشّمس ، ثمّ أُضرِمَ عليه مكانَه ناراً ، فجاء إنسانٌ إلى محمّد فأخبرَه بذلك ؛ فقال : سيَمْنَعه منّى حجابٌ قوىّ ، فجعل ذلك الرجلُ يَنظُر إلى الشّمس ، ويرقُب غَيْبوبَتها لينظرَ مايصنع ابنُ الزّبير ، فلمّا كادت تغرُب حاسَت (٣) خيل أبى عبد الله الجدَلىّ دِيارَ مكّة وجعلتْ تَمعَج (٤) بين الصَّفا والمَرْوَة ، وجاء أبو عبد الله الجدَلىّ بنَفْسه ، فوَقَف على فَم الشِّعب ، واُستخرَج محمّدا ، ونادَى بِشعاره ، واُستأذَنه فى قَتْل ابن الزبير ، فكَرِه ذلك ولم يأذَنْ فيه ، وخرج من مكّة فأقام بشِعب رَضْوَى حتّى مات (٥) .

***

---

(١) مروج الذهب ٣ : ٨٥ . (٢) مروج الذهب ٣ : ٨٦ .
(٣) حاست الخيل : أحاطت بها من كل جانب .
(٤) تمعج : تشتد فى عدوها يمينا وشمالا .
(٥) مروج الذهب ٣ : ٨٦ ، ٨٧ .

ورَوى المسعوديُّ عن سَعِيد بنِ جُبير ، أنّ ابنَ عبّاس دخل على ابن الزبير فقال له ابنُ الزبير : إلامَ (١) تؤنّبنى وتعنّفنى ! قال ابنُ عبّاس : إنّى سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وآلِه يقول : « بئس المرءُ المُسلِم يَشبَع ويَجوعُ جارُه ! » ، وأنتَ ذلكَ الرّجل؛فقال ابنُ الزّبير : واللهِ إنّى لأكْتُم بُغضَكم أهلَ هذا البيت منذُ أربعين سنةً . وتَشاجَرا ، فخَرجَ ابنُ عبّاسٍ من مكّة ، [خوفا على نفسه] ، فأقام بالطّائف حتّى مات (٢) .

***

ورَوى أبو الفَرَج الأصفهانيّ (٣) قال : أتى فَضَالة بن شَرِيك الوالبيّ ثمّ الأسديّ من بنى أَسَد بن خُزَيمة عبدَ الله بنَ الزّبير فقال : نَفِدتْ نَفَقتى ، ونَقِبتْ ناقَتى ، فقال : أحضرْنيها،فأحضَرَها،فقال : أَقبِلْ بها،أدبِرْ بها ، ففعَل،فقال : ارْقَعْها بسِبْت،واُخصِفْها بهُلْب ، وأَنجِد بهـا يَبرُد خُفّهـا ، وسِر البَرْدَيْن تصحّ . فقال فضالة : إنّى أتيتُك مستحمِلا ، ولم آتِكَ مستوصِفاً ، فلَعَن اللهُ ناقةً حمَلَتْنى إليكَ ! فقال : إنّ وراكبَها ؛ فقال فضالة :

أقول لِغلْمةٍ شُـدّوا رِكابى ... أُجاوزُ بطنَ مكّةَ فى سَوادِ
فمالى حينَ أقطعُ ذاتَ عِرْقٍ ... إلى ابنِ الكاهِليّة من مَعادِ (٤)
سيُبعِد بيننـا نَصُّ المطَايا ... وتَعليقُ الأداوَى والمَزادِ (٥)
وكلّ معبَّـد قـد أعلمَته ... مَناسِمُهنّ طـلاّع النِّجادِ (٦)

---

(١) ف د : « علام » .

(٢) مروج الذهب ٣ : ٨٩ والزيادة منه .

(٣) الأغانى ١ : ١٥ ، ١٦ .

(٤) ذات عرق : مهل أهل العراق ؛ وهو الحد بين نجد وتهامة .

(٥) نص المطايا : استخراج أقصى ماعندها من السير ، والأداوى : جمع إداوة ؛ وهى وعاء الماء . والمزاد : جمع مزادة ؛ وهى الراوية يحمل فيها الماء .

(٦) المعبد : الطريق المذلل . وأعلمته مناسمهن : أثرت فيه بأخفافها . والنجاد : جمع نجد ؛ وهو ماغلظ من الأرض .

أَرَى الحاجاتِ عند أبى خُبَيْبٍ   نَـكِدْنَ ولا أميَّـــة بالبِلادِ
من الأعياصِ أو مِن آلِ حَرْبٍ   أغرّ كغُرّةِ الفرَس الجَـــوادِ

ـ قال : ابنُ الـكاهليّة هو عبدُ الله بن الزّبير ، والـكاهليّة هذه هى أمُّ خُوَيْلد بن أَسَد بن عبدِ العُزّى ، واسْمها زُهْرة بنت عَمرو بن خَنْثر بن رُوَيْنة بن هِلال ، من بنى كاهِل بن أَسَد بن خزيمة ـ قال : فقال عبدُ الله بنُ الزّبير لمّا بلَغه الشّعر : عَلِم أنّها شرُّ أمّهاتى فعَيّرنى بها ، وهى خيرُ عمّاته .

***

وروَى أبو الفرَج قال : كانت صفيّة بنتُ أبى عبيد بن مَسْعود الثّقفىّ تحتَ عبدِالله ابن عُمَر بن الخطّاب فمشى ابن الزّبير إليهـا ، فذكَر لها أنّ خروجـه كان غضباً لله عزّ وجلّ ولِرَسوله صلّى الله عليه وآله وللمهاجِرين والأنصار من أثَرَة مُعاوية وابنه بالفَىْء ، وسألَها مسألة زَوْجها عبد الله بنِ عمَر أن يبايعَه ، فلمّا قدّمَت له عَشاءه ذكرَتْ له أمرَ ابن الزبير وعِبادتَه واجتهادَه ، وأثنَتْ عليه ، وقالت : إنه ليَدْعو[1] إلى طاعةِ الله عزّ وجلّ ، وأكثَرت القولَ فى ذلك ، فقال لهـا : وَيْحكِ ! أما رأيتِ البَغَلات الشُّهب التى كان يَحُجّ معاويةُ عليها ، وتقدم إلينا من الشّام ؟ قالت : بلى ؛ قال : والله مايريدُ ابنُ الزّبير بعبادَته غيرَهن[2] !

(١) د : « إنه لايدعو إلى طاعة الله » .   (٢) الأغانى ٧ : ٢٢ ، ٢٣ .

(٤٦٢)

الأصْلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

مالابْنِ آدمَ والفَخْرُ ! أوّلُهُ نُطْفَةٌ ، وآخِرُهُ جِيفَةٌ . لايَرْزُقُ نَفْسَهُ ، ولا يَدْفَعُ حَتْفَهُ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم كلامُنا فى الفَخْر ، وذكَرْنا الشِّعرَ الّذى أُخِذَ من هذا الكلام ، وهو قولُ القائل :

مابالُ مَن أوّلُه نُطفةٌ وجيفةٌ آخِرُه يفخَرُ
يُصبِح مايَملِك تقديمَ ما يَرجُو ولا تأخيرَ مايَحذَرُ !

* * *

[فصل فى الفخر وما قيل فى النهى عنه]

وقال بعضُ الحكماء : الفخر هو المُباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان ، وذلك نهايةُ الحُمق لمن نَظَر بعيْن عقلِه ، وانحسَر عنه قِناع جهله ، فأعراض الدّنيا عاريةٌ مستَردّة ، لايؤمَن فى كلّ ساعة أن تُرتَجع ، والمُباهِى بها مُباهٍ بما فى غير ذاتِه .

وقد قال لبعض مَن فخرَ بثروته ووَفره : إن افتخرتَ بفَرَسِك فالُحسْن والفراهة له دونَك ، وإن افتخرتَ بثيابك وآلاتِك فالجمال لهما دُونَك ، وإن افتخرتَ بآبائك

وسَلفك فالفضْلُ فيهم لا فيك ، ولو تـكلّمتْ هذه الأشياء لقالَتْ لك : هـذه محاسنُنا فما مَحاسِنُك !

وأيضا فإن الأعراض الدنيويّة كما قيل : سحابةُ صَيْف عن قليـلٍ تقَشّع ، وظلٌّ زائل عن قريبٍ يَضمَحِلّ ، كما قال الشاعر :

إنما الدّنيا كرُؤْيا فرّحَتْ   مَن رآها ساعةً ثم انقَضَتْ

بل كما قال تعالى : ﴿ إنما مَثَل الحيـاة الدنيا كماء أنزلْناه من السماء فاختَلَط به نباتُ الأرْض مما يأكُل الناس والأنعامُ حتّى إذا أخذَت الأرضُ زخرُفَها وازّيّنتْ وظَنّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها أمرُنا ليـلاً أو نهارا فجعلناهـا حَصِيدا كأنْ لم تَغْنَ بالأمْس ﴾ (١) .

وإذا كان لا بدّ من الفَخْر فليفْخَر الإنسانُ بعلْمـه وبشَرِيف خُلُقه ، وإذا أعجبَكَ من الدّنيا شيء فاذكرْ فناءَك وبقاءه ، أو بقاءَك وفناءه ، أو فناءَكما جميعا ، وإذا راقَك ما هُوَ لك فانظرْ إلى قُرْب خُروجه من يدِك ، وبُعد رجوعِه إليك ، وطُول حِسابك عليه وقد ذَمّ الله الفَخُور فقال : ﴿ والله لا يُحِبّ كلّ مختالٍ فخورٍ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة يونس ٢٤ .

(٢) سورة الحديد ٢٣ .

(٤٦٣)

الأصلُ :

الْغِنَى والْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللهِ تعالى .

***

الشرحُ :

أى لا يُعَدّ الغنىّ غنياً فى الحقيقة إلا من حصَل له ثوابُ الآخرة الّذى لا ينقطع أبدا، ولا يعدّ الفقِير فقيراً إلا مَنْ لم يَحصُل له ذلك ، فإنه لا يزال شقيا معذَّبا ، وذاك هو الفَقْر بالحقيقة .

فأمّا غِنَى الدنيا وفقْرُها فأمران عرَضيّان ، زوالهما سريع ، وانقضاؤهما وَشِيك .

وإطلاق هاتَيْن اللفظتين على مُسمّاهما الدّنيوىّ على سبيلِ المجاز عند أربابِ الطريقة ، أعنى العارفين .

(٤٦٤)

الأَصْلُ:

وسُئِلَ عَنْ أشْعَرِ الشُّعَرَاء ، فقال عَلَيْهِ السلامُ :

إنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَجْرُوا فِي حَلْبَةٍ تُعْرَفُ الْغَايَةُ عِنْدَ قَصَبَتِهَا ، فإنْ كَانَ ولا بُدَّ فالمَلِكُ الضِّلِّيلُ .

قال : يُرِيدُ امْرَأَ الْقَيْس .

***

[فى مجلس علىّ بن أبى طالب]

الشَّرْحُ :

قرأتُ فى أمالِى ابن دُرَيد ، قال : أخبَرنا الجُرْمُوزىّ ، عن ابنِ المهلّبىّ ، عن ابن الكلبىّ ، عن شدّاد بن إبراهيم ، عن عبيدِ الله بن الحسَن العَنْبرىّ ، عن ابن عرادة ، قال : كان علىّ بنُ أبى طالب عليه السلام يُعشِّى الناسَ فى شهْر رَمضان باللّحم ولا يتعشّى معهم ، فإذا فرَغوا خطَبَهم ووعَظَهم ، فأفاضوا ليلةً فى الشُّعراء وهم على عَشائهم ، فلمّا فرَغوا خَطَبهم عليه السلام وقال فى خُطبته : اعلموا أنّ مِلاَكَ أمرِكم الدِّين ، وعِصْمَتكم التّقوى ، وزينَتكم الأدب ، وحُصون أعراضكم الحِلْم ؛ ثم قال: قل يا أبا الأسوَد : فِيم[1] كُنتمْ تفيضون فيه ؟ أى الشّعراء أشعَر ؟ فقال : يا أميرَ المؤمنين الّذى يقول :

ولقد أغتدى يُدافِع رُكْنِي   أعوجىٌّ ذو مَيْعةٍ إضريجُ[2]

---

(١) فى د « ماكنتم » ؛ وهووجه أيضاً .

(٢) ديوان أبى دواد ٢٩٩ .

مِخْلَطٌ مِزْيَلٌ مِعَنٌّ مِفَنٌّ منفح مِطْرَح سَبُوحٌ خَروجُ

يعنى أبا دُواد الإيادىّ ، فقال عليه السلام : ليس به ، قالوا : فمن يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لو رُفعتْ للقوم غايةٌ فجرَوْا إليها معاً علمْنا مَن السابقُ منهم ، ولكنْ إنْ يكن فالذى لم يَقُل عن رَغْبة ولا رَهْبة . قيل : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو المَلِكُ الضِّلِّيل ذو القُروح ، قيل : امرُؤ القيس يا أمير المؤمنين ؟ قال : هو . قيل : فأخبِرْنا عن ليلة القَدْر ؟ قال : ما أخلو من أن أكون أعلمها فأستر علمها ، ولستُ أشُكّ أنّ الله إنما يَستُرها عنكم نظراً لكم ، لأنه لو أعلمكموها عملتم فيها وتركتم غيرها ، وأرجو أن لا تخطِئكم إن شاء الله ، انهضوا رَحِمكم الله .

وقال ابن دُرَيد لما فرَغ من الخبر : إضريج : ينبثق فى عَدْوِه ، وقيل واسعُ الصَّدْر ومنفح : يُخرِج الصَّيد من مَواضِعه ، ومِطرَح : يطرح ببَصَره . وخَروج : سابقٌ . والغاية بالغين المعجمة : الرّاية ، قال الشاعر :

وإذا غايةُ مجدٍ رُفعتْ نَهَض الصَّلت إليها فحَواها

ويروى قولُ الشمّاخ :

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ تلقّاها عَرابةُ باليمينِ (١)

بالغَيْن ، والرّاء أكثر. فأما البيت الأوّل فبالغين لاغير ، أنشده الخليل فى عَرُوضه ، وفى حديثٍ طويلٍ فى الصحيح : « فيأتونكم تحت ثمانين غايةً ، تحت كلّ غاية اثناعشر ألفا » . والمَيْعة : أوّل جَرْى الفرَس ؛ وقيل : الجَرْى بعدَ الجرى .

***

(١) ديوانه ٩٧ .

[اختلاف العلماء فى تفضيل بعض الشعراء على بعض]

وأنا أذكرُ فى هذا المَوضعْ ما اختلف فيه العلماء من تَفْضيل بعض الشعراء على بعض، وأبتدئ فى ذلك بما ذَكَره أبو الفرج علىّ بن الحسين الأصفهانى فى كتاب الأغانى .

قال أبو الفَرَج : الثلاثة المقدَّمون على الشّعراء : امرؤ القيس ، وزُهير ، والنابغة ، لا اختلاف فى أنَّهم مقدَّمون على الشعراء كلِّهم ، وإنمــا اختُلِف فى تقديم بعض الثلاثة على بعض[(١)] .

قال : فأخبرنى أبو خليفة ، عن محمّد بن سلّام ، عن أبى قبيس ، عن عكرمة بن جَرير ، عن أبيه ، قال : شاعرُ أهل الجاهليّة زهير .

قال : وأخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجَوْهرىّ ، قال : حدثنى عمرُ بنُ شبّة ، عن هارون بن عمر ، عن أيوب بن سُوَيد ، عن يحيى بن زياد ، عن عمر بن عبد الله اللّيثىّ ، قال : قال عمرُ بنُ الخطاب ليلةً فى مسيره إلى الجابيــة : أين عبدُ الله بنُ عبّاس ؟ فأُتى به ، فشــكا إليه تخلُّف علىّ بن أبى طالب عليه السلام عنه . قال ابن عبّاس : فقلتُ له : أو لم يعتذِر إليك ؟ قال : بلى ، قلت : فهو ما اعتذر به . قال : ثم أنشأ يحـدّثنى فقال : إن أوّل من راثــكم عن هذا الأمر أبو بكر ؛ إن قومــكم كَرِهوا أن يجمعوا لــكم الخلافة والنبوّة. قال أبو الفَرَج : ثمّ ذكر قصّة طويلةً ليستْ من هذا الباب[(٢)]، فــكرهتُ ذِكرها ثمّ قال : يابن عبّاس، هل تروى لشاعر الشّعراء؟ قلت : ومَن هو ؟ قال: وَيْحَك! شاعرُ الشّعراء ، الذى يقول :

فلو أنّ حَمْدا يُخلِدُ النّاس خُلِّدوا ... ولــكنّ حَمْد النّاس ليس بمخلِدِ

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٨ .

(٢) ذكرت هذه القصة مفصلة فى الطبرى ٤ : ٢٢٢ ــ ٢٢٤ (طبع المعارف) .

فقلتُ : ذاك زُهَير ، فقال : ذاك شاعرُ الشّعراء ؛ قلتُ : وبم كان شاعرَ الشّعراء ؟ قال : إنه كان لا يُعاظِل الكلام ، ويتجنّب وحشيَّه ، ولا يمدَح أحداً إلّا بما فيه .

قال أبو الفرج : وأخبرنى أبو خليفة قال : قال ابن سلاّم : وأخبرنى عمرُ بنُ موسى الجمحىّ ، عن أخيه قدامة بن موسى — وكان من أهلِ العِلم — أنه كان يقدِّم زُهَيرا ، قال : فقلتُ له : أىُّ شعره كان أعجب إليه ؟ فقال : الذى يقول فيه :

قد جعَل المُبتَغُون الخيرَ فى هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طرَقَا [(١)]

قال ابن سَلاّم : وأخبَرنى أبو قيس العَنْبرىّ — ولم أرَ بدَوِيًّا يفى به — عن عكرمة ابن جرير ، قال : قلت لأبى : ياأبت ، مَن أشعر الناس ؟ قال : أعَن أهل الجاهلية تسألنى ، أم عن أهل الإسلام ؟ قال : قلتُ : ما أردت إلا الإسلام ، فإذا كنتَ قد ذكرت الجاهلية فأخبرنى عن أهلِها ؛ فقال : زُهير أشعرُ أهلِها ، قلت : فالإسلام ؟ قال: الفرزدق نَبعة الشِّعر ؛ قلت : فالأخطل ؛ قال : يُجيدُ مَدح الملوك ، ويصيب وصف الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : إنى نَحرْت الشِّعر نَحْرا [(٢)] .

قال : وأخبرَنى الحسن بن علىّ قال : أخبرنا الحارثُ بن محمد عن المدائنىّ ، عن عيسى بن يزيد ، قال : سأل معاويةُ الأحنف عن أشعَر الشعراء ؟ فقال : زُهَير ؛ قال : وكيف ذاك ؟ قال : ألقى على المادِحين فضول الكلام ، وأخذ خالصَه وصفوته ، قال : مِثل ماذا ؟ قال : مثل قوله :

وما يكُ من خير أتوْه فإنما توارَثه آباءُ آبائِهِمْ قبلُ
وهل يُنبتُ الخطِّىَّ إلّا وَشِيجُهُ وتُغرَس إلّا فى مَنابتها النّخلُ ! [(٣)]

قال : وأخبرنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، قال : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدثنا

---

(١) الأغانى ١٠ : ٢٨٨ ، ٢٨٩ .
(٢) الأغانى ١٠ : ٢٨٩ ، ٢٩٠ وفى د « نجرت الشعر نجرا » .
(٣) الأغانى ١٠ : ٢٩٠ .

عبد الله بن عمرو القيسيّ قال : حدثنا خارجة بنُ عبد الله بن أبى سفيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : خرجتُ مع عمر فى أول غزاة غزاها ، فقال لى ليلة : يابن عباس ، أنشدْنى لشاعر الشعراء ؛ قلتُ : مَن هو ؟ قال : ابن أبى سلمى . قلتُ : ولم صار كذلك ؟ قال : لأنه لا يَتْبَع حُوشىَّ الكلام ، ولا يُعاظِل فى مَنطِقه ، ولا يقول إلا مايعرِف ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه ، أليس هو الذى يقول :

إذا ابتدَرَتْ قيسُ بنُ عَيلانَ غايةً ... إلى المجد مَنْ يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ

سَبَقتُ إليها كلَّ طَلْقٍ مبرِّز ... سَبُوق إلى الغايات غير مُزَنَّدِ

قال : أى لا يحتاج إلى أن يجلد الفرس بالسَّوْط .

كفعل جَواد يسبق الخيل عَفْوُه الـسراع وإن يَجْهد ويَجهَدْنَ يَبْعُدِ

فلوكان حمداً يخلد الناس لم تَمُتْ[1] ... ولكنّ حمد النّاس ليس بمُخلِدِ

أنشدْنى له ، فأنشدْته حتى بَرَق الفجْر ، فقال : حسبُك الآن ، اقرأ القرآن . قلت : ما أقرأ ؟ قال : الواقعة ، فقرأتها ، ونزَل فأذَّن وصَلَّى[2] .

وقال محمد بن سلاّم فى كتاب '' طبقات الشعراء '' : دخل الحطيئة على سعيد بن العاص متنكِّرا ، فلما قام الناسُ وبقى الخواصّ أراد الحاجبُ أن يقيمَه ، فأبى أن يقوم ، فقال سعيد : دعْه ؛ وتذاكروا أيام العرب وأشعارها ، فلما أسهبوا قال الحطيئة : ماصنعتم شيئاً ؛ فقال سعيد : فهل عندك علْم من ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فمن أشعرُ العرَب ؟ قال : الذى يقول :

قد جَعَل المُبْتَغون الخير فى هَرِمٍ ... والسائلون إلى أبوابه طرُقا

قال : ثمّ من ؟ قال : الذى يقول :

---

(١) فى د « خلدوا » .

(٢) الأغانى ١٠ : ٢٩٠ ، ٢٩١ .

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طَلَعت لم يبدُ منهنّ كوكبُ

يعنى زُهَيرا ، ثمّ النابغة ؛ ثمّ قال : وحسْبك بى إذا وضعتُ إحدى رجلىّ على الأخرى ، ثم عوَيْت فى إثر القوافى كما يعوى الفَصِيل فى أثَرِ أمه ! قال : فمن أنت ؟ قال : أنا الحطيئة ، فرحّب به سعيد ، وأمر له بألف دينار .

قال : وقال من احتج لزهير : كان أحْسَنَهم شعرا ، وأبعَدَهم من سُخْف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليلٍ من المنطق ، وأشدَّهم مبالغة فى المدح ، وأبعدهم تكلفا وعجرفيّة وأكثرهم حكمة ومَثَلا سائرا فى شِعْره .

وقد روى ابن عبّاس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضلُ شُعرائكم القائل ومَن ومَن » ، يعنى زهيرا ، وذلك فى قصيدته التى أوّلها : « أمِنْ أمِّ أوْفى » يقول فيها :

ومَن يكُ ذا فَضْلٍ فيَبْخلْ بفضله ... على قومه يُستغنَ عنه ويُذْمَمِ
ومن لم يَذُدْ عن حَوضِه بسلاحِه ... يُهدَّمْ ، ومن لا يَظلِم الناس يُظْلَمَ
ومن هابَ أسبابَ المنايا ينَلْنَه ... ولو نال أسباب السَّماء بسُلَّمَ
ومَن يجعل المعروف من دُون عِرْضِه ... يَفِرْهُ ومن لا يَتّق الشَّتْمَ يُشتَمَ

* * *

فأما القول فى النّابغة الذّبيانىّ فإن أبا الفرَج الأصفهانى قال فى كتاب الأغانى : كُنْيَة النابغة أبو أمامة ، واسمُه زِياد بن معاوية ، ولُقِّب بالنابغة لقَوْله(١) :

* فقد نبغَتْ لهم مِنّا شئون *

وهو أحدُ الأشراف الّذين غَضّ الشّعر منهم ، وهو من الطبقة الأولى المقدَّمين على سائر الشعراء .

---

(١) الأغانى ١١ : ٣ .

أخبرنى أحمد بنُ عبد العزيز الجوهرىّ وحبيب بن نَصْر قالا : حدّثنا عمرُ بنُ شبّة ، قال : حدّثنى أبو نعيم ، قال : شريكٌ عن مُجالد ، عن الشّعْبى ، عن رِبْعىّ ابن حِراش ، قال : قال لنا عمر : يامعشرَ غَطَفان ، مَن الّذى يقول :

أتيتُك عارياً خَلَقاً ثيابى على خوفٍ تُظَنُّ بِىَ الظنونُ

قلنا : النابغة ، قال : ذاكَ أشعرُ شُعرائكم (١) .

قلتُ : قولُه : « أشعَر شُعرائكم » ، لايدلّ على أنّه أشعَر العرب ، لأنّه جعله أشعر شعراء غَطَفان ، فليس كقوله فى زُهير شاعرُ الشّعراء ، ولكنّ أبا الفرج قد روَى بعدَ هذا خبراً آخرَ صريحا فى أنّ النابغة عند عمر أشعرُ العرَب . قال : حدّثنى أحمدُ وحبيب ، عن عمرَ بنِ شبّة ، قال : حدّثنا عبيد بن جنّاد ، قال : حدّثنا مَعْن بنُ عبد الرحمن ، عن عيسى بن عبد الرحمن السُّلَمىّ ، عن جدّه ، عن الشّعبىّ قال : قال عمر يوما: مَن أشعَر الشعراء ؟ فقيل له : أنتَ أعلم يا أميرَ المؤمنين ؛ قال : من الذى يقول :

إلّا سُليمانَ إذ قال المليكُ له قُمْ فى البرِيّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ (٢)

وخَيِّس الجنّ إنى قد أذنتُ لهم (٣) يَبْنون تدْمُرَ بالصُّفّاح والعَمَدِ (٤)

قالوا : النابغة ؛ قال : فمن الّذى يقول :

أتيتُك عارياً خَلَقاً ثيابى على خَوْف تُظَنّ بىَ الظُّنونُ

قالوا : النابغة ؛ قال : فمن الّذى يقول :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِك ريبةً وليس وراء الله للمرء مَذهَبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنّى خِيانةً لَمُبلِغُك الواشى أغشُّ وأكذَبُ (٥)

---

(١) الأغانى ١١ : ٣ ، ٤ . (٢) فاحددها : فامنعها . والفند : الخطأ .

(٣) خيس الجن ، أى ذللهم ؛ وفى الأغانى : « وخبِّر الجن » .

(٤) تدمر : مدينة مشهورة قديمة كانت ببرية الشام . والصفاح : حجارة دقاق عراض واحدها صفاحة والعمد : جمع عمود . (٥) بعده فى الأغانى :

وَلَسْتَ بِمستَبْقٍ أخاً لَا تلمُّهُ على شَعَثٍ ؛ أىّ الرجال المهذّبُ!

قالوا : النّابغة ، قال : فهو أشعَر العرب (١) .

قال : وأخبَرنى أحمدُ ، قال : حدّثنا عمر ، قال : حدّثنى علىُّ بنُ محمّد المَدائنىّ قال : قام رجل إلى ابن عبّاس ، فقال له : أىُّ النّاس أشْعَر ؟ قال : أخبِرْه ياأبا الأسْوَد ، فقال أبو الأسود : الّذى يقول :

فإنك كالّليلِ الّذى هو مُدْرِكى ... وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ

يعنى النابغة (٢)

قال أبو الفرج : وأخبرنى أحمدُ وحبيب ، عن عمرَ عن أبى بكر العُلَيْمىّ ، عن الأصمعىّ ؛ قال : كان يُضرَب للنّابغة قُبّةُ أدَمٍ بسُوقِ عُكاظ فتأتيه الشّعراء فتَعرِض عليه أشعارَها ، فأنشده مرّة الأعشى ، ثم حسّان بنُ ثابت ، ثمّ قوم من الشعراء ، ثم جاءت الخنساء فأنشدَتْه :

وإنّ صَخْراً لتأتمّ الهُداةُ به ... كأنّه عَلَمٌ فى رأسِه نارُ

فقال : لولا أنّ أبا بَصير ـ يعنِى الأعْشى ـ أنشدَنى آنفا لقلتُ : إنّك أشعرُ الإنس والجنّ . فقام حسّان بنُ ثابت فقال : أنا واللهِ أشعَر منها ومنك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يابنَ أخى ، أنت لا تُحسِن أن تقول :

فإنّك كالّليل الّذى هو مُدرِكى ... وإن خلتُ أنّ المُنتأى عنكَ واسعُ
خَطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ مَتينةٍ ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليكَ نَوازِعُ (٣)

قال : فَخنَس حسّان لقوله (٤) .

قال : وأخبَرَنى أحمد وحبيب ، عن عمرَ ، عن الأصمعىّ ، عن أبى عمرو بنِ العلاء

---

(١) الأغانى ١١ : ٤ ، ٥ . (٢) الأغانى ١١ : ٥ .

(٣) الخطاطيف : جمع خطاف ، وخطاف البئر حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء وغيرها . وحجن : معوجة ، واحدها أحجن ، والأنثى حجناء . ونوازع : جواذب .

(٤) خنس : انقبض ، والخبر فى الأغانى ١١ : ٦ .

قال : حدّثنى رجل سمّاه أبو عمرو وأُنسِيتُه ، قال : بينما نحن نسيرُ بين أنقــاء من الأرض، فتذاكَرْنا الشّعر ، فإذا رَاكبٌ أُطَيْلِس [(١)] يقول : أشعَرُ الناس زيادُ بنُ معاوية ، ثمّ تملّس فلم نرَه .

قال : وأخبرَنى أحمدُ بنُ عبدالعزيز ، عن عمر بنِ شَبّة ، عن الأصمعىّ ؛ قال : سمعتُ أبا عمرو بنَ العَلاء يقول : ما ينبغى لزُهير إلّا أن يكون أجيراً للنابغة .

قال أبو الفرج :وأخبرَنا أحمدُ عن عمر ، قال: قال عمرو بن المنتَشِر المُرادىّ : وفَدْنا على عبدِ الملك بنِ مَرْوان ، فدخَلْنا عليه ، فقام رجل فاعتَذَر من أمرٍ وحَلَف عليه ، فقال له عبدُ الملك : ما كنتَ حَرِيًّا أن تفعل ولا تَعتذِر ، ثم أقبَل على أهل الشام فقال : أيّكم يَروِى اعتذارَ النابغةِ إلى النُّعمان فى قوله :

حلفتُ فلم أترُكْ لِنفسِكَ رِيبةً ... وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

فلم يجدْ فيهم من يَرْويه، فأَقبَل علىَّ وقال : أترويه ؟ قلتُ : نعم ، فأنشدتُه القصيدةَ كلَّها ، فقال : هذا أشعَر العرب .

قال : وأخبرَنى أحمدُ وحبيب عن عُمَر ، عن مُعاويةَ بن بكر البــاهلىّ ، قال : قلتُ لحمّاد الراوية : لم قَدَّمت النــابغة ؟ قال : لاكتفائكَ بالبَيْت الواحد مِن شِعره ، لا بل بنِصف البيت ، لا بل برُبْع البيت ، مِثل قوله :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسكَ ريبةً ... وليسَ وراءَ اللهِ للمرءِ مَذهَبُ

ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّه ... على شَعَثٍ ، أىُّ الرجالِ المهذَّبُ

رُبْع البَيْت يُغنيك عن غيرِه ، فلو تمثّلتَ به لم تحتجْ إلى غيره .

قال : وأخبرَنى أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن عمَر بنِ شَبّة ، عن هارون بنِ عبدِ الله

---

(١) الأنقاء : جمع نقا ، وهو القطعة من الرمل . وأطيلس تصغير أطلس ؛ وهو ما فى لونه غبرة إلى السواد . وتملس : تملص وأفلت .

الزُّبيرىّ(١)، قال: حدّثنى شيخٌ يُكنَى أبا داود، عن الشعبىّ، قال: دخلتُ على عبدِالملك وعندَه الأخطَل وأنا لا أعرِفه، وذلك أوّل يومٍ وَفَدتُ فيه من العراق على عبدِ الملك، فقلتُ حينَ دخلتُ: عامر بن شَراحيل الشَّعْبىّ يا أميرَ المؤمنين، فقال: على علمٍ ما أَذِنّا لك، فقلتُ: هذه واحدة على وافد أهلِ العراق ـ يعنى أنه أخطأ ـ قال: ثمّ إنّ عبد الملك سألَ الأخطلَ: مَن أشعَرُ الناس؟ فقال: أنا، فعجلتُ وقُلتُ لعبدالملك: مَن هذا يا أميرالمؤمنين؟ فتبسّم، وقال: الأخطل؛ فقلتُ فى نفسى: اثنتان على وافدِأهلِ العراق، فقلتُ له: أشعَر منكَ الّذى يقول:

هـــذا غلامٌ حَسَنٌ وجهُهُ مُستقبل الخـــيرِ سريعُ التّمامْ
للحارثِ الأكبرِ والحارثِ الـــأَصْغَر فالأعْرج خـــيرُ الأنامْ
ثم لعمرو ولعمرو وقـــد أسرَع فى الخَيْرات منه أمامْ(٢)

ـ قال: هى أُمامةُ أمُّ عمرو الأصغر بن المنـــذر بن امرئ القَيْس بن النّعمان ابن الشقيقة:

خمســـةُ آباء هُمُ ماهمُ أفضلُ مَن يَشرَب صَوْبَ الغَمامْ

والشِّعر للنابغة، فالتفت إلىّ الأخطل فقال: إنّ أميرَ المؤمنين إنّما سألَنى عن أشعَر أهلِ زمانه، ولو ســألَنى عن أشعَر أهــل الجاهلية كنتُ حريّاً أن أقول كما قلتَ أو شبيهاً به؛ فقلتُ فى نفسى: ثلاثٌ على وافِد أهلِ العراق.

قال أبو الفَرَج: وقد وجدتُ هذا الخبرَ أتمّ مِن هــذه الرّواية، ذكَرَه أحمدُ بنُ الحارث الخرّاز فى كتابه، عن المدائنىّ، عن عبدِ الملك بن مُسلِم، قال: كَتَب عبدُالملك ابنُ مَرْوانَ إلى الحجّاج: إنّه ليس شىءٌ من لذّة الدنيا إلّا وقد أصبتُ منه، ولم يَبقَ

---

(١) ب: « الزهرى »، وصوابه فى ا، د والأغانى.
(٢) فى الأغانى: « ثم لهند ولهند فقد ».

عندى شىء ألذَّ من مُناقَلة الإخوان الحديثَ ، وقِبلَكَ عامرٌ الشعبيّ فابعثْ به إلىّ ، فدعا الحجّاج الشّعبىّ ، فجهّزه وبعَثَ به إليه ، وقرّظه وأطْراه فى كتابه ، فخرج الشعبىُّ حتى إذا كان بباب عبدِ الملك قال للحاجب : استأذِن لى ، قال : مَن أنت ؟ قال : أنا عامرٌ الشّعْبىّ قال : يرحَمُك(١) الله ؛ قال : ثمّ نهض فأجلسَنى على كرسيّه ، فلم يلبَثْ أن خرج إلىّ فقال : ادخُل يرحَمك الله ؛ فدخلتُ ، فإذا عبد الملك جالسٌ على كرسىّ ، وبين يديه رجلٌ أبيضُ الرأس واللحية ، جالسٌ على كرسىّ ، فسلمت ، فردّ علىّ السلام ، فأومأَ إلىّ بقَضِيبه ، فجلستُ عن يساره ، ثمّ أقبل على ذلك الإنسان الّذى بين يديه فقال له : مَن أشعر الناس ؟ فقال : أنا يا أميرَ المؤمنين ؛ قال الشّعبىّ : فأظلَمَ ما بينى وبينَ عبدِ الملك ، فلم أصبرْ أن قلتُ : ومَن هذا الذى يزْعم أنه أشعَر الناس يا أمير المؤمنين ! فعَجِب عبدُ الملك من عجَلتى قبل أن يسألنى عن حالى ، فقال : هذا الأخطل ؛ فقلتُ : يا أخطَل ، أشعَرُ واللهِ منكَ الّذى يقول :

هذا غــلامٌ حَسَنٌ وَجْهُهُ مستقبِل الخَيْر سريعُ التّمامْ

الأبيات . . .

قال : فاُستحسَنَها عبدُ الملك ، ثم ردّدتُها عليه حتى حفِظَها ، فقال الأخطل : مَن هذا يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : هذا الشّعبىّ ؛ فقال : والجيلون ما اُستعذت بالله من شرّ إلا من هذا ـ أى والإنجيل ـ صدَق واللهِ يا أميرَ المؤمنين ، النابغةُ أشعَر منى ، قال الشّعبىّ : فأَقبَل عبدُ الملك حينئذ علىّ فقال : كيف أنتَ يا شَعبىّ ؟ قلتُ : بخير يا أمير المؤمنين ، فلا زلتَ به ثم ذهبتُ لأصنَع معاذيرَ لما كان من خلافى مع اُبن الأشعث على الحجّاج : فقال : مَهْ إنا لا نحتاج إلى هذا المَنطِق ، ولا تراه منّا فى قولٍ ولا فِعل حتى تفارقَنا ؛ ثمّ أقبَل علىّ فقال : ما تقول فى النابغة ؟ قلتُ : يا أمير المؤمنين ، قد فضّله عمرُ بنُ الخطاب

(١) رواية د « حياك الله » .

فى غيرِ مَوْطنٍ على جميع الشُّعراء ، ثمّ أنشَدْتُه الشِّعرَ الّذى كان عمرُ يُعجَب به من شِعْره ، وقد تقدم ذِكرُه . قال : فأقبَل عبدُ الملك على الأخطل فقال له : أتُحِبّ أنّ لك قِياضاً بشِعْرك شِعْرَ أحدٍ من العرب ، أم تحب أنك قلتَه ؟ قال : لا واللهِ يا أمير المؤمنين إلا أنى وَدِدْتُ أنى كنتُ قلتُ أبياتاً قالَها رجلٌ منّا ، ثم أنشَدَه قولَ القطامىّ :

إنّا مُحَيُّوك فاسْلَمْ أيُّها الطَّلَلُ ... وإنْ بليتَ وإن طالَتْ بكَ الطِّيَلُ(١)

ليس الجديد به تَبقَى بشاشتُه(٢) ... إلا قليلا ولا ذو خُلّة يَصِلُ

والعَيْشُ لا عيشَ إلا ما تقَرُّ به ... عَيْن ولا حالَ إلا سوف تَنتقِلُ

إنْ ترجِعى من أبى عثمان مُنجِحةً ... فقد يَهُون على المستنجِح العَمَلُ(٣)

والناسُ مَن يَلْقَ خيراً قائلون له ... ما يَشتهى ولأُمِّ المُخطىء الهَبَلُ

قد يُدرِكُ المتأنّى بعضَ حاجتِه ... وقد يكون مع المستعجِل الزَّلَلُ

قال الشعبىّ : فقلتُ : قد قال القَطامىّ أفضلَ من هذا ؛ قال : وما قال ؟ قلتُ : قال :

طَرَقَتْ جَنوبُ رِحالَنا من مَطْرَقِ ... ما كنتُ أحسَبها قريب المُعنَقِ(٤)

إلى آخرِها(٥) ، فقال عبدُ الملك : ثَكِلَت القَطامىّ أمُّه ! هذا واللهِ الشِّعر ، قال : فالتفَتَ إلىّ الأخطلُ فقال : يا شعبىّ ، إن لك فُنُونا فى الأحاديث ، وإنما لى فنٌّ واحد فإن رأيتَ ألا تَحمِلنى على أكتافِ قومِك فأدَعُهم حَرَضا(٦) ! فقلتُ : لا أعرض لك فى شىء من الشِّعْر أبدا ، فأقِلْنى هذه المرّة ، فقال : مَن يتكفّل بك ؟ قلتُ :

---

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار . والطيل : جمع طيلة ، وهى الدهر .
(٢) الضمير فى « به » يعود على الدهر .   (٣) منجحة : ظافرة . والمستنجح : طالب النجاح .
(٤) المعنق : المكان الذى أعنقت منه ، والعنق (بالتحريك) ضرب من السير السريع .
(٥) أوردها صاحب الأغانى   (٦) الحرض : الردىء من الناس ، أى أجعلهم بهجائى من أراذل الناس .

أميرُ المؤمنين ، فقال عبد الملك : هو عَلَيَّ أنه لا يعرِض لك أبدا ؛ ثم قال عبدُ المَلِك : ياشَعْبِيّ ، أيّ نساء الجاهلية أشعر ؟ قلتُ : الخنساء ؟ قال : ولم فضّلتها على غيرِها ؟ قلتُ : لقولها :

وقائلةٍ والنَّعْش قد فاتَ خَطْوَها لِتُدرِكه : يالَهفَ نَفْسى على صَخْرِ !
ألَا هبلتْ أمُّ الذين غدَوْا به إلى القبْر ، ماذا يحمِلون إلى القبْر !

فقال عبدُ المَلِك : أشعَر منها واللهِ التى تقول [(١)] :

مُهَفْهَفٌ أهضَم الكَشْحَين منخرِقٌ [(٢)] عنه القميصُ بسَيْر الليلِ مُحتقِرُ
لا يأمَن الدّهرَ ممساهُ ومصبحَه من كلّ أوْبٍ وإن لم يغزُ يُنتَظَرُ

قال : ثمّ تبسّم عبدُ الملك وقال : لا يشقّنّ عليك ياشعبيّ ، فإنّما أعلَمْتُك هذا لأنه بلَغنى أنّ أهلَ العراق يتطاولون على أهل الشام ، ويقولون : إن كان غَلَبونا على الدّولة فَلم يغلِبونا على العلم والرّواية ، وأهل الشام أعلَم بعِلْم أهلِ العراق من أهلِ العراق ، ثم ردّد علىّ أبيات ليلى حتّى حفِظتُها ، ثمّ لم أزل عنده أوّلَ داخل وآخِر خارج ، فكنتُ كذلك سنينَ ، وجعَلنى فى ألفين من العطاء ، وجعلَ عشرين رجلا من ولدى وأهل بَيْتى فى ألف ألفٍ ، ثمّ بعثنى إلى أخيه عبدِ العزيز بمصرَ ، وكتب إليه : ياأخى ، قد بعثتُ إليك بالشّعْبى ، فانظرْ هل رأيتَ قطّ مِثلَه [(٣)] !

قال أبو الفرَج الأصبهانىّ فى ترجمة أوْس بنِ حَجَر : إنّ أبا عبيدة قال : كان أوسُ شاعرَ مُضَر حتّى أسقطَه النابغة ؛ قال : وقد ذكر الأصمعىّ أنّه سمعَ أبا عمرو بن العلاء يقول : كان أوسُ بنُ حَجَر فحلَ العرب ، فلما نشأ النابغةُ طأطأ منه [(٤)] .

وقال محمّد بنُ سلّام فى كتاب طَبَقات الشّعراء : وقال من احتجّ للنابغة : كان أحسنَهم

---

(١) هى ليلى أخت المنتشر بن وهب الباهلى . (٢) مهفهف الكشح : ضامره .
(٣) الأغانى ١١ : ٢١ — ٢٦

دِيباجة شعر ، وأكثرَهم رَوْنق كلام ، وأجزَلَهم بيتا ؛ كأن شعره كلام ليس بتكلّف ، والمَنطِق على المتكلّمِ أوسَع منه على الشاعر ، لأنّ الشاعر يحتاج إلى البناء والعَروض والقَوافى ، والمتكلّم مطلَق ، يتخيّر الكلامَ كيف شاء ، قالوا : والنابغة نبَغ بالشّعر بعد أن احتنَك ، وهَلَك قبل أن يهتِر .

قلتُ : وكان أبو جعفر يحيى بن محمّد بن أبى زيد العَلَوىّ البَصْرىّ يُفضِّل النابغة ، واستقرَأنى يوما وبيدِى ديوانُ النّابغة قصيدتَه التى يَمدَح بها النّعمان بنَ المُنذِر ، ويَذكُر مرضَه ، ويَعتذر إليه ممّا كان اتُّهِم به ، وقذَفَه به أعداؤه ، وأوّلها :

كَتمتكَ لَيلاً بالجومين ساهراً ... وهَمّيْن : همّاً مستكنّاً وظاهِرا [(١)]

أحاديث نفسٍ تَشتكِى مايَريبُها ... ووِرْد هموم لو يَجِدْن مَصادِرا

تُكلّفنى أن يُغفِلَ الدهرُ همّها ... وهل وجدتْ قبلى على الدّهر ناصرا !

يقول : هذه النفس تكلّفنى ألّا يحدث لها الدهر همّا ولا حُزنا ، وذلك ممّا لم يستطِعه أحدٌ قبلى .

ألم ترَ خيرَ النّاس أصبحَ نعشُه ... على فِتيةٍ قد جاوَزَ الحىَّ سائرًا !

كان المَلِكُ منهم إذا مَرِض حُمِل على نعش وطِيف به على أكتاف الرجال بين الحِيرَة والخَوَرْنَق والنّجَف ، ينزّهونه .

ونحن لدَيْه نسألُ اللهَ خُلْدَه ... يردّ لنا ملكا وللأرضِ عامِرا [(٢)]

ونحن نُرجّى الخيرَ إنْ فاز قِدْحنا ... ونَرْهَبُ قِدحَ الدّهر إن جاء قامِرا

لك الخير إن وارتْ بك الأرض واحِداً ... وأصبحَ جدُّ الناس بعدكَ عاثرا

ورُدّتْ مَطايا الراغِبين وعُرّيتْ ... جِيادُكَ لا يُحفِى لها الدّهرُ حافِرا

---

(١) ديوانه ٣٩ — ٤٢ . والجومان : موضع .

(٢) الخلد : البقاء .

رأيتكَ ترْعانى بعين بصـيرةٍ وتَبْعَثُ حُرّاسـاً علىَّ وناظِرَا
وذلك مِنْ قول أتاك أقـوله ومِنْ دَسِّ أعداءٍ إليكَ المآبِرا(١)
فآليتُ لا آتيكَ إنْ كنت مُجرِماً ولا أبتغِى جاراً سِواكَ مُجـاوِرَا

أى لا آتيك حتى يَثبتَ عندكَ أنّى غيرُ مُجرم .

فأهلِى فِـداءٌ لامرئٍ إن أتيتُه تَقَبَّلَ معروفى وسَدَّ المفـاقِرَا(٢)
سأربطُ كَلْبِى أنْ يريبَكَ نَبحُهُ وإن كنتُ أرعَى مُسحُلانَ وحامِرَا(٣)

أى سأمْسِك لسانى عن هجائك وإن كنتُ بالشام فى هـذين الواديْين البعيدَين عنك .

وحَلّت بيُوتِى فى يَفاعٍ ممنَّعٍ تخال به راعِى الحَمولةِ طائِرا(٤)
تزِلّ الوعُولُ العُصم عن قَذَفاته ويُضحِى ذُراه بالسّحاب كوَافِرَا
حِـذاراً على ألّا تنال مقادَتى ولا نِسْوَتى حتّى يَمُتْنَ حَرائرَا

يقول: أنا لا أهْجرك وإن كنت من المَنَعة والعِصْمة على هذه الصفة .

أقولُ وقد شَطّت بىَ الدّارُ عنكمُ إذا مالقيت من مَعَدٍّ مُسافِرا
ألا أبلغ النّعمانَ حيثُ لقيتَـه فأهدَى له اللهُ الغيوثَ البوَاكِرا
وأصبحه فُلجاً ولا زال كَعْبُه على كلِّ مَن عادَى من الناس ظاهِرا
وربَّ عليهِ اللهُ أحسَن صُنْعه وكان على كُلِّ المُعادِين ناصِرَا(٥)

فجعل أبو جعفر رحمه الله يهتزّ ويَطرَب ، ثم قال : واللهِ لو مُزِجتْ هذه القصيدة بشِعر البحترىّ لـكادت تمتزج لسهولتها وسلامةِ ألفاظها ، وما عليها من الدِّيباجة والرّوْنق . من يقول : إنّ امرأ القيس وزهيراً أشعَرُ من هذا ! هَلُمُّوا فلْيُحا كمونى .

---

(١) المآبر : النمائم . (٢) تقبل ، بمعنى قبل . والمفاقر : جمع فقر
(٣) الديوان « سأ كعم كلبي » أى سأمسك . ومسحلان وعامر : موضعان .
(٤) اليفاع : المشرف من الأرض . والحمولة : الإبل التى أطاقت الحمل . (٥) ربه : أتمه .

فأمّا امرؤُالقيس بن حُجْر، فقال محمّد بنُ سلاّم الجُمحىُّ فى كتاب "طبقات الشّعراء": أخبرَنى يونسُ بن حَبيب أنّ علماء البَصرة كانوا يقدِّمونه على الشّعراء كلِّهم، وأنّ أهل الكوفة كانوا يقدِّمون الأعشى، وأنّ أهل الحجاز والبادية يقدِّمون زُهيرا والنّابغة(١).

قال ابنُ سلاّم: فالطبقة الأولَى إذَنْ أربعة. قال: وأخبرَنى شُعيب بن صَخْرٍ، عن هارون بن إبراهيم، قال: سمعتُ قائلا يقول للفرزدق: مَن أشعَر النّاس ياأبا فراس؟ فقال: ذو القرُوح، يعنى امرأ القَيْس، قال: حين يقول ماذا؟ قال حين يقول:

وَقاهمْ جَدُّهم ببنى أَبيهمْ   وبالأشْقَيْن ما كان العِقابُ

قال: وأخبرَنى أبَان بن عثمان البَجَلىّ، قال: مرّ لَبيدبالكوفة فى بنى نَهْد، فأتْبعوه رسول يسأله: من أشعَر النّاس؟ فقال: الملكُ الضِّلِّيل. فأعادوه إليه، فقال: ثمّ مَن؟ فقال: الغلامُ القتيل ـ يعنى طَرَفة بنَ العَبْد ـ وقال غيرُ أبان: قال: ثمّ ابن العشرين، قال: ثمّ مَن؟ قال: الشيخُ أبو عُقَيل يَعنِى نَفْسَه(٢).

قال ابنُ سلاّم: واحتجّ لامرئ القيس من يقدِّمه فقال: إنّه ليس(٣) قال مالم يقولوه، ولكنّه سَبَق العَرَبَ إلى أشياء ابتدعها استحسنَتْها العرب، فاتّبعه فيها الشعراء، منها استيقاف صَحْبه، والبُكاء فى الدِّيار، ورقّةُ النّسيب، وقربُ المأخذ، وتشبيهُ النّساء بالظِّباء وبالبيْض، وتَشبيهُ الخيل بالعِقْبان والعِصىّ، وقَيْد الأوابد، وأجاد فى النّسِيب، وفصَل بين النّسيب وبين المعنَى، وكان أحسنَ الطّبقة تشبيهاً(٤).

قال: وحدّثنى معلِّم لبنى داودَ بن علىّ، قال: بينا أنا أسيرُ فى البادية إذا أنا برجلٍ على ظَلِيم قدزمّه وخطَمه وهو يقول:

---

(١) طبقات الشعراء ٤٤   (٢) طبقات الشعراء ٤٤
(٣) طبقات الشعراء: «ما قال مالم يقولوا»   (٤) طبقات الشعراء ٤٦

هل يبلُغَنّيهمْ إلى الصَّباحِ هقْلٌ كأنّ رأسَه جماحُ

قال : فما زال يَذْهب به ظَليمهُ ويجىء حتى أنست به وعلِمتُ أنه ليس بإنسىّ فقلت : يا هذا ، من أشعَر العرب ؟ فقال : الّذى يقول :

أغرَّكِ منِّى أنّ حُبّكِ قاتِلى وأنكِ مَهْما تأمرِى القلب يَفعلِ

يعنِى امرأ القيْس ، قلتُ : ثمّ مَن ؟ قال : الّذى يقول :

ويَبْرُد بَرْد رِداء العرُو سِ بالصّيف رقْرَقتَ فيه العبيرَا

ويَسخُن ليلَةَ لا يَستطيعُ نُباحاً بها الكلب إلا هَرِيرَا

ثمّ ذَهب به ظَليمه فلم أرَه (١) .

* * *

قال : وحدّث عَوانةُ ، عن الحسن أن رسولَ الله صلى الله عليه وآله قال لحسان بن ثابت : من أشعَر العرَب ؟ قال : الزُّرقُ العيُون من بنى قَيْس ، قال : لستُ أسألك عن القبيلة ، إنما أسألك عن رَجُل واحدٍ ، فقال حسّان : يا رسول الله ؛ إنّ مَثَل الشعراء والشِّعرِ كمَثَل ناقةٍ نُحِرَتْ ، فجاء امرؤ القَيْس بنُ حُجْر فأخَذَ سَنامَها وأطايبها ، ثمّ جاء المتجاوِران من الأوْس والخَزرج فأخذا ما والَى ذلك منها ، ثم جَعَلت العربُ تمزّعها حتى إذا بقى الفَرْث والدَّمُ جاء عمرو بنُ تميم والنمِر بنُ قاسط فأخذاه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ذاك رجلٌ مذكورٌ فى الدنيا شريفٌ فيها خاملٌ يوم القيامة ، معه لواء الشُّعراء إلى النار » (٢) .

* * *

فأمّا الأعشى فقد احتجّ أصحابه لتفضيله بأنه كان أكثرَهم عَرُوضا ، وأذهَبَهم فى فُنون الشعر ، وأكثرَهم قصيدةً طويلةً جيّدة ، وأكثرهم مَدْحا وهِجاء ، وكان أوّل من سأل

بشِعْره ، وإن لم يكن له بَيْتٌ نادِر على أفواه الناس كأبياتِ أصحابِهِ الثلاثة .

وقد سُئِل خَلَف الأحمرُ : من أشعر الناس ؟ فقال : ما ينتهى إلى واحدٍ يُجمَع عليه كما لا يُنْتهى إلى واحدٍ هو أشجَع الناس ، ولا أخطب الناس ، ولا أجمل الناس ، فقيل له : يا أبا مُحرِز فأيهم أعجب إليك ؟ فقال : الأعشى كان أجمعَهم .

قال ابنُ سلاّم : وكان أبو الخطاب الأخفش مستهتراً به يقدِّمه ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : مَثَله مَثَل البازى يضرِب كبير الطير وصغيره . ويقول : نظيره فى الإسلام جَرير ، ونظيرُ النابغة الأخطل ، ونظيرِ زُهير الفرزدق(١) .

***

فأما قولُ أمير المؤمنين عليه السلام « المَلِك الضِّلِّيل » فإنما سُمِّى امرُؤُ القيس ضِلِّيلا لما يُعلن به فى شِعره من الفِسْق ، والضِّلِّيل : الكثيرُ الضلال ، كالشِّرِّيب ، والخِمِّير ، والسِّكير ، والفِسِّيق ، للكثير الشُرْب وإدْمان الخمر والسُكر والفِسْق ، فمن ذلك قولُه :

فمِثْلِك حُبْلى قد طرَقْتُ ومُرْضِعاً ... فألهيْتُها عن ذى تمائمَ مُحْوِلِ(٢)
إذا ما بَكَى من خَلفِها انصرفَتْ له ... بشِقٍّ وتحتى شِقُّها لم يُحَوَّلِ

وقوله :

سَموتُ إليها بعد ما نامَ أهلُها ... سموَّ حَبابِ الماء حالاً على حالِ(٣)
فقالتْ لحاكَ اللهُ إنك فاضِحى ... ألستَ ترَى السُّمارَ والناسَ أحْوالى
فقلتُ لها تاللهِ أبرَحُ قاعِداً ... ولو قطَّعوا رأسِى لديْكِ وأوْصالى

---

(١) طبقات الشعراء
(٢) ديوانه ١٢
(٣) ديوانه ٣١ ـ ٣٢

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرت بغصن ذى شماريخ ميّالِ
فصرنا إلى الحسنى ورقّ كلامُنا ورُضتُ فذلّتْ صعبةً أىَّ إذلالِ
حلفتُ لهـــا باللهِ حلفةَ فاجرٍ لناموا فما إن من حديثٍ ولا صالى
فأصبحتُ معشوقا وأصبح بعلها عليه القتامُ كاسِفَ الوجهِ والبالِ

وقوله فى اللامية الأولى :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها تمتّعتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعْجِلِ (١)
تخطّيْتُ أبوابًا إليها ومَعشَرًا علىَّ حِراصًا لو يُسِرُّون مَقتلى
فجئتُ وقد نضّت لنومٍ ثيابَها لدى السِّتْرِ إلا لِبْسةَ المتفضِّلِ
فقالتْ يمين الله مالكَ حيـــلةٌ وما إن أرى عنكَ الغواية تنجَلى
فقمتُ بها أمشى تجرُّ وراءنا على إثرنا أذيالَ مِرْطٍ مُرَجَّلِ
فلما أجزْنا ساحةَ الحىِّ وانتحَى بنا بطنُ خَبْتٍ ذى حِقافٍ عقَنْقلِ
هصرْتُ بفَوْدَىْ رأسِها فتمايلتْ علىَّ هضيمَ الكَشْحِ ريّا المُخلخَلِ

وقوله :

فبتَّ أكابِد ليـــلَ التمَا مِ والقلبُ مِن خَشْيَةٍ مقشعِرّْ
فلمّا دنوتُ تَسَدَّيْتُها فثَوْبًا نَسيتُ وثوبًا أجُرّْ
ولم يرَنا كالئٌ كاشـــحٌ ولم يَبْدُ مِنّا لدى البيت سِرّْ
وقد رابنى قولهـــا : ياهَنا هُ وَيْحكَ ألحقتَ شَرًّا بشَرّْ !

---

(١) ديوانه ١٣ ـ ١٥

وقوله :

تقولُ وقد جرّدتُها من ثيابها كما رُعْتَ مكحول المدامع أتلعا[1]
لعَمْرُكَ لو شيءٌ أتانا رسولُه سِواكَ ولكنْ لم نجِدْ لك مَدْفَعا
فبتْنا نَصُدّ الوحش عنّا كأنّنا قتيلان لم يعلم لنا الناسُ مَصْرَعا
تجافَى عن المأثور بيني وبيْنها وتُدْني علىّ السابرىّ المُضلَّعا

وفى شعر امرئ القيس مِن هذا الفنّ كثير ، فمن أراده فليَطْلُبه من مجموع شِعرِه .

(١) ديوانه ٢٤١

(٤٦٥)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

أَلا حُرٌّ يَدَعُ هَـذِهِ اللُّمَاظَةَ لأَهْلِهَا ! إِنَّهُ لَيْسَ لِأَنْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلَّا الْجَنَّةَ ، فَلَا تَبِيعُوهَا إِلَّا بِهَا .

***

الشرح :

اللُّماظة بفَتح اللام : ماتَبقَّى فى الفم من الطَّعام ؛ قال يصِفُ الدنيا :

* لماظةُ أيامٍ كأحلامِ نائم *

ولَمَظ الرجل يَلمُظ بالضمّ لَمْظا ، إذا تتبّع بلسانِه بقيّة الطعام فى فمه وأخرَج لسانه فمسَح به شفَتيه ، وكذلك التَّلمُّظ ، يقال : تلمّظَت الحيّة إذا أخرجتْ لِسانَها كما يتلمّظ الآكل .

وقال : « ألا حُرٌّ » ، مبتدأ ، وخبرُه مَحْذوف أى فى الوجود . وألا حرفٌ ، قال :

أَلا رجلٌ جزاه الله خَيراً   يدُلّ على مُحَصّلةٍ تبيتُ

ثم قال : إنه ليس لأنفسِكم ثمنٌ إلّا الجنة ، فلا تبيعوها إلا بها ، من الناس من يبيعُ نفسه بالدراهم والدّنانير ، ومن الناس من يبيع نفسه بأحقر الأشياء وأهونِها ، ويتبع هواهُ فيَهلك ، وهؤلاء فى الحقيقة أحمقُ الناس ، إلا أنه قَدْ رِينَ على القُلوب ، فغطّتها الذنوب ، وأظلمت الأنفسُ بالجهل وسوء العادة ، وطال الأمد أيضا على القلوب فقَسَتْ ، ولو أفكر الإنسانُ حقّ الفِكْر لما باع نفسه إلّا بالجنّة لا غير .

(٤٦٦)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَنْهُومانِ لا يَشْبَعانِ : طالِبُ عِلْمٍ وطالِبُ دُنْيا .

***

الشرح :

تقول : نَهِم فلانٌ بكذَا فهو مَنْهوم، أى مُولع به ، وهذِه الكلمة مَرْوِيّة عن النّبىّ صلّى الله عليه وآله : « مَنْهومان لايَشبَعان: منهومٌ بالمالِ ، ومنهومٌ بالعلم ». والنَّهَم بالفَتْح: إفراطُ الشَّهْوة فى الطّعام ، تقول منه : نَهِمْتُ إلى الطّعام بكسرِ الهاء أنْهَمُ فأنا نَهِم، وكان فى القرآن آيةٌ أنزلت ثمّ رفِعَت : « لو كان لابن آدَم وادِيانِ من ذَهبٍ لابتغَى لهماثالثا، ولا يَملأُ عينَ ابنِ آدم إلّا التراب ، ويتوبُ الله عَلَى مَنْ تاب » .

فأمّا طالبُ العِلْم العاشِقُ له ، فإنّه لايَشبع منه أبداً ، وكلّما استكثَر منه زادَ عِشْقهُ له، وتهالُكُه عليه . مات أبو عثمانَ الجاحظُ والكتابُ على صَدْره .

وكان شيخُنا أبو علىّ رحمه الله فى النَّزْع وهو يُملِى على ابنِه أبى هاشم مسائلَ فى عِلْم الكلام . وكان القاضى أحمدُ بنُ أبى دُواد يأخذُ الكتابَ فى خُفِّه وهو راكب ، فإذا جلَسَ فى دارِ الخليفة اشتغَل بالنّظر فيه إلى أن يجلِس الخليفة ، ويَدْخُل إليه . وقيل : مافارقَ ابنُ أبى دُواد الكتابَ قطّ إلّا فى الخلاء . وأعرف أنا فى زَمانِنا مَن مَكَث نحو خمسِ سنينَ لا ينامُ إلّا وقتَ السَّحَر صَيْفا وشتاء مُكبًّا على كتابٍ صنّفه ، وكانت وسادتُه الّتى ينامُ عليها الكتاب .

(٤٦٧)

الأصل

وقالَ عليهِ السلامُ :

علامَةُ الإيمان أنْ تُؤْثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّكَ ، عَلَى الْـكَذِبِ حَيْثُ يَنفَعُكَ ، وألّا يَـكُونَ فى حَدِيثِكَ فَضْلٌ عَنْ عِلْمِكَ ، وأنْ تَتَّقِيَ اللهَ فى حَدِيثِ غَيْرِكَ .

***

الشَّرْحُ :

قد أَخذ المعنَى الأوّل القائلُ :

عليكَ بالصِّدْقِ ولَو أنّه أَحْرَقَكَ الصِّدْقُ بنارِ الوَعِيدْ

وَينبغِي أن يكونَ هذا الحُكْم مقيّدا لامطلقا ، لأنّه إذا أَضرّ الصِّدْق ضَرَرا عظيما يؤدِّى إلى تَلَفِ النَّفْس أَوْ إلى قَطْع بعضِ الأعضاء لم يجُزْ فِعلُه صَرِيحا ،ووجَبتْ المعَاريضُ حينئذ .

فإن قلتَ : فالمعَارِيض صِدْق أيضـا ، فالـكَلامُ على إطلاقه ! قلتُ : هى صِدْق فى ذاتها ، ولـكنّ مُستعمِلَها لم يَصدُق فيما سُئل عنه ، ولا كَذَب أيضا ، لأنه لم يُخبِر عنه ، وإنّما أخبرَ عَنْ شيء آخَرَ وهى المعَارِيض ؛ والتّارِكُ للخَبَر لايـكون صادقاً ولا كاذبا ، فوَجَب أن يقيِّد إطلاقُ الخبَر بما إذا كان الضَّرَر غيرَ عظيم ، وكانت نتيجةُ الصِّدق أعظَم نفْعا من تلك المَضرّة .

قال عليه السلام : « وأن يكونَ فى حديثِك فَضْل عن عِلمك » ، مَتَى زاد مَنطِق الرجل على عِلْمِه فقد لغَا وظَهر نقصُه ، والفاضلُ من كان عِلمُه أكثرَ من مَنطِقه . قوله : « وأن تتقِى الله فى حديثِ غيرِك » ، أى فى نَقْلِه وروايته فترْوِيه كما سَمِعْته من غير تحريف .

(٤٦٨)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

يَغْلِبُ المِقْدَارُ على التَّقْدِيرِ ، حَتَّى تَكُونَ الآفَةُ فى التَّدْبِير .

قال : وقد مضى هذَا المَعْنَى فيما تقَدم برِوَايةٍ تُخالف بعض هذه الأَلفاظ .

***

الشَّرْحُ :

قد تقدَّ هذا المعنى ، وهو كثيرٌ جدا ، ومن جيّده قول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مالامَ ابنُ أخطبَ نَفْسَه ولكنه من يَخْذُل اللهُ يُخذلِ
لجاهدَ حتى تَبلُغَ النفس عُذْرَها وقَلْقَل يبغى العِزَّ كلَّ مُقَلْقَلِ

وقال أبو تمّام :

ورَكْبٍ كأطراف الأسِنّة عَرَّسُوا على مِثلها واللّيل تَسْطو غَياهِبُه[1]
لأمرٍ عليهمْ أنْ تَتِمَّ صُدورُه وليس عليهمْ أن تتمَّ عَواقِبُه

وقال آخر :

فإنْ يَبن حيطاناً عليه فإنّما أولئك عُقّالاتُه لامَعاقِلُهْ

---

(١) ديوانه ١ : ٢٢٩

(٤٦٩)

الأَصْلُ :

وقال عليه السلام :

الحِلْمُ والأَناةُ تَوْءمانِ ، يُنْتِجُهما عُلُوُّ الهِمَّةِ .

* * *

الشَّرْحُ :

قد تقدّم هذا المعنى وشرحه مرارا .

وقال ابن هانئ :

وكلّ أناة فى المواطِن سؤدُدٌ ولا كأناةٍ مِن تدبُّر مُحكَمِ (١)

ومَن يتبيَّن أن للسَّيفِ مَوضِعاً مِنَ الصَّفْحِ يَصْفَحْ عن كثير ويحلُمُ

وقال أربابُ المعانى : علّمنا الله تعالى فضيلةَ الأناة بما حكاه عن سليمان : ﴿ سَنَنْظُرُ أصدَقْتَ أم كُنتَ منَ الـكاذبينَ ﴾ (٢) .

وكان يقال : الأناة حِصْن السلامة ، والعَجلة مفتاحُ الندامة .

وكان يقال : التأنّى مع الخَيْبة ، خيرٌ من التهوُّر مع النّجاح .

وقال الشاعر :

الرِّفقُ يُمْنٌ والأناةُ سَعادةٌ فتأنَّ فى أمْرٍ تُلاقِ نجاحَا

---

(١) ديوانه ١٢٣ وفى د « من تدبير محكم » . (٢) سورة النمل ٢٧ .

وقال مَن كره الأناةَ وذمّها : لو كانت الأناة محمودةً والعَجَلة مذمومةً ، لما قال موسى لربّه : ﴿ وعَجِلْتُ إليكَ ربِّ لِترْضَى ﴾(١) .

وأنشَدوا :

عَيبُ الأناةِ وإنْ سَرّتْ عواقِبُها   أن لا خُلودَ وأن ليسَ الفَتى حجَرا

وقال آخَر :

كم من مضيِّعِ فرصةٍ قد أمكَنَتْ   لغدٍ وليسَ له غــدٌ بمُواتِي

حتى إذا فاتتْ وفات طِلابُها   ذهبتْ عليها نفسُــه حسَراتِ

(١) سورة طه ٨٤ .

(٤٧٠)

الأصْل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الغِيبةُ جُهْدُ العاجزِ .

***

الشَّرْح :

قد تقدّم كلامُنا فى الغِيبة مُستقصًى .

وقيل للأحنف : مَنْ أشرَف النـاس ؟ قال : منَ إذا حَضَر هابُوه ، وإذا غاب اغتابوه .

وقال الشاعر :

ويَغتابُنى مَن لو كَفانى اغتيابَهُ   لَكنتُ له العينَ البصيرةَ والأُذْنَا
وعنـدى من الأشياءِ مالَو ذكرتُهـا   إذا قرَعَ الْمُغتاب من نَدَمٍ سِنّا

وقد نظمتُ أنا كلمةَ الأحنف فقلتُ :

أكْلُ عِرْضى إنْ غِبتُ ذمًّا فإن أُبْـ   ـتُ فمدحٌ ورَهْبةٌ وسُجودُ
هكذا يَفعَل الجبانُ : شُجاعٌ   حين يَخْلو ، وفى الوَغى رِعْديدُ
لك مِنِّى حالانِ : فى عَيْنِك الجُنَّـــة حُسْناً   وفى الفُؤادِ وَقودُ

(٤٧١)

الأصْلُ :

وقالَ عليه السلامُ :

رُبَّ مَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ .

***

الشَّرْحُ :

طالمَا فُتِن الناسُ بثناءِ النّاس عليهم ، فيقصِّر العالم فى اكتساب العلم اتّكالا على ثَناءِ النّاس عليه ، ويقصِّر العابدُ فى العِبادة اتّكالا على ثناء الناسِ عليه ، ويقول كلّ واحد منهما : إنّما أردتُ ما اشتهرْتُ به للصِّيت ، وقد حَصَل ، فلِماذا أتكلّف الزّيادة ، وأعانى التّعب ! وأيضا فإنّ ثَناءَ النّاس على الإنسان يَقتضى اعتراء العُجْب له ، وإعجاب المرء بنَفْسه مُهلِك .

***

واعلمْ أنّ الرّضىّ رحمه الله قَطَع كتابَ نَهْج البلاغة علىهذا الفَصْل،وهكذا وجدتُ النُّسخة بخَطّه وقال : « هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى قَطْع المُنتزَع من كلام أمير المؤمنين عليه السلام : حامِدِين لله سبحانَه على مامَنّ به من توفيقِنا لِضمّ ما انتشَرَ من أطرافه وتقريب مابَعُد من أقطاره ، متقرِّرِين العزْم كما شرطْنا أوّلا على تفضيل أوراقٍ من البياض فى آخِر كلّ باب من الأبواب ، لتكون لاقتناص الشارِد ، واستِلْحاق الوارد ، وماعَساه أن يَظهرَ لنا بعدالغمُوض ، ويقع إلينا بعد الشّذوذ ، وما توفيقُنا إلا بالله ، عليه توكّلنا ، وهو حسبُنا ونعمَ الوكيل ، نعمَ المولَى ونعمَ النّصير » .

ثم وجَدْنا نسخاً كثيرةً فيها زيادات بعد هذا الكلام ؛ قيل : إنها وُجِدَتْ فى نسخةٍ كتبتْ فى حَياةِ الرَّضىّ رحمه الله وقُرِئَت عليه فأمضاها،وأذِن فى إلحاقِها بالكِتاب ونحن نذكرها .

(٤٧٢)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

الدُّنْيا خُلِقَتْ لِغَيْرِها ، ولَمْ تُخْلَقْ لِنَفْسِها .

***

الشرح :

قال أبو العلاء المَعَرّيّ – مع ما كان يُرْمَى به – فى هذا المعنى ما يُطابِق إرادةَ أمير المؤمنين عليه السلام بلَفْظه هذا :

خُلِقَ الناسُ للبَقاءِ فضَلَّتْ أُمَّةٌ يحسَبونَهمْ للنَّفادِ[1]
إنّما يُنقلونَ من دارِ أعما لٍ إلى دارِ شِقْوةٍ أو رَشادِ

---

(١) سقط الزند ٩٧٨ ، ٩٧٩ .

(٤٧٣)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

إنَّ لِبَنِي أُمَيَّةَ مِرْوَداً يَجْرُونَ فِيهِ ، وَلَوْ قَدِ اخْتَلَفُوا فِيما بَيْنَهُمْ ثُمَّ لو كَادَتْهُمُ الضِّباعُ لَغَلَبَتْهُمْ .

* * *

قَالَ الرضيُّ رَحِمَهُ اللهُ تعالَى : وَهذا مِنْ أَفْصَحِ الكلامِ وَأَغْرَبِهِ ، وَالمِرْوَدُ هاهنا مِفْعَلٌ مِنَ الإِرْوادِ ، وَهُوَ الإِمهالُ وَالإِنْظارُ ، فَكأَنَّهُ عليهِ السلامُ شَبَّهَ المُهْلَةَ التى هم فيها بالمِضْمارِ الذى يَجْرُونَ فيه إلى الغاية ، فإذا بلغوا مُنْقَطَعَها انتقض نِظامُهُمْ بعدَها .

* * *

الشرح :

هذا إخبارٌ عن غَيْب صريح ،لأن بنى أميّة لم يزل مُلكُهم منتظِماً لمّا لم يكن بينهم اُختلاف ، وإنّما كانت حروبُهم مع غيرهم كحَرْب معاويةَ فى صِفِّين ، وحرب يزيدَ أهلَ المدينة ،وابن الزبير بمكّة ، وحرب مروانَ الضحّاك ،وحَرْب عبد الملك ابنَ الأشعث وابنَ الزبير ، وحرب يزيد ابنه بنى المهلّب، وحرب هشام زيدَ بن علىّ ، فلمّا ولى الوليد ابن يزيد وخرج عليه اُبنُ عمّه يزيد بن الوليد وقتَله ، اختلفتْ بنو أميّة فيما بينهما ، وجاء الوعدُ — وصَدَق من وعد به — فإنّه منذ قتل الوليد دعَت دعاةُ بنى العبّاس بخُراسان،وأقبل

مروانُ بنُ محمّد من الجزيرة يطلُب الخلافة ، نخلع إبراهيم بن الوليد ، وقَتَل قوما من بنى أميّة ، واُضطرَب أمرُ الملك وانذَشَر ، وأقبلَت الدولةُ الهاشميّة و نَمَتْ ، وزال مُلْك بنى أميّة ، وكان زَوال مُلْكهم على يد أبى مُسلِم ، وكان فى بدايته أضعفَ خَلْق الله وأعظمَهم فقْرا ومَسكَنة ، وفى ذلك ، تَصديقُ قوله عليه السلام : « ثمّ لو كادَتْهم الضِّباع لغَلَبَتهم » .

(٤٧٤)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ فى مدْحِ الأنصارِ :

هُمْ وَاللّهِ رَبَّوا الإسْلامَ كَمَا يُرَبَّى ٱلْفُلُوُّ مَعَ غَنَائِهِمْ بِأَيْدِيهِمُ السِّبَاطِ ، وألسِنَتِهِمُ السِّلَاطِ .

***

الشَّرْحُ :

الفُلُوّ : المُهْر .

ويُرْوَى: « بأيديهم البِساط »، أى الباسِطة، والأُولى جَمْع سَبْط يَعنِى السَّماح، وقديقال للحاذق بالطَّعن : إنَّه لَسَبْط اليدَين ، يريدُ الثَّقافة . وألسنتهم السِّلاط ، يعنى الفَصيحة .

وقد تقدّم القولُ فى مَدْح الأنصار، ولو لم يكن إلا قولُ رسولِ الله صلّى الله عليهوآله فيهم : « إنّكم لتَكثُرُون عند الفَزَع، وتَقِلّون عند الطَّمع »، ولو لم يكنْ إلّا ماقالهلعامر ابنِ الطُّفَيل فيهملمّا قالله: « لأغزُوَنّك فى كذاو كذا من الخَيْل » يتوعّده ،فقال عليهالسلام: « يكفى الله ذلك وأبناء قَيْلة » ، [لكان فخرا لهم] وهذا عظيمٌ جدّا وفوق العَظِيم ، ولا ريبَ أنّهم الّذين أيّد اللهُ بهم الدّين ، وأظهرَ بهم الإسلام بعد خَفائِه ، ولولاهم لعجَز المهاجرون عن حَرْب قريش والعرب ، وعن حِمايةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآله، ولولا مَدينتهم لم يكن للإسلام ظَهرٌ يَلجئون عليه ، ويكْفِيهم فَخْرا يومُ حَمْراء الأسد ،

يوم خرجَ بهم رسولُ الله صلّى الله عليه وآله إلى قريش بعد انْكسار أصحابِه، وقتلِ مَن قُتل منهم، وخرجوا نحوَ القوم والجراحُ فيهم فاشية، ودماؤهم تَسيل، وإنّهم مع ذلك كالأُسْد الغِراث تَتواثَب على فَرائِسِها، وكم لهم من يومٍ أغرّ محجَّل! وقالت الأنصار: لولا عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام في المهاجِرين لأبَيْنا لأنفُسنا أن يُذكَر المهاجرون مَعَنا، أو أن يُقرَنوا بنا، ولكنْ رُبَّ واحدٍ كألف؛ بل كألوف.

وقد تقدَّم ذكرُ الشِّعر المَنسوب إلى الوزير المغربيّ وماطعن به القادر بالله الخليفة العبّاسيّ في دِينه بطريقه، وكان الوزيرُ المغربيّ يتبرّأ منه ويَجحَده، وقيل: إنه وُجدت مسوّدَة بخطّه فرفعتْ إلى القادر بالله.

وممّا وُجِد بخطّه أيضا — وكان شديدَ العَصَبيّة للأنصار ولقَحْطانَ قاطِبةً، على عدنان، وكان يَنتمِي إلى الأزد، أزْد شَنُوءة — قوله:

إنّ الذى أرسَى دعائمَ أحمدٍ ... وعَلاَ بدَعْوتِه على كِيوانِ
أبناء قَيْلةَ وارِثو شَرَف العُلاَ ... وعَراعِر الأقيالِ مِن قَحْطانِ
بسُيوفهم يومَ الوَغَى وأكفِّهمْ ... ضَرَبتْ مَصاعب مُلْكِه بجِرانِ [1]
لولا مَصارِعُهم وصِدْقُ قِراعِهم ... خَرّت عُروشُ الدِّين للأذْقانِ
فليشكرَنّ محمّدٌ أسيافَ مَن ... لولاه كانَ كخالدِ بنِ سِنانِ

وهذا إفراطٌ قَبيح، ولفظٌ شنيع؛ والواجب أن يصانَ قدرُ النّبوّة عنه، وخصوصا البَيْت الأخير، فإنّه قد أساء فيه الأدَب، وقال مالا يجوز قولُه، وخالدُ بنُ سِنان كان من بَنى عَبْس بن بَغِيض: من قَيْس عَيْلان، ادّعى النبوّة، وقيل: إنّه كانت تَظهر عليه آياتٌ ومُعجِزات، ثمّ مات وانقرَض دِينُه ودثرتْ دَعْوَته، ولم يَبقَ إلّا اسْمُه، وليس يَعرفه كلّ الناس، بل البعض منهم.

---

(١) يقال: ضرب البعير بجرانه: إذا برك.

(٤٧٥)

الأصل :

وقال عليهِ السلامُ :

الْعَيْنُ وِكاءُ السَّهِ .

***

قالَ الرَّضيُّ رحمهُ اللهُ تعالى : وهذهِ مِنَ الاسْتِعاراتِ الْعَجيبةِ ، كأنَّهُ شَبَّهَ السَّهَ بالْوِعاءِ ، والْعَيْنَ بالوِكاءِ ، فإذا أُطْلِقَ الوِكاءُ لَمْ يَنْضَبِط الوِعاءُ . وهَذَا الْقَوْلُ فى الأشْهَرِ الأظهَرِ مِنْ كلامِ النَّبيِّ صلّى اللهُ عليه وآله ، وقَدْ رَوَاهُ قَوْمٌ لأميرِ الْمُؤمِنِين عَلَيْهِ السلامُ ؛ وذَكَرَ ذَلِكَ الْمُبَرِّدُ فى الكتابِ الْمُقْتَضَبِ فى باب اللَّفْظِ المعرُوفِ .

قالَ الرَّضيّ : وقَدْ تَكَلَّمْنا على هَذِهِ الاسْتِعارَةِ فى كِتابِنا الْمَوْسُومِ بِمَجازات الآثارِ النبويَّةِ .

***

الشَّرْحُ :

المعروف أنّ هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله ، ذكَرَه المحدّثون فى كُتبهم وأصحابُ غَريب الحديث فى تصانيفهم ، وأهلُ الأدب فى تفسير هذه اللّفظة فى مجموعاتهم اللّغوية ، ولعل المبرّد اشتَبَه عليه فنَسَبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، والرواية بلَفْظ التثنية : « العَيْنان وِكاءُ السَّهِ » ، والسَّهُ : الاسْتُ .

وقد جاء فى تمام الخبر فى بعض الرّوايات : « فإذا نامت العَيْنان اسْتطلق الوِكاء » والوكاء : رِباطُ القِرْبة ، فجعل العَيْنين وِكاء ـ والمُرادُ اليَقظة ـ للسّتَه كالوِكاء للقِرْبة ، ومنه الحديث فى اللُّقَطة : « احْفَظ عِفاصَها ووِكاءها ، وعرّفها سنةً ، فإن جاء صاحِبُها وإلا فشأنَك بها » ، والعِفاص : السِّداد ، والوكاء : السّداد ، وهذه من الكِنايات اللطيفة .

* * *

[فصل فى ألفاظ الكنايات وذكر الشواهد عليها]

وقد كنّا قدمنا قطعةً صالحةً من الكنايات المستحسَنة ، ووعَدْنا أن نعاوِدَ ذكرطرف منها ، وهذا الموضعُ موضعه ، فمن الكناية عن الحدث الخارج ـ وهو الذى كَنَى عنه أميرُ المؤمنين عليه السلام ، أو رسول الله صلى الله عليه ـ الكناية التى ذكرها يحيى بن زياد فى شعره ، قيل : إنّ يحيى بن زياد ومطيعَ بن إياس وحمّادا الرّاوية جلسوا على شِرْبٍ لهم ، ومعهم رجلٌ منهم ، فانحلّ وكاؤُه ، فاستحيا وخَرَج ، ولم يَعُدْ إليهم ، فكَتَب إليه يحيى بنُ زياد .

أمِنْ قَلوصٍ غدَتْ لم يُؤذِها أحَدٌ ... إلّا تذكُّرُها بالرَّمْل أوْطانا
خانَ العِقالُ لها فانبَتّ إذْ نفرَتْ ... وإنما الذنبُ فيها للّذى خانا
مَنحتَنا مِنك هِجرانًا ومَقْلِيَةً ... ولم تزُرْنا كما قَدْ كنت تَغْشانا
خفِّضْ عليك فما فى الناس ذُو إبل ... إلّا وأيْنقه يَشرُدن أحيانا

وليس هذا الكتابُ أهلاً أن يضمَّن حكاية سخيفةً أو نادرة خليعة ، فنذكر فيه ما جاء فى هذا المعنى ، وإنما جرّأنا على ذكر هذه الحكاية خاصّة كنايةُ أمير المؤمنين عليه السلام أو رسولِ الله صلّى الله عليه وآله عنها ، ولكنا نذكر كنايات كثيرة فى غير هذا المعنى مستحَسنة ، ينتفع القارئُ بالوقُوف عليها .

يقال : فلانٌ من قوم موسى ، إذا كان مَلُولا ، إشارةً إلى قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبرِ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (١) .

قال الشاعر :

فيا مَنْ ليس يَكفِيه صَديقٌ ولا ألفا صَديقٍ كلَّ عامِ
أظنّك مِنْ بقايا قومِ مُوسى فهمْ لا يَصبرون على طعامِ

وقال العبّاس بنُ الأحنف :

كتبتْ تَلومُ وتستريثُ زِيارتى وتقولُ : لست لنا كعَهْدِ العاهدِ
فأجبْتُها ودُموعُ عَيْنَىَّ سُجَّمٌ تَجرِى على الخدَّين غير جَوامِدِ
يا فَوْزُ لم أهْجُرْكُمُ لِمِلالَةٍ عَرَضَتْ ولا لمقالِ واشٍ حاسدِ
لكنّنى جَرّبْتُكم فوجدْتُكمْ لا تَصبِرون على طعامٍ واحدِ

ويقولون للجارية الحَسْناء : قد أبقَتْ من رِضْوان ، قال الشاعر :

جَسَّت العُودَ بالبَنانِ الحِسانِ وتثنّت كأنّها غُصْنُ بانِ
فسجَدْنا لها جميعاً وقلنا إذ شجَتْنا بالحسن والإحْسانِ
حاشَ للهِ أن تكونى من الإنْسِ ولكنْ أبقْتِ مِنْ رِضوان

ويقولون للمكشوف الأمر الواضح الحال : ابن جَلَا ، وهو كنايةٌ عن الصُّبْح

ومنه ما تمثل به الحجّاج :

أنا ابنُ جَلاَ وطَلاّعِ الثّنايا مَتَى أضَعِ العمامةَ تَعرفونى (٢)

ومنه قول القلاخ بن حَزْن :

---

(١) سورة البقرة ٦١ .
(٢) الكامل ١ : ٢٢٤ ، ونسبه إلى سحيم بن وثيل الرياحى .

* أنا القُلاخُ بنُ القُلاخ ابن جلاَ *

ومنه قولُهم : فلان قائدُ الجَمل لأنّه لا يَخفَى لعظم الجمل وكِبَر جثته ، وفى المَثَل : ماستتَرَ مَن قاد جَملا . وقالوا : كَفَى برُغائها نِداء ، ومِثلُ هذا قولُهم : ما يومُ حَليمة بسِرّ يقال : ذلك فى الأمر المَشْهور الّذى لا يُستَر ، ويومُ حليمة يوم ٱلتقى المنذرُ الأكبرُ والحارثُ الغَسّانىّ الأكبر ، وهو أشهر أيّام العرَب ، يقال : إنه ارتَفَع من العَجاج ما ظَهرتْ معه الكواكبُ نهاراً ، وحليمة : اسمُ امرأةٍ أضيفَ اليومُ إليها ، لأنّها أخرَجَتْ إلى المعركةَ مَراكنَ الطِّيب ، فكانتْ تُطيِّب بها الدّاخلين إلى القتال ، فقاتلوا حتّى تفانَوْا .

ويقولون فى الكِنايَةِ عن الشّيخ الضعيف: قائدُ الحمار ، وإشارةً إلى ما أنشدَه الأصمعىّ :

آتى النّدِىَّ فلا يُقرِّب مَجلِسى   وأقودُ للشّرَفِ الرّفيعِ حِمارِى

أى أقُوده من الكِبَر إلى مَوْضعٍ مرتفع لأركَبه لضَعْفى . ومثلُ ذلك كِنايتُهم عن الشّيخ الضعيف بالعاجِن ، لأنّه إذا قام عَجَن فى الأرض بكفّيه ، قال الشاعر :

فأصبحتَ كُنْتيًّا وأصبحْتَ عاجناً   وشرُّ خِصالِ المرءِ كنتُ وعاجِنُ

قالوا : الكُنْتِىُّ الذى يقول كنتُ أفعَل كذا ، وكنتُ أركَب الخيل ، يتذكّر ما مَضَى من زمانِه ، ولا يكونُ ذلك إلّا عند الهرَم أو الفَقْر والعجْز .

ومِثلُه قولُهم للشّيخ : راكع ، قال لَبيد :

أخبِّرُ أخبارَ القُرونِ الّتى مَضَتْ   أدِبُّ كأنّى كلّما قُمتُ راكِعُ [1]

والرّكوع : هو التّطأطُؤ والانحناء بعد الاعتدال والاستواء ، ويقال للإنسان إذا انتقَل من الثّروة إلى الفقْر : قد رَكَع ، قال :

لا تُهِينَ الفَقيرَ علّكَ أنْ ترْ   كعَ يوْماً والدّهْرُ قد رفَعَهْ [2]

---

(١) ديوانه ١٧١ .   (٢) للأضبط بن قريع السعدى ، أمالى القالى ١ : ١٠٨ .

وفى هذا المعنى قال الشاعر .

ارفعْ ضَعيفَكَ لا يَحِرْ بِكَ ضَعْفُه يوماً فتُدرِكه الحوادثُ قد نَمـا (١)
يَجزِيكَ أو يُثْنِي عليكَ وإنّ مَنْ يُثنى عليكَ بمـا فَعَلْتَ فقد جزَى

ومِثلُه أيضا :

وأكْرِمْ كريماً إنْ أتاكَ لحاجةٍ لعاقبةٍ إنّ العِضَـاهَ تروّحُ

تروّح الشّجر : إذا انفطَر بالنّبت ، يقول : إن كان فقيرا فقـد يَستغنِي ، كما أنّ الشّجر الّذى لا وَرَق عليه سيكْتَسى وَرَقا ، ويقال : رَكَع الرجل ، أى سَقَط .

وقال الشاعر :

خرقٌ إذا رَكَع المَطِىُّ من الوَجَى لم يطو دونَ رفيقِـه ذا المِزْوَدِ
حتّى يؤوب به قليلاً فَضْـلُه حَمِـدَ الرّفيقُ نَداكَ أو لمْ يَحمَد

وكما يشبّهون الشيخ بالرّاكع فيكْنُون به عنه ، كذلك يقولون : يَحْجِل فى قَيْده لتقارُب خَطْوِه ، قال أبو الطَّمَحان القَيْنىّ :

حَنَتْنِى حانيـاتُ الدّهْر حتّى كأنّى خاتِـلٌ أدنُو لصَيْدِ
قريب الخَطْو يَحسَب مَن رآنِى ـ ولستُ مُقيَّدا ـ أنّى بقَيْـدِ

ونحو هذا قولُهم للكبير: بَدَتْ له الأرنب ، وذلك أنّ من يَختِل الأرنبَ ليَصيدَها يَتمايَل فى مِشيَته ، وأنشَد ابن الأعرابىّ فى النّوادر :

وطالتْ بىَ الأيّام حتّى كأنّنى من الكِبَرَ العالِى بَدَت لىَ أرْنَبُ

ونحوه يقولون للكبير : قِيدَ بفلانٍ البَعير ، أى لا قوّة ليدِه على أن يُصرِّف البعيرَ تَحتَه على حَسَب إرادته ، فيَقودُه قائدٌ يَحمِله حيثُ يريد .

---

(١) للسموءل بن عادياء ، ملحق ديوانه ٥٣ .

ومن أمثالهم : لقد كنتُ وما يقادُ بىَ البعير : يضرَب لمن كان ذا قُوّة وعَزْم ، ثم عجز وفتَر .

ومن الكنايات عن شَيب العَنْفَقَة قولهم : قد عَضّ على صُوفِه .

ويَكْنُون عن المرأة التى كَبِر سنُّها فيقولون : امرأةٌ قد جَمعت الثّياب ، أى تَلبَس القِناعَ والخِمار والإزار ، وليست كالفَتاة التى تَلبَس ثوبا واحدا .

ويقولون لمن يَخضِب : يسوّدوجه النَّذِير ، وقالوا فى قوله تعالى : ﴿وجاءكم النّذير﴾ (١) : إنه الشَّيب . وقال الشاعر :

وقائلةٍ لىَ اخضِبْ فالغَوانِى ... تَطَّيرُ مِنْ مُلاحَظة القَتِيرِ
فقلتُ لها المَشيبُ نَذيرُ مَوْتى ... ولستُ مسوِّدًا وجهَ النَّذِيرِ

وزاحَم شابٌّ شيخاً فى طريق فقال الشابّ : كم ثمن القَوْس ؟ يعيِّره بانحناء الظَّهْر ، فقال الشيخ : يابنَ أخى : إن طَال بكَ عُمْرٌ فسوفَ تَشْتَرِيها بلا ثمن .

وأنشد لابن خلف :

تعيِّرنى وخطَ المَشيبِ بعارِضى ... ولولَا الحجُولُ البُلق لم تُعرَف الدُّهْمُ
حَنَى الشَّيبُ ظَهْرِى فاستَمرّتْ مَريرتى ... ولولا انحناء القوسِ لم يَنفُذ السَّهْمُ

ويقولون لمن رشا القاضى أو غيره : صَبَّ فى قِنديله زَيْتا ، وأنشد :

وعند قُضاتنا خبثٌ ومكْرٌ ... وزَرْعٌ حين تَسْقِيه يُسنبِلْ
إذا ماصُبَّ فى القِنْديل زَيْتٌ ... تحوّلت القضيّة للمُقندِلْ

وكان أبو صالح كاتبُ الرّشيدِ يُنسب إلى أخذ الرّشا ، وكان كاتب أمّ جعفر .

---

(١) سورة فاطر ٣٧ .

وهو سعدانُ بنُ يحيى كذلك ، فقال لها الرّشيد يوما : أما سمعتِ ماقيل فى كاتبك ؟ قالت : ماهو ؟ فأنشدَها :

صَبَّ فى قِنديل سَعْـدَا نَ مع التسْليم زَيْتـا(١)
وقنـاديل بَنيـه قبل أن تخفَى الكُمَيْتَا

قالت : فما قيل فى كاتبك أشنع ،وأنشدَتْه :

قِنديلُ سَعْدَانَ علا ضوءهُ فَرْخٌ لقنديل أبى صـالح(٢)
تَرَاهُ فى مجلِسِه أحوَصـاً مِنْ لحِه للدِّرهم الـلائح

ويقولون : لمن طَلَّق ثلاثا : قد نحرَها بمثلثه .

ويقولون أيضا : أعطاها نِصفَ السَّنة .

ويقولون لمن يفْخَر بآبائه : هو عِظامىّ ، ولمَن يفخر بنفسِه هو عِصَامىّ ، إشارةً إلى قول النّابغة فى عِصامِ بن سَهْل حاجب النّعمان :

نفسُ عِصامٍ سَوَّدتْ عِصاماً وَعلّمته الكَرَّ والإقْداما(٣)

* وجَعَلْته مَلِكاً هُماماً *

وأشار بالعِظامىّ إلى فَخْره بالأموات من آبائِه ورَهْطه ، وقال الشاعر :

إذا ما الحىُّ عاشَ بِعَظْمِ مَيْتٍ فـذاكَ العَظْم حىٌّ وهو مَيْتُ

ونحو هـذا أنّ عبد الله بن زياد بنِ ظَبْيان التّميمىّ دَخل على أبيه وهو يجُود بنَفسه فقال : ألا أُوصى بك الأميرَ ؟ فقال ؛ إذا لم يكن للحَىّ إلّا وصيّة الميّت فالحىّ هو الميّت ، ويقال : إنّ عطاء بن أبى سُفْيان قال ليزيدبن معاوية : أغننى عن غَيْرك ،قال:

---

(١) ثمار القلوب . . . (٢) ثمار القلوب . . . (٣) العقد الثمين ، ملحق ديوانه ١٧٥ .

حَسْبُك ما أغناكَ به معاوية ؛ قال : فهو إذَن الحىُّ وأنتَ الميت ، ومثلُ قولهم : عِظامىّ ، قولهم : خارجىّ ، أى يفخَر بغيرِ أوليّة كانت له ، قال : كثيّر لعبد العزيز :

أبا مَرْوانَ لستَ بخارجىٍّ وليس قديمُ مجدك بانتحالِ

ويَكنُون عن العَزِيز وعن الذَّليل أيضا فيقولون : بَيْضة البَلَد ، فمن يقولها للمَدْح يَذهَب إلى أنَّ البَيْضة هى الحوْزة والحِمَى ، يقولون : فلانٌ يَحمِى بَيْضَته ، أى يَحمِى حَوْزَته وجماعَته ، ومن يقولُها للذّم يعنى أنّ الواحـدةَ من بَيْض النعّام إذا فسدتْ ترَكها أبواها فى البَلد وذهَبا عنها ، قال الشاعر فى المدح :

لـكنّ قائله مَن لا كِفاء له من كان يُدعَى أبُوه بَيْضَةَ البَلَدِ (١)

وقال الآخَر فى الذّمّ :

تَأبَى قُضاعةُ لم تَعرِفْ لـكمْ نَسَباً وأبنا نِزارٍ فأنتمْ بَيْضَـةُ البَلَدِ (٢)

ويقولون للشىء الّذى يـكون فى الدّهر مرّة واحـدة : هو بَيْضة الدِّيك ، قال بشّار :

يا أطيبَ الناس ريقاً غـير مختبَرٍ إلّا شهادة أطرافِ المَساوِيك (٣)
قد زُرْتِنا زَوْرَة فى الدّهر واحدةً ثَنِّى ولا تجعَلِيها بَيْضَةَ الدِّيكِ

ويَـكنُون عن الثّقيـل بالقَـذَى فى الشّراب ، قال الأخطَـل يَذكُر الخمرَ والأجتماع عليها :

وليسَ قَذاها بالّذى قد يَضيرُها ولا بذُباب نَزْعُه أيسَر الأمْرِ (٤)
ولـكنْ قَذاها كلّ جِلْف مكلّفٍ أتتْنا به الأيّامُ من حيثُ لا ندرِى

---

(١) من أبيات لامرأة من بنى عامر بن لؤى ، ترثى عمرو بن ود ، اللسان (بيض) .
(٢) اللسان (بيض) ونسبه إلى ابن الرقاع . (٣) من أمالى القالى ١ : ٢٢٨ .
(٤) كنايات الجرجانى ١١١ .

فَذاكَ القَذَى وابنُ القَذَى وأخو القَذَى   فإنّ له من زائرٍ آخر الدّهرِ

ويَكنُون أيضا عنه بقدح اللّبْلاب ، قال الشاعر :

ياثقيلاً زادَ فى الثّقْـــل على كلّ ثقيلِ (١)

أنتَ عندِى قَدح اللّبــلابِ فى كَفّ العَليلِ

ويَكنُون عنه أيضا بالقَدَح الأوّل ، لأنّ القَدَح الأوّل من الخمْر تكرَهه الطّبيعة وما بعدَه فدُونه لاعتياده ، قال الشاعر :

وأثقَــل من حضين بادِياً   وأبغَض من قَدَحٍ أوّلِ

ويَكنُون عنه بالـكانُون ، قال الحُطَيئة يهجو أمّه :

تَنَحّىْ فاقعُـــدِى عَنّى بعيداً   أراحَ اللهُ مِنكِ العالَمِينا (٢)

أغِرْبالًا إذا اسْتُودِعْتِ سِرًّا   وكانوناً على المتحـدّثينا !

قالوا : وأصلُه مِنْ كَنَنْت أى سَتَرْت ، فكأنّه إذا دَخَل على قوم وهم فى حديثٍ سَتَروه عنه ، وقيل : بل المُراد شِدّة بَرْده .

ويَكنُون عن الثّقيل أيضا برِحا البزْر ، قال الشاعر :

وأثقَل من رَحا بزْرٍ علَينا   كأنّكَ مِن بقايا قومِ عادِ (٣)

ويقولون لمن يَحمَدون جِوارَه : جارُه جارُ أبى دُوَادِ ، وهو كَعب بنُ مامةَ الإيادىّ ، كان إذا جاوَرَه رجلٌ فمات وَداه ، وإن هَلَكَ عليه شاة أو بعيرٌ أخلَف عليـه ، فجاوَرَه أبو دواد الإيادىّ ، فأحسَن إليه ، فضُرِب به المَثَل .

ومثلُه قولُهم : هو جليسُ قَعقاعِ بنِ شَوْر ، وكان قد قَدِم إلى معاوية فدَخَل عليه ، والمجلس غاصٌّ بأهلِه ليس فيه مَقعَد ، فقام له رجل من القوم وأجلَسه مكانه ، فلم

---

(١) كنايات الجرجانى١١١ .   (٢) ديوانه ٦١ .   (٣) كنايات الجرجانى ١١١ .

يبرَح القعقاعُ من ذلك الموضع يـكلّم معاويةَ ومعاويةُ يخاطِبـه حتى أمر له بمائة ألفِ دِرْهم ، فأحضِرَت إليه ، فجُعلتْ إلى جانبه ، فلمّا قام قال للرجل القائم له مِن مكانه : ضُمَّها إليك ، فهى لكَ بقيامِك لنا عن مجلِسك ، فقيل فيه :

وكنتُ جليسَ قَعْقاعِ بن شوْرٍ   ولا يَشقَى بقعقاعٍ جليسُ (١)

ضَحُوكُ السِّنّ إنْ نَطقوا بخَيْرٍ   وعند الشرّ مِطراقٌ عبُوسُ

أخذ قوله : « ولا يَشقى بقَعْقاعٍ جليسُ » من قول النبى صلى الله عليه وآله : « هم القومُ لا يَشقى بهم جليسُهم » .

ويَـكنُون عن السَّمين من الرِّجال بقولهم : هو جار الأمير وضيفُ الأمير ، وأصلُه أنّ الغَضْبان بنَ القبعثَرَى كان محبوساً فى سِجْن الحجّاج ، فدعا به يوما فكلّمه ، فقال له فى جملة خطابه : إنّك لسَمين يا غَضْبان ؛ فقال : القيد والرّتعة ، والخَفْض والدَّعَة ، ومَن يكنْ ضيفَ الأمير يَسمَن .

ويَـكنِى الفلاسفةُ عن السَّمين بأنه يُعرِّض سور حبسه ، وذلك أنّ أفلاطُونَ رأى رجلاً سميناً ، فقال : يا هذا ، ما أكثرَ عِنايَتَك بتعريض سور حَبْسِك !

ونظر أعرابىٌّ إلى رجل جيّد الـكِدْنة (٢) ، فقال : أرَى عليك قَطيفةً مُحكَمةً . قال : نعم ، ذاكَ عنوانُ نعمة الله عِندى .

ويقولون للـكذّاب : هو قوصُ الحنْجَرة ، وأيضا هو زَلُوق الـكَبِد ، وأيضا لا يُوثق بسَيْل بلقعِهِ . وأيضا أسيرُ الهِنْد لأنه يدّعى أنه ابنُ المَلِك ، وإن كان من أولادِ السِّفْلَة .

ويُـكنى عنه أيضا بالشيخ الغريب ، لأنه يُحِبّ أن يتزوّج فى الغُرْبة فيدّعى أنه ابنُ خمسين سنةً ، وهو ابنُ خمسٍ وسَبْعين .

(١) كنايات الجرجانى ١١١ .

(٢) الـكِدْنة : كثرة الشحم واللحم .

ويقولون : هو فاختةُ البَلَد ، من قول الشاعر :

أكذبُ من فاختةٍ تصيحُ فوقَ الكَرَبِ[1]
والطَّلْعُ لم يَبْدُ لها : هذا أوانُ الرُّطبِ

وقال آخر فى المعنى :

حديثُ أبى حازمٍ كلّه كقَوْلِ الفواخِتِ: جاءَ الرُّطَبْ[1]
وهُنَّ وإنْ كنَّ يُشْبِهْنَه فلسْنَ يُدانِينَه فى الكَذِبْ

ويَكنون عن النمّام بالزّجاج ، لأنه يشِفّ على ما تحته ، قال الشاعر :

أنمُّ بما اُستودِعْتهُ من زُجاجةٍ يُرَى الشىءُ فيها ظاهراً وهو باطِنُ

ويَكنُون عنه بالنَّسيم ، مِن قولِ الآخر :

وإنّك كلّما استُودِعْتَ سِرًّا أنمُّ من النَّسيمِ على الرِّياضِ

ويقولون : إنه لصُبْح ، وإنه لطِيب ، كله فى النّمام . ويقولون : ما زال يفتِلُ له فى الذِّرْوة والغارِب حتى أسمحتْ قَرُونته ، وهى النفسُ ، والذِّرْوة : أعلى السَّنام ، والغارب : مقدمه .

ويقولون فى الكِناية عن الجاهل : ما يَدرِى أىَّ طرَفيه أطوَل ، قالوا : ذكَرُه ولِسانُه .

وقالوا : هل نَسَبُ أبيه أفضلُ أمْ نسبُ أمِّه ؟

ومِثلُه : لا يَعرِف قطاته من لطاته ، أى لا يعرف جَبْهته مما بين ورِكيه .

وقالوا : الحِدّة كُنْية الجَهْل ، والاُقتصاد كنية البُخْل ، والاُستقصاء كُنْية الظُّلْم .

---

(١) الكنايات للجرجانى ١١٢ .

وقالوا للجائع : عَضَّه الصَّفَر ، وعضه شُجاع البَطْن .

وقال الهُذَلىّ :

أَرُدُّ شُجاعَ البَطْن قــد تعلمينَه ... وأُوثِر غَرْثَى مِن عِيالِكِ بالطُّعْم (١)

مخافة أن أحْيـا بِرَغْمٍ وذِلّةٍ ... وللمَوْتُ خيرٌ من حَياةٍ على رَغْمِ

ويقولون : زوَّدَه زادَ الضَّبّ ، أى لم يزوِّدْه شيئاً ؛ لأنّ الضَّبَّ لا يشرَب الماء ، وإنما يتغذّى بالرِّيح والنَّسيم ، وَيأكُل القليل من عُشْب الأرض .

وقال ابن المعتزّ :

يقول أكلْنــا لحمَ جَدْيٍ وبطّة ... وعَشْرَ دجاجاتٍ شِواء بألْبانِ (٢)

وقـد كَذَبَ المَلْعونُ ما كان زادُه ... سِوَى زاد ضَبٍّ يَبلع الرِّيحَ عطْشان

وقال أبو الطّيّب :

لقــد لَعِب البَيْنُ المُشتُّ بها وَبى ... وزَوَّدنى فى السَّيْر مازَوّد الضَّبّا (٣)

ويقولون للمختلِفين من النّاس : هم كنَعَم الصَّدَقة ، وهم كبَعْر الـكَبْش ، قال عمرو بن لجأ :

وشِعْر كبَعْر الـكَبْش ألّفَ بَيْنَه ... لسانٌ دَعِىٌّ فى القَرِيض دَخِيلُ (٤)

وذلك لأنّ بعرَ الـكبش يقعُ متفرِّقا .

وقال بعضُ الشعراء لشاعر آخر : أنا أشعر منك لأنى أقولُ البيت وأخاه ، وتقول البيت وابن عمّه . فأما قولُ جرير فى ذى الرمّة : إنّ شعره بعرظِباء ونقط عَروس ، فقد فسره الأصمعىّ فقال : يريد أنّ شعره حُلْوٌ أول ماتسمعه ، فإذا كُرِّر إنشادُه ضَعُف ، لأنّ أبعارَ الظِّباء أول ما تشمّ توجد لهـا رائحةُ ما أكلتْ من الجَنْجاث والشِّيح

---

(١) لأبى خراش الهذلى ، ديوان الهذليين ٢ : ١٢٨ .
(٢) كنايات الجرجانى ١١٥ .
(٣) ديوانه ١ : ٦٠ .
(٤) كنايات الجرجانى ١١٧ .

والقَيْصوم ، فإذا أدَمْتَ شمّها عُدِمَتْ تلك الرائحة ، ونقط العَروس إذا غَسلتها ذهبتْ .

ويقولون أيضا للمختلفين : أخْياف، والخَيَف : سَوادُ إحدى العَيْنين وزرق الأخرى.

ويقولون فيهم أيضا : أولادُ عَلّاتَ كالإخْوَة لأمّهاتٍ شَتّى ، والعَلّة : الضَّرّة .

ويقولون فيهم : خبزُ كُتّاب ، لأنه يكون مختلفا ، قال شاعرٌ يهجو الحجّاجَ ابنَ يوسف :

أيَنْسَى كليبٌ زَمانَ الهُزالِ ... وتعليمه سُورة الكَوْثرِ (١)
رغيفٌ له فَلْكة ماتُرَى ... وآخَر كالقمَر الأزهَرِ

ومثله :

أما رأيت بنى سَلْم وجُوهَهمُ ... كأنّها خبزُ كُتّابٍ وبَقّالِ (٢)

ويقاول للمتساوين فى الرداءة : كأسْنان الحِمار ، قال الشاعر :

سواءٌ كأسْنان الحِمارِ فلا تَرَى ... لذِى شَيْبةٍ منهمْ على ناشىءٍ فَضْلاَ (٢)

وقال آخر :

شبابُهُم وشِيبهم ســواءٌ ... فهمْ فى اللؤم أسنانُ الحِمارِ (٣)

وأنشد المبرّد فى الكامل لأعرابى يصف قوما من طيّئ بالتساوى فى الرّداءة :

ولـما أن رأيتُ بَنِي جُوَيْنٍ ... جُلوساً ليس بينَهم جَلِيسُ (٣)
يَئِسْت من الذى أقبَلْت أبغى ... لديهمْ ، إننى رجلٌ يَئُوسُ
إذا ما قلتُ أيّهــمُ لأىّ ... تَشابَهت المناكِبُ والرّءوسُ

قال : فقوله : «ليسَ بينَهم جليسُ» هِجاء قبيح ، يقول : لا ينتجع الناسمعروفهم،

---

(١) سرح العيون ١٧٠ وكنايات الجرجانى ١١٨ .
(٢) كنايات الجرجانى ١٢١ .
(٣) الكامل ١ : ١٧٢ ، ونسبه إلى أعرابى من طيّ .

فليس بينهم غيرهم . ويقولون فى المتساوِيين فى الرَّداءة أيضا : هما كحِمارَى العبادىّ ، قيل له : أىُّ حِمارَيْك شرّ ؟ قال : هذا ثمّ هذا . ويقال فى التّساوِى فى الشّرّ والخير : هم كأسْنان المُشْط ، ويقال : وَقعا كركبتى البعير ، وكرِجْلى النَّعامة .

وقال ابنُ الأعرابىّ : كلّ طائر إذا كُسِرَتْ إحدى رِجْليه تحامَل على الأخرى إلا النعام فإنه متى كُسرتْ إحدى رِجليه جثم ، فلذلك قال الشاعر يذكُر أخاه :

وإنى وإياه كرِجلىْ نَعامـــةٍ على ما بِنا من ذى غِنًى وفَقيرِ (١)

وقال أبو سُفْيانَ بنُ حَرْب لعامر بن الطّفيل وعَلْقمة بن عُلاثة وقد تنافَرا إليه : أنتما كرُكْبَتَىِ البعير ؛ فلم ينفِّر واحدا منهما ، فقالا : فأيّنا اليُمْنى ؟ فقال : كلٌّ منكما يُمْنَى .

وسأل الحجّاج رَجلا عن أولاد المهلّب : أيُّهم أفضل ؟ فقال : هم كالحلْقة الواحدة .

وسُئِل ابنُ دُرَيد عن المبرّد وثعلب ، فأثنى عليهما ، فقيل : فابن قُتيبة ؟ قال : رَبْوة بين جَبَلين ، أى خَمل ذِكْرُه بنباهتهما .

ويُكنى عن الموت بالقطع عند المنجّمين ، وعن السّعاية بالنصيحة عند العمال ، وعن الجماع بالوَطْء عند الفقُهاء ؛ وعن السُّكْر بطِيب النَّفْس عند النُّدَماء ، وعن السؤال بالزوّار عند الأجْواد ؛ وعن الصّدقة بما أفَاءَ الله عند الصُّوفية .

ويقال للمتكلّف بمصالح الناس : إنه وصىّ آدم على وَلَدِه ، وقد قال شاعرٌ فى هـذا الباب :

فكأنّ آدمَ عنـد قرب وفاتِه أوصاكَ وهو يجودُ بالحَوْباء
ببنيـــه أنْ ترعاهمُ فرَعيتَهمْ وكَفَيْتَ آدم عَيْلةَ الأبْناء

ويقولون : فلانٌ خليفةُ الخضر إذا كان كثيرَ السّفرِ ، قال أبو تمام :

---

(١) كنايات الجرجانى ١١٩ .

خليفة الخضْر مَنْ يربَع على وَطَنٍ ... أو بَلدةٍ فظهور العِيس أوْطاني[1]
بَغدادُ أهْلى وبالشام الهوَى وأنا ... بالرَّقَّتين وبالفُسْطاط إخواني
وما أظنُّ النّوى ترضى بما صَنَعتْ ... حتى تُبلِّغَ بى أقصى خُراسانِ

ويقولون للشىء المختار المنتخَب: هو ثمرة الغُراب لأنه ينتقى خيرَ الثمر.

ويقولون: سَمْنُ فلانٍ فى أديمه؛ كناية عمّن لا يُنتَفع به، أى ما خَرج منه يرجع إليه، وأصلُه أنّ نِحْياً[2] من السَّمْن انشقَّ فى ظَرْف من الدّقيق، فقيل ذلك، قال الشاعر:

ترَحَّلْ فما بغـداد دارَ إقامةٍ ... ولا عند مَن أضحَى ببغدادَ طائلُ[2]
محلّ مُلوكٍ سَمْنُهمْ فى أديمِهمْ ... وكلُّهُم مِن حلْيَةِ المجـدِ عاطِلُ
فلا غروَ أن شَلَّتْ يدُ المجدِ والعُلى ... وقَلَّ سمـاحٌ مِن رجالٍ ونائلُ
إذا غَضْغَض البحرُ الغطامِطُ ماءَه ... فليس عجيبا أن تَغيض الجداولُ[3]

ويقولون لمن لا يَفِى بالعَهْد: فلان لا يَحفَظ أول المائدة، لأنّ أوّلها: ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفُوا بالعُقود ﴾[4].

ويقولون لمن كان حسَنَ اللّباس ولا طائلَ عنده: هو مِشْجَب، والمِشْجَب: خَشبة القَصّار التى يَطرَح الثّياب عليها، قال ابن الحجّاج:

لِى سادةٌ طائر السرور بِهِمْ ... يَطْرُده اليأسُ بالمقاليعِ[5]
مَشاجِبٌ للثّياب كلّهمُ ... وهذه عادةُ المَشاقيعِ
جائزَتى عندهمُ إذا سَمِعوا ... شِعْرىَ: هذا كلامٌ مَطْبوعِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٣٠٨ ، ٣١٠ .
(٢) كنايات الجرجانى ١٢٠ ، ونسبها إلى أبى العالية .
(٣) بحر غطامط : كثير الأمواج .
(٤) سورة المائدة ١ .
(٥) كنايات الجرجانى ١٢١ .

وإنهم يضحكون إنْ ضحكوا مِنّى وأبكى أنا من الجوع

وقال آخر :

إذا لبسوا دُكْنَ الخزوز وخُضْرَها وراحوا فقد راحتْ عليك المَشاجِبُ(١)

ورُوِى أنّ كَيْسانَ غلامَ أبى عُبَيدة وَفَد على بعض البَرامكة فلم يُعطِه شيئاً ، فلما وافى البَصْرة قيل له : كيف وجدته ؟ قال : وجدتُه مِشجَبا من حيث ما أتيتُه وَجدْتُه .

ويكنون عن الطُّفَيلىّ فيقولون : هو ذبابٌ ، لأنه يقع فى القُدور ، قال الشاعر :

أتيتُك زائراً لقضـاءِ حَقٍّ فحال السّترُ دُونَك والحجابُ(٢)

ولستُ بواقعٍ فى قِدْرِ قومٍ وإن كَرِهوا كما يَقَع الذُّبابُ

وقال آخر :

وأنتَ أخو السّلام وكيف أنتمْ ولست أخا الملمّاتِ الشِّدادِ(٣)

وأطفل حين يُجفَى مِن ذُبابٍ وألزم حين يُدْعَى مِن قُرادِ

ويكنون عن الجرَب بحبّ الشّباب ، قال الوزير المهلبىّ :

ياصُروف الدهرِ حَسْبى أىّ ذنب كان ذَنْبى !(٣)

عِلة خَصّتْ وعَمّتْ فى حبيبٍ ومُحبّ

دبّ فى كفّيـه يا مَن حُبُّـهُ دَبّ بقَلْبى

فهو يشكو حرّ حَبّ وشَكاتِى حَرّ حُبّ

ويكنون عن القصير القامة بأبى زبيبة ، وعن الطويل بخيط باطل . وكانت كُنْية مروان بن الحكم لأنه كان طويلا مضطربا ، قال فيه الشاعر :

لحا الله قوماً أمّرُوا خَيْط باطلٍ على الناس يُعْطى من يَشاء ويمنَعُ(٣)

وفى خيط باطلٍ قولان : أحدهما أنه الهباء الذى يدخل من ضَوْء الشّمس فى الكُوّة

(١) لدعبل ، ديوانه ٢٢ .

(٢) كنايات الجرجانى ١٢٢ ، ونسبه لابن أبى عيينة .

(٣) كنايات الجرجانى ١٢٢ .

من البيت ، وتسمِّيه العامّة غَزْلَ الشَّمس ، والثانى أنه الخيْط الذى يَخرُج من فَمِ العَنْكَبوت ، وتسمِّيه العامّة مُخاط الشَّيطان .

وتقول العرب للمَلْقوِّ[1] : لَطِيمُ الشيطان .

وكان لقبُ عَمْرو بن سعيد الأشدق ، لأنه كان مَلْقوًّا .

وقال بعضهم لآخَر : ما حَدَث ؟ قال : قَتَل عبد الملك عمْرا ، فقال : قتل أبو الذبان لَطِيم الشَّيطان ، ﴿ وكَذَلِكَ نُوَلِّى بعض الظّالمين بعضاً بما كانوا يَكسِبون ﴾ .

ويقولون للحزين المهموم : يعُدّ الحصى ، ويَخُطّ فى الأرض ، ويَفُتّ اليَرْمَع[2] ؛ قال المجنون :

عشيّةَ مالى حِيلةٌ غيرَ أنّنى بلَقْط الحَصَى والخطّ فى الدار مُولَعُ[3]
أخُطّ وأمحو كلّ ماقد خطَطْتُه بدَمْعِى والغِرْبان حَوْلِىَ وُقّعُ

وهذا كالنّادم يَقْرَع السِّنّ ، والبخيل يَنكُت الأرض ببَنانه ، أو بعُودٍ عند الردّ ، قال الشاعر :

عَبيدُ إخوانِهمْ حتى إذا رَكبوا يوم الكَريهةِ فالآسادُ فى الأجَمِ[4]
يُرضُون فى العُسْر والإيسارِ سائلَهمْ لايقْرَعون على الأسْنانِ مِن نَدَمِ

وقال آخَر فى نَكْت الأرض بالعِيدان :

قومٌ إذا نزل الغريب بدارِهمْ تركوه ربَّ صَواهِلٍ وقِيانِ
لايَنكُتون الأرض عند سؤالهمْ لتطلّب العِلّات بالعِيدانِ

ويقولون للفارغ : فؤادُ أمِّ موسى .

---

(١) الملقو : المصاب باللقوة ، وهو مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه .

(٢) اليرمع : الحجارة الرخوة .   (٣) ديوانه ١٨٨ .

(٤) كنايات الجرجانى ، ونسبه إلى عمر بن أمية بن أبى الصلت .

ويقولون للمُثْرِى من المال : مُنْقَرِس ، وذلك أنَّ عِلَّة النِّقْرِس أكثر ما تعترى أهل الثَّروة والتنعّم .

حكى المبرِّد ، قال : كان الحِرْمازِىّ فى ناحية عمرو بن مَسْعدة ، وكان يجرى عليه ، فخرج عمرُو بن مسعدة إلى الشام ، وتخلّف الحِرْمازِىّ ببغدادَ ، فأصابه النِّقْرس ، فقال :

أقامَ بأرضِ الشّام فاختلّ جانبى ومطلَبه بالشام غير قريبِ [1]
ولا سيما من مُفْلِسٍ حِلْف نِقرِسٍ أما نِقرِسٌ فى مُفْلِسٍ بِعَجيبِ !

وقال بعضهم يهجو ابن زَيدان الكاتب :

تواضَعَ النِّقرسُ حتى لقد صار إلى رِجْلِ ابْنِ زَيْدانِ
عِلّةُ إنسانٍ ولكنها قد وُجِدَتْ فى غير إنسانِ

ويقولون للمترَف : رقيقُ النَّعْل ، وأصله قولُ النابغة :

رِقاقُ النِّعالِ طيِّبٌ حُجُزاتُهمْ يُحَيَّوْن بالرَّيْحان يومَ السَّباسِبِ [2]

يعنى أنهم ملوكٌ ، والملِك لا يخصِف نعله وإنما يخصف نعله من يمشى . وقوله : « طيّب حُجُزاتهم » ، أى هم أعِفّاء الفروج ، أى يشدّون حُجُزاتهم على عِفّة . وكذلك قولهم : فلانٌ مُسمَط النِّعال ، أى نعله طبقة واحدة غير مَخْصوف ، قال المَرّار بن سَعيد الفقْعَسىّ :

وجَدْتُ بنى خفاجةَ فى عقيلٍ كِرامَ الناسِ مُسمَطة النِّعالِ [3]

وقريبٌ من هذا قولُ النّجاشىّ :

ولا يأكلُ الكلبُ السَّروقُ نِعالنا ولا ينتقِى المُخَّ الذى فى الجماجِمِ [3]

---

(١) كنايات الجرجانى ١٢٥ .
(٢) ديوانه ٣ .
(٣) كنايات الجرجانى ١٢٥ .

يريد أنّ نعالهم سِبْت ، والسِّبْت : جلودُ البقر المدبوغة بالقَرَظ ، ولا تقربها الكلاب ، وإنما تأكل الكلابُ غيرَ المدبوغ ؛ لأنه إذا أصابه المَطَرُ دسّمه فصار زَهِمًا .

ويقولون للسيِّد : لا يَطأ على قدَم ، أى هو يَتقدّم الناسَ ولَا يتْبع أحدا فيطأ على قدَمه .

ويقولون : قد اخضرّت نِعالهم ، أى صاروا فى خِصْب وسَعة ، قال الشاعر :

يَتأيّهون إذا اخضرّتْ نِعالهُمُ وفى الحفيظةِ أبْرامٌ مَضاجِيرُ

وإذا دَعوا على إنسان بالزَّمانة قالوا : خَلع الله نعليه ، لأنّ المُقعد لا يَحتاج إلى نَعْل .

ويقولون : أطفأ اللهُ نورَه ، كنايةٌ عن العَمى وعن المَوْت أيضًا ، لأنّ من يموت فقد طَفِئتْ نارُه .

ويقولون: سقاهُ اللهُدمَ جَوْفه ؛ دُعاء عليه بأن يَقتُل ولدَه ، ويُضْطَرَّ إلى أخذ دِيتهِ إبلا فيَشرَب ألبانَها .

ويقولون : رماه الله بليلةٍ لا أختَ لها ؛ أى ليلة موته ، لأنّ ليلَةَ المَوْت لا أختَ لها .

ويقولون : وَقَعوا فى سَلاَ جَمَل ، أى فى داهية لا يُرى مِثلُها ، لأنّ الجمل لا سَلَا له، وإنما السَّلا للناقة ، وهى الجُلَيْدة التى تكون ملفوفةً على وَلدها .

ويقولون : صارُوا فى حُوَلاء ناقَة ، إذ صاروا فى خِصْب .

وكانوا إذا وَصَفوا الأرض بالخِصْب قالوا : كأنّها حُوَلاء ناقة .

ويقولون لأبناء الملوك والرؤساء ومن يجرِى مجراهم : جُفاة المَحَزّ ، قال الشاعر :

جُفاةُ المَحَزّ لا يُصيبون مِفْصَلاً ولا يأكُلون اللَّحم إلا تخذُّما

يقول : هم ملوكٌ ، وأشباهُ الملُوك لاحِذْقَ لهم بنحْر الإبل والغَنَم ولا يعرِفون التّجليد والسّلْخ ، ولهم من يتولّى ذلك عنهم ، وإذا لم يحضُرهم من يجزُر الجزور تكلّفوا همْ ذلك بأنفسهم ، فلم يُحسِنوا حزَّ المِفصَل كما يفعله الجزّار ، وقوله :

* ولا يأكُلون اللّحْمَ إلا تخذُّما *

أى ليس بهم شَرَه فإذا أكلوا اللَّحمَ تخذَّموا قليلا قليلا ، والخذْم : القَطْع ، وأنشد الجاحظ فى مِثْلِه :

وصُلْعُ الرءوسِ عِظامُ البطُونِ جُفاةُ المَحَزّ غِلاظُ القِصَرْ

لأنّ ذلك كلّه أمارات الملوك ؛ وقريبٌ من ذلك قوله :

ليس براعِى إبلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزّارٍ على ظهرِ وَضَمْ [1]

ويقولون : فلانٌ أملَس ، يكنُون عمّن لا خَيْر فيه ولا شرّ ، أى لا يَثبُت فيه حمدٌ ولا ذمّ .

ويقولون : مِلْحُه على رُكْبَتِه ، أى هو سيّء الخُلُق ، يُغضِبه أدْنَى شىء ، قال :

لا تَلُمْها إنّها من عُصْبةٍ مِلحُها موضوعةٌ فوقَ الرُّكَبْ [2]

ويقولون كنايةً عن مجوسىّ : هو ممّن يخُطّ على النَّمل ، والنَّمل جمع نَمْلة ، وهى قَرْحة بالإنسان ، كانت العربُ تزْعم أنّ المجوسىّ إذا كان من أُختِه وخطّ عليها برَأت ، قال الشاعر :

ولا عيبَ فينا غيرَ عِرْقٍ لِمَعشَرٍ كِرامٍ وأنّا لا نخُطُّ على النَّمَلْ [3]

---

(١) الكامل ٢١٨ (طبع أوربا) .
(٢) الجرجانى ١٢٧ ، ونسبه إلى مسكين .
(٣) اللسان (نمل) .

ويقولون للصبيّ : قد قُطِفتْ ثمرته ، أي خُتِن . وقال عُمارة بنُ عقيل بنِ بلالِ ابن جرير :

مازال عِصيانُنا لله يرذلُنـا حتّى دُفِعنا إلى يحيى ودِينارِ [1]
إلا عُلَيْجَيْنِ لم تقْطَف ثِمـارُهما قد طالمَا سَجَدَا للشّمس والنـار

ويقولون : قِدْر حليمة ، أي لا غَلَيانَ فيها .

ويقولون لمن يصلّى صلاةً مختصَرة : هو راجزُ الصّلاة .

وقال أعرابىٌّ لرجل رآه يصلّى صلاةً خفيفة : صلاتُك هذهِ رجَز .

ويقولون : فلانٌ عفيفُ الشَّفَة ، أي قليـلُ السّؤال ، وفلانٌ خفيفُ الشفـة ، كثيرُ السؤال .

وتَـكْنى العَرَب عن المتيقّظ بالقُطامىّ ، وهو الصَّقْر .

ويَـكْنُون عن الشّدّة والمَشَقّة بعَرَق القِرْبة ، يقولون : لقيتُ من فلانٍ عَرَق القِرْبَة ، أي العَرَق الّذى يَحْدُث بك من حَمْلها وثِقلها ؛ وذلك لأنّ أشدّ العمل كان عندهم السَّقْى وماناسَبَه من معالجة الإبل .

وتـكْنِى العَرب عن الحَشرات وهَوامّ الأرض بجنُودِ سَعْد ؛ يَعنُون سعدَ الأخْبية ، وذلك لأنه إذا طَلَع انتشرتْ فى ظاهِر الأرض ، وخرج منها ما كان مستتِرا فى باطنها ، قال الشاعر :

قد جاء سعدٌ مُنذِراً بحرِّه مُوعِدَةً جُنودُه بشَرِّه [1]

ويَـكْنِى قومٌ عن السائلين على الأبواب بحُفّاظ سورة يوسفَ عليه السلام ، لأنهم يعتنون بحِفظها دونَ غيرها ، وقال عُمارة يهجُو محمّد بنَ وُهَيب :

تَشبّهتَ بالأعراب أهلِ التعجْرُفِ فدلّ على ماقلتَ قُبحُ التـكلُّفِ [1]

---

(١) كنايات الجرجانى ١٢٩ ، ١٣٠ .

لسانٌ عِراقيٌّ إذا ما صَرَفْتَه إلى لغةِ الأعْراب لم يتصرَّفِ
ولم تَنْسَ ما قد كان بالأمس حاكَه أبوكَ وعُودُ الجفِّ لم يتقصَّفِ
لئن كنتَ الأشْعار والنحوِ حافظاً لقد كان من حُفَّاظ سورة يوسفِ

ويَكنُون عن اللَّقيط بتربيةِ القاضى ، وعن الرَّقيب بثانى الحَبِيب ، لأنَّه يُرَى معه أبدا ، قال ابنُ الرَّومى :

مَوْقِفٌ للرَّقيب لا أنْساهُ لستُ أختارُه ولا آباهُ
مرحباً بالرَّقيب من غير وَعْدٍ جاء يجْلو علىَّ مَن أهْواهُ
لا أحِبُّ الرقيبَ إلّا لأنّى لا أرَى من أحِبّ حتّى أراهُ

ويَكنُون عن الوَجْه المَليح بحُجَّة المُذنِب ، إشارة إلى قول الشاعر :

قد وجدْنا غفلةً من رَقيبِ فسَرَقْنا نظرةً مِن حَبيبِ
ورأيْنا ثَمّ وَجْها مَليحاً فوَجَدْنا حُجَّةً للذّنوبِ

ويَكنُون عن الجاهل ذى النِّعمة بحُجّة الزّنادقة ، قال ابنُ الرومىّ :

مَهْلاً أبا الصَّقْر فكم طائرٍ خرَّ صريعاً بعد تحْليقِ
لا قُدِّستْ نُعمَى تَسربَلْتَها كم حُجَّةٍ فيها لزِنْديقِ !

وقال ابنُ بسّام فى أبى الصَّقْر أيضا :

يا حُجَّةَ الله فى الأرزاقِ والقِسَمِ وعبرةً لأولى الألبابِ والفهمِ
تراكَ أصبحتَ فى نَعماء سابغة إلّا وربُّك غَضْبانٌ على النِّعَمِ

فهذا ضِدُّ ذلك المقصد ، لأنَّ ذاكَ جَعلَه حُجَّةً على الزَّنْدقةِ ، وهذا جعلَه حجّة على قُدْرة البارئ سبحانَه على عجائبِ الأمور وغرائِبها ، وأن النِّعم لا قَدْر لها عندَه سبحانه ، حيث جعلَها عند أبى الصَّقر مع دناءة منزِلته . وقال ابن الرّومىّ :

وقَيْنـةٍ أبرَدُ من ثلجَهْ   تَبيتُ منهـا النفسُ فى ضَجّهْ
كأنهـا من نتنها صَخْةٌ   لكنّهـا فى اللون أترُجّهْ
تفاوتتْ خِلقتُها فاغتـدَتْ   لكلّ مَنْ عُطِّلَ مُحْتَجّهْ

وقد يُشابه ذلك قولَ أبى علىّ البَصير فى ابن سعدان :

يابنَ سَعدانَ أجلحَ الرِّزْقُ فى أمْ   رِكَ واستحسن القبيح بمَرّهْ
نلتَ ما لم تكن تمَـنّى إذا ما   أسرفَت غايةُ الأمانىّ عشرهْ
ليس فيما أظنّ إلاّ لكَيْلا   يُنكِرِ المُنكِرونَ لله قُدْرَهْ

وللمفجّع فى قريب منه :

إن كنتُ خُنتُكُم المودّة غادِراً   أوحُلْتُ عن سَنَن المحبّ الوامِقِ
فمُسِخْتُ فى قُبح ابنِ طَلْحة إنّه   مادلّ قطّ على كمال الخالِق

ويقولون : عَرَض فلانٌ علىّ الحاجةَ عَرْضا سابِريًا، أى خفيفاً من غير استقصاء، تشبيهاً له بالثّوب السّابِرِىّ ، والدِّرْع السابريّة ، وهى الخفيفة .

ويُحكَى أن مرتدّا مَرّ على قوم يأكلون وهو راكبٌ حِماراً ، فقالوا : انزل إلينا ، فقال : هذا عَرْضٌ سابِرِىّ ، فقالوا : انزل يابن الفاعِلة . وهذا ظَرْفٌ ولبَاقة .

ويقولون فى ذلك : وعـدٌ سابِرِىّ ، أى لا يُقرَن به وَفاء ، وأصلُ السابِرِىّ ، اللّطيف الرّقق .

وقال المبرِّد : سألتُ الجاحِظَ : من أشعَر المولّدين؟ فقال : القائل :

كأنّ ثِيـابَه أطْلَعـ   ـن من أزْراره قَمرَا
يزيدُك وجهُه حُسْناً   إذا مازِدْتَه نظَرا
بعَـينٍ خالَطَ التفتـ   ـيرُ فى أجفانِها الحوَرا

ووجــهٍ سابِرِيٍّ لو تَصوَّبَ ماؤُه قَطَرا

يعنى العبّاسَ بنَ الأحنف(١) .

وتقول العرب فى معنى قولِ المحدّثين : عَرض عليه كذا عَرْضا سابِرِيًّا : عَرَض عليه عَرْضَ عالّة ، أى عَرْض الماء على النَّعم العالّة التى قد شَرِبتْ شُرْبا بعدَ شُرْب ، وهو العَلَل ؛ لأنّها تُعرَض على الماء عَرْضا خفيفاً لا تبالغ فيه .

ومن الكنايات الحسنة قولُ أعرابيّة قالت لقيس بنِ سعد بن عُبادة : أشكو إليك قِلّة الجِرْذان فِى بيتى ؛ فاُستَحسَن منها ذلك ، وقال لأَكثِّرَنّها ؛ املئوا لها بَيتَها خُبْزا وتَمْرا وسَمْنا وأَقِطًا ودَقيقا .

وشبيهٌ بذلك ما رُوِى أنّ بعض الرؤساءِ سايَرَه صاحبٌ له على بِرْذَون مَهزول ، فقال له : ما أشدَّ هُزالَ دابّتك ! فقال : يدُها مع أيدِينا ، ففطن لذلك ووَصَله .

وقريبٌ منه ما حُكِىَ أنّ المنصور قال لإنسان : ما مالُك ؟ قال ما أَصونُ به وَجْهى ، ولا أعودُ به على صَدِيق ؛ فقال : لقد تلطّفْتَ فى المسألة ، وأَمَر له بصِلَة .

وجاء أعرابىٌّ إلى أبى العبّاس ثَعْلب وعنده أصحابُه ، فقال له : ما أراد القائلُ بقوله :

الحمدُ لله الوَهُوب المَنّانْ صارَ الثريدفى رءوس القُضْبانْ

فأقبل ثَعلَب على أهل المجلس فقال : أجيبوه ، فلم يكن عندَهم جواب ، وقال له نِفْطَوَيْه : الجواب منكَ ياسيّدى أحسَن ، فقال : على أنّكم لا تعلَمونه ! قالوا : لا نَعلَمه ، فقال الأعرابىّ ، قد سمعتُ ما قال القوم ، فقال : ولا أنتَ أعزّكَ الله تَعلَمه ، فقال ثعلب : أرادَ أن السُّنْبل قد أفرَك ، قال : صدقتَ فأينَ حقّ الفائدة ؟ فأشار إليهم ثعلب ،

(١) ديوانه ١٢٩ .

فبرُّوه ، فقام قائلاً : بوركتَ من ثعلب ، ما أعظمَ بركتك !

ويَكنُون عن الشَّيْب بغُبار العَسْكر ، وبرغوة الشّباب ، قال الشاعر :

قالت أرى شَيْبا برأسِك ، قلتُ لا   هذا غبارٌ من غُبار العَسْكرِ

وقال آخر ـ وسمّاه غُبارَ وقائِع الدّهر :

غَضِبتْ ظَلُوم وأَزمعتْ هَجرِى   وصَبَتْ ضمائرُها إلى الغَدْرِ
قالت أرَى شَيْبا فقلتُ لها :   هـذا غُبارُ وقائِع الدَّهرِ

ويقولون للسّحاب : فَحْل الأرض .

وقالوا : القلم أحدُ اللِّسانَين ، ورَداءَة الخَطِّ أحدُ الزَّمانتَين .

قال : وقال الجاحظ : رأيت رجلاً أعمَى يقول فى الشّوارع وهو يَسأَل : ارحموا ذَا الزَّمانتَين ، قلتُ : وما هما ؟ قال : أنا أعمى وصَوْتى قَبِيح . وقد أشارَ شاعرٌ إلى هذا فقال :

اثنـانِ إذا عُدَّا   حقيقٌ بِهِما المَوْتُ
فقيرٌ ماله زُهْـدٌ   وأعمَى ماله صَوْتُ

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآلِه : « إيّاكم وخَضْراء الدِّمَن » ، فلما سُئِل عنها قال : « المرأةُ الحَسْناء فى المَنبِت السّوء » .

وقال عليه السلام فى صُلْحِ قومٍ من العرب : « إنّ بيننا وبينهم عَيْبة مكفوفة » ، أى لا نكشفَ ما بيننا وبينهم من ضِغْن وحِقْد ودَم .

وقال عليه السّلام : « الأنصارُ كَرِشى وعَيْبتى » ، أى موضعُ سِرّى .
وكَرِشى : جماعتِى .

ويقال : جاء فلانٌ رَبِذ [1] العِنان ، أى مُنهزما .

وجاء ينفض مِذْرَوَيه [2] ، أى يتوعّد من غيرِ حقيقة .

وجاء يَنظُر عن شِماله ، أى مُنهزِما .

وتقول : فلانٌ عندى بالشِّمال ، أى منزلَتُه خَسِيسة . وفلانٌ عندى باليَمين ، أى بالمنزلة العُلْيا ، قال أبو نُوَاس :

أقـــولُ لناقتى إذ بَلّغَتْنى ... لقد أصبحتِ عندِى باليَمينِ [3]

فـــلم أجْعَلكِ للغِرْبانِ نَهْبًا ... ولم أقُلِ اشرَقِى بدَمِ الوَتينِ

حَرُمتِ على الأزِمّة والوَلايا ... وأعـلاقِ الرّحالة والوَضِينِ

وقال ابن مَيّادة :

أبِينى أفى يُمْنَى يدَيكِ جَعلتِنى ... فأَفرَح أم صيّرتنى فى شِمالِكِ !

وتقول العرب : التَقَى الثريَان فى الأمْرَين يأتلفان ويتّفقان ، أو الرّجلين ؛ قال أبو عبيـدة : والثّرَى : التّراب النّدِىّ فى بطن الوادى ، فإذا جاء المطر وسَحّ فى بَطْن الوادى حتّى يَلتقى نَداه والنّــدى الّذى فى بطن الوادى يقـال : التَقى الثريَان .

ويقولون : هم فى خيرٍ لا يُطَيِّر غُرابُه ، يريدون أنّهم فى خيرٍ كثير وخِصْب عَظيم فيَقَع الغراب فلا يُنفَّر لـكثرة الخِصْب .

وكذلك أمرٌ لا يُنادَى وليدُه ، أى أمرٌ عظيم يُنادى فيه الـكبارُ دونَ الصِّغار . وقيل : المرادُ أنّ المرأة تَشتغِل عن وليدِها فلا تنادِيه لِعظَم الخطْب ، ومن هذا قولُ الشّاعر يصِف حَرْبا عظيمة :

---

(١) فى اللسان : « ربذ العنان ، أى منفرداً منهزماً » .

(٢) المذروان : الجانبان من كل شىء ؛ وقد يطلقان على المنكبين .

(٣) ديوانه ٦٥ .

إذا خَرِسَ الفَحْلُ وَسْطَ الحجُورِ   وصاحَ الكِلابُ وعَقَّ الوَلَدْ

يريد أنّ الفحل إذا عاين الجيشَ والبارقة لم يلتفتْ لَفْتَ الحُجور ولم يَصهَل، وتَنبح الكلابُ أربابَها، لأنّها لا تعرفهم للبسهم الحديد، وتَذهَل المرأةُ عن ولَدِها رعبا، فجعل ذلك عُقوقا.

ويقولون: أصبحَ فلانٌ على قَرْن أعفر؛ وهو الظَّبي إذا أرادوا أصْبَح على خَطَر، وذلك لأنّ قَرْن الظَّبي ليس يَصلُح مكاناً، فمن كان عليه فهو على خَطَر، قال امرؤ القَيْس:

ولا مِثْلَ يومٍ بالعظالَى قَطعتُه   كأنّى وأصحابى على قَرْن أعفرا (١)

وقال أبو العَلاء المَعرّىّ:

* كأنّنى فوقَ رَوْق الظَّبْى من حَذَر (٢) *

وأنشَدَ ابنُ دريد فى هذا المعنى:

وما خيرُ عَيْشٍ لا يزال كأنّه   محلّةَ يَعْسوبٍ برأسِ سِنانِ

يَعنِى من القلق وأنّه غيرُ مطمئنّ.

ويقولون: به داءُ الظَّبْى، أى لا داء به، لأنّ الظّبى صحيحٌ لا يزال، والمَرَض قلّ أن يَعتريَه. ويقولون للمتلوّن المختلف الأحوال: ظلّ الذّئب، لأنه لا يزل مرّةً هكذا ومرّةً هكذا.

ويقولون: به داءُ الذّئب، أى الجوع.

---

(١) ديوانه ٧٠ وروايته:

وَلا مِثْلَ يَوْمٍ فى قذَرانَ ظَلْتُهُ   كأنّى وَأَصْحَابى على قَرْنِ أَعْفَرَا

(٢) سقط الزند ١٣١، وصدره: * فى بلدة مثل ظهر الظبى بت لها *

وعهدُ فلان عهدُ الغُراب ، يَعنُون أنّه غادر ، قالوا : لأنّ كلّ طائر يألفُ أنثاه إلّا الغراب ، فإنّه إذا باضَتْ الأنثى ترَكَها وصار إلى غيرِها .

ويقولون : ذهب سَمْعَ الأرض وبصرَها ، أى حيثُ لايُدرَى أين هو !

وتقولون : أَلقَى عصاه ؛ إذا أقامَ واُستقرّ ، قال الشاعر :

فألقتْ عَصَاها واستقرّ بهـــا النّوَى ... كما قَرّ عَيْنـــا بالإيابِ المُسافرُ[1]

ووَقَع القضيبُ من يَدِ الحجّاج وهو يَخطُب ، فتطيّر بذلك حتّى بانَ فى وَجْهه ، فقام إليه رجلٌ فقال : إنّه ليس ماسَبَق وهْم الأميرِ إليه ، ولـكنّه قولُ القائل ، وأنشَدَه البيت ، فسُرِّىَ عنه .

ويقال للمختلِفين : طارت عَصاهمْ شِقَقا .

ويقال : فلانٌ منقطِـع القِبَال[2] ، أى لارَأْىَ له .

وفلان عريضُ البِطان ، أى كثيرُ الثرْوة .

وفلانٌ رخىُّ اللّبَبِ ، أى فى سَعَة .

وفلانٌ واقعُ الطائر ، أى ساكنٌ .

وفلانٌ شديدُ الـكاهل ، أى مَنيع الجانبِ .

وفلانٌ يَنظُر فى أعقابِ نجْمٍ مُغرّب ، أى هو نادِم آيِس ، قال الشاعر :

فأصبحتُ من ليلَى الغَـــداة كناظرٍ ... مع الصّبحِ فى أعقابِ نجمٍ مغرّبِ[3]

وسُقِط فى يَدِه ،أى أَيقَن بالهَلَـكة .

وقد ردَدْتُ يدَه إلى فيه ، أى منعتُه من الـكلام .

وبنو فلان يدٌ على بنى فلان ، أى مجتمِعون .

---

(١) اللسان (عصا) .

(٢) القبال : زمام النعل .

(٣) للمجنون ، ديوانه ٧٩ .

وأعطاه كذا عن ظَهْر يد ، أى ابتداء لا عن مُكافأة .

ويقولون : جاء فلانٌ ناشراً أُذُنَيه ، أى جاء طامِعا .

ويقال : هــذه فرسٌ غيرُ محلِفة ، أى لا تحوج صاحبَها إلى أن يَحلِف أنها كريمة ، قال :

كميتٌ غــير محلِفةٍ ولـكنْ كلَوْن الصِّرف عُــلَّ به الأدِيمُ

وتقول : حَلَبَ فلانٌ الدهر أشطُرَه ، أى مرّت عليه ضُروبه خيرُه وشرُّه .

وقَرَع فلانٌ لأمرٍ ظُنْبوبَه ، أى جدّ فيه واجتهد .

وتقول : أبدَى الشرّ نواجِذَه ، أى ظهر .

وقد كشفت الحربُ عن ساقِها ، وكشرتْ عن نابها .

وتقول : استَنْوَق الجَملُ ؛ يقال ذلك للرّجل يكون فى حديث ينتقل إلى غيره يخلِطه به .

وتقول لمن يهون بعد عِزٍّ : استَأْتَن العَيْر .

وتقول للضّعيف يقوَى : استَنْسر البُغاث .

ويقولون : شرابٌ بأنقُع ، أى مُعاود للأمور ؛ وقال الحجاج : ياأهل العِراق ، إنكم شرّابون بأنقع ، أى معتادون الخير والشرّ . والأنْقع : جمع نَقْع ، وهو ما استُنقِع من الغُدْران ، وأصلُه فى الطائر الحـذِر يرِدُ المناقِع فى الفَلوات حيث لا يبلُغه قانِص ، ولا ينصب له شَرَك .

***

[حديث عن امرئ القيس]

ونختم هذا الفصل فى الكنايات بحكاية رواها أبو الفرج علىّ بنُ الحسين الأصبهانى ؛ قال أبو الفرج : أخبرَنى[1] محمد بنُ القاسم الأنبارىّ ، قال : حدثنى ابنُ عمّى ، قال : حدثنا أحمد بن عبد الله ، عن الهَيْثَم بن عَدِىّ . قال : وحدثنى عمّى ، قال : حدثنا محمد بن سعد الكرانىّ ؛ قال : حدّثنا العُمَرىّ ، عن الهَيْثم بنِ عَدِىّ ، عن مجالِد بن سعيد ، عن عبد الملك بن عمير ، قال : قَدِم علينا عمرُ بن هُبَيْرة الكوفة أميراً على العِراق ، فأرسَلَ إلى عشرةٍ من وجوهِ أهل الكوفة أنا أحدُهم ، فَسِرْنا عنده ، فقال : ليُحدّثنى كلّ رجل منكم أحدوثةً وابدأ أنت يا أبا عمرو ، فقلت : أصلح الله الأمير ! أحديث حَقّ أم حديث باطل ؟ قال : بل حديث حَقّ ؛ فقلتُ : إنّ امرأ القيسِ كان آلَى أليةً[2] ألّا يتزوّج امرأةً حتى يسألها عن ثمانيةٍ وأربعةٍ واثنتين ، فجعل يَخْطُب النّساء ، فإذا سألهنّ عن هذا قلن : أربعة عشر ، فبينا هو يسيرُ فى جوف الليل إذا هو برجل يَحمِل ابنةً صغيرة له كأنها البَدْر لتمِّه ، فأعجبته ، فقال لها : يا جارية ، ما ثمانية ، وأربعة ، واثنتان ؟ فقالت : أما ثمانية فأطْباء الكلبة ، وأما أربعة : فأخلافُ الناقة ، وأما اثنتان فثَدْيا المرأة ؛ فخطبها إلى أبيها ، فزَوّجه إياها وشَرَطتْ عليه أن تسأله ليلة بِنائها عن ثلاث خصال ، فجعل لها ذلك ، وعلى أن يَسُوق إليها مائةً من الإبل ، وعشرة أعبد ، وعَشْر وصائف ، وثلاثة أفراس ، ففعل ذلك ، ثم بعث عبداً إلى المرأة ، وأهدى إليها معه نِحياً[3] من سَمن ونِحيا من عَسَل وحُلّة من عَصْب ، فنزل العبد على بعض المياه ، ونَشَر الحلّة فلبِسها فتعلقتْ بسَمُرة فانشقّت ، وفَتح النِّحْيين فأطعم أهل الماء منهما فنقصا ، ثم قَدِم على المرأة وأهلُها خُلُوف[4] فسألها عن أبيها وأمِّها وأخيها ، ودفع إليها

---

(١) الأغانى ٩ : ١٠١ – ١٠٣ .

(٢) الأغانى : « بألية » .

(٣) النحى : الزق .

(٤) خلوف : غيب .

هديتَها ، فقالت : أَعْلِمْ مولاكَ أنّ أبى ذهب يقرِّب بعيداً ، ويبعِّد قريباً ، وأن أمّى ذهبت تشُقّ النفس نفْسَين ، وأنّ أخى ذَهَب يُراعى الشمس ، وأنّ سماءكم انشقت ، وأن وعاءَيْكم نضبا .

فقدِم الغلام على مولاه ، فأخبَره فقال: أما قولها : إنّ أبى ذهب يقرِّب بعيدا ، ويبعِّد قريبا ، فإنّ أباها ذهب يُحالف قوماً على قومه ، وأمّا قولها : إنّ أمى ذهبتْ تَشُقّ النفس نفْسين ، فإن أمّها ذهبتْ تقبَل(١) امرأةً نُفَساء . وأمّا قولها : إنّ أخى ذَهَب يُراعى الشمس ، فإن أخاها فى سَرْحٍ له يرْعاه ، فهو ينتظر وجوب الشمس ليروحَ به ؛ وأما قولها : إن سماءكم انشقّتْ ، فإن البُرْد الذى بعثت به انشقّ ؛ وأما قولها إنّ وعاءَيْكم نَضَبا فإن النِّحْيَين اللّذين بعثت بهما نَقَصَا ، فاصْدُقْنى . فقال : يا مولاى ، إنى نزلتُ بماءٍ مِن مياهِ العرَب ، فسألونى عن نَسَبى فأخبرتهم أنى ابن عمّك ، ونشرتُ الحُلّة ولبستُها وتجمّلت بها ، فتعلقتْ بسمُرة فانشقّت ، وفتحتُ النّحْيين فأطعمتُ منهما أهل الماء ، فقال : أَوْلَى لك ! ثمّ ساق مائةً من الإبل ، وخرج نحوها ومعه العبْد يسقى الإبل ، فعجَز ، فأعانه امرؤُ القيس ، فرمى به العبد فى البئر ، وخرج حتى أَتَى إلى أهل الجارية بالإبل ، فأخبرَهم أنه زَوْجُها ، فقيل لها : قد جاء زوجُكِ ، فقالت : والله ما أدْرِى أزَوْجى هو أم لا ! ولكن انحرُوا له جَزُورا وأطعِمُوه من كَرِشها وذَنبها ، ففعلوا ، فأكل ما أطعموه ، فقالت : اسقوه لبَنا حازِراً وهو الحامضُ ـ فَسَقَوْه فشرب ، فقالت : افرشوا له عند الفَرْث(٢) والدم ، ففرَشوا له ، فنام فلما أصبحت أرسلت إليه : إنى أريدُ أن أسألَك ، فقال لها : سَلِى عمّا بدَا لكِ ، فقالت : مِمّ تختلج شفتاكَ ؟ قال : مِن تقبيلى إيّاك ، فقالت : مِمّ يَختلج كَشْحاك ، قال : لا لتزامى إيّاك ، قالت : فمّ يختلج فَخِذاك ؟

---

(١) يقال : قبلت القابلة المرأة ؛ إذا تلقت ولدها عند ولادته .

(٢) الفرث : السرجين ما دام فى الكرش .

قال : لتورّكى إيّاك ، فقالت عليكم العبد فَشُدُّوا أيديَكم به ، ففعلوا .

قال: ومرّ قوم فاستخرجوا امرأ القيس من البئر، فرجع إلى حَيِّه وساق مائة من الإبل، وأقبل إلى امرأتِه فقيل لها : قد جاء زَوْجك ، فقالت : والله ما أدرى أزَوجى هو أم لا ! ولكن انحروا له جزُورا، وأطعِمُوه من كَرِشها وذَنبها؛ ففعلوا ، فلما أتَوْه بذلك قال :وأين الكبد والسَّنام والمَلْحاء[1] ، وأبى أن يأكل، فقالت اسقوه لَبَنا حازِراً ، فأُتى به ، فأبى أن يشربه ، وقال : فأين الضَّرِيب[2] والرَّثيئة ؟ فقالت : افرشوا له عند الفَرْث والدم ، ففرشوا له ، فأبى أن ينام ، وقال : افرشوا لى عند التلعة الحمراء ، واضربوا لى عليها خِباء ، ثم أرسلت إليه : هلمّ شَرِيطتى عليك فى المسائل الثلاث ، فأرسل إليها أنْ سَلِى عمّا شئتِ ، فقالت : مِمّ تختلج شَفَتاك ؟ فقال : لِشُربى المُشَعشعات ، قالت : فمم يختلج كَشْحاك ؟ قال : للبسى الحِبَرات . قالت : فمّ تختلج فخذاك ؟ قال: لرَكْضى المُطَهمات[3]، فقالت : هذا زَوْجى لعمرى ، فعليكم به . فأُهديَتْ إليه الجارية .

فقال ابن هُبيرة : حَسبكم ، فلا خير فى الحديث سائر الليلة بعد حديث أبى عمرو ، ولن يأتينَا أحدٌ منكم بأعجب منه ، فانصرَفنا وأمَرَ لى بجائزة .

---

(١) الملحاء : لحم فى الصلب من الكاهل إلى العجز من البعير . (٢) والضريب : هو اللبن يحلب من عدة لقاح ؛ وفى الأغانى : « الصريف » . وهو الحلب الحار ساعة يصرف من الضرع ، والرثيئة : اللبن الحليب يصب عليه اللبن الحامض ، فيروب من ساعته .

(٣) المطهمات : الخيل التامة الحسن .

(٤٧٦)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ فى كلامٍ لهُ :

ووَلِيَهُمْ والٍ فأقامَ واسْتقامَ ، حَتّى ضَرَبَ الدِّينُ بِجِرَانِهِ .

***

الشَّرْحُ :

الِجران : مقدَّم العُنُق ، وهذا الوالى هو عمرُ بنُ الخطاب .

وهذا الكلامُ من خُطْبةٍ خَطبها فى أيّام خلافته طويلةٍ ؛ يذكر فيها قُرْبه من النبىّ صلى الله عليه وآله واختصاصه له ، وإفضاءه بأسراره إليه ، حتى قال فيها :

فاختار المسلمون بعده بآرائهم رجلاً منهم ، فقارَبَ وسَدّد حسَب استطاعته على ضَعْفٍ وَحدّ كانا فيه ، وليهم بعده وَالٍ ، فأقامَ واستقامَ حتى ضَرَب الدِّينُ بجِرانه ، على عَسْف وعَجْرَفيّة كانا فيه ، ثمّ اختلفوا ثالثا لم يكن يملك من أمرِ نفسه شيئاً ، غَلَب عليه أهلُه فقادوه إلى أهوائهم كما تقود الوليدةُ البعير المخْطوم، فلم يزل الأمرُ بينهوبين الناس يَبعدُ تارة ويقرُب أخرى حتى نزَوْا عليه فقتَلوه ، ثم جاءوا بى مَدَبّ الدَّبا، يريدون بَيْعتى .

وتمام الخطبة معروف ، فليطلب من الكُتُب الموضوعة لهذا الفن .

(٤٧٧)

الأصْـلُ

وقال عليهِ السلامُ :

يأتِي على النَّاس زمانٌ عَضُوضٌ ، يَعَضُّ المُوسِرُ فيهِ على ما فى يدَيْهِ ، ولَمْ يُؤْمَرْ بذَلِكَ ، قال اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ ولا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ ؛ يَنْهدُ فِيهِ الأشْرَارُ ، ويُسْتَذَلُّ الأخْيارُ ، ويُبايِـعُ المُضْطَرُّونَ ، وقَدْ نَهى رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وآله عَنْ بَيْعِ المُضْطَرِّينَ .

***

الشَّرْحُ :

زمانٌ عَضُوض ؛ أى كَلِبٌ على النّاس ، كأنه يَعَضّهم ، وفَعُول للمبالَغة ، كالنَّفور العَقوق ، ويجوز أن يكون من قولهم بئرٌ عَضُوض ، أى بعيدةُ القَعْر ضَيِّقة ، وما كانت البئر عَضُوضا ، فأعضّت كقَوْلهم : ما كانت جَرُورا فأجرّت ، وهى كالعَضوض .

وعَضّ فلانٌ على ما فى يده أى بَخِل وأمسك .

وينهد فيه الأشرار ، ينهضون إلى الولايات والرِّياسات ، وترتفع أقدارُهم فى الدنيا . ويُستَذَلّ فيه أهْل الخيْر والدِّين ، ويكون فيه بيْعٌ على وجه الاضطرار والإلجاء ؛ كمن بيعت[(١)] ضَيْعَته ؛ وهو ذليل ضعيف ، من ربِّ ضَيْعةٍ مجاورة لها ذى ثَرْوة وعِزّ وجاه فيلجِئه بمَنعه الماء واستذلاله الأكرةَ والوكيل إلى أن يبيعها عليه ؛ وذلك منهىٌّ عنه ، لأنه حرامٌ مَحْض .

---

(١) ب : « بيع » .

(٤٧٨)

الأصل

وقالَ عليهِ السلام :

يَهْلِكُ فِيَّ رَجُلانِ : مُحِبٌّ مُفْرِطٌ ، وباهِتٌ مُفْتَرٍ .

***

قالَ الرَّضيّ رَحِمَهُ اللهُ تعالى : وهذَا مِثلُ قوْلِه عليهِ السلامُ : يَهْلِكُ فِيَّ اثنانِ : مُحِبٌّ غالٍ ، ومُبْغِضٌ قالٍ .

***

الشَّرح :

قد تقدّم شرحُ مِثلِ هذا الكلام ؛ وخلاصةُ هذا القول : أنّ الهالك فيه المُفْرِطُ والمفرِّط ، أما المُفرِط فالغُلاة ، ومن قال بتكفير أعيان الصّحابة ونِفاقِهم أو فِسْقهم ، وأما المُفرِّط فمن استنقص به عليه السلام أو أبغَضَه أو حارَبَه أو أضمَر له غِلاًّ ؛ ولهذا كان أصحابُنا أصحاب النّجاة والخلاص والفوْز فى هذه المسألة ، لأنهم سَلكوا طريقةً مقتصدة ، قالوا : هو أفضل الخلْق فى الآخرة ، وأعلاهُم منزلةً فى الجنّة ، وأفضل الخلق فى الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب ، وكلّ من عاداه أو حاربه أو أبغَضَه فإنه عدوٌّ لله سبحانه وخالدٌ فى النار مع الكفّار والمنافقين ، إلا أن يكون ممن قد ثبتَتْ توبتُه ، ومات على تولّيه وحُبِّه .

فأما الأفاضلُ مِن المهاجرين والأنصار الذين وَلُوا الإمامَة قبله فلو أنه أنكر إمامتَهم

وغضب عليهم ، وسخط فعلهم ، فضلاً عن أن يُشهِر عليهم السيف ، أو يدعو إلى نفسه، لَقُلْنا : إنهم من الهالكين ، كما لو غضب عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه قد ثبت أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: « حربُك حرْبى ، وسلمك سلمى »، وأنه قال : « اللهم والِ مَن والاه ، وعاد من عاداه » ، وقال له : « لا يُحبُّك إلّا مؤمن ، ولا يبغضك إلّا مُنافِق »، ولكنا رأيناه رضىَ إمامَتهم وبايعهم وصلى خلفهم وأنكحهم وأكل من فيئهم ، فلم يكن لنا أن نتعدّى فعله ، ولا نتجاوز ما اشتهر عنه ؛ ألا ترى أنه لما برئ من معاوية برئْنا منه ، ولمّا لعَنه لعنّاه ، ولمّا حكم بضلال أهل الشام ومن كان فيهم من بقايا الصّحابة كعَمْرو بن العاص وعبد الله ابنه وغيرهما حكمنا أيضا بضلالهم !

والحاصل أنا لم نجْعل بينه وبين النبي صلّى الله عليه وآله إلّا رتبة النبوّة ، وأعطيناه كلّ ماعدا ذلك من الفضْل المشترك بينه وبينه [1] ، ولم نَطعَن فى أكابر الصحابة الذين لم يصحّ عندنا أنه طعن فيهم ، وعاملْناهم بما عاملَهم عليه السلام به .

* * *

[فصل فيما قيل فى التفضيل بين الصحابة]

والقول بالتفضيل قولٌ قديم ، قد قال به كثيرٌ من الصحابة والتابعين ، فمن الصحابة عمّار ، والمِقْداد ، وأبو ذرّ ، وسلمان ، وجابر بن عبد الله ، وأبىّ بنُ كعْب ، وحذيفة ، وبُرَيدة ، وأبو أيّوب ، وسهل بن حُنَيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيْثم بن التيّهان ، وخزيمة بن ثابت ، وأبو الطُّفيل عامر بن واثلة : والعباس بن عبد المطلب وبنوه ، وبنو هاشم كافةً ، وبنو المطلب كافةً .

وكان الزبيرُ من القائلين به فى بدء الأمر؛ ثم رجع، وكان من بنى أميّة قومٌ يقولون بذلك، منهم خالدُ بنُ سعيد بن العاص، ومنهم عمرُ بنُ عبد العزيز.

***

وأنا أذكر هاهنا الخبرَ المرويَّ المشهور عن عُمَر، وهو من رِواية ابن الكلبيّ، قال: بينا عمر بن عبد العزيز جالسا فى مجلسه، دخل حاجِبُه ومعه امرأةٌ أدْماء طويلةُ حَسَنَة الجسم والقامة، ورجُلان متعلّقان بها، ومعهم كتابٌ من مَيْمونِ بن مِهران إلى عمر، فدفعوا إليه الكتاب، ففضّه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. إلى أمير المؤمنين عمر بنِ عبد العزيز، من ميمون بنِ مِهْران، سلامٌ عليكَ ورحمةُ الله وبركاته، أمّا بعد، فإنه وَرَدَ علينا أمرٌ ضاقَتْ به الصّدور، وعجزتْ عنه الأوْساع(١)، وهربْنا بأنفسِنا عنه، ووَكَلْناه إلى عالِمِه، لقولِ الله عزّ وجلّ: ﴿ولو رَدُّوه إلى الرّسول وإلَى أُولى الأمْرِ منهمْ لعَلِمَه الّذين يَستنبطُونه منهم﴾(٢)، وهذه المرأة والرّجلان أحدهما زَوْجها والآخر أبوها، وإنّ أباها يا أميرَ المؤمنين زَعَم أنّ زوجَها حَلَف بطلاقِها أنّ علىَّ بنَ أبى طالب عليه السلام خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه، وأنّه يزْعُم أن ابنتَه طلقتْ منه، وأنه لا يجوز له فى دِينِه أن يتّخذه صِهْرا، وهو يعلَمُ أنّها حرامٌ عليه كأمّه. وإنّ الزّوْج يقول له: كذبتَ وأثِمْتَ، لقد برّ قَسَمى، وصدَقتْ مقالَتى، وإنّها امرأتى على رَغْم أنفِك، وغَيْظ قلبِك؛ فاجتمعوا إلىّ يختصِمون فى ذلك، فسألتُ الرجلَ عن يمينِه، فقال: نعم، قد كان ذلك، وقد حلفتُ بطَلاقِها أنّ عليًا خيرُ هذه الأمّة وأوْلاها برسولِ الله صلّى الله عليه وآله، عرَفه من عرَفه، وأنكَرَه من أنكَرَه؛ فليَغضب من

---

(١) الأوساع: جمع وسع؛ وهو الطاقة.

(٢) سورة النساء ٨٣.

غَضِب ، وليَرْضَ من رَضِى ، وتَسامعَ الناسُ بذلك ، فاجتمعوا له ، وإن كانت الألسنُ مجتمِعةً فالقلوب شَتّى ، وقدعلمتَ ياأميرَ المؤمنين اختلافَ النّاس فى أهوائهم ، وتسرُّعهم إلى مافيه الفِتْنة ، فأحجَمْنا عن الحُكْم لتَحكُم بما أراك الله . وإنهما تعلّقا بها ، وأقسم أبوها ألا يدَعَها معه ، وأقسم زَوْجُها ألّا يفارقَها ولو ضُرِبتْ عُنقُها إلّا أن يحكم عليه بذلك حاكم لايَستطيع مُخالَفَته والامتناعَ منه ، فرفعناهم إليك ياأمير المُؤمنين ، أحسنَ الله توفيقَك وأرْشَدَك !

وكَتب فى أسفلِ الكتاب :

إذا ماالْمُشكِلاتُ ورَدْن يوماً ... فحارتْ فى تأمُّلِها العُيونُ
وضاقَ القومُ ذَرْعاعن نباهَا ... فأنتَ لها أبا حفصٍ أمينُ
لأنّك قد حوَيْتَ العِلمَ طُرًّا ... وأحكمَكَ التجارِبُ والشُئونُ
وخَلّفكَ الإلٰه على الرّعايا ... فَحظّك فيهمُ الحظّ الثّمينُ

قال : فجمعَ عمرُ بنُ عبد العزيز بنى هاشم وبنى أميّة وأفخاذ قُريش ، ثم قال لأبى المرأة : ماتقول أيّها الشيخ ؟ قال : ياأمير المؤمنين ؛ هذا الرجلُ زوّجْتُه ابنتى ، وجهزْتُها إليه بأحسَن مايُجهَّز به مِثْلُها ، حتى إذا أمّلت خيرَه ، ورجوتُ صلاحَه ، حلَف بطلاقِها كاذِباً ، ثم أرادَ الإقامةَ معها ، فقال له عمر : ياشيخ ، لعلّه لم يُطلّق امرأتَه ، فكيفَ حلَف ؟ قال الشيخ : سبحانَ الله ! الذى حلَفَ عليه لأبْيَنُ حِنثاً وأوضح كذباً من أن يَختَلِج فى صدرى منه شكّ ، مع سِنّى وعِلْمى ، لأنّه زعم أنّ عليًّا خيرُ هذه الأمّة وإلّا فامرأتُه طالق ثلاثاً . فقال للزّوج : ماتقول ؟ أهكذا حلَفْتَ ؟ قال : نعم ، فقيل : إنه لمّا قال : نعم ، كادَ المجلسُ يرْتجُّ بأهلِه ، وبنو أميّة يَنظُرُون إليه شَزْراً ، إلّا أنّهم لم ينطِقوا بشىء ، كلٌّ ينظرُ إلى وجهِ عمر .

فأكبَّ عمر مَليًّا ينكُتُ الأرضَ بيَدِه والقومُ صامِتون ينظُرُونَ ما يقُولُه ، ثمّ رفع رأسه وقال :

إذَا وَلِيَ الحكومةَ بينَ قومٍ أصابَ الحَقَّ والتمسَ السَّدَادَا
وما خيرُ الإمامِ إذا تعدَّى خلافَ الحقِّ واجْتَنَبَ الرَّشادا

ثم قال للقوم : ماتقولونَ فى يمينِ هذا الرجل ؟ فسكَتُوا ، فقال : سبحان الله ! قولُوا . فقال رجلٌ من بنى أميّة : هذا حُكْم فى فرْج ، ولسنا نجترئُ على القوْلِ فيه ، وأنتَ عالمٌ بالقولِ ، مؤتمنٌ لهم وعليهم ، قُلْ ما عندك ، فإنّ القول ما لم يكن يُحِقّ باطلا ويُبطِلُ حقًّا جائزٌ علىّ فى مجلسى .

قال : لاأقولُ شيئًا ؛ فالتفَتَ إلى رجلٍ من بنى هاشمٍ من وَلد عَقيل بن أبى طالب، فقال له : ماتقول فيما حَلَفَ به هذا الرجل ياعَقيلِىّ ؟ فاغتنمَها ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إن جعلتَ قوْلِى حُكمًا ، أو حُكْمى جائزاً قلتُ ؛ وإن لم يكن ذلك فالسكوت أوسَع لى ،وأبقَى للمودّة ؛قال : قل وقولُك حُكْم ،وحُكْمكَ ماض .

فلما سَمِع ذلك بنو أميّة قالوا : ماأنصفتَنا أميرَ المؤمنين إذ جعلتَ الحُكم إلى غيرنا ، ونحن من لُحمَتك وأولى رَحِمك! فقال عمر : اسكتُوا، أعجزا ولُؤما ! عرضتُ ذلك عليكم آنِفًا فما انتدبتم له . قالوا : لأنّك لم تُعطِنا ما أعطيتَ العَقيلىّ ، ولا حكّمتنا كما حكّمته ، فقال عمر : إن كانَ أصابَ وأخطأتُم ، وحزَم وعَجزْتم ، وأبصر وعَميتم ، فما ذَنْب عمرَ ، لاأبا لكم ! أتدرون مامَثَلكم ؟ قالوا : لانَدْرِى ، قال : لكنّ العقيلىّ يَدْرِى ، ثم قال : ماتقول يارجل ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ، كما قال الأوّل :

دُعيتم إلى أمرٍ فلما عجزْتم تناوَله من لايُداخِلُه عَجزُ
فلمّا رأيتمْ ذاكَ أبدتْ نفوسُكمْ نداماً وهل يُغنى من القدر الحذْر !

فقال عمر : أحسنت وأصبْتَ ، فقل ما سألتكُ عنه . قال : يا أمير المؤمنين ،

بَرَّ قَسَمُهُ ، ولم تَطلُق امرأته ، قال: وأنَّى علمتَ ذاك ؟ قال: نشدتُكَ اللهَ يا أمير المؤمنين ، ألم تعلمْ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآلِه قال لفاطمة عليها السلام وهوَ عندَها فى بَيْتها عائدٌ لها : يا بُنَيَّة ، ماعِلَّتُك ؟ قالت: الوَعَك يا أبتاه ـ وكان عليٌّ غائبا فى بعض حوائج النبىّ صلى الله عليه وآله ـ فقال لها : أتشتهين شَيْئاً ؟ قالت : نعم أشتهى عِنَبا ، وأنا أعلمَ أنه عزيز ، وليس وَقْت عِنَب ، فقال صلَّى الله عليه وآله : إن اللهَ قادرٌ على أن يجيئنا به، ثمّ قال : اللهمّ ائتنا به مع أفضل أمّتى عندكَ منزلةً ؛ فطرَق عليٌّ الباب ، ودَخَل ومعه مِكْتَل قد ألقَى عليه طرف ردائه ، فقال له النبىّ صلَّى الله عليه وآله : ما هذا يا علىُّ ؟ قال : عِنَبٌ التمستُه لفاطمة ، فقال : الله أكبر الله أكبر ، اللهمّ كما سررْتنى بأن خَصصتَ عليًا بدَعْوَتى فاجعلْ فيه شفاء بنيَّتى ، ثم قال: كُلى على اسم الله يا بُنيَّة ، فأكَلَت ، وما خرَج رسول الله صلى الله عليه وآلِه حتّى استقلّت وبرَأَتْ ، فقال عمر : صدقتَ وبرَرْتَ ، أشهدُ لقد سمعتهُ ووعيته ، يا رجل ، خذ بيَد امرأتك فإن عرَض لك أبوها فاهشِمْ أنفَه . ثم قال : يا بَنِى عبدِ مناف، والله ما نجهل ما يعلم غيرُنا، ولا بنا عمًى فى ديننا ، ولكنّا كما قال الأوّل :

تَصَيَّدتِ الدنيا رجالاً بفَخِّها فلم يدرِكوا خيراً بل استقبحُوا الشرّا
وأعماهُمُ حُبُّ الغنَى وأصَمَّهُمْ فلم يُدرِكوا إلّا الخسارةَ والوزْرَا

قيل : فكأنّما ألقَم بنى أميّة حجَرا ، ومضى الرجلُ بامرأته .

وكتب عُمر إلى ميمونَ بن مِهْرانَ :

عليك سلامٌ ، فإنّى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلاّ هو ، أمّا بعد ، فإنى قد فهمتُ كتابَك، ووَردَ الرّجلان والمرأة ، وقد صدَّق الله يمينَ الزّوج ، وأبرَّ قسمَه ، وأثبته على نِكاحه ، فاستيقِنْ ذلك ، واعملْ عليه ، والسّلام عليكَ ورحمةُ الله وبركاته .

فأما مَن قال بتفضيله على النّاس كافّةً من التابعين فَخَلْقٌ كثير كأُوَيْس القَرَنَى وزَيْد بن صُوحان ، وصَعْصعة أخيه ، وجُنْدُب[1] الخير ، وعُبيدة السَّلْمَانى وغيرهم ممن لا يُحصَى كثرةً ، ولم تكن لفظةُ الشيِّعة تُعرف فى ذلك العَصْر إلا لمن قال بتفضيله ، ولم تكن مقالةُ الإماميّة ومَنْ نحا نحوَها من الطّاعنين فى إمامةِ السّلف مشهورة حينئذ على هذا النحو من الاشتهار ، فكان القائلون بالتفضيل هم المسمَّوْن الشيِّعة ، وجميعُ ما وَردَ من الآثار والأخبار فى فضل الشِّيعة وأنهم مَوْعودُون بالجنّة ، فهؤلاء هم المعنيّون به دون غيرِهم ، ولذلك قال أصحابُنا المعتزِلة فى كُتُبِهم وتصانيفِهم : نحن الشيعةَ حقًا . فهذا القولُ هو أقرَبُ إلى السّلامة وأشبهُ بالحقّ من القَوْلين المقتسِمَيْن طرفَى الإفراط والتَّفريط إن شاء الله .

---

(١) فى د « وحبيب .

(٤٧٩)

الأصْلُ

وسُئل عن التوْحيدِ والعدْل ، فقالَ :
التَّوْحِيدُ ألّا تتوَهَّمهُ ، والعَدْلُ ألاّ تَتَّهِمهُ .

***

الشرح :

هذان الرُّكنان هما رُكْنا علم الكلام ، وهما شِعارُ أصحابنا المعتزلة ، لنَفْيهم المعانىَ القديمة التى يُثبِتها الأشعرىّ وأصحابُه ، ولتنزيههم البارئ سبحانه عن فِعل القَبيح .

ومعنى قوله : « ألّا تتوهّمه » أى ألا تتوهّمهُ جِسْما أو صورةً أو فى جهةٍ مخصوصة ، أو مالئاً لكلّ الجهات كما ذَهَب إليه قومٌ ، أو نُورا من الأنوار ، أو قوّة ساريةً فى جميع العالَم ، كما قالَه قومٌ ، أو مِنْ جنس الأعْرَاض التى تَحُلّ الحال أو تَحُل المَحَلّ ، وليس بعرَض كما قاله النّصارى وغُلاة الشِّيعة ، أو تحلّه المعانى والأعراض ، فمتى تُوُهّم على شىء مِنْ هذا فقد خُولف التوحيد ، وذلك لأنّ كل جِسْم أو عرَض أو حالٍّ فى مَحَلّ أو محلّ الحالّ ، أو مختص بجهة ، لا بدّ أن يكون منقسِما فى ذاتِه ، لا سيّما على قول مَنْ نَفَى الجزاء مطلقا ، وكلّ منقسم فليس بواحد ، وقد ثبتَ أنّه واحد . وأضاف أصحابُنا إلى التّوحيد نَفىَ المعانى القديمة ، ونَفى ثان فى الإلهية ، ونفىَ الرؤْية ، ونفى كونه مشتهيا أو نافِرا أو ملتذًا[1] أو آلِما أو عالِما بعِلم مُحْدَث ، أو قادراً بقُدْرة محدثة ، أو حيًّا بحياةٍ محدَثة ، أو نفى كونه عالماً بالمستقبلات أبداً ، أو نفى كونِه عالماً بكلّ معلوم أو قادراً

(١) فى د « متلذذاً » .

على كلّ الأجناس وغير ذلك من مسائل عِلم الكلام التى يُدخِلها أصحابنا فى الركن الأوّل ، وهو التوحيد .

وأما الركن الثانى فهو ألّا تتّهمه ، أى لا تتّهمه فى أنه أجْبَرك على القبيح ، ويعاقبك عليه ، حاشاه من ذلك ! ولا تتّهمه فى أنه مكّن الكذّابين من المعجزات ، فأضلّ بهم الناس ، ولا تتهمه فى أنه كلّفك ما لا تُطيقه ، وغير ذلك مِن مسائل العَدْل التى يذكرها أصحابُنا مفصَّلةً فى كتُبِهم كالعِوض عن الألم ، فإنه لا بدّ منه ، والثواب على فِعل الواجبِ فإنه لا بدّ منه ، وصدْق وعدِه ووعيدِه ، فإنه لا بدّ منه .

وجملة الأمر أنّ مذهبَ أصحابِنا فى العَدْل والتوحيد مأخوذٌ عن أمير المؤمنين . وهذا المواضعُ من المواضِع التى قد صرّح فيها بمذهبِ أصحابِنا بعيْنه ، وفى فَرْش كلامِه من هذا النَّمط ما لا يُحصَى .

(٤٨٠)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ : فى دُعاء استَسْقَى بهِ :
اللَّهُمْ اسْقِنا ذُلُلَ السَّحائِبِ دُونَ صِعابِها .

***

قالَ الرَّضىّ رَحمهُ اللهُ تعالى :

وهذَا مِنَ الْكَلاَمِ الْعَجِيبِ الفصاحةِ ، وذَلكَ أنهُ عليهِ السلامُ شَبَّهَ السُّحُبَ ذَوَاتِ الرُّعُودِ والبوَارِقِ ، والرِّياحِ والصَّوَاعِقِ ، بالْإبلِ الصِّعابِ الَّتِي تَقْمُصُ برِحالِها (١) ، وَتَتَوقَّصُ برُكْبانِها ، وشَبَّهَ السَّحائبَ الخاليةَ مِنْ تِلْكَ الزَّوَابِعِ بالإبِلِ الذُّلُلِ الَّتِي تُحْتَلَبُ طَيِّعَةً ، وتُقْتَعَدُ مُسْمِحَةً .

***

الشَّرْحُ :

قد كفَانا الرضىُّ ـ رحمه الله ـ بشرْحه هذه الكلمةَ مَئُونَةَ الخوْض فى تفسيرها .

---

(١) فى د « بصاحبها » .

(٤٧٨)

الأصْلُ :

وقيلَ لَهُ عليهِ السلامُ : لَوْ غَيَّرْتَ شَيْبَكَ يا أمِيرَ المُؤْمِنِينَ ! فقال : الْخِضَابُ زِينَةٌ ، ونَحْنُ قَوْمٌ فى مُصِيبَةٍ بِرَسُولِ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ .

***

الشَّرْحُ :

[مختارات مما قيل من الشعر فى الشيب والخضاب]

قد تقدّم لنا فى الخضاب قولٌ كافٍ ، وأنا أستملِح قولَ الصّابى فيه :

خضابٌ تقاسَمْناه بينى وبينَها ‌ ‌ ‌ ولكنّ شأنى فيه خالَفَ شانَها
فياقُبْحَه إذْ حَلّ مِنّى بمَفرِقى ‌ ‌ ‌ ويا حُسْنَه إذ حَلّ منها بنانَها
وسُحْقًا له عن لِمّتى حينَ شانَها ‌ ‌ ‌ وأهلاً به فى كَفِّها حيث زانَها

وقال أبو تمّام :

لَعِبَ الشّيبُ بالمَفارِق بل جَدّ فأبكَى تُماضِراً ولَعُوبا (١)
خَضَبتْ خَدّها إلى لؤلؤِ العِقْــد دماً أنْ رأتْ شَواتى خَضِيبا (٢)
كلّ داء يُرجَى الدّواء له إلّا الفَظِيعَين : مَيْتــة ومَشِيبا
يانسيبَ الثّغامِ ذَنْبك أبقَى ‌ ‌ ‌ حَسَناتى عند الحِسان ذُنوبا (٣)

---

(١) ديوانه ١ : ١٦٦ ، وتماضر ولعوب من أسماء النساء .
(٢) الشواة : جلدة الرأس . ‌ ‌ ‌ (٣) الثغام : نبت أبيض يشبه به الشيب .

ولئن عِبْنَ ما رأينَ لقـــد أنــكَرْنَ مستنكَرا وعِبْن مَعيبا
لو رأى اللهُ أنّ فى الشَّيب فَضْلا جاورتْه الأبرارُ فى الخُلْد شيبا

وقال :

فإن يكن المشيبُ طَرى علينا وأوْدَى بالبَشاشةِ والشَّبابِ
فإنّى لستُ أدفعُــه بشَىْء يكون عليه أثقلَ من خِضاب
أردتُ بأنْ ذاكَ وذا عذابٌ فسلّطت العذابَ على العَذابِ

ابنُ الرُّومىّ :

لم أَخضِب الشَّيبَ للغَــوانِى أبغِى به عنــــدَهم وِدادَا
لـكنْ خضابى على شبــابٍ لبستُ مِن بعـــده حِدادَا

***

ومن مختارِ ماجاء من الشِّعر فى الشَّيب وإن لم يكن فيـه ذِكر الخِضاب قولُ أبى تمّام :

نَسجَ المَشيبُ له لفاعاً مُغــدِفا يَققاً فقَنّع مِــذْرَوَيْه ونَصَّفَا
نَظَر الزمانُ إليــه قطَّع دونَه نَظَر الشَّفيق تحسُّرا وتلهُّفــا
ماأسودّ حتّى ابيضّ كالـكرم الّذى لم يَبْدُ حَــتّى جِىء كيْما يقطفا
لمــا تفوّفت الخُطوبُ سَوادَها بِبَيــاضِهــا عَبثت به فتفوّفا
ما كان يَخطر قبــلَ ذا فى فِكرِه للبَدْر قبــلَ تمامِه أن يُكسَفا

وقال أيضا :

غــدَا الهمُّ مختطًّا بفَوْدَىّ خِطّةً طريقُ الرّدَى منها إلى الموت مَهْيَعُ[1]

---

(١) ديوانه ٢ : ٣٢٤

هو الزَّور يُجْفَى ، والمُعاشرُ يُجْتَوَى ... وذُو الإلفِ يُقْلَى ، والجديدُ يُرَقَّعُ
له مَنظَر فى العَيْن أبيضُ ناصعٌ ... ولكنّه فى القلب أسوَدُ أسفَعُ
ونحن نُرَجِّيــه على الكُرْه والرِّضا ... وأنفُ الفَتَى من وجهِهِ وهو أجْدعُ

وقال أيضا :

شُعلةٌ فى المَفارقِ استوْدَعَتْنى ... فى صَميم الأحشاءِ ثُكلًا صَميما[1]
تَستثيرُ الهمومَ ماأُكتِنّ منها ... صُعُداً وهى تستثيرُ الهُموماَ
غُرّةٌ مُرّةٌ ألا إنّما كنْـ ... ـتُ أغرَّ أيّام كنتُ بَهيما
دقّةٌ فى الحياةِ تُدعَى جلالًا ... مِثل ما سُمّىَ اللّديغُ سَليما
حلّمتْنى زعمْتُمُ وأرانى ... قبلَ هذا التحليم كنتُ حَليما

وقال الصّابى وذَكَر الخِضاب :

خضبتُ مَشِيبى للتّعلُّق بالصِّبا ... وأوهمْتُ مَن أهواهُ أنّىَ لم أَشِبْ
فلمّا ادّعى منّى العِذارُ شَبيبةً ... إذا صَلِعِى قد صاحَ من فوقه كَذَبْ
فكَم طُرّةٍ طارَتْ ودانَتْ ذوائبٌ ... وكَم وَجْنةٍ حالَتْ وماءُ بها نَضَبْ
شَواهدُ بالتزوير يَحْوِينَ رَبّهـا ... فهِجْرانُه عنــد الأحِبّة قد وَجَبْ

البحترىّ :

بانَ الشَّبابُ فلا عَينٌ ولا أَثَرٌ ... إلّا بقيّة بُرْدٍ منــه أسمالِ
قد كِدْتُ أُخرِجه عن مُنتهَى عَدَدِى ... يأساً وأسقِطُه إذْ فات مِن بالِى
سُوء العَواقِبِ يأسٌ قبلَه أمَلٌ ... وأعضَلُ الداءِ نِكْس بعد إبْلالِ
والمرءُ طاعــة أيّام تُنقِّلُهُ ... تَنقُّلَ الظلِّ من حالٍ إلى حالِ

---

(١) ديوانه ٣ : ٢٢٣

(٣٨٢)

الأَصْلُ :

وَقالَ عليه السلامُ :

ما المُجاهِدُ الشهيدُ فى سَبِيلِ اللهِ بِأَعْظَمَ أجْراً مِمنْ قَدَرَ فعَفَّ ، لَكادَ العَفِيفُ أنْ يَكُونَ مَلَكاً مِن الملائِكَةِ .

***

[نبذ وحكايات حول العفة]

الشرح :

قد تقدّم القولُ فى العِفّة ، وهى ضُرُوب : عِفّة اليد ، وعِفّة اللسان ، وعِفّة الفرْج ، وهى العُظْمَى ، وقد جاء فى الحديث المرفوع : « مَن عَشِق فكَتَم وعَفَّ وصَبَرَ فماتَ ماتَ شهيداً ودخَل الجنّة » .

وفى حِكمةِ سليمانَ بن داود : إن الغالبَ لِهوَاه أشدُّ من الّذى يَفتَح المدينة وحدَه .

نزل خارجىٌّ على بعض إخوانه منهمْ مستتِرا من الحجّاج ، فشَخَص المنزولُ عليه لبعضِ حاجاته وقال لزوجته : ياظَمياء ، أُوصيكِ بضَيْفى هذا خيراً ـ وكانتْ من أحسن الناس ـ فلمّا عاد بعدَ شهر قال لها : كيف كان ضيفُكِ ؟ قالت : ما أشغَلَه بالعَمَى عن كلّ شىء ؛ وكان الضَّيف أطبَقَ جَفْنَيه فلم يَنظُر إلى المرأة ولا إلى منزلها إلى أن عاد زوجُها .

وقال الشاعر :

إن أكنْ طامحَ اللّحاظِ فإنّى ... والّذى يملِكُ القلوبَ عفيفُ

خرجت امرأةٌ من صالحاتِ نساءِ قريش إلى بابها لتغلقَه ، ورأسُها مكشوف ، فرآها رجلٌ أجنبيّ فرجعتْ وحلقتْ شعرَها ، وكانت من أحسَن النّساء شعْرا ، فقيل لها فى ذلك ، قالت : ما كنتُ لأدعَ على رأسِى شعْرا رآه من ليسَ لى بمحرَم .

كان ابنُ سيرينَ يقول : ما غشِيتُ امرأةً قطّ فى يقَظةٍ ولا نوْم غيرَ أمّ عبدِ الله وإنّى لأرَى المرأةَ فى المَنام وأعلم أنها لا تحِلّ لى فأصرف بصَرى عنها .

وقال بعضهم :

وإنى لعفّ عن فُكاهةِ جارَتِى ... وإنّى لمَشنوءٌ إلىّ اغتيابُها

إذا غابَ عنْها بعلُها لم أكُنْ لها ... صَدِيقاً ولم تأنَسْ إلىّ كِلابُها

ولم أكُ طلّابا أحاديثَ سِرِّها ... ولا عالِماً من أىِّ حوْكٍ ثيابُها

دخلتْ بُثينةُ على عبدِ الملك بن مرْوانَ ، فقال : ما أرَى فيك يا بُثَيْنة شيئا ممّا كان يلْهَج به جَميل ! فقالت : إنه كان يرْنُو إلىّ بعَيْنين ليستا فى رَأسِك يا أميرَ المؤمنين ، قال : فكيف صادفته فى عِفّته ؟ قالت : كما وَصَفَ نفسَه إذ قال :

لا والّذى تَسجُد الجِباهُ له ... مالى بما ضَمّ ثوبُها خبَرُ[1]

ولا بفِيها ولا هممْتُ به ... ما كانَ إلاّ الحديثُ والنّظَرُ

وقال أبو سَهْل الساعدىّ : دخلت على جَميل فى مرضِ موْته ، فقال : يا أبا سَهْل ، رجلٌ يلْقَى الله ولم يَسفِكْ دَماً حراما ، ولم يَشرَبْ خمرا ، ولم يأتِ فاحشةً ، أترجو له الجنّة ؟ قلتُ : إى والله فمن هوَ ؟ قال : إنى لأرجُو أن أكون أنا ذلك ، فذَكَرتُ له بُثينةَ ،

---

(١) ديوانه ٨٩ ، ٩٠ .

فقال : إنّى لفِى آخر يومٍ من أيّام الدنيا ، وأوّل يومٍ من أيّام الآخرة، لا نالَتْنى شفاعة محمّد إنْ كنتُ حدّثتُ نفسِى برِيبةٍ مَعَها أو مع غيرِها قطّ .

قال الشاعر :

قالتْ وقلتُ ترَفَّقِى فصِلِى ... حَبْلَ أمرئٍ بوِصالكمْ صَبِّ
صادِقْ إذاً بَعْلى فقلتُ لها ... الغدرُ شىءٌ ليسَ مِن شَعْبى
ثِنْتانِ لا أصبو لوَصْلِهما ... عرْسُ الصديّق وجارَة الجَنْبِ
أمّا الصديقُ فلستُ خائِنَه ... والجارُ أوْصانى به ربّى

يقال : إنّ امرأةً ذات جمالٍ دَعتْ عبد الله بنَ عبد المطّلب إلى نفسها لما كانت ترَى على وجهه من النُور ، فأَبى وقال :

أمّا الحرامُ فالمماتُ دُونَهُ ... والحلّ لا حلّ فأستبينَهُ
فكيف بالأمرِ الذى تَبْغينهُ ... يَحمِى الكريمُ عِرْضَه ودِينَهُ

راوَدَ توبةُ بنُ الحمِّير ليلى الأخيليّة مرّةً عن نفسها ، فاشمأزّت منه وقالت :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حَييتَ سبيلُ (١)
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

ابنُ مَيّادة :

موانِعُ لا يُعطين حَبّةَ خَرْدلٍ ... وهنّ زَوانٍ فى الحديث أوانسُ
ويَكرَهن أن يَسمعن فى اللّهوِ رِيبةً ... كما كرِهتْ صوتَ اللّجام الشّوامِسُ

آخر :

بيضٌ أوانسُ ماهمَمْنَ بريبةٍ ... كظباء مكّةَ صيدُهنّ حَرامُ

---

(١) أمالى القالى ١ : ٨٨ .

يُحَسْبن من لين الكلام زَوانياً ويصدُّهنّ عن الخنا الإسلامُ

فى الحديث المرفوع : « لا تكوننّ حديدَ النّظر إلى ماليس لك ، فإنه لا يَزْنى فَرْجُك ماحَفِظْتَ عَيْنَيك ، وإن استطعت ألاّ تنظرُ إلى ثوب المرأة التى لاتَحلّ لك فافعل ولن تستطيع ذلك إلاّ بإذن الله » .

كان ابن المولى الشاعر المدنىّ موصوفاً بالعفّة وطيب الإزار ، فأنشد عبد الملك شعراً له من جُمْلته :

وأبكى فلا لَيْلَى بكتْ من صَبابةٍ لباكٍ ولا لَيلى لذى البَذل تبذُلُ

وأخنع بالعُتبَى إذا كنتُ مُذْنِبا وإن أذنبتْ كنتُ الذى أتنصَّلُ

فقال عبدُ الملك : مَن ليلى هذه ؟ إن كانت حرّة لأزوّجنكها ، وإن كانت أمَةً لأشترينّها لك بالغة مابلغتْ ، فقال : كلاّ ياأمير المؤمنين ، ما كنت لأصَعِّر وجه حُرّ أبدا فى حُرَّته ولا فى أمَتِه ، وما ليلى التى أَنِست بها إلاّ قَوْسى هذه سمّيتها ليلى لأنّ الشاعر لابدّ له من النَّسيب .

ابن الملوّح المجنون :

كأن على أنيابها الخمرَ مَجّهُ بماءِ النّدَى من آخِرِ الليل غابِقُ(1)

وما ذُقتُه إلّا بعَيْنى تفرُّساً كما شِيم من أعلى السَّحابة بارِقُ

هذا مثل بيت الحماسة :

بأعذبَ مِنْ فيها وما ذُقْتُ طَعْمَه ولكننى فيما ترَى العينُ فارِسُ (2)

شاعر :

ما إن دعانى الهوَى لفاحِشَةٍ إلاّ نهانى الحياءُ والكَرَمُ

---

(1) ديوانه ٢٠٣

(2) لأبى صغيرة البولانى ، ديوان الحماسة ٣ : ١٢٨١ — بشرح المرزوقى .

ولا إلى محرمٍ مددتُ يدِى ولا مَشَت بى لرِيبةٍ قدَمُ

العباس بنُ الأحْنَف :

أتأذَنون لصبٍّ فى زيارتِكُمْ فعندَكم شَهوات السَّمْع والبَصَرِ (١)
لا يُضْمِرُ السُّوء إن طال الجلوس به عفُّ الضمير ولكنْ فاسقُ النَّظَرِ

قال بعضهم : رأيتُ امرأةً مستقبلة البيت فى المَوْسم ، وهى فى غاية الضرّ والنّحافة رافعةً يديها تدعو ، فقلتُ لها : هل لكِ من حاجة ؟ قالت : حاجتى أن تُنادِىَ فى الموقف بقولى :

تزوَّدَ كلُّ الناس زاداً يُقيمُهُمْ ومالىَ زادٌ والسّلام على نَفْسى

ففعلت ، وإذا أنا بفتى مَنْهوك،فقال : أنا الزاد ، فمضيتُ به إليها،فما زادوا على النظَر والبكاء ، ثمّ قالت له : انصرف مُصاحَباً ، فقلت : ماعلمت أن التقاء كما يُقتصر فيه على هذا ، فقالت : امسِكْ يافتى ، أما علمت أن ركوب العار ودُخول النار شديد .

قال بعضهم :

كم قد ظَفِرتُ بمن أهوَى فيمنعُنى منهُ الحياءُ وخوفُ الله والحَــذَرُ
وكم خلَوْتُ بمن أهــوَى فيُقْنعُنى منه الفُـكاهةُ والتّحديثُ والنَّظرُ
أهوىَ المِلاحَ وأهوى أن أجالِسَهمْ وليس لى فى حَــرامٍ منهمُ وَطَرُ
كذلك الحُبّ لا إتْيانُ معصيةٍ لا خيرَ فى لذّةٍ من بعدِها سَقَرُ

قال محمّد بن عبدِ الله بنِ طاهر لبنيه : اعشقُوا تظرُفوا ، وعِفُّوا تَشرُفوا .

وَصَف أعرابىٌّ امرأةً طرَقها ، فقال : مازالَ القمرُ يُرِينِيها فلمّا غاب أرتْنيه،فقيل : فما كان بينَكما ؟ قال : ما أقربَ ما أحلّ الله ممّا حرّم ، إشارة فى غير باس،ودنوٌّ مِن غير مساس ، ولا وَجَع أشدّ من الذّنوب .

---

(١) ديوانه ١٤٧

كثيِّر عزّة :

وإنِّى لأرضَى منكِ ياعزّ بالّذِى ... لو أُبصَرَه الواشى لَقرّت بلابلُه

بِلاَ وبألّا أستطيعَ وبالمُنى ... وبالوَعْد حتّى يسأمَ الوعدَ آمِلُه

وبالنّظرة العَجْلَى وبالحَوْل يَنقضِى ... أواخِرُه لا نَلتقِى وأوائِلُه

وقال بعضُ الظُّرَفاء : كان أربابُ الهوَى يسرّون فيما مضى ، ويقنعون بأن يمضغ أحدُهم لباناً قد مَضغَتْه محبوبتُه ، أو يَسْتاك بسواكِها ، ويرَوْن ذاكَ عظيما ، واليومَ يطلُب أحدهم الخلوة وإرخاءَ السُّتور ، كأنّه قد أَشهَد على نكاحِها أبا سعيدٍ وأبا هُريرة.

وقال أحمد بنُ أبى عثمان الكاتب :

وإنِّى ليُرضِينى المرورُ ببابِها ... وأقنعُ منها بالوَعِيد وبالزَّجْرِ

قال يوسف بن الماجِشون : أَنشَدْتُ محمّد بن المنكدر قول وَضّاح اليَمَن :

إذا قلتُ هاتِى نوّلِينى تبسّمتْ ... وقالت معاذَ اللهِ مِنْ فِعل مَاحَرُمْ

فما نوّلتْ حتّى تضرّعْتُ حوْلها ... وعرّفْتُها مارخّص اللهُ فى اللَّمَمْ

فَضحِكَ وقال : إنْ كان وَضّاحٌ لفَقِيها فى نفسِه .

قال آخر :

فقالتْ بحَقِّ اللهِ إلّا أتيتَنَا ... إذا كان لَونُ اللّيل لونَ الطَّيالِسِ

فجئتُ وما فى القومِ يقْظان غيرُها ... وقد نامَ عنها كلُّ والٍ وحارِسِ

فبتْنا مَبِيتاً طيِّبا نستلذّه ... جميعاً ولم أَمدُدْ لها كفَّ لامِسِ

مرّت امرأة حَسْناء بقَوْم من بنى نُمَير مجتمعين فى نادٍ لهم ، فرمقُوها بأبصارهم ، وقال قائل منهم : ما أكملَها لولا أنها رَسْحاء (١) ! فالتفَتت إليهم ، وقالت: والله

---

(١) الرسحاء : القبيحة .

يا بَنى نمير ، ما أطعْتم الله ولا الشاعر ، قال الله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أبصارِهم ﴾[1] .

وقال الشاعر :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنّك من نُمَيْرٍ فلا كَعباً بلغتَ ولا كِلاَبا[2]

فأخجلَتْهم .

وقال أبو صَخْر الهُذَلىُّ من شِعْر الحماسة :

لَلَيــلةٌ منها تَعُود لنا من غير ما رَفَثٍ ولا إثْمِ
أشهى إلى نفسِى ولو برحتْ مما ملكتُ ومِنْ بنى سَهْمِ

آخَر :

وما نلتُ منها مُحَرَماً غير أننى أقبّل بسّاما من الثغر أفلجا
وألثمُ فاها آخِــذاً بقرُونِها وأترُكُ حاجاتِ النُّفوس تحرُّجا

وأعفُّ من هذا الشِّعر قولُ عبدِ بنى الحَسْحاسِ على فِسْقه :

لعمرُ أبيها ما صَبَوْتُ ولا صَبَتْ إلىَّ وإنِّى مِن صِباً لحَــليمُ
سِوَى قُبلةٍ أستغفِر الله ذَنْبها سأطعِم مسْكِينا لها وأصُومُ

وقال آخَر :

ومجدُولةٍ جَــدْلَ العَناقِ كأنما سَنَا البرْق فى داجِى الظّلام ابتسامُها
ضربتُ لهــا الميعادَ ليستْ بكَنّةٍ ولا جارةٍ يُخشَى علىّ ذِمامُهــا
فلمّا التقَيْنا قالت الحُكْم فاحتَكمْ سوى خلّةٍ هَيهاتَ منكَ مرامُها
فقلتُ معــاذَ الله أن أركب التى تَبيدُ ويَبْقَى فى المَعــادِ أثامُها

---

(١) سورة النور ٣٠ .
(٢) لجرير ، ديوانه ٧٥

قولُه : « ليست بكَنَّة * ولا جارةٍ يُخشَى علىَّ ذِمامُها » ، مأخوذٌ من قول قيس ابن الخَطِيم :

ومثلكِ قد أحببْتُ ليستْ بكَنَّةٍ ولا جارة ولا حَليلة صاحبِ [1]

وهذا الشاعر قد زاد عليه بقوله : « ولا حايلة صاحب » .

وأنشد ابن مَنْدُوَيه لبعضهم :

أنا زانِي اللِّسانِ والطَّرْفِ إلّا أنّ قلبي يَعافُ ذاكَ ويأبَى

لا يَراني الإلٰه أشرَب إلّا كلَّ ما حلّ شُربُه لى وطابا

آخَر :

تلهو بهنّ كذا من غيرِ فاحشةٍ لهوَ الصِّيامِ بتُفّاح البَساتِينِ

بشّار بنُ بُرْد :

قالوا حرامٌ تَلاقِينا فقلتُ لهمْ مافي التزامٍ ولافى قُبلةٍ حرَجُ [2]

مَنْ راقَب الناسَ لم يظفَر بحاجتِه وفازَ بالطّيّباتِ الفاتِكُ اللّهِجُ

البيت الآخَر مِثلُ قولِ القائل :

مَن راقبَ الناسَ ماتَ همًّا وفازَ باللّذّة الجَسُورُ

أبو الطيّب المتنبّي :

وترَى الفتوّة والمروّة والأبوّة فىّ كُلُّ مليحة ضَرّاتِها [3]

هنّ الثلاث المانِعاتِي لَذّتى فى خَلْوَتى لا الخوفُ مِنْ تَبِعاتها

إنّي على شَغَفي بما فى خُمْرِها لأعفُّ عمّا فى سَراويلاتِها

* * *

(١) ديوانه ٣٦

(٢) ديوانه ٢ : ٧٥ ، ٧٦

(٣) ديوانه ١ : ٢٢٧

كان الصاحبُ رحمه الله يستهجِن قولَه : « عمّا فى سَراوِيلاتِها » ، ويقول : إن كثيرا من العُهْر أحسَن من هذه العِفّة ، ومعنى البيت الأوّل أنّ هذهِ الخِلالَ الثلاث تَراهُنّ لِلملاحُ ضَرائرَ لهنّ لأنهن يمنعنه عن الخَلْوَة بالمِلاح والتمتع بهنّ . ثم قال : إنّ هذه الخلالَ هى التى تمنعه لا الخوفُ من تَبِعاتها ، وقال قوم : هذا تَهاونٌ بالدِّين ، ونوعٌ من الإلحاد . وعندى أنّ هذا مَذهبٌ للشُّعراء معروف ، لا يُريدون به التّهاوُنَ بالدِّين ، بل المبالغةَ فى وَصْف سجَاياهُم وأخلاقِهم بالطَّهارة ، وأنّهم يَتركُون القَبيح لأنّه قبيح ، لا لِوُرُود الشَّرْع به ، وخوف العِقاب منه . ويُمكِن أيضا أن يريدَ بِتَبِعاتها تبعات الدّنيا ، أى لا أخاف من قوم هذه المحبوبة التى أَنِسْتُ بها ، ولا أُشفِق من حَرْبهم وكيدِهِم ، فأمّا عفّة اليد وعفّة اللّسان فهما بابٌ آخَر . وقد ذكرْنا طَرَفاً صالحاً من ذلك فى الأجزاء المتقدِّمة عند ذكرِنا الوَرَع .

وفى الحديث المرفوع : « لا يَبلُغ العبدُ أن يكون من المتّقين حتّى يترك مالا بأسَ به حذارَ مابه البأس » .

وقال أبو بكر فى مرض موتِه : إنا منذُ وَلينا أمرَ المسلمين لم نأخذ لهم دِرْهما ولا دينارا ، وأكَلْنا من جَرِيش الطّعام ، ولبسنْا من خَشِن الثّياب ، وليس عندَنا من فَىْء المسلمين إلّا هذا الناضح ، وهذا العبد الحَبَشىّ ، وهذه القطيفة ، فإذا قُبِضْتُ فادفعوا ذلك إلى عُمرَ ليجعَلَه فى بيتِ مالِ المسلمين ؛ فلما ماتَ حُمِل ذلك إلى عمرَ ، فبكَى كثيرا ثم قال : رحِم الله أبا بكر ، لقد أتعَبَ مَن بعدَه !

قال سليمانُ بنُ داود : يابنى إسرائيل ، أوصِيكم بأمْرَيْن أفلح مَن فعَلَهما : لا تُدخِلوا أجوافَكم إلّا الطيِّب ، ولا تُخرِجوا مِن أفواهِكم إلّا الطيِّب .

وقال بعضُ الحكماء : إذا شئتَ أن تَعرِف ربَّك معرفةً يقينيّة فاجعلْ بينكَ وبين المحارم حائطاً من حديد ، فسوفَ يَفتَح عليك أبواب مَعِرفته .

ومما يُحكَى من وَرَع حسّان بن أبى سِنان أنّ غلاما له كتب إليه من الأهواز : إنّ قَصَبَ السكّر أصابته السَّنة آفة فابتعْ ماقَدَرْتَ عليه من السكّر ، فإنك تجد له رِبْحًا كثيرا فيما بعد ، فابتاع ، وطُلِبَ منه ما ابتاعَه بعد قليلٍ بربح ثلاثينَ ألف درهم ، فاستقالَ البَيْع من صاحبه ، وقال : إنه لم يَعلَم ما كنتُ أعلم حين اشتريتُه منه ، فقال البائع : قد علمتُ الآن مقدارَ الرِّبح ، وقد طَيَّبتُه لك وأحللتُك ، فلم يطمئنّ قلبُه ، وما زال حتى ردّه عليه .

يقال : إنّ غَنَم الغارة اختلَطَتْ بغَنَم أهلِ الكوفة ، فتورّع أبو حنيفة أن يأكُلَ اللحمَ ، وسأَل كم تَعيشُ الشّاة ؟ قالوا : سبعَ سنين ، فترك أكْلَ لَحم الغَنَم سبعَ سِنين .

ويقال : إنّ المنصورَ حمل إليهِ بَدْرةً فرَمَى بها إلى زاوِية البيت ، فلمّا مات جاء بها ابنُه حمّاد بن أبى حنيفة إلى أبى الحسن بن أبى قحطبة ، وقال : إنّ أبى أوْصانى أن أردّ هذه عليك ، وقال : إنّها كانت عندى كالوَديعة ، فاصرِفْها فيما أمرَكَ الله به ، فقال أبو الحَسَن : رَحِم الله أبا حَنيفة ! لقد شَحّ بدِينه إذ سَخَتْ به نفوسُ أقْوام .

وقال سُفْيانُ الثورِىّ : انظر دِرْهمك من أيْن هوَ ، وَصَلّ فى الصّفّ الأخير .

جابر ، سمعتُ النبىّ صلى الله عليه وآله يقول لكَعْب بن عُجْرة : « لا يَدخُل الجنّة لحمٌ نَبتَ من السُّحْت ، النّار أوْلَى به » .

الحَسَن : لو وجدتُ رَغيفاً من حَلالٍ لأحْرَقْته ثم سحَقْتُه ثم جعَلته ذَرُورا ، ثم داوَيْتُ به المَرْضَى .

عائشة ، قالت : يارسول الله ، مَن المؤمن ؟ قال : من إذا أصبح نَظَر إلى رغيفَيْه كيف يَكتسِبهما ، قالت : يارسول الله ، أمَا إنّهم لو كُلّفوا ذلك لتكلّفوه ، فقال لها : إنهم قد كُلّفوه ، ولكنهم يَعسِفون الدّنيا عَسْفا .

حُذَيفة بن اليمَان يرفَعه : إنّ قوما يَجيئون يومَ القيامة ولهمْ من الحسَنات كأمثالِ الجبال ، فيجَعلها الله هَباء مَنْثورا ، ثمّ يُؤْمَر بهم إلى النّار ؛ فقيل : خَلِّهم لنا يارسول الله ، قال : إنّهم كانوا يُصلُّون ويَصُومون ويَأْخذون أُهْبَةً من اللّيل ، ولكنهم كانوا إذا عُرِض عليهم الحرامُ وَثَبوا عليه .

(٤٨٣)

الأصل

وقالَ عليهِ السلامُ : اْلقَنَاعَةُ مالٌ لاَ يَنْفَدُ .

قال : وقدْ رَوَى بَعْضُهم هَذَا الـكلاَم عَنْ رَسُولِ الله صلّى اللهُ عليهِ وآله .

***

الشرح :

قد تَقَدَّم القولُ فى هذا المعنى ، وقد تـكرّرتْ هـذه اللّفظة بذاتِها فى كلامِه عليه السلام .

ومن جيّد القولِ فى القناعة قولُ الغزّىّ :

أنا كالثُّعبانِ جِلْدِى مَلْبَسِى ... لستُ محتاجاً إلى ثوبِ الجمالِ
فالْخُمولُ العِزّ واليأسُ الغِنَى ... والقُنوعُ الْمُلك ، هذا مابَدا لى

وقال أيضا :

لاتعجبَنّ لمن يهوَى ويَصعَد فى ... دُنْياه فالخلقُ فى أُرجوحةِ القَدَرِ
واقنعْ بما قلّ فالأوشالُ صافيةٌ ... ولُجة البَحْرِ لاتخلو من الـكَدَرِ

(٤٨٤)

الأصلُ :

وقال عليه السلامُ لزيادِ بْنِ أبيهِ وقد استخلفهُ لعبدِ اللهِ بنِ العبّاسِ على فارسَ وأعمالِها ، فى كلامٍ طويلٍ كانَ بَيْنَهُما نَهاهُ فيهِ عنْ تقْديمِ الخراجِ :

اِسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ ، واحْذَرِ الْعَسْفَ والْحَيْفَ ؛ فإنَّ الْعَسْفَ يَعُودُ بالْجَلاء ، والحيفَ يَدْعُو إلى السَّيْفِ .

الشّرحُ :

قد سَبَق الكلامُ فى العَدْلِ والجوْرِ .

وكانت عادة أهلِ فارس فى أيّام عثمانَ أن يَطْلب الوالى منهم خراجَ أملاكِهم قبل بَيْع الثّمار على وَجْه الاسْتِسْلاف ، أو لأنّهم كانوا يظنّون أن أوّل السّنة القمريّة هو مُبتدأ وجُوبِ الخراج حَمْلا للخَراج التابع لسَنَة الشّمس على الحُقوق الهلاليّة التابعة لسَنَة القمر ، كأُجْرةِ العقار ، وجَوالِى أهلِ الذّمّة ، فكان ذلك يُجْحِف بالنّاس ويدعو إلى عَسْفِهم وحَيْفِهم .

وقد غلط فى هذا المعنى جماعةٌ من الملوك فى كثير من الأعصار ، ولم يَعلَموا فَرْقَ ما بين السَّنَتين ، ثم تنبّه له قومٌ من أذكياء الناس فكَبَسوا وجعلوا السنينَ واحدةً ، ثم أهملَ الناس الكَبْس ، وانفرَج ما بين السّنَة القمريّة والسّنة الخراجيّة التى هى سَنَة الشمس انفراجا كثيراً .

واستقصاء القول فى ذلك لا يليقُ بهذا الموضع ، لأنّه خارجٌ عن فنّ الأدب الّذى هو موضوعُ كتابِنا هذا .

(٤٨٥)

الأصل :

وقالَ عليهِ السلامُ :

أشَدُّ الذُّنُوبِ ما اسْتَخَفَّ بها صاحِبها .

***

الشرح :

عُظْمُ المصيبةِ على حَسَبِ نِعمة العاصى ، ولهذا كان لَطْم الولد وجهَ الوَالِدِ كبيراً ليس كلَطْمة وجه غيرِ الوَالد .

ولمّا كان البارئُ تعالى أعظَمَ المُنعِمين ، بل لا نِعمةَ إلّا وهى فى الحَقيقةِ مِن نِعمَه، ومنسوبة إليه ، كانت مخالَفَته ومعصِيَته عظمة جدّا ، فلا ينبغى لأحدٍ أن يعصِيَه فى أمرٍ وإن كان قليلا فى ظَنّه ، ثم يستقلّه ويستهين به ، ويُظهِر الأُستخفافَ وقلّة الاحتفال بمواقَعته ، فإنّه يكون قد جَمع إلى المعصية معصيةً أخرى ، وهى الأُستخفاف بقَدْر تلك المعصية التى لو أمعَن النَّظَر لَعلم أنّها عظيمة ، ينبغى له لو كان رشيدا أن يَبكِىَ عليها الدَّمَ فَضْلا عن الدَّمْع ، فلهذا قال عليه السلام : « أشدّ الذنوب ما استَخَفَّ بها صاحِبها » .

(٤٨٦)

الأَصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ :

مَا أَخَذَ اللهُ عَلَى أَهْلِ الجَهْلِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَـــذَ عَلَى أَهْلِ العِـلْمِ أَنْ يُعَلِّمُوا .

* * *

الشَّرْحُ :

تعليمُ العِلْمِ فرضُ كفايةٍ ، وفى الخبرِ المرفوعِ « من عَلِمَ عِلْماً وكتمه أَلجمه اللهُ يومَ القيامة بلِجامٍ من نار » .

ورَوَى مُعاذُ بنُ جَبَل عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : « تعلّموا العِلْمَ فإنّ تعلّمه خشية الله ، ودِراستَه تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وطلَبه عبادة ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قُرْبة ، لأنّه مَعالِم الحلال والحرام ، وبيانُ سبيلِ الجنّة ، والمؤنِس فى الوحشة ، والمحدّث فى الخلوة ، والجليس فى الوحدة ، والصاحب فى الغربة ، والدليل على السرّاء ، والمُعين على الضرّاء ، والزّين عند الإخلاء ، والسلاح على الأعداء » .

ورُئِىَ واصل بن عطاء يكتب من صبىّ حديثا ، فقيل له : مثلك يكتب من هذا ! فقال : أما إنى أحفَظُ له منه ، ولـكنى أردت أن أذيقه كأس الرياسة ، ليدعوَه ذلك إلى الازدياد من العلم .

وقال الخليل : العلوم أقفال ، والسؤالات مفاتيحها .

وقال بعضهم : كان أهل العلم يضنّون بعلمهم عن أهل الدنيا فيرغبون فيه ويبذلون لهم دنياهم ، واليوم قد بذل أهل العلم علمهم لأهل الدنيا فزهدوا فيه وضنّوا عنهم بدنياهم .

وقال بعضهم : ابذل علمك لمن يطلبه ، وادع إليه من لا يطلبه ، وإلا كان مَثَلك كمن أُهديتْ له فاكهة فلم يَطْعَمْها ولم يُطعِمْها حتى فسدتْ .

(٤٨٧)

الأَصْلُ :

وقال عليهِ السلامُ :

شَرُّ الإِخْوَانِ مَنْ تُكُلِّفَ لَهُ .

***

الشَّرْحُ :

إنما كان كذلك لأنّ الإخاء الصادق بينهما يوجب الانبساط ، وترك التكلف ، فإذا احتيج إلى التّكلف له فقد دلّ ذلك على أن ليس هناك إخاء صادق ، ومن ليس بأخ صادق فهو من شرّ الإخوان .

وروى ابن ناقيا فى كتاب « ملح الممالحة » ، قال : دخل الحسن بن سَهل على المأمون ، فقال له : كيف علمك بالمروءة ؟ قال : ماأعلم مايريد أمير المؤمنين فأجيبَه ؟ قال : عليك بعمرو بن مسعدة ، قال : فوافيتُ عمراً وفى داره صنّاع ، وهو جالس على آجُرّة ينظر إليهم ، فقلت : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تعلّمنى المروءة ، فدعا بآجرّة فأجلسنى عليها ، وتحدّثنا مليا ، وقد امتلأتُ غيظا من تقصيره بى ، ثم قال : ياغلام عندك شىء يؤكل ؟ فقال : نعَم ، فقدّم طبقاً لطيفا ، عليه رغيفان وثلاث سكرّجات ، فى إحداهنّ خَلّ ، وفى الأخرى مرىٌ ، وفى الأخرى مِلح ، فأكلنا ، وجاء الفرّاش فوضّأنا ، ثم قال : إذا شئت ! فنهضت متحفّظا ، ولم أودّعه ، فقال لى : إن رأيتَ أن تعود إلىّ فى يوم مثله ! فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرى ، فلما كان فى اليوم الذى وعدنى فيه لُقياه

سرت إليه فاستؤذِن لى عليه ، فتلقّانى على باب الدار، فعانقنى ، وقبّل بين عينىّ ،وقدّمَنى أمامه ، ومشى خلفى حتى أقعدنى فى الدّست ، وجلس بين يدىّ ، وقد فرِشت الدار ، وزُيِّنَت بأنواع الزينة ، وأقبل يحدّثنى ويتنادر معى إلى أن حضر وقت الطعام ، فأمر فقدّمت أطباق الفاكهة ، فأصبنا منها ، ونصبت الموائد ، فقدّم عليها أنواع الأطعمة من حارّها وباردِها ، وحلوها وحامضها ، ثم قال : أىّ الشراب أعجب إليك ؟ فاقترحت عليه ، وحضر الوصائف للخدمة ، فلما أردت الانصراف حَمَل معى جميع ماأحضر من ذهب وفضة وفُرُش وكِسوة ، وقدم إلى البساط فرس بمركب ثقيل ، فركبته وأمر من بحضرته من الغلمان الرّوم والوصائف حتى سعوْا بين يدىّ ، وقال : عليك بهم فهم لك . ثم قال : إذا زارك أخوك فلا تتكلّف له ، واقتصر على مايحضرك ، وإذا دعوته فاحتفل به واحتشد ، ولا تدعَنّ ممكنا ، كفعلنا إيّاك عند زيارتك إيّانا ، وفعلنا يوم دعوناك .

(٤٨٨)

الأصْلُ :

وقالَ عليهِ السلامُ فى كلامٍ له :

إِذَا احْتَشَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ فَقَدْ فَارَقَهُ .

***

الشرح :

ليس يعنى أن الاحتشام عِلّة الفرقة بل هو دلالة وأمارة على الفرقة ، لأنه لو لم يَحْدُث عنه ما يقتضى الاحتشام لا نبسط على عادته الأولى ، فالانقباض أمارة المباينة .

***

هذا آخر مادوّنه الرّضىّ أبو الحسن رحمه الله من كلام أمير المؤمنين عليه السلام فى « نهج البلاغةِ » ، قد أتينا على شرحِه بمعونةِ اللهِ تعالى .

ونحن الآن ذاكرون مالم يذكره الرضىّ مما نسبه قوم إليه ، فبعضهُ مشهور عنه ، وبعضه ليس بذلك المشهور ؛ لكنه قد روى عنه ، وعُزِىَ إليه ، وبعضه من كلام غيره من الحكماء ؛ ولكنه كالنّظير لكلامه ، والمضارع لحكمته ؛ ولما كان ذلك متضمنا فنوناً من الحكمة نافعة ؛ رأينا ألّا نُخْلِىَ هذا الكتاب عنهُ ؛ لأنّه كالتكملة والتتمّة لكتاب « نهج البلاغة » .

وربما وقع فى بعضه تـكرار يسير شذّ عن أذهاننا التنبّه له ، لطول الـكتاب وتباعد أطرافه ، وقد عددنا ذلك كلمة كلمة ، فوجدناه ألف كلمة .

فإن اعترضنا معترض وقال : فإذا كنتم قد أقررتم بأنّ بعضها ليس بكلام له ؛ فلماذا ذكرتموه ، وهل ذلك إلا نوع من التطويل!

أجبناه وقلنا: لو كان هذا الاعتراضُ لازماً لوجب ألّا نذكرشيئاً من الأشباه والنظائر لـكلامه ، فالعذر هاهنا هو العذر هناك ، وهو أنّ الغرض بالـكتاب الأدب والحـكمة ؛ فإذا وجدنا مايناسب كلامه عليه السلام ، وينصبّ فى قالَبه ويحتذى حذوَه ، ويتقبّل منهاجَه ، ذكرناه على قاعدتنا فى ذكر النّظير عند الخوض فى شرح نظيره .

وهذا حِينُ الشروع فيها خاليةً عن الشرح لجلائها ووضوحها ، وإنّ أكثرها قد سبقت نظائره وأمثاله ، وبالله التوفيق .

الحكم المنسوبة

الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب

١ ـ كان كثيراً ما يقول إذا فرغ من صلاة الليل : أشهد أن السموٰات والأرض وما بينهما آيات تدلّ عليك ، وشواهد تشهد بما إليه دعوتَ . كلّ ما يؤدّى عنك الحجّة ويشهد لك بالرّبوبيّة ، موسوم بآثار نعمتك ومعالم تدبيرك . علوتَ بها عن خَلقِك ، فأوصلتَ إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ، وكفاها رجْم الاحتجاج ؛ فهى مع معرفتها بك ، وولهِها إليك ؛ شاهدة بأنّك لا تأخذك الأوهام ، ولا تدركُك العقول ولا الأبصار . أعوذ بك أنْ أشير بقلبٍ أو لسان أو يدٍ إلى غيرك ؛ لا إلٰه إلا أنتَ ، واحداً أحداً ، فرداً صَمَداً ، ونحن لك مسلِمُون .

٢ ـ إلهى ، كفانى فخراً أن تكون لى ربّاً ، وكفانى عزّاً أن أكون لك عبداً ؛ أنت كما أريد ، فاجعلنى كما تريد .

٣ ـ ما خاف امرؤ عَدَل فى حكمِه ، وأطعم من قُوتِه ، وذَخَر من دنياه لآخرته .

٤ ـ أفضِلْ على مَنْ شِئْتَ تكنْ أميرَه ، واستَغْنِ عمَّن شئتَ تكنْ نظيرَه ، واحتجْ إلى مَنْ شئت تكن أسيرَه .

٥ ـ لولا ضعفُ اليَقين ما كان لنا أن نشكوَ محنةً يسيرةً نرجو فى العاجل سرعةَ زوالِها ، وفى الآجل عظيمَ ثوابها ، بين أضعاف نِعَمٍ لو اجتمع أهلُ السموٰات والأرضِ على إحصائها ما وفوْا بها فضلا عن القيام بشكرها .

٦ ـ من علاماتِ المأمون على دينِ الله بعدَ الإقرار والعمل ، الحزمُ فى أمره ، والصّدق فى قوله ، والعدل فى حكمِه ، والشفقة على رعيّته ، لا تخرجه القدْرة إلى خُرْق[1] ، ولا اللّين إلى ضَعْف ، ولا تمنعه العزّة من كرم عفو ، ولا يدعوه العفو إلى

(١) الخرق : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور .

إضاعة حقّ ، ولا يدخله الإعطاء فى سَرَف ، ولا يتخطّى به القصْد[١] إلى بُخْل ، ولا تأخذه نِعَمُ الله ببطرٍ .

٧ ـ الفِسْق نجاسةٌ فى الهمّة ، وكَلَبٌ فى الطَّبِيعة[٢] .

٨ ـ قلوب الجهال تستفزّها[٣] الأطماع ، وترتهن بالأمانى ، وتتعلق بالخدائع .

وكثرة الصمت زمام اللسان ، وحسْم[٤] الفطنة ، وإماطة الخاطر[٥] ، وعذاب الحسّ .

٩ ـ عَداوة الضّعفاء للأقوياء ، والسفهاء للحلماء والأشرار للأخيارِ ، طبعٌ لا يُستطاع تغييرُه .

١٠ ـ العقل فى القلب ، والرّحمة فى الكبدِ ، والتنفُّس فى الرّئةِ .

١١ ـ إذا أراد الله بعبدٍ خيراً حال بينه وبين شهوته ، وحجز بينه وبين قلبِه ، وإذا أراد به شرًّا وكله إلى نفسه .

١٢ ـ الصَّبْر مطيّة لا تكبُو ، والقناعة سيف لا ينبو .

١٣ ـ رحم اللهُ عبداً اتقى ربَّهُ ، وناصح نفسه ، وقدّم توبته ، وغلب شهوته ؛ فإنّ أجَله مستورٌ عنه ، وأمَلَهُ خادع له ، والشيطان مُوَكّلٌ بِهِ .

١٤ ـ مرّ بمقبرة فقال : السلام عليكم يا أهل الديار الموحِشَةِ ، والمحالّ المقفرةِ[٦] ؛ من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، أنتم لنا فَرَط[٧] ، ونحن لكم تَبَعٌ[٨] نزوركم عمّا قليل ، ونلحق بكم بعد زمان قصير . اللهُمَّ اغفر لنا ولهم ، وتجاوز عنّا وعنهم .

---

(١) القصد : أمر بين الإفراط والتفريط . (٢) الطبع والطبيعة : السجية .
(٣) استفزه واستخفه: أخرجه عن دارة الحزم وضبط الامر والأخذ فيه بالثقة .
(٤) الحسم : القطع ، والفطنة : الذكاء وحدة الفهم .
(٥) إماطة الخاطر ، الإماطة : الإبعاد والإزالة ، والخاطر : مايخطر بالبال من التعقلات .
(٦) أقفر المكان : خلا .
(٧) فرط القوم يفرطهم ، تقدمهم إلى الورد ، والفرط بالتحريك : المتقدم إلى الماء .
(٨) التبع : التابع

الحمد لله الذى جعل الأرض كِفاتا ، أحياء وأمواتا[١]. والحمد لله الذى منها خَلَقَنَا، وعليها مُمشانا ، وفيها معاشنا ، وإليها يُعيدنا . طوبَى لمن ذكر المعاد ، وقنع بالكفاف ، وأعدّ للحساب !

١٥ ـ إنكم مخلوقون اقتدارا ، ومربوبون اقتساراً [٢] ، ومضمَّنون أجداثا [٣] ، وكائنون رُفاتا [٤] ، ومبعوثون أفرادا ، ومدينون حسابا . فرحِم الله امرأً اقترف فاعترف ، ووجِل فعقل ، وحاذر [٥] فبادر ، وعُمِّر فاعتبر ، وحُذِّر فازدجر ؛ وأجاب فأناب ، وراجع فتاب ، واقتدى فاحتذى [٦] ، وتأهّب للمعاد ، واستظهر بالزّاد ؛ ليوم رحيله ، ووجه سبيله ولحال حاجته ، وموطن فاقته ، فقدّم أمامه لدار مقامه ؛ فمهّدُوا لأنفسكم على سلامة الأبدان وفسحة الأعمار . فهل ينتظر أهلُ غضارة [٧] الشباب إلّا حوانىَ الهرم ، وأهلُ بضاضة الصّحة إلّا نوازل السّقم ، وأهل مدة البقاء إلا مفاجأة الفناء واقتراب الفوت ، ومشارفة الانتقال ، وإشفاء الزوال ؛ وحَفْز الأنين [٨] ورشْح الجبين ، وامتداد العِرْنين [٩] ، وعَلَز القلق [١٠] ، وقَيْظ الرَّمَق [١١] وشدّة المَضَض ، وغَصص الجَرَض [١٢] .

١٦ ـ ثلاث منجيات : خشية الله فى السرّ والعَلانية ، والقَصْد فى الفقر والغنى ، والعَدْل فى الغضب والرضا .

---

(١) قوله : « كفاتا أحياء وأمواتاً » ؛ أى جعل الأرض مجمعاً لنا فى حياتنا ومماتنا ، الكفاة بالكسر : الموضع يكفت فيه الشىء ، أى يضم ويجمع ، والأرض كفات لنا .

(٢) قسره : قهره . (٣) الجدث : القبر .

(٤) رفاتا ، رفته : كسره ودقه ، والرفات الحطام . (٥) الحذر : الاحتراز .

(٦) د : « اهتدى » .

(٧) الغضارة : النعمة والسعة والخصب . (٨) الحفز : الحث والإعجال .

(٩) العرنين : الأنف ، فإنه يمتد عند الموت . (١٠) العلز : القلق والخفة .

(١١) القيظ بالقاف : شدة الحر ، وبالفاء : الموت . والرمق : بقية الحياة .

(١٢) الغصة : ما اعترض فى الحلق ، والجرض : الريق .

١٧ ـ إياكم والفُحْش ؛ فإنّ الله لا يحبّ الفُحش ، وإيّاكم والشّحّ ، فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم ؛ هو الذى سفك دماء الرّجال ، وهو الذى قطّع أرحامها ، فاجتنبوه .

١٨ ـ إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقةٍ جارية ، وعلمٍ كان علّمه الناس فانتفعوا به ، وولدٍ صالح يدعو له .

١٩ ـ إذا فعلتَ كلّ شىء فكن كمن لم يفعل شيئاً .

٢٠ ـ سأله رجل،فقال : بماذا أسوء عدوّى ؟ فقال: بأن تكون على غاية الفضائل، لأنه إن كان يسوءه أن يكون لك فرس فارهٌ ، أو كلب صَيُود ؛ فهو لأن تُذكَرَ بالجميل وينسب إليك أشدّ مساءةً .

٢١ ـ إذا قُذِفت بشىء فلا تتهاونْ به وإن كان كذبا ، بل تحرّزْ من طرقِ القذف جُهدكَ ؛ فإنّ القول وإن لم يثبت يوجب ريبةً وشكا .

٢٢ ـ عدم الأدبِ سببُ كلّ شرٍّ.

٢٣ ـ الجهل بالفضائل عِدْل الموتِ.

٢٤ ـ ما أصعب على من استعبدتهُ الشّهوات أن يكون فاضلاً !

٢٥ ـ مَنْ لم يقهر حَسَدَهُ كان جَسَدُهُ قبراً لِنَفْسِهِ .

٢٦ ـ احمَد من يغلظ عليك ويعظك ، لامن يزكّيك ويتملّقُك .

٢٧ ـ اختر أن تكون مغلوبا وأنت منصِف ، ولا تَخْتَر أن تكون غالبا وأنت ظالم .

٢٨ ـ لا تهضمنّ محاسنك بالفَخْر والتكبّر .

٢٩ ـ لا تنفكّ المدنية من شرّ ؛ حتى يجتمع مع قوّة السلطان قوّة دينه وقوة حِكمته .

٣٠ - إذَا أَرَدْتَ أنْ تُحْمَدَ فلا يظهر منك حرصٌ على الحَمْدِ .

٣١ - مَن كَثُرَ هَمُّهُ سقم بدنه ، ومَنْ ساء خُلُقه عَذَّب نفسه ، ومن لاحَى الرِّجال سقطت مروءته ، وذهبت كرامته ؛ وأفضل إيمانِ العَبْدِ أن يعلم أنّ الله معه حيث كان .

٣٢ - كُنْ ورِعاً تكن من أعبدِ الناس ، وارْضَ بما قَسَم الله لك تكن من أغنى الناس ، وأحسنْ جوارَ مَنْ جاورك تكن مسلما ، ولا تكثرنّ الضحِك؛ فإنّ كثرته تميت القلب ، وأَخْرِس لسانك ، واجلس في بيتك ، وابكِ على خطيئتك .

٣٣ - إنّ الرَّجُل ليُحَرم الرِّزق بالذنب يصيبُه ، ولا يردّ القدر إلا الدعاء ؛ ولا يزيد في العمر إلا البرّ ، ولا يزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه ، وعَمّا عمل فيما علم !

٣٤ - في التجارب علم مستأنف ، والاعتبار يفيدك الرشاد ، وكفاك أدباً لنفسك ما كرهتَه من غيرك ، وعليك لأخيك مثل الذى عليه لك .

٣٥ - الغضب يُثير كامن الحِقْد ، ومَنْ عرف الأيام لم يُغفل الاستعداد ، ومَنْ أمسك عن الفضول عدّلت رأيَه العقول .

٣٦ - اسكت واستر تسلم . وما أحسن العلم يزينه العمل ، وما أحسن العمل يزينه الرِّفق !

٣٧ - أكبرُ الفخر ألّا تفخر .

٣٨ - ما أصعب اكتساب الفضائل وأيسر إتلافها !

٣٩ - لا تنازع جاهلاً ، ولا تشايع مائقاً (١) ، ولا تعاد مسلّطاً .

٤٠ - الموت راحة للشيخ الفاني من العمل ، وللشابّ السقيم من السّقَم ، وللغلام (٢)

---

(١) المولق : الحمق . (٢) د : « الغلام » .

الناشىء من استقبال الكدّ والجمع لغيره ، ولمن ركبه [١] الدَّيْن لغرمائه، وللمطلوب بالوَتر، وهو فى جملة الأمر أمنيّة كلّ ملهوف مجهود .

٤١ ـ ما كنتَ كاتمه عدوّك من سرّ ، فلا تطلعنّ عليه صديقك . واعرف قدرك يَستعلِ أمرُك ، وكفى مامضى مخبرا عمّا بقى !

٤٢ ـ لا تَعِدَنّ عِدَةً تحقرها قلّةُ الثقة بنفسك ، ولا يغرنّك المرتقى السّهل إذا كان المنحدَر وَعْراً .

٤٣ ـ اتّق العواقب عالما بأنّ للأعمال جزاء وأجرا ، واحذر تبعات الأمور بتقديم الحزم فيها .

٤٤ ـ مَن استَرْشَد غير العقل أخطأ منهاج الرّأى ، ومَن أخطأته وجوه المطالب خذلته الحِيَل ، ومن أخلّ بالصبر أخلّ به حسنُ العاقبة ؛ فإنّ الصبر قوّة من قوى العقل؛ وبقدر موادّ العقل وقوّتها يَقوَى الصبر .

٤٥ ـ الخطأ فى إعطاء من لا يبتغى ومنع من يبتغى واحد .

٤٦ ـ العِشقُ مَرَضٌ ليس فيه أجْرٌ ولا عِوَض

٤٧ ـ أعظم الخطايا عند الله اللّسان الكذوب ، وقائل كلمة الزّور ومن يمدّ بحبلها فى الإثم سواء .

٤٨ ـ الخصومة تمحق الدّين .

٤٩ ـ الجهاد ثلاثة : جهاد باليد، وجهاد باللسان ، وجهاد بالقلب ؛ فأوّل مايغلب عليه من الجهاد يدك ثم لسانك ، ثم يصير إلى القلب ، فإن كان لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا نُكِس فجعل أعلاه أسفله [٢] .

---

(١) أى علاه .

(٢) انظر الفضائى ٢٦٥

٥٠ ـ ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكرها بقلبه إلّا استوجب المزيد عليها قبل ظهورها على لسانه .

٥١ ـ الحاجةُ مسألة ، والدُّعاء زيادَة ، والحمدُ شكرٌ ، والنَّدم توبة .

٥٢ ـ لِن واحلُم تنبل(١) ، ولا تَكُنْ معجِبا فتمْقَت وتُمتهن .

٥٣ ـ مالى أرَى النَّاس إذا قُرِّب إليهم الطعام ليلاً تكلفوا إنارة المصابيح ليبصروا ما يدخِلون بطونهم ، ولا يهتمون بغذاء النَّفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعِلْم ليسلموا من لواحق الجهالة والذنوب فى اعتقاداتهم وأعمالهم .

٥٤ ـ الفقر هو أصْل حسنِ سياسة النَّاس ؛ وذلك أنه إذا كان من حُسن السياسة أن يكون بعض الناس يسوس ، وبعضهم يُساس ، وكان مَنْ يُساس لا يستقيم أن يُساس من غير أن يكون فقيرا محتاجاً ؛ فقد تبيَّن أنَّ الفقر هو السبب الذى به يقوم حسن السياسة .

٥٥ ـ لا تتكلّم بين يدى أحدٍ من النَّاس دون أن تسمع كلامه(٢) ، وتقيس مافى نفسك من العلم إلى ما فى نفسه ، فإن وجدت ما فى نفسه أكثر ؛ فحينئذ ينبغى لك أن ترُوم زيادة الشىء الذى به يفضل على ما عندك .

٥٦ ـ إذا كان اللِّسان آلة لترجمة ما يخطِر فى النفس ، فليس ينبغى أن تستعمله فيما لم يخطر فيها .

٥٧ ـ إذا كان الآباء هم السبب فى الحياة ، فمعلِّمو الحكمة والدين هم السبب فى جودتها .

٥٨ ـ وشكا إليه رجلٌ تعذُّرَ الرِّزق ، فقال : مه ، لا تجاهد الرِّزق جهاد المغالب ، ولا تتكلْ على القدَر اتِّكال المستسلم ؛ فإنّ ابتغاء الفضل من السّنّة ، والإجمال

---

(١) النبل : الشرف والفضيلة .   (٢) د : « قوله » .

فى الطّلب من العفّة ، وليست العِفّة دافعةً رزقاً ، ولا الحرصُ جالباً فضلا ؛ لأن الرّزق مقسوم ، وفى شدّة الحرص اكتساب المآثم .

٥٩ ـ إذا استغنيت عن شىء فدعْه وخذ ما أنت محتاج إليه .

٦٠ ـ العمر أقصر من أن تعلّمَ كلّ ما يحسُن بك علمه ؛ فتعلّم الأهمّ فالأهمّ .

٦١ ـ مَنْ رَضِيَ بما قُسِم له استراح قلبُه وبدنه(١) .

٦٢ ـ أبعد ما يكون العبدُ من الله إذا كان هَمّه بطنَه وفَرْجُه .

٦٣ ـ ليس فى الحواسّ الظّاهرة شىء أشرفُ من العَيْن فلا تُعطوها سؤلها(٢) ، فيشغلكم عن ذكر الله .

٦٤ ـ ارحموا ضعفاءكم فالرّحمة لهم سببُ رحمةِ الله لكم .

٦٥ ـ إزالة الجِبال أسهلُ من إزالة دولة قد أقبلتْ ، فاستعينوا بالله واصبروا ، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء .

٦٦ ـ قال له عثمان فى كلام تلاحَيا فيه حتى جرى ذكْر أبى بكر وعمر : أبو بكر وعمر خيرٌ منك ؛ فقال : أنا خيرٌ منك ومنهما ، عبدْتُ الله قبلهما ، وعبدته بعدهما .

٦٧ ـ أوثق سُلّم يُتَسَلّق(٣) عليه إلى الله تعالى أن يكون خيراً .

٦٨ ـ ليس المُوسِر مَنْ كان يساره باقياً عنده زمانا يسيراً ، وكان يمكن أن يغتصبه(٤) غيره منه ، ولا يبقى بعد موته له ؛ لكن اليَسار على الحقيقة هو الباقى دائما عند مالكه ، ولا يمكن أن يؤخذ منه ، ويبقى له بعد موته ، وذلك هو الحكمة .

٦٩ ـ الشّرف اعتقاد المِنن فى أعناق الرّجال(٥) .

---

(١) د : « نفسه » . (٢) ا : « سؤالها » . (٣) تسلق الشىء : علاه .
(٤) د : « يقبضه » . (٥) المنن : اصطناع المعروف فى أعناق الناس .

٧٠ - يضرّ الناس أنفسهم فى ثلاثة أشياء : الإفراط فى الأكل اتكالا على الصحّة، وتكلّف حمل مالا يطاق اتّكالا على القوة، والتفريط فى العمل اتّكالا على القَدَر .

٧١ - أحزمُ النّاس مَنْ ملك جِدُّه هزله ، وقهر رأيه هواهُ ، وأعرب عن ضميرِه فعلُه ، ولم يخدعْه رضاه عن حظّه ، ولا غضبه عن كيده .

٧٢ - مَنْ لم يُصْلِح خلائقَه ، لم ينفع النّاسَ تأديبُه .

٧٣ - مَن اتّبع هواه ضلّ ، ومن حاد ساد ، وخمود الذكر أجْمَل من ذميم الذِكْر (١)

٧٤ - لهب الشَّوْق أخفُّ محملاً من مقاساة الملالة .

٧٥ - بالرّفق تُنال الحاجة ، وبِحُسْنِ التأنّى تسهل المطالب .

٧٦ - عزيمة الصّبر تطفِئُ نارَ الهوَى ، ونفى العجب يؤمن به كيد الحسّاد .

٧٧ - ماشىء أحقُّ بطولِ سِجْنٍ من لسان .

٧٨ - لا نَذْرَ فى معصيةٍ ، ولا يمينَ فى قطيعةٍ .

٧٩ - لكلّ شىء ثمرة ، وثمرة المعروف تعجيل السَّراح (٢) .

٨٠ - إيّاكم والكسل ؛ فإنّه من كسل لم يؤدِّ لله حقًّا .

٨١ - احسبوا كلامكم من أعمالكم ، وأقلّوه إلّا فى الخير .

٨٢ - أحسِنُوا صحبةَ النّعم فإنّها تزول ، وتشهد على صاحبها بما عمل فيها .

٨٣ - أكثِروا ذكرَ الموتِ ، ويوم خروجكم من قبوركم ، ويوم وقوفكم بين يدىِ اللهِ عزّ وجلّ ، يهُن عليكم المصاب (٣) .

---

(١) د : « الفكر » .
(٢) أى تعجيل سراح طالب المعروف ، وهو قضاء حاجته ، وورد فى الأثر : خير البر عاجله .
(٣) د : « تهن عليكم المصائب » .

٨٤ – بحَسَب مجاهدة النّفوس وردِّها عن شهواتها ومنعها عن مصالحة[1] لذّاتها ومنع ماأدّت إليه العيون الطامحة من لحظاتها – تكون المثوبات والعقوبات ؛ والحازم مَنْ ملك هواه ؛ فكان بمالكه له قاهراً ؛ ولما قَدَحت الأفكار من سوء الظّنون زاجراً ؛ فمتى لم ترُدّ النفس عن ذلك هجم عليها الفكر بمطالبة ماشُغِفت[2] به ، فعند ذلك تأنس بالآراء الفاسدة ، والأطماع الكاذبة ، والأمانى المتلاشية ؛ وكما أنّ البَصر إذا اعتلّ[3] رأى أشباحاً وخيالات لاحقيقة لها ؛ كذلك النّفس إذا اعتلّت بحبّ الشهوات وانطوت على قبيح الإرادات ، رأت الآراء الكاذبة ؛ فإلى الله سبحانه نرغب فى إصلاح مافسد من قلوبنا ، وبه نستعين على إرشاد نفوسِنا ؛ فإن القلُوب بيده يُصرّفها كيف شاء[4] .

٨٥ – لاتؤاخينّ الفاجر ؛ فإنه يُزيِّن لك فعلَه ، ويودّ لو أنّك مثله ؛ ويحسّن لك أقبح خصاله ، ومدخلُه ومخرجُه من عندك شينٌ وعار ونقص ؛ ولا الأحمق فإنّه يجهَد لك نفسَه ولا ينفعك ؛ وربما أراد أن ينفعك فضرّك ؛ سكوتُه خيرٌ لك من نطقه ، وبعده خير لك من قربه ، وموته خير لك من حياته ؛ ولا الكذّاب فإنّه لاينفعك معه شىء ؛ ينقل حديثك ، وينقل الحديث إليك ؛ حتى إنه ليحدّث بالصّدق فلا يصدّق .

٨٦ – مااستَقصَى كريم قطّ ، قال تعالى فى وصف نبيه : ﴿ عَرّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾[5] .

٨٧ – ربّ كلمةٍ يخترعها حليم مخافة ماهو شرٌّ منها ، وكفى بالحلم ناصرا .

٨٨ – مَنْ جمع ستّ خصال لم يَدَع للجنّة مطلبا ، ولا عن النار مهربا : مَنْ عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحقّ فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدّنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها .

---

(١) ب : « مسالحة » .
(٢) شغفت : رغبت وأغرمت .
(٣) اعتل : أصابته العلة .
(٤) ب : « كيفما شاء » .
(٥) سورة التحريم : ٣

٨٩ ـ مَن استحيا مِنَ النَّاس ولم يستحيِ من نفسه فليس لنفسه عند نفسه قدْر .

٩٠ ـ غايةُ الأدب أنْ يستحِيَ الإنسان من نفسِه .

٩١ ـ البلاغة النَّصر بالُحجَّة ، والمعرفة بمواضع الفُرْصة ، ومن البَصر[1] بالحجَّة أن تدَع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعرَ طريقة ، وكانت الكناية أبلغ فى الدَّرك وأحقّ بالظفر .

٩٢ ـ إيَّاكَ والشَّهوات ؛ وليكن مما تستعين به على كَفِّها علمك بأنها ملهية لعقلك ، مهجِّنة[2] لرأيك ، شائنة لغرضك ، شاغلة لك عن معاظِم أمورك ، مشتدَّةٌ بها التَّبِعة عليك فى آخرتك . إنما الشَّهوات لعب ؛ فإذا حضر اللَّعبُ غاب الجدّ ، ولن يقام الدِّين وتصلحَ الدُّنيا إلا بالجدّ ؛ فإذا[3] نازعتْك نفسك إلى اللَّهو واللذات ، فاعلم أنها قد نزعتْ بك إلى شرِّ منزَع ، وأرادت بك أفضح الفضوح ؛ فغالبْها مغالبة ذلك ، وامتنع منها امتناع ذلك ؛ وليكن مرجعُك منها إلى الحقّ ؛ فإنك مهما تتركْ من الحق لا تتركْه إلا إلى الباطل ، ومهما تدَعْ من الصواب لا تدَعْه إلا إلى الخطأ ؛ فلا تداهننَّ هواكَ فى اليسير فيطمع منك فى الكثير .

وليس شىء ممَّا أوتيت فاضلا عمَّا يصلحك ؛ وليس لِعُمْرك وإن طال فضل عمَّا ينوبك من الحقّ اللازم لك ، ولا بمالك وإن كثر فضل عمَّا يجب عليك فيه ، ولا بقوَّتك وإن تمَّتْ فضلٌ عن أداء حقّ الله عليك ، ولا برأيك وإن حزُمَ فضل عمَّا لا تُعْذَرُ بالخطأ فيه ؛ فليمنعنَّك علمُك بذلك مِنْ أن تطيل لك عمراً فى غير نفع ، أو تضيِّعَ لك مالًا فى غير حقّ ، أو أن تصرف لك قوة فى غير عِبادة ، أو تعدّل لك رأيا فى غير رشد .

---

(١) كذا فى د ، وفى ا ، ب : « النصر » تحريف .

(٢) مهجنة : مقبحة .

(٣) د : « وإن » .

فالحفظَ الحفظَ لما أوتيتَ ، فإنّ بك إلى صغيرِ ما أوتيتَ الكثيرَ منه أشدُّ الحاجة .

وعليك بما أضعته منه أشدُّ الرزيّة ، ولا سيما العمر الذى كل مَنْفَذٍ سواه مستخلَف . وكلّ ذاهب بعده مرتجع .

فإن كنت شاغلا نفسك بلذّة فلتكن لذتك فى محادثة العلماء ودرس كتبهم ، فإنّه ليس سرورك بالشّهوات بالغاً منك مبلغا إلا وإكبابك على ذلك ، ونظرُك فيه بالغه منك ، غير أنّ ذلك يجمعُ إلى عاجل السُّرور تمامَ السّعادة ، وخلافُ ذلك يجمع إلى عاجل الغىّ وخامةَ العاقبة ، وقديما قيل : أسعدُ النّاس أدركُهم لهواه إذا كان هواه فى رشده ؛ فإذا كان هواه فى غير رشده . فقد شقِىَ بما أدرك منه . وقديما قيل : عوّدْ نفسَك الجميلَ ؛ فباعتيادك إيّاه يعود لذيذاً .

٩٣ ـ وُكِّلَ ثلاثٌ بثلاث : الرزق بالحمق ، والحرمان بالعقل ، والبلاء بالمنطق ؛ ليعلمَ ابنُ آدم أنْ ليسَ له مَن الأمر شىء .

٩٤ ـ ثلاثةٌ إن لم تَظْلِمهم ظلمُوك : عبدُك ، وزوجتُك ، وابنك .

وقد روينا هذه الكلمة لعُمر فيما تقدم[١] .

٩٥ ـ للمنافقين علاماتٌ يعرفون بها : تحيّتهُم لعنة ، وطعامهم نُهْبة ، وغنيمتهم غلول ، لا يعرفون المساجد إلّا هَجْرا ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبُرا[٢] ؛ مستكبرون لا يألفون ولا يُؤلَفون ، خُشُبٌ بالليل صُخُبٌ[٣] بالنهار .

---

(١) ا : « قدمناه » . (٢) دبرا ، أى فى آخر وقتها .

(٣) فى اللسان : وفى الحديث فى ذكر المنافقين « خشب بالليل ، صخب بالنهار ؛ أراد أنهم ينامون كأنهم خشب مطرحة » .

٩٦ - الحَسَدَ حُزْن لازمٌ ، وعَقْلٌ هائم ، ونفَسٌ دائم ؛ والنعمة على المحسودِ نعمة ، وهى على الحاسد نقمَة .

٩٧ - ياحملة العلم ، أتحملونه ! فإنما العِلِم لمن عَلِمَ ثم عَمِل ؛ ووافق عمله علمه ، وسيكون أقوامٌ يحملون العِلْم ، لا يجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتُهم علانيتَهم ، ويخالف عملهم عِلْمَهم ، يقعدون حلَقا ، فيباهى بعضُهم بعضا ؛ حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيرِه ؛ أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله سبحانه .

٩٨ - تعلّموا العلم صِغَاراً تسودُوا به كباراً ؛ تعلموا العلم ولو لغير الله ؛ فإنه سيصير لله . العلم ذَكَرٌ لايحبّه إلا ذَكَرٌ من الرجال .

٩٩ - ليس شىء أحسن من عَقْل زانَه علم ، ومِنْ عِلْمٍ زانه حِلْم ، ومن حِلْم زانه صِدْق ، ومن صدق زانه رفق ، ومن رفق تقوى . إنّ مِلاكَ العقل ومكارم الأخلاق صونُ العِرْض ، والجزاء بالفرض ، والأخذ بالفضل ، والوفاء بالعَهْد ، والإنجاز للوعد . ومَنْ حاول أمراً بالمعصية كان أقربَ إلى مايخاف ، وأبعد مما يرجو .

١٠٠ - إذا جَرت المقاديرُ بالمكارِه سبقت الآفة إلى العَقْل فحيّرته ، وأطلقت الألسن بما فيه تلف الأنفس .

١٠١ - لاتصحبوا الأشرار فإنهم يمنّون عليكم بالسّلامة مِنْهم .

١٠٢ - لاتقسِروا أولادكم على آدابكم ، فإنّهم مخلوقون لزمانٍ غير زمانكم .

١٠٣ - لاتطلب سرعة العمل واطلب تجويده ؛ فإنّ النّاس لايسألون فى كَمْ فَرَغ من العمل ، إنما يَسْأَلُون عن جودةِ صنعته .

١٠٤ - ليس كلُّ ذى عين يُبْصِر ، ولا كلّ ذى أُذُنٍ يَسْمَع ، فتصدَّقُوا على أولى العقول الزَّمِنة (١) ، والألباب الحائرة ؛ بالعلوم التى هى أفضل صدقاتِكم ، ثم تلا : ﴿إنَّ الَّذِينَ

---

(١) الزمانة : العاهة .

يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ (١) .

١٠٥ – مَنْ أَتَتْ عليه الأربعون من السِّنين قيل له : خذْ حذرَك من حلول المقدور فإنَّكَ غير معذورٍ ؛ وليس أبناء الأربعين بأحقَّ بالحذر من أبناء العشرين ؛ فإنَّ طالبَهما واحدٌ ، وليس عن الطلب براقدٍ ؛ وهو الموت ؛ فاعمل لما أمامك من الهَوْل ، ودع عنك زخرفَ القول .

١٠٦ – سُئِل عن القَدَر فقال : أُقصر أم أُطيل ؟ قيل : بل تُقصِر ، فقال : جلّ الله أن يُريدَ الفحشاء ، وعَزّ عن أن يكون له فى المُلْك إلا مايشاء .

١٠٧ – مَنْ علِم أنه يفارق الأحباب ، ويسكُن التُّراب ، ويواجِهُ الحساب ، ويستغنى عمّا ترك ، ويفتقر إلى ماقدّم ، كان حريّاً بِقصَر الأمل ، وطول العمل .

١٠٨ – المؤمن لا تختلُه كثْرة المصائِب ، وتَواتُر النَّوائِب عن التَّسليم لربِّه والرِّضَا بقضائه ، كالحمامة التى تُؤخذ فراخها من وكْرها ثم تعُود إليه .

١٠٩ – مامَاتَ مَنْ أحْيَا عِلماً ، ولا افْتقَر مَنْ مَلَك فَهماً .

١١٠ – العِلْم صِبْغ النفس ، وليس يفوق صِبْغ الشىء حتى يَنْظُف من كل دنَس .

١١١ – اعلم أنّ الذى مدحَك بما ليس فيك ، إنما هو مخاطِب غيرَك ، وثوابهُ وجزاؤهُ قد سقطا عنك .

١١٢ – إحسانك إلى الحرِّ يُحرِّكُهُ على المكافأةِ ، وإحسانُك إلى النَّذْلِ يَبْعثُهُ على مُعاوَدَة المَسْأَلة .

---

(١) سورة البقرة ١٥٩ .

١١٣ ـ الأَشرار يتتبَّعون مساوِئَ الناس ، ويتركون محاسنهم ؛ كما يتتبَّع الذُّبابُ المواضعَ الفاسدَةَ .

١١٤ ـ موت الرّؤساء أسهل من رياسة السَّفِلَة .

١١٥ ـ ينبغى لمن وَلِىَ أمرَ قومٍ أن يبدأ بتقويم نفسه قبل أن يشرع فى تقويم رعيَّته ؛ وإلا كان بمنزلة من رام استقامة ظِلِّ العُود قبل أن يستقيم ذَلِكَ العُود .

١١٦ ـ إذا قوىَ الوالى فى عمله حرّكَتْهُ ولايته على حسب ماهو مركوز فى طبْعه من الخير والشرّ .

١١٧ ـ ينبغى للوالى أن يعمل بخصالٍ ثلاث : تأْخيرِ العقوبة مِنهُ فى سلطان الغضب ، والأَناةِ فيما يرتئيه (١) من رأى ، وتعجيل مكافأة المحسن بالإحسانِ ؛ فإنّ فى تأخير العقوبة إمكانَ العفوِ ، وفى تعجيل المكافأةِ بالإحسان طاعةَ الرعيّة ، وفى الأَناة انفساحَ الرأى وحَمْدَ العاقبة وَوضُوحَ الصواب .

١١٨ ـ من حقّ العالم على المتعلّم ألّا يُكْثِرَ عليه السؤالَ ، ولا يُعَنِّتَهُ فى الجواب، ولا يُلِحّ عليه إذا كسل ، ولا يُفْشِىَ له سرًّا ، ولا يغتابَ عنده أحداً ، ولا يطلبَ عَثْرَتَهُ ، فإذا زلّ تأنَيْتَ أوْبتهُ (٢) ، وقَبِلْتَ معذرته ، وأنْ تعظِّمَهُ وتُوَقِّرَهُ ماحَفِظَ أمْرَ اللهِ وعظَّمه ، وألّا تجلس أمامَه ، وإن كانت له حاجةٌ سبقت غيرَك إلى خدمته فيها. ولا تضجرنّ من صحبتِهِ ؛فإنما هو بمنزلةِ النَّخْلة يُنتظَر متى يسقط عليك منها منفعةٌ .وخُصّه بالتَّحية ، واحفظ شاهَده وغائبه ؛ وليكن ذلك كُلّه لله عزّ وجلّ ، فإنّ العالِمَ أفضلُ من الصائم القائم المجاهد فى سبيل الله . وإذا مات العالم ثُلِمَ فى الإسلام ثُلْمةٌ لا يسدُّها إلّا خَلَفٌ منه . وطالبُ العلمِ تُشيِّعهُ الملائكة حتى يرجع .

---

(١) يرتئيه ، افتعال من الرأى ، أى فيما يفكر فيه ، وفى د : « يربيه » .

(٢) زل : عثر . وأوبته ، أى رجوعه إلى الحق .

١١٩ ـ وَصُولٌ مُعْدِمٌ خيرٌ من جافٍ[١] مُكْثِرٍ ، ومن أرادَ أنْ ينظر ماله عند الله فلينظر ماللهِ عنده .

١٢٠ ـ لقد سبق إلى جنّات عدن أقوامٌ ما كانوا أكْثَرَ الناسِ صلاةً ولا صياما ولا حجًّا ولا اعتماراً ؛ ولكن عَقَلُوا عن الله أمرَه فحسنت طاعتهم ، وصحّ ورعهم وكَمُلَ يقينُهُم ؛ ففاقوا غيرهم بالحُظْوَةِ وَرَفيعِ المنزلَة .

١٢١ ـ مامن عَبْدٍ إلّا ومعه ملَكٌ يقيه مالم يُقدَّرْ له ، فإذا جاء القدَرُ خلّاهُ وإياهُ .

١٢٢ ـ إنّ الله سبحانه أدّب نبيّهُ صلّى الله عليه وآله بقوله : ﴿ خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عَنِ الجاهلِينَ ﴾[٢] ، فلما علم أنه قد تأدّبَ ، قال له : ﴿ وَإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[٣]،فلما استحكم له من رسوله ما أحبّ قالَ: ﴿ وما آتاكُمُ الرّسُولُ فَخُذُوهُ ومانهاكُمْ عَنْهُ فانتَهُوا ﴾[٤] .

١٢٣ ـ كنت أنا والعبّاس وعمر نتذاكر المعروفَ،فقلت أنا : خير المعروفِ سَتْرُهُ، وقال العباسُ : خيرُهُ تصغيرُهُ ، وقال عمر : خيرُهُ تعجيلُهُ ، فخرج علينا رسول الله ، فقال : فيم أنتم ؟ فذَكرنا له ، فقال : خيرُهُ أن يكونَ هٰذا كلُّه فيه .

١٢٤ ـ العفوُ يفسد من اللئيم بقَدْرِ مايصلح من الكريم .

١٢٥ ـ إذا خَبُثَ الزّمانُ كَسَدَتِ الفضائلُ وضَرّتْ ، ونَفَقَتِ الرّذائلُ ونفعتْ ، وكانَ خوفُ الموسرِ أشدَّ من خوف المعسرِ .

١٢٦ ـ انظرْ إلى المُتَنصّحِ[٥] إليك ، فإن دخل منْ حَيْثُ يُضارُّ الناسَ فلا تقبل

---

(١) الوصول ، فعول ؛ من الصلة ، وهى العطية والجافى ضد الوصول .

(٢) سورة البقرة ٦٧ .

(٣) سورة القلم ٤٠ .

(٤) سورة الأعراف ١٩٩ .

(٥) المتنصح : المتشبه بالنصحاء .

نصيحته وتحرَّزْ منه ، وَإن دَخل من حيث العَدْلُ والصلاح فاقبلها منه .

١٢٧ ـ أعداء الرَّجل قد يكونون أنفعَ منْ إخوَانه ، لأنهمْ يهدون إليه عيوبه فيتجنّبها ويخاف شماتتهمْ به فيضبط نعمته ويتحرَّزُ من زوالها بغاية طوقه .

١٢٨ ـ المِرآةُ التى ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هى النّاس ، لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ، ومساويه من أعدائه فيهم .

١٢٩ ـ انظرْ وجهكَ كلّ وقت فى المِرآةِ ؛ فإن كان حسناً فاستقبح أن تضيف إليه فعلا قبيحاً وتشينه به ، وإن كان قبيحاً فاستقبح أن تجمع بين قُبْحيْن .

١٣٠ ـ موقع الصواب من الجهّال مثل موقع الخطأ من العلماء .

١٣١ ـ ذَكِّ قلبك بالأدب كما تُذَكَّى النار بالحطب .

١٣٢ ـ كفر النعمة لؤمٌ ، وصحبة الجاهل شؤمٌ .

١٣٣ ـ عاديت من ماريت .

١٣٤ ـ لاتصرمْ[1] أخاك على ارتياب ، ولا تقطعه دون استعتاب :

١٣٥ ـ خير المقال ماصدّقه الفعال .

١٣٦ ـ إذا لم ترزقْ غِنًى فلا تحْرَمَنَّ تقوى .

١٣٧ ـ مَنْ عرَفَ الدنيا لم يحزن للبلوى .

١٣٨ ـ دَعِ الكذِبَ تكرُّماً إن لمْ تدَعْهُ تأثُّماً .

١٣٩ ـ الدُّنيا طوّاحة طرّاحةٌ فضّاحَةٌ ، آسِيَةٌ جرّاحَةٌ .

١٤٠ ـ الدنيَا جمّةُ المصائب ، مُرَّةُ المشارب ، لاتُمتِّع صاحباً بصاحب .

١٤١ ـ المعتذر من غير ذنب ، يوجب على نفسه الذنب .

---

(١) لاتصرم : لاتقطع ، أى لاتهجره لمجرد التهمة ، غير متيقن تقصيره .

١٤٢ ـ من كسل لم يؤدِّ حقًا .

١٤٣ ـ كثرة الجدال تورثُ الشكَّ .

١٤٤ ـ خير القلوب أوعاها .

١٤٥ ـ الحياء لباس سابغٌ ، وحجابٌ مانعٌ ، وسِترٌ من المساوى ءُواقٍ ، وحليفٌ للدِّين ، وموجبٌ للمحبّة ، وعَيْنٌ كالئة تَذُودُ عنِ الفسادِ ، وتنهى عن الفحشاء . والعجلة فى الأمور مَكْسَبَةٌ للمذلّةِ ، وزمامٌ لِلنَّدامَةِ ، وسَلْبٌ للمُرُوءَةِ ، وشَيْنٌ لِلْحِجَى ؛ ودَليلٌ على ضَعف العقيدَةِ .

١٤٦ ـ إذا بلغ المرْء من الدُّنيا فوق قدْره تنَكَّرَتْ للناس أخلاقهُ .

١٤٧ ـ لاتصحب الشرِّيرَ فإنّ طبعك يَسْرِق من طبعه شرًّا وأنت لاتعلم .

١٤٨ ـ موتُ الصالح راحة لنفسه ، وموت الطالح راحة للناس .

١٤٩ ـ ينبغى للعاقل أنْ يتذكّر عند حلاوة الغذاء مرارة الدواء .

١٥٠ ـ إن حَسَدَكَ أخٌ من إخوانك على فضيلة ظهرَتْ منك فسعى فى مكروهك فلا تقابله بمثل ما كافحك به ، فتعذِر نفسه فى الإساءة إليك ، وَتشرع له طريقا إلى مايُحِبُّهُ فيك ؛ لكن اجتهِدْ فى التَزَيّدِ من تلك الفضيلة التى حَسَدك عليها ؛ فإنك تسوءهُ من غير أن تُوجدَهُ حجةً عليك .

١٥١ ـ إذا أردت أن تعرف طبع الرّجل فاستَشِرْهُ ، فإنك تقف من مشورته على عدله وجوْرِهِ ، وخَيْرِه وشرِّهِ .

١٥٢ ـ يَجبُ عَلَيْكَ أن تُشفِقَ على وَلدكَ أكثر من إشفاقه عليك .

١٥٣ ـ زمان الجائر من السلاطين والولاة أقْصَرُ من زمان العادلِ ، لأنَّ الجائر مفسِد ، والعادلَ مصلح ، وإفساد الشيء أسْرع من إصلاحه .

١٥٤ ـ إذا خدمتَ رئيسا فلا تَلْبَسْ مثلَ ثوبه ، ولا تركب مثل مَرْكوبه ، ولا تستخدم كخدمِه ، فعساك تسلم منه .

١٥٥ ـ لا تُحدِّثْ بالعلم السفهاء فيُكَذِّبوك ، ولا الجهال فيَسْتَثْقِلوكَ ، ولكن حدِّثْ بهِ مَنْ يتلَقّاهُ من أهله بقبولٍ وفَهمٍ يفهم عنكَ ما تقول ، ويكتم عليك ما يسمع ؛ فإن لعلمِك عليك حقًّا ؛ كما أنّ عليكَ فى مالك حقًّا : بَذلُهُ لمستحقه ، ومنْعُهُ عَنْ غير مستحقِّه .

١٥٦ ـ اليقين فوق الإيمان ، والصبر فَوْق الْيقينِ ؛ ومن أفرط رَجاؤه غلبت الأمانى على قلبه واستعبَدَتْهُ .

١٥٧ ـ إيَّاكَ وصاحب السوء ؛ فإنهُ كالسيف كالمسلول يروق منظَرُهُ ، ويقبح أثرُهُ .

١٥٨ ـ يابن آدم ، احْذرِ الموْت فى هذه الدّارِ قبل أن تصيرَ إلى دَارٍ تتمنّى الموتَ فيها فلَا تجِدُهُ .

١٥٩ ـ مَنْ أخطأه سهم المنيَّةِ قيَّدهُ الهرَمُ .

١٦٠ ـ من سَمِعَ بِفاحشةٍ فأبْدَاها كان كَمَنْ أتاها .

١٦١ ـ العاقل من اتّهمَ رأيَهُ ولمْ يثِقْ بِما سَوَّلَتْهُ له نفسُهُ .

١٦٢ ـ مَنْ سامح نفسه فيما يحبّ أتعبها فِيما لا يحبّ .

١٦٣ ـ كفى ما مضى مُخْبِراً عَمّا بَقِيَ ، وكفى عِبَراً لِذوى الألباب ما جرَّبُوا .

١٦٤ ـ أمرٌ لا تَدْرِى متى يغشاكَ ؛ ما يمنعك أن تستعدَّ له قبل أن يفجأك !

١٦٥ ـ ليس فى البرْق الخاطف مُسْتَمْتَع[١] لمن يخوض فى الظلمة .

١٦٦ ـ إذا أعجبكَ ما يَتَواصَفُهُ النَّاسُ مِنْ محاسِنِكَ ، فانْظُرْ فيما بطن من مَساوِئكَ ؛ ولتَكُنْ معرفَتُك بنفسِكَ أوثقَ عِندكَ مِنْ مَدْحِ المادِحين لك .

١٦٧ مَنْ مدحك بما ليس فِيكَ من الجميل وهُو رَاضٍ عنك ذَمَّك بما ليْسَ فِيكَ مِنَ القَبِيحِ وَهُوَ ساخِطٌ عليْكَ .

١٦٨ ـ إذا تشبَّه صاحِبُ الرياء بالمُخْلصِين فى الهيْئة كانَ مثْلَ الوارِمِ الّذى يوهِمُ النَّاسَ أنَّهُ سَمِينٌ ؛ فيظُنُّ النَّاس ذلِكَ فيـــهِ وَهُو يستر ما يَلْقى مِنَ الألَمِ التَّابع للوَرَمِ .

١٦٩ ـ إذا قويتْ نَفْس الإنْسانِ انقطَعَ إلى الرَّأى ، وَإِذ ضعفتْ انقطعَ إلى البَخْتِ .

١٧٠ ـ الرغبة إلى الكريم تُحرِّكُهُ على البذلِ ، وإلى الخسيسِ[٢] تغْريه بالمَنْعِ .

١٧١ ـ خيارُ النَّاسِ يَترَفَّعُون عنْ ذِكْر مَعايبِ النَّاسِ ، ويَتهمُون المُخْبِرَ بِهـــا ، ويأثُرُونَ[٣] الفَضائل ، ويَتَعَصَّبُونَ لأهْلِها، وَيستعرضُونَ مآثِرَ الرُّؤَساء، وإفضالَهمْ عليهم ، ويُطالِبُون أنفسهمْ بالمكافأةِ عليها وَحُسْنِ الرِّعايةِ لها .

١٧٢ ـ لِكلِّ شىْء قُوتٌ ، وأنتم قوتُ الهوامِّ ؛ ومَنْ مشى على ظهر الأرضِ فإنَّ مصيرَهُ إلى بطنها .

١٧٣ ـ منْ كرم المرْء بكاؤُهُ على ما مضى مِنْ زَمانِهِ ، وحنينُهُ إلى أوْطانه ، وحفظُهُ قديمَ إخْوانِهِ .

---

(١) مستمتع : موضع متعة .

(٢) الخسيس : اللئيم البعيد عن مكارم الأخلاق .

(٣) يأثرون الفضائل : يستأثرون بها .

١٧٤ ـ وَمِنْ دُعائِه : اللّهُمَّ إنْ كُنَّا قد قصَّرْنا عن بلُوغِ طاعتِك فقدْ تمسَّكْنا مِنَ طاعتكَ بأَحبِّها إليكَ ، لَا إلهَ إلَّا أنْتَ جاءَتْ بالحقِّ مِنْ عِنْدَكَ .

١٧٥ ـ أصابَتِ الدُّنْيَا مَنْ أَمِنَها وأصابَ الدُّنْيَا مَنْ حَذِرَها .

١٧٦ ـ وَوَقَفَ على قَوْمٍ أُصِيبُوا بمصيبةٍ ، فقال : إنْ تجْزَعُوا فَحَقَّ الرَّحِم بلغتُمْ ، وإنْ تَصْبِرُوا فَحَقَّ اللهِ أَدَّيتُمْ .

١٧٧ ـ مَكارِمُ الأَخْلَاقِ عَشْرُ خِصالٍ : السّخاء ، والحياء ، والصِّدْقُ ، وأداء الأَمانةِ ، والتَّوَاضعُ ، والغَيْرةُ ، والشجاعَةُ ، والحِلْمُ ، والصَّبْرُ ، والشكرُ .

١٧٨ ـ منْ أداءِ الأمانةِ المكافأةُ على الصَّنِيعةِ لأنها كالوَدِيعةِ عِنْدَكَ .

١٧٩ ـ الخيِّرُ النَّفْسِ تَكُونُ الحرَكَةُ فى الخيْرِ عَلَيْهِ سَهلةً مُتيسرةً ، والحرَكَةُ فى الإِضْرارِ عَسِرةً بطيئةً ، والشِّرِّيرُ بالضدِّ مِنْ ذَلكَ .

١٨٠ ـ البُخَلاء مِنَ النَّاسِ يكُونُ تغافلهمْ عنْ عظيم الجرْمِ أسْهلَ عليهمْ منَ المكافأةِ على يَسِيرِ الإحْسان .

١٨١ ـ مثلُ الإنسانِ الحصيف [1] مثلُ الجسمِ الصلْبِ الكثِيف ، يَسْخُنُ بطيئاً ، وتبرُدُ تلكَ السُّخونَةُ بأطوَلَ مِنْ ذَلكَ الزَّمانِ .

١٨٢ ـ ثلاثةٌ يُرْحَمُونَ : عاقِلٌ يجرى عليْه حُكْمُ جاهلٍ ، وضعيفٌ فى يدِ ظالِمٍ قوىّ ، وكَرِيمُ قَوْمٍ احْتاجَ إلى لئيم .

١٨٣ ـ منْ صحبَ السلطانَ وجبَ أنْ يكُونَ معهُ كرَاكبِ البحْرِ ، إنْ سَلِمَ بجسْمه منَ الغرَقِ لمْ يسلم بقلبهمن الفرَقِ [2] .

---

(١) الحصيف : المتمكن من نفسه ، المستحكم عقله .
(٢) الفرق : الخوف .

١٨٤ ـ لا تقبلنَّ فى استعمالِ عمّاً لكَ وأمرائكَ شفاعةً إلاّ شفاعةَ الكفايةِ والأمانةِ .

١٨٥ ـ إذا استشارَكَ عدوُّكَ فجرِّدْ لهُ النصيحةَ ، لِأنه باستشارتك قدْ خرجَ منْ عدواتك ودخل فى مودّتكَ .

١٨٦ ـ العدلُ صورةٌ واحدةٌ ، والجوْرُ صورٌ كثيرةٌ ؛ ولهذا سهلَ ارتكابُ الجوْرِ وصعبَ تحرِّى العدلِ ؛ وهما يشبهانِ الإصابةَ فى الرِّمايةِ والخطأَ فيها ؛ وإن الأصابةَ تحتاجُ إلى ارْتياضٍ (١) وتعهّدٍ ، والخطأُ لا يحتاجُ إلى شيء منْ ذلكَ .

١٨٧ ـ لا يُخْطِئُ المخلصُ فى الدعاءِ إحْدَى ثلاث : ذنبٌ يغفرُ ، أو خيرٌ يُعجّلُ ، أو شرٌّ يؤجّلُ .

١٨٨ ـ لا ينتصفُ ثلاثةٌ منْ ثلاثةٍ : برٌّ من فاجرٍ ، وعاقلٌ منْ جاهلٍ ، وكريمٌ من لئيمٍ .

١٨٩ ـ أشرفُ الملوكِ منْ لم يخالطهُ البطرُ . ولمْ يَحُلْ عن الحقِّ ، وأغنى الأغنياء من لمْ يكُنْ للحرْص أسيراً ، وخيرُ الأصدقاء منْ لم يكنْ على إخوَانهِ مستصعباً ، وخيرُ الأخلاق أعونها على التُّقَى والورَع .

١٩٠ ـ أربع القليل منهن كثير : النار ، والعداوة ، والمرض ، والفقر .

١٩١ ـ أربعة من الشقاء : جارُ السوءِ ، وولد السوءِ ، وامْرأةُ السوءِ ، والمنزلُ الضيِّقُ .

١٩٢ ـ أربعة تدعو إلى الجنّةِ : كتمان المصيبةِ ، وَكِتمانُ الصدقةِ ، وبرُّ الوالدينِ ، والإكثار من قول لا إله إلّا الله .

---

(١) ارتياض : مران .

١٩٣ ـ لا تصحبِ الجاهلَ ؛ فإنّ فيه خصالا ، فاعرفوه بها : يغضب من غير غضب ، ويتكلّم فى غير نفعٍ ، ويُعطى فى غير موضعِ الإعطاء ، ولا يعرف صديقه من عدوّه ، ويفشى سرّه إلى كلّ أحدٍ .

١٩٤ ـ إيّاك ومواقفَ الاعتذارِ ؛ فرُبَّ عذرٍ أثبت الحجّة على صاحبه وإن كان بريئاً .

١٩٥ ـ الصراطُ ميدانٌ يكثُرُ فيه العثارُ ؛ فالسالم ناجٍ ، والعاثرُ هالكٌ .

١٩٦ ـ لا يعرفُ الفضلَ لأهل الفضل إلا أولو الفضل .

١٩٧ ـ إنّ لله عباداً فى الأرض كأنما رأوا أهلَ الجنةِ فى جنّتهم وأهلَ النار فى نارهم : اليقين وأنواره لامعةٌ على وجوههم . قلوبهم محزونة ، وشرورُهم مأمونةٌ ، وأنفسهم عفيفةٌ ، وحوائجهم خفيفةٌ ؛ صبروا أياماً قليلةً لراحةٍ طويلة ؛ أما الليل فصافُّون أقدامَهم[1] ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يجْأرون[2] إلى الله سبحانه بأدعيتهم ، قد حلا فى أفواههم ، وحلا فى قلوبهم طعمُ مناجاته ولذيذ الخلوة به ؛ قد أقسم الله على نفسه بجلال عزته ليُورثنّهم المقام الأعلى فى مقعد صدق عنده ، وأما نهارهم فحلماء علماء ، بررة ، أتقياء ، كالقِداح ينظر إليهم الناظر فيقول : مرضى ؛ وما بالقوم من مرضٍ ، أوْ يقول : قد خُولطوا ؛ ولعمرى لقد خالطهم أمر عظيم جليل .

١٩٨ ـ عاتبه عثمان فأكثر وهو ساكت ، فقال : مالك لا تقولُ ! قال : إن قلت لم أقل إلا ماتكره ، وليس لك عندى إلا ماتحبّ .

١٩٩ ـ بُليتُ فى حربِ الجمل بأشدّ الخلقِ شجاعةً ، وأكثرِ الخلقِ ثروةً وبذلاً ، وأعظمِ الخلق فى الخلق طاعةً ، وأوفى الخلق كيدا وتكثُّراً[3] ؛ بُليتُ بالزبير ، لم يردَّ وجهه قطّ ،

---

(١) صافون أقدامهم ، كناية عن كونهم مصلين . (٢) جأر الرجل إلى الله : تضرع .
(٣) ا : « وتكبراً » .

وبيعلى بن منية يحمل المال على الإبل الكثيرة ويعطى كلّ رجل ثلاثين دينارا وفرساً على أنْ يقاتلنى ، وبعائشةَ ماقالت قطّ بيدها هكذا إلا واتّبعها الناس ، وبطلحة لا يدرَكُ غوره [1] ، ولا يُطال مكره .

٢٠٠ ـ بعث عثمان بن حُنيف إلى طلحة والزبير ، فعاد فقال : يا أميرَ المؤمنين ، جئتك بالخيبةِ ، فقال : كلاّ ! أصبت خيراً وأُجرت ، ثم قال : إن من العجب انقيادهما لأبى بكر وعمر وخلافهما علىّ ؛ أما والله إنهما ليعلمان أنى لستُ بدون واحدٍ منهما ، اللهم عليك بهما .

٢٠١ ـ الرّزق مقسومٌ ، والأيامُ دُوَلٌ ، والناسُ شرَعٌ [2] سواء ؛ آدم أبوهم ، وحوّاء أمهم .

٢٠٢ ـ قوتُ الأجسام الغذاء ، وقوت العقول الحكمة ، فمتى فقدَ واحد منهما قوّته بار واضمحلّ .

٢٠٣ ـ الصبر على مشقة العباد [3] يترقى بك إلى شرف الفوز الأكبر .

٢٠٤ ـ الرُّوحُ حياة البدن والعقل حياة الروح .

٢٠٥ ـ حقيق بالإنسان [4] أن يخشى الله بالغيب ، ويحرس نفسه من العيب ، ويزداد خيراً مع الشّيب .

٢٠٦ ـ أفضلُ الوُلاة من بقىَ بالعدل ذكره ، واستمده من يأتى بعده .

٢٠٧ ـ قدّم العدل على البطش تظفر بالمحبّة ، ولا تستعمل الفعل حيث ينجعُ [5] القول .

---

(١) يقال : بئر لا يدرك غورها ؛ إذا كانت عميقة جداً ، والمراد هنا أنه لا يعرف ما فى أطواء نفسه .
(٢) شرع ، أى متساوون (٣) د : « العبادة » .
(٤) ب : « الاحسان » : تحريف . (٥) ينجع : ينفع .

٢٠٨ ـ البخيلُ يسخو من عِرضه بمقدار مايبخل به من ماله ، والسخىُّ يبخل من عِرضه بمقدار مايسخو به من ماله .

٢٠٩ ـ فُضِّلَ العقلُ على الهوى ، لأنّ العقل يُملِّكُكَ الزمان ، والهوى يستعبدك للزّمان .

٢١٠ ـ كلُّ ما حملت عليه الحرَّ احتمله ، ورآه زيادة فى شرفه ، إلا ماحطه جزءا[1] من حريته ، فإنه يأباه ولا يجيب إليه .

٢١١ ـ إذا منعكَ اللئيمُ البرّ مع إعظامه حقك ، كان أحسن من بذل السخىّ لك إياه مع الاستخفاف بك

٢١٢ ـ الملكُ كالنهر العظيم ، تستمدُّ منه الجداول ؛ فإنْ كان عذباً عذُبتْ ، وإنْ كان ملْحاً مَلحتْ .

٢١٣ ـ الفرق بين السخاء والتبذيرِ أنّ السخىّ يسمح بما يعرف مقداره ومقدار الرغبة فيه إليه ، ويضعه بحيث يحسن وضعه ، وتزكو عارفته ، والمُبذِّر يسمح بما لايوازنُ به رغبة الراغب ، ولا حقّ القاصد ؛ ولا مقدار ما أولى ، ويستفزُّه[2] لذلك خطرةٌ من خطراته ، والتصدّى لإطراء مُطْرٍ له بينهما بونٌ بعيد .

٢١٤ ـ لا تُلاجِّ الغضبان ؛ فإنّك تقلقه[3] باللّجاج ، ولا تردّه إلى الصواب .

٢١٥ ـ لاتفرح بسقطة غيرك ، فإنك لاتدرى ماتتصرّف الأيام بك !

٢١٦ ـ قليل العلم إذا وقر فى القلب كالطّلّ يصيب الأرض المطمئنّة فتعشب .

٢١٧ ـ مثلُ المؤمنِ الذى يقرأُ القرآن كمثل الأترُجّةِ ريحُها طيّب ، وطعمُها

---

(١) ب : « جزاء » .
(٢) استفزه : أخرجه .
(٣) تقلقه : تحركه .

طيّب ؛ ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن كمثل الريحانة ، ريحها طيّب وطعمها مُرٌّ ، ومثل الفاجرِ الذى لايقرأ القرآن مثلُ الحنظلة طعمها مُرٌّ ولا ريح لها .

٢١٨ ـ المؤمن إذا نظر اعتبر ، وإذا سكتَ تفكَّرَ ، وإذا تكلم ذكَرَ ، وإذا استغنى شكر ، وإذا أصابته شدّة صبر ، فهو قريب الرّضا ، بعيد السخط ؛ يرضيه عن الله اليسير ، ولا يسخطه البلاء الكثير ؛ قوّته لاتبلغ به ، ونيّته تبلغ ، مغموسة فى الخير يدهُ ، ينوى كثيراً منَ الخيرِ ، ويعملُ بطائفةٍ منهُ ، ويتلهفُ على ما فاته منَ الخيرِ كيف لم يعمل بهِ !

والمنافقُ إذا نظرَ لها ، وإذا سكتَ سهاَ ، وإذا تكلّمَ لغا ، وإذا أصابهُ شِدّةٌ شكا ؛ فهوَ قريبُ السخطِ بعيدُ الرّضا ، يُسْخطه على اللهِ اليسيرُ ، ولا يُرْضيهِ الكثيرُ ، قُوّتُه تبلُغُ ، ونيّتُهُ لا تبلغُ ، مغموسةٌ فى الشرّ يدُهُ ، ينوى كثيراً منَ الشّرِّ ، ويعملُ بطائفةٍ منه فيتلهفُ على مافاتَهُ منَ الشّرِّ كيفَ لم يأمُرْ بهِ ، وكيفَ لم يعملْ به !

على لِسانِ المؤمنِ نورٌ يسطعُ ، وعلى لِسانِ المنافقِ شيطانٌ ينطِقُ .

٢١٩ ـ سوء الظنّ يَدوى [١] القلوبَ ، ويَتّهِمُ المأمونَ ، ويوحِشُ المستأنسَ ، وَيُغيّرُ مودّةَ الإخوانِ .

٢٢٠ ـ إذا لم يكن فى الدُّنيا إلا محتاجٌ فأغنى الناسِ أقنعهُمْ بما رُزِق .

٢٢١ ـ قيل لهُ : إنّ دِرعَكَ صدرٌ لا ظَهْرَ لها ، إنّا نخاف أنْ تؤْتَى منْ قِبَلَ ظَهْرِكِ ، فقالَ :

إذا وَلّيْتُ فلا وَاءلْتُ [٢] .

٢٢٢ ـ أشدُّ الأشياءِ الإنسانُ ، لأنّ أشدّها ـ فيما يُرَى ـ الجَبَلُ ، والحديد

---

(١) يدوى : يصيبه بالداء . والدوى : المرض ؛ وأدويته : أمرضته .
(٢) واءل : خلص ونجا .

ينحتُ الجبل ، والنّار تأكل الحديدَ ، والماء يُطْفِى النّارَ ، والسحاب يَحْمِل الماء ، والرِّيحُ يُفرِّقُ السحابَ ، والإنسانُ يَتّقى منَ الرِّيحِ .

٢٢٣ ـ إنّما الناسُ فى نَفَسٍ معــدودٍ ، وأمَلٍ ممدودٍ ، وأجَلٍ محدودٍ ، فلابُدَّ للأجلِ أنْ يتناهى ، ولِلنَّفَسِ أنْ يُحصَى ، ولِلأَمَل أنْ يَنقَضِىَ ، ثم قرَأَ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (١) .

٢٢٤ ـ اللهُمَّ لاتجعل الدُّنيا لى سِجْناً ، ولا فراقَها عَلَىَّ حُزْناً ؛ أعوذُ بِكَ منْ دُنْيا تحرِمُنى الآخرةَ ، ومِنْ أمَلٍ يحرِمُنِى العملَ ، ومِنْ حياةٍ تحْرِمُنِى خيرَ المماتِ .

٢٢٥ ـ تعَطَّرُوا بالاستِغفارِ لاتفضحكُمْ رائحةُ الذنوبِ .

٢٢٦ ـ لِلنَّكباتِ غاياتٌ تنتهى إليها ، ودَواؤها الصبرُ عنها وتَرْكُ الحيلةِ فى إزالتِها؛ فإنَّ الحيلةَ فى إزالتِها قَبلَ انقِضاء مدّتِها سببٌ لزيادتِها .

٢٢٧ ـ لايَرْضى عنك الحاسِدُ حتى يموت أحدكما .

٢٢٨ ـ لايكُون الرّجلُ سيِّدَ قومِهِ حتى لايُبالى أى ثوْبَيْهِ لَبِس !

٢٢٩ ـ كتب إلى عامِلٍ له : اعمل بالحق ليوم لايُقْضَى فيه إلا بالحقِّ .

٢٣٠ ـ نظر إلى رجلٍ يغتابُ آخرَ عِند ابنه الحسن ، فقال : يابُنيَّ نزِّه سمعك عنه؛ فإنه نظر إلى أخْبث مافى وعائهِ فأفرغهُ فى وعائك .

٢٣١ ـ احذروا الكلامَ فى مجالس الخوف ، فإنَّ الخوفَ يُذْهِلُ العقل الذى منه نستمد ، ويشغلُهُ بحراسة النفس عن حراسة المذهب الذى نرُوم نُصرته . واحذر الغضبَ ممن يحمِلُكَ عليه ؛ فإنهُ مميتٌ للخواطِرِ (٢) ، مانعٌ مِن التثبُّت . واحذر مَن تبغِضهُ فإن بغضك له يدعوك إلى الضجرِ به ؛ وقليلُ الغَضَب كثير فى أذَى النفس والعقل ، والضجرُ مضيِّقٌ

---

(١) سورة الانفطار ١٠ ، ١١

(٢) الخواطر جمع خاطر ؛ وهو مايخطر ببالك

لِلصَّدر، مُضعفٌ لقُوَى العقل؛ واحْذرِ المحافل التى لا إنْصاف لأهلها فى التسوية بينك وبين خصمك فى الإقبال والاستماع، ولا أدب لهمْ يمنعهم من جَوْرِ الحُكم لك وعليك. واحذر حين تظهرُ العصبية لخصمك بالاعْتراض عَليك وتشييد قَوْله[1] وحجته، فإنّ ذَلك يهيجُ العصبيّة، والاعتراضُ على هذا الوجهِ يخلِق الكلام، ويُذْهِبُ بهجة المعانى. واحذر كلام من لايفهمُ عنك فإنه يُضْجِرك؛ واحذر اسْتصغار الخصم فإنه يمنع من التحفُّظِ؛ ورُبَّ صغير غاب كبيراً!

٢٣٢ ـ لاتقبلِ الرياسةَ على أهلِ مدينتكَ؛ فإنهم لايستقيمونَ لكَ إلا بما تخرج به من شرطِ الرئيس الفاضل.

٢٣٣ ـ لاتهزأْ بخطأ غيرك؛ فإن المنطق لايمْلكهُ، وأقْلِلْ من الخطأ الّذى أنت فيه بقدرِ الصبرِ، واجْعل العقل والحقَّ إماميك تنَل البغية بِهما.

٢٣٤ ـ الرّأى يرِيك غاية الأمر مَبدأهُ.

٢٣٥ ـ الخيِّرُ من الناس مَن قدر على أن يُصرِّف نفسه كما يشاء ويدفعها عن الشُّرُورِ، والشرّير من لم يكن كذلك.

٢٣٦ ـ السُّلْطان الفاضل هو الذى يَحْرُس الفَضائل، ويجود بها لمن دونه، ويرعاها من خاصّته وعامته؛ حتى تكثر فى أيّامه، ويتحسن بها من لم تكن فيه.

٢٣٧ ـ لِلْكَرِيم رباطان: أحَدُهما الرعاية لصديقه وذوى الحرمَة به، والآخر الوفاء لمن ألزمه الفضل ما يجب له عليه.

٢٣٨ ـ إذا تحرّكتْ صورة الشّرِّ ولم تظهر ولّدت الفَزَع؛ فإذا ظهرت وَلّدت الألم؛ وإذا تحرّكت صورة الخير ولم تظهر وَلدت الفرج، فإذا ظهرت وَلّدَت اللّذة.

---

(١) قوله: « وتشييد قوله » أى تحصينها وصونها عن تطرق الخلل إليها، وأصل التشييد طلاء الحائط بالجص والطين لئلا يبقى به ثقب.

٢٣٩ ـ الفرقُ بين الاقتصادِ والبُخْل، أنّ الاقتصادَ تمسُّكُ الإنسان بما فى يدِه خوفاً على حريَّتِه وجاهه من المسألة ؛ فهو يضع الشىء موضعه ، ويصبر عمّا لا تدعو ضرورةٌ إليه ، ويصل صغير برِّه بعظيم بِشْره ؛ ولا يستكثر مِن المودات خوفاً من فرط الإجْحاف به ، والبخيل لا يكافئُ على ما يسدَى إليه ، ويمنع أيْضاً اليَسير من استحَقَّ الكثير ، ويصبر لصغير ما يجرى عليه على كثيرٍ من الذِّلة .

٢٤٠ ـ لا تحتقرنّ صغيراً يمكن أن يكبر ، ولا قليلا يمكن أنْ يكثر .

٢٤١ ـ ما زلتُ مظلوماً مُنذ قَبض الله نبيهُ حتى يوم الناس هذا ؛ ولقد كنت أظلم قبل ظهور الإسلام ؛ ولقد كان أخى عَقيلٌ يذْنبُ أخى جعْفَر فيضْربُني .

٢٤٢ ـ لو كُسِرتْ لى الوسادة لقضيت بين أهل التوراةِ بتوراتهم ، وبينَ أهلِ الإنجيل بإنجيلهم ؛ وبين أهلِ الفرقان بفرقانهم ؛ حتى تُزْهِر(١) تِلْك القضايا إلى اللهِ عَزّ وَجَلّ وتقول : يارب ؛ إن علياً قضى بين خلقك بقضائك .

٢٤٣ ـ مَرّ بدارٍ بالكوفة فى مُرادٍ تبنَى فوقعت مِنها شَظِيَّةٌ (٢) على صَلْعَتِهِ فأدمتها ، فقال : ما يومى من مُرادٍ بواحِدٍ ! اللّهُمّ لا ترفعها ، قالوا : فواللهِ لقدْ رأينا تلك الدار بين الدور كالشاة الجمّاء(٣) بين الغنم ذوات القرُون .

٢٤٤ ـ أقتلُ الأشياء لعدوك ألاّ تُعرِّفَهُ أنك اتخذته عدوًّا .

٢٤٥ ـ الخيرَةُ فى ترْكِ الطِّيرَةِ .

٢٤٦ ـ قيل له فى بعض الحروب : إن جالت الخيلُ أين نطلُبُك ؟ قال : حَيْثُ تركتمونى .

٢٤٧ ـ شَفيعُ المُذْنب إقراره ، وتوبتهُ اعْتِذاره .

---

(١) تزهر : تضىء وتتلألأ .

(٢) الشظية : الفلقة من العصا .

(٣) شاة جماء : لا قرون لها .

٢٤٨ - قصمَ ظهرى رجلان : جاهل متنسِّكٌ(١) وعالمٌ متهتِّكٌ .

٢٤٩ - ألا أخبركم بذات نفسى ! أما الحسن ففتًى من الفتيان ، وصاحبُ جفنةٍ وخوان ؛ ولَوْ التقت حلقتا البِطان(٢) لم يغن عنكم فى الحرب غناء عُصْفورٍ ، وأمَّا عبدُاللهِ بن جعفر فصاحبُ لهو وظلّ باطل ، وأمَّا أنا والحُسيْنُ فنحن منكم وأنتم منا .

٢٥٠ - قال فى المنبَرِيَّةِ : صار ثُمُنُها تُسْعاً على البَدِيهة(٣) وهذا من العجائب .

٢٥١ - جاء الأشعثُ إليه وهو على المنبرِ ، فجعل يتخطّى رِقاب النَّاس حتى قَرُبَ مِنه ثمّ قال : يا أميرَ المُؤمنين ، غلبتنا هذه الحمراء على قُرْبِكَ - يعنى العجم - فركض المنبر برِجله ، حتى قال صَعْصَعةُ بنُ صُوحان : مالنا وللأَشعث ! ليقولَنَّ أمير المُؤمنين عليه السلام اليوم فى العربِ قولا لا يزالُ يُذْكرُ ؛ فقال عليه السلامُ : مَنْ يعذرُنى من هؤلاء الضياطرة ! يتمرَّغُ أحدهم على فراشه تمرُّغ الحمـــار(٤) ، ويَهْجُر قوماً للذكر ؛ أفتأمُرُونني أن أطردهم ! ما كنت لِأطردهم فأكون مِن الجاهلين ! أما والذى فلق الحبّة ، وبرأ النَّسمة ، ليضرِبُنَّكُمْ على الدين عَوْداً كما ضربتُمُوهم عليه بَدْءا .

٢٥٢ - كان إذا رأى ابنَ مُلْجَمٍ يقول : أُرِيدُ حَياتَه(٥)... البيت ؛ فيقالُ لهُ : فاقتُله ، فيقولُ : كيف أقتلُ قاتلى !

٢٥٣ - إلٰهى ما قدر ذُنُوبٍ أُقابلُ بها كرمَك ، وماقَدْرُ عِبادةٍ أقابل بها نِعمك! وإنى لأرجو أن تَستغرق ذُنوبى فى كرمِك ، كما استغرقتَ أعمالى فى نِعمك .

---

(١) المتنسك : متكلف النسك والتقوى .

(٢) التقت حلقتا البطان : مثل ؛ والبطان : الحزام الذى يجعل تحت بطن البعير ، فإذا التقت حلقتاه دل على اضطراب العقدوانحلالها .

(٣) المنبرية : إشارة إلى مسألة من مسائل الميراث .

(٤) الضيطر : الرجل الفخم الذى لا غناء عنده ، وجمعه ضياطرة .

(٥) يشير إلى قول عمرو بن معديكرب :

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ من خليلك من مراد

٢٥٤ ـ إذا غضب الكريمُ فألِنْ له الكلام ، وإذا غضب اللئيمُ فخذ له العصا .

٢٥٥ ـ غضب العاقل فى فعلِهِ ، وغضب الجاهل فى قولِهِ .

٢٥٦ ـ رأى رَجلاً يُحدِّث مُنكر الحديث ، فقال : يا هذا ، أنصف أذُنيك مِن فمك ؛ فإنما جعل الأذنان اثنتين ، والفم واحداً ، لتسمع أكثر ممَّا تقول .

٢٥٧ ـ إيَّاك وكثرة الاعتذار ؛ فإن الكذب كثيراً ما يُخالِطُ المعاذير .

٢٥٨ ـ اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على مَنْ شكرك .

٢٥٩ ـ سلْ مَسْأَلَةَ الحمقى(١) واحفظ حفظ الأكياس .

٢٦٠ ـ مرُوا الأحداثَ بالمراء والجِدَال ، والكهُولَ بالفكرِ ، والشيوخَ بالصْمتِ .

٢٦١ ـ عوِّدْ نفسكَ الصبْر على جليس السوء ؛ فليْسَ يكادُ يخطئكَ .

٢٦٢ ـ يا بنىَّ إنَّ الشَّرَّ تارِكُكَ إنْ تركْتَهُ .

٢٦٣ ـ لا تطلبوا الحاجَة إلى ثلاثة : إلى الكَذُوبِ ، فإنهُ يقرِّبُها وإن كانت بعيدةً ، ولا إلى أحمقَ ؛ فإنه يريدُ أن ينفعك فيضرُّك ، ولا إلى رجل له إلى صاحب الحاجة حاجةً ؛ فإنهُ يجعلُ حاجتكَ وقايةً لحاجته .

٢٦٤ ـ إياك وصدرَ المجلسِ فإنهُ مَجلسُ قُلْعةٍ(٢) .

٢٦٥ ـ احذرُوا صوْلة الكريم إذا جاع ، وصوْلة اللئيم إذا شبعَ .

٢٦٦ ـ سرُّكَ دمكَ فلا تُجْرِيَنه إلَّا فى أوْدَاجك .

٢٦٧ ـ وسُئل عنِ الفرق بين الغمِّ والخوْفِ ، فقال : الخوفُ مجاهدةُ الأمرِ المخوفِ قبل وُقُوعِهِ ، والغمُّ ما يلحقُ الإنسانَ من وقوعه .

---

(١) الحمق : ضعف العقل

(٢) مجلس قلعة ؛ إذا كان صاحبه يحتاج إلى القيام .

٢٦٨ ـ المعْروف كنز فانظرْ عند من تودعهُ .

٢٦٩ ـ إذا أرْسِلت لبعْر فلا تأْت بتمرٍ فيؤكلُ تمرُكِ وتعنف على خلافك[1] .

٢٧٠ ـ إذا وقع فى يدِكِ يوْمُ السُّرُورِ فلا تخلّه فإنّك إذا وقعت فى يدِ يومِ الغم لمْ يُخلكِ .

٢٧١ ـ إذا أردْت أنْ تصادقَ رجلا فانظرْ : من عدوُّه ؟

٢٧٢ ـ الانقباضُ من النّاس مكْسبةٌ للعداوَةِ ، والانبساطُ مجلبةٌ لقرين السوء ؛ فكن بيْن المنقبض والمسترْسل ، فإن خيْر الأمور أوساطها .

٢٧٣ ـ أنا عبد اللهِ ، وأخو رسولِ الله ؛ لا يقولها بعْدِي إلَّا كذّابٌ .

٢٧٤ ـ أخذ رسولُ الله صلّى الله عليه وآله بيدِي فهزّها ، وقالَ : ما أوّلُ نعمةٍ أنعمَ اللهُ بها عليك ؟ قلتُ : أنْ خلقنى حيًّا ، وأقْدرَنى ، وأ كمل حواسّى ومشاعرى وقوَاى ، قال : ثم ماذا ؟ قلتُ : أن جعلنى ذَ كراً ، ولم يجعلنى أنثى ، قالَ والثّالثةُ : قلت : أنْ هدانى للإسلام ، قال : والرابعة ؟ قلت : ﴿ وإن تعـدُّوا نعمة الله لا تحْصُوها ﴾[2] .

٢٧٥ ـ اللهم إنى أسألكَ إخْباتَ المخبتين ، وإخلاص الموقنين ، ومرافقة الأبْرار ، والعزيمةَ فى كلِّ برٍّ ، والسلامة منْ كلِّ إثم ، والفوْز بالجنّةِ ، والنجاةَ من النارِ .

٢٧٦ ـ لما ضربه ابن ملجم وأوْصى ابنيه بما أوصاهما قالَ لابن الحنفيّة : هل فهمت ما أوصيتُ به أخويك ؟ قال : نعمْ ، قال : فإنى أوصيكَ بمثله وبتوقيرِ أخويك ، واتباع أمرهما ، وألّا تبرم أمراً دونهما ، ثم قال لهما : أوصيكما بهِ فإنهُ شقيقكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبّهُ فأحِبّاهُ .

٢٧٧ ـ أمّا هـذا الأعور ـ يعنى الأشعث ـ فإن اللهَ لم يرفعْ شرَفًا إلّا حسـده ، ولا أظهرَ فضلاً إلا عابهُ وهوَ يُمنّى نفسهُ ويخدعها ، يخافُ ويرجو ، فهوَ بينهما لا يثقُ

(١) هذه الحكمة ساقطة من ب ، وأثبتها من ا ، د (٢) سورة النحل ١٨

بواحدٍ منهما ، وقدْ منَّ اللهُ عليـه بأن جعلَهُ جباناً ، ولو كانَ شجاعاً لقتلهُ الحقُّ ، وأمّا هذا الأكثفُ عندَ الجاهليّةِ — يعنى جَرِيرَ بن عبد الله البَجَلِيَّ — فهو يرى كلَّ أحَدٍ دونَهُ ، ويستصغرُ كُلَّ أحَدٍ ويحتقرُهُ، قد مُلِئَ ناراً ، وهُوَ مع ذلك يطلبُ رئاسةً ، ويَرُومُ إمارةً ، وهـذا الأعورُ يُغْويه ويُطْغيه ، إن حدَّثَهُ كَذَبَهُ ، وإن قامَ دُونَهُ نَـكَصَ عنهُ ، فهما كالشيطانِ إذ قالَ للإنسانِ : اكفرْ فلمّا كَفرَ قالَ إنِّى برِىءٌ منكَ إنِّى أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ .

٢٧٨ — بُلوغُ أعْلَى المنازِلِ بغيرِ استحقاقٍ منْ أكبرِ أسبابِ الهلَـكةِ .

٢٧٩ — الـكلمةُ إذا خرجتْ منَ القلبِ وقعتْ فى القلبِ ، وإذا خَرَجتْ منَ اللسانِ لم تجاوزِ الآذانَ .

٢٨٠ — الـكرمُ حسنُ الفِطْنةِ ، واللؤمُ سوءُ التّغافلِ .

٢٨١ — أسْوأُ النّاسِ حالًا من اتّسَعَتْ معرفتـه ، وبَعُـدَتْ هِمّتُـهُ ، وضاقَتْ قُدْرَتُهُ (١) .

٢٨٢ — أمران لا ينفـكّان مِن الـكَذِب : كثْرَةُ المواعيدِ ، وشدَّةُ الاعتذارِ .

٢٨٣ — عادةُ النَّوْكَى (٢) الجلوسُ فوق القدْرِ ، والمجىءُ فى غيرِ الوقتِ .

٢٨٤ — العافيةُ المُلْكُ الخفىُّ .

٢٨٥ — سوءُ حَمْلِ الغِنَى يورثُ مقتاً ، وسوءُ حمل الفاقةِ يضع شرفاً .

٢٨٦ — لا ينبغى لأحدٍ أن يدَعَ الحزمَ لظفرٍ ناله عاجزٌ ، ولا يسامح نفسه فى التفريطِ لنـكبةٍ دخلتْ على حازمٍ .

٢٨٧ — ليس مِن حسنِ التوكل أنْ يقالَ العاشِرُ عثْرَةً ، ثم يركبها ثانيةً .

---

(١) هذه الحكمة ساقطة من ب ، وأثبتها من ا ، د

(٢) النوك : الحمق .

٢٨٨ – سوءُ القالةِ في الإنسان إذا كان كذباً نظيرُ الموتِ لفسادِ دنياه ؛ فإن كان صدقاً فأشدُّ مِنَ الموتِ لفسادِ آخرته .

٢٨٩ – ترضى الكرامُ بالكلامِ ، وتُصادُ اللئامُ بالمالِ ، وتُستصلحُ السِّفلةُ بالهوانِ .

٢٩٠ – لا يزالُ المرءُ مستمرًّا مالم يعثرْ ، فإذا عثرَ مرّةً لَجَّ بِهِ العِثار ولو كان في جَدَدٍ .

٢٩١ – المتواضع كالوهْدَةِ يجتمعُ فيها قطرُها وقطْرُ غيرها ، والمُتكبِّرُ كالرَّبْوَةِ لا يقرُّ عليها قطرُها ، ولا قطرُ غيرِها .

٢٩٢ – لا يصبرُ على الحربِ ويَصْدُقُ في اللقاء إلا ثلاثةٌ : مستبصِرٌ في دِينٍ ، أو غيْرَانُ على حُرْمَةٍ ، أو ممتعِضٌ من ذُلٍّ .

٢٩٣ – مجاوزتك مايكفيك فقرٌ لا منتهى لهُ .

٢٩٤ – قيل له : أيّ الأمورِ أعْجَلُ عقوبةً ، وأسرع لصاحِبها صرْعةً ؟ فقال : ظلم مَنْ لا ناصِرَ له إلّا اللهُ ، ومجازاةُ النِّعَمِ بالتَّقْصِيرِ ، واستطالةُ الغَنِيِّ على الفقيرِ .

٢٩٥ – الجِماعُ للمِحَنِ جَمّاعٌ ، وللخيراتِ مَنّاعٌ ؛ حياءٌ يرتفعُ ، وعوراتٌ تجتمعُ ؛ أشبه شيءٍ بالجُنونِ ؛ ولذلك حُجِبَ عنِ العيونِ ، نتيجتُهُ ولَدٌ فَتُونٌ ، إن عاشَ كَدَّ ، وإن ماتَ هَدَّ .

٢٩٦ – ماشيءٌ أهْونَ مِنْ ورعٍ ؛ وإذا رابكَ أمرٌ فَدَعْهُ .

٢٩٧ – إذا أتى عَلَيَّ يومٌ لا أزدادُ فيه عملاً يقرِّبُني إلى اللهِ ، فلا بورِكَ لي في طلوع شمسِ ذلك اليومِ .

٢٩٨ – أشرفُ الأشياءِ العلمُ ؛ واللهُ تعالى عالِمٌ يُحِبُّ كل عالِمٍ .

٢٩٩ ـ ليْتَ شعْرى أىّ شىء أدركَ منْ فاتهُ العلمُ ! بل أىّ شىء فات من أدركَ العلمْ !

٣٠٠ ـ لايسودُ الرجل حتّى لايُبالى فى أىّ ثوبيه ظهرَ .

٣٠١ ـ سمع رجلاً يدعُو لصاحبه ، فقال : لا أراكَ اللهُ مكرُوهاً ، فقال : إنما دعوْتَ لهُ بالموْت ، لأنّ منْ عاشَ فى الدُّنيا لابُدّ أن يرَى المكْروه .

٣٠٢ ـ من صفةِ العاقل ألاّ يَتَحدّث بما يُسْتطاعُ تكْذيبهُ فيه .

٣٠٣ ـ السعيدُ منْ وُعظَ بغيرِهِ ، والشقىّ من اتّعظ به غيرُه .

٣٠٤ ـ ذو الهمّة وإنْ حطّ نفْسه يأبى إلّا علوًّا ، كالشعلة منَ النّار يخفيهاصاحبها، وتأبى إلّا ارتفاعاً .

٣٠٥ الدَّينُ غلّ الله فى أرْضِه ، إذا أراد أنْ يُذِلّ عبداً جعلَه فى عنقهِ .

٣٠٦ ـ العاقل إذا تكلم بكلمة أتبعها حكْمةً ومثلا ، والأحمقُ إذا تكلم بكلمةٍ أتبعها حَلِفاً .

٣٠٧ ـ الحركةُ لقاح الجدِّ العظيمِ (١) .

٣٠٨ ـ ثلاثةٌ لا يُستحى من الختْم عليْها : المالُ لنفى التّهْمةِ ، والجوهرُ لنفاسته ، والدواء للاحتياطِ من العدوّ .

٣٠٩ ـ إذا أيسرت فكلّ الرجال رجالك ، وإذا أعسرتَ أنكرك أهلك .

٣١٠ ـ من الحكمة جعل المَال فى أيْدِى الجهال ؛ فإنّهُ لو خُصّ به العقلاء لمات

(١) هذه الحكمة ساقطة من ا .

الجهـال جوعاً ، ولـكنه جعـل فى أيدى الجهال ، ثم استنزلهم عنـه العقلاء بلطفهم وفطنتهم .

٣١١ ـ ماردَّ أحدٌ أحداً عن حاجة إلَّا وتبيَّنَ العزُّ فى قفاه ، وَالذلُّ فى وجهه .

٣١٢ ـ ابتداء الصنيعة نافلةٌ ، وربُّها (١) فريضةٌ .

٣١٣ ـ الحاسدُ المبطنُ للحسدِ كالنحلِ يمجُ الدَّواء ، ويبطنُ الداء .

٣١٤ ـ الحاسدُ يرى زوال نعمتِكَ نعمةً عليْه .

٣١٥ ـ التَّواضع إحْدى مصايد الشرف .

٣١٦ ـ تواضعُ الرَّجُل فى مرتبتِه ذَبٌّ للشماتةِ عنهُ عِندَ سقْطتِه .

٣١٧ ـ رُبَّ صلَفٍ أدّى إلى تلَف .

٣١٨ ـ سوء الخلقِ يعْدِى ؛ وذاكَ أنهُ يدْعُو صاحبك إلى أن يقابلكَ بمثْلِهِ .

٣١٩ ـ المروءة التَّامة مُبايَنةُ الْعامَةِ .

٣٢٠ ـ أسوأ مافى الكريم أن يمنعك نداهُ ، وأحسنُ مافى اللَّئيم أنْ يكفَّ عنك أذاهُ .

٣٢١ ـ السفلةُ إذا تعلمُوا تـكبَّرُوا ، وإذا تموَّلُوا استطالُوا ، والعِلْيةُ إذا تعلَّمُوا تواضعوا ، وإذا افتقروا صالُوا .

٣٢٢ ـ ثلاثٌ لايُسْتصلَحُ فسادُهُنَّ بحيلةٍ أصْلاً : العداوةُ بَيْنَ الأقاربِ ، وتحاسدُ الأَكْفاء ، وركاكةُ الْمُلوكِ .

٣٢٣ ـ السخىُّ شُجاعُ القلب ، والبخيلُ شُجاعُ الْوجهِ .

---

(١) ربها : أى جمعها .

٣٢٤ ـ العزلة توفر العرضَ وتسترُ الفاقةَ ، وترفعُ ثقل المكافأةِ .

٣٢٥ ـ ماامتحنك أحدٌ قطُّ إلا أحبَّ الخلوةَ والعزْلة .

٣٢٦ ـ خيرُ الناس من لمْ تجرِّبهُ .

٣٢٧ ـ الكريم لا يلينُ على قسرٍ ، ولا يَقْسُو على يسرٍ .

٣٢٨ ـ المرأةُ إذا أحبتك آذتك، وإذا أبغضتك خانتك وربما قتلتكَ ؛ فَحُبُّها أذى، وبغضها داءٌ بلا دَوَاء .

٣٢٩ ـ المرأةُ تكتمُ الحبَّ أرْبعينَ سنةً ، ولا تكتمُ البغض ساعةً وَاحِدةً .

٣٣٠ ـ الُممتحنُ كالمختنق ؛ كلَّما ازداد اضطراباً ازداد اختْناقاً .

٣٣١ ـ كلُّ مالا ينتقلُ بانتقالك مِنْ مالك فهو كفيل بك .

٣٣٢ ـ أجلُّ مايَنزلُ مِن السماء التوْفيقُ ، وأجلُّ مايصعدُ مِنَ الأرْض الإخلاصُ .

٣٣٣ ـ اثنان يهونُ عليهما كلُّ شيء : عالمٌ عرَف العواقب ، وجاهل يجهلُ ماهو فيهِ .

٣٣٤ ـ شرٌّ من الموْتِ ما إذا نزلَ تمنّيتَ بنزولهِ الموتَ ، وخيْرٌ من الحياةِ ما إذا فقدته أبغضتَ لفقْدِه الحياة .

٣٣٥ ـ ماوَضعَ أحدٌ يدَهُ فى طعامِ أحدٍ إلّا ذلَّ له .

٣٣٦ ـ المرأةُ كالنعل يلبسها الرجلُ إذا شاء ، لا إذا شاءتْ .

٣٣٧ ـ أبصرُ الناس لعوَار النَّاس المعورُ .

٣٣٨ ـ العجبُ ممنْ يخافُ عقوبة السلطان وهى منقطعةٌ ، ولا يخافُ عقوبة الدَّيان وهى دائمة .

٣٣٩ – من عرف نفسَهُ فقد عرف ربّه .

٣٤٠ – من عجز عن معْرفةِ نفسهِ فهو عن معرفة خالقهِ أعجزُ .

٣٤١ – لو تكاشفتمْ لما تدافنتمْ .

٣٤٢ – شيطان كلّ إنسانٍ نفسهُ .

٣٤٣ – إنْ لمْ تعلمْ منْ أينَ جئت ، لمْ تَعْلَمْ إلى أيْن تذهبُ !

٣٤٤ – غايةُ كلّ مُتعمّقٍ فى معرفةِ الخالقِ سبحانهُ الاعترافُ بالقصورِ عن إدراكها .

٣٤٥ – الكمالُ فى خمس : ألّا يعيبَ الرجلُ أحداً بعيبٍ فيهِ مثلهُ حتّى يصلحَ ذَلكَ العيبَ مِنْ نفسهِ ؛ فإنهُ لا يفرغُ منْ إصلاح عيْبٍ من عيُوبهِ حتّى يهجم على آخرَ فتشغله عيُوبهُ عن عيُوب الناس ، وألّا يطلقَ لسانه ويدهُ حتّى يعلم أفِى طاعةٍ ذلك أمْ فى معصيةٍ ، وألّا يلتمسَ مِنَ النّاسِ إلّا ما يعطيهمْ منْ نفسهِ مثلَهُ ، وأنْ يَسلمَ منَ النّاسِ باستشْعارِ مُداراتهمْ وتوفيتهمْ حُقوقهمْ ، وأن يُنفقَ الفضلَ منْ ماله ، ويمسكَ الفضل منْ قولهِ .

٣٤٦ – صَدِيق البخيل مَن لم يُجَرِّبْهُ .

٣٤٧ – من الخيط الضعيف يُفْتَل الحبل الحصيف (١) ، ومن مقدحةٍ (٢) صغيرةٍ تحترق مدينةٌ كبيرةٌ ، ومن لَبِنَةٍ لَبِنَةٍ (٣) تُبْنى قرْيَةٌ حصينةٌ .

٣٤٨ – مُحِبُّ الدراهِمِ مَعذُورٌ وإنْ أدْنَتْهُ من الدُّنيا ؛ لأنها صانتْهُ عن أبناء الدُّنيا .

---

(١) الحصيف : المحكم (٢) المقدحة : ما يقدح بها النار .
(٣) اللبنة : التى يبنى بها .

٣٤٩ - عجباً لمن قيل فيه الخيرُ وليس فيه كيف يَفْرَح ! وعجباً لمن قِيل فيه الشرُّ وليْسَ فيه كيف يغضبُ !

٣٥٠ - ثلاث مُوبقاتٌ : الـكِبْرُ فإنه حطَّ إبليس عن مَرْتبتِهِ ، والحِرْصُ فإنه أخرج آدم من الجنّةِ ، والحسَدُ فإنّهُ دعا ابن آدم إلى قَتْلِ أخيهِ .

٣٥١ - الفِطامُ عن الحُطامِ شَدِيدٌ(١) .

٣٥٢ - إذا أقبلَتِ الدُّنيا أقبلت على حِمارٍ قَطوفٍ ، وإذا أدْبرَتْ أدبرَتْ على البُراقِ .

٣٥٣ - أصاب مُتأمِّلٌ أو كاد ، وأخطأ مستعجلٌ أو كاد .

٣٥٤ - سِتّةٌ لاتُخطِئُهُمُ الـكآبةُ : فَقيرٌ حديث عهدٍ بِغِنًى ، ومُـكْثِرٌ يخاف على ماله ، وطالِبُ مرتبةٍ فَوْق قدرِهِ ، والحسودُ ، والحقودُ ، ومخالِطُ أهل الأدب وليس بأدِيبٍ .

٣٥٥ - طَلَبْتُ الراحةلنفسى فلم أجد شيئاً أروح من ترْكِ مالا يعنينى ، وتوحّشْت فى القفرِ البَلْقعِ فلم أرَ وَحْشةً أشد من قرين السوء ، وشهِـدت الزُّحوف(٢) ولقِيتُ الأقران ، فلم أر قِرناً أغلب من المرأةِ ، ونظرت إلى كلِّ مايُذِلُّ العزيز ويكسِرُهُ ، فلم أرَ شيئاً أذَلّ لهُ ولا أكسر من الفاقة .

٣٥٦ - أوّل رأى العاقل آخِرُ رأى الجاهل .

٣٥٧ - المُسْترشِد مُوَقّى ، والمحْترِسُ مُلَقّى .

٣٥٨ - الحرُّ عبدٌ ماطَمِـع ، والعبْدُ حُرٌّ ماقنَعَ .

---

(١) ب : « شد » .
(٢) زحف إليه : خف ومشى ، والزحف : الجيش يمشى إلى العدو .

٣٥٩ ـ ما أَحْسَنَ حُسْنَ الظنِّ إلا أنَّ فيهِ العَجْزَ ، وما أقبَحَ سوءَ الظَّنِّ إلَّا أنَّ فيه الحزْمَ !

٣٦٠ ـ ما الحيلَةُ فيما أعْيَى[1] إلا الكفُّ عنه ، ولا الرّأى فيما يُنال إلا اليأسُ منه .

٣٦١ ـ الأحمقُ إذا حُدِّث ذَهل ، وإذا حَدَّث عَجِل ، وإذا حُمِل على القبيح فعل .

٣٦٢ ـ إثبات الُحجّةِ على الجاهل سهلٌ ؛ ولكن إقرارُهُ بها صعبٌ .

٣٦٣ ـ كما تُعرَف أوانى الفَخَّار بامْتِحانِها بأصواتِها فيعلَمُ الصَّحيحَ مِنها من المكْسورِ، كذلك يُمتَحنُ الإنسان بمنطقِهِ فيعرفُ ماعِندَهُ .

٣٦٤ ـ احتمالُ الفقرِ أحْسَنُ من احتمال الذُّلِّ، لأنَّ الصبر على الفقر قناعَةٌ ؛ والصبر على الذل ضراعَةٌ[2] .

٣٦٥ ـ الدنيا حمقاء لاتميلُ إلا إلى أشباهِها .

٣٦٦ ـ السفرُ ميزانُ الأخلاق .

٣٦٧ ـ العقل مَلِكٌ والخصالُ رعيَّتُهُ ، فإذا ضعف عن القيام عليها وَصل الخَلَلُ إليها .

٣٦٨ ـ الكَذَّابُ يُخيف نفسه وهو آمِنٌ .

٣٦٩ ـ لولا ثلاث لم يُسْلَل سَيفٌ : سِلكٌ أدقٌّ من سِلِك ، ووَجهٌ أصْبَحُ من وجْهٍ ، ولُقمَةٌ أسْوَغُ من لُقمةٍ .

٣٧٠ ـ قد يَحْسُن الامتنانُ بالنعمةِ وذلك عند كُفْرانِها ، ولولا أن بنى إسْرائيل

---

(١) ا : « أعيا » .

(٢) ضرع إليه ضراعة : ذل وخضع .

كفرُوا النِّعْمه لما قال اللهُ لهم : ﴿ اذ كُرُوا نِعْمَتِىَ الّتى أنْعَمْتُ عليكم ﴾ (١) .

٣٧١ ـ إذا تناهى الغمُّ انقطعَ الدمْعُ .

٣٧٢ ـ إذا وُلِّىَ صديقك ولايةً فأصَبْتَه على العُشْرِ مِن صداقتِه فليس بصاحبِ سُوءٍ .

٣٧٣ ـ أعْجَبُ الأشياءِ بديهةُ أمْنٍ وَرَدَتْ فى مقامِ خوْفٍ .

٣٧٤ ـ الحرصُ مَحْرَمَةٌ (٢) والجبنُ مقتلَةٌ ، وإلا فانظر فيمن رأيت وسمعت : أمَنْ قُتِلَ فى الحربِ مُقبلاً أكثرُ ، أم مَن قُتل مُدْبراً ! وانظر : أمَن يطْلُب بالإجمال والتكرُّم أحقُّ أن تسخو نفسُكَ لَهُ أمْ مَن يطْلُبُ بالشرَهِ والحرْص !

٣٧٥ ـ إذا كان العقل تسعة أجزاء احتاج إلى جُزْءٍ من جهل ليُقْدِم به صاحبه على الأُمور ، فإنّ العاقل أبداً متوانٍ مترقب متخوّف .

٣٧٦ ـ عملُ الرَّجلِ بما يعلمُ أنه خطأٌ هوًى ، والهوى آفةُ العفافِ ، وترْكُ العملِ بما يعلمُ أنه صوابٌ تهاوُنٌ ، والتهاوُنُ آفةُ الدينِ ، وإقدامُه على ما لا يدرى أصوابٌ هو أم خطأٌ لَجاجٌ واللجاج آفةُ العقل .

٣٧٧ ـ ضعفُ العقل أمانٌ منَ الغمّ .

٣٧٨ ـ لا ينبغى للعاقلِ أنْ يمدحَ امرأةً حتى تموتَ ، ولا طعاماً حتى يستمرئه ، ولا صديقاً حتى يستقرضهُ ؛ وليس مِنْ حُسْنِ الجوارِ ترْكُ الأذى ، ولكن حُسْنُ الجوارِ الصبرُ على الأذى .

٣٧٩ ـ لا يتأدبُ العبدُ بالكلامِ إذا وثِقَ بأنه لا يُضرَبُ .

٣٨٠ ـ الفرْقُ بين المؤمنِ والكافرِ الصلاةُ ، فمن تركها وادّعى الإيمان كذّبه فِعلُهُ ، وكان عليه شاهدٌ مِنْ نفْسِهِ .

---

(١) سورة البقرة ١٢٢

(٢) أى سبب الحرمان .

٣٨١ - منْ خاف اللهَ خافه كل شيء .

٣٨٢ - منَ النقصِ أن يكونُ شفيعُكَ شيئاً خارجاً عن ذاتِكَ وصفاتِكَ .

٣٨٣ - ويلي على العبدِ اللئيم ، عبد بني ربيعةَ ! نزع به(1) عِرْقُ الشِّرك العبشمي(2) إلى مساءتي ، وتذكُّرُ دمِ الوليدِ وعتبةَ وشيبةَ أوْلَى له ؛ واللهِ ليرَيَنِّي في موقفٍ يسوءُهُ ثم لا يجدُ هناكَ فُلاناً وفلاناً - يعني سالماً موْلَى حُذَيْفَةَ .

٣٨٤ - أنا قاتِلُ الأقرانِ ، ومُجدِّلُ الشجْعانِ ، أنا الذي فَقَأْتُ عينَ الشِّرْكِ ، وثَلَلْتُ عرشَهُ ؛ غيرَ مُمْتَنٍّ على اللهِ بجهادي ، ولا مُدِلٍّ إليه بطاعتي ، ولكن أُحدِّثُ بنعمة ربِّي .

٣٨٥ - الصَّوْمُ عبادةٌ بين العبدِ وخالقهِ ، لا يَطَّلِعُ عليها غيرُه ، وكذلك لا يجازي عنها غيْرُه .

٣٨٦ - طوبى لمن شغله عَيْبُهُ عن عيوب الناس ! طوبى لِمَنْ لا يعرفُ الناسَ ولا يعرِفُهُ الناسُ ! طوبى لمن كان حياً كميّتٍ ، وموجوداً كمعْدُومٍ ؛ قد كفى جارهخيرَهُ وشرَّهُ ، لا يسألُ عنِ الناس ، ولا يسألُ الناسُ عنه .

٣٨٧ - ما السيفُ الصارمُ في كفِّ الشجاعِ بأعزّ له من الصِّدْقِ .

٣٨٨ - لا يكن فقرُكَ كُفْراً ، وغناك طغياناً .

٣٨٩ - ثمرةُ القناعةِ الرَّاحةُ ، وثمرةُ التَّواضُعِ المحبّة .

٣٩٠ - الكريمُ يلينُ إذا استُعطِفَ ، واللئيمُ يقسو إذا لُوطِفَ .

٣٩١ - أنْكَى لِعدُوِّكَ ألّا تُرِيَهُ أنك اتّخذْته عدوًّا .

٣٩٢ - عذابانِ لا يأبهُ الناسُ لهما : السفرُ البعيدُ ، والبناءُ الكثير .

---

(١) نزع به عرق الشر : جذبه إليه .

(٢) عبشمي ، نسبة إلى عبد شمس .

٣٩٣ ـ ثلاثة يُؤثرون المالَ على أنفسهم : تاجر البحر ، وصاحب السلطان ، والمُرْتَشِي فى الحكمِ .

٣٩٤ ـ أعْجَزُ النـاسِ مَنْ قَصَّرَ فى طلب الصّديق ، وأعْجَزُ منه منْ وَجَدَهُ فَضَيَّعَهُ(١) .

٣٩٥ ـ أشدُّ المشاقِ وعدُ كذّابٍ لحريصٍ .

٣٩٦ ـ العادات قاهِرَاتٌ ، فمن اعتاد شيئاً فى سرّه وخلوته فضحهُ فى جَهْرِهِ وعلانيته .

٣٩٧ ـ الأخ البارّ مغِيضُ الأسرار .

٣٩٨ ـ عدمُ المعرفة بالكتابة زمانةٌ خَفِيَّةٌ .

٣٩٩ ـ قديمُ الحُرْمَةِ وحديثُ التَّوْبَةِ يمحقانِ ما بينهما من الإساءةِ .

٤٠٠ ـ ركوبُ الخيلِ عِزٌّ ، ورُكوبُ البراذينِ لَذَّةٌ ، ورُكوبُ البغالِ مَهْرَمَةٌ ، ورُكوبُ الحميرِ مَذَلَّةٌ .

٤٠١ ـ العقلُ يظهرُ بالمعاملة ، وشِيَمُ الرِّجالِ تُعْرَفُ بالولايةِ .

٤٠٢ ـ قال له قائلٌ : علِّمْنِي الحلم ، فقال : هوَ الذُّلُّ ، فاصطبرْ عليه إنِ استطعتَ .

٤٠٣ ـ قلتمْ : إنّ فلاناً أفادَ مالاً عظيماً ، فهلْ أفادَ أيّاماً يُنفقهُ فيها !

٤٠٤ ـ عيادةُ النَّوْكَى أشدُّ على المريضِ منْ وَجَعِهِ .

٤٠٥ ـ المريضُ يعادُ ، والصحيحُ يُزَارُ .

٤٠٦ ـ الشيء الذى لا يحسُنُ أنْ يقالَ وإن كان حقًّا ، مدحُ الإنسانِ نفسَهُ .

---

(١) هذه الحكمة ساقطة من ا .

٤٠٧ ـ الشيء الذى لا يُستغنَى عنه بحالٍ من الأحوالِ التوفيقُ .

٤٠٨ ـ أوسعُ ما يكونُ الكريمُ مغفرةً ، إذا ضاقَتْ بالذنبِ المعذِرَةُ .

٤٠٩ ـ سترُ ما عاينتَ أحسنُ منْ إشاعةِ ما ظننْتَ .

٤١٠ ـ التكبُّرُ على المتكبّرينَ هوَ التواضُعُ بعينه .

٤١١ ـ إذا رفعْتَ أحداً فوق قدرِهِ فتوقعْ منهُ أن يحطَّ منكَ بقدرِ ما رفعْتَ منه .

٤١٢ ـ إساءةُ المحسنِ أن يمنعك جدْواهُ ، وإحسانُ المُسيء أن يكفَّ عنكَ أذاهُ .

٤١٣ ـ اللهمَّ إنى أستعديكَ على قريش ، فإنهمْ أضمرُوا لِرَسُولِكَ صلّى الله عليه وآله ضروباً منَ الشَّرِّ والغدرِ ، فعجزوا عنها ؛ وحُلْتَ بينهم وبينها ؛ فكانَتِ الوجْبةُ بى ، والدَّائرةُ علىَّ . اللهمَّ احفَظْ حسناً وحسيناً ، ولا تمكن فجرة قريشٍ منهما ما دمتُ حيًّا ، فإذا توفَّيتَنى فأنتَ الرَّقيبُ عليهمْ ، وأنتَ على كُلِّ شيء شهيدٌ .

٤١٤ ـ قال له قائلٌ : يا أمير المؤمنينَ ، أرأيت لو كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله تركَ ولداً ذكراً قد بلغَ الحُلمَ ، وآنسَ منه الرشدَ ، أ كانَتِ العربُ تسلِّم إليه أمرها ؟ قال : لا ، بل كانتْ تقتلُه إن لم يفعلْ ما فعلْتُ ، إنّ العربَ كَرِهَتْ أمر محمّدٍ صلى الله عليه وسلم وحسدتهُ على ما آتاهُ اللهُ منْ فضلِه ، واستطالت أيَّامَهُ حتى قذفَتْ زوجتَهُ ، ونفَّرَتْ به ناقتهُ ، مع عظيم إحسانه إليها ، وجسيمِ مِنَنِهِ عندها ، وأجمعتْ مُذْ كان حيًّا على صرفِ الأمرِ عن أهلِ بيتِهِ بعد موتِه ؛ ولولا أنّ قريشاً جعلَتِ اسمه ذريعةً إلى الرِّياسةِ ، وسُلَّماً إلى العزِّ والإمرةِ ، لما عبدت اللهَ بعدَ موتِهِ يوماً واحداً ،

ولا رَنَدَّتْ فى حافرتها ، وعادَ قارِحُها جَذَعاً ، وبازلُها [١] بَـكْراً ، ثم فتحَ اللهُ عليها الفُتوحَ ، فأثرتْ بعد الفاقةِ ، وتموّلتْ بعدَ الجُهْدِ والمخمصةِ [٢] ؛ فحَسُنَ فى عيونِها من الإسلامِ ما كان سَمِجاً ، وثبت فى قلوب كثير منها من الدِّين ما كان مضطربا ، وقالتْ : لولا أنه حقٌّ لما كان كذا ؛ ثم نسبتْ تلكَ الفتوحَ إلى آراءِ وُلاتِها ، وحُسْنِ تدبيرِ الأمراءِ القائمينَ بها ، فتأكّدَ عندَ الناسِ نباهةُ قومٍ وخمولُ آخرين ؛ فكُنّا نحنُ مِمّنْ خَمل ذِكرُهُ ، وخبتْ نارُهُ ، وانقطعَ صوتُهُ وصِيتُهُ ، حتى أكلَ الدَّهرُ علينا وشربَ ، ومضتِ السِّنُونَ والأحقابُ بما فيها ، وماتَ كثيرٌ ممن يعرَف ، ونشأ كثيرٌ ممن لا يُعْرَفُ . وما عسى أنْ يكونَ الولدُ لو كان ! إنّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله لم يُقرِّبْنى بما تعلمونهُ منَ القُرْبِ للنسبِ واللُّحْمَةِ ؛ بل للجهادِ والنصيحةِ ؛ أفتراهُ لو كان لهُ ولدٌ هل كان يفعلُ ما فعلتُ ! وكذاكَ لم يكنْ يقرّبُ ما قرّبت ، ثم لم يكن عند قريش والعربِ سبباً للحُظْوةِ والمنزلةِ ، بل للحرمانِ والجفوةِ . اللهمّ إنّكَ تعلمُ أنّى لم أُرِدِ الإمرةَ ، ولا علوّ الملك والرياسة ؛ وإنّما أردْتُ القيامَ بحدودكَ ، والأداءَ لشرعكَ ، ووضعَ الأمورِ فى مواضعها ، وتوفيرَ الحُقوقِ على أهلها ؛ والمُضِىَّ على منهاجِ نبيِّكَ ، وإرشادَ الضَّالِّ إلى أنوارِ هدايتكَ .

٤١٥ ـ البرُّ ما سكنَتْ إليهِ نفسُكَ ، واطمأنّ إليه قلبُكَ ؛ والإثمُ ما جال فى نفسك وتردَّدَ فى صدرِكَ .

٤١٦ ـ الزكاةُ نقصٌ فى الصورةِ ، وزيادةٌ فى المعنى .

٤١٧ ـ ليس الصومُ الإمساكَ عن المأكَلِ والمشربِ ؛ الصومُ الإمساكُ عَنْ كلِّ ما يكرَهُهُ اللهُ سبحانَهُ .

---

(١) البازل : الذى فطر نابه .

(٢) المخمصة : الجوع .

٤١٨ ـ إذا كان الرَّاعى ذِئباً ، فالشَّاةُ منْ يحفظها !

٤١٩ ـ كلّ شيء يعصيكَ إذا أغضبْتَهُ إلّا الدُّنيا ، فإنها تُطيعُكَ إذا أغضبْتَها .

٤٢٠ ـ رُبَّ مغبوطٍ بنعمةٍ هىَ داؤُهُ ، ومَرْحومٍ من سقم هو شفاؤُهُ .

٤٢١ ـ إذا أرادَ اللهُ أنْ يسلّطَ على عبدٍ عدوًّا لا يرحمه سلط عليه حاسداً .

٤٢٢ ـ شربُ الدَّواءِ للجسدِ كالصابونِ للثّوْب ؛ ينقّيهِ ولكن يُخْلِقه .

٤٢٣ ـ الحسد خُلُقٌ دنىء ؛ ومنْ دناءتِهِ أنه موكّلٌ بالأقربِ فالأقرب .

٤٢٤ ـ لو كانَ أحدٌ مكتفياً منَ العلمِ لا كتفى نبيُّ اللهُ موسى ؛ وقد سمعتم قوله: ﴿ هَلْ أتَّبِعُكَ على أنْ تعلّمن مِمَّا عُلّمْتَ رشداً ﴾ (١) .

٤٢٥ ـ أستغفرُ اللهَ ممَّا أمْلك ، وأستصلحه فيما لا أملك .

٤٢٦ ـ إذا قعدتَ وأنتَ صغيرٌ حيث تحِبُّ ، قعدْتَ وأنتَ كبيرٌ حيث تكْرَه .

٤٢٧ ـ الولد العاقُّ كالإصبع الزائدةِ ؛ إنْ ترِكتْ شانت ، وإنْ قطعتْ آلمَتْ .

٤٢٨ ـ خرجَ العزّ والغِنَى يجولانِ فلقِيا القناعةَ فاستقرَّا .

٤٢٩ ـ الصديق نسيبُ الرُّوح ؛ والأخُ نسيبُ الجسم .

٤٣٠ ـ جِزْيَةُ المؤمن كِراءُ منزله ، وعذابُهُ سوء خُلُقِ زوجته .

٤٣١ ـ الوَعْدُ وجهٌ والإنجازُ محاسنُهُ .

٤٣٢ ـ أنعمُ النَّاس عيشاً منْ عاشَ فى عيشِهِ غيرُهُ .

٤٣٣ ـ لاتشاتمنَّ أحداً ، ولا تردَّنَّ سائِلاً ؛ إمَّا هو كريمٌ تَسُدُّ خَلّته ، أو لئيمٌ تشترى عِرضك منه .

---

(١) سورة الكهف ٦٦ .

٤٣٤ ـ النَّمَّام سهم قاتِلٌ .

٤٣٥ ـ ثلاثةُ أشياء لا دوام لها : المال فى يَدِ المُبذِّر ، وسحابة الصيف ، وغضب العاشق .

٤٣٦ ـ الزَّاهد فى الدِّينار والدِّرهم أعزُّ منَ الدينار والدرهم .

٤٣٧ ـ ربَّ حربٍ أحيِيَت بلفظةٍ ، وربَّ وُدٍّ غُرِس بلحظة .

٤٣٨ ـ إذا تزوَّج الرَّجل فقد ركب البحر ، فإن ولِدَ له فقد كُسِرَ به .

٤٣٩ ـ صلاحُ كلِّ ذى نعمةٍ فى خلاف مافسد عليه .

٤٤٠ ـ أنعم الناس عيشةً مَن تحلّى بالعفاف ، ورضىَ بالكفافِ (١) ، وتجاوَزَ ما يُخاف إلى مالا يخافُ .

٤٤١ ـ التوَاضع نعمةٌ لا يفطنُ لها الحاسد .

٤٤٢ ـ ينبغى للعاقل أن يمنع معروفه الجاهل واللئيم والسفيه؛أما الجاهلُ فلا يعرف المعروف ولا يشكر عليه ، وأما اللئيم فأرضٌ سبِخة لا تنبِتُ ، وأما السفيهُ فيقولُ : إنما أعطانى فرَقاً من لسانى .

٤٤٣ ـ خير العيش مالا يُطغيك ، ولا يلهيك .

٤٤٤ ـ ماضرب اللهُ العباد بسوط أوْجعَ من الفقر .

٤٤٥ ـ إذا أراد الله أن يزيل عَنْ عبدٍ نعمة كان أول مايغيِّرُ منه عَقْلُهُ .

٤٤٦ ـ خيرُ الدُّنيا والآخرَةِ فى خَصْلتين : الغِنى والتُّقى ، وشَرُّ الدُّنيا والآخرة فى خصلتين : الفَقْرِ والفُجُورِ .

٤٤٧ ـ ثمانية إذا أُهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الآتى طعاماً لم يُدْعَ إليـــه ،

---

(١) الكفاف : القليل .

والمُتأمِّرُ على ربِّ البيت فى بيته ، وطالب المعروف من غير أهله ، والداخل بين اثنين لم يدخلاه ، والمستخِفُّ بالسلطان ، والجالس مجلساً ليس له بأهلٍ ، والمقبلُ بحديثه على مَن لا يسمعهُ ، ومن جرَّب المجرَّب .

٤٤٨ ـ أنفسُ الأعلاق [١] عقلٌ قُرن إليهِ حَظٌّ .

٤٤٩ ـ اللطافَةُ فى الحاجة أجدى من الوسيلة .

٤٥٠ ـ احتمال نَخْوَةِ الشرف أشدُّ من احتمال بطرِ الغنى ، وذلّةُ الفقرِ مانعةٌ من الصبرِ ، كما أن عزّ الغنى مانعٌ من كرم الإنصاف ، إلا لمن كانَ فى غريزته فَضْلُ قُوّةٍ ، وأعراقٌ تنازعه إلى بُعد الهمة .

٤٥١ ـ أبعد الناس سفراً مَن كان فى طلب صديقٍ يرْضاه .

٤٥٢ ـ استشارَةُ الأعداء من باب الخِذْلانِ .

٤٥٣ ـ الجاهلُ يُعْرَفُ بِستِّ خِصال : الغضب من غير شىء ، والكلامِ فى غير نفعٍ ، والعطيّةِ فى غير موضعها ، وألّا يعرف صديقهُ من عدوّهِ ، وإفشاء السِّرّ ، والثقة بكلّ أحدٍ .

٤٥٤ ـ سوءُ العادةِ كمينٌ لا يُؤْمَنُ .

٤٥٥ ـ العادةُ طَبيعةٌ ثانيةٌ غالبةٌ .

٤٥٦ ـ التجنِّى وافِدُ القَطيعةِ .

٤٥٧ ـ صديقكَ مَن نَهاك ، وعدوّكَ من أغراك .

٤٥٨ ـ ياعَجبا من غفلةِ الحسادِ عن سلامَةِ الأجْساد !

٤٥٩ ـ من سعادةِ المرْءِ أن يَطُول عمرهُ ، ويرى فى أعدائه مايسرّهُ .

٤٦٠ ـ الضّغائن تورَثُ كما تورث الأموالِ .

---

(١) الأعلاق : الأشياء النفيسة القيمة .

٤٦١ ـ رُبَّ عزيزٍ أذلَّهُ خُرْقُهُ ، وذليلٍ أعزَّهُ خُلُقُهُ .

٤٦٢ ـ لايصلحُ اللئيمُ لأحدٍ ، ولا يستقيمُ إلا من فرَقٍ أو حاجةٍ ؛ فإذا استغنى أو ذهب خوفُهُ عاد إليه جوهرُهُ .

٤٦٣ ـ ثلاثةٌ في المجلس وليسوا فيه : الحاقنُ ، والضَّيقُ الخفِّ ، والسيئُ الظنِّ بأهلِهِ .

٤٦٤ ـ وسُئِلَ : ماأبْقى الأشياء فى نفوس الناس ؟ فقال : أمّا فى أنفس العُلماء فالنَّدامةُ على الذنوب ، وأما فى نفوس السفهاء فالحقدُ .

٤٦٥ ـ إذا انقضى مُلكُ قوم خُيِّبُوا فى آرائهم .

٤٦٦ ـ الضعيفُ المحترس من العدوِّ القوى أقربُ إلى السلامَةِ مِن القوى المُغترِّ بالعدوِّ الضعيفِ .

٤٦٧ ـ الحزْنُ سوء استكانةٍ ، والغَضبُ لُؤمُ قُدْرةٍ .

٤٦٨ ـ كلُّ مايؤكلُ يُنْتِنُ ، وكلُّ مايوهَب يأرجُ .

٤٦٩ ـ الطَّرَشُ فى الكرامِ ، والهوجُ فى الطِّوال ، والكَيْسُ فى القصار ، والنُّبلُ فى الرَّبْعةِ ، وحسن الخُلق فى الحُول ، والكِبْر فى العُور ، والبَهْت فى العميان ، والذكاء فى الخُرْس .

٤٧٠ ـ ألأمُ النَّاس مَن سعى بإنسان ضعيف إلى سلْطان جائر .

٤٧١ ـ أعسر الحِيَل تَصْوير الباطل فى صورة الحقِّ عند العاقل المُميِّز .

٤٧٢ ـ الغَدْر ذلٌّ حاضِر ، والغِيبَةُ لُؤم باطن .

٤٧٣ ـ القلب الفارغ يبحث عن السوء واليد الفارغة تنازع إلى الإثم .

٤٧٤ ـ لا كثير مع إسْرافٍ ، ولا قليل مع احتراف ، ولا ذنب مع اعتراف .

٤٧٥ ـ المُتَعَبِّدُ على غير فِقهٍ كحمارِ الرحا يدور ولا يبرح .

٤٧٦ ـ المحرومُ منْ طالَ نصبُهُ ، وكان لغيرِه مكسبهُ .

٤٧٧ ـ فى الاعتبار غنًى عنِ الاختبار .

٤٧٨ ـ غيظ البخيلِ على الجوادِ أعجبُ من بخلهِ .

٤٧٩ ـ أذلُّ الناس مُعتذرٌ إلى اللئيم .

٤٨٠ ـ أشجعُ الناس أثبتهمْ عقلاً فى بداهةِ الخوْف .

٤٨١ ـ المعتذرُ منتصرٌ ، والمعاتبُ مُغاضبٌ .

٤٨٢ ـ المرُوءةُ بلا مالٍ كالأسدِ الذى يُهابُ ولم يفترسْ ، وكالسيْف الذى يخافُ وهوَ مغمدٌ ؛ والمالُ بلا مُرُوءةٍ كالـكلب الذى يجتنبُ عقراً ولم يعقرْ .

٤٨٣ ـ عليكم بالأدب ، فإن كُنتمْ مُلوكاً برزتمْ ، وإن كُنتم وَسطاً فقتمْ ، وإن أعوزتْـكم المعيشةُ عشتم بأدبكم .

٤٨٤ ـ الملوكُ حُـكامٌ على الناس ، والعلماء حُـكامٌ على الملوكِ .

٤٨٥ ـ لا ينبغى للعاقِل أن يكُون إلّا فى إحْدى منزلتيْن : إمّا فى الغاية القصوى مِنْ مطالبِ الدُّنيا ، وإمّا فى الغايةِ القصوى من التركِ لهَا .

٤٨٦ ـ من أفضـل أعمال البرِّ الجودُ فى العسْرِ ، والصدقُ فى الغضبِ ، والعفوُ عنْد القدْرَةِ .

٤٨٧ ـ إنَّ الله أنعم على العبادِ بقدْرِ قدْرتهِ ، وكلفهمْ من الشكْرِ بقدْر قدْرَتهمْ .

٤٨٨ ـ العيشُ فى ثلاث : صديقٌ لايعدُّ عليكَ فى أيام صداقتكَ مايرضى به أيامُ عَداوتكَ ، وَزوْجة تسرُّكَ إذا دخلتَ عليها وتحفظ غيبكَ إذا غبتَ عنها ، وغلامٌ يأْتى على مافى نفسك كأنهُ قد علمَ ماتريد .

٤٨٩ ـ تحتاجُ القرابةُ إلى مودَّةٍ ولا تحتاج المودة إلى قرابة .

٤٩٠ ـ الصابرُ على مخالطةِ الأشرارِ وصحبتِهمْ ، كراكبِ البحرِ إنْ سلمَ ببدنِهِ منَ التلفِ ، لم يسلم بقلبه من الحذَرِ .

٤٩١ ـ لأخيك عليكَ إذا حزبه أمرٌ أن تشير عليهِ بالرَّأى ما أطاعكَ ، وتبذلَ لهُ النصرَ إذا عصاكَ .

٤٩٢ ـ الغِيبةُ ربيعُ اللئام .

٤٩٣ ـ أطولُ الناس نصَباً الحريصُ إذا طمع ، والحقودُ إذا مُنع .

٤٩٤ ـ الشريف دُونَ حقِّه يُقتَل ويعطِى نافلةً فوْق الحقّ عليهِ .

٤٩٥ ـ اجعل عمرَكَ كنفقةٍ دُفعتْ إليكَ ؛ فكما لا تحبُّ أنْ يذهبَ ما تنفقُ ضياعاً ، فلا تذهب عمركَ ضياعاً .

٤٩٦ ـ منْ أظهر شكْرَكَ فِيما لم تأتِ إليه ، فاحْذر أنْ يكفركَ فِيما أسديْتَ إليه .

٤٩٧ ـ لا تستعنْ فى حاجتكَ بمن هُوَ للمطلوبِ إليه أنصحُ منهُ لك .

٤٩٨ ـ لا يؤمِننَّك منشرِّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جوارٌ ، فإنَّ أخوفَ ما تكونُ لحريقِ النارِ أقربُ ما تكونُ إليها .

٤٩٩ ـ كنْ فى الحرْص على تفقُّدِ عيوبِك كعدوِّكَ .

٥٠٠ ـ عليك بسوءِ الظنِّ ، فإنْ أصاب فالحزْم وإلا فالسلامةُ .

٥٠١ ـ رضا الناسِ غايةٌ لا تدركُ ، فتحرَّ الخيْر بجهدِكَ ، ولا تبال بسخط من يرضيه الباطلُ .

٥٠٢ ـ لا تماكِسْ فى البيع والشراء ؛ فما يضيعُ من عرضِك أكثرُ مما تنالُ من عرَضِكَ .

٥٠٣ ـ الدَّينُ رِقٌّ فلا تبذلْ رِقَّكَ لِمَنْ لا يعرفُ حقَّك .

٥٠٤ ـ احذرْ كلَّ الحذرأن يخدعَكَ الشَّيطان فيمثِّلَ لكَ التوانى فى صُورَةِ التَّوَكُّل ، ويورثُكَ الهوينَى بالإحالة على القَدَرِ ؛ فإن الله أمر بالتوكّلِ عند انقطاع الحِيَل ، وبالتسليم للقضاءِ بعد الإعذار ، فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكم[1] ﴾ ، ﴿ ولا تُلْقُوا بأيْدِيكم إلى التَّهْلُكَةِ[2] ﴾ ، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « اعْقِلْها وتوكل » .

٥٠٥ ـ لا تصحب فى السفر غَنِيًّا ؛ فإنّكَ إنْ ساوَيْتَهُ فى الإنفاق أضرَّ بِكَ ، وإنْ تَفَضَّلَ عَلَيْكَ استذَلَّكَ .

٥٠٦ ـ إذا سألت كريمًا حاجةً فَدَعْهُ يُفَكِّرُ ، فإنه لا يفكر إلا فى خيرٍ ؛ وإذا سألتَ لئيمًا حاجةً ففافِصْهُ[3] فإنه إذا[4] فكّر عادَ إلى طَبْعِهِ .

٥٠٧ ـ ما أقبح بالصَّبيح الوجْهِ أنْ يكون جاهِلاً ! كدارٍ حسنةِ البناء وساكنها شَرٌّ ، وكجنة يعمرها بُومٌ ، أو صِرْمَةٍ يحرسها ذِئْبٌ .

٥٠٨ ـ قبيح بذى العقل أنْ يكون بهيمةً وقد أمكنه أن يكون إنسانًا ، وقد أمكنهُ أن يكون ملَكًا ، وأن يرضى لنفسه بقُنْيَةٍ مُعارةٍ وحياةٍ مُسْتَرَدَّةٍ ؛ وله أن يتخذ قُنْيةً مُخَلَّدةً وحياةً مُؤَبَّدةً .

٥٠٩ ـ الذى يَستحِقُّ اسْمَ السَّعادة على الحقيقة سعادة الآخرة ، وهى أربعة أنواع : بقاءٌ بلا فناء ؛ وعلم بلا جهلٍ ، وقُدْرة بلا عجزٍ ، وغنًى بلا فقرٍ .

---

(١) سورة النساء ٧١ .
(٢) سورة البقرة ٩٥ .
(٣) غافصه : أى أخذه على غرة .
(٤) ب : « إن فكر » .

٥١٠ ـ ما خاب مَن استخارَ .

٥١١ ـ الدّيّنُ قد كُشف عن غِطاءِ قلبه ، يرَى مطلوبَه قد طبّق الخافقين فلا يقعُ بَصَرُهُ على شيء إلاّ رآهُ فيه .

٥١٢ ـ من غرَس النّخل أكلَ الرُّطب ، ومَن غرس الصّفصاف والعُلّيق عدِم ثمرتهُ ، وذَهَبَتْ ضياعاً خدمته .

٥١٣ ـ إذا أردْت العلم والخير فانفض عن يدك أداة الجهل والشرّ ، فإنّ الصائغ لا يتهيّأُ له الصّياغَةَ إلاّ إذا ألقى أداةَ الفلاحَة عَن يده .

٥١٤ ـ الصبر مِفتاحُ الفرَج .

٥١٥ ـ غاية كلّ مُتعمّقٍ فى علمنا أن يجهل .

٥١٦ ـ ستعرف الحال على حقيقتها ؛ ولـكن حيثُ لا تستطيع أن تذاكر أحداً بهـا .

٥١٧ ـ السعادة التامّة بالعلم ، والسعادة الناقصة بالزهد ، والعبادةُ من غير علمٍ ولا زهادة تعب الجسد .

٥١٨ ـ الآمال مطايا ؛ وربما حَسِرتْ ، و نَقِبَت أخفافُها .

٥١٩ ـ حبُّ الرياسةِ شاغلٌ عن حبّ الله سبحانه .

٥٢٠ ـ يا أبا عبيدة ؛ طال عليك العهدُ فنسيت ، أم نافَسْت فأُنسيت ؟ لقد سمعتَها ووعيتَها فَهلاّ رعيتَها !

٥٢١ ـ قال لمّا سمعتُ خطبة عمرَ بالمدينة التى شرح فيها قصة السقيفةِ : معذِرةً وربّ الـكعبة ؛ ولـكن بعد ماذا ! هيهات علقت مَعالِقها ، وصَرّ الجُنْدُب .

٥٢٢ ـ أوّلُ مَن جرّأَ الناسَ علينا سعدُ بنُ عبادة ، فتح باباً وَلَجَـهُ

غيرُهُ ، وأضرمَ ناراً كان لَهبُها عليه ، وضوءها لِأعدائه .

٥٢٣ ـ ما لنا ولِقُريش! يخْضِمون الدنيا باسمنا، ويَطَئُون على رِقابنا ؛ فيالله ولِلعجب! من اسمٍ جليلٍ لِمُسَمًّى ذَليلٍ !

٥٢٤ ـ الخيرُ كُلُّهُ فى السيفِ ، وما قام هذا الدِّينُ إلا بالسيف ؛ أتعلمون ما معنى قَوْلِهِ تعالى : ﴿ وأنزَلْنا الحَديد فيه بأسٌ شديدٌ ﴾ ؟ هذا هو السيفُ .

٥٢٥ ـ لم يفُتْ مَن لم يَمُتْ .

٥٢٦ ـ مَن فسدت بِطانَتُهُ كان كَمن غَصَّ بالماء ، فإنه لو غَصَّ بغَيْرِهِ لَأَساغ الماءُ غُصَّتَهُ .

٥٢٧ ـ مَن ضَنَّ بِعرْضِهِ فَلْيدَعِ المِرَاءَ .

٥٢٨ ـ مَن أيقَظَ فِتْنةً فهو آكِلُها .

٥٢٩ ـ مَن أثرى كَرُم على أهْله، وَمَن أملق هان على وَلَدِهِ .

٥٣٠ ـ مَن أمّل أحداً هابَهُ ، ومَن جهل شيئاً عابَهُ .

٥٣١ ـ أسْوأُ النـاس حالا مَن لا يثقُ بأحد لِسُوءِ ظنّه ، ولا يثقُ بِهِ أحدٌ لِسُوءِ أثَرِهِ .

٥٣٢ ـ أحَبُّ النّاس إليك مَن كثُرَتْ أيادِيه عندك ، فإن لم يكن فمن كثرت أياديك عِندهُ .

٥٣٣ ـ من طال صمْتُهُ اجْتَلب من الهيبةِ ما ينفعُهُ ، ومن الْوَحشةِ ما لا يَضُرُّهُ .

٥٣٤ ـ مَن زَاد عقلُه نقص حَظُّهُ ، وما جعل اللهُ لأحدٍ عقلا وافراً إلاّ احْتَسَبَ بِهِ عليه من رِزْقِهِ .

٥٣٥ ـ مَن عمل بالْعَدْل فيمَنْ دُونه ؛ رُزِق العدْل مِمّنْ فوقه .

٥٣٦ ـ مَن طَلَب عِزًّا بِظُلْمٍ وباطلٍ أَوْرَثَهُ اللهُ ذلاً بإنْصاف وحقٍّ .

٥٣٧ ـ من وَطِئَتْهُ الأَعْيُنُ ، وطِئَتْهُ الأرجُل .

٥٣٨ ـ ينادِي مُنادٍ يوْمَ القِيامَةِ : مَن كان لهُ أجْرٌ على اللهِ فليقُمْ ، فيَقُوم العافون عن الناس ، ثم تلا : ﴿ فمَنْ عفا وأصْلَح فأجْرُهُ على اللهِ ﴾ .

٥٣٩ ـ اصْحَب الناس بأيِّ خُلُقٍ شِئْتَ يَصْحَبُوك بمثلِهِ .

٥٤٠ ـ كأنك بالدُّنيا لم تـكُنْ ، وكأنك بالآخرةِ لم تزَل .

٥٤١ ـ قال لِمرَيضٍ أبلَّ مِن مَرَضِـهِ : إن الله ذكرك فاذكُرْهُ ، وأقالكَ فاشـكُرْهُ .

٥٤٢ ـ الدَّار دار مَن لا دار لهُ ، وبها يفرحُ مَن لا عقل لهُ ، فأنزِلوها مَنزِلتَها .

٥٤٣ ـ لا تَسْتَصْغِرَنَّ أمْر عَدُوِّك إذا حارَبْتَهُ ، فإنك إن ظفرت به لم تُحْمَدْ ، وإن ظفر بك لم تُعذَرْ ؛ والضَّعيفُ المحترِس من العدوِّ القَوِى أقربُ إلى السلامَةِ مِن القوى المُغْترِّ بالضعيف .

٥٤٤ ـ لا تَصْحب مَن تحتاج إلى أن تـكْتمهُ مايعرف اللهُ مِنك .

٥٤٥ ـ لا تسأل غير الله ؛ فإنه إن أعْطاكَ أغناك .

٥٤٦ ـ الصَّاحبُ كالرُّقعَةِ فى الثَّوْبِ ، فاتخِذْهُ مُشاكِلاً .

٥٤٧ ـ إياكَ وَكثرَةَ الإخْوان ؛ فإنه لا يُؤذِيك إلا مَن يعرِفُكَ .

٥٤٨ ـ دَعِ اليمين لله إجْلالاً ، ولِلنَّاس إجمالا .

٥٤٩ ـ العادَات قاهِراتٌ ، فمَنِ اعْتادَ شيْئاً فى سِرِّهِ فَضَحَهُ فى علانِيَتِهِ .

٥٥٠ ـ إذا كان لك صَديقٌ ولم تحمد إخاءهُ ومودَّتهُ فلا تُظْهِرْ ذلِكَ للناس ؛ فإنما هو بِمنزِلةِ السَّيف الكليل فى مَنْزِل الرَّجُلِ ؛ يُرْهِبُ بِهِ عَدُوَّهُ ، ولا يَعْلَمُ العَدُوُّ أصارِمٌ هو أم كليلٌ !

٥٥١ ـ دَعِ الذنوب قبل أن تدعَك .

٥٥٢ ـ إذا نزل بِكَ مَكروهٌ فانظرْ ؛ فإن كان لك حيلةٌ فلا تَعجز ، وإن لم يكُن فيهِ حيلة فلا تجزع .

٥٥٣ ـ تعلَّموا العِلْمَ ، فإنهُ زَيْنٌ للغنيِّ وعونٌ للفقير،ولستُ أقولُ إنَّهُ يَطْلبُ بهِ ، ولكن يدعُوهُ إلى القناعَةِ .

٥٥٤ ـ لا تَرْضَيَنَّ قَوْلَ أحدٍ حَتَّى تَرْضى فعلَهُ ، ولا تَرْضَ فِعْله حتى تَرْضى عقله ، ولا تَرْض عقله حتى تَرْضى حياءهُ ؛ فإن الإنسان مَطبوعٌ على كرمٍ ولُؤمٍ ؛ فإن قَوِى الحياء عندهُ قوىَ الكرمُ ، وإن ضَعُفَ الحياء قَوِى اللُّؤْمُ .

٥٥٥ ـ تعَلّمُوا العِلمَ وإن لَمْ تنالوا بهِ حظًّا ؛ فَلأَن يُذَمَّ الزّمان لَكُم أحْسَن من أن يُذَمَّ بِكُمْ .

٥٥٦ ـ اجعل سِرّكَ إلى واحد ، ومشورَتكَ إلى ألف .

٥٥٧ ـ إن الله خلق النِّساء من عِيٍّ وعَوْرَةٍ ، فداوُوا عِيَّهُنَّ بالسكوت ، واسْتُرُوا العَوْرَة بالبُيُوتِ .

٥٥٨ ـ لا تَعِدَنَّ عِدَة لا تثق من نَفْسِك بإنجازِها ، ولا يَغُرَّنَّكَ المُرْتَقَى السهلُ إذا كانَ المُنحَدَرُ وَعراً . واعلم أن لِلأعمال جزاءً فاتقِ العواقِب ، وأنَّ لِلأُمور بغتاتٍ فَكُنْ على حَذَرٍ .

٥٥٩ ـ لا تجاهدِ الطَّلب جهاد المُغالب ، ولا تتّكِلْ على القدر اتّكال المُستَسْلِم ؛ فإنّ ابْتغاء الفضْل مِن السُّنَّةِ ، والإجمال فى الطلب من العِفَّةِ ؛ وليست العِفَّةُ برافعةٍ رِزْقاً ، ولا الحرص بجالبٍ فضلاً .

٥٦٠ ـ مَن لَمْ تستقم لهُ نفْسُهُ ، فلا يَلُومَنَّ من لَمْ يَسْتَقِمْ له .

٥٦١ – من رُجِي الرِّزْقُ لديه صُرِفت أعناقُ الرِّجال إليه .

٥٦٢ – من انْتَجَعَكَ مُؤَمِّلاً فقد أسْلَفَكَ حُسْنَ الظنّ .

٥٦٣ – إذا شئت أنْ تُطاعَ فاسْأَلْ مايُسْتَطاعُ .

٥٦٤ – من أعذر كمن أنجح .

٥٦٥ – مَنْ كانت الدنيا هَمَّهُ كثُرَ في القيامة غمُّه .

٥٦٦ – من أجمل في الطَّلَب أتاهُ رِزْقُهُ من حَيْثُ لايحتَسِبُ .

٥٦٧ – مَن ركِب العَجَلة لم يأمن الكَبْوَة .

٥٦٨ – مَن لم يثِقْ لم يُوثَقْ بِهِ .

٥٦٩ – مَن أفاده الدهرُ أفادَ مِنهُ (١) .

٥٧٠ – مَنْ أكْثَرَ ذِكْرَ الضَّغائِنِ اكْتَسَبَ العَداوَةَ .

٥٧١ – منْ لمْ يَحْمَدْ صاحِبَهُ على حسنِ النِّيَّةِ لمَ يحمدْهُ على حسنِ الصنيعةِ .

٥٧٢ – تأمَّلْ ماتتحدَّث بهِ ، فإنما تُملى على كاتبيكَ صَحِيفةً يُوصِلانها إلى ربك؛ فانظرْ على منْ تملي ، وإلى منْ تكْتبُ .

٥٧٣ – أقم الرَّغبة إليكَ مقامَ الحرْمةِ بك ، وعظِّمْ نفسكَ عنَ التعظُّمِ ، وتطوَّل ولا تتطاوَلْ .

٥٧٤ – عامِلوا الأحْرارَ بالكرامةِ المحضَة ، والأوساط بالرغبة والرَّهْبة ، والسِّفْلَة بالهوانِ .

٥٧٥ – كنْ للعدُوِّ المكاتِمِ أشدَّ حذراً مِنْكَ للعدُوِّ المبارزِ .

٥٧٦ – احْفظْ شَيْئكَ ممَّنْ تَسْتَحْيِي أنْ تسألهُ عنْ مثلِ ذلك الشيء إذا ضاعَ لكَ .

---

(١) أفاد : أي استفاد .

٥٧٧ ـ إذا كُنتَ فى مجلسٍ ولم تكن المحدِّثَ ولا المحدَّثَ فقمْ .

٥٧٨ ـ لاتَستصغِرَنَّ حدَثاً [١] من قريش ، ولا صَغيراً من الكُتَّاب ، ولا صعلوكاً من الفرسانِ . ولا تصادقَنَّ ذمِّياً ولا خَصِياً ولا موءنثاً ؛ فلا ثبات لمودّاتهمْ

٥٧٩ ـ لا تُدْخِلْ فى مشورتك بخيلاً فيقصِّرَ بفعلِك ، ولا جباناً فيخوِّفَكَ مالا تخافُ ، ولا حريصاً فيعدكَ مالا يُرْجَى ؛ فإنَّ الجبنَ والبُخلَ والحرصَ طبيعةٌ واحدةٌ ؛ يجمعها سُوءُ الظنِّ بالله تعالى .

٥٨٠ ـ لاتكن مِمَّنْ تغلبهُ نفسهُ على مايظنُّ ، ولا يغلبُها على مايَستيقِنُ .

٥٨١ ـ اعصِ هواكَ والنساءَ وافعلْ مابدَا لكَ .

٥٨٢ ـ ما كُنتَ كاتمهُ من عدوِّكَ فلا تظْهِرْ عليه صديقَكَ .

٥٨٣ ـ كلْ من الطعام ماتشتهى ، والْبَس من الثِّياب مايَشتهى الناسُ.

٥٨٤ ـ ولتكن داركَ أوَّلَ ما يُبتاعُ وآخرَ مايُباعُ .

٥٨٥ ـ منْ كانَ فى يدهِ شىءٌ منْ رِزق اللهِ سبحانهُ فليصلِحْهُ ؛ فإنَّكُمْ فى زمان إذا احتاجَ المرءُ فيهِ إلى النَّاسِ كانَ أوَّلَ مايبذُلهُ لهمْ دينُهُ .

٥٨٦ ـ ابذلْ لصديقكَ مالكَ ، ولمعرفتكَ رِفْدَكَ ومحضرَكَ ؛ وللعامَّةِ بِشْرَكَ وتحنُّنكَ ، ولعدُوِّكَ عدْلكَ وإنصافكَ ، واضْنُنْ بدِينكَ وعِرْضِك عن كلِّ أحد .

٥٨٧ ـ جالس العقلاءَ أعداءً كانوا أوْ أصدقاءَ ؛ فإن العقل يقع على العقل .

٥٨٨ ـ كُنْ فى الحرب بحيلَتكَ أوثقَ منك بشدَّتك ، وبِحذَرِكَ أفْرَحَ منكَ بنجدَتكَ ؛ فإن الحرْبَ حرْبُ المتهوِّرِ ، وغنيمةُ المتحذِّرِ .

٥٨٩ ـ النعمُ وحشيَّةٌ فقيِّدُوها بالمعْرُوفِ.

---

(١) حدثاً ، أى صغير السن .

٥٩٠ ـ إذا أخطأتكَ الصنيعةُ إلى منْ يتقى الله فاصنعها إلى من يتقى العارَ .

٥٩١ ـ لاتشتغلْ بالرزْق المضمونِ عن العملِ المفروضِ .

٥٩٢ ـ إذا أكرمكَ الناسُ لمالٍ أو سُلطانٍ فلا يُعْجِبنَّكَ ذاكَ ، فإنّ زوال الكرامةِ بزوالِهما ؛ ولكنْ ليعجبك إنْ أكرمكَ الناسُ لدينٍ أو أدبٍ .

٥٩٣ ـ ينبغى لمنْ لم يكْرمْ وجهه عنْ مسألتكَ أنْ تُكْرمَ وَجْهكَ عن رَدّهِ .

٥٩٤ ـ إيّاكَ ومشاورَةَ النّساءِ ؛ فإنّ رأيَهُنَّ إلى أفْنٍ ، وعزْمَهُنَّ إلى وَهَنٍ ، واكْفُفْ من أبصارِهِنَّ بحجابكَ إيّاهُنَّ ، فإنّ شدّةَ الحجابِ خيرٌ لك منَ الارتياب ، وليسَ خُروجُهُنَّ بأشدَّعليك منْ دخولِ منْ لا تثقُ بهعليْهنَّ ؛ وإن اسْتطعْتَ ألّا يعرفْن غيركَ فافعلْ ؛ ولا تمكّنْ امْرأةً منَ الأمْرِ ما جاوزَ نفْسها ؛ فإنّ ذلكَ أنعمُ لِبالِها ، وأرخى لحالِها ؛ وإنما المرْأةُ رَيْحانةٌ وليْستْ بقَهْرَمانةٍ ؛ فلا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تُعطِها أن تَشْفع لِغيْرها ؛ ولا تُطِل الخلْوةَ معَهُنَّ فيملَلْنَكَ وتملُّهُنَّ ، واستَبْقِ من نفسكَ بقيّةً ؛ فإنّ إمْساكَكَ عنهنَّ وهُنَّ يرَيْنكَ ذلكَ باقتدارٍ ، خيْرٌ منْ أن يهجُمْنَ منكَ على انكسارٍ . وإيّاكَ والتّغايُرَ فى غيْرِ موْضعِ الغَيْرَةِ ، فإنّ ذلكَ يدعو الصّحيحةَ منهُنَّ إلى السُّقْمِ .

٥٩٥ ـ إذا أردتَ أن تختمَ على كتاب ؛ فأعِدِ النّظَرَ فيهِ ؛ فإنّما تختمُ على عَقْلكَ .

٥٩٦ ـ إنّ يوْماً أسْكرَ الكِبارَ وشيّبَ الصّغارَ لشديدٌ .

٥٩٧ ـ كمْ منْ مُبرّدٍ لهُ الماءُ والحميمُ يُغْلَى لهُ .

٥٩٨ ـ الصلاةُ صابونُ الخطايا .

٥٩٩ ـ إنّ امْرأً عرفَ حقيقَةَ الأمْرِ ، وزَهِدَ فيهِ لأحمقُ ، وإنّ امْرأً جهلَ حقيقَةَ الأمْرِ معَ وُضُوحِهِ لجاهلٌ .

٦٠٠ - إذا قالَ أحدكم : واللهِ ، فلينظرْ مايضيفُ إليها .

٦٠١ - رأيُكَ لايتّسِعُ لِكلِّ شيء ؛ ففرِّغْهُ للمهمِّ منْ أُمورِكَ ، ومالُكَ لايُغنِي النّاسَ كلَّهُمْ فاخصُصْ به أهْلَ الحقِّ ، وكرامتُكَ لاتطيقُ بذلَها فى العامَّةِ ، فتوخَّ بها أهلَ الفضلِ ؛ وليلُكَ ونهارُكَ لايستوعِبانِ حوائجكَ ؛ فأحْسنِ القِسْمةَ بيْنَ عملِكَ ودَعَتك .

٦٠٢ - أحْيِ المعْروفَ بإماتتِهِ .

٦٠٣ - اصحبُوا منْ يذكُرُ إحْسانكُمْ إليهِ ، وينسى أياديَهُ عندكم .

٦٠٤ - جاهِدُوا أهواءكم كما تجاهِدُونَ أعداءكم .

٦٠٥ - إذا رغبْتَ فى المكارِمِ فاجتنبِ المحارمَ .

٦٠٦ - لاتثقَنَّ كلَّ الثقةِ بأخيكَ ، فإنّ صُرْعَةَ الاسْتِرْسالِ لاتقالُ .

٦٠٧ - انتقم من الحرص بالقناعةِ ، كما تنتقم من العدوِّ بالقِصاصِ .

٦٠٨ - إذا قصرَتْ يدُكَ عن المكافأةِ ، فليطلْ لسانُكَ بالشكرِ .

٦٠٩ - منْ لمْ ينشطْ لحديثِكَ فارْفعْ عنهُ مُؤْنَةَ الاستماع منك .

٦١٠ - الزمانُ ذُو ألوانٍ ، ومنْ يصْحَبِ الزّمانَ يرَ الهوانَ .

٦١١ - لاتزهَدنّ فى معرُوف ، فإنّ الدّهْر ذو صُرُوف ؛ كم من راغبٍ أصْبحَ مرْغوباً إليْهِ ، ومتبوعٍ أمْسى تابعاً .

٦١٢ - إن غُلبتَ يوْماً على المالِ فلا تُغلَبَنَّ على الحيلة على كلِّ حالٍ .

٦١٣ - كُنْ أحسنَ ما تكونُ فى الظاهرِ حالًا أقلَّ ما تكون فى الباطنِ مالًا .

٦١٤ - لاتكونَنَّ المحدِّثَ منْ لايسمعُ منهُ ، والدّاخلَ فى سِرِّ اثنينِ لم يُدْخِلاهُ

فيهِ ، ولا الآتى وليمــةً لم يُدْعَ إليها ، ولا الجالسَ فى مجلسٍ لا يستحقُّهُ ، ولا طالبَ الفضلِ منْ أيدى اللّئامِ ، ولا المتحمّقَ فى الدّالّةِ ، ولا المتعرّضَ للخيرِ منْ عندِ العدُوِّ .

٦١٥ ـ اطبعِ الطّينَ ما دامَ رطباً ، واغرسِ العودَ ما دامَ لدْناً .

٦١٦ ـ خَفِ اللهَ حتى كأنّكَ لمْ تُطِعْهُ ، وارْجُ اللهَ حتى كأنّكَ لم تعصِهِ .

٦١٧ ـ لا تبلُغْ فى سلامِكَ على الإخوانِ حدَّ النِّفاقِ ، ولا تقصُرْهُمْ عنْ درجةِ الاستحقاق .

٦١٨ ـ انْصَحْ لكلِّ مستَشِيرٍ ، ولا تستَشِرْ إلّا النّاصحَ اللّبيبَ .

٦١٩ ـ ما أقبحَ بِكَ أن ينادَى غداً : يا أهلَ خطيئةِ كذا ؛ فتقومَ معهم ، ثم ينادى ثانياً : يا أهلَ خطيئةِ كذا ، فتقومَ معهمْ . ما أراكَ يا مسكينُ إلّا تقومُ معَ أهلِ كُلِّ خطيئةٍ !

٦٢٠ ـ ما أصابَ أحدٌ ذنباً ليلاً إلّا أصبحَ وعليهِ مَذلّتُهُ .

٦٢١ ـ الاستغفارُ يحُتُّ الذنوبَ حَتَّ الورق ؛ ثمّ تلا قولهُ تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (١) .

٦٢٢ ـ أيُّها المُستَكثِرُ منَ الذّنوبِ ، إنّ أباكَ أُخْرِجَ منَ الجنّةِ بذنبٍ واحدٍ .

٦٢٣ ـ إذا عصَى الرّبَّ منْ يعرفُهُ سلّطَ عليه منْ لا يعرفُهُ .

٦٢٤ ـ لقاءُ أهلِ الخيرِ عمارةُ القلوبِ .

٦٢٥ ـ أنا منْ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّمَ كالعضُدِ منَ المنكِبِ ، وكالذّراعِ

---

(١) سورة النساء : ١١٠ .

منَ العَضُدِ ، وكالـكَفِّ منَ الذراعِ ؛ رَبَّانى صغيراً ، وآخانى كبيراً ؛ ولقدْ علِمْتُمْ أنى كانَ لى منهُ مجلسُ سِرٍّ لا يَطَّلِـعُ عليه غيرى ؛ وأنهُ أوْصَى إلىَّ دونَ أصحابِهِ وأهلِ بيتِـهِ ؛ ولأقولَنَّ ما لم أَقُلْهُ لأَحدٍ قبلَ هذا اليوم ، سألتُهُ مرَّةً أن يدعُوَ لى بالمغفرة فقال : أفعلُ ، ثمَّ قامَ فصلَّى ، فلمّا رفعَ يدهُ لِلدُّعاءِ استمعْتُ عليه، فإذا هوَ قائِلٌ : اللّهمّ بحقِّ عليٍّ عندكَ اغفِرْ لعليٍّ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ، ما هذا ؟ فقال : أوَاحِدٌ أكرمُ منكَ عليه فأسْتَشْفِـعَ بهِ إليه !

٦٢٦ — واللهِ ما قلعْتُ بابَ خَيْـبَرَ ، ودَكْدَكْتُ (١) حِصْنَ يهودٍ بقُوَّةٍ جِسْمانيَّةٍ بل بقُوَّةٍ إلٰهِيَّةٍ .

٦٢٧ — يابنَ عوْفٍ، كيفَ رأيتَ صنيعَكَ مع عُثْمانَ ! رُبَّ واثِقٍ خَجِلَ ، ومَنْ لمْ يتوخَّ بعملِهِ وجْهَ اللهِ عادَ مادِحُهُ منَ الناسِ له ذامًّا .

٦٢٨ — لو رأيْتَ ما فى ميزانِكَ لختمْتَ على لسانِكَ .

٦٢٩ — ليس الحلمُ ما كان حالَ الرِّضا ، بل الحلمُ ما كان حالَ الغضبِ .

٦٣٠ — ليس شىءٌ أقطَـعَ لظهْرِ إبليس منْ قولِ : « لا إلٰهَ إلّا اللهُ » ، كلمةِ التَّقوَى .

٦٣١ — لا تحملوا ذنوبَـكُمْ وخَطاياكُم على اللهِ ، وتَذَرُوا أنفسَـكُمْ والشَّيطانَ .

٦٣٢ — إنّ أخْوَفَ ما أخاف على هذهِ الأُمَّةِ منَ الدَّجّالِ، أئمّةٌ مُضِلّونَ وهُمْ رؤساءُ أهلِ البِدَعِ .

٦٣٣ — إذا زلَلْتَ فارجعْ ، وإذا ندمتَ فأقلعْ ، وإذا أسأتَ فاندمْ ؛ وإذا مننْتَ فاكتُمْ ، وإذا منعتَ فأجْمِلْ ، ومنْ يُسْلِفِ المعروفَ يكنْ رِبحُهُ الحمدَ .

---

(١) دكدك الحصن : هدمه .

٦٣٤ ـ استشِرْ عدوَّكَ تجربةً لتعلمَ مقدارَ عداوتِهِ .

٦٣٥ ـ لا تطلُبَنَّ من نفسكَ العامَ ما وعدتْكَ عاماً أوَّلَ .

٦٣٦ ـ أطولُ الناس عُمراً منْ كثُرَ علمهُ ، فتأدَّبَ به مَنْ بعدهُ ، أو كَثُرَ معروفهُ فشرُفَ به عقِبهُ .

٦٣٧ ـ استهينوا بالموت فإنَّ مرارتهُ فى خوفِهِ .

٦٣٨ ـ لا دينَ لمنْ لا نيِّةَ لهُ ، ولا مالَ لمنْ لا تدبيرَ لهُ ، ولا عيشَ لِمَنْ لا رِفْقَ لهُ .

٦٣٩ ـ مَنِ اشتغلَ بتفقُّدِ اللَّفْظةِ ، وطلبِ السَّجْعَةِ[١] ، نسىَ الُحجَّةَ .

٦٤٠ ـ الدُّنيا مطيةُ المؤمنِ ، عليها يرتحل إلى ربِّهِ ، فأصلحوا مطاياكُمْ تُبلِّغكُمْ إلى ربِّكُمْ .

٦٤١ ـ من رأى أنهُ مسىءٌ فهو محسنٌ ، ومن رأى أنهُ محسنٌ فهو مسىءٌ .

٦٤٢ ـ سيئةٌ تسوءكَ خيرٌ منْ حسنةٍ تعجبُكَ .

٦٤٣ ـ اطلبوا الحاجاتِ بعزَّةِ الأنفُسِ ؛ فإنَّ بيدِ الله قضاءها .

٦٤٤ ـ عذِّبْ حُسّادَكَ بالإحسان إليهمْ .

٦٤٥ ـ إظهارُ الفاقةِ من خمولِ الهمّةِ .

٦٤٦ ـ يا عالِمُ ، قد قامَ عليكَ حُجّةُ العِلْمِ ، فاستيقظْ من رقدتِكَ .

٦٤٧ ـ الرِّفقُ يفلُّ حدَّ المخالفةِ .

٦٤٨ ـ أرْجحُ الناسِ عقلًا ، وأكملهمْ فضلًا ؛ منْ صحب أيّامَهُ بالموادعةِ ، وإخوانه بالمسالمةِ ، وقَبِلَ من الزّمانِ عفوَهُ .

---

(١) أى من طلب تزيين الـكلام .

٦٤٩ ـ الوُجُوهُ إذا كثُرَ تقابُلُها ، اعتصرَ بعضُها ماءَ بعض .

٦٥٠ ـ أداءُ الأمانةِ مفتاحُ الرِّزْق .

٦٥١ ـ حصّن عِلمَكَ منَ العُجْب ، ووقارَكَ من الكِبْر ، وعطاءَكَ منَ السَّرَفِ ، وصرامتكَ منَ العجلةِ ، وعقوبتكَ منَ الإفراطِ ، وعَفْوكَ من تعطيلِ الحدودِ ، وصَمْتكَ منَ العِيِّ ، واستماعَكَ مِنْ سُوءِ الفَهْم ، واستئناسَكَ من البَذاءِ ، وخلَواتِكَ مِنَ الإضاعةِ ، وغَراماتِكَ منَ اللَّجاجةِ وَروَغانَكَ منَ الاستسلامِ ، وحَذَراتِكَ منَ الجُبْن .

٦٥٢ ـ لا تجدُ للموتورِ المحقودِ أماناً مِنْ أذاهُ أوْثقَ من البعدِ عنه ، والاحتراسِ منه .

٦٥٣ ـ احذرْ من أصحابك ومخالطيكَ الكثيرَ المسألة ، الخشنَ البحْثِ ، اللّطيفَ الاستدراجِ ، الذي يحفظُ أوَّلَ كلامكَ على آخرِهِ ، ويَعتبرُ ما أخَّرْتَ بما قدَّمْتَ ، ولا تُظهرنَّ له المخافة فيرى أنك قد تحرَّزْتَ وتحفَّظْتَ . واعلم أنَّ منْ يقظةِ الفطنةِ إظهارَ الغفلةِ معَ شدَّةِ الحَذَر ، فخالِطْ هذا مخالطةَ الآمِنِ ، وتحفَّظْ منهُ تحفُّظَ الخائفِ ؛ فإنَّ البَحْثَ يُظهِرُ الخفيَّ ، ويُبْدى المستورَ الكامنَ .

٦٥٤ ـ من سَرَّهُ الغِنى بلا سلطان ، والكثرةُ بلا عشيرةٍ ، فليخرجْ منْ ذُلِّ معصيةِ اللهِ إلى عزِّ طاعتهِ ؛ فإنّهُ واجِدٌ ذلكَ كلّه .

٦٥٥ ـ الشيْبُ إعذارُ الموتِ .

٦٥٦ ـ منْ ساسَ نفسهُ بالصبرِ على جهْلِ النَّاسِ صلَحَ أنْ يكونَ سائساً .

٦٥٧ ـ للهِ تعالى كلَّ لحظةٍ ثلاثةُ عساكرَ : فعسكرٌ ينزلُ من الأصلابِ إلى الأرحامِ ، وعسكرٌ ينزِلُ منَ الأرحام إلى الأرضِ ، وعسكر يرتحلُ من الدُّنيا إلى الآخرةِ .

٦٥٨ - اللهمَّ ارحمنى رحمةَ الغفرانِ ، إنْ لمْ ترحمنى رحمةَ الرضا .

٦٥٩ - إلهى كيفَ لا يحسُنُ منِّى الظَّنُّ وقد حسُنَ منكَ المنُّ ! إلهى إنْ عاملتنا بعدْلِكَ لمْ يبقَ لنا حسنةٌ ، وإنْ أنلتنا فضلكَ لمْ يبقَ لنا سيِّئةٌ .

٦٦٠ - العلمُ سُلطانٌ ، منْ وجدهُ صالَ به ، ومنْ لم يجدْهُ صِيلَ عليه .

٦٦١ - يابنَ آدمَ إنَّما أنتَ أيَّامٌ مجموعةٌ ؛ فإذا مضى يومٌ مضى بعضُكَ .

٦٦٢ - حيثُ تكونُ الحكمةُ تكونُ خشيةُ اللهِ ، وحيثُ تكونُ خشيتُهُ تكونُ رحمته .

٦٦٣ - اللهمَّ إنى أرى لدَىَّ منْ فضلكَ مالمْ أسألكَ ، فعلمت أنَّ لديكَ من الرحمة مالا أعلم ، فصغرتْ قيمةُ مطلبى فيما عاينت ، وقصرتْ غايةُ أملى عندما رجوت ، فإنْ ألحفت فى سُؤالى فَلِفاقتى إلى ماعنـدك ، وإن قصَّرْتُ فى دعائى فبما عوَّدْتَ من ابتدائكَ .

٦٦٤ - منْ كانَ همّتهُ مايدْخلُ جوْفهُ كانت قيمتُهُ مايخرج منهُ .

٦٦٥ - يقولُ اللهُ تعالى : يابْنَ آدمَ ، لم أخلقكَ لأرْبحَ عليكَ ، إنما خَلَقْتُكَ لِترْبحَ علىَّ ، فاتَّخِذْنى بدلًا منْ كلِّ شىءٍ فإنى ناصر لك من كل شىء .

٦٦٦ - الرَّجاءُ للخالقِ سُبحانهُ أقوى منَ الخوْفِ ، لأنك تخافهُ لذنبك ، وترجوه لجودِهِ ، فالخوف لك والرَّجاءُ لهُ .

٦٦٧ - أسألُكَ بعزَّةِ الوحْدانيَّةِ ، وكرَمِ الإلٰهيَّة ، ألَّا تقطعَ عنِّى برَّكَ بعْدَ مماتى ، كما لم تزلْ ترانى أيَّامَ حياتى ، أنْتَ الَّذى تجيبُ مَنْ دعاكَ ، ولا تخيبُ منْ رَجاكَ ، ضلَّ منْ يدعُو إلَّا إيَّاكَ ، فإنكَ لا تحْجُبُ من أتاكَ ، وتفْضُلُ على منْ

عصاكَ ، وَلا يفوتُك من ناوَاك ، ولا يُعْجِزُك منْ عادَاك ؛ كلٌ فى قُدْرتك ، وكلٌّ يأكلُ رِزقكَ .

٦٦٨ ـ لا تطلبنَّ إلى أحدٍ حاجةً ليلًا ؛ فإنَّ الحياء فى العينين.

٦٦٩ ـ منِ ازدَاد علماً فليحذرْ منْ توكيدِ الحجَّةِ عليْه .

٦٧٠ ـ العاقلُ يُنافسُ الصالحينَ ليلحقَ بهمْ ، ويحبُّهمْ ليشاركَهُمْ بمحبته ؛ وإن قصَّر عنْ مِثلِ عملهمْ ، والجاهِلُ يذمُّ الدُّنيا ولا يَسْخو بإخراج أقلّها ، يمدحُ الجودَ ، ويبخلُ بالبَذل ، يتمنَّى التوْبة بطولِ الأَمَلِ ، ولا يُعجّلُها لخوْفِ حُلُولِ الأجلِ ، يرْجُو ثوابَ عملٍ لم يعملْ به ، ويفرُّ من الناسِ ليطلبَ ، ويخفى شخصهُ لِيشتَهِرَ ، ويذمُّ نفسهُ ليمدحَ ، وينهى عن مدْحهِ وهو يحبُّ ألّا ينتهى من الثناء عليه .

٦٧١ ـ الأنسُ بالعلمِ من نبْل الهمَّةِ .

٦٧٢ ـ اللهمَّ كما صُنت وَجهى عن السُّجودِ لغيْركَ ، فصُنْ وجهى عن مسألةغيرك.

٦٧٣ ـ من الناسِ منْ ينقصكَ إذا زِدتهُ ، ويهُونُ عليكَ إذا خاصَصتهُ ، ليسَ لرضاهُ موْضعٌ تعرفهُ ، ولا لسخطهِ مكانٌ تحذَرهُ ، فإذا لقِيت أولئكَ فابذلْ لهم موْضعَ المودَّةِ العامَّةِ ، واحْرِمهمْ موْضعَ الخاصَّةِ ؛ ليكُونَ مابذلْت لهمْ منْ ذلك حائلًا دونَ شرِّهمْ ، وماحرَمْتهمْ منْ هذا قاطعاً لحرْمتهم .

٦٧٤ ـ مَن شَبِـعَ عُوقب فى الحالِ ثلاث عقوباتٍ : يُلْقَى الغِطاء على قلبهِ ، والنُّعاس على عينهِ ، والـكسلُ على بدَنه .

٦٧٥ ـ ذمُّ العُقلاء أشدُّ من عُقُوبة السلطانِ .

٦٧٦ ـ يقطعُ البليغَ عن المسألة أمْرانِ : ذُلُّ الطَّلب ، وخَوْفُ الرَّدِّ .

٦٧٧ ـ المؤْمِن محدَّثٌ .

٦٧٨ ـ قلَّ أن ينطق لِسانُ الدَّعْوى إلا ويُخْرِسه كِعامُ[1] الامتحان .

٦٧٩ ـ انظر ما عندك فلا تَضَعْهُ إلا فى حَقّه ؛ وما عند غيرك فلا تأخُذْهُ إلا بحقه .

٦٨٠ ـ إذا صافاك عدُوُّك رِياء مِنه فَتَلَقّ ذلك بأوْكد مَوَدَّةٍ ؛ فإنه إن ألِف ذلك واعتادَهُ خَلُصَت لك مَودَّتهُ .

٦٨١ ـ لا تأْنَفْ المسألة فيألفكَ المَنعُ .

٦٨٢ ـ لا تسْأل الحوائجَ غيْر أهْلها ، ولا تسْألها فى غيْرِ حينِها ، ولا تسألْ مالسْت لهُ مُستحقًّا فتكونَ للحرْمانِ مُستوجِباً .

٦٨٣ ـ إذا غشّكَ صدِيقكَ فاجْعَلْهُ معَ عدوّكَ .

٦٨٤ ـ لا تعدَّنَّ منْ إخْوانكَ منْ آخاكَ فى أيّام مقْدرتكَ للمقْدُرة ، واعلم أنه ينتقلُ عنكَ فى أحْوالٍ ثلاثٍ : يكُونُ صديقاً يومْ حاجته إليْك ، ومُعرِضاً يوْم غناهُ عنكَ ، وعدُوًّا يوْمَ حاجتكَ إليْهِ .

٦٨٥ ـ لا تُسرَّنَّ بكثْرَةِ الإخوَان ما لمْ يكُونوا أخياراً ؛ فإنّ الإخوانَ بمنزلةِ النّار الّتى قَليلها متاعٌ ، وكثيرُها بوَارٌ .

٦٨٦ ـ كفاكَ خيانةً أنْ تكُونَ أميناً للخَونةِ .

٦٨٧ ـ لا تحقرنَّ شيئاً من الخير وإن صغر ؛ فإنك إذا رأيته سرّكَ مكانه ؛ ولا تحقرنَّ شيئاً من الشرّ وإن صغر، فإنك إذا رأيته ساءكَ مكانه .

٦٨٨ ـ يا بن آدم ؛ ليْسَ بِك غناء عنْ نصيبكَ مِن الدُّنْيا ، وأنْتَ إلى نصيبك منَ الآخرةِ أفقرُ .

(١) الكعام : ما يشد به فم البعير .

٦٨٩ ـ معصيةُ العالم إذا خفيَتْ لم تضرَّ إلَّا صاحبها ، وإذا ظهرتْ ضرَّتْ صاحبها والعامَّةَ .

٦٩٠ ـ يجبُ على العاقل أنْ يكُونَ بما أحيا عقلَهُ من الحكْمةِ أكْلَفَ منهُ بما أحيا جسمَهُ مِنَ الغِذاء .

٦٩١ ـ أعسرُ العيُوبِ صلاحاً العُجْبُ واللَّجاجة .

٦٩٢ ـ لِكلٍّ نعمةٍ مِفتاحٌ ومغْلاقٌ ، فمفْتاحُها الصبرُ ، ومغْلاقُها الكسلُ .

٦٩٣ ـ الحزْنُ والغضبُ أميرانِ تابعانِ لوقُوعِ الأَمْرِ بخلافِ ما تُحِب ، إلَّا أن المكرُوهَ إذا أتاك ممَّنْ فوقكَ نتجَ عليكَ حُزْناً ، وإن أتاكَ ممَّنْ دونك نتج عليكَ غضباً .

٦٩٤ ـ أولُ المعروفِ مُستخَفٌّ ، وآخرهُ مُستثقلٌ ؛ تكادُ أوائله تكُونُ لِلهوَى دُونَ الرَّأى ، وَأَوخرُهُ للرَّأى دُونَ الهوَى ؛ ولذلك قيلَ : ربُّ الصنيعةِ أشدُّ من الابتداء بها .

٦٩٥ ـ لا تدعُ اللهَ أنْ يُغنيكَ عنِ النَّاسِ فإن حاجات الناسِ بعضهمْ إلى بعض متصلةٌ كاتصالِ الأعْضاء فمتى يستغنى المرْء عنْ يدِهِ أوْ رِجْله ! ولكن ادعُ اللهَ أنْ يُغنيكَ عنْ شِرارِهمْ .

٦٩٦ ـ احترسْ مِنْ ذِكرِ العلمِ عِند منْ لا يرْغبُ فيه ؛ ومِنْ ذِكرِ قديمِ الشَّرفِ عِند منْ لا قدِيمَ لهُ ، فإنَّ ذلكَ ممَّا يحقدُهُما عليك .

٦٩٧ ـ ينبغى لِذوى القرَابات أن يتزاورُوا ولا يتجاورُوا .

٦٩٨ ـ لا تواخِ شاعِراً فإنهُ يمدحُكَ بثمن ، ويهجُوكَ مجاناً .

٦٩٩ ـ لا تُنزلْ حوائجكَ بجيِّدِ اللِّسانِ ، ولا بمتسرِّعٍ إلى الضمانِ .

٧٠٠ - كلَّ شيء طلبتَهُ فى وقتهِ فقدْ فاتَ وقتهُ

٧٠١ - إذا شككْتَ فى مودة إنْسان فاسْألْ قلبكَ عنه .

٧٠٢ - العقلُ لم يجْنِ على صاحبهِ قطُّ ؛ والعلمُ مِنْ غيْرِ عقلٍ يَجْنى على صاحبهِ .

٧٠٣ - يابن آدمَ ؛ هلْ تنتظرُ إلاَّ هَرَماً حائلاً [1] ، أوْ مرضاً شاغِلاً ، أوْ موْتاً نازِلاً !

٧٠٤ - ابنك يأْكلُكَ صَغيراً ويرِثُكَ كبيراً ، وابنتكَ تأْكلُ مِنْ وِعائك ، وترثُ مِنْ أعْدائكَ ، وابن عمك عدوُّكَ وعدوُّ عدوِّكَ ، وَزوْجتك إذا قلْتَ لها قُومى قامَتْ .

٧٠٥ - إذا ظفرْتُمْ فأكْرِمُوا الغَلَبَةَ ، وعليكمْ بالتغافُلِ فإنه فعلُ الكِرَام ، وإيَّاكُم والمنَّ فإنهُ مَهْدمةٌ للصنيعةِ ، مفبهةٌ للضغينةِ .

٧٠٦ - منْ لمْ يرْجُ إلاَّ مايستوْجِبهُ أدْرَكَ حاجتَهُ .

٧٠٧ - بلغَ منْ خدَعَ النَّاسِ ، أن جعلُوا شكرَ الموْتى تجارةً عِندَ الأَحْياء ، والثناء على الغائبِ اسْتِمَالة للشاهدِ .

٧٠٨ - من احْتاج إليكَ ثقلَ عليكَ ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الخيرُ أصْلحَهُ الشرُّ ، ومنْ لمْ يُصْلِحهُ الطالى أصلحه الكاوِى .

٧٠٩ - منْ أكْثرَ منْ شيء عُرِفَ بهِ ، ومِنْ زَنى زُنى بهِ ، ومنْ طَلَب عظيما خاطرَ بعظمَتهِ ، ومنْ أحبَّ أنْ يصرِمَ [2] أخاهُ فليُقْرِضْهُ ثم ليتَقاضهُ [3] ؛ ومنْ أحبّكَ لشىءٍ ملكَ عندَ انقضائهِ ، ومن عُرِفَ بالحكْمةِ لاحظتهُ العُيونُ بالوقارِ .

---

(١) حائلا ؛ أى مانعاً يمنعه من أداء أعماله . (٢) يقطع مودته . (٣) يطالب منه ما اقترض .

٧١٠ ـ من بلغ السبعين اشتكى من غير علة .

٧١١ ـ فى المال ثلاث خصال مذمومة : إما أن يكتسب من غير حله ، أو يمنع إنفاقه فى حقه ، أو يشغل بإصلاحه عن عبادة الله تعالى .

٧١٢ ـ يباعدك من غضب الله ألا تغضب .

٧١٣ ـ لاتستبدلن بأخ لك قديم أخاً مستفاداً ما استقام لك ؛ فإنك إن فعلت فقد غيرت ، وإن غيرت تغيرت نعم الله عليك .

٧١٤ ـ أشد من البلاء شماتة الأعداء .

٧١٥ ـ ليس يزنى فرجك إن غضضت طرفك .

٧١٦ ـ كما ترك لكم الملوك الحكمة والعلم فاتركوا لهم الدنيا .

٧١٧ ـ الهدية تفقأ عين الحكيم .

٧١٨ ـ ليكن أصدقاؤك كثيراً ، واجعل سرك منهم إلى واحد .

٧١٩ ـ ياعبيد الدنيا ؛ كيف تخالف فروعكم أصولكم ، وعقولكم أهواءكم ، قولكم شفاء يبرئ الداء ، وعملكم داء لا يقبل الدواء ؛ ولستم كالكرمة التى حسن ورقها ، وطاب ثمرها ، وسهل مرتقاها ؛ ولكنكم كالشجرة التى قل ورقها ، وكثر شوكها ، وخبث ثمرها ، وصعب مرتقاها . جعلتم العلم تحت أقدامكم ، والدنيا فوق رءوسكم ؛ فالعلم عندكم مذال (١) ممتهن ، والدنيا لايستطاع تناولها ؛ فقد منعتم كل أحد من الوصول إليها ؛ فلا أحرار كرام أنتم ، ولا عبيد أتقياء . ويحكم يا أجراء السوء ! أما الأجر فتأخذون ، وأما العمل فلا تعملون ؛ إن عملتم للعمل تفسدون ، وسوف تلقون ماتفعلون ، يوشك رب العمل أن ينظر فى عمله الذى أفسدتم ، وفى أجره الذى أخذتم . ياغرماء السوء ، تبدءون بالهدية قبل قضاء

(١) الإذالة : الإهانة .

الدَّين ، تتطوَّعون بالنوَافلِ ولا تؤدُّون الفرائضَ ، إن ربَّ الدَّينِ لا يرضى بالهديةِ حتَّى يُقضى دينهُ .

٧٢٠ ـ الدُّنيا مزرعةُ إبليس ، وأهلُها أكَرةٌ حرَّاثون لهُ فيها .

٧٢١ ـ واعجباً ممَّنْ يعملُ للدُّنيا وهوَ يرزقُ فيها بغيرِ عمل ، ولا يعملُ للآخرةِ وهوَ لا يرزقُ فيها إلّا بالعملِ !

٧٢٢ ـ لا تُجالسُوا إلّا من يذكِّرُكُمُ اللهَ رؤيتهُ ، ويزيدُ فى عملكمْ منطقةُ ، ويرغِّبكُمْ فى الآخرةِ عملهُ .

٧٢٣ ـ كثرةُ الطعامِ تميتُ القلبَ كما تميتُ كثرةُ الماء الزرْعَ .

٧٢٤ ـ ضربُ الوالدِ الولدَ كالسّمادِ للزرع .

٧٢٥ ـ إذا أردْتَ أن تصادِق رجلاً فأغضبْهُ ، فإن أنصفك فى غضبهِ وإلّا فدعهُ .

٧٢٦ ـ إذا أتيتَ مجلسَ قومٍ فارمهمْ بسهْمِ الإسلامِ ، ثمَّ اجلِسْ ـ يعنى السّلامَ ـ فإنْ أفاضوا فى ذكرِ اللهِ فأجلْ سهمكَ معَ سِهامهم ، وإنْ أفاضوا فى غيرهِ فخلِّهمْ وانهضْ .

٧٢٧ ـ الأوْطار تكسبُ الأوزارَ ، فارفُضْ وطرَكَ ، واغْضُضْ بصركَ .

٧٢٨ ـ إذا قعدْتَ عندَ سُلطانٍ فليكنْ بينكَ وبينهُ مقعدُ رجلٍ ؛ فلعلّهُ أنْ يأتيهُ منْ هو آثرُ عنده منك ؛ فيريدُ أنْ تتنحّى عن مجلسكَ ، فيكونُ ذلكَ نقصاً عليك وشَيْناً .

٧٢٩ ـ ارحمِ الفقراء لقلّةِ صبرهم ، والأغنياء لقلّةِ شُكْرهمْ ، وارحمِ الجميع لِطُول غفلتهِمْ .

٧٣٠ – العالِمُ مصباحُ اللهِ فى الأرضِ ، فمَنْ أرادَ اللهُ به خيراً اقتبسَ منه .

٧٣١ – لا يهونَنَّ عليك مِنْ قبُحَ منظرُهُ ورَثَّ لباسُهُ ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ينظرُ إلى القلوبِ ويُجازِى بالأعمالِ .

٧٣٢ – مَنْ كَذَبَ ذهَبَ بماءِ وجهِهِ ، ومَنْ ساءَ خُلُقُهُ كثُرَ غمُّهُ ، ونقْلُ الصخورِ مِنْ مواضعِها أهْوَنُ مِنْ تفهيمِ مَن لا يفهمُ .

٧٣٣ – كنتُ فى أيَّامِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله كجزءٍ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله ، ينظرُ إلىَّ الناسُ كما يُنظَرُ إلى الكواكِبِ فى أُفقِ السماءِ ، ثم غضَّ الدَّهرُ منِّى ، فقُرِنَ بى فلانٌ وفلانٌ ، ثم قُرِنْتُ بخمسةٍ أمثلُهُمْ عثمانُ ، فقلتُ : واذَفراهُ[1] ! ثم لم يرْضَ الدهرُ لى بذلِكَ ؛ حتى أرذلنى ، فجعلنى نظيراً لابْنِ هِنْدٍ وابْنِ النابغَةِ ! لقد استنَّت الفصالُ حتى القرْعى .

٧٣٤ – أما والَّذِى فلقَ الحبَّةَ ، وبرَأَ النَّسَمَةَ ، إنه لعَهْدُ النَّبِىِّ الأُمىِّ إلىَّ أنَّ الأمَّةَ ستغدرُ بك مِنْ بعدى .

٧٣٥ – لامَتْهُ فاطمةُ على قعُودِهِ وأطالت تعنيفهُ ؛ وهو ساكتٌ حتى أذَّنَ المُؤذِّنُ، فلما بلغَ إلى قوله : « أشهدُ أنَّ مُحَمَّداً رسُولُ اللهِ » ، قالَ لها : أتحِبِّينَ أنْ تزولَ هذهِ الدعوةُ منَ الدُّنيا ؟ قالت : لا ، قالَ فهُوَ ما أقولُ لَكِ .

٧٣٦ – قالَ لى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله : إنِ اجتمعوا عليكَ فاصنعْ ما أمرتُكَ ؛ وإلّا فألْصِقْ كَلْكَلَكَ بالأرْضِ ؛ فلما تفرَّقوا عَنِّى جررْتُ على المكْرُوهِ ذيلِى ، وأغضيْتُ على القذَى جفنى ، وألصقْتُ بالأرضِ كَلْكَلِى .

٧٣٧ – الدُّنيا حُلْمٌ والآخرةُ يقظةٌ ؛ ونحنُ بينَهُما أضغاثُ أحلامٍ .

---

(١) الذفر : الرائحة الخبيثة .

٧٣٨ ـ لَمَّا عرَف أهلُ النقص حالَهُمْ عندَ أهلِ الكمالِ ، استعانوا بالكِبْرِ لِيُعَظِّمَ صغيراً ، ويرفعَ حقيراً ، وليسَ بفاعلٍ .

٧٣٩ ـ لوتميّزَتِ الأشياء كانَ الكَذِبُ مع الجُبْنِ ، والصِّدقُ مع الشجاعَةِ ، والرّاحـةُ مع اليأسِ ، والتّعَبُ مع الطمعِ ، والحرمانُ مع الحرصِ ، والذُّلُّ مع الدَّيْنِ .

٧٤٠ ـ المعروفُ غُلٌّ لا يَفُكُّه إلّا شكرٌ أو مكافأةٌ .

٧٤١ ـ كثرةُ مالِ الميِّتِ تسلّي ورثَتَهُ عنه .

٧٤٢ ـ من كَرُمتْ عليهِ نفْسُهُ هانَ عليه مالُهُ .

٧٤٣ ـ من كَثُرَ مُزَاحُهُ لم يسلَمْ منَ استخفافٍ به ، أوْ حقدٍ عليه .

٧٤٤ ـ كثرةُ الدَّيْنِ تضطرُّ الصادقَ إلى الكذبِ والواعدَ إلى الإخلافِ .

٧٤٥ ـ عارُ النَّصيحةِ يكدِّرُ لذّتَها .

٧٤٦ ـ أوّلُ الغضبِ جنونٌ ، وآخِرُهُ ندمٌ .

٧٤٧ ـ انفرِدْ بسرِّكَ ولا تودعهُ حازِماً فيزلّ ، ولا جاهِلاً فيخونَ .

٧٤٨ ـ لاتقطعْ أخاكَ إلّا بعدَ عجزِ الحيلَةِ عن استصلاحِهِ ، ولا تُتبعه بعدَ القطيعةِ وقيعةً فيه ؛ فتَسُدَّ طريقَهُ عنِ الرُّجوعِ إليك ، ولعلَّ التجارِبَ أنْ تردَّهُ عليك وتُصْلِحَهُ لكَ .

٧٤٩ ـ منْ أحسَّ بضعف حيلتِهِ عن الاكتسابِ بخلَ .

٧٥٠ ـ الجاهلُ صغيرٌ وإنْ كانَ شيخاً ، والعالِمُ كبيرٌ وإنْ كان حَدَثاً .

٧٥١ ـ الميّتُ يقِلُّ الحسدُ له ، ويكْثُرُ الكذبُ عليهِ .

٧٥٢ ـ إذا نزلَتْ بك النعمةُ فاجعلْ قِراها الشكْرَ .

٧٥٣ - الحِرْصُ ينقُصُ من قدرِ الإنسانِ ولا يزيدُ فى حظِّهِ .

٧٥٤ - الفرصةُ سريعةُ الفوتِ بطيئةُ العوْدِ .

٧٥٥ - أبخَلُ الناسِ بمالِهِ أجودهم بِعِرْضه .

٧٥٦ - لاتتبعِ الذنبَ العقوبةَ واجعلْ بينهما وقتاً للاعتذارِ .

٧٥٧ - اذكُرْ عندَ الظلمِ عدلَ اللهِ فيكَ ، وعندَ القدرةِ قدرةَ اللهِ عليك .

٧٥٨ - لايحملنَّكَ الحنَقُ على اقترافِ الإثمِ فتَشفى غيظك وتسقم دينك .

٧٥٩ - المُلْكُ بالدِّينِ يبقى والدِّينُ بالملكِ يقوى .

٧٦٠ - كأنَّ الحاسدَ إنَّما خلقَ ليغتاظَ .

٧٦١ - عقلُ الكاتبِ فى قلمِهِ .

٧٦٢ - اقتصِرْ منْ شهوةٍ خالفتْ عقلكَ بالخلافِ عليها .

٧٦٣ - اللهُمَّ صُنْ وجهى باليسارِ ، ولا تبذلْ جاهى بالإقتارِ ؛ فأسترزقَ طالبى رزقِكَ ، وأستعطفَ شِرَارَ خلقك ، وأُبْتَلَى بحمد منْ أعطانى ، وأفتتِنَ بذمِّ من منعنى ؛ وأنتَ منْ وراءِ ذلكَ ولىُّ الإعطاءِ والمنعِ ، إنكَ على كُلِّ شىءٍ قديرٌ .

٧٦٤ - كلُّ حقدٍ حقدتْهُ قريشٌ على رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وَآلِهِ أظهرتْهُ فىَّ وستُظهِرُهُ فى ولدى من بعدى ، مالِىَ ولقريشٍ ! إنما وترْتُهُمْ[1] بأمرِ اللهِ وأمرِ رَسُولِهِ ؛ أفهذا جزاءُ منْ أطاعَ اللهَ ورَسُولَهُ إن كانوا مسلمينَ !

٧٦٥ - عجباً لسعدٍ وابْنِ عمر ! يزعمانِ أنى أحاربُ على الدُّنيا ، أفكانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله يحاربُ على الدنيا ! فإنْ زعما أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله حاربَ لتكسيرِ الأصنامِ ، وعبادةِ الرَّحْمٰنِ ؛ فإنما حاربْتُ لدفعِ الضلالِ والنَّهْىِ عنِ

---

(١) وترتهم : أحدثت عندهم وتراً .

الفحشاءِ والفساد ؛ أفمثلي يُزَنُّ بحبِّ الدُّنيا ! واللهِ لو تمثّلتْ لِي بَشَراً سويًّا لضربتُها بالسيف .

٧٦٦ ــ اللهُمَّ أنتَ خلقتني كما شئْتَ ، فارحمني كيف شِئْتَ ، ووفِّقني لطاعتكَ ، حتى تكونَ ثقتي كلّها بكَ ، وخَوْفي كله منكَ .

٧٦٧ ــ لا تَسُبَّنَّ إبليسَ في العلانيَةِ وأنت صديقُهُ في السِّرِّ .

٧٦٨ من لم يأخذْ أُهْبَةَ الصلاةِ قبلَ وقتِها فما وقَّرَها .

٧٦٩ ــ لا تطمعْ في كلِّ ما تسمعُ .

٧٧٠ ــ منْ عاتَبَ ووبَّخَ فقد استوفَى حقَّهُ .

٧٧١ ــ الجودُ الذي يستطاعُ أن يُتناولَ به كُلُّ أحدٍ ، هوَ أن ينوِيَ الخيرَ لكلِّ أحدٍ .

٧٧٢ ــ منْ صحبَ السلطانَ بالصحّةِ والنصيحةِ كان أكثرَ عدوًّا مِمَّنْ صحبَهُ بالغشِّ والخيانةِ .

٧٧٣ ــ منْ عابَ سَفِلَةً فقد رفعهُ ، ومن عابَ كريماً فقد وضعَ نفسهُ .

٧٧٤ ــ الموالي ينصرونَ ، وبنو العمِّ يحسدونَ .

٧٧٥ ــ الصدقُ عزٌّ ، والكذبُ مذلّةٌ ، ومنْ عرفَ بالصدقِ جازَ كذبُهُ ، ومَن عرفَ بالكذبِ لم يجز صدقُهُ .

٧٧٦ ــ إذا سمعْتَ الكلمةَ تُؤْذيكَ فطأطِئْ لها فإنّها تتخطّاكَ .

٧٧٧ ــ نحنُ نريدُ ألّا نموتَ حتى نتوبَ ، ونحنُ لا نتوبُ حتى نموتَ .

٧٧٨ ــ أنزِلِ الصديقَ منزلةَ العدوِّ في رفعِ المؤنةِ عنهُ ، وأنزِلِ العدوَّ منزلةَ الصديقِ في تحمُّلِ المؤنةِ لهُ .

٧٧٩ – أوّلُ عقوبةِ الكاذب أنّ صدقَهُ يُرَدُّ عليه .

٧٨٠ – الأدبُ عندَ الأحمقِ كالماءِ العذبِ فى أصولِ الحنظلِ ، كلما ازداد رِيًّا ازداد مرارةً .

٧٨١ – إيَّاكم وحَمِيَّةَ الأوغادِ ؛ فإنّهُمْ يروْنَ العفو ضيْماً .

٧٨٢ – الكريمُ لا يستقصى فى مُحاقَّةِ المعتذرِ ، خوفاً أن يجزىَ من لا يجدُ مخرجاً من ذنْبِهِ .

٧٨٣ – العفوُ عن المقرِّ لا عن المُصِرِّ .

٧٨٤ – ما استغنى أحدٌ باللهِ إلا افتقرَ الناسُ إليه .

٧٨٥ – منْ جادَ بمالهِ فقد جادَ بنفسهِ ، فإن لم يكنْ جادَ بها بعينها فقد جادَ بِقِوامِها .

٧٨٦ – الدَّيْنُ ميسمُ الكرامِ ، وطالما وُقِّرَ الكرامُ بالدَّين !

٧٨٧ – الماضى قبلكَ هوَ الباقى بعدَكَ ، والتَّهْنئةُ بآجلِ الثوابِ أوْلَى منَ التَّعزيةِ بعاجلِ المُصابِ .

٧٨٨ – مِمّا تكتسبُ به المحبَّةُ أن تكونَ عالماً كجاهلٍ ، وواعظاً كموعوظٍ .

٧٨٩ – لا تحمدنَّ الصبىَّ إذا كان سخيًّا ، فإنّهُ لا يعرفُ فضيلةَ السخاءِ ؛ وإنَّما يعطى ما فى يده ضعفاً .

٧٩٠ – خيرُ الإخوانِ من إذا استغنيتَ عنه لم يزدْكَ فى المودَّةِ ، وإن احتجتَ إليه لم ينقُصْكَ منها .

٧٩١ – عجباً للسلطانِ ، كيفَ يُحْسِنُ ، وهو إذا أساءَ وجدَ من يزكّيهِ ويمدحُهُ !

٧٩٢ - إذا صادقْتَ إنساناً وجبَ عليكَ أن تكونَ صديقَ صديقِهِ ، وليسَ يجبُ عليكَ أن تكونَ عدوَّ عدوِّهِ ؛ لأنَّ هذا إنما يجبُ على خادِمِهِ وليسَ يجبُ على على مُماثِلٍ له .

٧٩٣ - ليس تكملُ فضيلة الرَّجُلِ حتَّى يكونَ صديقاً لمتعادِيَيْنِ .

٧٩٤ - منْ سَعادَةِ الحدثِ ألّا يتِمَّ لهُ فضيلةٌ فى رَذيلةٍ .

٧٩٥ - إذا مُنِعْتَ منْ شيءٍ قدِ التمسْتَهُ ، فلْيكنْ غيظُكَ منهُ على نفسِكَ فى المسألةِ أكثَرَ منْ غيظكَ على منْ منعكَ .

٧٩٦ - الأَسْخياء يشمتونَ بالبُخلاء عند الموْت ، والبخلاء يَشمتونَ بالأَسْخياء عند الفقرِ .

٧٩٧ - ليسَ يضبطُ العددَ الكثير منْ لا يضبطُ نفسهُ الواحدَةَ .

٧٩٨ - إذا أحسَنَ أحدٌ منْ أصْحابك فلا تخرُجْ إليهِ بغاية برِّكَ ؛ ولكنِ اترُكْ منهُ شيئاً تزيدهُ إيّاهُ عندَ تبيُّنِك منهُ الزِّيادةَ فى نصيحتِهِ .

٧٩٩ - الوُقوعُ فى المكرُوهِ أسهلُ منْ توقُّعِ المكرُوهِ .

٨٠٠ - الحسُودُ ظالِمٌ ، ضعفتْ يدُهُ عن انتزاع ماحسدكَ عليه ؛ فلمّا قصُرَ عليك بعثَ إليكَ تأسُّفهُ .

٨٠١ - أعمُّ الأَشْياء نفْعاً موتُ الأشرارِ .

٨٠٢ - الشيءُ المعزِّى للناسِ عنْ مَصائبهمْ عِلمُ العُلماء أنها نفعاءُ اضطراريةٌ وتأسِّى العامّةِ بعضها ببعضٍ .

٨٠٣ - العقلُ الإِصابةُ بالظنِّ ومعْرفةُ ما لم يكنْ بما كانَ .

٨٠٤ - يا عَجَباً للناسِ قد مكّنَهم اللهُ من الاقتداء به ، فيدَعُونَ ذلكَ إلى الاقتداء بالبهائم !

٨٠٥ - سلُوا القلوبَ عنِ المودات ؛ فإنها شُهودٌ لا تقبلُ الرِّشا .

٨٠٦ - إنما يحزَنُ الحسدةُ أبداً لأنهمْ لا يحزنون لِما ينزلُ بهمْ منَ الشرِّ فقط ؛ بلْ ولِما ينالُ الناس منَ الخيرِ .

٨٠٧ - العشقُ جهدٌ عارضٌ صادفَ قلباً فارغاً .

٨٠٨ - تُعرَفُ خساسةُ المرء بكثرةِ كلامهِ فيما لا يَعْنيه ، وإخبارهِ عمّا لا يُسْأَلُ عنهُ .

٨٠٩ - لا تؤخِّرْ إنالةَ المحتاج إلى غدٍ ، فإنك لا تعرفُ ما يعرض فى غدٍ .

٨١٠ - إنْ تتعَبْ فى البرِّ ؛ فإن التعبَ يزُولُ والبرّ يبْقى .

٨١١ - أجْهلُ الجهالِ منْ عثرَ بحجرٍ مرتيْنِ .

٨١٢ - كفاكَ مُوبِّخاً على الكذبِ عِلمُكَ بأنّكَ كاذِبٌ ، وكفاكَ ناهِياً عنه خوْفُكَ مِنْ تكذيبك حالَ إخباركَ .

٨١٣ - العالمُ يعرفُ الجاهِلَ لأنهُ كان جاهلاً ، والجاهلُ لا يَعرفُ العالمَ لِأنهُ لم يكن عالِماً .

٨١٤ - لا تتكلوا على البَختِ فرُبما لم يكنْ وربما كان وزالَ ، ولا على الحسبِ فطالما كان بلاءً على أهْله ، يقالُ للنّاقِص : هذا ابن فلانٍ الفاضلِ ؛ فيتضاعف غمهُ وعارُهُ ؛ ولكنْ عليكم بالعلمِ والأدبِ ؛ فإنّ العالم يُكرَمُ وإنْ لمْ ينتسبْ ، ويكرم وإن كان فقيراً ، ويكرمُ وإن كان حدِثاً .

٨١٥ – خيرُ ماعُوشرَ به الملكُ قلةُ الخلافِ وتخفيفُ المؤنة ، وأصعبُ الأشياءِ على الإنسانِ أنْ يعرفَ نفسه ، وأن يكتم سرّهُ .

٨١٦ – العدلُ أفضلُ منَ الشجاعةِ ، لأنَّ الناسَ لو استعملوا العدلَ عموماً فى جميعهم لاستغنوا عن الشجاعةِ .

٨١٧ – أولى الأشياءِ أن يتعلّمها الأحْداثُ الأشياءُ التى إذا صاروا رجالا احتاجُوا إليها .

٨١٨ – لاترغبْ فى اقتناء الأموالِ؛وكيفَ ترغبُ فيماينالُ بالبخت لا بالاستحقاقِ، ويأمر البخلُ والشرَهُ بحفظه والجود والزهدُ بإخراجِه !

٨١٩ – إذا عاتبت الحدَثَ فاترك لهُ موضعاً من ذنبه ، لئلاَّ يحملهُ الإخراجُ على المكابرةِ .

٨٢٠ – ما انتقم الإنسانُ منْ عدوِّهِ بأعظم من أن يزداد من الفضائلِ .

٨٢١ – إنما لم تجتمع الحكمةُ والمالُ ، لعزّةِ وجُود الكمالِ .

٨٢٢ – يَمنعُ الجاهلَ أن يجدَ ألم الحمق المستقرّ فى قلبهِ مايمنع السكرانَ أنْ يجد مسَّ الشوْكة فى يدِه .

٨٢٣ – القُنية (١) مخدومةٌ ، ومن خدمَ غير نفسهِ فليس بحرّ .

٨٢٤ – لا تطلبِ الحياةَ لتأْكلَ ؛ بل اطلُبِ الأكل لتحيا .

٨٢٥ – إذا رأتِ العامّةُ منازلَ الخاصّةِ من السلطانِ حسدتها عليها ، وتمنّتْ أمثالها ، فإذا رأتْ مصارعها بدا لها .

٨٢٦ – الشيء الذى لا يستغنى عنهُ أحدٌ هوَ التوْفيق .

---

(١) مايقتنيه الإنسان .

٨٢٧ ـ لَيْسَ ينبغى أن يقعَ التصديقُ إلا بمـا يصحُّ ، ولا العملُ إلا بما يحِلُّ ، ولا الابتداء إلا بما تحسنُ فيهِ العاقبةُ .

٨٢٨ ـ الوحدةُ خيرٌ مِن رفيقِ السوءِ .

٨٢٩ ـ لـكل شيءٍ صناعةٌ ، وحسنُ الاختبارِ صناعةُ العقلِ .

٨٣٠ ـ من حَسدكَ لم يشكرْكَ على إحسانك إليهِ .

٨٣١ ـ البغىُ آخرُ مدةِ الملوكِ .

٨٣٢ ـ لأنْ يكون الحرُّ عبداً لعبيده خيرٌ من أن يكون عبداً لشهواتهِ .

٨٣٣ ـ من أمْضى يومه فى غيرِ حقٍّ قضاهُ ، أو فرضٍ أدّاهُ ، أوْ مجـدٍ بناهُ ، أو حَمْدٍ حصّلَهُ ، أو خيرٍ أسَّسهُ ، أو علم اقتبسهُ ، فقد عقَّ يوْمَهُ .

٨٣٤ ـ أرسلَ إليهِ عمرو بن العاص يعيبُه بأشياء ، منها أنّهُ يسمِّى حَسَناً وحُسَيْناً: ولدَىْ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله فقالَ لِرَسُولِهِ : قل للشّـانىءْ ابن الشّانىءْ ؛ لو لم يكونا ولدَيْهِ لـكانَ أبترَ ؛ كما زعمه أبوكَ !

٨٣٥ ـ قالَ معاوية لما قُتِلَ عمارٌ واضطربَ أهلُ الشام لرواية عمرو بن العاص كانت لهم : « تقتلُه الفئةُ الباغيةُ » : إنّماقتله منْ أخرجهُ إلى الحرب وعرّضهَ للقتل؛فقال أميرُ المؤمنين عليه السلام : فرسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وآله إذَنْ قاتِلُ حمزةَ !

٨٣٦ ـ هـذا يدى ـ يعنى محمدَ بن الحنفيّة ـ وهٰذان عينـاىَ ـ يعنى حَسَناً وحُسَيْناً ـ وما زالَ الإنسانُ يَذُبُّ بيدِهِ عنْ عينيْهِ ؛ قالها لمنْ قال له : إنَّكَ تُعرّضُ محمّداً للقتل ، وتقْذفُ به فى نحور الأعداء دونَ أخَويه .

٨٣٧ ـ شكَرْتَ الواهبَ ، وبُورِكَ لكَ فى الموهوب ، ورُزِقْتَ خيرهُ وبِرَّهُ ، خُذْ إليكَ أبا الأملاكِ ؛ قالها لعبد الله بن العباس لما وُلِدَ ابنُهُ علىُّ بن عبد الله .

٨٣٨ ـ ما يَسُرُّنى أنى كُفيتُ أمرَ الدُّنيا كلَّه ، لأنى أكْرهُ عادةَ العجزِ .

٨٣٩ ـ اجتماعُ المالِ عندَ الأسخياء أحدُ الخِصْبَيْنِ ، واجتماعُ المالِ عندَ البخلاء أحدُ الجَدْبَيْنِ .

٨٤٠ ـ منْ عَمِلَ عَمَلَ أبيه كُفِىَ نصفَ التَّعبِ .

٨٤١ ـ المُصطَنِعُ إلى اللَّئيمِ كمَنْ طوَّقَ الخنزيرَ تِبراً ، وقرَّطَ الكلبَ دُرًّا ، وألبسَ الحمارَ وَشْياً ، وألقم الأفعى شهداً .

٨٤٢ ـ الحازِم إذا أشكلَ عليهِ[1] الرَّأى بمنزلة منْ أضلَّ لُؤْلُؤَةً ، فجمعَ ماحوْلَ مسقطها مِنَ التراب ثم التمسها حتى وجدها ، ولذلك الحازِمُ يجمعُ وُجوهَ الرَّأى فى الأمرِ المشكل ، ثم يضربُ بعضه ببعضٍ حتى يخلُصَ إليهِ الصَّوابُ .

٨٤٣ ـ الأشْرافُ يعاقَبُون بالهِجْرانِ لا بالحرمان .

٨٤٤ ـ الشُّحُ أضرُّ على الإنسانِ مِن الفقرِ ، لأنَّ الفقير إذا وجد اتّسع ،والشحيح لا يتّسعُ وإن وَجَد .

٨٤٥ ـ أحبُّ الناس إلى العاقل أن يكون عاقلاً عدُوُّهُ ، لأنهُ إذا كان عاقِلاً كان مِنهُ فى عافيةٍ .

٨٤٦ ـ عليك بِمُجالَسةِ أصحابِ التَّجاربِ ،فإنها تقوَّمُ عليهم بأغلى الغلاء ، وتأخذها مِنهم بأرْخَص الرُّخص .

٨٤٧ ـ مَن لم يحمدْكَ على حُسْنِ النِّيَّةِ لم يَشْكُرْكَ على جميل العطِيَّةِ .

٨٤٨ ـ لا تنكحوا النساء لِحسنهنَّ ، فعسى حُسْنُهُنَّ أن يُرْدِيهنَّ ، ولا لِأَمْوالهنَّ

---

(١) أشكل عليه الرأى : استبهم .

فعسى أمْوالُهنَّ أن تُطْغِيَهُنَّ ، وانكِحُوهُنَّ على الدِّين ؛ ولَأَمَةٌ سَوْداءُ خَرْماءُ[1] ذَاتُ دِينٍ أفْضَلُ .

٨٤٩ ـ أفضَلُ العبادَةِ الإمْساكُ عَن المعصيةِ ، والوُقُوفُ عِنْد الشُّبْهَةِ .

٨٥٠ ـ ذَمُّ الرَّجل نفسه فى العلانية مَدْحٌ لها فى السِّرِّ .

٨٥١ ـ مَن عَدِم فَضِيلة الصدق فى منطقِه فَقَدْ فُجِعَ بأكْرَم أخْلاقِهِ .

٨٥٢ ـ ليس يَضُرُّك أنْ ترَى صدِيقك عنْدَ عدُوِّك ؛ فإنهُ إن لم يَنْفعك لم يَضُرَّكَ .

٨٥٣ ـ قَلَّ أن ترَى أحداً تكَبَّرَ على مَن دُونه إلا وبذلك المِقدارِ يجودُ بالذُّلِّ لمَنْ فوْقَهُ .

٨٥٤ ـ مَن عَظُمَتْ عَلَيْه مُصيبةٌ فليذْكُرِ المَوْتَ ؛ فإنها تَهُونُ عَلَيْهِ ، ومَنْ ضاق بِهِ أمْرٌ فلْيَذْكُرِ القبر فإنه يتَّسعُ .

٨٥٥ ـ خَيْرُ الشعْرِ ما كان مَثَلاً ، وخَيْرُ الأمْثالِ مالم يَكن شِعْراً .

٨٥٦ ـ الق الناس عِند حاجتهم إليك بالبشر والتواضُعِ ، فإن نابَتك نائِبَةٌ ، وحالَتْ بك حالٌ لَقِيتَهُمْ ، وقَدْ أَمِنت ذِلَّةَ التَّنصُّل إليهم والتواضع .

٨٥٧ ـ إن الله يحبُّ أن يُعفَى عن زَلَّةِ السَّرِيِّ .

٨٥٨ ـ من طال لِسانُهُ وحَسُن بيانُهُ ، فليترك التَّحدث بغرائِبِ ماسمع ، فإنَّ الحسد لِحُسن ما يظهرُ مِنهُ يحمِلُ أكْثَرَ الناس على تكذيبه ، ومَن عرَفَ أسرارَ الأمورِ الإلٰهِيةِ فلْيَتْرُكِ الخوض فيها ، وإلّا حملتهم المنافسةُ على تكْفيرِهِ .

٨٥٩ ـ لَيْسَ كلُّ مَكتومٍ يَسُوغ إظهارُهُ لك ، ولا كلُّ مَعْلومٍ يجوزُ أن تُعلِّمَهُ غيْرَك .

---

(١) الخرماء : المقطوعة طرف الأنف أو المثقوبة الأذن .

٨٦٠ ـ ليسَ يفهمُ كلامَكَ من كان كلامُهُ لك أحبَّ إليه مِنَ الاستماعِ منك ، ولا يعلمُ نصيحتَكَ مَنْ غلبَ هواهُ على رأيِكَ ، ولا يسلمُ لكَ منِ اعتقدَ أنه أتمُّ معرفةً بما أشرتَ عليهِ به منكَ .

٨٦١ ـ خَفِ الضعيفَ إذا كان تحتَ رايةِ الإنصافِ أكثرَ منْ خوفِك القويَّ تحت رايةِ الجورِ ، فإنّ النصرَ يأتيهِ من حيثُ لا يشعر ، وجُرحُه لا يندملُ[1] .

٨٦٢ ـ إخافةُ العبيدِ والتضييقُ عليهمْ يزيد في عبوديّتِهم وصيانتِهِمْ ، وإظهارُ الثقةِ بهم يكسبُهُمْ أنفةً وجبريّةً .

٨٦٣ ـ أضرُّ الأشياءِ عليك أن تُعْلِمَ رئيسك أنّكَ أعرفُ بالرّياسة منه .

٨٦٤ ـ عداوةُ العاقلينَ أشدُّ العداواتِ وأنكاها ، فإنها لا تقع إلا بعد الإعذار والإنذار ، وبعد أن ييئس إصلاح ما بينهما .

٨٦٥ ـ لا تخدمَنّ رئيساً كنتَ تعرفهُ بالخُمولِ ، وسمَتْ به الحالُ ، ويعرفُ منك أنّكَ تعرفُ قديمهُ ، فإنّهُ وإن سُرَّ بمكانكَ مِنْ خدمَتهِ ، إلا أنه يعلمُ العينَ التى تراه بها ، فينقبِضُ عنك بحسب ذلك .

٨٦٦ ـ إذا احتجتَ إلى المشورة فى أمرٍ قد طرأَ عليك فاستبْدِهِ ببداية الشُّبّان ، فإنهم أحدّ أذهاناً ، وأسرعُ حدْساً ، ثم رُدّهُ بعدَ ذلكَ إلى رأى الكُهولِ والشيوخِ ليستعقِبُوهُ ، ويُحسِنُوا ، الاختيارَ له ؛ فإنّ تجربتهم أكثرُ .

٨٦٧ ـ الإنسانُ فى سعيه وتصرفاته كالعائمِ فى اللّجّةِ ، فهو يكافِحُ الجرية فى إدباره ، ويجرى معها فى إقبالهِ .

٨٦٨ ـ ينبغى للعاقلِ أن يستعملَ فيما يَلتمِسهُ الرفقَ ، ومُجانبةَ الهذَرِ ؛

---

(١) اندمل الجرح : تماثل للشفاء

فإن العَلَقَةَ (١) تأخذ بهدوئها مِنَ الدَّمِ ما لا تأخُذُهُ البَعوضةُ باضطرابها وفرطِ صِياحِها .

٨٦٩ ـ أقوى ما يكونُ التصنُّعُ فى أوائِلِه ، وأقوى ما يكونُ التطبُّعُ فى أواخرِهِ .

٨٧٠ ـ غاية المُروءة أنْ يستحيَ الإنسانُ من نفسهِ ، وذلكَ أنّهُ ليسَ العِلّةُ فى الحياءِ مِنَ الشيخ كِبَرَ سِنِّهِ ولا بياضَ لِحيَتِهِ ، وإنما عِلّةُ الحياء منهُ عقلُه ، فينبغى إن كان هذا الجَوْهر فينا أنْ نستحيَ منهُ ولا نُحضرَه قبيحاً .

٨٧١ ـ منْ ساس رعِيّةً حَرُمَ عليه السُّكرُ عَقْلاً ، لأنّهُ قبيحٌ أنْ يحتاجَ الحارسُ إلى منْ يحرسُهُ .

٨٧٢ ـ لا تبتاعنَّ مملوكاً قوىَّ الشهْوَةِ ، فإنَّ له مولًى غيرَكَ ، ولا غضوباً فإنّهُ يؤذِيكَ فى اُسْتِخْدامكَ له ، ولا قوِىَّ الرَّأى فإنّهُ يستعمِلُ الحيلَةَ عليك ، لكن اطلُبْ منَ العبيدِ مَنْ كانَ قَوِىَّ الجِسْمِ حَسنَ الطَّاعَةِ ، شديدَ الحياء .

٨٧٣ ـ لا تُعادوا الدُّولَ المُقبلَة ، وتُشرِبوا قلوبكم بُغْضَها ، فتُدبِرُوا بإقبالها .

٨٧٤ ـ الغَرِيبُ كالفرسِ الذى زايل شِرْبَهُ ، وفارقَ أرضَهُ ، فهو ذاوٍ لا يَتّقِدْ وذابِلٌ لا يُثمرُ .

٨٧٥ ـ السفرُ قطعةٌ منَ العذابِ ، والرَّفيقُ السوء قطعةٌ منَ النّارِ .

٨٧٦ ـ كلُّ خُلُقٍ منَ الأخلاقِ فإنّه يكسُدُ عندَ قومٍ منَ الناسِ إلّا الأمانة فإنها نافِقَةٌ عندَ أصنافِ الناسِ ، يُفَضَّلُ بها من كانت فيه ، حتى إن الآنِيَة إذا لم تُنَشَّفْ

(١) العلقة : دويبة فى الماء تمص الدم .

وبَقِيَ مايودَعُ فيها على حاله لم ينقُصْ - كانت أكثر ثناء مِنْ غيرها مِما يرشَحُ أو يُنشِّفُ .

٨٧٧ - اصبِرْ على سلطانِكَ في حاجاتِكَ ، فلستَ أكبرَ شغلِه ، ولا بك قِوامُ أمرِهِ .

٨٧٨ - قُوَّة الاستشعارِ منْ ضعفِ اليقينِ .

٨٧٩ - إذا أحسستَ منْ رأيكَ بإكدادٍ ، ومِنْ تصوُّرِكَ بفسادٍ ،فاتّهِمْ نفسك بمجالستِكَ لعاميِّ الطبعِ ، أو لِسيِّئِ الفكْرِ ، وتدارَكْ إصلاحَ مزاجِ تخيُّلِكَ بمكاثرةِ أهلِ الحكمِ ، ومجالسةِ ذوِى السدادِ ، فإن مفاوضتهُمْ تريحُ الرَّأىَ المكدودَ ، وتردُّ ضالّةَ الصوابِ المفقودِ .

٨٨٠ - منْ جلسَ فى ظلِّ الملقِ ؛ لم يستقرَّ به موضعُه ، لكثرةِ تنقُّلِهِ وتصرُّفِهِ مع الطِّباعِ ، وعرفَهُ النَّاسُ بالخديعةِ .

٨٨١ - كثيرٌ منَ الحاجاتِ تُقضَى برَماً لا كَرَماً .

٨٨٢ - أصحابُ السلطان فى المَثلِ كقومٍ رقوا جبلاً ثم سقطوا منهُ ، فأقربُهُمْ إلى الهلكةِ والتّلفِ أبعدهمْ كان فى المرتقى .

٨٨٣ - لا تضَعْ سِرَّكَ عندَ منْ لاسِرَّ له عندكَ .

٨٨٤ - سَعَةُ الأخلاقِ كِيمياء الأرزاق.

٨٨٥ - العلمُ أفضلُ الكُنوزِ وأجملُها ، خفيفُ المحْملِ ، عظيمُ الجدوى ؛ فى الملإِ جمالٌ ، وفى الوحدةِ أُنْسٌ .

٨٨٦ - السِّبابُ مُزاحُ النوْكَى ، ولا بأسَ بالمفاكهةِ ، يُروِّحُ بها الإنسانُ عنْ نفسِهِ،ويخْرُجُ عنْ حدِّ العُبوسِ .

٨٨٧ ـ ثلاثةُ أشياء تدلُّ على عقولِ أربابِها : الهَدِيَّةُ ، والرَّسُولُ ، والكتابُ .

٨٨٨ ـ التعزيةُ بعدَ ثلاثٍ تجديدٌ للمصيبة ، والتهنئةُ بعدَ ثلاثٍ استخفافٌ بالمودَّةِ .

٨٨٩ ـ أنتَ مخيَّرٌ فى الإحسانِ إلى منْ تحسنُ إليهِ ، ومرتَهَنٌ بدوامِ الإحسانِ إلى منْ أحسنْتَ إليهِ ، لأنكَ إنْ قطعتهُ فقدْ أهدرتهُ ، وإنْ أهدرته فلِمَ فعلْتَهُ !

٨٩٠ ـ الناس مِن خوف الذُّلّ فى ذلّ .

٨٩١ ـ إذا كانَ الإيجازُ كافياً كان الإكثارُ عِيًّا ، وإذا كان الإيجازُ مقصِّراً كان الإكثارُ واجباً .

٨٩٢ ـ بئسَ الزّادُ إلى المَعادِ ، العُدوانُ على العِبادِ .

٨٩٣ ـ الخلقُ عِيالُ اللهِ ، وأحبُّ النَّاسِ إلى اللهِ أشفقهم على عيالِهِ .

٨٩٤ ـ تحريكُ الساكنِ أسهلُ منْ تسكينَ المتحرِّك .

٨٩٥ ـ العاقلُ بخشونةِ العيشِ معَ العُقلاء ، آنَسُ منه بلينِ العيش مع السُّفهاء .

٨٩٦ ـ الانقباضُ بينَ المنبسطين ثِقلٌ ، والانبساطُ بينَ المنقبضين سخفٌ (١) .

٨٩٧ ـ السخاء والجودُ بالطعامِ لا بالمالِ ، ومنْ وهبَ ألفاً وشحَّ بصحفةِ طعامٍ فليسَ بجوَادٍ .

٨٩٨ ـ إنْ بقيتَ لم يبقَ الهمُّ .

٨٩٩ ـ لايقومُ عزُّ الغضبِ بذلَّةِ الاعتذارِ .

٩٠٠ ـ الشفيعُ جناحُ الطالبِ .

٩٠١ ـ الأملُ رفيقٌ مُؤنِسٌ ، إنْ لم يبلِّغْكَ فقدِ استمتَعْتَ به .

٩٠٢ ـ إعادةُ الاعتذار تذكيرٌ بالذَّنبِ .

---

(١) السخف : ضعف العقل ورقته .

٩٠٣ ـ الصبرُ فى العواقِبِ شافٍ أو مريحٌ .

٩٠٤ ـ منْ طالَ عمرُهُ ، رأى فى أعدائهِ ما يسرُّهُ .

٩٠٥ ـ لا نعمةَ فى الدُّنيا أعظمُ منْ طولِ العمر ، وصحَّةِ الجسدِ .

٩٠٦ ـ الناسُ رجلان : إمّا مُؤجّلٌ بفقدِ أحبابهِ ، أو معجّلٌ بفقدِ نفسهِ .

٩٠٧ ـ العقلُ غريزةٌ تربيها التَّجارِبُ .

٩٠٨ ـ النُّصْحُ بينَ الملأ تقريعٌ .

٩٠٩ ـ لا تُنكِحْ خاطبَ سِرِّكَ .

٩١٠ ـ منْ زادَ أدبُهُ على عقلِهِ كان كالرّاعى الضعيفِ معَ الغنمِ الكثير .

٩١١ ـ الدَّارُ الضيِّقةُ العمى الأصغرُ .

٩١٢ ـ النّمامُ جسرُ الشرِّ .

٩١٣ ـ لا تَشِن وجهَ العفو بالتقريع .

٩١٤ ـ كثرة النصح تهجم بك على كثرة الظِّنَّةِ .

٩١٥ ـ لكلِّ ساقطة لاقطة .

٩١٦ ـ ستساق إلى ما أنت لاقٍ .

٩١٧ ـ عاداك من لاحاك .

٩١٨ ـ جدّك لا كدّك .

٩١٩ ـ تذكر قبل الورْدِ الصدرَ ، والحذر لا يغنى من القدر ، والصبر منْ أسباب الظفر .

٩٢٠ ـ عارُ النساء باقٍ يلحق الأبناء بعد الآباء .

٩٢١ أعجل العقوبةِ عقوبةُ البغىِ والغدرِ واليمينِ الكاذبة ، ومنْ إذا تُضُرِّعَ إليهِ وسُئِلَ العفو لم يغفر .

٩٢٢ - لا تردّ بأس العدوّ القوىّ وغضبه بمثل الخضوع والذُّلّ ، كسلامة الحشيش منَ الريح العاصف بانثنائه معها كيْفما مالت .

٩٢٣ - قاربْ عدوّك بعض المقاربةِ تنلْ حاجتك ، ولا تُفْرط فى مقاربته فتذلّ نفسك وناصرك ، وتأمّل حال الخشبة المنصوبة فى الشمس التى إنْ أملتها زاد ظلها ، وإنْ أفرطت فى الإمالة نقص الظلّ .

٩٢٤ - إذا زال المحسود عَلَيْهِ علمت أنّ الحاسد كان يَحْسُدُ على غير شىء .

٩٢٥ - العجز نائم ، والحزم يقظان .

٩٢٦ - من تجرّأ لكَ تجرّأ عليك .

٩٢٧ - ما عفا عن الذنب، مَن قرّع بهِ .

٩٢٨ - عبد الشهوة أذلُّ من عبد الرّقّ .

٩٢٩ - لَيْسَ ينبغى للعاقل أنْ يطلب طاعة غيره ، وطاعةُ نفسه عَلَيْهِ مُمْتَنِعَةٌ .

٩٣٠ - الناسُ رَجلان : واجدٌ لا يكتفى ، وطالب لا يجد .

٩٣١ - كُلّما كثر خُزّان الأسرار ، زادت ضياعاً .

٩٣٢ - كثرة الآراء مفسدة ، كالقِدْرِ لا تطيب إذ كثر طَبّاخُوها .

٩٣٣ - مَن اشتاق خدَمَ ، ومَن خدم اتّصَل ، ومَن اتصل وصل ، ومَن وصَل عرَف .

٩٣٤ - عَجباً لِمنْ يخرُج إلى البساتين للفُرْجَةِ على القُدْرَة ، وَهلاّ شَغَلَتهُ رُؤْيَةُ القادِرِ عَن رُؤْيَةِ القُدْرَةِ !

٩٣٥ - كلُّ الناسِ أُمِروا بأنْ يَقولُوا: لا إله إلا اللهُ ، إلارسولَ الله، فإنهُ رُفِعَ قَدْرُهُ عَن ذَلك ، وقيل لَهُ : فاعْلَمْ أنّهُ لا إله إلاّ الله ، فأُمِرَ بالعلْمِ لا بالقوْلِ .

٩٣٦ ـ كُلُّ مُصطنع عارفةٍ فإنَّمـا يصنع إلى نفسه ، فلا تلتمس مِن غيرك شكر ماأتيْتَه إلى نفسك وتمَّمْتَ به لَذَّتَكَ ، ووقيْتَ بهِ عِرْضَك .

٩٣٧ ـ ولَدُكَ رَيْحانَتُكَ سَبْعاً ، وخادِمُكَ سَبْعاً ، ثمَّ هُوَ عَدُوّكَ أو صديقك .

٩٣٨ ـ مَن قَبِـل معرُوفَكَ فقَدْ باعَكَ مُرُوءتَهُ .

٩٣٩ ـ إلى اللهِ أشكو بلادَةَ الأمين ويقظة الخائنِ .

٩٤٠ ـ مَن أكثر المشورة لم يَعْدَم عند الصواب مادحاً ، وعند الخطأ عاذِراً .

٩٤١ ـ من كثر حقده قلَّ عتابُهُ .

٩٤٢ ـ الحـازمُ مَن لم يَشْغَلْهُ البَطرُ بالنِّعْمَةِ عَن العمل للعاقِبَةِ ، والهَمُّ بالحادِثَةِ عن الحيلةِ لدفْعِها .

٩٤٣ ـ كلَّما حَسُنَتْ نِعمَةُ الجاهِل ازْدادَ قُبْحاً فيها .

٩٤٤ ـ مَن قَبِلَ عَطاءَك فقدْ أعانك على الكرمِ ، ولولا مَن يَقْبـلُ الجودَ لم يكُنْ مَن يجُودُ .

٩٤٥ ـ إخوانُ السوءِ كشجرةِ النار ، يُحْرِق بعضها بعضاً .

٩٤٦ ـ زلّة العالمِ كانكسار السفينةِ تغرق ويَغْرَقُ معها خلق .

٩٤٧ ـ أهْوَنُ الأعْداءِ كَيْداً أظهرهم لِعداوَتِه .

٩٤٨ ـ أبْقِ لِرِضاكَ مِنْ غَضَبِك ، وإذا طِرْتَ فَقَعْ قَرِيباً .

٩٤٩ ـ لاتَتَقَبَّسْ بالسُّلْطانِ في وقْتِ اضْطِراب الأُمُورِ علَيْـهِ ، فإنَّ البَحْر لايَـكادُ يسلمُ صاحِبُهُ في حالِ سُكُونِهِ ، فـكيف يسلم مَع اختلاف رياحِهِ واضطِرابِ أمْواجِهِ !

٩٥٠ ـ إذا خُلِّيَ عِنان العقل، ولم يحبس على هوى نفسٍ ، أو عادةِ دينٍ ، أو عصبيّةٍ لسلف ؛ ورد بصاحِبه على النجاة .

٩٥١ ـ إذا زادك المُلكُ تأنيساً فزده إجلالا .

٩٥٢ ـ مَن تكلّف مالا يعنيه فاته مايعنيه .

٩٥٣ ـ قليلٌ يُترقّى منه إلى كثيرٍ خيرٌ مِن كثيرٍ ينحطُّ عَنهُ إلى قليل .

٩٥٤ ـ جنّبوا موتاكم فى مدافِنِهم جارَ السُّوء ، فإنّ الجارَ الصالح ينفَعُ فى الآخِرَةِ كما ينفعُ فى الدُّنيا .

٩٥٥ ـ زُرِ القبورَ تذكر بها الآخرة ، وغسِّل الموتى يتحرّكْ قلبك ، فإنّ الجسد الخاوى عظةٌ بليغةٌ ، وصلِّ على الجنائزِ لعلّهُ يُحزِنكَ ، فإنّ الحزين قريبٌ مِنَ اللهِ .

٩٥٦ ـ الموتُ خيرٌ لِلمُؤمِنِ والكافِرِ ؛ أمّا المؤمنُ فيتعجّل لهُ النعيم ، وأمّا الكافرُ فيقلُّ عذابهُ ، وآيةُ ذلك من كتاب الله تعالى : ﴿ وما عندَ اللهِ خَيرٌ لِلأَبْرار(١) ﴾ ، ﴿ ولا يحسَبَنَّ الّذينَ كفرُوا أنّما نُملِي لَهُمْ خَيرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إنّما نُملِي لَهُمْ لِيزْدادُوا إثماً(٢) ﴾ .

٩٥٧ ـ جزَعُك فى مُصيبَةِ صديقك أحْسَنُ مِنْ صَبْرِك ، وصبْرُك فى مُصيبتِكَ أحْسَنُ من جزَعِك .

٩٥٨ ـ مَنْ خافَ إساءتكَ اعتقدَ مَساءتكَ ، ومَن رهِبَ صَوْلتَكَ ناصبَ دَوْلتَك .

٩٥٩ ـ من فعَلَ ما شاء لَقِيَ ماشاء .

٩٦٠ ـ يسُرُّنى مِن القُرآنِ كلِمةٌ أرْجُوها لمِنْ أسْرَفَ على نَفْسِهِ ﴿ قالَ عَذابى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أشاء ورَحْمتى وَسِعتْ كلَّ شَيء(٣) ﴾ فجعَلَ الرَّحْمَةَ عُموماً والعَذابَ خُصُوصاً .

---

(١) سورة آل عمران ١٩٨ .
(٢) سورة آل عمران ١٧٨ .
(٣) سورة الأعراف ١٥٦ .

٩٦١ - الاسْتِئثارُ يُوجِبُ الحسد ، والحَسَدُ يوجب البِغْضَةَ ، والبِغضةُ تُوجِب الاخْتِلافَ ، والاختلافُ يوجبُ الفرقةَ ، والفرقةُ توجب الضَّعْفَ ، والضَّعفُ يوجب الذُّلَّ ، والذُّلّ يوجب زَوال الدَّولةِ ، وذهاب النِّعْمَةِ .

٩٦٢ - لا يكاد يَصحّ رُؤْيا الكذَّابِ ، لأنه يخبرُ فى اليقظة بما لم يكُن ، فأَحْرِ بِهِ أن يرى فى المنام مالا يكون .

٩٦٣ - يُفسِدكَ الظَّنُّ على صَدِيقٍ قَدْ أصلحك اليقين لهُ .

٩٦٤ - لا تكادُ الظُّنون تزدحم على أمرٍ مستور إلا كشفته .

٩٦٥ - المشورة رَاحةٌ لكَ وتعبٌ على غَيْرِكَ .

٩٦٦ - حقٌّ كلّ سرّ أن يصان ، وأحقُّ الأسرار بالصيانة سرُّكَ مع مولاكَ ، وسِرُّهُ مَعَك ؛ واعلم أنَّ مَن فَضَح فُضِح ، ومَن باح فَلِدَمِهِ أباح .

٩٦٧ - يا مَنْ ألَمّ بجناب الجلال ، احفظ ما عرفت ، واكتم ما استودعت ؛ واعلم أنك قَدْ رشحْت لأمْرٍ فافطن له ، ولا ترض لِنَفْسِكَ أن تكون خائِناً ؛ فمن يُؤَدِّ الأمانة فيما استودِع ، أخلقُ الناس بِسِمة الخيانةِ ، وأجدرُ الناسِ بالإبعادِ والإهانة !

٩٦٨ - لا تعامل العامّةَ فيما أُنعم به عليك من العلم ، كما تعامل الخاصّةَ ؛ واعلم أن لله سبحانه رجالًا أوْدَعهُمْ أسراراً خفيةً ، ومَنعَهُمْ عن إشاعتها ؛ واذكرْ قوْلَ العَبْدِ الصالح لموسى وقد قال له : هل أتبِعُكَ على أن تعلّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً. قال إنك لن تستطيع معى صبراً ، وكيف تَصْبِرُ على مالَمْ تُحِطْ به خبراً ! .

٩٦٩ - لكلّ دارٍ بابٌ ، وباب دار الآخرة الموت .

٩٧٠ - إن لك فِيمن مضى من آبائك وإخوانك لعبرةً ، وإن ملك الموت دخل

على داودَ النبيّ ، فقال : مَنْ أنت ؟ قال : مَن لا يهابُ الملوكَ ، ولا تمنعُ منه القصور ، ولا يَقْبَلُ الرّشا ، قالَ : فإذَنْ أنت ملك الموت جئت ؛ ولم أستعِدّ بعد ! فقال : فأين فلانٌ جارُكَ ؛ أين فلان نسيبك ؟ قال : ماتُوا ، قال : ألم يكن لك فى هؤلاء عبرة لتستعدّ !

٩٧١ ـ ما أخسر صفقة الملوك إلّا مَن عصم الله ، باعوا الآخرة بِنَوْمَةٍ .

٩٧٢ ـ إن هـذا الموت قد أفسد على الناس نعيم الدنيا ؛ فما لكم لا تلتمسون نعيماً لا موت بعده !

٩٧٣ ـ انظر العمل الذى يسرّك أنْ يأتيَك الموت وأنت عليه فافعله الآن ، فلستَ تأْمَنُ أن تموت الآن .

٩٧٤ ـ لا تَسْتَبْطِئْ القيامَةَ فَتَسْكن إلى طول المدّة الآتية عليك بعد المَوْت ، فإنك لا تُفَرِق بعد عودِك بين ألفِ سنةٍ وبين ساعةٍ واحدةٍ ، ثمّ قرأ : ﴿ ويوم يَحْشُرُهم كأن لم يلْبثُوا إلّا ساعةً من النّهارِ… ﴾ (١) الآية .

٩٧٥ ـ لابدّ لك من رَفيقٍ فى قَبرك ، فاجعله حَسن الوجه طيب الريح ؛ وهو العمل الصالح .

٩٧٦ ـ رُبَّ مُرْتاحٍ إلى بلد وهو لا يدرى أن حمامه فى ذلك البلد .

٩٧٧ ـ الموت قانص يُصمِى ولا يشوِى .

٩٧٨ ـ مامن يَوْمٍ إلا يتصفح ملك الموت فيــه وجوه الخلائق ، فمن رآه على معصيةٍ أو لهوٍ ، أو رَآهُ ضاحكاً فرحاً ، قال لهُ يامسكين : ما أغفلك عمّا يُرادُ بك ! اعمل ماشئت ؛ فإن لى فيك غمزة أقطع بها وتينَك (٢) .

---

(١) سورة يونس ٤٥ . (٢) الوتين : عرق فى القلب إذا انقطع مات صاحبه .

٩٧٩ ـ إذا وُضع الميّتُ فى قَبْره اعتورَتْه نيرانٌ أربعُ ، فتجىء الصلاة فتطفىء واحدَةً ، ويجىء الصومُ فيطفىء واحداةً ، وتجىء الصدقَةُ فتطفِىء واحدةً ، ويجىء العِلم فيطفِىء الرَّابعةَ ، ويقول : لو أدركتَهنَّ لأطفأتُهنَّ كلّهنَّ ، فقرَّ عيناً فأنا معك ، ولن ترى بُؤساً .

٩٨٠ ـ استجيروا بالله تعالى ؛ واستخيروه فى أموركم ، فإنه لا يُسلِم مستجيراً ، ولا يحرم مُستخيراً .

٩٨١ ـ ألَا أدُلُّكم على ثمرة الجنة ! لا إلٰه إلا الله بشرطِ الإخلاص .

٩٨٢ ـ مِنْ شَرف هذِه الكلمة وهى الحمدُ لله . أنّ الله تَعالى جعلها فاتحةَ كتابه ، وجعلها خاتمةَ دَعْوى أهل جنتهِ ، فقال : وآخرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

٩٨٣ ـ ذَاكِرُ اللهِ فى الغافلين كالشجرةِ الخضراءفىوَسط الهشيم ، وكالدّارِ العامرةِ بين الرُّبوع الخربةِ .

٩٨٤ ـ أفضلُ الأعمال أن تموتَ ولسانُكَ رطبٌ بذِكْرِ اللهِ سبحانهُ .

٩٨٥ ـ الذِّكر ذِكرانِ : أحدُهما ذِكر اللهِ وتحميدهُ ، فما أحسنَه وأعظم أجرهُ ! والثانِى ذِكر اللهِ عند ما حرَّم الله وهو أفضلُ من الأوّل !

٩٨٦ ـ ما أضيقَ الطريق على من لمْ يكُن الحقُّ تعالى دَليله ، وما أوحشها على منْ لم يكن أنيسَهُ ! ومن اعْتزّ بغير عزِّ اللهِ ذَلَّ ، ومن تكثّر بغير اللهِ قلَّ .

٩٨٧ ـ اللهمّ إن فههتُ عن مسألتى ، أوعمهتُ عن طابتى ، فدُلّنى على مصالحى ، وخذْ بناصيتى إلى مراشدِى . اللهمّ احملنى على عفوك ، ولا تحملنى على عدْلكَ .

٩٨٨ ـ مُخّ الإيمان التقْوى والورعُ ، وهما من أفعال القلوبِ ، وأحسنُ أفعال الجوارح ألّا تزال مائلاً فاكَ بذِكرِ الله سبحانه .

٩٨٩ ـ اللهمَّ فرِّغني لما خلقتني لهُ ، ولا تشغلْني بما تكفَّلْتَ لي به ، ولا تحرِمني وأنا أسألُك ، ولا تعذِّبني وأنا أستغفرك .

٩٩٠ ـ سُبحانَ من ندعوهُ لحظِّنا فيسرعُ ! ويدعونا لحظِّنا فنبطئُ ! خيْرُه إلينا نازلٌ ، وشرُّنا إليه صاعدٌ ؛ وهو مالكٌ قادِرٌ .

٩٩١ ـ اللهمَّ إنا نعوذُ بك منْ بَياتِ غفلة وصباح ندامةٍ .

٩٩٢ ـ اللهمَّ إني أستغفرُكَ لما تبت منهُ إليك ثمَّ عدْت فيـهِ ، وأستغفركَ لما وَعدْتُك من نفسي ثمَّ أخْلفتك ، وأستغفرك للنعم التي أنعمت بها عليَّ فتقوَّيتُ بها على مَعْصِيتكَ .

٩٩٣ ـ اللهمَّ إني أعوذُ بكَ أنْ أقولَ حقًّا ليس فيه رضاكَ ألتمسُ به أحداً سِواكَ ، وأعوذُ بك أن أتزيَّن للناسِ بشيء يشينني عندكَ ، وأعوذُ بكَ أنْ أكون عبْرةً لأحدٍ منْ خلقك ، وأعوذُ بك أن يكون أحدٌ منْ خلقك أسعد بما علَّمْتَني مِنّي .

٩٩٤ ـ يا من ليسَ إلا هوَ ، يا من لا يعلمُ ما هو إلّا هو ، اعف عنّي !

٩٩٥ ـ اللهمَّ إن الآمال مَنوطةٌ بكرمك ، فلا تقطعْ علائقَها بسخطك . اللهم إني أبرأ من الحوْل والقوَّة إلّا بك ، وأدْرأ بنفسي عن التوكل على غيركَ .

٩٩٦ ـ اللهم صلِّ على محمّدٍ وآل محمّدٍ ؛ كلما ذكرهُ الذاكرونَ ، وصلِّ على محمّدٍ وآلِ محمّدٍ كلما غفَلَ عن ذِكرِهِ الغافلون . اللهم صلِّ على محمدٍ وآل محمّدٍ عددَ كلماتك ، وعددَ معلوماتك ، صلاةً لا نهاية لها ، ولا غايةَ لأمَدِها .

٩٩٧ ـ سبحانَ الواحِدِ الذي ليس غيرُه ، سبحان الدائم الذي لا نفاد لهُ ، سبحانَ القديم الذي لا ابتداء لهُ ، سبحانَ الغنيِّ عن كلِّ شيء ولا شيء من الأشياء يغني عنه !

٩٩٨ - يا أللهُ يارحمنُ يارحيم ياحيُّ ياقيُّومُ يابديعُ السموات والأرض ياذا الجلالِ والإكرامِ اعفُ عنّى (١) .

***

وهذا حِينُ انتهاء قولنا فى شرح نهج البلاغة ، ولم ندركْ ماأدركناهُ منهُ بقوّتنا وحوْلنا ، فإنّا عاجزون عمّا هو دُونهُ ، ولقد شرعنا فيه وإنّهُ لفى أنفسنا كالطّوْدِ الأمْلسِ تَزِلُّ الوُعولُ العُصْمُ (٢) عن قَذَفاتِه (٣) ، بل كالفلكِ الأطلسِ لا تبلُغُ الأوهامُ والعُقولُ إلى حدودِ غاياته ، فما زالتْ معونةُ اللهِ سبحانهُ وتعالى تُسهِّلُ لناحَزْنَه ، وتذلّلُ لنا صعبَهُ ، حتّى أصحبَ أبيّهُ ، وأطاعَ عَصيّهُ ، وفُتِحَتْ علينا - بحُسن النّيّة وإخلاص الطّويّةِ - فى تصنيفِهِ أبوابُ البركات ، وتيسّرَتْ علينا مطالبُ الخيراتِ ؛ حتّى لقد كان الكلامُ ينثالُ علينا انثِيالاً ، ويُواتينا بَديهَةً وارتجالاً ، فتمَّ تصنيفُهُ فى مدّةٍ قدرها أربعُ سنينَ وثمانيةُ أشهرٍ ، وأوّلها غرّة شهر رجب من سنة أربع وأربعين وستمائة . وآخرُها سَلْخ صفر من سنة تسعٍ وأربعين وستمائة ، وهو مقدار مدّة خلافةأمير المؤمنين عليه السلام ، وما كان فى الظنِّ والتقديرِ أنَّ الفراغَ منهُ يقعُ فى أقلَّ من عشرِ سنينَ ؛ إلاّ أنّ الألطاف الإلهيّة والعنايةَ السماوية ، شملتنا بارتفاع العوائقِ ، وانتفاء الصّوارفِ ، وشحذَتْ بصيرتنا فيه ، وأرهفتْ همّتنا فى تشييدِ مبانيهِ ، وتنضيدِ ألفاظه ومعانيه .

وكان لسعادة المجلس المولَوىّ المؤيّدِىّ الوزيرىّ (٤) أجرى اللهُ بالخير أقلامهُ ، وأمضى

---

(١) كذا كان عدد هذه الحكم على حسب المخطوطات التى وقعت لدينا . وقد أشار المؤلف الى أن عددها ألف ، ولعل هنا سقطاً ؛ أو أن حكمتين قد امتزجتا بفعل النساخ ؛ ونرجو حين تقع إلينا نسخ أخرى فى الطبعة أن نصل إلى العدد الصحيح .

(٢) الوعل : تيس الجبل ، والأعصم منه ما فى ذراعية أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

(٣) القذفات : جمع قذفة ؛ وهو ما أشرف رءوس الجبال .

(٤) هو مؤيد الدين أبو طالب محمد بن أحمد بن العلقمى وزير المعتصم بالله . وانظر ترجمته فى حواشى الجزء الأول ١ : ٤ .

فى طُلَى الأعداء حُسامهُ فى المعونة عليه أوفرُ قِسطٍ ، وأوفى نصيبٍ وحظٍ؛ إذ كان مصنوعاً لِخزانته ، ومَوْسُوماً بِسمته ؛ ولأنّ همتهُ أعلاها الله مازالت تتقاضى عندهُ بإتمامه، وتحثّهُ على إنجازه وإبرامه ؛ وناهيك بها من همةٍ راضتِ الصَّعبَ الجامح ، وخَفّفتِ العِبء الفادحَ ، ويَسَّرتِ الأمر العسير ، وقطعتِ المَدَى الطَّويل فى الزّمن القصير .

وقد استعملتُ فى كثيرٍ من فُصوله فيما يتعلّقُ بكلام المُتكلمين . والحكماء خاصة ألفاظ القوم ، مع علمى بأنّ العربية لاتُجيزُها ، نحو قولهمْ : المحسوسات ، وقولهمْ : الكلُّ والبَعْضُ ، وقولهم : الصفاتُ الذاتيّةُ ، وقولهم: الجُسْمانياتُ ، وقولهم : أمّا أوّلاً فالحال كذا ؛ ونحو ذلك ممـا لا يخفى عمّنْ له أدنى أُنْسٍ بالأدبِ ؛ ولكنّا استهجنّا تبديل ألفاظهم وتغيير عباراتِهم ، فمن كلّمَ قوماً كلّمهم باصطلاحِهم ، ومَن دخل ظَفارِ حَمَّرَ (١) .

والنسخةُ التى بُنِيَ هذا الشرحُ على نصِّها أتمُّ نسخةٍ وجدتُها بنهج البلاغةِ ، فإنها مشتملةٌ على زياداتٍ تخلو عنها أكثرُ النسخ.

وأنا أستغفرُ الله العظيم من كلّ ذنب يُبْعِدُ من رحمتِه ، ومن كل خاطرٍ يدْعُو إلى الخروج عن طاعتهِ ؛ وأستَشفعُ إليه بمن أنصبْتُ جسدِى ، وأسهرْتُ عينى ، وأعملت فكرى ، واستغرقْتُ طائفةً من عمرى ، فى شرح كلامِهِ ، والتّقرّبِ إلى الله بتعظيمِ منزلته ومقامِه ، أن يعتق رقبتى من النّارِ ، وألّا يبتلينى فى الدُّنيا ببلاء تَعْجزُ عنه قُوّتى ، وتَضعفُ عنه طاقَتى ، وأن يصون وجْهى عن المخلوقين ،ويَكُفَّ عَنّى عادِيَةَ الظالمين ، إنه سَمِيعٌ مُجِيبٌ ، وحَسْبُنا اللهُ وحدهُ وصلواتُهُ على سيدنا محمّدٍ النبيّ وآلِهِ وسلامُه !

﴿ آخر الجُزْء العشرين تمّ الـكتاب ﴾

(ولله الحمد كما هو أهله حمداً دئما لا انقضاء له ولا نفاد له آمين)

---

(١) ظفار : قرية باليمن . وحمر : تكلم بالحميرية ؛ وهو مثل يضرب للرجل يدخل فى القوم فيأخذ بزيهم (الميدانى ٢ : ٣٠٦) .

فهرس الموضوعات

	صفحة
تابع ماورد من حكمه عليه السلام ومختار أجوبة مسائله وكلامه	٣ ـ ٢٥١
المغيرة بن شعبة	٨ ـ ١٠
إيراد كلام لأبى المعالى الجوينى فى أمر الصحابة ، والرد عليه	١٠ ـ ٣٥
عمار بن ياسر وطرف من أخباره	٣٥ ـ ٣٨
نكت فى العقل وما قيل فيه	٤١ ـ ٤٤
فصل فى الاستغفار والتوبة	٥٧ ـ ٦٠
عبد الله بن الزبير وذكر طرف من أخباره	١٠٣ ـ ١٤٩
فصل فى الفخر وما قيل فى النهى عنه	١٥٠ ـ ١٥١
فى مجالس علىّ بن أبى طالب	١٥٣ ـ ١٥٤
اختلاف العلماء فى تفضيل بعض الشعراء على بعض	١٥٥ ـ ١٧٣
فصل فى ألفاظ الكنايات وذكر الشواهد عليها	١٨٧ ـ ٢١٤
حديث عن امرئ القيس	٢١٥ ـ ٢١٧
فصل فيما قيل فى التفضيل بين الصحابة	٢٢١ ـ ٢٢٦
مختارات مما قيل من الشعر فى الشيب والخضاب	٢٣٠ ـ ٢٣٢
نبذ وحكايات حول العفّة	٢٣٣ ـ ٢٤٣
الحكم المنسوبة إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب	٢٥٥ ـ ٣٤٩

مراجع التحقيق فى جميع الأجزاء

إتحاف فضلاء البشر للدمياطى : (حنفى ١٣٥٩) .

إحياء علوم الدين للغزالى : (نشرة المكتبة التجارية) .

أخبار أبى تمام للصولى : (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٦) .

أخبار الحكماء للقفطى (ليبزج ١٩٠٣) .

الأخبار الطوال لابن قتيبة : (عيسى الحلبى ١٩٦٠ م) .

أدب الكاتب لابن قتيبة : (السلفية ١٣٤١) .

أسباب النزول للواحدى : (مطبعة هندية ١٣١٥) .

الاستيعاب لابن عبد البر : (نهضة مصر ١٣٨٠) .

أسد الغابة فى أسماء الصحابة ، لابن الأثير : (المطبعة الوهبية ١٢٨٦) .

الأشباه والنظائر للسيوطى : (حيدر آباد ١٣١٦) .

الاشتقاق لابن دريد : (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٨ م)

الإصابة فى أسماء الصحابة لابن حجر : (نشرة المكتبة التجارية ١٩٣٩ م)

الأصمعيات : (دار المعارف ١٣٧٠)

إعجاز القرآن للباقلانى : (دار المعارف ١٩٥٤ م)

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى : (مطبعة التقدم ١٣٢٣ م ، ومطبعة دار الكتب المصرية [1] ومطبعة الثقافة ببيروت)

الاقتضاب لابن السيد البطليوسى : (بيروت ١٩٠١ م)

الألفاظ المعربة لأدى شير : (بيروت ١٩٠٨ م)

أمالى ابن الشجرى : (حيدر آباد ١٣٤٩)

أمالى القالى : (دار الكتب ١٣٤٤)

---

(١) عند عدم الإشارة للطبعة .

أمالى المرتضى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٤ م)
أمالى اليزيدى : (حيدر آباد ١٣٦٩)
الإمامة والسياسة لابن قتيبة : (مطبعة النيل ١٣٢٢)
إنباه الرواه على أنباه النحاة للقفطى : (مطبعة دار الكتب ١٩٥٠ م)
أنساب الأشراف للبلاذرى : (دار المعارف ١٩٥٩ م)
إيمان أبى طالب : النجف ١٩٥٦ م ـ ضمن مجموعة نفائس المخطوطات)
البداية والنهاية لابن كثير : (السعادة ١٣٢٨)
بغداد ، لأحمد بن طاهر المعروف بابن طيفور : (عزت العطار ١٣٦٨)
البيان والتبيين للجاحظ : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠ م)
تاج العروس للمرتضى الزبيدى : (القاهرة ١٣٠٦) .
تاريخ الطبرى : (الحسينية ، ١٣٢٦ ،دار المعارف)
تاريخ ابن الأثير = الكامل
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى : (مطبعة السعادة ١٣٤٩)
تاريخ المسعودى = مروج الذهب
تاريخ ابن الوردى : (المطبعة الوهبية ١٢٨٥) .
التبيان فى شرح الديوان للعكبرى : (مصطفى الحلبى ١٣٥٥)
تبيين كذب المفترى لابن عساكر : (دمشق ١٣٤٧)
تفسير ابن كثير : (عيسى الحلبى) .
تقديم أبى بكر لابن حجة الحموىّ : (المطبعة الخيرية ١٣٠٤)
تكملة الغرر والدرر للشريف المرتضى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٦٥٤ م) .
تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى : (مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية)
تنزيه الأنبياء ، للشريف المرتضى : (المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٥٢ هـ) .
تنقيح المقال فى أحوال الرجال لعبد الله المامقانى : (طبع العجم ١٣٤٩)

تهذيب التهذيب لابن حجر : (طبع الهند ١٣٢٥)
ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم (مطبعة مدنى سنة ١٩٦٥ م)
الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبي : (طبع دار الكتب)
الجامع الصحيح للترمذى : (بولاق ١٢٩٢)
الجامع الصحيح للبخارى : (مطبعة عيسى الحلبى)
الجامع الصغير للسيوطى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٥ م .
جمهرة أشعار العرب : (بولاق ١٣٠٨)
جمهرة الأمثال للعسكرى ـ على هامش مجمع الأمثال : (المطبعة الخيرية ١٣١٠ هـ)
جمهرة الأنساب لابن حزم : (دار المعارف ١٩٦٢)
حاشية البقرى على متن الرحبية ، فى الفرائض : (طبع مصر سنة ١٣١٠)
حلية الأولياء لأبى نعيم : (مطبعة السعادة ١٩٣٣ م)
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة : (طبعة المكتبة العربية ببغداد)
الحيوان للجاحظ : (مصطفى الحلبى ١٣٥٧)
خزانة الأداب للبغدادى : (بولاق ١٢٩٩)
درة الأسلاك فى دول الأتراك لابن حبيب الحلبى (مصورة دار الكتب رقم ٦١٧٠ ح)
درة الغواص للحريرى : (الجوائب ١٣٥٠)
ديوان الأخطل : (بيروت ١٨٩١ م)
ديوان أبى الأسود الدؤلى ـ ضمن مجموعة نفائس المخطوطات : (بغداد ١٩٥٤ م)
ديوان الأعشى : (فينا ١٩٢٧ م)
ديوان امرئ القيس: (دار المعارف ١٩٥٨ م)

ديوان أوس بن حجر : (دار صادر ببيروت سنة ١٩٦٠ م)
ديوان البحترى : (هندية ١٩١١ م)
ديوان بشار بن برد : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ م)
ديوان بشر بن أبى خازم : (دمشق ١٩٦٠)
ديوان أبى تمام : (دار المعارف بمصر ١٩٥١ م ، بيروت ١٣٢٣ هـ)
ديوان تميم بن المعز : (طبعة دار الكتب)
ديوان جرير : (مطبعة الصاوى ١٣٥٣)
ديوان جميل : (دار مصر للطباعة)
ديوان حاتم الطائى ـ ضمن مجموعة خمسة دواوين : (المطبعة الوهبية ١٢٩٣ هـ)
ديوان حسان بن ثابت : (الرحمانية ١٩٣٩ م)
ديوان الحطيئة : (التقدم بالقاهرة)
ديوان الحماسة : (بشرح التبريزى : مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٣٨ م ، بشرح المرزوقى : لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦١ م)
ديوان حميد بن ثور : (مطبعة دار الكتب)
ديوان ابن حيوس : (المجمع العلمى بدمشق)
ديوان الخنساء : (المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م)
ديوان دعبل الخزاعى : (النجف ١٩٦٢ م)
ديوان أبى داود الإيادى : (بيروت ١٩٥٩ م)
ديوان ذى الرّمة : (كمبرج ١٩١٩ م)
ديوان ابن الرومى : (مخطوطة دار الكتب رقم ١٣٩ ـ أدب)
ديوان زهير بن أبى سلمى : (طبع دار الكتب ١٣٦٣ هـ)

ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس : (مطبعة دار الكتب).
ديوان السرىّ الرفاء : (القدس ١٣٥٥) .
ديوان السموءل : (مطبعة المعارف ببغداد ١٩٥٥ م).
ديوان الشريف الرضى : (مصورة دار الكتب رقم ٢٦٣٢ از ، مطبعة نخبة الأخبار بالهند ١٣٠٦ ، المطبعة الأدبية ببيروت ١٩٠٧ م)
ديوان الشريف المرتضى (تحقيق محمد رشيد الصفار) مطبعة عيسى الحلبى سنة ١٩٥٨ .
ديوان الشنفرى ـ ضمن مجموعة الطرائف الأدبية، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م)
ديوان الشماخ : (السعادة ١٣٢٧) .
ديوان أبى طالب = غاية المطالب
ديوان طرفة بن العبد : (قازان ١٩٠٩ ، الأنجلو ١٩٥٨ م)
ديوان الطرماح : (ليون ١٩٢٧ م)
ديوان العباس بن الأحنف : (مطبعة دار الكتب ١٩٥٤ م)
ديوان عبيد بن الأبرص : (مصطفى الحلبى ١٩٥٧ م)
ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات (بيروت ١٩٥٨ م)
ديوان أبى العتاهية : (بيروت ١٩١٤ م)
ديوان العجاج : (ليبسك ١٩٠٢ م)
ديوان العرجى : (بغداد سنة ١٩٥٦ م)
ديوان عروة بن الورد ـ ضمن مجموعة خمسة دواوين : (المطبعة الوهبية ١٢٩٣ هـ)
ديوان علىّ بن الجهم : (الهاشمية بدمشق ١٩٤٩ م)
ديوان عمر بن أبى ربيعة : (مطبعة السعادة ١٩٦٠ م)
ديوان عنترة بن شداد من مجموعة العقد الثمين : (ليدن ١٨٧٠ م)

ديوان أبى فراس الحمدانى : (بيروت ١٩٤٥ م)

ديوان الفرزدق : (الصاوى ١٣٥٤)

ديوان قيس بن الخطيم : (مطبعة مدنى ١٩٦٢ م)

ديوان كعب بن زهير : (طبع دار الكتب المصرية)

ديوان لبيد : (الكويت ١٩٦٢ م)

ديوان المتنبى - بشرح العكبرى : (مصطفى الحلبى ١٩٣٦ م)

ديوان مجنون ليلى : (دار مصر للطباعة)

ديوان المعانى للعسكرى : (القاهرة ١٣٥٢)

ديوان معن بن أوس المزنى : (مطبعة النهضة ١٩٢٧ م)

ديوان النابغة الجعدى ، بيروت ١٩٦٤ م

ديوان النابغة الذبيانى - ضمن مجموعة خمسة دواوين : (المطبعة الوهبية ١٢٩٣)

ديوان أبى نواس : (العمومية ١٨٩٨ م)

ديوان مهيار الديلمى : (طبع دار الكتب المصرية)

ديوان ابن هانئ الأندلسى : (دار المعارف ١٣٥٢ ، المطبعة الأميرية ١٢٧٤ هـ)

ديوان الهذليين : (طبع دار الكتب المصرية)

الذريعة إلى تصانيف الشيعة لمحمد محسن : (مطبعة النجف ١٩٣٦ م)

الرجال للنجاشى : (طبع العجم ١٣١٧)

رسائل أبى حيان التوحيدى : (دمشق ١٩٥١)

الرسالة القشيرية : (الميمنية ١٣٣٠)

رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفى : (مطبعة النهضة ١٣٤٦)

الروض الأنف للسهيلى : (الجمالية ١٣٣٢)

روضات الجنات لمحمد باقر الخوانسارى : (طبع العجم سنة ١٣٠٤)

الرياض النضرة للمحب الطبرى : (المطبعة الحسينية ١٣٢٧)

زهر الآداب للحصرى : (عيسى الحلبى سنة ١٩٥٣ م)

سر الفصاحة للخفاجى : (الرحمانية ١٩٣٢ م)

سرح العيون فى شرح قصيدة ابن زيدون لابن نباتة : (مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ ، مدنى ١٩٦٣ م)

سقط الزند : (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥ م)

سلوان المطاع فى عدوان الأتباع : (تونس ١٢٧٩)

سنن أبى داود : (مطبعة السعادة ١٩٥٠ م)

السهيلى = الروض الأنف

سير أعلام النبلاء للذهبى : (مصورة دار الكتب رقم ١٢١٩٥ ح)

سيرة ابن هشام : (مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٦ هـ)

الشافى فى الإمامة للشريف المرتضى : (طبع العجم ١٣٠١)

الشاهنامة للفردوسى : (مطبعة دار الكتب المصرية)

شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى : (مكتبة القدسى سنة ١٣٥٠)

شرح شواهد العينى ـ على هامش خزانة الأدب : (بولاق ١٢٩٩)

شرح شواهد المغنى للسيوطى : (المطبعة البهية ١٣٢٢)

شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : (مطبعة السعادة ١٩٤٧ م)

شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحرانى : (طبع العجم ١٢٧٦)

شروح سقط الزند للتبريزى والبطليوسى والخوارزمى : (مطبعة دار الكتب ١٩٤٥ م)

الشعر والشعراء لابن قتيبة : (عيسى الحلبى ١٣٦٤)

شعراء النصرانية : (بيروت ١٩٢٦ م)
شفاء الغليل للشهاب الخفاجى : (المطبعة المنيرية ١٩٥٢ م)
صبح الأعشى للقلقشندى : (طبع دار الكتب)
صحاح الجوهرى : (دار الكتاب العربى سنة ١٩٥٦ م)
صحيح مسلم : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٥ م)
صفة الصفوة لابن الجوزى : (حيدر آباد ١٣٥٦)
صفين لنصر بن مزاحم : (مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦٥)
طبقات ابن سعد (بيروت)
طبقات الشافعية للسبكى : (المطبعة الحسينية ١٣٢٤ هـ)
طبقات الشعراء لابن سلام : (دار المعارف ١٩٥٢ م)
طبقات الشعراء لابن المعتز : (دار المعارف ١٩٥٦)
طبقات الصوفية للسلمى : (دار الكتاب العربى ١٩٥٣ م)
طبقات فقهاء اليمن : (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٧ م)
طبقات النحويين واللغويين للزبيدى : (مطبعة السعادة ١٩٥٤ م)
الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمنى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٧ م)
العثمانية للجاحظ : (دار الكتاب العربى ١٩٥٥ م)
العقد لابن عبد ربه : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٠ هـ)
العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين : (ليدن ١٨٧٠ م)
عقد الجمان للعينى : (مخطوطة دار الكتب ١٥٨٤ تاريخ)
العلويات السبع لابن أبى الحديد : (العجم ١٣١٧)

العمدة لابن رشيق : (مطبعة السعادة ١٩٥٥ م)

عوارف المعارف للسهروردى ـ على هامش الإحياء : (نشرة المكتبة التجارية)

عيون الأخبار لابن قتيبة : (مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣)

عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي : (مخطوطة دار الكتب ١٤٩٧ تاريخ)

غاية المطالب من ديوان أبى طالب بشرح الأستاذ الخطيب : (طنطا ١٩٥١ م)

غرر الخصائص الواضحة للوطواط : (بولاق ١٢٨٤ هـ)

الفاخر للمفضل بن سلمة : (عيسى الحلبى ١٩٦٠ م)

الفاضل للمبرد : (مطبعة دار الكتب ١٩٥٦)

الفائق فى غريب الحديث والأثر : (مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦٤هـ)

الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا : (مطبعة الموسوعات ١٣٤٧)

الفرق بين الفرق للبغدادى : (المعارف ١٣٢٨)

الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى الحديد : (طبع الهند ١٣٠٩) .

فهرست ابن النديم : (ليبسك ١٨٧١ م)

فوات الوفيات لابن شاكر : (مطبعة السعادة ١٩٥١ م)

القاموس المحيط للفيروز آبادى : (المطبعة الحسينية ١٣٣٠ هـ)

الكامل لابن الأثير ـ فى التاريخ : (إدارة الطباعة المنيرية ١٨٤٨هـ)

الكامل للمبرد : (ليبسك ١٨٦٤ م ، نهضة مصر ١٩٥٦ م)

الكتاب لسيبويه : (بولاق ١٣١٦ هـ)

الكشاف للزمخشرى : (مطبعة الاستقامة ١٩٥٣ م)

كشف الظنون لحاجى خليفة : (طبع إستانبول سنة ١٩٤٣ م)

الكناية والتعريض للثعالبى : (مطبعة السعادة ١٩٠٨ م)

اللآلى لأبى عبيد البكرى: (لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ)

لزوم مالا يلزم : (مطبعة الجمالية ١٩١٥ م)

لسان العرب لابن منظور : (المطبعة الأميرية ١٣٠٠ هـ)

لسان الميزان لابن حجر : (طبع الهند ١٣٢٩ هـ)

ماهو نهج البلاغة ، للسيد هبة الله الشهرستانى : (مطبعة العرفان بصيدا)

مجمع الآداب لابن الفوطى : (ترجمة ابن أبى الحديد فى ذيل الجزء الرابع من شرح نهج البلاغة طبعة الحلبى سنة ١٣٢٩ هـ)

المثل السائر لابن الأثير : (مصطفى الحلبى ١٣٥٨ هـ)

مجمع الأمثال للميدانى : (مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٥ م)

مجموعة خمسه دواوين : (المطبعة الوهبية ١٢٩٣)

مجموعة المعانى : (الجوائب ١٣٠١)

المحاسن والمساوى للبيهقى : (نهضة مصر ١٩٦١ م)

محاضرة الأبرار لابن عربى : (مطبعة السعادة ١٩٠٦ م)

محاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى : (الشرقية ١٣٢٦ هـ)

المختار من شعر بشار للخالديّين : (الاعتماد ١٣٥٣ هـ)

مختارات ابن الشجرى : (الاعتماد ١٩٢٥ م)

مرآة الجنان لليافعى : (طبع الهند ١٣٣٤ هـ)

مراصد الاطلاع لعبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٤ م)

مروج الذهب للمسعودى : (مطبعة السعادة ١٩٤٨ م)

المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦٢ م)

المعارف لابن قتيبة : (مطبعة دار الكتب ١٩٦٠ م)

معانى الشعر لابن قتيبة : (طبع الهند سنة ١٩٤٩ م)
معاهد التنصيص للعباسى : (مطبعة السعادة ١٩٤٧ م)
المعتمد لابن رسولا الغسانى : (المطبعة الميمنية ١٣٢٧ هـ)
معجم الأدباء لياقوت : (نشرة دار المأمون ١٩٣٦ م)
معجم البلدان لياقوت : (مطبعة السعادة ١٣٢٣ هـ)
معجم الشعراء للمرزبانى : (عيسى الحلبى ١٩٦٠ م)
معجم ما استعجم للبكرى : (لجنة التأليف ١٣٦٤ هـ)
المعلقات ـ بشرح التبريزى : (مطبعة مدنى ١٩٦٢ م)
مغازى الواقدى : (برلين ١٨٨٢ م)
مغنى اللبيب لابن هشام : (نشرة المكتبة التجارية)
المفردات لابن البيطار : (طبع بولاق)
المفضليات : (دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م)
مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى : (مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦٨ هـ)
مقاييس اللغة لابن فارس : (عيسى الحلبى ١٣٦٨ هـ)
مقصورة ابن دريد : (مصر ١٣١٩ هـ)
الملل والنحل للشهرستانى : (مطبعة مخيمر ١٩٥٦ م)
المنتخب من كنايات الأدباء للجرجانى : (مطبعة السعادة ١٩٠٨ م)
المنتظم لابن الجوزى : (طبع الهند ١٣٥٧ هـ)
المنهاج لابن جزلة الطبيب : (مخطوطة دار الكتب برقم ١٠٧ ـ طب)
المؤتلف والمختلف للآمدى : (عيسى الحلبى ١٩٦١ م)
الموشح للمرزبانى : (السلفية ١٣٤٣)

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى : (مطبعة دار الكتب ١٣٤٨) .

نزهة الألباء لابن الأنبارى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (مطبعة مدنى) .

نسب قريش للمصعب بن عبدالله الزبيرى : (دار المعارف ١٩٥٣ م)

نسمة السحر فى ذكر من تشيع وشعر ، ليوسف بن يحيى الصنعانى : (مصورة دار الكتب رقم ١٣٨٤٩ ح) .

نقائض جرير والفرزدق : (ليدن ١٩٠٥ م) .

النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمنى : (باريس ١٨٩٧ .

نهاية الأرب للنويرى : (طبع دار الكتب) .

النهاية فى غريب الحديث والأثر لأبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى المعروف بابن الأثير (المطبعة العثمانية ١٣١١)

نهج البلاغة ـ شرح محمد أبو الفضل إبراهيم (مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦٣ م)

نوادر أبى زيد : (بيروت ١٣٤٤)

الهاشميات للكميت : (شركة التمدن ١٣٣٠)

الوحشيات (أو الحماسة الصغرى) لأبى تمام ـ دار المعاوف ١٩٦٣

وفيات الأعيان لابن خلكان :) المطبعة الميمنية ١٣١٠) .

VETUS & NOVUM TESTAMENTUM
DEI SUB NUMINE VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY